هدي
السيرة النبوية
في التغيير الاجتماعي

تأليف : حنان اللحام

دار الفكر

www.j4know.com

هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي/حنان لحام.

- دمشق دار الفكر ٢٠٠١.-٨٤٨ص،٢٥سم.

- فيه مصورات توضيحية وخرائط.

isbn:٩٧٨-٩٩٣٣-١٠-٥٠١-٣

١- ٢١٩ ل ح ا ه ٢- العنوان ٣- لحام

ع- ٢٠٠١/٥/٧٤٧

تنوية

نقلت الخرائط والمصورات الواردة في الكتاب من كتابي:

١- أطلس القرآن: أماكن،أقوام،أعلام

٢ أطلس التاريخ العربي الإسلامي

للدكتور شوقي أبو خليل

بإشراف المؤلف وإذن دار الفكر - بدمشق

المحتوى

الباب الأول، الدعوة في مكة

الباب الثاني، تأسيس المجتمع المؤمن في المدينة

الباب الثالث، الإذن بالقتال

الباب الرابع، بين الأحزاب والحديبية

الباب الخامس، صلح الحديبية

الباب السادس: مرحلة ما بعد الحديبية

الباب السابع: مرحلة فتح مكة

الباب الثامن، وفاة النبي (ﷺ)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الإهـــداء

تحيَّة إلى روح النَّبي المصطفى..

وهديَّة أقدِّمها إليه على استحياء مني..

وكلِّي أمل أن تحظى منه بنظرة رضى.. فما كان النَّبي

يردُّ هديَّة قط.. وكان يردُّ التَّحيَّة بأحسن منها..

صلوات الله وسلامه عليه..

حنــــان

مُقدِّمة

كثيرون كتبوا في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ.. حتى إن المؤرخ ديورانت قال: «إن ما يروى عن محمد من القصص قد ملأ عشرة آلاف مجلد»[1]..

قرأت بعض ما كُتب.. وسمعت ببعض ما كتب.. ويبدو أن ما لم أسمع به أكثر وأوفر ومع ذلك لم أرتوِ.. ففي السيرة مواقف سننيَّة لم تأخذ حقَّها من التأمُّل والدراسة. لا تقل عظمة عن الغزوات ولا تأثيراً من المعجزات.. مواقف تمنيت أن يكتب فيها من هو أكثر علماً منّي وأعمق تحليلاً.

كتب الأخ موسى الجناطي - جزاه الله خيراً - (تأملات سننيَّة في سيرة الأولين) فتناول بعض الجوانب.. وانتظرت أن يُكتب أكثر. حتى خشيت أن أموت قبل أن أسجّل ملاحظاتي في هذا المجال.. فلعلها تقدح زناد فكر القادمين لرؤية أفضل وتسخير أعظم في بناء الفرد والأمة الأرقى.. أملاً بتحقيق ما وعد الله: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٣٥/١].

ولا يزال علم الإنسان في ازدياد، وتطوره في ارتقاء، حتى يُتمَّ الله نوره ويعمَّ الهدى والسلام.

فإلى الشباب من عصري.. وإلى القادمين من بعدي..

---

(١) قصّة الحضارة: ويل ديورانت، ٢٢/١٣.

والاختيار، كما أن للصحراء امتيازاً على الحضر، لبعدها عن الترف الذي يسدل ستار اللهو والغفلة على الفكر. بينما الصحراء تفرض حياة الجد والتأمل والكدّ على ساكنيها لتحصيل الكفاف.

وكان العرب بسطاء على الفطرة.. عقولهم صافية لم تشوشها النظريات والفرضيات.. يحبون الأخلاق ويعرفون قدرها وإن لم يلتزموا بها كثيراً.. لم يخوضوا تجربة الدورة الحضارية كالفرس والروم الذين كانت طاقاتهم قد استهلكت، ودخلوا في مرحلة الانحدار والإفلاس. ورحم الله مالك بن نبي الذي شبه العرب في تلك المرحلة بذرة الماء التي لم تدخل بعد إلى الشلال.. فهي تحمل في جوانحها قوة وتوتراً.. بينما ذرة الماء بعد الشلال قد فقدت كل طاقتها، ولا بدَّ من تعريضها لمؤثرات جديدة لشحنها. ولقد كان العربي في ذلك الوقت هو إنسان ما قبل الحضارة.. كالمادة الخام يمكن تصنيعها وتنظيم ما فيها من طاقات.. وأما فارس والروم فقد كانوا في مرحلة ما بعد الحضارة.. كالخردة المستهلَكة المبعثرة.. فلا عجب أن يكون العرب هم المختارون..

وأما الزمان.. فلقد مضى على آخر نبي - في ذلك الحين - ما يقارب ستة قرون (عيسى عليه السلام).. وقد حُرِّفت الأديان وتفرّق أتباعها وتنازعوا حتى عجزوا عن هداية الناس وإنقاذهم.. وبدأت البشرية تدخل سنَّ الرُّشد، وهي بحاجة إلى دين يثبت أقدامها على طريق العلم بعيداً عن الخوارق والشعوذات.. ويخلص الإنسان من الانسحاق بين حجري الرحى المتطاحنين: الفرس والروم.. كي يستعيد كرامته ودوره في الخلافة والكشف والتسخير..

وهكذا هيّأ الله ظروف الزمان واختار المكان المناسب والأمة المناسبة.. وإن قارئ تاريخ تلك الحقبة يحس كأن كل شيء كان في حالة توجُّس وترقُّب.. والناس يتحدثون عن نبي أهل زمانه.. والأرض عطشى لنزول الوحي من السماء.. وإني لأجد في الأخبار التي تتحدث عن سلام الشجر والحجر على النبي ﷺ.. صورة رمزية للظمأ الذي كان يجتاح الأرض.. تلهُّفاً إلى إطلالة نبي.. ورذاذِ وحيٍ من السماء، يرحم الأرض، ويهدي أهلها.

اختيار النَّبي وإعداده

«أدَّبني ربِّي فأحسنَ تأديبي».

أول ما ينبغي الوقوف عنده هو: الوضع الذي كان يتمتع به محمد ﷺ قبيل تكليفه بالدعوة، وما يملك من رصيد - أو رأسمال - يدخل به إلى ميدان التغيير الفكري والثقافي.

الرصيد في النسب

كان محمد ﷺ من أشراف قومه ومن أوسطهم نسباً - أي من أحسنهم نسباً - وقد كانت العرب تقيم للنَّسب وزناً كبيراً[١].

يقول الرسول ﷺ: «إنَّ الله، عزَّ وجلَّ، اصطفى كنانةَ من ولد إسماعيلَ، واصطفى قريشاً من كنانةَ، واصطفى من قريشٍ بني هاشمٍ واصطفاني من بني هاشم»[٢]، في الحديث نرى أهمية الوراثة في تحديد الشخصية.. والوراثة لها جانبان:

١ - وراثة بالنَّسب (الجينات) وهو أمر يحاول العلماء الآن أن يسيطروا عليه لترقية النوع الإنساني وتجنيبه الأمراض والعيوب. (جراحة الجينات).

٢ - وراثة ثقافية فكرية يكتسب فيها المولود أفكار عائلته وأخلاقها.. خيرها وشرّها.

والحديث يصف لنا كيف أعدَّ النَّبي وكيف كُرِّرَ اصطفاؤه مراراً.. في النَّسب والخُلُق.. وتمّ تكرير الاصطفاء عبر أربع مراحل.. حتى كان محمد ﷺ هو صفوة الصفوة من عباد الله خَلْقاً وخُلُقاً..

وإن من نباهة العرب - على الرغم من أُمِّيتهم - أن يلاحظوا أثر النَّسب الحسن في الإنسان فيحترموا صاحب النَّسب الشريف.. لكن غلوّهم في الأمر أفسد المعايير حتى أصيبوا بالكبرياء الفارغة بالأنساب.. وتصدّى النَّبي بتوجيهاته

---

(١) البداية والنهاية: لابن كثير، ٢/ ٢٥٢.

(٢) رواه مسلم.

لعلاج هذا المرض.. «فلا فضلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ ولا لأبيضَ على أسودَ إلا بالتَّقوى».

ولا يزال موضوع النَّسب يضمحل ويتلاشى أمام نمو العلم الإنساني.. إذ يتدخل العلم والتسخير في (صناعة) الإنسان وترقيته ولم يعد للوراثة كبير أثر. وإنما أعطي النَّبي ﷺ هذا الامتياز في النسب؛ لأن هذا ما كان يناسب قومه وعصره.

رصيد نفسي

ولد يتيم الأب، ولم يلبث أن أصبح رضيعاً في بني سعد، فنشأ في الصحراء ودرج فوق رمالها، يستنشق هواءً نقيّاً بعيداً عن ضوضاء المدن وأجوائها الآسنة..

يرى نفسه طليقاً في حضن أرض جرداء صريحة.. مظلّلاً بقبة صافية لا حدود لجلالها.. ولا مثيل لبهاء لياليها.. فكيف لا ينظر ويتأمل.. ويرق ويخشع؟!..

وعاد من الصحراء ليدرك معنى اليتم في الأب والأم والجد.. ذاك الجد العظيم الذي جعلته قريش لها سيداً.. تنتهي إليه المكارم ويلوذ بحكمته المتخاصمون.. فهو الذي أشار على قريش بالرأي السديد عندما أحاط بها أصحاب الفيل.. وهو الذي وقف يومها على باب الكعبة يدعو: «اللهم إنَّ العبد يمنع رحله؛ فامنع رحالك!».

إنه عبد المطلب سيد قريش.. ومن لا ينتشي بأن يكون عبد المطلب له جدّاً..؟

فتح محمد ﷺ عينيه على الدنيا فرأى في عبد المطلب أباً له ملء السمع والبصر يحبه ويحنو عليه، كيف لا؟! وهو يتيم ابنه الحبيب عبد الله الذي فُجع بفقده بعد أن افتداه بمئة من الإبل.. فلم تكد عينه تقر بنجاته حتى عاجلته المنية..

وكم من مرة قفز فيها محمد ﷺ إلى فراش جده الذي يتصدر فيه مجلس عشيرته فيهمُّ الأعمام بزجره عن مكان سيد قريش.. لكن عبد المطلب ينهاهم ويقول بحنوٍّ: دعوا ابني.. فإن له شأناً.

لقد كان يتوسَّم فيه النبل والسيادة ويمنحه من الحب ما لم يمنح أولاده.. لكن الجدَّ مضى.. وكاد قلب الطفل ينفطر، وهو يتلفَّت حوله باحثاً عن مخرج من طوق اليتم الذي أحاط به..

فيسرع العم أبو طالب إليه فيضمه إلى صدره وعياله..

وكان أبو طالب وريث أبيه في الشرف والسيادة، لكنه كان كثير العيال قليل الرزق.. وما أسرع ما أحسَّ الفتى المرهف بضيق ذاتِ يدِ عمِّه.. فبادر إلى العمل والكسب مساعدةً لعمِّه. وكان أول ما اشتغل به هو: رعي الغنم. «وما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم». تعليماً له كيف يرعى مصالح الناس، وكيف يسوسهم، يحنو على ضعيفهم، ويرعى مريضهم، ويسعى في حاجاتهم، يهديهم إلى الطريق، ويردّهم عن التشتُّت والضياع، ويحرسهم ويحميهم من الذئاب؟!..

لقد كان تدريباً رائعاً على اليقظة والحكمة والرحمة وبذل الجهد المخطط.

فلما شبَّ عمل مع عمِّه في التجارة.. ورأى كيف يتعامل الناس بالدرهم والدينار، حيث تظهر معادنهم وأخلاقهم، وتعلم كيف يخوض الأسواق فلا يتلوث، ويصافح الدنيا فيدخل طاهراً ويخرج طاهراً، يتعامل مع الناس ويشاركهم فيعرف أخلاقهم وطبائعهم، ويحظى بحبِّهم واحترامهم حتى يُعرف بينهم بالصدق والأمانة، لقد تعلَّم كيف يدخل في التجارة ويخرج ناجحاً محبوباً دون أن يكون خبّاً[(١)] ولا مغفَّلاً..

وهكذا علَّمه ربُّه وأدبه، أربعين عاماً بين الناس، تألم كما يتألمون، وذاق الفقر مع الفقراء، وعرف الكدّ في الأسواق، عاش حياة الناس، وعرف معاناتهم ومشاكلهم وعيوبهم وفضائلهم.. لم يترفع يوماً عليهم، ولما أصبح ميسور الحال بعد زواجه من خديجة.. كلَّم عمَّه العباس في مساعدة عمِّه أبي طالب فأخذ العباس أحد أولاد أبي طالب إلى عياله، وأخذ محمد ﷺ علياً فضمَّه إلى عياله. ولم يقصِّر في مدِّ يد المساعدة لكل من قصده واستعان به.. وتأمل كيف تعرض

(١) الخبُّ: الغشاش المخادع.

سورة الضحى هذه المعاناة ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٩٣/٦-٨]. وكل هذا ضروري لمن ينذر نفسه لإنقاذ الناس وهدايتهم إلى الخير.. وأستحضر هنا الزعيم الهندي (غاندي) الذي كان يمشي حافياً ويقطع المسافات مشياً على الأقدام، ويقول: كيف أنقذ شعبي إن لم أذق معاناته؟

الرصيد الفكري

كان محمد ﷺ يرى قومه يعبدون الأصنام، لكنه لم يقلّدهم، ولم يسعَ إلى صنم أو يعظّمه حتى في طفولته، لقد أبى عليه عقله أن يذعن لدين آبائه ويقدس مالا يضر ولا ينفع - ويدل على ذلك حواره مع الراهب الذي رآه - قرب الشام عندما كان مع عمه في تجارة إلى الشام.. سأله الراهب واستحلفه باللات والعزى أن يصدقه.. فقال: لا تسألني بهما، فما أبغضت شيئاً بغضي لهما.

ثم شبَّ واشتدَّ عوده وقد عرف بين قومه بالحكمة ورجاحة العقل.. حتى إنهم فرحوا بتحكيمه عندما اختلفوا في حمل الحجر الأسود في أثناء تجديدهم لبناء الكعبة.. وقد كادوا يقتتلون وكل منهم حريص على الاستئثار بشرف حمله ونقله، حتى اقترح أحدهم أن يحكّموا بينهم أول داخل عليهم.. فدخل محمد ﷺ فقالوا: «هذا الأمين رضينا. هذا محمد»، واستطاع بذكائه وحكمته أن يقترح حلًّا يرضي الجميع ولا يخسر فيه أحد. فطرح ثوبه ووضع الحجر عليه وجعلهم يشتركون في شرف حمل الحجر الأسود برفع الثوب من جميع أطرافه[1]. وأجمل ما في الأمر أنه ﷺ كان يستخدم ذكاءه وحكمته في الإصلاح بين الناس وفي ردّهم إلى الخير والصلاح.. وما كل ذكي يفعل هذا.. وما كل من يتصدى للإصلاح يعمل فكره، ويشحذ ذكاءه للوصول إليه.

ومحمد ﷺ رغم رفضه لأصنام قومه فإنه لم يهاجم أو ينتقد أحداً على عبادتها - قبل أن ينزل عليه الوحي - ولم تتح له فرصة للاطلاع على الأديان

(١) راجع البداية والنهاية، ٢/٣٠٣.

الأخرى التي كان يدين بها الناس؛ لأنه كان أُمّياً، ولقد صرفه الله عن ذلك حتى لا يُتّهم بأنه اقتبس دينه من الآخرين، لكن مسألة الدين الحق كانت شغله الشاغل خاصة عندما بلغ الأربعين، فقد أصبح ينطلق بعيداً عن الناس إلى غار حراء يتحنَّث ويتفكَّر باحثاً عن الرَّب الحقيقي.. هناك كان يقضي الأيام والليالي، وكأنه أحسَّ بأنه ينبغي أن يتفرغ لإيجاد حلّ لهذه المعضلة، وإلا فمن يمكن أن يعطيه الجواب؟!

وجاءه الجواب أخيراً بنزول الوحي عليه وهو في سنّ الأربعين؛ وهو سنّ نضج الشباب، بعيداً عن طيش الحداثة وعن سنّ الهرم والانحدار فلا يتهم بالتخريف والاختلاط، لقد كان سنّاً مثالياً يتألّق فيه الفكر وتنضج فيه الخبرات وتتوازن عنده الشخصية.

وخلاصة القول: أن محمداً ﷺ جاءته الرسالة وقد امتاز برصيد فكري نقي قوي راسخ بشهادة من حوله، الذين كانوا ينظرون إلى حكمته بكثير من التقدير.

الرصيد الأخلاقي والاجتماعي

وفي هذا المجال كان محمد ﷺ قمة سامقة لا يدانيها في الطهر أحد.. فقد عرف بالطهارة فلم يقارب فاحشة قط، ولم يشرب خمراً في حياته، ولم يعرف لهو الشباب، ولم يقارب ما كان يتهافت عليه شباب مكة من مجالس اللهو والغناء، مستقيماً عفيفاً سليم الطوية لم يدنسه مكر أو غدر، حتى لقب في قومه بالصادق الأمين[١]..

استأمنه قومه على تجارتهم.. ثم استودعوه كل ما يخشون ضياعه من نفيس أموالهم، واستمروا في وضع الودائع عنده حتى بعد أن أعلن رسالته وناصبوه

(١) وحديث شق صدره في طفولته وغسله وتطهيره فيه دلالة رمزية على تحصينه من الآثام إعداداً لتلقي الوحي.

العداء، وبقي هذا شأنهم إلى يوم هجرته ﷺ.. حيث تآمروا على قتله وحاصر شبابهم بيته.. وهو يفكر في خطة يرد لهم فيها ودائعهم دون أن يقع في أيديهم.. ويا لها من لوحة عجيبة فريدة.. المشركون يتآمرون لقتل أشد الناس أمانة فيهم.. أموالهم بين يديه وهم على ثقة تامة بأنه لن يغدر بهم..!! فمن الطبيعي ألّا يقدروا على قتله؛ لأنهم مهزومون أمامه من الداخل.

ويصف عبد الله بن عمرو بن العاص موقفاً اجتمع فيه أشراف قريش في الحجر وقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل - يقصدون النبي - سفَّه أحلامنا، وعاب ديننا.. فبينما هم في ذلك طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مرَّ بهم طائفاً بالبيت فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجهه ﷺ فمضى.. فلما مرَّ بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفتها في وجهه فمضى.. فمرَّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها. فقال: «أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح».

فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم من رجل إلا وكأنما على رأسه طائر وقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك.. لَيقول: انصرف أبا القاسم راشداً فما كنت بجهول[(١)]. فانظر إلى هذه الشهادة من أعدائه: ما كنت بجهول؟!

وكان حلو المعشر عطوفاً محبوباً إلى درجة عظيمة.. وصفته خديجة رضي الله عنها عندما عاد إليها خائفاً من نزول الوحي عليه.. «كلا والله لا يخزيك الله أبداً!! إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلَّ - أي تعطي صاحب العيال ما يعينه - وتكْسب المعدوم - أي تبادر إلى إعطاء الفقير فتكسب حسنته قبل غيرك - وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[(٢)].

---

(١) رواه البيهقي.

(٢) البداية والنهاية، ٣/ ٧.

وقصته مع زيد بن حارثة مشهورة. إذ أغارت خيل على قوم زيد فأخذوه وكان طفلاً فبيع في الأسواق حتى وصل إلى خديجة بنت خويلد.. فرآه النبي ﷺ فأبدى إعجابه به فوهبته خديجة للنبي ﷺ. وانطلق أبوه يبحث عنه ويسأل حتى وصل إلى محمد ﷺ فعرض عليه أن يشتريه منه.. لكن محمداً ﷺ ترك الخيار لزيد في أن يذهب مع أبيه أو يبقى عنده. فاختار زيد البقاء مع محمد ﷺ ولو كان عبداً..!! فأعتقه النبي ﷺ وتبنّاه[١]. كل ذلك حدث قبل البعثة.

وذكر أبو سفيان أنه خرج في تجارة لأشراف قريش. فلما عاد إلى مكة ما بقي رجل من الذين أرسلوا فيها أموالهم إلا جاءه وسأله عن تجارته.. إلا محمد ﷺ، فإنه جاءه مسلماً مرحباً بقدومه.. وانصرف، ولم يسأل أبا سفيان عن أمواله التي أرسلها معه.. فأعجبَ أبا سفيان تصرفُه هذا وأدهشه. وصدق الله تعالى في وصفه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩]، لقد كان ﷺ يعرف كيف يملك القلوب. لأنه يعرف كيف يحب.. وكيف يعبر عن حبه للآخرين.. يهتم لهمومهم، ويتودَّد إليهم، ولا يبخل بكلمة طيبة لكل أحد..

رصيد العصبية القبلية

لقد كان قانون الحماية في أرض العرب نصرة العشيرة والقبيلة، وهو أمر أكّدته الأشعار والأمثال العربية: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» حتى عدَّله الرسول ﷺ بأن نصرة الظالم: منعه من الظلم..

وعلى هذه العصبية ضبطت حياة العرب، وحصل الفرد على الضمان الأمني أما من كان غريباً أو لم تكن له عشيرة قوية فقد كان يلجأ إلى أحد السادة الأشراف ويدخل في جواره[٢]. فيقوم السيد بإشهاد الناس على ذلك ويحصل الغريب أو الضعيف على الأمن.

---

(١) المرجع السابق، ٤/ ٢٥٤.
(٢) وهذا شبيه باللجوء السياسي الآن إلى دولة أخرى.

لكنني سأتابع رغم قصوري.. وسأقف عند ما رأيته من محطات في سيرته ﷺ ظهر فيها أثر هذا الرصيد الثمين من صفات النبي.. في التفكير والتخطيط.. في الخلُق المشعّ المبهر للآخرين.. في الحب والرفق بالآخرين.. في مهارته في التعامل الودي والتأثير الإيجابي.. في معرفته بوضع الرجل المناسب في المكان المناسب.. في علاجه التربوي والنفسي لأخطاء أصحابه.. في علاقته الحميمة مع ربّه التي كانت تمثل له الراحة والاسترواح والشحن المستمر الذي يعينه على الاستمرار في إبداعه للمجتمع الجديد.

وسأنطلق مع الأحداث بحسب ترتيبها التاريخي فهذا أسهل من الفرز والتصنيف بحسب المواضيع. ولعلي أختم البحث بفهرس فيه تصنيف للأحداث بحسب الصفات المميزة للنبي صلوات الله وسلامه عليه.

وما أحلى.. وما أعظم الدخول إلى هذه الشخصية التي أثنى عليها ربّها أجمل ثناء: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٦٨/٤].

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/١٢٨].

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ٣/١٥٩].

إنه الإبحار في محيط لا نكاد نبصر نهاياته..

فمعذرة منك يا رسول الله على الضحالة والقصور.. فأنت أعظم من كل بحث يكتب فيك.. صلوات الله وسلامه عليك.

* * *

الباب الأول

الدعوة في مكة

١- نزول الوحي

٢- بدء التكليف

٣- معجزات النبي ﷺ

٤- خطة المرحلة المكية في الدعوة

٥- عالمية الفكرة تتمثل في الهجرة

٦- بداية تمكن الدعوة وظهورها

٧- قريش تلجأ للمقاطعة

٨- عام الحزن

٩- النبي ﷺ يتطلع إلى خارج مكة

١٠- هجرة النبي ﷺ

١- نزول الوحي

اختيار الزوجة الشريكة للنبي ﷺ

ها هي خديجة النبيلة الحكيمة تتوسم في محمد ﷺ نموذجاً فريداً للرجولة المتعالية عن السّفساف والمطامع والخرافات.. لقد أعرضت عن كل الطامعين الخاطبين لودّها.. لكنها تسعى إلى محمد ﷺ رغم فقره لروعة جوهره ومخبره.. فقد جربته في ميدان قلما ينجح فيه المتبارون.. ميدان التجارة والتعامل بالدرهم والدينار فأتاها بالربح الوفير مما يشهد له بالمهارة والذكاء والأمانة.

ومحمد ﷺ في أوج شبابه - في الخامسة والعشرين - تعرض عليه أرملة تكبره بأعوام.. فما الذي جعله راغباً بها.. ثم سعيداً بجوارها.. ثم متحسراً على فراقها إلى آخر حياته؟! يحس أن كل زوجاته لم يعوضنه عنها ولم يملأن فراغها..؟! لم يكن محمد ﷺ طالب متعة.. ولم تكن المرأة في نظره متاعاً جنسياً زائلاً.. كما ينظر إليها الجاهليون.. بل كان يتطلع إلى قلب حنون دافئ كقلب الأم.. ألم يُحرم صغيراً من صدر أمه..؟! كان يبحث عن فكر حرّ حكيم يشاركه تأملاته وبحثه عن الحق والخير. كان يبحث عن سَكَن وسند يفزع إليه وسط هذه الجهالة الجاهلية.. فمن يكون السند غير خديجة الشريفة في قومها الحكيمة في تصريف شؤون أهلها وأموالها.. الطاهرة في سائر أمورها.. الدافئة في حبّها وحنانها.. المعطاءة التي تجود بكل ما تقدر عليه على من حولها..؟! إنني أرى أن

خديجة ﵂ أيضاً قد اختيرت بعناية لتكون الشريكة الكاملة للنبي في حمل هذه الرسالة والقيام بدور البناء والتغيير. وما كان يمكن لأي واحدة من أمهات المؤمنين أن تقف وقفتها أو تؤدي دورها..

إن قارئ السيرة يرى أن خديجة ﵂ أحسّت أن محمداً ﷺ سيكون له شأن فاختارت أن تكون رفيقة دربه.. تحتضن نبوغه وتحيطه بكل ما تقدر عليه من رعاية ودعم.. وتريحه من السعي وراء الرزق.. فقد كان مهموماً بضلال قومه يكثر التأمل بحثاً عن الحق.. فاحترمت رغبته.. أصبح ينطلق إلى الجبال ويمكث الأيام والليالي في غار حراء متفكراً يقلب وجهه في السماء يرجو الهداية إلى الطريق القويم.. فرضيت أن ترعاه من بعيد.. ترسل له الزاد مع خدمها ولا تتعرض له بلوم أو عتاب على غيابه عن أسرته.. فهي ربة الأسرة إن غاب.. وهي الودّ والأنس والسكن إن عاد.. تراقبه مبهورة بما وصل إليه من صفاء في النفس حتى أصبح لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[١].. حتى إذا جاء اليوم الذي نزل فيه الوحي عليه ﷺ بأول سورة اقرأ، رجع بها يرجف فؤاده إلى خديجة هاتفاً زمّلوني.. زمّلوني.. فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع.. وأقبل عليها يخبرها الخبر وبثها ما يعاني: يا خديجة «لقد خشيت على نفسي»..

في هذه اللحظات تجلّت عبقرية خديجة ﵂.. ومما لا شك فيه أن الحدث العظيم قد فاجأها، ولكن الحبيب حائر خائف على نفسه من الجن والجنون.. وهي برجاحة عقلها تؤمن أن الصفات الطيبة لا تثمر إلا طيباً مباركاً.. ها هي ذي تنتصب كصرح شامخ راسخ يستند إليه النبي وقد ألقى عنه أحماله: «كلا والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق».

لله درك يا أم المؤمنين ما أعظم يقينك في هذه اللحظات العصيبة! وما أسرع ما أسعفتك حكمتك حين فكرت بالتحقق من حقيقة ما حدث بالرجوع إلى من عنده علم من الكتاب!.

---

(١) البداية والنهاية: لابن كثير، ٣/٢

وانطلقت خديجة بمحمد ﷺ إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان امرأً قد تنصَّر في الجاهلية، ويكتب الكتاب العبراني، شيخاً كبيراً قد عمي.. فقالت: يابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يابن أخي ماذا ترى؟! فلما أخبره النبي، قال ورقة: «هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى. يا ليتني فيها جذعاً - أي ليتني كنت شاباً - ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك» فقال ﷺ مدهوشاً: «أوَمخرجيَّ هم»؟! فقال: «نعم. لم يأتِ أحد بمثل ما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً»(١)، لكنه مات بعد ذلك بقليل.

أقف عند «أوَمخرجيَّ هم»؟ نعم لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي.. إنها سنة التاريخ نفهم منها مقدار صعوبة معارضة الثقافة السائدة في الأمة، وصعوبة التحرر من الآبائية. ولعل إدراك النبي لهذا الأمر منذ البداية قد جعله مستمراً في الدعوة لا يكلُّ ولا يملُّ.. يحزن على قومه ويعذرهم «فإنهم لا يعلمون». يتألم لما يعانون من صعوبات في إدراك الأفكار والقيم الجديدة حتى يكاد يهلك نفسه حناناً وإشفاقاً ..﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ١٨/٦].

إن صعوبة التحرر من الثقافة السائدة (الآبائية) تقتضي من الداعي صبراً طويلاً.. واقتداراً كبيراً على عرض الأفكار بأساليب منوعة مع استعمال أفضل الوسائل الحديثة للإعلام والتبليغ والتأثير في النفوس.

بعض السُّنن التي يشير إليها هذا الحادث:

١ - أهمية التمحيص في اختيار الزوج أو الزوجة بالنسبة للداعي كي يكون شريكاً مقتدراً في القيام بالدعوة بدلاً من أن يكون مُعوِّقاً.

٢ - نظرة الرسول السامية إلى المرأة ودورها «النساء شقائق الرجال».

(١) البداية والنهاية، ٣/٣.

٣ - المرأة يجب أن تدرك دورها ورسالتها، وتقوم بدعم الدعوة والتضحية في سبيلها.

٤ - الرجوع إلى أهل العلم والاختصاص عند الأزمات.

٥ - إن تغيير الأفكار أمر صعب وعلى الداعي أن يتحلى بالعلم والصبر والحب للناس حتى يقدر على الاستمرار في الدعوة إلى الخير.

٦ - أهمية (الاعتزال والعودة) في حياة الداعي.. فهو يعيش بين الناس ويعرف أفكارهم ومعاناتهم ويتألم لهم.. ثم يعتزلهم ليفكر ويتأمل في الحلول والأفكار الجديدة للإنقاذ.. ولقد ظل الاعتكاف سنة في حياة النبي ﷺ وعلّمه لأصحابه ولو مرة في كل عام في العشر الأخير من رمضان.

ولقد تحدَّث المؤرخ توينبي عن ذلك عندما ذكر النخبة المبدعة وكيف تمارس (الاعتزال والعودة) للوصول إلى أفكار جديدة تنقذ الناس من ذلّهم وتخلُّفهم.. وذكر محمد إقبال أن الفرق بين الصوفي والنبي: أن الصوفي عندما يحصل على (الكشف) لا يعود إلى قومه.. ولكن النبي يرجع إلى الناس ليأخذهم معه[1].. والعلماء والدعاة ورثة الأنبياء.

❋ ❋ ❋

صدمة (اقرأ)

وأعود إلى حديث نزول الوحي لأتأمّل هذا الحدث العظيم في تاريخ البشرية.

تقول عائشة رضي الله عنها: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبّب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه - وهو التعبُّد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء. فجاءه الملك فقال: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ قال: فأخذني

(١) شرح ذلك في كتابه تجديد التفكير الديني - فصل روح الثقافة الإسلامية، ص١٤٢.

فغطّني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني. فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني. فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٩٦/١-٥]. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زملوني زملوني...»[١].

وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه تبدّى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه..[٢].

ها نحن نرى في الحديث مقدار الصفاء النفسي الذي تنامى في قلب محمد ﷺ واكتمل حتى أصبحت أحلامه نبوءات لما سيحدث في الواقع. ثم حبّب إليه الاعتزال والانفراد عن الناس للتأمل والبحث عن الحق.

ثم يفاجأ بالزائر الغريب يقطع عليه خلوته ويطلب منه طلباً أشد غرابة..!! اقرأ..!! لكنني لا أقرأ..!!

وإذا بالزائر يضغط عليه ويشد حتى يبلغ منه الجهد مبلغه.. ويكرر الطلب الغريب ثلاث مرات.. والنبي ﷺ في معاناة من صدمة (اقرأ).

كيف يقرأ وهو أمّي؟! ولماذا يقرأ؟! وماذا يقرأ؟!

إنه مثل معظم قومه لم يتعلم القراءة ولم يكن يقيم لها وزناً..!!

هؤلاء الأمّيون الذين كانوا يقفون على هامش حضارتي فارس والروم.. لكنهم يحملون نفوساً صافية كأنها المواد الخام التي لم تصنّع ولم تستخدم بعد.. كيف يمكن وضع هؤلاء على أول طريق الحضارة؟!

---

(١) رواه البخاري.

(٢) المصدر نفسه.

كيف يتم تفعيل هذه الطاقات المهدرة.. وتحريك هذه العقول (الخام)..؟!

إنها صدمة (اقرأ) التي حيَّرت محمداً ﷺ في البداية.. وأذهلت قومه لفترة..

ما علاقة القراءة بالشرك والظلم الذي وقع فيه قوم محمد ﷺ؟!

وهل القراءة هي الخلاص؟! وهل الدين الذي يبحث عنه محمد ﷺ مفتاحه القراءة وهو أمر قد أهمله العرب؟! وهل القراءة والدين والحضارة أمور متلازمة مترابطة كحلقات السلسلة؟!

لا شك بأنها أسئلة قد حيَّرت رسول الله ﷺ في البداية.. وجبريل يضغط ويشد ليؤكد أهمية الأمر.. وأنا منذ طفولتي أقرأ هذا الخبر وأتعجب.. لماذا يضغط جبريل ويشد حتى يُجْهد النبي ﷺ؟!

لكنني الآن أدرك مقدار صعوبة صدمة اقرأ على الأُمّيين.. وأن أمر القراءة في غاية الأهمية ويحتاج إلى بذل كل الجهد ..﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ فعلى قدر القراءة تنال الأمم من كرم الله سبحانه[1]. وإن إهمال القراءة لآيات الله في الكتاب، وفي الآفاق والأنفس، هو موطن الداء في تخلُّف الأمم، ووقوعها في الظلم والشرك.

هل عرفت أيها الحبيب المصطفى سرّ المشكلة الآن؟!

لا بد أن رسول الله ﷺ بعد أن شدَّ عليه الملك ثلاث مرات حتى أجهده.. قد أدرك خطورة الأمر.. وأن الدين الذي فيه خلاص قومه.. بل وخلاص العالم أجمع مفتاحه القراءة.. بمعناها الواسع الشامل، القراءة الواعية للآيات؛ الآيات المكتوبة والآيات المنظورة.. آيات الواقع: الأسباب والعواقب.. لكننا نحن قد ضيّعنا هذا المفتاح.. ونحن الآن أقل الناس قراءة في هذا العالم. ولهذا نقف في أسفل سلّم الحضارة.. لا نُسأل ولا نستشار في أي أمر من أمور العالم.. بل نؤكل، ويُلعب بنا من قِبَل الأمم التي قرأت أكثر منا..

---

(١) راجع كتاب (اقرأ) للأستاذ جودت

فيا أمة (اقرأ).. أما آن الأوان لنعود إلى (اقرأ)..؟!

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦/٥٧].

وفتر الوحي كي يترك لمحمد ﷺ فرصة ليستوعب الصدمة.. وعانى النبي ﷺ كثيراً من صدمة الوحي.. وصدمة اقرأ.. ومن فتور الوحي..

وقد مرَّ بلحظات كان يخشى فيها على نفسه الجنون.. وأن تكون هذه الرؤى مجرد أوهام.. حتى إنه صلوات الله عليه كاد أن يلقي بنفسه من شواهق الجبال لينهي حيرته وألمه.. وهو من هو في العلم والحكمة والحلم.. مما يدل بوضوح على شدة معاناته.. وهنا كان يظهر له جبريل ويثبته ويطمئنه.. اصبر يا محمد فإنك رسول الله.. إنك المختار لإنقاذ العالم.. فلا تخف ولا تحيَّر.. فلن تلبث الدنيا أن تنصاع لهديك ويعترف العقلاء بفضلك.. وستنطلق الحناجر وتلهج الألسنة بالصلاة عليك تعبيراً عن الحبِّ المتدفق من القلوب.. وستبقى (صلوات الله وسلامه عليك) تتردد في جنبات الكون إلى يوم الدين..

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٩٣/ ٥].

* * *

٢ - بدء التكليف

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ﴾

لما نزلت هذه الآية بدأ النبي بإنذار من حوله دون أن يجهر بالدعوة على الملأ.. وأسلمت معه خديجة ثم علي بن أبي طالب وزيد بن حارثة وأبو بكر الصِّدِّيق الذي كان أول داعية للإسلام بعد النبي، فقد كان رئيساً في قريش مكرماً وصاحب مال.. وكان محبَّباً متألفاً يبذل المال في طاعة الله ورسوله. فأسلم على يده: الزبير بن العوام وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف. وأسلم عدد من العبيد والموالي منهم: عمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد ثم ياسر (أبو عمار).

الجهر بالدعوة بعد ثلاث سنوات

وبعد ثلاث سنوات - على الأرجح - أمر النبي بالجهر بالدعوة. ونزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢١٤].. فأتى النبي الصفا فصعد عليه ثم نادى «يا صباحاه» - وهي عادة العرب إن أرادوا تبليغ أمر هام فيما يبدو - فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء وبين رجل يبعث رسوله. فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب.. يا بني فهر.. يا بني كعب.. أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم.. صدقتموني؟». قالوا: نعم. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً

لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله عز وجل: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١١١/١](١).

وفي رواية أخرى أنه عند نزول الآية دعا قريشاً فقال ﷺ: «يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلالها»(٢).

وفي رواية أيضاً أنه أمر علياً أن يصنع طعاماً ويجمع له بني عبد المطلب - وكانوا قرابة أربعين رجلاً - فلما انتهوا من الطعام والشراب أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم فبدره أبو لهب يحذرهم من أن يسحرهم محمد ﷺ بكلامه - مما يدل على تأخر هذا الخبر عن إنذاره لقومه على الصفا والله أعلم - فتفرقوا ولم يكلمهم ﷺ. فكرر الدعوة ثانية ففعل أبو لهب مثل ذلك فكررها ثالثة.. فقال لهم بعد الطعام: «يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به. إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة»(٣). وفي رواية أنه ﷺ قال: «من يقضي عني ديني، ويكون خليفتي في أهلي؟».. وكأنه خشي أن يبلغ بهم التكذيب والغضب أن يقتلوه.. فسكت القوم.. فقام علي رضي الله عنه فقال: أنا يا رسول الله(٤).

وبعد محاولات عديدة من النبي ﷺ مع عشيرته.. صار ينطلق إلى نوادي قريش يدعوهم إلى الإيمان.. ولم يستجب له من عشيرته إلا علي بن أبي طالب.

ونجد عمّين من أعمامه تميّزا بموقفين متعاكسين: أبا لهب الذي كذبه ومشى خلفه ﷺ فكلما دعا أناساً إلى الإيمان صدهم. وأبا طالب الذي لم يؤمن

---

(١) رواه الإمام أحمد.
(٢) أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة.
(٣) رواه البيهقي وابن جرير.
(٤) رواه الإمام أحمد.

بمحمد ﷺ لكنه عطف عليه وحماه وبذل له من الحب والرعاية كل ما يقدر عليه. وهو ما يشير إلى بداية التفكك لنصرة العشيرة عصبية لها.. وبداية التناصر على أساس التقارب الأخلاقي.. وأبو طالب كان في أخلاقه قريباً من الإيمان.. لكنه لم يستطع التحرر من (الآبائية).. ولعل في ذلك حكمة إلهية كبيرة فلو أن أبا طالب دخل في الإسلام لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولما هابوه ولعجز عن حماية ابن أخيه محمد ﷺ.

بعض السُّنن المستفادة:

١ - ثقة أعداء النبي بصدقه. فهم حين سألهم: هل تصدقوني؟ قالوا: نعم.. حتى إن عتبة في حوار له مع رؤساء قريش قال لهم: قد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب!!.

٢ - استخدام النبي لرصيده من الصدق قبل أن يعرض دعوته.

٣ - التلطُّف في الدعوة إذ يدعوهم إلى الطعام ليجعلها مناسبة لعرض ما عنده.

٤ - صبره على عمه أبي لهب الذي يعوقه عن التبليغ ويفسد عليه خطته.

٥ - الأقربون أولى بالمعروف وعلى الداعي أن يبدأ بهم في الدعوة إلى الخير.

٦ - قدرة الداعي على التحرر من التعصب للأهل فالمسؤولية فردية أمام الله يوم القيامة حيث تسقط الروابط والشفاعات والامتيازات.

٧ - الداعي لا يكره أحداً على سماع دعوته.

٨ - هذه العلاقة الفريدة بين محمد ﷺ وعمه أبي طالب تمثل فيها (احترام الآخر) إلى أقصى حد. وكل منهما كان يمثل (لا إكراه في الدين)..

فموقف النبي كان: أحبك رغم أنني أخالفك في الدين.

وموقف أبي طالب كان: أحبك وأحميك رغم أنني أخالفك في الدين والرأي..

لقد سبق الثائر الفرنسي الذي قال عند الثورة الفرنسية: أخالفك في الرأي لكنني مستعد لأن أموت في سبيل حقك في أن تعبر عن رأيك.

فها هي قريش تأتي إلى أبي طالب لتشتكي من محمد ﷺ: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا.. فبعث إلى رسول الله ﷺ فجاء فقال له: «يابن أخي إن قومك قد جاؤوني وقالوا كذا وكذا فأبقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك». فظن رسول الله أن قد بدا لعمه فيه وأنه خاذله ومسلمه، وضعف عن القيام معه فقال ﷺ: «يا عم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه» ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى. فلما ولى قال له حين رأى ما بلغ الأمر به: يابن أخي.. فأقبل عليه. فقال: «امض على أمرك وافعل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً»[1].

❋ ❋ ❋

وبدأت المحنة والفتنة

سعت قريش مراراً إلى أبي طالب تشتكي محمداً ﷺ وعرضوا عليه أن يعطوه أجمل شبابهم على أن يسلمهم محمداً.. فأبى وقال: «بئسما تعرضون علي أتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني فتقتلونه..؟!». فاشتدَّ غيظهم، ووثبت كل عشيرة منهم على من فيها من المسلمين يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم.. وتعرضوا للنبي بالأذى أثناء طوافه بالكعبة وحاول أبو جهل قتله.. فمنعه الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ

---

(١) البداية والنهاية، ٣/٤٢.

مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٧]. حتى إنه كان يصلي مرة عند الكعبة، ورهط من قريش قعود فقالوا: من يأخذ هذا السلا (وهو ما يخرج مع ولد الناقة كالمشيمة لولد المرأة) فيلقيه على ظهره. فقام عقبة بن أبي معيط فألقاه على ظهره. فلم يزل ﷺ ساجداً حتى جاءت فاطمة فأخذته عن ظهره.. وهم يتضاحكون حتى يميل بعضهم على بعض[١]..

وكان يصلي مرة في حجر الكعبة فأقبل عليه عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقاً شديداً. فأقبل أبو بكر ﷺ حتى أخذه بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم»[٢]؟

واعترض أبو جهل مرة لرسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه، وشتمه، ونال منه ما يكره. فذكر ذلك لحمزة بن عبد المطلب فأقبل إلى أبي جهل وضربه بالقوس فقام رجال من قريش ليدافعوا عن أبي جهل وقالوا لحمزة: ما نراك إلا قد صبوت؟ قال حمزة: ومن يمنعني وقد استبان لي أنه رسول الله.. فوالله لا أنزع فامنعوني إن كنتم صادقين. فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة والله لقد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً[٣].

فلما رأى أبو طالب شدة أذى قريش لمحمد ﷺ والمؤمنين قام فدعا بني هاشم وبني عبد المطلب أن ينضموا إليه في حماية الرسول فأجابوه إلا أبا لهب. وثبت حمزة على إسلامه ونصرته لرسول الله ﷺ.

بعض السُّنن المستفادة:

١ - صبر الرسول ﷺ واحتماله الأذى وتصميمه على الاستمرار في الدعوة.

---

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) رواه البخاري.

(٣) البداية والنهاية، ٣/ ٣٣.

٢ - إيجابية الداعي في نصرة الحق فأبو بكر لا يقف عاجزاً، ولا يدع حماية النبي لله الذي وعد بعصمته من الناس. فإن إرادة الله تتحقق من خلال أعمالنا.

٣ - «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله»؟! إنه موقف في منتهى القوة.. فالداعي ليس له ذنب ولا تهمة ولا تحوم حوله أي شبهة.. كل ما أسخطهم عليه أن يقول ربي الله.. فمتى كان ذلك جرماً يؤاخذ عليه الإنسان؟!

ينبغي أن يحرص الداعي على بياض صفحته.. ويبتعد عن الشبهات حتى لا يعطي الفرصة للمكذبين أن يلفقوا التهم.. وحتى يبقى ذنبه الوحيد هو أنه يعلن الطاعة لله وحده ويصرح بأفكاره إن هذا الأسلوب هو الذي يعطي العصمة للرسول في مواجهة أذى المكذبين.. إنها سنّة الله في الحماية.

٤ - أدرك أبو جهل أن حمزة قد أخذته الحمية لابن أخيه إلى درجة أنه أعلن إسلامه.. فحاول أن يتراجع ويسكن غضب حمزة حتى تبرد حميته.. ولو أنه لم يتخذ هذا الموقف فلربما تسبب بدخول أعمام آخرين في الإسلام حمية.. فموقفه هذا فيه مكر أكثر من أن يكون اعترافاً بالذنب.

٥ - لعبت العصبية والحمية للقرابة دوراً في حماية الدعوة والداعية في ذلك الوقت. وابن خلدون اعتبر العصبية عنصراً هاماً في قيام الدول. ولكن العصبية قد تحولت من القرابة والنسب إلى الأخوة في الأفكار والقيم في كثير من الأمم.

والداعي يتحرر من العصبية التي تجعله ينصر قومه في كل أمر حقاً كان أم باطلاً.. وتبقى النصرة في الحق وعلى الحق.

فهل تحررنا من العصبية الجاهلية..؟!

إن التعصب الأعمى للإخوان في الدين ينفر الناس من الدين.. فإذا كانت العصبية الجاهلية للعشيرة (منتنة) كما وصفها النبي فإن العصبية للإخوان في الدين تفقد المبدأ مصداقيته.. فلا أحد [illegible] أنقذي نفسك من النار

لا أغني عنك من الله شيئاً». وحين كان العرب يرددون (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) أقرّهم النبي على أن تكون نصرة الظالم أن تردّه عن ظلمه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ١٣٥].

ما أشد ظمأ الإنسان إلى عصر تسقط فيه العصبيات والمحسوبيات والامتيازات.. ويسود فيه العدل والحب والرحمة.

ولا يدرك ذلك إلا من فهم معنى التوحيد لله حق الفهم.

٦ - وها نحن نرى أن أذى المشركين له آثار إيجابية.. فهو يستهوي القلوب إلى الإسلام ويحرك النفوس الكريمة لتتعاطف مع المظلوم.

* * *

٣- معجزات النبي ﷺ

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ١٧/٩٣]

انتهى عصر المعجزات

اجتمع علية من أشراف قريش عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض: «ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه» فبعثوا إليه: «إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك» فجاءهم ﷺ سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء، وكان حريصاً يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم.. حتى جلس إليهم فقالوا: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك، إنا والله لا نعلم رجلاً من العربِ أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة.. فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك.. وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك - يقصدون تابعاً من الجن - بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك؟ فقال ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم. فإن

تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».. قالوا: فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً ولا أقل مالاً ولا أشد عيشاً منا فسل ربَّك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، ومنهم قصي بن كلاب فإنه كان شيخاً صدوقاً فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل؟ فإن فعلت ما سألناك وصدقوك صدقناك، وعرفنا منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول». فقال لهم ﷺ: «ما بهذا بعثت إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوا علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» قالوا: «فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك فسل ربّك أن يبعث لنا ملكاً يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، ونسأله فيجعل لنا جناناً، وكنوزاً، وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك عما نراك تبتغي، فإنك تقوم في الأسواق، وتلتمس المعايش كما نلتمسه حتى نعرف فضل منزلتك من ربّك إن كنت رسولاً كما تزعم» فقال لهم: «ما أنا بفاعل ما أنا بالذي يسأل ربّه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا، والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» قالوا: فأسقط السماء علينا - كما زعمت أن ربك إن شاء فعل - فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل، فقال: «ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك».. وقال قائلهم: «لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً».. فقام عنهم رسول الله ﷺ وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة.. فقال: «يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل.. فوالله لا أومن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى منه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بنسخة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول..».

وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً أسفاً[١]..

وذكر الله في القرآن بعض ما طلبه المشركون من معجزات ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٠-٩٣]. والله يعلم أن هؤلاء المكذبين لن يؤمنوا ولو جاءتهم المعجزات ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١١١]. بل سيقولون: سحرنا محمد.

ولعل النَّبي خطر له أو تمنى لو يقدم لهم آية عسى أن يؤمنوا فقال له الله سبحانه: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٣-٨]. وقال أيضاً: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٠].

لماذا رفض القرآن أسلوب المعجزات؟

١ - إن المعجزة فيها قهر على الإيمان ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ ولكن الله يريد من الإنسان أن يختار الإيمان اختياراً.

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ٥٠.

٢ - إن من لم يقتنع بالدين قد يجد للمعجزة تعليلاً آخر.. فيقول سحر أو قدرات فائقة.. والمكذبون في الماضي لم تنفعهم المعجزات.

٣ - المعجزة آنية التأثير وينتهي تأثيرها بانتهاء زمانها - مثل عصا موسى لم يبق لها وجود - بينما الاقتناع الفكري يمكن في كل عصر.

٤ - آن للبشرية أن تصل إلى مرحلة الرشد فتترك التعلق بالخوارق لتفهم سنن الله في الآفاق والأنفس. ولهذا جاء رد القرآن على طلب الآيات.. انظروا في آيات الأرض والسماء.. وانظروا في التاريخ وما حصل للمكذبين من قبلكم..

إن معجزة محمد ﷺ هي هذا القرآن الباقي إلى يوم الدين والذي يخاطب العقل بالدليل العلمي.. ويقول له: إن سنن الله وقوانينه في الكون والحياة هي أعظم من المعجزات والخوارق.. وإن محمداً ﷺ لم ينتصر على قومه بالخوارق لكنه مشى حسب سنن الله في الدعوة إلى الله وانتصر بالسنن.. وهذا ما أحاول إظهاره وإخراجه من بين الركام المكتوب عن الحبيب محمد ﷺ.. والذي اهتم بالخوارق والمعجزات والقتال والغزوات.

ولقد تحدث الفيلسوف محمد إقبال عن هذه الناحية فقال: «إن محمداً ﷺ ورسالته يقف بين العالم القديم والعالم الحديث.. وكأنه مرحلة انتقالية - من حيث الانتقال التدريجي من فكر: الخرافة والتقليد والمعجزات.. إلى العقل الاستدلالي السنني».. والقرآن حين نزل كان فوق مستوى معاصريه في المنهج العلمي السنني الذي نصّ عليه وطالب به قرّاءه.. وهذا ما يجعلنا نفهم حدوث بعض المعجزات في حياة النبي ﷺ لكنها لم تكن هي الحجة البالغة التي آمن بسببها الناس. والنبي ﷺ كان يعلن بكل تواضع عندما يطلبون منه المعجزات أنه مجرد إنسان أرسله الله لتبليغ دعوته.. ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

إنني أرى أن حدوث بعض المعجزات الثانوية على طريق النبي جاء مسايرة للمرحلة الراهنة مثل انشقاق القمر، وأحياناً تأتي تكريماً للنبي وإيناساً له مثل الإسراء والمعراج.. وأحياناً تلبية لدعاء وتفريجاً لهمّ، مثل نبع الماء من بين أصابعه ﷺ عندما كانوا بحاجة ماسة إلى الماء.

لكن الخط الأساسي في منهج القرآن وسنة النبي ﷺ هو المنهج العلمي ومراعاة سنن الله، وإن من يقوم بالأسباب تأتيه نتائج كالمعجزات.. أليست معجزة أن تخرج شجرة باسقة ذات ثمار رائعة من بذرة تافهة وضعت في التراب؟!

إن من يجعل حياة النبي ﷺ كتلة من المعجزات فقط يسيء إلى رسالته ويحرمنا من الاقتداء به.. فكيف نبني مجتمعاً ربّانياً كما بنى إن كان قد بناه بالمعجزات..؟! ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٣]. إن الله جعل محمداً ﷺ بشراً يفكر ويحس كما يفعل البشر، يفرح ويحزن كما يحصل للبشر، ينتصر وينهزم كما يحدث لسائر البشر، كي يتعلم منه الناس.. ولكي يكون منهجه ميسراً للبشر.. وإن سنن الله لا تنصر الأنبياء وحدهم وإنما تنصر كل من تأسى بهم ..﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٠] .﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٢٤/ ٥٥].

* * *

٤- خطة المرحلة المكية في الدعوة

﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

﴿لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾

نماذج من فتنة المؤمنين في مكة

وثبت كل قبيلة من قريش على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش في رمضاء مكة.

كان بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة. فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول: «صبراً آل ياسر موعدكم الجنة»[(١)]. وعن مجاهد قال: أول شهيد كان في الإسلام استشهد أمُّ عمار، طعنها أبو جهل بحربة في قلبها.

وكان أبو جهل، الذي يغري بهم في رجال من قريش، إن سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة، أنبه وخزاه وقال: تركت دين آبائك؟ لنسفهن حلمك ولنفلين رأيك، ولنضعن شرفك، وإن كان تاجراً قال: والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به».

---

(١) البداية والنهاية، ٣/٥٨ - ٥٩.

وأما أبو بكر فكان ذا مال فجعل يشتري من يعذب من المسلمين من الأرقاء، ويعتقهم.. اشترى بلالاً من أمية بن خلف الذي كان يعذبه بالجوع، والعطش، والصخرة على صدره، وهو يكتوي برمضاء الظهيرة.. واشترى عامر بن فهيرة، وأم عميس، وزنيرة التي أصيب بصرها ثم رده الله تعالى لها - بعد أن نجحت في الابتلاء حين قالوا لها: «حرمتك آلهتنا من عينيك» فقالت: بل إنه أمر الله» - والنهدية وابنتها[١]. وكانت سيدتهما بعثتهما تطحنان لها فسمعها تقول لهما: «والله لا أعتقكما أبداً. فقال أبو بكر: حل يا أم فلان - أي تحللي من يمينك - فقالت: أنت أفسدتهما فأعتقهما. فقال: فبكم هما؟ قالت: بكذا وكذا. قال: قد أخذتهما وهما حرتان. أرجعا إليها طحينها. قالتا: أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها؟ قال: ذلك إن شئتما..!!».

فتأمل كيف تشربت هاتان الجاريتان روح الإسلام حيث رغبتا في الإحسان إلى السيدة التي عذبتهما.. إنه الحب والإحسان الذي يملأ قلب المؤمن بالله.. إنه قلب يستمتع بالحب والعطاء..

وعُذّب خباب بن الأرت من سيدته ومن المشركين.. يقول خباب: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد ببردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله؟ (يقصد: أن يخفف عنا العذاب) فقعد وهو محمر وجهه فقال: «قد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه. ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق.. ما يصرفه ذلك عن دينه. وليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله عز وجل والذئب على غنمه. ولكنكم تستعجلون»[٢].

---

(١) البداية والنهاية، ٣/٥٨ - ٥٩.

(٢) رواه البخاري.

ولقد تمنى عدد من المسلمين في مكة لو يسمح لهم بالقتال لينتقموا لكرامتهم من المشركين، وظنوا أنهم بذلك يوقفون أذى المشركين ويجبرونهم على الاعتراف بوجود النبي والمسلمين، وتركهم يمارسون حقهم في اختيار الدين الذي يريدون، ولكن النبي منعهم بتوجيه من الله سبحانه والآيات توضح ذلك من مثل ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٤/٧٧]. فهي تذكر أنهم منعوا من القتال ثم أمروا به.. وقبل أن يؤمروا به.. جاء الإذن به ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٢٢/٣٩-٤٠]، والآية تدل بوضوح على أنه لم يسمح لهم بالقتال إلا بعد أن أخرجوا من ديارهم، أي بعد الهجرة.. ولم يكن لهم ذنب إلا أن قالوا ربّنا الله.. فلم يمدوا أيديهم بأذى لأحد. ولم يحدث في مكة إلا حادث واحد شذّ عن قاعدة (كفّ اليد) في مكة.. وهو أن سعد بن أبي وقاص كان مع نفر من المسلمين يصلون بشعاب مكة إذ ظهر عليهم بعض المشركين فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم. فضرب سعد رجلاً من المشركين بلحي (أي عظم الفك) جمل فشجه فكان أول دم أهريق في الإسلام[1].

فلنعد لتأمل التعليمات التي صدرت للمسلمين في مكة لتكون خطة للدعوة.

* * *

خطة الداعي في المرحلة المكية

١ - ﴿لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩/٩٦] الطاعة لله وليست للكافر.

٢ - لا تكره أحداً على دينك ولا تسمح للآخر أن يكرهك على دينه.

٣ - اصبر على الأذى ولا ترد عليه بالمثل.

٤ - ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٤].

التزم المسلمون في مكة بهذه الخطة وكانت التعليمات واضحة إلى درجة أنه لم يحدث إلا حادث واحد تجاوز فيه سعد هذه التعليمات. ونرى أن الصحابة في مكة قد تشربوا روح الإحسان تأسياً بمحمد ﷺ الذي قابل كل الأذى بالصبر والعفو والدعاء لقومه بالهداية.

هل المرحلة المكية ماضٍ انتهى أمره؟

في كل عصر يمكن أن نجد أمماً تمرُّ بهذه المرحلة التي أبرز سماتها:

١ - أن الحاكم لا يؤمن بالله ولا يحكم بشرعه.

٢ - وأكثرية شعبه لا تؤمن بالله ولا ترجع إلى حكمه في حياتها.

٣ - قد يوجد فيهم أفراد قلة يؤمنون بالله ودينه.

أما نحن فإننا نعيش في عالم إسلامي انحرف عن دينه ولم يأخذ منه إلا نتفاً من هنا وهناك. فلا هو مجتمع مسلم قائم بشرع الله.. ولا هو مجتمع جاهلي كافر بالله ورسله. لكنه مجتمع مرحلة الفتن التي حدثنا عنها رسول الله ﷺ وأوصانا بأن نلتزم الصلاح والإصلاح فيها ضمن تعليمات محددة نستطيع استخلاصها مما يلي[1]:

(١) تناولت هذا الموضوع عند تفسيري للآية ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ في شرحي لسورة النساء.

- عن مسلم بن أبي بكرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنها ستكون فتنة يكون المضطجع فيها خيراً من الجالس، والجالس خيراً من القائم، والقائم خيراً من الماشي، والماشي خيراً من الساعي» قال: يا رسول الله فما تأمرني؟ قال: «من كانت له إبل فليلحق بإبله ومن كان له غنم فليلحق بغنمه..» قال: فمن لم يكن له شيء من ذلك؟ قال: «فليعمد إلى سيفه فليضرب بحده على حرة - صخرة - ثم لينجو ما استطاع النجاة»[١].

- وعن عوف بن مالك: أنه سأله عن شرار الأئمة: يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيوف؟ فقال: «لا ما أقاموا فيكم الصلاة. وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يداً من طاعة»[٢].

- وعن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال فقلت: يا رسول الله أرأيت إن دخل عليَّ بيتي وبسط يده ليقتلني؟ فقال ﷺ: «كن كابن آدم» وتلا يزيد - أحد رواة الحديث - ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾[٣].

❀ ❀ ❀

خطة الداعي في مرحلة الفتن

١ - استقم على أمر الله ولا تطع في معصية الله.

٢ - لا تخرج على الحاكم الظالم بالسلاح.

٣ - اصبر على الأذى وادع إلى الحق.

٤ - أتلف سلاحك ولا تدافع عن نفسك به مع رجال الحاكم.

---

(١) سنن أبي داوود، ٤٠٩٠. ورواه مسلم بزيادة (انظر ٢٠٠٤ من مختصر صحيح مسلم).
(٢) رواه مسلم.
(٣) سنن أبي داوود، ٤٠٩١.

إنها الخطة نفسها المطبقة في المرحلة المكية: الدعوة إلى الله وعدم الطاعة في المعصية والصبر على الأذى وكف اليد.

❀ ❀ ❀

ميزات هذه الخطة

١ - إنها خطة اقتصادية لا تكلف إلا أقل ما يمكن من الخسائر في الأرواح والأموال. والصراط المستقيم هو الذي يوصل إلى الهدف بأقل وقت وجهد ومال. ولنا أن نقارن بين ضحايا المرحلة المكية الذين لم يتجاوزوا الاثنين.. وبين ضحايا الثورات المسلحة ضد الظلم..

٢ - إن الأحقاد والثارات بين أفراد الأمة الواحدة هي أسوأ نكبة تصاب بها الأمة وتؤدي إلى نشوب الحروب الأهلية. لكن خطة النبي السلمية لا تسمح بظهور هذه المشاعر بل تطفئ الغضب والكراهية.

٣ - إنها تستقطب حبّ الناس وعطفهم.. لأن من فطرة الإنسان أن يتعاطف مع المظلوم.. وسنرى أثر ذلك في حوادث كثيرة من السيرة.

٤ - إن إيقاف العنف وقعقعة السلاح يوفر جواً صافياً من كل المشاعر السلبية للحوار الفكري الإيجابي ويعطي الفرصة للدعوة أن تعرض وتنتشر.

٥ - إن رفع الإكراه في الدين عن الناس لا يتم باستعمال القوة والسلاح بل برفض أسلوب القوة ونبذه والصبر على ذلك.. وانظر إلى ما يجري في العالم في الماضي والحاضر.. هل استطاع العنف المسلح أن يقضي على الظلم والعدوان..؟ قد يقمعه لفترة.. ريثما يستعد المعتدي والظالم لضربة أقوى.. إنه الدوران في حلقة مفرغة. ولن ينتهي الظلم والعدوان إلا بتغيير ما في الأنفس من أفكار ومشاعر خاطئة.. ولهذا علمنا الله ﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٤].

٦ - إن هذه الخطة تخرج الناس من شريعة الغاب إلى المجتمع الإنساني الذي يسوده القانون الأخلاقي. حيث الكلمة للحق والخير وليس للعضلات والسلاح. وهنا يتمكن المجتمع من توفير الأمن لأفراده.

٧ - إن من يبيح لنفسه العنف يعطي الفرصة للآخر بأن يستبيح العنف وهو ما قاله عيسى (عليه السلام) لمن رفع السيف يريد الدفاع عن عيسى عندما جاؤوا للقبض عليه: «أغمد سيفك فإنه من يرفع السيف به يقتل»(١).

٨ - إن هذه الخطة لا تسمح لأعداء الإسلام بأن يستروا تحت مظلة القضاء على الفتنة والإرهاب.. فهؤلاء الدعاة مسلمون لا ذنب لهم إلا أن يقولوا ربُّنا الله.. وعندها تكشف الغشاوة عن أعين الجماهير وتتعاطف مع الدعوة والدعاة وتتجرأ على الدخول بها.

٩ - إن الصبر على الأذى يربي النفوس ويمحصها لله. وقد جعل الله الابتلاء سنة للحياة الإنسانية ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/١-٣]. فهو الذي يعطي النفس الإنسانية خبرات لا غنى عنها لمن يتصدى لدور الخلافة في الأرض ولا يدرك فداحة الظلم إلا من عانى منه، ولا بد للمصلحين من خوض غمار معاناة الناس حتى يدركوا مشاكلهم، ويسعوا إلى إنقاذهم ورفع الآصار عنهم، وهذا ما أراد موسى أن ينبه بني إسرائيل إليه عندما قالوا: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩/٧].

وأخيراً نحن الآن في عالم بدأ يدرك أهمية الكفاح السلمي في علاج المشاكل. وقد ظهر مفكرون وزعماء مصلحون ينادون باللاعنف والعصيان المدني في معارضة الظلم من أمثال غاندي ومارتن لوثر كينغ وهنريك ثورو... وكُتبت أبحاث في ذلك. وقد اطلعت على بحث مترجم بعنوان (سيكولوجية

(١) إنجيل متى، الفصل ٢٦، صفحة ٥٢ - العبارة بالمعنى نفسه.

اللاعنف)[١] يبين فيه فعالية موقف اللاعنف في التأثير والتغيير لخصمه.. إذ إنه لا يرد على العدوان بالمثل، ويصبر، ولا يخضع لإرادة المعتدي بل يعارضه بهدوء.. ويحب أيضاً. وكما قال غاندي: «علمني الاختبار أن الكياسة أصعب جزء من أجزاء اللاعنف. والكياسة هنا لا تعني مجرد اللطف الخارجي في الحديث المعد لمناسبة من المناسبات ولكن اللطف السليقي والرغبة في الإحسان إلى الخصم».[٢]

نموذج من أدب الحوار:

«أفرغت يا أبا الوليد»؟

كان عتبة بن ربيعة - وهو سيد حليم في قريش - جالساً في نادي قريش ورسول الله جالس وحده في المسجد[٣] فقال عتبة: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا - وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون - فقالوا: بلى يا أبا الوليد فقم إليه وكلّمه، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يابن أخي إنك منا حيث قد علمت من الشطر في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم. فاسمع مني حتى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا الوليد أَسْمَعُ» قال:

- يابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً..

وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك..

---

(١) رينشارد غريغ.
(٢) قصة تجاربي مع الحقيقة: المهاتما غاندي، ص٥٠٣.
(٣) يقصد راوي الحديث المسجد الحرام.

وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا..

وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه.. حتى إذا فرغ عتبة قال له النبي ﷺ:

- «أفرغت يا أبا الوليد؟»، قال: نعم. قال: «اسمع مني» قال: أفعل.

- فقال رسول الله ﷺ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [فصلت: ٤١/١-٤].. فمضى رسول الله ﷺ يقرؤها فلما سمع بها عتبة أنصت لها وألقى بيديه خلفه أو خلف ظهره معتمداً عليها ليسمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجدها ثم قال: - «سمعت يا أبا الوليد؟».

قال: سمعت. قال ﷺ: «فأنت وذاك».

ثم قام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلسوا إليه قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني والله قد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر ولا الكهانة. يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه. فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ. فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم[(١)].

وفي رواية أن عتبة قال لهم: أنذرنا صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فأمسكت بفيه، وناشدته الرَّحِم أن يكف. وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب».

هذه القصة تبهرني لما أرى فيها من صبر النبي وأدبه في الحوار مع الآخر.

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ٦٣.

١ - فهو لا يكف عن تكريم محاوره بأن يناديه (يا أبا الوليد) وليس باسمه عتبة.

٢ - وهو هادئ حليم حتى وهو يسمع تلك التهم الشنيعة التي يوجهها إليه.

٣ - وهو مقبل على خصمه يسمع له ولا يقاطعه.. حتى إذا سكت يتأكد منه «أفرغت يا أبا الوليد»؟

٤ - عندها يقدم ما عنده ويختار سورة مناسبة للموقف تعرض أسس الدعوة الجديدة. وموقف الكفار منها.. والتذكير بما حلّ بمن كذب في الماضي بالأنبياء.. من جيرانهم (عاد وثمود) وكانوا يسمعون بخبرهم ويمرون عليهم في تجارتهم.

٥ - يختم كلامه دون تعليق منه أو تعنيف للآخر.. وإنما يقول له بكل احترام «أنت وذاك».. قد سمعت ولك كل الحرية في اختيار ما يناسبك..

هذا الحوار الهادئ الكريم.. يرغم الآخر على الموضوعية والإنصاف ويفتح العقول والقلوب أمام الدعوة..

ومع ذلك فإن حمية الجاهلية وثقل آصار الآباء.. تحول بينه وبين أن يذعن للحق وينضم إليه.

لكن التاريخ يسجل شهادته للقرآن.. ورأيه السديد الذي عرضه على قومه، لكنهم لم يسمعوا له.

* * *

عرفوا.. وكفروا؟! كيف نزيح العوائق؟

خرج أبو جهل وأبو سفيان والأخنس بن شريق ليلة ليسمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلساً ليستمع

منه. وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً. ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا. فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقالوا: لا نبرح حتى نتعاهد ألّا نعود. فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها. فقال الأخنس: وأنا والذي حلفت به. ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت!! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نسمع به أبداً ولا نصدقه. فقام عنه الأخنس بن شريق(١).

وجاء الوليد بن المغيرة إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن. فكأنه رقّ له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: «يا عم! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لِمَ؟ قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتعرض ما قبله - أي تتعرض لعطائه - قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له. قال: وماذا أقول؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن

(١) البداية والنهاية، ٣/ ٦٤.

عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى وإنه ليحطم ما تحته. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: قف عني حتى أفكر فيه، فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثر يأثره عن غيره. فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: ٧٤/١١-١٩].

نرى من خلال الأخبار عدة عوائق تحول بين السادة من قريش وبين الإسلام رغم إدراكهم أنه حق. منها:

١ - صعوبة مخالفة القوم والعشيرة.. (ضغط التيار العام وصعوبة التصدي).

٢ - الحرص على الزعامة والسيادة.

فكيف نساعد الناس على إزاحة هذه العوائق؟!

القرآن أكد على المسؤولية الفردية في الآخرة.. وأن كل الناس سيتخلون عنك في الآخرة ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ٧٠/١١-١٤].

والقرآن ينذر الوليد بن المغيرة بأنه لن يقف معه أحد أمام الله ليدافع عنه ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١)﴾.

ورسول الله ﷺ حاول أن يتألف قلوب السادة والأشراف من قريش وغيرها من قبائل العرب.. بتخصيص عطايا جيدة لهم من الغنائم.. (بعد الفتح) كما أنه أرضى هذه النزعة عند أبي سفيان يوم الفتح حين قال له: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل بيته فهو آمن ومن دخل البيت الحرام فهو آمن» ولم يكن في ذلك ضير على الدعوة ولا يضرُّ بمصالح الأمة، وإنما هي كلمة ترضي نزعة السيادة في نفس أبي سفيان.

إن الرغبة في التفوق والسبق أمر تصبو له النفوس الكريمة وتتطلع إليه، فلا ضير في ذلك لكن الإسلام غيَّر المقياس الذي يوزن به الناس لإبراز المتفوق.. فلم يعد الحسب والنسب والمال والجاه.. بل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣]. وبهذا المقياس أصبح بلال - الذي كان عبداً - من سادات الصحابة.. ولقد حثَّ النبي ﷺ الناس على السبق والتفوق في تعلم القرآن وحمله وتعليمه.وحملته هم الذين حفظوه علماً وعملاً.. وليس من قرأه فلم يجاوز حنجرته؛ «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»(١).

وفي القرآن والأحاديث الشريفة توجيه آخر في هذا المجال.. وهو أن تكون الأعمال خالصة لله، وأن يكون حكم الله عليك أهم من رأي الناس فيك، «إنما الأعمال بالنيات»(٢)، و«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(٣)، وهو علاج طويل المدى للتفاخر الجاهلي.

نخلص من ذلك إلى أن النبي ﷺ عالج هذه القضية كالتالي:

١ - علاج مؤقت: فيه نوع من التسكين والتألف للقلوب ريثما تسكن الحمية الجاهلية ويتاح للإنسان أن يكفر بموضوعية بعيداً عن الأهواء.

٢ - علاج طويل المدى يركز على جانبين:

أ- غرس الإخلاص لله وحده في النفس الإنسانية بحيث تهتم بحكم الله فيها أكثر من رأي الناس.

ب- تغيير المقياس الذي يتفوق الناس ويتميزون على أساسه. فقد دخلت اعتبارات جديدة في التسابق والتنافس على المكانة. مثل: السبق إلى الإسلام - التقوى - مقدار العلم والحفظ للقرآن..

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

ولقد احتاج هذا العلاج إلى وقت طويل حتى تتشربه النفوس.. ثم إنه بعد انقضاء عهد الراشدين لم يُدعَّم بالعناية الكافية فانتكست النفوس.. وعادت قيم الجاهلية في كثير من الجوانب إلى مركز الصدارة.

❁ ❁ ❁

٥- عالمية الفكرة تتمثل في الهجرة

هل نتشبث بالأرض؟

لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية، بمكانه من الله عز وجل ومن عمه أبي طالب. وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى الحبشة؟ فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه» فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم. فكانت أول هجرة في الإسلام، وكان أول من خرج من المسلمين عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ(١).

فأبطأ على رسول الله ﷺ خبرهما، فقدمت امرأة من قريش فقالت: يا محمد قد رأيت ختنك ومعه امرأته. قال: «على أي حال رأيتهما؟» قالت: رأيته قد حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة وهو يسوقها. فقال: «صحبهما الله، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام»(٢). وقيل: إن خروجهم كان في رجب سنة خمس من البعثة وإن أول من هاجر منهم اثنان وثمانون رجلاً سوى نسائهم وأبنائهم(٣).

---

(١) البداية والنهاية، ٣/٦٦-٦٧.

(٢) المصدر نفسه.

وخرج جعفر بن أبي طالب ومعه امرأته أسماء بنت عميس وولدت له بالحبشة عبد الله بن جعفر، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة.

حوار جعفر مع النجاشي عن الإسلام

فهل سكتت قريش عن هذا الأمر وتركت المسلمين في حالهم؟!

بل دبَّرت أمراً لاسترجاع هؤلاء المسلمين إلى مكة لتتابع قريش فتنتهم رغبة منها في القضاء على الإسلام الذي خيل إليها أنه يهدد وجودها وزعامتها للعرب، فأرسلت رجلين بهدايا للنجاشي لأداء تلك المهمة. عن ابن مسعود قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحواً من ثمانين رجلاً فيهم عبد الله بن مسعود وجعفر وعبد الله بن عرفطة وعثمان بن مظعون وأبو موسى (الأشعري) فأتوا النجاشي. وبعثت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية. فلما دخلا على النجاشي سجدا له ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ثم قالا له: إن نفراً من بني عمنا نزلوا أرضك، ورغبوا عنا وعن ملتنا. قال: فأين هم؟ قالا: في أرضك، فابعث إليهم، فبعث إليهم. فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم، فاتبعوه، فسلم ولم يسجد. فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله عز وجل. قال: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث إلينا رسولاً ثم أمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله عز وجل، وأمرنا بالصلاة والزكاة. قال عمرو: فإنهم يخالفونك في عيسى بن مريم. قال: فما تقولون في عيسى بن مريم وأمه؟ قال: نقول كما قال الله: هو كلمته وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسسها بشر ولم يفرضها ولد. قال: فرفع عوداً من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما سوى هذا، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده. أشهد أنه رسول الله وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بَشَّر به عيسى بن مريم. انزلوا حيث شئتم. والله

لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه. وأمر بهدية الآخرين فردَّت إليهما[١].

ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدراً، وزعم أن النبي ﷺ استغفر له حين بلغه موته.

وعن أبي موسى (الأشعري) قال: بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة. فوافقنا جعفر بن أبي طالب ﷺ، فأقمنا معه حتى قدمنا فوافينا النبي ﷺ حين افتتح خيبر فقال النبي ﷺ: «لكم أنتم أهل السفينة هجرتان»[٢].

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ حين مات النجاشي: «مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلّوا على أخيكم أصحمة»[٣].

* * *

قراءة فكرية لتلك الأحداث

بعد استعراض هذه الأخبار حول الهجرة إلى الحبشة نعود للتأمل:

١ - كان محمد ﷺ قلباً ينبض بالحب والحنان وصدق الله تعالى حيث قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨/٩]. فانظر إلى ألمه لما لحق بالمؤمنين من تعذيب.. وانظر إلى محمد ﷺ الأب وانشغاله على ابنته وزوجها.. لقد كان ﷺ يصرح ويعبر عن عواطفه وحبّه وإشفاقه.. وهذا أمر مهم جداً في الداعي فهو يحس بمعاناة الناس، ويعبر عن عواطفه نحوهم، ولا يستنكف من ذلك أو يعده

(١) البداية والنهاية، ٦٩/٣.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري.

غير لائق بنبي يتصدى لتعليم الفكر الصحيح.. صلوات الله عليه وسلامه - لقد كان إنساناً في منتهى الدفء العاطفي مع فكر نيّر موضوعي لا تحرفه العواطف عن الحق والعدل. «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، وفي خطبة الوداع حين أسقط كل ربا الجاهلية القديم قال ﷺ: «وإن أول ربا أضعه ربا العباس» - عمه -.

وفي سيرته كلها - صلوات الله وسلامه عليه - نعجب كيف يتلاحم الفكر النيّر الموضوعي مع الدفء العاطفي الجياش من قلبه..!!

٢ - كان أهل بيت النبي ﷺ يعانون كما يعاني سائر المؤمنين. صحيح أن الله عصم نبيه، وحماه من الناس ليبلغ الدعوة، ولكن أذية المشركين قد نالته وأهل بيته، فقد أمر أبو لهب ولديه أن يرجعا عن خطبتهما لابنتي النبي ﷺ بعد أن أخذ رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الله. وها هي رقية تهاجر مع زوجها عثمان ليكونا أول من يهاجر لله بعد لوط. وينبغي للداعي أن يحرص على ألا يكون وأهله فوق القانون في شيء ولا فوق المعاناة التي يتعرض لها المؤمنون.

٣ - لم تكن الهجرة فراراً من المعركة الفكرية بل كانت توسيعاً لدائرتها.. ولابد للدعوة العالمية من أن يخرج دعاتها لنشر أفكارهم في مناطق شتى؟

٤ - إن مرونة الداعي الأول محمد ﷺ جعلته قادراً على التعامل مع الواقع فلا يتشبث بأرض معينة ولا يحبس دعوته ضمن وطنه وقومه..

٥ - فلماذا وقع الاختيار على الحبشة؟ ولم تقع على الغساسنة في الشام والمناذرة في العراق مثلاً.. وهم إخوة في النسب والعروبة؟!

إن أول ما ينظر إليه في تقدير الملوك والأمم هو عدم الظلم.. ولقد كان اختيار النبي ﷺ للحبشة وملكها ممتازاً.. ويظهر ذلك جلياً في تعامل النجاشي مع مندوبي قريش على الرغم من أن [illegible] على صلة وصحبة سابقة

مع النجاشي، وعلى الرغم من تقديمهما الهدايا له ورغم محاولتهما إثارة الحمية لدينه، ولعيسى ومريم، والمقدسات عنده.

وتدل روايات أخرى لخبر النجاشي ومندوبي قريش أنه لم يتسرع في الحكم لهما وأبى إلا أن يسمع من المسلمين أولاً.. فالعدل لا يتحقق حتى تسمع للطرفين. وهو ما يؤكد صفة النزاهة في العدل التي كان يتناقلها الناس عنه.

٦ - كان النبي حاضراً لأحداث عصره عارفاً بميزات البلدان والحكام من حوله مدركاً للحسنات والسيئات في الأمم والملوك المعاصرين له. وهو أمر ضروري لكل داعٍ.. حتى يعرف موضع قدميه وميزة ما لديه.. وأين تأتي الخطوة التالية..

٧ - جعفر بن أبي طالب نموذج من تلاميذ النبي تربى على أخلاقه ونهل من نبعه.. يذكرني موقفه بقول طرفة:

إذا كنت في حاجة مرسلاً فأرسل حكيماً ولا توصه

جعفر يعرف قدرات نفسه فيقول لإخوانه قبل الدخول على النجاشي: أنا خطيبكم اليوم.. وإن من أصعب الأمور أن تجمع بين تواضع الإيمان ومعرفة القدرات الذاتية.. بحيث تضع نفسك في المكان المناسب الذي لا يقدر غيرك على الوقوف فيه.

٨ - إن التودد في الدعوة لا يعني تمييع المبادئ، ولا يعني الذل والنفاق. دخل جعفر وأصحابه فلم يسجدوا للنجاشي - وكانت تلك تحيتهم للملك في تلك البلاد - فلما سئل جعفر صدع بالحق وقال: لا نسجد إلا لله.. وقدَّم دعوته ببلاغة، وإيجاز، وبعناصرها البسيطة التي يعرفها النجاشي في دينه النصرانية.

٩ - وجاء الإحراج والاستفزاز من مندوبي قريش: (إنهم يخالفونك في عيسى بن مريم).. وجواب جعفر منتقى بعناية مليء بالحكمة والفطنة.. فلقد اختار الكلمة التي يتفق عليها المسلمون والنصارى بشأن عيسى (عليه السلام) (هو

كلمته وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسّها بشر..) إنها براعة مدهشة حقاً.. فلعله لو قال: (عبد الله ورسوله) لما حصل من النجاشي ما حصل..

وفي رواية أن النجاشي قال لجعفر: هل معك شيء مما جاء به - وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله - فقال له جعفر: نعم. قال: هلمّ فاتل علي مما جاء به. فقرأ عليه صدراً من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ - أي سورة مريم - فبكى - والله - النجاشي حتى اخضلّت لحيته وبكى أساقفته حتى اخضلّت مصاحفهم. ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى انطلقوا راشدين، لا والله لا أردهم عليكم ولا أنعمكم عيناً[1].

فتأمل في حسن اختيار جعفر للآيات المناسبة للنجاشي وأساقفته..!!

١٠ - كان رسول الله ﷺ لا يغفل عن أقدار الناس فهو يترحم على النجاشي ويأمر بالصلاة عليه عند موته. ولا يهمل رفع المعنويات وإنعاش النفوس حين قال لأبي موسى الأشعري: «لكم أنتم أهل السفينة هجرتان».. كان إنساناً فذاً يعرف كيف يزود النفوس بالشحن المستمر.

❁ ❁ ❁

٦- بداية تمكن الدعوة وظهورها

أين تريد يا عمر..؟!

كان عمر معروفاً ببطشه وشدته على المسلمين.

قالت أم عبد الله بنت أبي حثمة: والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر (زوجها) في بعض حاجتنا، إذ أقبل عمر فوقف علي وهو على شركه، فقالت: وكنا نلقى منه أذى لنا وشدة علينا. قالت فقال: إنه الانطلاق يا أم عبد الله؟ قلت: نعم. والله لنخرجنّ في أرض من أرض الله إذ آذيتمونا وقهرتمونا... حتى يجعل الله لنا مخرجاً. قالت فقال: صحبكم الله. ورأيت له رقة لم أكن أراها.. ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا. قالت: فجاء عامر بحاجتنا تلك فقلت: يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا..!! قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت نعم. قال: لا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، قالت يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام[1] وكانت أخت عمر فاطمة بنت الخطاب عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل - أي زوجة لسعيد - وكانت قد أسلمت وأسلم زوجها وهم مستخفون بإسلامهم من عمر. وكان نعيم بن عبد الله النحام رجل من بني عدي قد أسلم أيضاً مستخفياً بإسلامه من قومه. وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت

---

(١) البداية والنهاية، ٧٩/٣.

الخطاب يقرئها القرآن. فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه، فذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء... فلقيه نعيم بن عبد الله فقال: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش، وسفَّه أحلامها، وعاب دينها، وسبَّ آلهتها فأقتله. فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما. فرجع عمر عائداً إلى أخته فاطمة وعندها خباب بن الأرت معه صحيفة فيها (طه) يقرئها إياها. فلما سمعوا حسَّ عمر تغيَّب خباب في مخدع لهم - أو في بعض البيت - وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها وقد سمع عمر حين دنا إلى الباب قراءة خباب عليها، فلما دخل قال: ما هذه الهينمة التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئاً.. قال: بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد، فقامت إليه أخته فاطمة لتكفَّه عن زوجها، فضربها فشجَّها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم لقد أسلمنا، وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع وارعوى وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي كنتم تقرؤون آنفاً. أنظر ما هذا الذي جاء به محمد؟ وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها. فلما قال ذلك طمعت في إسلامه، فقالت: يا أخي إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسُّه إلا المطهرون، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها (طه) فقرأها، فلما قرأ منها صدراً قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!! فلما سمع ذلك خباب بن الأرت خرج إليه فقال له: والله يا عمر إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ﷺ فإني [illegible] يقول: اللهم أيِّد الإسلام

بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب فالله الله يا عمر! فقال عند ذلك: فدلّني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم. فقال خباب: هو في بيت عند الصفا معه نفر من أصحابه. فأخذ عمر سيفه، فتوشحه ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب؟ فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب النبي ﷺ فنظر من خلل الباب، فإذا هو بعُمر متوشحاً بالسيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع، فقال حمزة: فأذن له فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه، وإن كان يريد شرّاً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: «إيذن له»، فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة فأخذ بحجزته أو بمجمع ردائه، فقال: ما جاء بك يابن الخطاب..؟ فقال عمر: يا رسول الله جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله. فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة، فعرف أهل البيت أن عمر قد أسلم فتفرق أصحاب النبي ﷺ من مكانهم وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر[1]. ويقول ابن عمر: لما أسلم عمر قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي. فغدا عليه، قال عبد الله وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل - وأنا غلام أعقل كل ما رأيت - حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أني أسلمت ودخلت في دين محمد ﷺ؟ قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه، واتبعه عمر، واتبعته أنا حتى قام على باب المسجد فصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش. وهم في أنديتهم حول الكعبة - ألا إن ابن الخطاب قد صبأ.. يقول عمر من خلفه: كذب ولكني قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله.. وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه[2] حتى قامت الشمس على رؤوسهم. قال: وطلح (أي أعيا) فقعد، وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاث مئة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا. قال: فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة وقميص

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ٨١.

(٢) ليس بالسيف وإلا لكان هناك قتلى، وإنما [illegible]ه.

موشى، حتى وقف عليهم فقال: ما شأنكم؟ فقالوا: صبأ عمر، قال: فمه؟ رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عدي يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلوا عن الرجل. قال: فوالله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه. قال فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟ قال: ذاك أي بني العاص بن وائل السهمي[(١)].

في إسلام عمر نرى إسهاماً مميزاً للمرأة المؤمنة. لقد استطاعت المرأة المؤمنة بضعفها، وجرأتها في الجهر بالحق، وصبرها وثباتها، أن تزلزل أعماق عمر الذي عرف ببطشه.. هذا (الضعف البالغ القوة) الذي تتصف به المرأة المؤمنة يشبه خيوط الحرير في لينها ومتانتها.

* * *

تحليل عناصر التأثير في الحادث

ولنمض في تحليل عناصر التأثير في هذا الحادث:

١ - ابتداء لنتأمل معالم شخصية عمر في جاهليته وإسلامه: إنه رجل بسيط مستقيم في طبعه لا يعرف المكر والدهاء، فيه شدة وحمية ومسارعة في مقاومة ما رآه فاسداً، وفيه أصالة الفطرة العربية التي تثور للمظلوم.. إنها شخصية ترفض السلبية والانزواء واللامبالاة.. بل تصر على أن يكون لها دور فعال، مؤثر فيما حولها.

قاوم الإسلام والمسلمين في البداية بشدة لأنه ظن أنه يلحق الفساد بقومه وعقولهم وحياتهم. لكنه بدأ يدرك شيئاً فشيئاً أنه شارك في إنشاء وضع ظالم لأناس أبرياء لا ذنب لهم سوى أنهم اختاروا ديناً آخر غير دين قومهم.

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ٨٣.

لسلطانها..!! وانظر إلى الغاضب كيف يصبح ألعوبة بيد من يخطط بذكاء..!! كانت وصية النبي ﷺ: «لا تغضب» هامة جداً.. لأنك حين تغضب يشلُّ تفكيرك وتصبح منقاداً لكل قادر على استغلال غضبك.

٥ - ومرة ثانية تلعب المرأة المؤمنة دوراً مؤثراً - وفي بعض الروايات أنها هي التي قالت (أي فاطمة أخت عمر): افعل ما بدا لك يابن الخطاب اني مؤمنة..!! ينظر عمر إلى وجه أخته الذي أدماه وهي ثابتة كالطود في وجه بطشه..!! يالهذا (الضعف البالغ القوة) لقد انهزم أمام هذه المقاومة السلمية، لقد تكسر كل البطش في نفسه.. بل إنه خجل نادم من قسوته ووحشيته.. ثم ما هذا الدين العجيب الذي يجعل أتباعه بهذه القوة وبهذه الوداعة الصلبة؟!

٦ - عمر الآن مصمم على الاطلاع على القرآن وقد عاهد أخته على أن يرد لها الصحيفة بعد أن يقرأها، وفاطمة تثق به فليس من طبعه الاحتيال، ولكنها تحسن صنعاً إذ تطلب منه أن يغتسل.. إنها تهيئه نفسياً وجسدياً لتلقي كلام الله والإحساس بقداسته، ولقد أطفأ الماء وهج الغضب فيه.

٧ - وفي هذا الجو النفسي الذي انتعش فيه الخير في قلب عمر يقرأ الصحيفة.. فتدرك فطرته السليمة المستقيمة حلاوته (ما أحسن هذا الكلام وأكرمه) فيسرع خباب إلى اغتنام الفرصة فلقد بدأ النور يكتسح قلب عمر ولا بد من دعمه حتى يواصل التقدم ويكسر الأغلال: (والله يا عمر إني لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيّه..) إنه ترغيب ودود لنفس تحب أن يكون لها دور إيجابي في كل شيء، فما أعظم فطنة الداعي حين يقول الكلمة المناسبة في الوقت المناسب. وينبغي للدعاة أن يتعلموا هذا الفن.

٨ - ويخطئ عمر حين يذهب إلى محمد ﷺ وأصحابه وهو متوشح سيفه، مما جعلهم يرتابون في أمره. قريش لم ترفع سيفاً في وجه محمد وأصحابه رغم كل معارضتها وأذاها لهم فلقد [illegible] مجزرة عند الحرم حتى

لا يفقدوا مكانتهم عند العرب كسدنة للبيت يقدسون حرمة البلد الحرام.. فهل يتجرّأ عمر على هذا الأمر الجلل؟ إن هذا ما جعل حمزة يقول ما يقول.. وهذا ما جعل النبي يقف لعمر متصدّياً غير عابئ بسيف عمر.. (ما جاء بك يابن الخطاب)؟ إنه ﷺ يتصدّى لعمر ويستنكر عليه جرأته، لكنه يتصدّى بدون سلاح. وكان الموقف يقتضي الصلابة استنكاراً لتدخل السلاح في معركة فكرية. ولكن عمر كان قد أسلم، وإن فاته أن ينزع سلاحه.

٩ - وعمر الذي اهتدى إلى النور يريد أن يعلن ذلك للجميع وأنه يدعو الجميع.. إنها الشخصية المستقيمة التي لا تعرف السلبية والتخفي.. ولتفعل قريش ما تشاء.. ولا بأس بالضرب والتعذيب فلقد ذاقه المسلمون من قبله وسبقوه في الصبر على البلاء.

١٠ - ويتدخل العاص بن وائل فيرد الناس عن عمر، وحجته قوية، فمتى استبحتم أن يقتل إنسان من أجل أفكاره؟!.. عمر لم يفعل لكم شيئاً ولم يرتكب جريمة، ولم يدبر مؤامرة ضدكم إنه (رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟) وهو أمر يدل بوضوح على عدة جوانب:

١- كل إنسان يتعاطف مع المظلوم في سرّه إن لم يكن في العلن.

٢- كل الناس يؤمنون بأن الحرية الفكرية ينبغي أن تحترم.

٣- على الداعي ألا تكون له تهمة أو ذنب غير (ربي الله).

١١ - ولا تنسوا أمر العصبية للعشيرة «فإن بني عدي لن يتركوكم إن قتلتم واحداً منهم».. وكما قلنا: لقد كان للعصبية دور كبير في حماية كثير من المسلمين في ذلك الزمان.. ولا بد أن (تأخذ) مظلة (حقوق الإنسان) دورها شيئاً فشيئاً في عالمنا بدلاً عن العصبية القومية.

• • •

إسلام وفد من النصارى (سلام عليكم):

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾

قال البيهقي: «.. قدم على رسول الله ﷺ عشرون رجلاً وهو بمكة - أو قريب من ذلك - من النصارى حين ظهر خبره من أرض الحبشة، فوجدوه في المجلس فكلّموه، وسالوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مساءلتهم رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا له، وآمنوا به، وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش فقال: خيبكم الله من ركب! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه بما قال لكم، ما نعلم ركباً أحمق منكم.. قالوا لهم: لا نجاهلكم، سلام عليكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا نألونَّ أنفسنا خيراً. فيقال إن النفر من نصارى نجران.. والله أعلم.

ويقال - والله أعلم - أن فيهم نزلت هذه الآيات: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٢-٥٥](١)».

هذا الحادث فيه دلالات كثيرة:

١ - إن الهجرة إلى الحبشة نشرت خبر الرسالة الجديدة. وهذا ما يؤكد أن الهجرة لم تكن مجرد ابتعاد عن البلاء والمعاناة.. بل كانت خروجاً في سبيل الله، ونشراً لدعوته العالمية.

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ٨٢.

٢ - المخلصون من أهل الكتاب عرفوا أن الإسلام حق، وآمنوا بالنبي ﷺ لأن الديانات السماوية كلها تخرج من مشكاة واحدة وعقائدها واحدة.

٣ - في كل زمان يقوم أبو جهل بدوره في صدّ الناس عن الخير ويتفنن في استخدام أساليب الضغط النفسي من تأنيب وتشكيك وانتقاص من قدرة الآخر على الفهم.. إلخ. وقد يؤدي ذلك إلى المهاترة.

٤ - أتباع الأنبياء الصادقون لا تزحلقهم هذه المحاولات. فهُم:

أ- يرفضون المهاترات والمشاركة فيها (لا نجاهلكم).

٢- يلتزمون بالسلام ومنح السلام للجميع (سلام عليكم).

٣- و هم واثقون مما حصل لهم من العلم فقد رأوا البينات ولهذا لا يؤثر فيهم تشكيك شياطين الإنس.

٤- ويقولون: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم.. وحساب الله عدل وحق.

٥- ويقولون: (لا نألونَّ أنفسنا خيراً) نحن حريصون على نيل الخير لأنفسنا ونحن نعرف تماماً ما نفعل.

٥ - هذا الأسلوب في التعامل، والحوار الفكري السلمي الأخلاقي، «يدرؤون بالحسنة السيئة» هو الإحسان الذي يتقنه أتباع الأنبياء الصادقون.. وهو أسلوب المعارضة السلمية والحوار اللاعنفي.

❁ ❁ ❁

هل آمنت قريش؟!

جلس رسول الله ﷺ يوماً مع المشركين وأنزل الله عليه ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣/١-٢] يقرؤها عليهم حتى ختمها وسجد.. فسجد مَنْ هناك من المسلمين والمشركين والجن والإنس.. غير

شيخ أخذ كفاً من حصاً أو تراب فرفعه إلى جبهته وقال: يكفيني هذا فرأيته بعدُ قتل كافراً (هكذا يقول راوي الحديث عن ابن عباس)(١).. وطار الخبر بذلك وانتشر حتى بلغ مهاجرة الحبشة بها.. فظنوا أن المشركين قد أسلموا واصطلحوا مع محمد ﷺ. فرجعت طائفة من المهاجرين إلى مكة وثبتت جماعة في الحبشة..

فهل آمنت قريش حقّاً؟! وكيف سجدوا بعدما سمعوا رسول الله ﷺ يقرأ سورة النجم؟! وبعد أن رأوه يسجد..؟!

لا أحب الدخول في تشويش الروايات الضعيفة.. ولكن الأمر يمكن أن يفهم ببساطة:

- كان مشركو قريش أرباب بلاغة يفهمون القرآن ويدركون إعجازه وحلاوته.

- وكان رسول الله ﷺ يملك القدرة التأثيرية في القراءة والخطابة..

كما وصفه أصحابه: كان إذا خطب فينا فكأنه منذر جيش.. وإن لنبرات الصوت وتفاعله مع الموضوع لأثراً كبيراً في نفس السامع.

- وسورة النجم عظيمة الوقع في مواضيعها وإيقاعها.. وخاصة في ختامها ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ [النجم: ٥٣/٥٦-٦٢] ولقد سجدوا دون وعي منهم.. لقد كانت لحظة تأثير وجداني أطاعتها أعضاء الجسم فسجد الجسم تلقائياً.. لكن الإيمان لا يثبت لمجرد لحظة تأثر، ولا بد أن يترسخ الإيمان في الوعي واللاوعي ويمتد إلى العقل والنفس والشعور، وهو أمر لم يصل إليه مشركو قريش بعد.

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ٩٠.

كانوا يقولون: «ليست النائحة كالثكلى».. والداعي الذي خالط حبّ الله دمه وعظامه، وأدرك الخطر الذي ينتظر المكذبين حتى كأنه يرى المصير بأم عينيه «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً».. لا بد أن يشع إخلاصه على من حوله. ولكن رسول الله ﷺ كان يملك إلى جانب الإخلاص و القدرة التأثيرية في الخطاب.. الحجة البالغة، وهو القرآن الكريم الذي ناقش العقول وقدم البراهين، وكان هو قرآناً يمشي على الأرض في خلقه والتزامه، وكل ذلك ضروري للقيام بعملية البناء للنفوس الجديدة الصافية المستقيمة.

أما الاكتفاء بالتأثير العاطفي فإنه لا أمان له لأن لحظات التأثر لا تدوم، وقد يتعرض الإنسان لتأثير آخر من إنسان أبرع في التأثير.

إن الأسلوب العاطفي المؤثر وحده لا يمكن أن يبني نفوساً متزنة قوية، ولا يعطي حصانة فكرية ووعياً كافياً للانطلاق في البناء والارتقاء، بل يبقى الإنسان العاطفي عرضة للتلاعب تارة يشد إلى اليمين وأخرى لليسار. ويبقى ألعوبة في يد القادرين (الماكرين غالباً) على استغلال عواطفه في خدمة أغراضهم.

إن بناء من هذا النوع لا يصمد في ميدان الفكر والعمل. وإنما هو «كمن أسس بنيانه على شفا جرفٍ هارٍ فانهار به في نار جهنّم»...

* * *

محاولات دؤوبة

واعترض رسول الله ﷺ وهو يطوف - مرة - عند باب الكعبة الأسود بن المطلب والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والعاص بن وائل. فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر. فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ① لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ③ وَلَآ

أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١٠٩/١-٦][1].

ها هم يحاولون الوصول إلى حلّ وسط بزعمهم، ولكن العبادة لا تقبل أنصاف الحلول، وإنما جاء الإسلام ليخلص الناس من قلق الشرك وضلاله، إلى الأمن الفكري والنفسي الذي في التوحيد.

إن الإسلام يحترم الحوار مع الآخر، ويؤمن بحرية الآخر في دينه، ولكن دون إلغاء حرية (الأنا) في الدين والفكر ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

ونحن نسمع - إلى حدّ الملل - الشعارات تتردد صباح مساء: الحرية في الفكر والدين، أدب الحوار، التعايش السلمي، ولكن رسول الله ﷺ عاش هذه الحالة.. فلم يقبل بإلغاء حريته في الفكر والدين، واحترم حرية الآخر في الفكر والدين.

- وحتى ندرك الفرق بين مواضيع العبادة التي لا مجال للتنازل فيها.. وبين قضايا المعاملات التي يمكن التعاون فيها على الخير بين عدة أطراف.. نذكر مقابل ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ قول الرسول ﷺ: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدْعان حلفاً لو دعيت به في الإسلام لأجبت..»[2] وهو تحالف حدث في الجاهلية بين بعض أشراف مكة على نصرة المظلوم (حلف الفضول).

ووقف الوليد بن المغيرة فكلم رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ يكلّمه، وقد طمع في إسلامه، فمرّ به ابن أم مكتوم الأعمى فكلم رسول الله ﷺ وجعل يستقريه القرآن، فشقّ ذلك عليه حتى أضجره، وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد وما طمع فيه من إسلامه، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابساً

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ٩٠.

(٢) البداية والنهاية، ٢/ ٢٩١.

وتركه، فأنزل الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ إلى: ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ [عبس: ١/٨٠ - ١٤][(١)].

رسول الله ﷺ يعلق أملاً على هداية السادة والأشراف لأنهم إن أسلموا أطاعهم الناس، ولكن الله يعلم أن ابن مكتوم أفضل منهم، وكل الضعفاء الذين أسلموا قد بذلوا للحق أرواحهم، وأخذوا الكتاب بقوة وعلى أكتافهم بني المجتمع الرَّباني الجديد. لقد كان رسول الله ﷺ دؤوباً في محاولاته.. لم يَيْئَس من أحد، وإن أعرض عن الأعمى فلأنه قطع عليه دعوته، ومع ذلك فإن الدعاة ما ينبغي لهم أن يعرضوا عن طالب الحق..

وفي القصة دروس وعبر منها:

١ - لا تصدَّ لمن يستغني.

٢ - لا تعرض عمن يطلب الحق.

فدعوة الله أغلى وأعلى من أن تأخذ طابع الاستجداء الفكري..

وهي أعلى وأعظم من الانزلاق في التمييز الطبقي وتعليق الآمال على الكبراء.

٣ - منهج القرآن النقد الموضوعي، وليس هناك أحد فوق النقد، والله وحده المنزه عن الخطأ. فالقرآن ينقد النبي والنبي يقبل النقد، ويبلغ الآيات التي فيها نقده، ويقول لابن أم مكتوم: «أهلاً بمن عاتبني فيه ربِّي». وفي ذلك تعليم للناس أليس لكم في رسول الله أسوة حسنة: أنه يقبل النقد ويعود للحق؟!

❋ ❋ ❋

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ٩٠.

٧- قريش تلجأ للمقاطعة

صحيفة المقاطعة

وأخذت قريش تصعِّد أذاها دون جدوى، وكان بعض الصحابة يدخلون في جوار بعض سادة قريش.. وهي عادة نبيلة كانت في الجاهلية يعمد فيها الضعيف إلى أحد السادة فيدخل في جواره أي في حمايته، ويُشهد السيد أندية مكة على ذلك، فلا يتجرأ أحد على الاعتداء على هذا الضعيف.. ولقد همَّ أبو بكر بالهجرة إلى الحبشة فرده ابن الدغنة عن ذلك، وعرض عليه أن يدخل في جواره.. فلما اشترطت قريش على أبي بكر ألا يرفع صوته بقراءة القرآن في صلاته رفض أبو بكر وردَّ على ابن الدغنة جواره، ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، فلما رأى عثمان ما ينزل بأصحاب رسول الله ﷺ من البلاء وهو آمن.. أبت عليه نفسه المؤمنة ذلك فردَّ على الوليد جواره وقال: لا أستجير بغير الله سبحانه[1].

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا منه أمناً وقراراً، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل فاجتمعوا وائتمروا على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب على ألا ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم،

---

(١) فضربه المشركون مرة حتى ذهبت عينه.

٢ - ها هو عمر يمر على أم عبد الله وهي تستعد للرحيل، فيسألها.. فلا تتهرب منه، ولا تخاف بطشه، بل تقول بجرأة وألم: (والله لنخرجن في أرض من أرض الله إذ آذيتمونا وقهرتمونا.. حتى يجعل الله لنا مخرجاً).. لقد أصابت هذه المرأة المؤمنة مواضع الخير في قلب عمر، وهي تبدو بارعة في المقاومة السلمية، وكأنها تقول: لن تستطيع بقوتك إرغامي على الخضوع لرأيك، بل سأترك لك بيتي وبلدي ولا أتنازل عن ديني.. وليس في كلامها رائحة الثأر أو الانتقام من الظالم الذي مارس القهر عليها وعلى المؤمنين. فتأمل ما حلّ بعمر..!! لقد انكسر قلبه من هذا المشهد ومن موقفها (الضعيف البالغ القوة) تراجع خجلاً وهو يقول: (صحبكم الله).. لقد خرجت الكلمات من قلبه دون وعي منه.

٣ - وتأمل معي قدرة المرأة على الإحساس بما حصل من تغير في نفس عمر بينما زوجها يقول: (لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب).. وقد سمعت ببعض الأبحاث التي تدرس الفوارق بين الجنسين في الغرب. وكيف أنهم يقرون بتفوق المرأة في الإحساس بمشاعر الآخرين وإدراك حاجاتهم.

٤ - في الخبر الثاني يخرج عمر متوشحاً سيفه يريد قتل محمد ﷺ الذي فرق أمر قريش (فهو غاضب يريد القضاء على ما ظنه سبب الفساد). وهنا يلتقي بنعيم بن عبد الله - وهو يخفي إسلامه - فكر نعيم كيف يصرف عمر عن النبي ﷺ؟ لو وقف يدافع عن النبي لاكتشف عمر إسلامه.. وازداد غضبه وربما قتله وتابع سيره إلى النبي.. واستطاع نعيم أن يتذكر المنطق القبلي الذي يحمي النبي من القتل في مكة فقال: (أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟) لكن هذه الحجة لن تصرف عمر المتأجج غضباً.. فرأى نعيم أن أهون الشرّين أن يحول غضب عمر إلى أخته وزوجها وعمر لن يقتل أخته مهما بلغ به الأمر.. (أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟).. حقاً إن الذكاء أعظم قوة أعطيت للإنسان!! وانظر إلى القوة الفكرية كيف تتحكم بالقوة المادية وتخضعها

عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم منكم سراعاً. قال: ويحك فماذا أصنع إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت لك ثانياً. قال: من؟ قال: أنا، قال: ابغنا ثالثاً. قال: قد فعلت. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية. قال: ابغنا رابعاً. فذهب إلى أبي البختري بن هشام فقال نحو ما قال للمطعم بن عدي. قال: وهل تجد أحداً يعين على هذا؟ قال: نعم. قال: من هو؟ (فذكرهم له) قال: ابغنا خامساً فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمّى القوم. فاتعدوا حطم ليلاً بأعلى مكة فاجتمعوا هنالك، وأجمعوا أمرهم، وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها. وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم. فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة فطاف بالبيت سبعاً ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. قال أبو جهل - وكان في ناحية المسجد - والله لا تشق. قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حين كتبت. قال أبو البختري: صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقرُّ به. قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها. وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك. قال أبو جهل: هذا أمر قد قضي بليل تُشوور فيه بغير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، وقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقَّها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة فشلت يده فيما يزعمون[(١)].

المشركون يصدون الناس عن الدعوة

كانت المقاطعة حرباً اقتصادية واجتماعية شديدة. وصبر لها المسلمون وتضامن معهم أبو طالب وبنو هاشم إلا أبا لهب. وكانوا بصبرهم وثباتهم نموذجاً رائعاً للمقاومة السلمية للظلم، وهي خطة الأنبياء في الثورة والتغيير الذي يحقن الدماء ويحمي الأرواح.. وها هي الخطة تؤتي أكلها في نفس الآخر.. فلقد أصبحت قلوب الأكثرية في مكة متعاطفة مع المسلمين، وهنا يتقدم هشام بن عمرو بخطوته الذكية لتجميع هذا التعاطف في بؤرة واحدة كي تصبح نافذة المفعول.

فلنتأمل خطوات نقض الصحيفة المتسلسلة:

١ - صبر المسلمين وثباتهم على دينهم خلال الفترة المكية عامة وخلال سنوات المقاطعة الثلاث. استمروا على دعوتهم إلى الخير بحب ووداعة دون أن يرفعوا يداً بأذى لأحد من المشركين.

٢ - تحركت قلوب بعض أقرباء المسلمين بالرحمة فصاروا يقدمون المساعدات سرّاً. فيحملون الطعام على بعير ويدفعونه إلى الشعب ليلاً.

٣ - أحسّ هشام بن عمرو أن النفوس مهيأة لتحريك الأمر.. فبدأ ينتقي أشخاصاً تربطهم بالمسلمين أواصر القربى. وصار يفاتحهم بالموضوع معتمداً على (العصبية) التي كانت أكبر محرك للعرب في الجاهلية.

٤ - فلما أصبح عدد المنكرين للصحيفة خمسة أحسّ هشام أنه يمكن التحرُّك للنقض. فكانت الخطوة الثانية هي الاتفاق على موعد بين الخمسة بحثوا فيه خطتهم واتفقوا على أن يتفرقوا في مجلس قريش عند الكعبة على أن يكون البادئ في طرح القضية هو زهير بن أبي أمية - لعل ذلك لأنه أقربهم نسباً إلى بني هاشم.

٥ - القصة بعد ذلك تظهر كيف سقط الإجماع أمام ارتفاع صوت المعارضة من اتجاهات عدة. وكانت الأصوات حارة صادقة تتجاوب معها القلوب متعاطفة مع المظلومين. وأحس أبو جهل بعجزه عن إقناع الناس برأيه.. وأدرك أن هذه المعارضة لا يمكن أن تخرج بهذا الشكل المتقن إلا إذا كانت مدروسة ومخططاً لها سابقاً.. فقال: هذا أمر دبر بليل..

أحسُّ بالانبهار أمام هذه الحادثة.. لأن فيها تخطيطاً دقيقاً للتأثير في الرأي العام وإعادته إلى طريق الخير. وبذلك يفقد الشر أنصاره، ومن ثم صوته ونفوذه.

ونحن نعيش في عالم إسلامي تعيشُ فيه ملايين من المسلمين المخلصين لكنها كتل ضخمة مستبعدة من ميادين الصراع الفكري..

ومشكلة الدعاة أنهم معزولون عن هذه الجماهير.. لأنهم لا يدركون أهمية الرأي العام وكيفية التأثير فيه.. إن خطة محمد ﷺ استطاعت أن تؤثر في أعماق الرأي العام - في بلده في ذلك الوقت -وإن التخطيط الذكي هو الذي يعيد للجماهير المخلصة دورها وتأثيرها.. بحيث تتخلى عن نصرة الباطل فيفقد الإجماع.

إن ميزة النخبة المبدعة - التي ذكر توينبي أنها تظهر قبيل انبعاث الحركة والنهضة في الأمة - أنها تعمل بذكاء وإخلاص على خدمة أمتها وهذا ما يجعلها قادرة على استقطاب الجماهير ونيل ثقتها..

ولكن من المؤسف أن هذه النخبة المبدعة تتحول بعد فترة من النهضة وبعد أن تقدم لأمتها إنجازات جيدة وكثيرة.. تتحول إلى أقلية مسيطرة تسوق الناس بالسوط[١]..

وأخطر ما في الأمر أن يظن الدعاة أن الإنقاذ يكون بالقضاء على المسيطرين واستلام السوط منهم لتسيير أمور الناس.

---

(١) مختصر دراسة للتاريخ: توينبي ٢/ ٧

إن تغيير أعماق الإنسان لا يكون بإكراهه. وإن الإنسان ليكره الظلم والإكراه.. وإن تغيير الإكراه لا يكون إلا برفضه والامتناع عن ممارسته، وكم أسأنا إلى مفهوم الجهاد في الإسلام حين حذفنا منه (المقاومة السلمية) وقصرناه على القتل والقتال..

وأمام التطور الإنساني في قضايا السلاح ونزع السلاح.. لم لا نعيد النظر في أفكارنا.. فإذا أصبح بالإمكان رفع الظلم بالحوار والبيان والإعلام.. وإذا كانت المقاومة السلمية تحقق الأهداف على أحسن وجه فلماذا نصر على تقديم القرابين البشرية؟!

وكان خروج بني هاشم والمسلمين من الشعب - بعد نقض الصحيفة - في السنة العاشرة من البعثة أي قبل الهجرة بثلاث سنين، وفي هذه السنة توفي أبو طالب وأم المؤمنين خديجة حتى سمي ذاك العام عام الحزن كما سيأتي.

* * *

الطُّفيل بن عمرو الدوسي

إن دوساً قد عصت فادع الله عليها..!

واستمرّ المشركون في ترويج التهم ضد محمد ﷺ وتنفير القادمين إلى مكة لحج أو عمرة أو غير ذلك.. إياكم أن يسحركم محمد.. لا تسمعوا له ولا تجلسوا إليه فنحن أهله وعشيرته وأعلم الناس به، إنه مجنون، إنه ساحر يفرق بين المرء وزوجه، وأتباعه هم السفهاء والفقراء..

من هؤلاء القادمين إلى مكة كان الطفيل بن عمرو الدوسي، وكان سيداً مطاعاً شريفاً في دوس.. فاجتمع به أشراف قريش وحذروه من رسول الله ﷺ، ونهوه أن يجتمع به أو يسمع كلامه. قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً، ولا أكلمه، حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً (أي قطناً) فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله وأنا لا أريد أن أسمعه..

فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، قال: فقمت منه قريباً فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، قال: فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: واثكل أمي! والله إني لرجل لبيب، شاعر، ما يخفى علي الحسن من القبيح فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته. فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فدخلت عليه فقلت: يا محمد! إن قومك قالوا لي كذا وكذا.. فوالله ما برحوا بي يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك فسمعت قولاً حسناً فاعرض علي أمرك. قال: فعرض علي رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا علي القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه. فأسلمت وشهدت شهادة الحق وقلت: يا نبي الله إني امرؤ مطاع في قومي وإني راجع إليهم وداعيهم(١).. واستمر يدعو قومه إلى ما بعد هجرة النبي إلى المدينة.. فآمن معه أهل بيته وقليل من قومه. يقول أبو هريرة: لما قدم الطفيل وأصحابه على رسول الله ﷺ قالوا: إن دوساً قد عصت، وأبت، فادع الله عليها. قال أبو هريرة: فرفع رسول الله ﷺ يديه فقلت هلكت دوس، فقال ﷺ: «اللهم اهدِ دوساً وائت بهم»(٢).

فلنتأمل من الخبر ما يلي:

١ - دعاة الإصلاح والتغيير معرضون لكل أنواع الأذى.. ولا بد لهم من الصبر والاستقامة ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢٠]. وعلى الداعي أن ينتبه بحيث لا يكون له ذنب إلا أن يقول: (ربيَ الله) ثم يصبر على الأذى.. وعندها يتحقق وعد الله ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾.

٢ - وحتى الرجل العاقل يمكن لأول وهلة أن يتأثر بـ (الحملات الإعلامية) لكنه لا يلبث أن يعود إلى رشده ويحس بأنه لا بد أن يسمع للآخر حتى يحكم.

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ٩٩.
(٢) رواه الإمام أحمد.

٣ - حين يُبلَّغ الحق ويُبيَّن فإن الباطل لا يستطيع الوقوف في وجهه ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ١٧/٨١] مهما جعجع وانتفش.

٤ - الناس ييئسون ويستعجلون ويكرهون من يخالفهم (يا رسول الله ادع عليهم)، ورسول الله ﷺ مدرك لسنن الله، لا ييئس ولا يستعجل.. رسول الله قلب كبير لا يملك إلا الحب والدعاء بالخير: «اللهم اهدِ دوساً وائت بهم».

هل نصرف الطاقات في الرَّد على التُّهم؟!

ومن أساليب المشركين في محاربة هذه الدعوة: أن رسول الله ﷺ كان إذا جلس في المسجد يجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خباب وعمار وأبو فكيهة ويسار مولى صفوان بن أمية وصهيب وأشباههم من المسلمين. هزئت بهم قريش وقال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون.. أهؤلاء منَّ الله عليهم بالهدى ودين الحق؟! لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصَّهم الله به دوننا.. فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٦/٥٣-٥٤][1].

فانظر إلى الاستكبار و (تورم الذات) كيف يحول بين الإنسان وبين معرفة الخير!! ولهذا تتوجه التربية القرآنية والنبوية إلى تحرير النفس وعلاجها من الكبر بأساليب كثيرة..

ولهذا حذر الرسول ﷺ الإنسان من أن يكون في قلبه مثقال ذرة من الكبر.. لأنه سيكون سبباً في حرمانه من الجنة.

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ١٠٤.

ومن الأذى قول العاص بن وائل عن رسول الله ﷺ إنه أبتر أي لا عقب له فإذا مات انقطع ذكره، فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١٠٨/٣] - وذلك حين مات القاسم بن النبي ﷺ.

وصدق الله تعالى فلقد ذهب الزبد جفاء، وانقطع ذكر الكافرين المفسدين، وبقي رسول الله ﷺ ودعوته في الأرض لأن ما ينفع الناس يمكث في الأرض.

ومن ذلك تشفّي المشركين حين غلبت فارس الروم وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب على عكس المشركين الذين يحبون أن يظهر الفرس لأنهم أهل أوثان، فنزلت الآيات: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢-٥].

وقالوا: إنما يعلمه هذا القرآن غلام نصراني، كان يقف عنده النبي أحياناً.. فردَّ عليهم الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٦/ ١٠٣].. فكيف يتكلم الأعجمي بقرآن عربي معجز في بيانه؟

في هذه الأحداث نجد القرآن الكريم يتصدى للرَّد على أذى المشركين ومزاعمهم.. ولا بدَّ للداعي من التميز بين ما يجب الرَّد عليه من التهم والمزاعم.. وما يترك ويهمل ولا يضيع فيه الوقت والجهد.

وهنا نجد الرَّد يتناول أموراً أساسية: من حيث الإيمان بأن القرآن من عند الله.. ومسألة الميزان الذي يوزن به الإنسان ومعالجة الكبر.. وحديث في سنة الله في التاريخ.

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾.. هذه قضايا لم يهملها القرآن.. بل فتح حواراً حولها وبين سنة الله فيها..

٨ - عام الحزن

أما مواساة النبي ﷺ المفجوع في ولده فتأتي في سورة الكوثر ويرد الله تعالى على قولهم عن النبي ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ بآية واحدة منها.

وكذلك عندما كانوا يتهمونه بالكهانة والسحر والجنون.. ويذكر ذلك ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٥٢/٢٩] ولا يبذل لهذا الأمر حججاً أو نقاشاً.. بل تصرف الجهود وتساق الأدلة في عرض مبادئ هذا الدين الجديد، وبيانها في أمة أمِّية بعيدة عن العلم.

أول رحلة فضائية لإنسان

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١٧/١].

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق وهو دابّة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه (أي يسير بسرعة الضوء). قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس. قال: فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء. قال: ثم دخلت المسجد فصلّيت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل ﷺ: اخترت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل،

قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحّب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما، فرحّبا بي ودعوا لي بخير، ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ (وقال مثل ما قال في الأولى).. ففتح لنا فإذا أنا بيوسف ﷺ إذا هو قد أعطي شطر الحسن فرحّب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل عليه السلام (فقيل له مثل ما قال عند الأولى).. ففتح لنا فإذا أنا بإدريس، فرحّب ودعا لي بخير. قال الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ١٩/٥٧].. ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة... فإذا أنا بهارون ﷺ فرحّب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة... فإذا أنا بموسى ﷺ فرحّب ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السابعة... فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه. ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال. قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إلي ما أوحى ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة فنزلت إلى موسى ﷺ فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب خفف على أمتي فحطّ عني خمساً فرجعت إلى موسى فقلت: حطّ عني خمساً، قال: فإن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد! إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشراً، ومن همّ بسيئة فلم

يعملها لم تكتب له شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة واحدة. قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه»(١).

وفي رواية البخاري في كتاب الصلاة: «ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي. ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها حبائل اللؤلؤ وإذا ترابها المسك».

«ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام»(٢).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣/٨] إنما هو جبريل عليه السلام(٣).

وتحدث النبي ﷺ إلى أهل مكة عن مسراه عندما أصبح فأخذوا يكذبون ويستهزئون.

عن أبي هريرة عنه ﷺ: «لقد رأيتني في الحجر (عند الكعبة) وقريش تسألني عن مسراي. فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كرباً ما كربت مثله قط، فرفعه الله إلي أنظر إليه، ما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به. وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، وإذا موسى قائم يصلي، وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى بن مريم قائم يصلي أقرب الناس شبهاً به عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلي أقرب الناس شبهاً به صاحبكم - يعني نفسه - فحانت الصلاة فأممتهم، فلما فرغت قال قائل: يا محمد، هذا مالك خازن جهنم فالتفت إليه فبدأني بالسلام»(٤).

وانطلق أناس من قريش إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة؟ فقال أبو بكر: أوَقال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: فتصدقه

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) ثبت ذلك في الصحيحين.

(٤) رواه مسلم.

في أن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟! قال: نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء. قال أبو سلمة (راوي الحديث): فيها سمي أبو بكر: الصِّدِّيق(١).

ابتداء أحترم آراء الباحثين أمام حادث الإسراء والمعراج.. فمنهم من قال: إنه كان رؤيا... ورؤيا الأنبياء حق... ومنهم من قال: إن ذلك كان بروح النبي ﷺ دون جسده... ومنهم من قال: بل بالروح والجسد...

كل ذلك جائز ولا حرج في هذا الاختلاف.. المهم هو تأمل إيحاءات هذا الموضوع وارتباطه بسنن الدعوة. وقبل ذلك علينا أن نذكر أن الإسراء والمعراج كان بعد وفاة أبي طالب ثم أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها وذلك في العام العاشر للبعثة - عام الحزن - أما أبو طالب فقد كان يحميه من أذى قريش، فلما مات تجرؤوا على النبي ﷺ وأكثروا من إيذائه.. وأما خديجة رضي الله عنها فقد كانت الزوجة المحبة الوفية والسكن والأمن، والشريكة في الدعوة والمعاناة.. والدعم عند الزلزلة والبلاء.. حتى إن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة وهلكت قبل أن يتزوجني.. لما كنت أسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب. وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها - صديقاتها - منها ما يسعهن(٢).

وقالت: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاع فقال: «اللهم هالة» فغرت فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر أبدلك الله خيراً منها(٣). فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيراً لم أره تغير عند شيء قط إلا عند نزول الوحي(٤). وقال: «ما أبدلني الله خيراً منها وقد آمنت بي إذ كفر بي

(١) ذكره ابن كثير عن ابن شهاب.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) رواه الإمام أحمد.

الناس، وصدقتني إذ كذبنني، وآستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء»[١].

فتأمل حالة الحزن التي كان يعيشها النبي ﷺ بعد فراق خديجة..!! فما كانت الدنيا بكل ما فيها من مباهج لتعوضه عن خديجة أو تنسيه حنينه إليها.. فكيف به وقد فَقَد عمه الذي كان يحميه.. وتجرأت قريش على إيذائه أكثر من ذي قبل..؟!

* * *

تأملات حول الحادث

فلننطلق في عرض تأملاتنا حول الحادث:

١ - يبدو من الظروف أن رحلة الإسراء والمعراج كانت بالدرجة الأولى للتسرية عن النبي وإيناسه، ولم يكن القصد منها أن يسوق للمشركين معجزة.. لأنها لم تكن سبباً في إسلام أحد، بل لعلها سببت بعض الشك لضعاف الإيمان.

٢ - في عصرنا نرى أن الرحلة ممكنة وليست من الخوارق.. ومركبات الفضاء في تطوير مستمر نحو الأفضل والأسرع. والله قادر على كل شيء. لكن الخوارق أيضاً تجري وفق سنن إلهية قد يكشف العلم بتطوره بعضها. ويبقى الإنسان عبداً لمن لا حدود لعلمه وقدرته.

٣ - ولعلها إشارة واضحة للإنسان في وقت مبكر: أن بإمكان الإنسان أن يرتاد الفضاء..

٤ - في ذلك الوقت لم يكن المسجد الأقصى مبنياً وإنما كانت هناك كنيسة للنصارى فهل صلى في الكنيسة وسماها مسجداً لأنها موضع للصلاة؟

أم صلى في المكان الذي سيبنى فيه المسجد الأقصى في المستقبل..؟

أم أنها إشارة إلى قداسة هذا المكان في كل الأديان السماوية.. فقد بنى فيه إبراهيم مسجداً للعبادة.. ثم بنى فيه سليمان الهيكل.. ثم جعل النصارى فيه

---

(١) تفرد به أحمد.

كنيسة القيامة.. ثم أعاد المسلمون بناء المسجد فيه.. كلها بيوت لعبادة الله وحده. وقد التقى محمد ﷺ بكل الأنبياء فيه وأمّهم بالصلاة. فلماذا يتقاتل أتباع الأنبياء على هذا المكان؟! لو كانوا أتباعاً للأنبياء حقّاً لاحترموا قداسة هذا المكان وحرسوه من كل تلطيخ أو انتهاك.. ليكون مكاناً يتعبد فيه كل أتباع الأنبياء.

إنني أحس أن أتباع الأنبياء قد خلطوا القومية والعنصرية بالدين.. فلماذا يحرص اليهود على هدم المسجد الأقصى لبناء الهيكل؟ أليس كل واحد منهما قد بني لعبادة الله وحده؟! لقد سمح النبي ﷺ لوفد النصارى أن يقفوا في مسجده الشريف ويصلّوا صلاتهم إلى جهة المشرق.. وهل يحق لأحد أن يمنع إنساناً من الصلاة في أي مكان مادام أنه لا يعتدي على الآخرين ولا يؤذيهم؟!

٥ - رسول الله ﷺ اختار الفطرة عندما اختار شرب اللبن بدلاً من الخمر. وهي إضافة كبرى لهداية الإنسان وحمايته من تخريب المخدرات. بينما لم يكن هذا واضحاً في الديانات السابقة.

٦ - السموات السبع لم نستطع تحديدها حتى الآن.. وربما تفسر علوم الكون والفضاء في المستقبل ذلك. والحديث يشير إلى عوالم عجيبة من خلق الله ما زالت مكنونة في علم الغيب.. يُظهر بعضها لمن يشاء من عباده.

٧ - إن أمر الصلاة لعظيم فلقد استدعى الله رسوله إليه ليأمر بها أمته من فوق سبع سموات.

٨ - كأن الله أراد أن يشعرنا بالتخفيف الرّباني إذ لم يفرضها خمساً منذ البداية، فهو سبحانه يعلم مسبقاً بما سيدور بين موسى ومحمد صلوات الله عليهما. ثم جاء البيان الإلهي المليء بالرحمة والكرم: فهي خمس في الأداء وخمسون في الجزاء.

٩ - تعميم القاعدة: من همَّ بحسنة ومن فعلها ومن همَّ بالسيئة ومن فعلها..

وعلى الداعي أن يتذكر دائماً: يسّروا ولا تعسّروا.. بشّروا ولا تنفّروا.

١٠ - موسى (عليه السلام) صاحب خبرة مع قوم قساة متنصّلين من الواجبات، بينما محمد ﷺ حيي مأخوذ بكلام الله مذعن لحكمته.

١١ - نتأمل موقف أبي بكر الرائع في دقَّته وإيمانه (لئن قال ذلك لقد صدق.. أصدِّقه بأبعد من ذلك.. أصدِّقه بخبر السماء..).. موقف راسخ في يقينه.. فكيف تحاولون التلاعب به؟!

إنه رجل يعرف ربَّه ويعرف رسوله.. ويعرف على أي شيء بنى تفكيره وإيمانه.. فأين تذهبون؟!

١٢ - ماذا نفهم من قول النبي ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام»؟!

هل هي أصوات أقلام الملائكة وهي تكتب المقادير.. ما كان وما سيكون؟ أم أنه وصل إلى مستوى أطلعه الله فيه على لقطات غيبية من المستقبل سمع فيه أصوات (أزيز وقرقعة) أدوات الكتابة وما تسجل من علوم في المستقبل..؟!

كأنها رؤية مستقبلية لعالم يسوده الدأب على العلم وتحصيله.. وكأن النبي ﷺ قد رحل عبر آلة زمن إلى عالم المستقبل. والله أعلم.

* * *

أرنا آية..!!

عن أنس ﷺ أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما[(١)].

فهل آمنوا بعدها؟! بل قالوا: سحرنا محمد. فنزل قول الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٥٤/١-٣].

(١) رواه البخاري. وقد تعددت الروايات في ذلك.

أرى في هذه الحادثة برهاناً أبرزه الله لمحمد ﷺ ولنا وللناس جميعاً على أن المعجزات لم تعد تنفع في جعل الناس يؤمنون. ففي عقول الناس أفكار مسيطرة قد نشؤوا وعاشوا عليها، وفي نفوسهم أهواء جامحة ترفض الانضباط، والأمر يحتاج إلى جهد وبيان ووقت كاف حتى يستيقظ العقل فيرفض الباطل ويتحكم بالهوى.

ولعل هذه الحادثة تمثل المرة الوحيدة التي استجاب الله فيها لطلب الآية ليقيم الحجة عليهم، وليرى الجميع أن الكافر لا ينتفع بالمعجزة ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٥/ ١٤-١٥].

وقد سمعت حديثاً أن أحد علماء الفضاء أكّد أن في القمر شقّاً كبيراً قديماً[(١)]. ونحن لا ننكر آيات الله، فالله على كل شيء قدير. لكن الآيات التي تفرض الإيمان على الناس هي التي قدمت لهم أحسن نظام لحياتهم.

* * *

لا تهدي من أحببت

ولما حضرت الوفاة أبا طالب دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل. فقال: «أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلّمانه حتى قال آخر ما كلمهم به: على ملة عبد المطلب. فقال النبي ﷺ: «لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك». فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ٩/ ١١٣] ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٦][(٢)].

---

(١) ذكر ذلك الدكتور زغلول النجار في حديث له من إحدى القنوات الفضائية.

(٢) رواه البخاري.

وإنني لأتعجب من موقف أبي طالب وشدة تأثير الآبائية عليه، مع أنه كان يشعر في قرارة نفسه بصدق محمد، وأن ما يدعو إليه هو الخير..!! ولقد شجع ابنه علياً على الإسلام!!

فلنتأمل إيحاءات الحادث:

١ - شدة تأثير الآبائية على الإنسان.. مما يستوجب إعادة النظر باستمرار بما وجدنا عليه آباءنا مقارنة بما يكشف العلم من حق.

٢ - حرص (الآخر) على الحضور والشهود.. حتى موت أبي طالب لم يتخلفوا عنه ليؤدوا دورهم.. فكيف ينبغي أن يكون حضور صاحب الحق؟!

٣ - قلب الداعي المليء بالحب والرحمة يصمم على الاستغفار للمخطئ.

٤ - الهداية ليست بيد الداعي.. وإنما يختارها الإنسان باجتهاده فيعينه الله.

* * *

هل من بديلة عن خديجة؟

غابت الحبيبة والشريكة.. غابت التي كانت مؤنساً وسكناً وسنداً.. وها هو رسول الله ﷺ يعاني من حزنه ووحشته، وقد قضت حكمة الله سبحانه أن يختارها إلى جواره حتى لا يظن أحد أن دعوة الله لا تنتصر إلا بوجودها. وحتى يرى الجميع أن محمداً ﷺ يصدع بأمر ربّه ولو فَقَدَ عمه وزوجته.. ولقد كانت رحلة الإسراء والمعراج إيناساً للنبي ﷺ، ولكن هذا لا يغني عن الزوجة.. فإذا بالوحي يعطي الإشارة:

تقول عائشة رضي الله عنها قال لي رسول الله ﷺ: «أريتك في المنام فيجيء بك الملك في سرقة (لعلها قطعة أو خرقة) من حرير. فقال لي: هذه امرأتك، فكشفت عن وجهك الثوب فإذا أنت هي، فقلت: إن يكن هذا من عند الله

يُمضه»(١)، ولكن كيف سيتم ذلك..؟ وعائشة ما زالت طفلة عمرها ست سنين..؟ ولم يقم رسول الله ﷺ بأية مبادرة حتى جاءته إحدى المؤمنات خولة بنت حكيم (وهي امرأة عثمان بن مظعون) وقد شعرت أنها ينبغي أن تساعد النبي على الخروج من وحشته.. فقالت: يا رسول الله ألا تَزوَّج؟ قال: مَن؟ قالت: إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً. قال: فمن البكر؟ قالت: ابنة أحب خلق الله إليك عائشة ابنة أبي بكر. قال: ومن الثيب؟ قالت: سودة بنت زمعة قد آمنت بك واتبعتك. قال: فاذهبي فاذكريهما علي(٢).

وكانت سودة زوجة للسكران بن عمرو وقد أسلم وهاجر إلى الحبشة ثم عاد إلى مكة ومات فيها.

فلما خطب النبي ﷺ عائشة إلى أبي بكر قال له أبو بكر: إنما أنا أخوك، فقال ﷺ: «أنت أخي في دين الله وكتابه وهي لي حلال»(٣) ولكن الزواج من عائشة لم يتم إلا بعد ثلاث سنوات في المدينة. فتوجه الأمر إلى سودة وكان لها خمس صبية (أو ست) من بعلها الذي مات، فقال لها ﷺ: «ما يمنعك مني»؟ قالت: والله يا نبي الله ما يمنعني منك ألا تكون أحب البرية إلي ولكني أكرمك أن يضغو هؤلاء الصبية عند رأسك بكرة وعشية.. فقال لها ﷺ: «يرحمك الله. إن خير نساء ركبن أعجاز الإبل صالح نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرعاه على بعل بذات يده»(٤).

نمضي في تأمل هذا الموضوع:

١ - كان رسول الله ﷺ حزيناً وحيداً لم تبد منه بادرة تشير إلى الرغبة في الزواج، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد إخراجه من ذلك.

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه الإمام أحمد.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه الإمام أحمد.

٢ - إن الله سبحانه الذي اختار خديجة ﵂ لأداء دور الشريكة الأولى في الدعوة المسانِدة والناصِرة والداعمة للنبي في الفترة الصعبة الأولى من إنشاء المجتمع.. قد اختار عائشة لمتابعة المهمة في إكمال بناء المجتمع فتكون الشابة الذكية التي تحضر وتشهد كل شيء، وتحفظ العلم بذاكرتها الفتية، لتكون مرجعاً للمسلمين في معرفة دينهم وحلّ مشاكلهم، حتى إن الصحابة كان إذا أشكل عليهم أمر رجعوا إلى عائشة فسألوها عنه.

٣ - بشارة الملك للنبي ﷺ بأن تكون عائشة زوجة له فيها إيناس ودفع له لأن يتجه نحو هذا الأمر. ومع ذلك يسكت عنه حتى تأتي مبادرة خولة بنت حكيم.

٤ - مبادرة خولة تصور نفسية المؤمنة التي تتصدى لشؤون مجتمعها وتحس بأن لها دوراً إيجابياً في مساعدة إخوانها وأخواتها على تحسين ظروف الحياة والأسرة. وتصور وعي المؤمنة وجرأتها في اقتراحها على النبي الزواج بل وتعرض عليه من ترشح من المؤمنات.. لم تترك الأمر لله يدبر أمر نبيه.. ولم تشعر بالتهيُّب والخجل من أن تقترح على النبي ﷺ أمراً يتعلق بحياته الشخصية..

٥ - علاقة النبي ﷺ مع المؤمنات كانت علاقة تقدير وتكريم وإدراك لمواهب المرأة وقدراتها، وأن ذكاءها الاجتماعي يؤهلها لأداء أدوار إيجابية ممتازة.. فهو يثق بها ويستجيب لاقتراحها.

٦ - قول خولة عن عائشة (أحب خلق الله إليك) لافت للنظر.. فما سرُّ هذا الحب الكبير الذي ظهر في وقت مبكر من حياة عائشة ﵂؟!

لا شك بأن الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف.. ولا شك بأن لعائشة ميزات ظهرت منذ طفولتها جعلتها مؤهلة لهذا الحب.

ولنا أن نلاحظ أن الحب الكبير الأول لخديجة كان يشبه حب الأم. بينما الحب الثاني لعائشة كان كحب البنت. وهما مرحلتان في حياة النبي ﷺ تتناسبان - فيما يبدو - مع ظروف الدعوة وبناء المجتمع.

٧ - ونحن بمنطق عصرنا نستغرب فارق العمر بين النبي وعائشة.. كما نستغرب أن تكون خديجة أكبر من النبي بأكثر من عشر سنوات، وتكون الزيجة ممتازة في نجاحها.. ولكن المتأمل في ذلك العصر يرى أن العمر لم يكن له أية أهمية في الزيجات عندها.. فقد تزوج زيد بن حارثة (وكان في عمر أولاد النبي) من أم أيمن وكانت حاضنة النبي ﷺ في صغره - وتزوج عمر ﷺ من ابنة علي كرَّم الله وجهه أم كلثوم الصُّغرى، وكان عمر أكبر من علي. وعلينا ألا ننسى أن للعرف الاجتماعي دوره في تقييم الأمور.. وألا نستهجن ما يخالف عرفنا ومقاييسنا في هذا العصر. فلكل عصر أعرافه.

٨ - كذلك نستغرب أن يخطب النبي ﷺ امرأتين معاً.. كما يستغرب كثيرون عدد زوجات النبي بعد ذلك. ولكن هذا الأمر لم يكن فيه أي بأس في ذلك الزمان.. ونجد أن معاصري محمد ﷺ من أعدائه لم ينتقدوه على زيجاته مع أنهم كانوا يترقبون السقطة ليهاجموه بها. اللهم إلا زواجه من زينب مطلقة متبنّاه زيد لأنه تحدى به عرفاً جاهلياً سائداً أراد الله إلغاءه لإعادة الحق إلى نصابه ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٠]، ولعلنا نتكلم عن ذلك فيما بعد في موضعه.

٩ - كانت عائشة هي الحبيبة لكنها طفلة في ذلك الحين.. ورسول الله ﷺ محتاج إلى امرأة ناضجة تقوم على شؤونه وتلملم عياله.. ولهذا عجل بالزواج من سودة.. مادحاً الصالحات من نساء قريش «أحناه على ولد في صغره وأرعاه على بعل بذات يده».

١٠ - نرى في الخبر مدى إشفاق أم المؤمنين سودة على رسول الله ﷺ من عيالها أن ينغصوا عليه.. ومدى حرصها عليهم فهي تتأخر عن الأمر محتارة حتى صارحت النبي بمشاعرها فأكبر فيها الحنو على الولد والزوج..

* * *

موقف النبي ﷺ من المرأة

أخيراً أقول: إن أجمل ما في الأمر هو موقف النبي ﷺ من المرأة.. فهو يصرح بحبه لنسائه، ولا يجد غضاضة في ذلك «حبب إلي من الدنيا النساء والطيب. وجعلت قرة عيني في الصلاة»(١).. ويقول للرجال: «خير متاع الدنيا المرأة الصالحة».. لم يكن يستغني عنها في حلّ أو سفر.. فما خرج مرة للغزو أو في سفر إلا واصطحب إحدى زوجاته..

وهو يحب بناته ويكرمهن ولا يرد لهن طلباً، حتى حين شفعت زينب لزوجها المشرك وأجارته حين لجأ إليها (بعد أن أسره المسلمون في سرية).

وهو يحب أمه ويقف عند قبرها باكياً.. ويقول لمن سأله: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ «أمك.. ثم أمك.. ثم أمك.. ثم أبوك».

وهو يحب أخواته المؤمنات ويمنحهن الثقة والتقدير، ويسمع مشورتهن..

سنجد هذا مَعْلَماً في حياة النبي ﷺ الذي بذّ الجميع في حسن معشره للنّساء حتى لا يقاربه أفضل نصير للمرأة في العالم..

تصف إحدى نسائه أنهم كانوا في سفر فأناخ البعير وجلس إلى جانبه رافعاً ركبته كي ترقى زوجته إلى هودجها(٢) - جعل من نفسه سلماً لها - وتروي إحداهن أنها كانت تنام مع النبي ﷺ حين أصابها الحيض فتلطخ ثوب النبي بالدم.. فما كان منه إلا أن قام وغسل ثوبه بكل بساطة.. دون أن يصدر عنه تذمّر(٣).. أو أي أمر بأن تغسله هي.. هذا غيض من فيض.. من دماثته وحبه وتلطفه مع المرأة.

❀ ❀ ❀

(١) رواه أحمد والنّسائي.

(٢) رواه البخاري. والزوجة هي صفية.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسند عائشة.

٩- النبي ﷺ يتطلع إلى خارج مكة

هل يستجيب أهل الطائف؟

أحسَّ محمد ﷺ أن أهل مكة ماضون في عنادهم وإعراضهم وإيذائهم، ففكر بأن يخرج بالدعوة من أسر مكة.. لم لا يتوجه إلى القرى من حولها فعسى أن يستجيبوا ويؤمِّنوا له الحماية حتى يبلغ دعوة ربِّه..! وكانت أقرب القرى إلى مكة الطائف.. وفيها قبيلة ثقيف.. فخرج إليها النبي ﷺ، فلما وصل عمد إلى عدد من سادة ثقيف وأشرافهم وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل ومسعود وحبيب بن عمرو[١]، فجلس إليهم، فدعاهم إلى الله وكلمهم لما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك. وقال الآخر: أما وجد الله أحداً أرسله غيرك؟ وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً؛ لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك، فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف. وقد قال لهم: إن فعلتم ما فعلتم فاكتموا علي. وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم (أي يحرش بينهم ويقويهم) ذلك عليه، فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه، ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس، وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن

---

(١) وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح.

ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه. فعمد إلى ظل حبلة (القضيب من شجر الأعناب) من عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما يلقى من سفهاء أهل الطائف، وقد لقي رسول الله ﷺ المرأة التي من بني جمح فقال لها: ماذا لقينا من أحمائك!! فلما اطمأن قال:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى لا حول ولا قوة إلا بك».

فلما رآه ابنا ربيعة وما لقي تحركت له رحمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له: عداس وقالا له: خذ قطفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه. ففعل عداس، ثم ذهب به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له: كُل. فلما وضع رسول الله ﷺ يده فيه قال: بسم الله. ثم أكل.. نظر عداس في وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد! فقال له رسول الله ﷺ: ومن أهل أي بلاد أنت يا عداس وما دينك؟ قال: نصراني وأنا رجل من أهل نينوى[1]. فقال ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى»، فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال رسول الله ﷺ: ذلك أخي؛ كان نبياً وأنا نبي.. فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.. فقال أحد أبناء ربيعة لصاحبه (أخيه): أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاء عداس قالا له: ويلك يا عداس ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير

(١) نينوى: على الضفة الشرقية لنهر دجلة ...

من هذا لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي. قالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير[١]..

في هذا الخبر نجد:

١ - رسول الله ﷺ يحاول التحرر بالدعوة من قيود المكان. فالدعوة عالمية ولعل القبائل الأخرى تقبل الخير الذي رفضته قريش، وكثيراً ما يكون (مزمار الحي لا يطرب) وبعض العباقرة تنكرت لهم أقوامهم وعرفوا في غير بلدهم.

٢ - اختار النبي ﷺ أقرب بلد، واختار أن يبدأ بالحديث مع سادتها.. لأن أمر توجيه الناس بأيديهم.. فإن أسلموا أثروا في الناس وعندها يستطيع أن يجعل الطائف مركز إشعاع للجميع.. أما إن أعرضوا وكذبوا فإن الأمر يصبح كما هو عليه في مكة من تضييق على الداعي ودعوته ومنع الناس من السماع له.

٣ - موقف سادة ثقيف يدل على نفوس مستكبرة وقاسية.. لم يكفهم أن سخروا من محمد ﷺ.. بل إنهم تنكروا لقواعد الضيافة التي اشتهر بها العرب.. وسلطوا عليه سفهاءهم ليضربوه ويطردوه.

٤ - نستشف من الخبر معاناة النبي ﷺ الذي يطلب منهم أن يكتموا خبر دعوته لهم.. إذ إنه لا يريد أن تسمع قريشاً بذلك فيزداد أذاها وانتفاخها.

ثم تذوب قلوبنا حناناً على رسول الله ﷺ الذي يبذل جهده لإنقاذ الناس من نار الدنيا والأخرة.. ويتلقى الرجم بالحجارة حتى تسيل الدماء من قدميه صلوات الله وسلامه عليه.. ولم يتخلص منهم إلا باللجوء إلى بستان عتبة وشيبة.

٥ - ويفزع النبي ﷺ إلى ربه مناجياً بهذا الدعاء الرقيق.. يشتكي فيه إلى الله ويستعيذ من غضبه: «إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي».

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ١٣٥.

والداعي محتاج إلى هذه الصلة الحميمة مع ربّه.. وإلا انقصم ظهره ونفد صبره ..﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ [طه: ٢٠/٤٢]. هكذا جاء التكليف لموسى مع الإرشاد إلى الزاد اللازم لأداء الرسالة: ذكر الله تعالى. ورسول الله ﷺ خائف من أن يكون قد أخطأ في أمر استوجب من الله العقاب، فهو يستعيذ بالله من ذلك: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات.. من أن تنزل بي غضبك» فهو دعاء واستغفار وذكر وتعظيم وحب كبير لله..

٦ - رسول الله ﷺ طبيعي جداً في علاقته مع المرأة.. فهذه امرأة من قريش يلتقي بها هناك في ثقيف فيبثها شيئاً من همه «ماذا لقينا من أحمائك»؟! ألا يستغرب المسلم هذه اللفتة؟! إنه لم يتجاهلها أو يعرض عنها.. بل نظر إليها كإنسانة تتألم وتتعاطف مع المظلوم.

٧ - موقف عتبة وشيبة يدل بوضوح على نجاح أسلوب اللاعنف فهما متعاطفان مع المظلوم. وإن كان الراوي يعلل ذلك بانعطاف الرحم (الحمية للقرابة) فقط. لكن الناس كلهم لآدم ولا بد أن يتعاطف الإنسان مع معاناة البشر. وحتى حين أحسّا أن محمداً قد فتن غلامهما لم يوجها إليه أذى.

٨ - نتأمل هنا إسلام عداس.. سبحان الله كيف يواسي نبيه.. انظر يا محمد فلئن أعرض عنك السادة فإن الذي عنده علم من الكتاب لا بد أن يعرف ما عندك من الحق. وماذا يساوي هؤلاء الأشراف والسادة أمام عداس الذي يملك عقلاً نيّراً يحاكم الأمور وقلباً صافياً..؟!

ومحمد ﷺ الذي تعلم من ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ٨٠/١-٢] الكثير يتلطف بعداس ويحاوره ويعرض عليه الحق. ويتلقى من تكريم عداس وإيمانه ما يثلج صدره وينسيه معاناته.

* * *

هل من عودة إلى مكة؟

ويعود الرسول ﷺ من الطائف حائراً كيف يدخل إلى مكة وقد أهدروا دمه..؟! يقف على مشارف مكة حائراً ماذا يصنع؟ تقول عائشة رضي الله عنها سألت رسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أُحد؟ قال: «ما لقيت من قومك كان أشد منه يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال(١)، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. ثم ناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد قد بعثني الله، إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال قد بعثني إليك ربك لتأمرني ما شئت، إن شئت تطبق عليهم الأخشبين (جبلان حول مكة) فقال رسول الله ﷺ: «أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً»(٢).

ثم أخذ النبي ﷺ يرسل إلى بعض سادة قريش طالباً الدخول في جوارهم.. إلى أن أرسل إلى المطعم بن عدي ليجيره فقال: نعم.. فذهب إليه رسول الله ﷺ فبات عنده تلك الليلة، فلما أصبح خرج معه هو وبنوه ستة أو سبعة متقلدي السيوف جميعاً فدخلوا المسجد وقال لرسول الله ﷺ: طف... فأقبل أبو سفيان إلى مطعم فقال: أمجير أو تابع؟ قال: لا بل مجير.. قال: إذاً لا تخفر(٣) (أي لا ننقض جوارك). فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة توفي مطعم بن عدي بعده بيسير.. فلما كانت المعركة في بدر للمسلمين ونظر النبي ﷺ إلى أسرى

---

(١) يشير إلى ذهابه إلى سادة ثقيف.
(٢) ثبت في الصحيحين.
(٣) البداية والنهاية، ٣/١٣٧.

المشركين قال ﷺ: «لو كان المطعم بن عدي حياً ثم سألني في هؤلاء النقباء لوهبتهم له»[(١)] نمضي في تأمل الحدث:

١ - صَدَقَ رسول الله ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» وعلى الدعاة أن يدركوا أهمية البلاء، فالمحنة التي لا تقضي عليك تزيدك قوة. إن البلاء يقدح زناد الفكر ليبتكر الحلول ويتخير الأصلح.

٢ - رسول الله ﷺ وهو في قلب المعاناة يُعرض عليه إهلاك قومه الذين كذبوه وآذوه حتى إنه يحتار كيف يعود ليدخل إلى داره في مكة فقد أهدروا دمه.. لكنه يرفض هذا الخيار.. بل يفضل أن يصبر ويحتمل فلئن لم يؤمن هؤلاء فسيخرج من ذرياتهم من يؤمن بالله.. ما هذا النظر المستقبلي الرائع..؟!

صلوات الله عليك يا رسول الله.. لو نستطيع أن نقبس من بعد نظرك شيئاً.. لو نقدر أن نحب كما أحببت.. ونرحم كما رحمت.. ونخدم الحق كما خدمت..

٣ - كان ﷺ يعشق مكارم الأخلاق ولا ينسى لأهل الفضل معروفهم.. ولقد تمنى أن يكافئ المطعم على معروفه وقبوله لحمايته.

٤ - أهمية إدراك الجوانب الجيدة في تقاليد كل مجتمع لتسخيرها لخدمة الدعوة وحماية الخير؛ انظر إلى عادة (الجوار) في الجاهلية كيف كانت واحة نبيلة في صحراء الجهالة استظل بها النبي والمسلمون.

* * *

(١) المصدر نفسه، ٣/١٣٨.

يعرض نفسه على القبائل: من يحميني حتى أبلغ دعوة ربي؟

أصبح رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم في مكة على قبائل العرب يدعوهم إلى الله عز وجل ويخبرهم أنه نبي مرسل ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به.

عن ربيعة بن عباد (من بني الدئل) - وكان جاهلياً فأسلم - قال: رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» والناس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب - يتبعه حيث ذهب - فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب[١]. وفي رواية أنه ﷺ كان يتبع الناس في منازلهم (المكان الذي يخيمون فيه).

ومن بين من تحدث إليهم ﷺ بنو عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم يقال له بحيرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب. ثم قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من يخالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «الأمر لله يضعه حيث يشاء» قال: أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك. فأبوا عليه فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كان أدركه السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم فقالوا: جاءنا فتى من قريش ثم أحد بني عبد المطلب يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا. قال: فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال: يا بني عامر هل لها من تلاف؟ هل لذناباها من

---

(١) رواه الإمام أحمد.

مطلب[1]؟ والذي نفس فلان بيده ما تقوّلها إسماعيلي قط، وإنها لحق فأين رأيكم كان عنكم[2]؟!

وكان ﷺ ما يأت أحداً من تلك القبائل إلا قال: قوم الرجل أعلم به، أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظوه؟! وكان ذلك مما ذخره الله للأنصار وأكرمهم به[3].

وفي رواية أنه ﷺ كان يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول: «هل من رجل يحملني إلى قومه فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل» فأتاه رجل من همدان فقال ﷺ: ممن أنت؟ قال الرجل: من همدان. قال: فهل عند قومك من منعة؟ قال: نعم. ثم إن الرجل خشي أن يخفره قومه فأتى رسول الله ﷺ فقال: آتيهم فأخبرهم ثم آتيك من عام قابل.. قال: نعم. فانطلق وجاء وفد الأنصار في رجب[4].

بأبي أنت وأمي يا رسول الله وأنت تبذل جهدك باحثاً عن مخرج للدعوة من تضييق قريش.. تطوف بالأسواق في المواسم، وتتبع الوفود إلى منازلها تنادي بالناس: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا..

وهل ضاع العالم الإسلامي وفقد فلاحه إلا لأنه جهل معنى هذه العبارة؟!

- وانظر إلى صبره على عمه الذي يتبعه حيثما حلّ ليصد الناس عنه..

- وانظر إلى قول القبائل: (قوم الرجل أعلم به) مما يدل على نجاح أبي لهب في مسعاه.. وهو كلام ظاهره الحكمة وباطنه فيه الخطأ والضلال.. فمن شأن

---

(١) أي: هل يمكن أن تستدرك هذه الغلطة التي وقعتم بها حين أعرضتم عن النبي ففاتكم السبق إلى نصرته.

(٢) البداية والنهاية، ٣/ ١٤٠.

(٣) المصدر السابق، ٣/ ١٤١.

(٤) رواه أهل السنن الأربعة، ٣/ ١٤٠.

الأقوام أن تتشبث بتقاليدها وأفكارها التي ألفتها.. وتتصدى لمن يخرج فيها مجدداً يطالب بنسخ التقاليد الضارة البالية.

- وانظر إلى صبره ودأبه والقبائل ترفضه وتعرض عنه.. فهلا قبس الدعاة منه بعض هذا الصبر والدأب.. دون أن يفارقه لطفه ورفقه في عرض دعوته على الناس..

- وتأمل محاولته مع بني عامر بن صعصعة.. وقد تحركت مطامعهم لسيادة العرب إن هم أخذوا النبي إليهم وحموه..

لكن رسول الله ﷺ لم يلوح للناس بمكاسب الدنيا ولم يعدهم بشيء، كان يقول للناس: أدوا واجبكم ولكم عند الله الجنة.

إن دعوة الله لا يخدمها عبيد الدنيا.. وإن دين الله لا يحمله بقوة إلا من أخلص لله وجهه.. أما طلاب المغانم فهم أتباع لها حيث كانت، لا تهمهم القيم والمبادئ والأخلاق.. وإنما هم وراء المغانم.

- وما أعظم وضوح النبي ﷺ وتحديده الدقيق للأمور منذ البداية.. لم يخطر في باله أن يسايرهم ويذهب معهم.. فلعلهم بعد ذلك يفهمون دعوة الله ويتغيرون.. لم يفعل ذلك أبداً.. فإن من يتصدى لبناء المجتمع المسلم لا بد أن يكون قلبه خالصاً لله.. وهذا أمر يختلف عن تأليف القلوب بعد ذلك.. لأن المؤلفة قلوبهم وجدوا بعد أن قام المجتمع المسلم على قدميه.. وكانوا رجالاً على الهامش أوقف النبي كيدهم وأذاهم ببعض المال والغنائم.

- وانظر إلى حكمة شيخ بني عامر.. فقد أدرك من وصف قومه ومن ذكر نسب النبي ﷺ أنه صادق فأقسم قائلاً: (والذي نفسي بيده ما تقوّلها إسماعيلي قط[1].. وإنها لحق فأين رأيكم كان عنكم؟) إنها نظرة ثاقبة في الأنساب والتاريخ.

---

(١) أي ما سبق لأحد من أبناء إسماعيل، عليه السلام، أن ادعى النبوة.

- وذاك الرجل من همدان تلكأ عن الخير حتى أفلت الخير من بين يديه وذهب إلى غيره.. وهكذا هي الفرص ناس يفرطون فيها ويضيعونها.. وناس يعرفون كيف يقتنصونها.. وهكذا سبق الأنصار.. ولهذا قالت العرب: خير البر عاجله.. ولا تؤخر عمل اليوم إلى الغد..

- والحكمة هي أن تعرف متى تبادر وتغتنم الفرص.. ومتى تتأنى وتتدبر وتتريث.. ففي العجلة الندامة في أمور كثيرة.

ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال لأشجّ عبد القيس: «إن فيك لَخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»[١] وذلك أنه جاء مع وفد قومه فلما وصلوا إلى مسجد رسول الله قفزوا إلى لقائه من فوق رواحلهم.. أما هو فقد عمد إلى الرواحل فعقلها وبدل ملابسه وتطيب ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ. فهذا نموذج للأناة في محلها.

وأما حنظلة فقد سمع النداء إلى الجهاد وهو مع عروسه.. فقام إلى سلاحه وانطلق إلى المعركة فاستشهد وغسلته الملائكة حتى صار يدعى (غسيل الملائكة).. فهذا نموذج للتعجيل إلى الخير.

* * *

بيعة العقبة الأولى

وقد هيأت لها ظروف الحياة في المدينة (التي كان اسمها يثرب قبل مقدم النبي ﷺ إليها) فقد كان سكانها من الأوس والخزرج في نزاع دائم.. تقول عائشة رضي الله عنها: كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله، قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد افترق ملاؤهم وقتل سراتهم[٢] وبعاث موضع بالمدينة كانت فيه وقعة عظيمة قتل فيها خلق من أشراف الأوس والخزرج وكبرائهم.. فهم بحاجة إلى من يلملم جراحهم وينهي صراعهم ويجمعهم على غاية واحدة.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري. وملاؤهم: أشرافهم الذين يُرجع إلى قولهم.

ومن جهة أخرى كان اليهود جيران الأوس والخزرج يتحرشون بهم ويسعون إلى السيطرة على المدينة، ويهددون أهلها بنبي جديد هذا زمانه يتبعه اليهود فيقتلون العرب، ويأخذون أرضهم وأموالهم. ولا شك بأن هذا الخبر كان يغيظ أهل يثرب ويشعرهم بالخطر.

وقد سبق للنبي ﷺ أن التقى ببعض أهل يثرب أثناء المواسم ولمس منهم إصغاء.. حتى قيل: إن بعضهم أسلم ومات قبل بيعة العقبة الأولى..

فلما كان الموسم الذي قبل الهجرة بعامين خرج رسول الله ﷺ كعادته يعرض نفسه على القبائل. فبينا هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج.. فقال لهم: «من أنتم؟» قالوا: نفر من الخزرج، قال: «أمن موالي يهود؟» قالوا: نعم. قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى. فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم. وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا: إن نبياً مبعوث الآن قد أظل زمانه نتبعه نقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله؛ قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون - والله - إنه النبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا[١]. وهم ستة نفر منهم أسعد بن زرارة (من بني النجار أخوال النبي) من الخزرج وأبو الهيثم بن التيهان من الأوس.

(١) البداية والنهاية، ٣/١٤٩.

فلما رجعوا إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلما كان العام المقبل وافى الموسم منهم اثنا عشر رجلاً. عن عبادة بن الصامت قال: كنت ممن حضر العقبة الأولى وكنا اثني عشر رجلاً فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفترض الحرب على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف. فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر[1] وفي رواية: «وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له. وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله..».

فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين.. فنزل مصعب على أسعد بن زرارة فكان يسمى بالمدينة: المقرئ.

نعود لنتأمل هذه الإرهاصات التي كانت تمهيداً للهجرة:

١ - يوم بعاث وصراع الأوس والخزرج.. تقول عائشة رضي الله عنها هذا مما صنع الله لنبيه.. (صوت صارخ في البرية: أعدوا طريق الرب واجعلوا سبله قويمة)[2] فليتأمل الدعاة في أرض الله العطشى المليئة بالصراع والفتن.. إن العالم الآن قارب أن يعلن إفلاسه.. والناس تبحث عن خلاص.. فأين الدعاة القادرون على عرض الحل الإسلامي الواقعي ليكون فيه الإنقاذ للعالم..؟ هل يملكون ما يلزم من إخلاص وصواب..؟!

٢ - سلوك اليهود مع الأمم كان طابعه السيطرة والاستغلال وليس الهداية والإنقاذ.. ولهذا نراهم قد حفروا قبورهم بأيديهم ولا يحيق المكر السيئ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) إنجيل متى، رقم ٢ من الفصل الثالث.

إلا بأهله، وكل المستكبرين في العالم يغفلون عن هذه السنّة إن كيدهم وبطشهم يعجل في بزوغ الحق ويقصّر آجالهم. فسبحان الله ما أشدّ غفلة الطغاة وما أكثر استعجال الدعاة..؟!

٣ - بيعة العقبة الأولى قد هيأت اثني عشر داعياً أعطوا الميثاق على أداء الواجبات وعلى القيام بهذه الدعوة دون أن يكون لهم أي مطمح دنيوي (فإن وفيتم فلكم الجنة).. وإن بناء المجتمع الرّباني الجديد لا يصلح له إلا رجال يريدون رضا الله وجنته. ومحمد ﷺ لم يعدهم بأية حقوق دنيوية.

٤ - إرسال مصعب بن عمير ليرسخ الإسلام في المدينة ويعلم المسلمين القرآن ويفقههم في الدين.

❁ ❁ ❁

مصعب بن عمير (أول داعية للإسلام في المدينة)

وأي رجل كان مصعب بن عمير؟! وأي رجل أصبح بعد إسلامه..؟!

كان قبل إسلامه شاباً مترفاً مدللاً من أمه.. يتأنق في ملبسه ويتيه بعطره في أزقة مكة.. حتى إن أهل مكة يعرفون الطريق الذي مشى فيه مصعب من رائحة العطر التي تركها فيه..

لا شك أنه كان في أعماقه تائهاً ضائعاً.. لا يجد شيئاً يملأ عليه فراغه.. لماذا يعيش..؟ وماذا يفعل..؟ وإلى أين المصير..؟ لا شك أنه كان يهرب من نفسه إلى العناية بأناقته وهندامه.. فإن قريشاً وأصنامها وتقاليدها لم تعطه مبرراً لوجوده، ولما عرف الإسلام وسمع القرآن فكأنه ولد من جديد.. أو بعث من بين أكفانه (الأنيقة).. وحاولت أمه تقييده بالترف، وتهديده بالحرمان، ولكن دون جدوى فهيهات لمن استعاد كرامته الإنسانية وأدرك سر وجوده ونعلق بربّه أن ينثني.. هاجر إلى الحبشة مع من هاجر، ثم عاد إلى مكة مع من عاد،

عندما سرت إشاعة إسلام قريش.. وحرص على تلقي القرآن من النبي ﷺ، وتدرب على الحب والرفق بين يديه.. فلما كانت بيعة العقبة الأولى وقع اختيار النبي ﷺ عليه ليكون أول داعية يرسل لنشر الدعوة خارج مكة. فماذا فعل مصعب في المدينة..؟

أسوق خبراً من سعي مصعب في نشر الدعوة في المدينة يمثل نموذجاً: خرج أسعد بن زرارة بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة.. فدخل به حائطاً (بستاناً) من حوائط بني ظفر.. فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم. وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد لأسيد: لا أبا لك انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما أن يأتيا دارينا فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً. فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب: هذا سيد قومه وقد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال: فوقف عليهما متشتماً فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.. فقال له مصعب: أوَتجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن.. فعرفا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن: سعد بن معاذ. ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب من عندكم فلما وقف على النادي قال

- أمام هذا العرض الهادئ لا يملك صاحب اللب إلا أن يقول أنصفت، ولا بد أن نعترف بما كان عند العرب - قبل الإسلام - من ميزات حيث كانوا قوماً على الفطرة في سلامة محاكمتهم للأمور وحبهم للإنصاف.. وحرصهم على نصرة أقربائهم.. والله أعلم حيث يجعل رسالته.. وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»(١).

- كما نلمس فراستهم في إدراك ما حصل من تغير في فكر الإنسان من تعابير وجهه.. وإنه لأمر عجيب وهام أن تنعكس الأفكار على قسمات الوجه فتنبسط الأسارير، وترتاح عضلات الوجه من التوتر حين يهتدي الإنسان إلى رحمة الله.. وهو بحث يستحق أن تقدم فيه دراسات نفسية و (فيزيولوجية).

- ونجد أسيداً يحتال ليُسمع سعداً دعوة الله ويستعمل في ذلك إثارة نخوته للقرابة.. فهل في ذلك من بأس؟! حين نرى العاقبة الجيدة لا نتحرج وهذا شبيه بترخيص الرسول ﷺ للكذب عند الإصلاح بين الناس.

- وندهش حين نرى إسلام قوم سعد بإسلامه.. وهكذا الناس تتبع النخبة الموثوق بها.. ويذكرنا هذا بحديث توينبي عن النخبة المبدعة التي تحظى بثقة الناس فيها لنزاهتها ورجاحة عقلها.. فتتبعها كما يتبع الناس ألحان (أورفيوس) الذي يعزف بمزماره ما يفتن الناس (كما تقول أُسطورة اليونان) لكن هذه التبعية يجب أن تدعم بالتوعية والتعليم حتى لا يبقى الناس أتباعاً لكل ناعق.. وقد حرص الأنبياء على إخراج الإنسان من التقليد لآبائه وسادته إلى الاختيار الواعي.. (اعرف الحق تعرف رجاله).. وإن كانت مرحلة الأشخاص هي إحدى المراحل في تطور الإنسان المعرفي كما يقول مالك بن نبي(٢).

- وميزة المسلمين الأوائل أنهم كانوا يسارعون في الخيرات.. السرعة في الاقتناع والسرعة في تغيير المسار إلى الخير.. إنها سمة امتياز عند أصحاب النبي ﷺ حين يقارنون بتلكؤ الناس في عالمنا.. رضي الله عنهم وأرضاهم.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) راجع كتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي - الفصل الثاني (الطفل والأفكار).

ولعل هذا راجع إلى ضعف ونقص في بيان الحق في عالمنا.. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له شروطه (إخلاصاً وصواباً) وإلا بقي كلاماً يُرد ويعاد.. وقد يصبح أحياناً مؤذياً. رحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية كم تحدث عن شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. (العلم قبل الأمر والرفق مع الأمر والصبر بعد الأمر.. والبدء بالمنكر الأكبر.. وإذا كان نهيك عن المنكر سيؤدي إلى منكر أكبر فلا تفعل..)(١).

* * *

حتى متى نترك رسول الله يطرد في جبال مكة ويخاف؟

بيعة العقبة الثانية

في حديث لجابر بن عبد الله يقول: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم عكاظ ومجنة، وفي المواسم يقول: «من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة» فلا يجد أحداً يؤويه ولا ينصره، حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر.. فيأتيه قومه وذوو رحمه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمضي بين رحالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به، ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعاً فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟ فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا، فقلنا: يا رسول الله، علام نبايعك؟ قال: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله

(١) يراجع كتاب (الحسبة في الإسلام) لابن تيمية.

لا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة»، فقمنا إليه وأخذ بيده أسعد بن زرارة - وهو من أصغرهم إلا أنا - فقال: رويداً يا أهل يثرب فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة وقتل خياركم وتعضكم السيوف. فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله. قالوا: أبط عنا (أزح عنا إبطك) يا أسعد فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها أبداً. قال: فقمنا إليه، فبايعناه، وأخذ علينا وشرط أن يعطينا على ذلك الجنة(١). وفي رواية عن كعب بن مالك يصف ذهابهم إلى لقاء رسول الله دون علم المشركين الذين جاؤوا معهم من المدينة حجاجاً. قال: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي إحدى نساء بني سلمة وهي أم منيع. والعرب كثيراً ما تحذف الكسر (حين قالوا سبعين وهم ثلاثة وسبعون). فلما اجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال: يا معشر الخزرج! وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها - إنَّ محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزة من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه

---

(١) رواه الإمام أحمد.

بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده. فقلنا له: قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام. قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، فأخذ البراء بن معرور بيده وقال: نعم فوالذي بعثك بالحق لنمنعنك مما تمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كابراً عن كابر.. فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم» قال كعب: وقد قال رسول الله ﷺ: «أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم» فأخرجوا منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. (وعدد ابن إسحاق أسماءهم)[1].

وتسامع المشركون بخبر البيعة.. وقال رسول الله للأنصار: «ارفضوا إلى رحالكم» فقال أحدهم: والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنَّ على أهل منى غداً بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم» فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا فيها حتى أصبحنا، فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش (أي كبراؤهم) حتى جاؤونا في منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج! إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم. قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون ما كان من هذا شيء وما علمناه - وصدقوا لم يعلموا - قال: وبعضنا ينظر إلى بعض. ثم قام القوم...

(١) البداية والنهاية، ٣/ ١٦١.

وفي رواية أنهم أتوا عبد الله بن أبي بن سلول فسألوه فقال: ما كان قومي ليتفرقوا على مثل هذا وما علمته كان. (وكان يرى نفسه زعيماً لقومه فلا يمكن أن يحدثوا أمراً دون استشارته). ونفر الناس من منى ودققوا في الأمر فوجدوه قد كان، فخرجوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر والمنذر بن عمرو.. وكلاهما كان نقيباً، فأما المنذر فأعجز القوم وأما سعد بن عبادة فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجمته - وكان ذا شعر كثير - قال سعد: فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع علي نفر من قريش فيهم رجل وضيء أبيض.. فقلت في نفسي إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا. فلما دنا مني رفع يده فلكمني لكمة شديدة، فقلت في نفسي لا والله ما عندهم بعد هذا من خير، فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ أوى لي رجل ممن معهم؟ قال: ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟ قلت: بلى والله لقد كنت أجير لجبير بن مطعم تجاره وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس، فقال: ويحك فاهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما. ففعلت وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما في المسجد عند الكعبة فقال لهما: إن رجلاً من الخزرج الآن ليضرب بالأبطح ليهتف بكما، قال: ومن هو؟ قال: سعد بن عبادة. قالا: صدق والله.. فخلصاه. فانطلق وكان الذي لكم سعداً سهيل بن عمرو.. والذي أوى له (سعى في خلاصه) أبو البختري بن هشام[(١)].

لنتأمل بيعة العقبة الثانية التي كانت منعطفاً هاماً في تطور الدعوة حتى أصبحت مجتمعاً ودولة قائمة على الفكرة.

١ - البيعة هي عهد الله.. فما هو الضمان للوفاء بهذا العهد؟

الضمان الأساسي هو الإيمان بالله.. فلقد كان العهد مع الله بنصرة رسوله ودعوته.. هو صفقة مع الله يقوم على الالتزام بها ضمير المؤمن.

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ١٦٣.

والضمان الثاني هو ما عرف عند العرب قبل الإسلام من شهامة والتزام بالعهود.. حتى إن الرجل ليقتل ولا يعود في كلامه.

٢ - هذه البيعة تمثلها الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ٩/١١١] ليس فيها ذكر لحقوق الدنيا وغنائمها.. إنها بيعة على البذل المستمر لله.. طلباً للنجاة في الآخرة.. هؤلاء المبايعون هم الدعامات التي قام عليها المجتمع الإسلامي الأول.

٣ - نباهة أسعد بن زرارة حين يبادر - قبل أن يبايعوا - بتبصيرهم بما ستجره عليهم هذه البيعة من متاعب عاجلة (إن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة وقتل خياركم وتعضكم السيوف..) لأن من لم يدرك تكاليف الأمر الذي يقدم عليه يقع في الاستسهال.. فلما تأتي الصعوبات والعقبات ينقلب على عقبيه ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ٢٢/١١]، أما من أدرك الصعوبات المتوقعة وعرف ما ينبغي بذله من جهد للوصول إلى الهدف فهو الذي يثبت ويستمر.. فالمستسهل كالمستصعب للأمر لا ينجز شيئاً، ولا يفلح إلا من أدرك الصعوبات والجهد المكافئ الذي عليه بذله.

٤ - تأمل إدراك الأنصار الرائع لعظم العواقب النهائية لهذه البيعة (والله لا ندع هذه البيعة ولا نُسلَبُها أبداً) فإن الجنة أعظم من أي جهد يبذله الإنسان وإن سبق الناس إلى هذا الأمر شرف عظيم عند الله ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ٨٤].

٥ - مشاركة المرأة في هذه البيعة وإن كانت نسبتها ضعيفة. ولعل ذلك لأنهم كانوا على سفر.. بينما شاركت المرأة في مكة والمدينة في حمل أعباء الدعوة بجدارة.

٦ - كتمان الأنصار خبر البيعة عن أصحابهم الذين جاؤوا معهم من المدينة للحج. وهو أمر ضمن لهم سلامة العودة إلى المدينة، وكان من فطنتهم أنهم تسللوا إلى الموعد في الليل.. ثم سكتوا عندما جاءت قريش تعاتب قومهم على البيعة فانبرى المشركون يحلفون بنفي ذلك.

وموضوع السرية والكتمان دقيق ولا يجوز أن يؤخذ على إطلاقه لأنه قد يورط الدعاة في تُهم هم في غنى عنها. ففي مجال الدعوة إلى الله وتصحيح المفاهيم والأفكار ينبغي الجهر بالحق والإعلان وهو أحد نصوص البيعة «وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم» لكن الأنصار لم يفهموا من ذلك أن يخبروا أصحابهم المشركين أنهم قد بايعوا رسول الله ﷺ. والأمر بحاجة إلى حكمة: متى تتكلم ومتى تسكت؟! ذلك أمر نتعلمه طيلة حياتنا.. لأن السكوت يورط في كثير من الأحيان.. شأنه شأن الكلام.. أهم شيء ألا نسمح للآخر أن يجد فرصة لاتهامنا بتهمة أخرى غير الإيمان بالله.. ومن كانت بضاعته الحب والخير لا يحتاج إلى التخطيط السرِّي.. وليس معنى ذلك أنه يفضي بكل ما في نفسه وبكل مشاريعه للآخرين.

٧ - العصبية للقرابة والعصبية للجوار (التحالف على الجوار) كان لها دور كبير في حماية الرسول وأصحابه.. فها هو العباس يعتبر نفسه مسؤولاً عن حماية النبي ﷺ بعد وفاة أبي طالب فيحضر معه البيعة ويستوثق من صدق الأنصار في حماية محمد ﷺ. وها هو سعد بن عبادة ينجو من أيدي المشركين حين يهتف باسم اثنين ممن كان بينه وبينهما جوار من سادة مكة.

ونستطيع أن نقول إن هذا شبيه باللجوء السياسي الى بلد آخر في عصرنا.. حيث يمكن اللجوء إلى سفارة أجنبية.. أو ما شابه.

لكن المسلمين الآن لو اختاروا جوار الله لما تعرضوا للتنكيل..!!

أشرح ذلك بالقول: لو اختاروا جوار سنن الله ومشوا على قوانينه في الدعوة وفي إصلاح المجتمع (دعوة جهرية سلمية) لما وقعوا في الفتن.

٨ - اعتراض أبي الهيثم بن التيهان جيد أيضاً.. فمن الأمور الهامة التي تجعل الاتفاقات والمعاهدات مستمرة ومحترمة من الطرفين: هو وضوح البنود المتفق عليها بحيث يحدد لكل طرف ما له وما عليه.. وهنا عاهد الرسول ﷺ الأنصار على أن يبقى معهم في المدينة ولو انتشر الإسلام وآمنت مكة.

٩ - طلب النبي ﷺ لاثني عشر نقيباً منهم يكونون قيمين على شؤون قومهم ودعوتهم وتعليمهم.. هذا أمر تنظيمي ممتاز.. غير ما تعودناه من فوضى في العمل.

١٠ - من أسوأ الأمور الاندفاع مع الحماس إلى تصرفات طائشة.. وهو أمر كان رسول الله ﷺ بارعاً في التحكم فيه وكأنه يمسك بمكابح الطاقة فلا تفتح إلا في الوقت المدروس المناسب. فها هو أحد المبايعين يقول: إن شئت لنميلنَّ على أهل منى غداً بأسيافنا. فيقول ﷺ: «لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم».

١١ - انظر إلى قول عبد الله بن أبي بن سلول (ما كان قومي ليتفرقوا على مثل هذا..) إن بعض من أعمتهم الزعامة يظنون بأنفسهم أنهم قد ملكوا القلوب والعقول فلا تتحرك إلا بإذنهم.. فيا له من غرور قتال.. ويا له من استخفاف مريع بالناس.

١٢ - أبو البختري بن هشام وقد رأيناه يسعى في نقض صحيفة المقاطعة فيما سبق ها هو يسعى في تخليص سعد بن عبادة.. إني لأتألم لأمثال هذا الرجل كيف أبطؤوا عن الإسلام؟! وفي كل عصر وفي كل مكان تجد المنصفين الذين يتعاونون على نصرة قضايا الحق والإنسان ولو كانوا في قلب الشرك والظلام.. وعلينا أن نبحث عنهم ونتعاون معهم.

هجرة المسلمين إلى المدينة

يقول رسول الله ﷺ: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر فإذا هي المدينة يثرب»[١].

وأذن النبي لأصحابه بالهجرة إلى المدينة.. فكان أول من هاجر أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد - من بني مخزوم - وكانت هجرته إليها قبل بيعة العقبة بسنة حين آذته قريش مرجعه من الحبشة.

ويروي ابن إسحاق قصة هجرته عن أم سلمة قالت: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحَّل لي بعيره، ثم حملني عليه، وجعل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، وأخذوني منه، قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة وقالوا: والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، قالت: ففرق بيني وبين ابني وبين زوجي. قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس في الأبطح فما أزال أبكي حتى أمسي - سنة أو قريباً منها - حتى مرَّ بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون من هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟ قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت. فرد بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني، قالت: فارتحلت بعيري ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله. حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة - أخا بني عبد الدار - فقال: إلى أين يا بنة أبي أمية؟ قلت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أوما معك أحد؟ قالت: ما معي

---

(١) رواه البخاري.

أحد إلا الله وبني هذا، فقال: والله ما لك من مترك. فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحط عنه ثم قيده في الشجر ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها. فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني وقال: اركبي، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ خطامه فقادني حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية - وكان بها نازلاً - فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة فكانت تقول: ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة، أسلم عثمان هذا بعد الحديبية وهاجر هو وخالد بن الوليد معاً.. ودفع إليه رسول الله ﷺ يوم الفتح وإلى ابن عمه شيبة - والد بني شيبة - مفاتيح الكعبة أقرها عليهم في الإسلام كما كانت في الجاهلية. ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾(١).

ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبي سلمة عامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة.. ثم عبد الله بن جحش وكل بني جحش - وهم أولاد عمة النبي ﷺ - حتى غلقت دارهم في مكة.

يقول البراء بن عازب: أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وكانا يقرئان الناس. فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ. ثم قدم النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ حتى جعل الإماء يقلن: قدم رسول الله ﷺ. فما قدم حتى قرأت سبح اسم ربك الأعلى في سور من المفصل(٢).

---

(١) البداية والنهاية، ١٦٩/٣.

(٢) رواه البخاري.

أما صهيب فإنه حين أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم! قال: فإني قد جعلت لكم مالي. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب»[(١)] وفي رواية عن البيهقي أن صهيباً هاجر بعد النبي ﷺ فأدركه في قباء.

* * *

تاملات حول هجرة بعض الصحابة

هذه نماذج من هجرة بعض أصحاب النبي ﷺ إلى المدينة نرى فيها مواقف مثالية إلى درجة مدهشة.. فلنقف عند بعض التأملات:

١ - أبو سلمة يترك زوجته وابنه ويهاجر في سبيل الله. فطاعة الله أهم.

٢ - صبر أم سلمة الكبير.. وهي تبكي قريباً من سنة على فراق زوجها وابنها ومنعها من الهجرة إلى الله.

وتأمل عصبيات الجاهلية التي لا تبالي بمشاعر الأم ولا بحرمان الابن من أبويه.. وكأن العشيرة أولى به.

٣ - إن خطة اللاعنف هي التي تنتصر على المدى الطويل.. فها هو أحد أبناء عمها يتدخل لإنهاء هذا العذاب، وها هو عثمان بن طلحة تأخذه النخوة فيهب لمساعدة هذه الضعيفة المظلومة.. هذه الخطة هي التي تغير القلوب.

٤ - ومرة أخرى أتعجب من الخير الكامن في نفوس العرب قبل الإسلام، فانظر إلى عثمان بن طلحة يقول لأم سلمة حين يراها تهاجر دون حماية (والله ما لك من مترك) فيسافر معها ليحميها ويغض طرفه عنها ويكرمها حتى تشهد له:

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ١٧٣.

(ما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان)، والعجيب أن أهلها لم يفكروا بحمايتها كما فكر عثمان.. حقاً إن الناس معادن (خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام).. وإنني أحس أن معظم الناس يحمل هذا الخير في قلبه.. ولكن البراعة في الداعي أن يعرف كيف يستخرجه ويُفعّله. وخطة اللا عنف ممتازة في هذا المجال.

٥ - كان علي رضي الله عنه يطلب من النبي ﷺ يوم الفتح (اجمع لنا الحجابة مع السقاية) لكن رسول الله ﷺ قال: «اليوم يوم بر ووفاء» وأعاد مفتاح الكعبة إلى عثمان وشيبة لأن الحجابة من نصيب بني عبد الدار منذ أن قسم قصي بن كلاب أعباء الشرف بين أبنائه.. رغم أن قريشاً قد سلمت أمورها كلها للنبي يوم الفتح ولكن النبي ﷺ لم يكن يجاهد من أجل الشرف أو الغنائم.. لكنه بذل كل ما يملك من أجل هداية الناس.

٦ - تأمل صهيباً كيف اشترى نفسه وحريته بماله..؟! لقد نجح المهاجرون في الامتحان حيث كان الله ورسوله أغلى عليهم من كل شيء ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٩/ ٢٤].

❁ ❁ ❁

١٠- هجرة النبي ﷺ

جمع الأخبار في الهجرة وسردها

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٠]. بعض الباحثين قال بأنها نزلت تبشيراً للنبي بالهجرة.

أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد هجرة أصحابه ينتظر أن يؤذن له في الهجرة ولم يتخلف معه بمكة إلا من حبس أو فتن، إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه الذي استأذن في الهجرة فقال له ﷺ: «لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً».

وأحست قريش بالخطر فلئن هاجر محمد ﷺ إلى المدينة ليصبحنّ هناك قوة لا قِبَل لهم بها، فاجتمعوا في دار الندوة - وقريش لا تقضي أمراً إلا فيها - يتشاورون فيما يصنعون في أمر محمد ﷺ. فمن قائل نحبسه.. إلى قائل ننفيه من بلادنا.. إلى أن قال أبو جهل: والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى، شاباً، جليداً، نسيباً، وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعها، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً. فرضوا

منا بالعقل - أي الدية - فعقلناه لهم.. فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له. فأتى جبرائيل رسول الله ﷺ فقال له: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه.. وقال ﷺ لعلي بن أبي طالب: «نَمْ على فراشي وتسجَّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم»[١].

ويبدو من مجموع ما روي من أحاديث حول الهجرة أن جبريل قد أخبر النبي ﷺ بتآمرهم هذا وأمره بالهجرة في الليلة نفسها التي يحاصرون فيها بيته.. والله أعلم. وذكر الله تعالى تآمرهم هذا في الآية: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٠].

وقد حدث ذلك في شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من بعثته عليه الصلاة والسلام ودخل المدينة يوم الإثنين[٢].

سأضطر حرصاً مني على تسلسل أحداث الهجرة وعدم إهمال ما ينبغي عرضه إلى خلط روايات متعددة بعضها مع بعض: من ابن إسحاق والبخاري والإمام أحمد وابن هشام.. وللقارئ أن يعود إلى البداية والنهاية لمزيد من التدقيق.

يبدو لي أن رسول الله ﷺ عندما أخبره جبريل بتآمر القوم والإذن بالهجرة توجه إلى بيت أبي بكر ظهراً عند اشتداد الحر حيث يلجأ الناس إلى بيوتهم وتخلو منهم طرقات مكة ليخبره بالأمر.

تقول عائشة رضي الله عنها: كان لا يخطئ رسول الله أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار إما بكرة وإما عشية. حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه رسوله ﷺ في الهجرة.. أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة (نصف النهار عند اشتداد الحر) في ساعة

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ١٧٦ بشيء من الاختصار.

(٢) رواه الإمام أحمد.

كان لا يأتي فيها، فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ في هذه الساعة إلا لأمر حدث! فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس ﷺ وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء فقال ﷺ: «أخرج عني من عندك» قال: يا رسول الله إنما هما ابنتاي. وما ذاك فداك أبي وأمي؟ قال: «إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة» فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال ﷺ: «الصحبة»، قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي. ثم قال: يا نبي الله إن هاتين راحلتين كنت أعددتهما لهذا. (فخذ أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين فقال ﷺ: «بالثمن»)[(١)]، فاستأجرا عبد الله بن أريقط، وكان مشركاً يدلهما على الطريق ودفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما. ولم يعلم بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصّديق وآل أبي بكر. أما علي فإن رسول الله ﷺ أمره أن يتخلف حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته. فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج أتى أبا بكر بن أبي قحافة فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته[(٢)].

فبات علي على فراش النبي ﷺ تلك الليلة، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا عليه فلما رأوا علياً ردَّ الله عليهم مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا؟ فقال: لا أدري.. فاقتفوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا الجبل، فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ها هنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه. فمكث فيه ثلاث ليال[(٣)].

---

(١) ما بين القوسين (..) من حديث البخاري.

(٢) من المصدر السابق، ٣/ ١٧٨.

(٣) رواه الإمام أحمد.

نعود إلى حديث عائشة في البخاري: قالت رضي الله عنها فجهزناهما أحث الجهاز فصنعنا لهما سفرة في جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب. فلذلك سميت ذات النطاقين. ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف (حاذق خفيف) لقن (يفهم الكلام) فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت، لا يسمع أمراً يكادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة (أي غنماً فيها لبن) من غنم فيريحها عليهما حين يذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل - وهو لبن مِنْحَتِهما ورَضِيفِهما - حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس. يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث. واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدئل (هو عبد الله بن أريقط) هادياً خريتاً - أي ماهراً بالهداية - وهو على دين الكفار فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث ليال. وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل[١].

ويروي ابن سيرين أن رجالاً على عهد عمر تحدثوا فكأنهم فضلوا عمر على أبي بكر، فبلغ ذلك عمر فقال: والله لليلة من أبي بكر خير من آل عمر وليوم من أبي بكر خير من آل عمر. لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار معه أبو بكر فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا بكر ما لك تمشي ساعة خلفي وساعة بين يدي؟» فقال: يا رسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك. فقال: «يا أبا بكر لو كان شيء لأحببت أن يكون بك دوني؟» قال: نعم والذي بعثك بالحق. فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ لك الغار، فدخل فاستبرأه.. ثم قال: انزل يا رسول الله، فنزل. ثم قال عمر: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر[٢].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البيهقي.

وكانت أسماء بنت أبي بكر ﵄ تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما، قالت أسماء: ولما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل فوقفوا على باب أبي بكر فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك؟ قلت: لا أدري والله أين أبي. قالت: فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشاً خبيثاً - فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي ثم انصرفوا(١).

واحتمل أبو بكر ماله كله معه خمسة آلاف درهم - أو ستة - قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة - وقد ذهب بصره - فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه؟ قلت: كلا يا أبتِ إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً، قالت: وأخذت حجاراً فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده فقلت يا أبتِ ضع يدك على هذا المال. فوضع يده عليه فقال: لا بأس إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن وفي هذا بلاغ لكم، ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك(٢).

واقتفى المشركون آثار النبي ﷺ وصاحبه، ومعهم خبير بالأثر، فصعدوا الجبل الذي هما فيه وجعلوا يمرون على باب الغار فتحاذي أرجلهم لباب الغار ولا يرونهما. حفظاً من الله لهما. عن أنس بن مالك أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه؟! فقال ﷺ: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»(٣).

ويتحدث سراقة بن مالك عمّا حدث معه في ذلك الحين فيقول: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما (أي مئة من الإبل) لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة إني رأيت آنفاً أسْوِدَة بالساحل أراها محمداً وأصحابه. قال سراقة:

---

(١) رواه ابن إسحاق.
(٢) رواه ابن إسحاق.
(٣) أخرجه البخاري ومسلم من حديث همام.

فعرفت أنهم هم فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها علي، وأخذت رمحي فخرجت من ظهر البيت فخططت بزجه الأرض وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي فركبتها فدفعتها فقربت بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي فخررت عنها فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام، فجعل فرسي يقرب حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها فأهويت، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت الأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ. فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرداني ولم يسألاني إلا أن قالا: أخف عنا. فسألته أن يكتب لي كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب لي رقعة من أدم. ثم مضى رسول الله ﷺ[1] وذكر أن سراقة جاء بهذا الكتاب بعد ذلك إلى رسول الله ﷺ وهو بالجعرانة مرجعه من الطائف فقال له رسول الله ﷺ: «يوم بر ووفاء ادنه» فدنوت منه وأسلمت، ولما رجع سراقة جعل لا يلقى أحداً من الطلب إلا ردّه وقال: كفيتم هذا الوجه، فلما ظهر أن رسول الله ﷺ قد وصل إلى المدينة جعل سراقة يقص على الناس ما رأى وما شاهد من أمر النبي ﷺ[1].

* * *

---

(١) من البداية والنهاية، ٣/ ١٨٥.

تأمل الحادث العظيم

نعود لنتأمل هذا الحادث العظيم الذي أصبح بداية تاريخ جديد لأمة بعثت من ثنايا كتاب سماوي. كيف خطط له وكيف تمَّ؟

١ - ابتداءً كان رسول الله ﷺ ينتظر الإذن بالهجرة من الله سبحانه. كان يعلم أنه سيهاجر لكنه ينتظر التوقيت من الله. فهو يستبقي أبا بكر ليكون له صاحباً.. ويستبقي علياً ليموّه على المشركين وليرد الودائع.

٢ - أبو بكر يجهز راحلتين للسفر حتى لا يلفت الأنظار بالتجهز عند الإذن.

٣ - يطلع جبريل رسول الله ﷺ على كيد المشركين ويبلغه الإذن بالهجرة فيخرج ﷺ في وقت لا يخرج فيه أحد من شدة الحر.. ويطرق أبا بكر في وقت لم يكن يزوره فيه. فيبلغه الأمر ويرتبان للخروج في الليل.

٤ - يقول الرسول ﷺ لأبي بكر: «أخرج عني من عندك» فينبغي لهذا الأمر أن يكتم ولم يعرف النبي ﷺ أن الموجودتين هما عائشة وأسماء..!! بأبي أنت وأمي يا رسول الله في عفتك، وغض بصرك، وما أعظم أدبك في بيت أقرب الناس إليك.

٥ - حق لك أن تبكي يا أبا بكر من الفرح فأنت الصاحب للنبي في هذه الرحلة التاريخية فهنيئاً لك اصطفاء الله ورسوله لك، وإنك لتدرك عظمة المنزلة وتكاليفها.

٦ - محمد ﷺ يرفض أن يأخذ الناقة من أبي بكر إلا بثمنها.. فهي العفة عن أهل صاحبه وهي العفة عن مال صاحبه، وهو العفة في كل شيء صلوات الله وسلامه عليه.. وأين ذلك من ظن بعض المزيفين للدعوة أنهم قد ملكوا أتباعهم ولهم الحق في التصرف في شؤون أتباعهم وأموالهم؟

٧ - من التخطيط: استئجار دليل خبير بالطرق ليرافقهما.. فوقع الاختيار على عبد الله بن أريقط رغم أنه كان مشركاً. لكن كان أميناً وثقة وحاذقاً سلماه الراحلتين وواعداه بعد ثلاث ليال عند غار ثور.

٨ - تأمل كيف يتخذ رسول الله ﷺ كل ما يملك من ذكاء وتخطيط ولا يترك ذلك بدعوى (التوكل) على الله الذي وعده بالعصمة والحماية. فها هو يأمر علياً أن ينام في فراشه حتى يوهم محاصريه أنه نائم، ثم يخرج في وسط العتمة فلا يحس به أحد وذلك من حماية الله له.

٩ - وها هو علي ﷺ يفتدي رسول الله ﷺ بنفسه ويقبل أن يعرض نفسه للقتل من عصبة مسلحة تحاصر البيت وقد صممت على قتل النائم في فراش النبي.

١٠ - وهو مكلف أيضاً بردّ الودائع.. (فلم يكن بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عند رسول الله) لما يعرفون من صدقه وأمانته..؟!!

ها هي قريش تأتمر بك يا رسول الله، يريدون قتلك؛ وها أنت تهاجر وتترك لهم البيت وما تملك.. وودائعهم عندك.. فلا تفكر في أخذ شيء من هؤلاء الذين أخرجوك..!! وتتعامل بكل الأخلاق والأمانة مع أناس نبذوا كل الأخلاق في التعامل معك، لقد استباحوا إيذاءك وقتلك في الحرم ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾.. الله.. الله. أين هذا مما نراه في عالمنا..؟!! ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾. الالتزام بالأخلاق والمبادئ من طرف واحد.. حتى يأمن عدوك غدرك وخيانتك..

أن يثق العدو بالداعي الذي يخالفه أكثر مما يثق بأصحابه وأتباعه..!! هذا ما وصل إليه محمد ﷺ فقد كان المشركون يثقون بمحمد ﷺ أكثر مما يثق بعضهم ببعض.. وهذا الذي جعله قوياً راسخاً كبيراً مؤثراً في أعماق المخالفين.. بينما هم يفتتون ويتساقطون أمام عليائه.

١١ - عائشة وأسماء تجهزان بأسرع ما يمكن زاداً للمهاجرَين وأسماء تقطع نطاقها وتوعَد بنطاقين في الجنة.. أسرة أبي بكرة مستنفرة كلها..

١٢ - خرج المسافران ليلاً من خوخة (فتحة) في ظهر بيت أبي بكر.

١٣ - تمّ اختيار غار ثور للاختفاء فيه ثلاث ليال علماً بأنه يقع في جبل إلى الجنوب من مكة.. وفي ذلك تمويه على المشركين الذين يتوقعون أن يتجه النبي ﷺ شمالاً إلى المدينة.

١٤ - تأمل اجتهاد أبي بكر في حماية النبي ﷺ.. فهو يمشي تارة بين يديه وتارة خلفه.. يفديه بنفسه.. ثم لا يدع النبي يدخل إلى الغار حتى يدخل هو ويفحصه مخافة أن يكون فيه وحش أو ما يؤذي من الهوام.

١٥ - واكتشف المشركون في الصباح أن محمداً قد خرج.. استجوبوا علياً فلم يصلوا إلى شيء واستجوبوا أسماء فلم يخرجوا بطائل.. ولم يتمالك أبو جهل غضبه من ضياع فرصة قتل محمد ﷺ من بين يديه فلطم أسماء وهو أمر يتنافى حتى مع أخلاق المشركين. ولجؤوا إلى من يقص الأثر.. ووصلوا إلى الغار حيث انقطع الأثر.. ويجزع أبو بكر ويهمس للنبي: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا.. لكن محمداً ﷺ كان قد بذل كل ما يقدر عليه من أسباب للنجاة وهو الآن في قمة التوكل «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!». فتأتي حماية الله لهما بالعنكبوت وصرف أذهانهم عن تفتيش الغار ﴿فَأَتَنْهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾.. وصدتهم خيوط العنكبوت الواهية عن هدفهم!! وما يعلم جنود ربك إلا هو.. وهكذا كان رسول الله متمثلاً لحقيقة التوكل حيث بذل كل ما يملك من أسباب وركن إلى الله في تحقيق النتائج.

١٦ - وكان من حسن التخطيط أن يبيت عبد الله بن أبي بكر معهما في الليل يرعى شؤونهما ويحدثهما عن أخبار قريش ثم يخرج من عندهما في السحر فيصبح في مكة وكأنه قد بات بها ... فإذا حل الظلام عاد

إليهما[(١)]. وكذلك عامر بن فهيرة - راعي أغنام أبي بكر - يريح الأغنام في المساء عند الغار فيسقيهما من لبنها.. ثم يغدو بها قبيل النهار.. فيمحو آثار أقدام عبد الله وغيره.

١٧ - وبعد ثلاث ليال فترت همة قريش في طلبهما.. فانطلقا من الغار ومعهما عامر بن فهيرة والأغنام تشوه الآثار.. وسلك بهما الدليل الماهر طريقاً ملتوياً نحو السواحل ولم يأخذ طريق المدينة مباشرة.

١٨ - ونرى في سلوك أسماء مع جدها منتهى الكياسة، فالشيخ مشرك ولا ينفع معه أن تقول له: أنه تركنا لله ولن يتخلى الله عنا. فلجأت إلى التورية لتسكن نفس الشيخ.. وهذا يريحه ويريحها.. فيا حبذا لو نتعلم كيف نسكن النفوس من حولنا لأن هذا يوفر علينا كثيراً من التشويش والجدال.

وهو أمر ضروري جداً للداعي: أن يخاطب الناس على قدر عقولهم.

١٩ - وها هو سراقة يحتال ليفوز بالمكافأة وحده (مئة من الإبل عن كل واحد منهما) لكنه مهزوم من الداخل يفسّر كل عقبة تعرض له على أنها عقاب له على مطاردته لمحمد ﷺ. وتأتي الحماية من الله سبحانه ومحمد ﷺ يمشي مطمئناً بينما يتلفت أبو بكر خائفاً على النبي ﷺ.. والنبي يردد «لا تخف إن الله معنا».

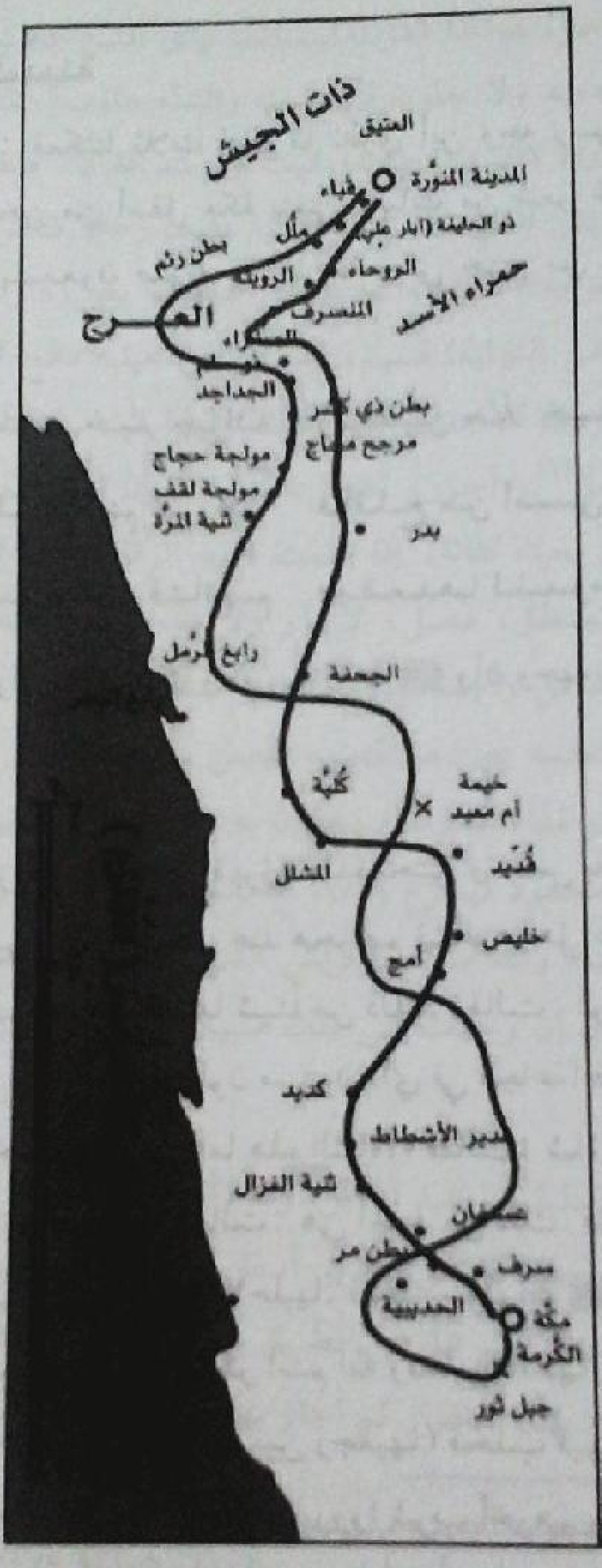
٢٠ - يدرك سراقة أن محمداً ﷺ لا بد سينتصر.. وفي رواية أنه ﷺ قال له: «كيف بك إذا لبست سواري كسرى»؟! كيف تسعى يا سراقة وراء مئة من الإبل وتعرض نفسك لسخط الله، وهذا الدين سيكتسح كسرى ويغنم المسلمون كنوزه..؟! سراقة يتسمر في مكانه ذاهلاً.. وهو يدير الكلام في رأسه فلا يجد له مسلكاً.. لكن فطنته تسعفه فيطلب كتاب أمان من النبي ﷺ.. واعداً بأن يصد الناس عن ملاحقته.

---

(١) وكانت أسماء تأتيهما مساء بالطعام

وبعد فإن حادث الهجرة نموذج فريد على الإحكام في التخطيط الذكي المليء بالالتزام الأخلاقي.. فالنبي حريص على أن يصون دماء قومه وأموالهم.. فلا يقتل إنسان أثناء هذه الخطة رغم حصارهم المسلّح له.. حقاً إنها خطة مليئة بالشرف والذكاء والركون إلى الله.. وكشفت عن مقدار ولاء المساهمين فيها من الصحابة - ذكوراً وإناثاً - وعن مقدار شجاعتهم ووفائهم وفطنتهم وتمثلهم لخطة (اللا عنف) حيث تصبر على أذى الآخر، ولا تتراجع عن مبادئك أمامه، ولا تمد يدك إليه بأذى.

* * *



مصور الهجرة

موضح فيه الطريق التي سلكها الرسول الأعظم (ﷺ) من مكة إلى المدينة

تاريخها: ربيع الأول للسنة الرابعة عشرة من البعثة. تموز (يوليو) ٦٢٢م

في الطريق إلى المدينة

تقول أسماء: فمكثنا ثلاث ليال ما ندري أين وجه رسول الله ﷺ حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب. وإن الناس ليتبعونه يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول:

جزى الله ربّ الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتي أم معبد

هما نزلا بالبر ثم تروّحا ... فأفلح من أمسى رفيق محمد

لِيَهْنِ بني كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله ﷺ وأن وجهه إلى المدينة(١).

حديث أم معبد

وأم معبد الخزاعية كانت امرأة برزة جلدة تحتبي وتجلس بفناء الخيمة فتطعم وتسقي. مرَّ بها النبي ﷺ وأصحابه عند هجرتهم فسألوها هل عندها لحم أو لبن يشترونه منها؟ فلم يجدوا عندها شيئاً من ذلك. وقالت: لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى، وإذا القوم مرملون مستنون (أي في مجاعة) فنظر رسول الله ﷺ فإذا شاة في كسر خيمتها فقال: «ما هذه الشاة؟» فقالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم. قال: «فهل بها من لبن؟» قالت: هي أجهد من ذلك. قال: «تأذنين لي أن أحلبها؟» قالت: إن كان بها حلب فاحلبها. فدعا رسول الله ﷺ بالشاة فمسحها، وذكر اسم الله ومسح ضرعها، وذكر اسم الله ودعا بإناء لها يربض الرهط (أي يشبع الجماعة)، فتفاجت (فرجت بين رجليها) فحلب فيها ثجاً حتى ملأه، فسقاها وسقى أصحابه فشربوا، حتى إذا رووا شرب آخرهم وقال: «ساقي القوم آخرهم» ثم حلب فيه ثانياً، فغادره عندها، ثم ارتحلوا.. فما لبث أن جاء زوجها

---

(١) البداية والنهاية، ٣/١٨٩.

أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً (هزيلة)... فلما رأى اللبن عجب وقال: من أين هذا اللبن يا أم معبد ولا حلوبة في البيت والشاء عازب؟ فقالت: لا والله إنه مرَّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت. فقال: صفيه لي فوالله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلب. فقالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة، حسن الخلق، مليح الوجه، لم تعبه ثجلة (أي ضخامة بطن)، ولم تُزرِ به صعلة، (صغر الرأس، عن النهاية) قسيم، وسيم، في عينيه دعج (سواد مع سعة)، وفي أشفاره (حروف الأجفان التي ينبث عليها الشعر) وطف (كثرة شعر)، وفي صوته صحل[1]، أحور، اكحل، أزج، أقرن (مقرون الحاجبين)، في عنقه سطع، وفي لحيته كثاثة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما، وعلاه البهاء، حلو المنطق، فصل، لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظم ينحدرن، أبهى الناس وأجمله من بعيد، وأحسنه من قريب. ربعة لا تنساه عين من طول ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قداً، له رفقاء يحفون به، إن قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا لأمره، محفود (يُسرَع إليه)، محشود، لا عابس ولا مفند (ضعيف الرأي). فقال: هذا والله صاحب قريش الذي تطلب ولو صادفته لالتمست أن أصحبه ولأجهدن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً[2].. وقد أسلم الرجل وزوجته بعد ذلك..

وسلك بهما دليلهما عبد الله بن أرقد (أو أريقط) أسفل مكة[3]، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ثم سلك بهما على أسفل أمج ثم استجاز بهما حتى عارض الطريق بعد أن أجاز قديداً، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخرار ثم أجاز بهما ثنية مرة، ثم سلك بهما لقفاً، ثم

---

(١) بحة تجعل الصوت أجمل. وفي رواية أخرى: أحول وهو غلط. والأزج: مقوس الحاجبين. في عنقه سطع: أي طول ونور. البداية والنهاية، ٣١/٦.

(٢) البداية والنهاية، ١٩٢/٣.

(٣) انظر المخطط في الصفحة ١٤٣.

أجاز بهما مدلجة لقف، ثم استبطن بهما مدلجة مجاج، ثم سلك بهما مرجح مجاج، ثم تبطن بهما مرجح من ذي العضوين ثم بطن ذي كشد(١) ثم أخذ بهما على الجداجد، ثم على الأجرد، ثم سلك بهما ذا سلم من بطن أعداء مدلجة تِعْهن، ثم على العبابيد ثم أجاز بهما القاحة، ثم هبط بهما العرج، وقد أبطأ عليهم بعض ظهرهم، فحمل رسول الله ﷺ رجل من أسلم يقال له أوس بن حجر على جمل يقال له ابن الرداء إلى المدينة، وبعث معه غلاماً يقال له مسعود بن هنيدة. ثم خرج بهما دليلهما من العرج، فسلك ثنية العائر عن يمين ركوبة - ويقال ثنية الغائر فيما قال ابن هشام - حتى هبط بهما بطن ريم، ثم قدم بهما قباء على بني عمرو بن عوف لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول يوم الإثنين حين اشتد الضحاء وكادت الشمس تعتدل(٢).

والظاهر أن بين خروجه عليه السلام من مكة، ودخول المدينة خمسة عشر يوماً لأنه أقام بغار ثور ثلاثة أيام ثم سلك طريق الساحل وهي أبعد(٣).

* * *

بعض اللقطات أثناء الطريق

هذه بعض الأخبار عن تلك الرحلة الشاقة التي طورد فيها رسول الله ﷺ خمسة عشر يوماً وهو يسافر بزاد قليل في هجير الصحراء.. سلاحه ذكر الله تعالى وحسن أخلاقه مع كل من يلقى.. تلك الأخلاق التي جبل عليها حتى أشع بها وجهه. فلنحاول أن نمسك ببعض اللقطات أثناء الطريق.

١ - كأن الله أراد أن يطمئن آل أبي بكر وسائر المؤمنين في مكة على سلامة النبي وصاحبه.. فأرسل مخلوقاً (من الجن أو الملائكة..) يتغنى بذاك الشعر.

(١) عند ابن هشام (ذي كشر).
(٢) البداية والنهاية، ٣/١٨٩.
(٣) المصدر السابق، ٣/١٩٠.

٢ - أم معبد الخزاعية نموذج فريد للمرأة العربية الكريمة في الصحراء.. فهي قوية الشخصية تجلس في خيمتها كزعيمة.. لتطعم وتسقي الناس المحتاجين.

٣ - يمرُّ النبي ﷺ وصحبه بخيمتها فيطلب منها أن يبتاعوا لحماً أو لبناً. فهو لا يفرض نفسه على الناس ضيفاً يطلب القرى، ولا تصدر عنه بادرة نهب لامرأة غاب عنها زوجها في صحراء عاش البدو فيها على السلب والنهب.

٤ - قالت: لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى أن تطلبوا شراء شيء.. وقد آلمها أن تعجز عن قرى أضياف مروا بها. وفي روايات أخرى أنها أرسلت لهم مع ابن لها صغير شفرة وشاة ليذبحوها ويقتاتوا منها. وهو موقف كريم.

٥ - استأذن النبي من أم معبد في حلب الشاة العجفاء العازبة.. فهي مدهوشة من أدبه ومن طلبه هذا.

٦ - كان يمكن أن يطعم الله رسوله ويسقيه بدون شاة وبدون أم معبد.. ولكنها إشارة إلى أن النبي ﷺ يطلب الأمور من أسبابها.. وحتى المعجزة لها سنن..

٧ - لعل العلم يكشف يوماً ما عن تلك الطاقة المنبعثة من أيدي الصالحين المتصلين بالله ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾، فإن الأعمال الطيبة التي تتم على يدي الصالحين لها تعليلاتها العلمية على ما أعتقد.. والناس يقولون كما قالت (أم معبد) رجل مبارك ويده مباركة.. يشفي مريضاً إن مسح عليه..إلخ.

٨ - «ساقي القوم آخرهم» صلوات الله عليك وسلامه يا رسول الله.. ما رأيت مثل أدبك ولا مثل رعايتك لصحبك ولمن حولك.. ولا مثل إكرامك للمرأة..

إنه القلب الكبير الذي تحرر من الشح والأنانية وامتلأ بمحبة الآخرين.. فهو آخر من يأكل وآخر من يشرب وآخر من يغنم وأول من يبادر للعمل والبذل.

٩ - سؤال أبي معبد لزوجته عن أوصاف النبي ﷺ وقوله: (والله إني لأراه صاحب قريش) قبل أن تصفه لمجرد أنها قالت (مبارك) وذكرت ما فعل.. يدل على أن قريشاً بمطاردتها لمحمد ﷺ جعلت الناس تتعاطف معه أكثر فكأنها قامت بالدعاية له وترويج أمره بين الناس وذلك أنه لم تكن له تهمة سوى (ربي الله).

١٠ - حين نتأمل وصف أم معبد للنبي نراها مبهورة به.. وصفت جماله الجسماني وخاصة عينيه (فقد استهلك وصفهما عدة جمل)، فكأنها تحس أن كلماتها غير وافية بوصف هاتين العينين، وذلك أن العينين مرآة للفكر والنفس والشخصية فكيف تقدر على وصف عينين تشعان بالهدى والحب والرحمة والحكمة و... صلوات الله عليك وسلامه يا رسول الله ولعل الله يجمعنا بك في مستقر رحمته.. ووصفت كلامه، وأسلوبه فيه، وهيبته بين أصحابه، وأبرز معلم في هيئته وسلوكه الاعتدال.. الاعتدال في الجسم والاعتدال في الكلام فلا يكثر ولا يُقل.. (كأن منطقه خرزات نظم ينحدرن)، الاعتدال في التعامل مع من حوله فلا هو متجهم ولا هو بالضعيف. فيه شيء يجذب الناس إليه.. لله درك يا أم معبد على هذا الوصف! وهنيئاً لك بهذا اللقاء.

وكأني بأم معبد تحس بقصور كلماتها عن وصف شخصية ملأت عليها كيانها بالجمال والبهاء.. فهي تبدأ وتعيد وتكرر.. فلا ترتوي.

ولا بد أن ننتبه هنا إلى أهمية السمت العام لشخصية الداعي في التأثير بالناس.. وليس الأمر أمر جمال جسماني فقط.. لكنها الأفكار والأخلاق التي تشربتها خلاياه، وأصبح مظهره العام ينطق ويشع بها. نقرؤها في قسمات الوجه الرضية، وفي إشعاع العيون المـ[illegible]ـة الكلام، ونوعية الألفاظ،

وأسلوب حركة الجسم ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٦٣].

١١ - كان الدليل ماهراً في سيره بهما بشكل متعرج وفي غير الطرق السالكة عند العرب.. والنبي في اختياره للدليل يعلمنا أن نحترم أهل الاختصاص ولو كانوا من غير المسلمين فالخبير هو الذي يفيدك في الوصول إلى هدفك بينما قد يعجز المخلص عن مساعدتك ..﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٨/٢٦]. وصاحب العلم هو القوي. وأحسن الأمور أن يجتمع الإخلاص والصواب.. فإن لم يجتمعا فاسأل به خبيراً.

* * *

الباب الثاني

تأسيس المجتمع المؤمن في المدينة

١- دخول المدينة (طلع البدر علينا).

٢- بناء المسجد النبوي.

٣- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

٤- كتابة العهد مع اليهود.

٥- ثلاثة أحداث هامة.

١- دخول المدينة

طلع البدر علينا..

وفي الطريق لقي رسول الله ﷺ الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاء، وسمع المسلمون في المدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حرّ الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من اليهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدكم (حظكم) الذي تنتظرون. فثار المسلمون إلى السلاح (وذلك من عادة العرب في استقبال عظمائهم) فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتاً فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه. فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك. فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى وصلى فيه رسول الله ﷺ ثم ركب راحلته، وسار يمشي

معه الناس حتى بركت عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين. وكان مربداً[١] للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة. فقال رسول الله ﷺ حين بركت راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل» ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله. فأبى ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجداً، فطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه وهو يقول:

هذا الحِمالُ لا حِمالَ خيبر هذا أبرّ ربنا وأطهر

ويقول:

لاهمَّ إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسمّ لي. ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعر تام غير هذه الأبيات[٢].

ويقول أنس بن مالك: إني لأسعى في الغلمان يقولون جاء محمد فأسعى ولا أرى شيئاً، ثم بعثا (محمد ﷺ وصاحبه) رجلاً من أهل البادية يؤذن بهما الأنصار فاستقبلهما زهاء خمس مئة من الأنصار حتى انتهوا إليهما، فقالت الأنصار: انطلقا آمنين مطاعين. فأقبل رسول الله ﷺ بين أظهرهم فخرج أهل المدينة حتى إن العواتق لفوق البيوت يتراءينه يقلن أيهم هو؟ فما رأينا منظراً شبيهاً به. فلقد رأيته يوم دخل علينا ويوم قبض، فلم أرَ يومين شبيهاً بهما[٣].

ويقول أبو بكر: وخرج الناس حين قدمنا المدينة في الطرق وعلى البيوت والغلمان والخدم يقولون: الله أكبر جاء رسول الله ﷺ، الله أكبر جاء

---

(١) المربد: المكان الذي يجفف فيه التمر.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه الإمام أحمد.

محمد، الله أكبر جاء محمد، الله أكبر جاء رسول الله[١] وجعل النساء والصبيان يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع[٢]

وفي رواية أخرى: فأدركَتْ رسول الله ﷺ الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي -وادي رانوناء[٣]- فكان أول جمعة صلاها بالمدينة فأتاه عتبان بن مالك وعباس بن عبادة بن نضلة في رجال من بني سالم فقالوا: يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة. قال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» - لناقته - فخلوا سبيلها. فانطلقت حتى إذا وازت دار بني بياضة تلقاه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو في رجال من بني بياضة فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة؟ قال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلوا سبيلها. فانطلقت حتى إذا مرت بدار بني ساعدة اعترضه سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو في رجال من بني ساعدة فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا إلى العدد والمنعة. قال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة»[٤]. (وهكذا كلما مر على بطن من بطون الأنصار وحتى أخواله بني النجار دعوه فقال: إنها مأمورة).. حتى بركت عند مربد سهل وسهيل ابني عمرو.

وذكر موسى بن عقبة أنه ﷺ مرَّ في طريقه بعبد الله بن أبي بن سلول وهو في بيت فوقف ﷺ ينتظر أن يدعوه إلى المنزل - وهو يومئذ سيد الخزرج - فقال عبد الله: انظر الذين دعوك فانزل عليهم. فذكر ذلك رسول الله ﷺ لنفر من الأنصار، فقال سعد بن عبادة يعتذر عنه: لقد منَّ الله علينا بك يا رسول الله،

---

(١) ورد في الصحيحين.
(٢) رواه البيهقي.
(٣) هو اسم الوادي الذي نزل منه من قباء إلى المدينة. وقد أقيم في مكان صلاته (مسجد الجمعة).
(٤) رواه ابن إسحاق.

وإنا نريد أن نعقد على رأسه التاج ونملكه علينا. (بعد خروجهم من الحرب بين الأوس والخزرج).

وفي رواية أخرى: فلما انتهت إلى دار أبي أيوب بركت به على الباب فنزل فدخل بيت أبي أيوب حتى ابتنى مسجده ومساكنه[(١)].

نقف عند بعض النقاط:

١ - كان جميلاً من الزبير أن يكسو النبي وأبا بكر بثياب بيض بعد سفر خمسة عشر يوماً.. وهكذا أصبحا بهيئة لائقة لاستقبال الناس الذين تقاطروا عليهما. ولا بد للداعي من العناية بهندامه من حيث النظافة والجمال دون إسراف أو ترف.

٢ - انظر إلى اليهود كيف يعرفون ويعترفون بنبوة محمد ﷺ وأنه حظ العرب!!

٣ - كان ﷺ يكون بين أصحابه وكأنه واحد منهم لا يتميز عنهم بهيئة ولا علو مجلس، وهكذا لم يتعرف كثير من الأنصار على نبيهم إلا بعد أن قام أبو بكر يظلله من الشمس وكثيراً ما كان ﷺ ينهى أصحابه عن أن يميزوه بشيء «لا تقوموا لي كما يقوم الأعاجم على ملوكهم».. ويتقاسم معهم العمل ولا يعفي نفسه.

كان ﷺ ضد الامتيازات وجاء بدين المساواة وإلغاء الامتيازات وحين ظن المسلمون - كما ظن اليهود من قبلهم - أن لهم امتيازات عند الله ردَّ الله عليهم: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣/٤].. فلا أحد فوق سنن الله، وكل إنسان يضع نفسه في المكان الذي يناسب سعيه. والداعي ينبغي أن يتأكد من نفسه قبل كل شيء: هل

---

(١) البداية والنهاية.

تحرر من التطلع إلى الامتيازات الدنيوية..؟ هل يتعامل مع الآخر على قدم المساواة؟ أم أنه يحلم بالوصول إلى (عالم الكبار) ليكون له (حق الفيتو) ويكون فوق القانون؟.

٤ - أول مسجد أسس في الإسلام في قباء (وهو الذي ذكر في القرآن أنه أسس على التقوى) في بني عمرو بن عوف. وهو أول الأعمال بعد الهجرة.

ثم أسس مسجده في المدينة في مربد سهل وسهيل حيث بركت ناقته.

٥ - لماذا رفض النبي ﷺ من سهل وسهيل أن يتبرعا بالمكان للمسجد؟

نلاحظ أنهما غلامان يتيمان فخاف أن يضر ذلك بمصالحهما، أو أن يكون تطوعهما قد أخذ بسيف الحياء، ولا ننسى أنه ﷺ بنى حول المسجد حجرات سكن لزوجاته.. وما كان رسول الله ﷺ ليقبل هذا النوع من الهدايا وعفته قد منعت أعداءه أن يتهموه بأنه تمتع على حساب أتباعه.

٦ - رسول الله ﷺ يشتغل مع أصحابه في بناء المسجد ويتغنى بالأشعار.. فكيف لا يتنافس المسلمون على العمل وهم يرون نبيهم يعمل.. ولا يكتفي (بقص شريط الافتتاح)؟! وهو ﷺ إنسان يتغنى أثناء عمله وينشط نفسه وأصحابه..

٧ - هذا الاستقبال الحافل من أهل المدينة - يصاحبه الهتاف والغناء - يدل على تمكن الحب والفرح برسول الله ﷺ من معظم القلوب في المدينة.. وكلهم يتمنى أن ينزل النبي ﷺ ويقيم عنده.. إلا عبد الله بن أبي فقد شعر بأن النبي ﷺ سلبه ملكاً.

٨ - موقف سعد بن عبادة جيد في إدراك شعور الآخر وإعطائه بعض العذر لما تعرض له من ظروف فهو ينقل هذا الإحساس للنبي ﷺ عن عبد الله.. ولقد بقي النبي ﷺ طيلة حياة ابن أبي (هذا المنافق) وهو يعذره ويمنحه فرصاً للتوبة.

٩ - «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» كانت هذه أفضل خطة لفضّ النزاع أو التنافس على استضافة رسول الله ﷺ. وهكذا اختير مكان المسجد النبوي، ثم

البيت الذي ينزل ضيفاً على أصحابه (أبي أيوب) ريثما تبنى حجراته ﷺ، هكذا فهمت من الروايات[١]. فكلهم حريص على السبق إلى قرب النبي ﷺ وإلى شرف مصاحبته وضيافته.

١٠ - صلى الجمعة في بني سالم بن عوف (فكان أول جمعة صلاها بالمدينة).. كأنها إشارة إلى أن صلاة الجمعة فرضت عند مقدمه إلى المدينة. والله أعلم.

ويبدو أن النبي ﷺ فرح باختيار بني النجار ليكون المقام بينهم فهم أخوال جده ولهم مآثرهم فقال: «خير دور الأنصار بنو النجار ثم.. (عدد بعض البيوتات) وفي كل دور الأنصار خير»[٢]. فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله خيرت دور الأنصار فجعلتنا آخراً، قال ﷺ: «أوليس بحسبكم أن تكونوا من الأخيار؟»[٣].

وتحدث النبي ﷺ بعد ذلك بأحاديث كثيرة يمدح فيها الأنصار ويذكر فضلهم. مثل قوله: «لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبهم..»[٤].

«الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله»[٥].

ورسول الله ﷺ كثيراً ما كان يعالج النفوس الحساسة فيمسح عليها حتى ترضى.. وستمر معنا مواقف أخرى للنبي ﷺ مع سعد بن عبادة الذي كانت فيه حمية وغيرة تحتاج إلى سياسة أحياناً وإلجام في مواضع أخرى.

---

(١) وفي رواية أن بيت أبي أيوب كان أقرب البيوت إلى المربد حيث بركت الناقة فدعا أبو أيوب النبي ﷺ إلى بيته فلبى. ويبدو أن أبا أيوب هو من بني مالك بن النجار؛ لأن بعض الروايات تقول: (فاختار الله لرسوله دار بني مالك بن النجار).

(٢) ثبت في الصحيحين.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) البداية والنهاية، ٣/ ٢٠٣.

(٥) رواه البخاري.

أول خطبة للرسول ﷺ في المدينة

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم، تعلمنّ والله ليصعقنّ أحدكم، ثم ليدعنّ غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربُّه - ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه - ألم يأتك رسولي فبلّغك، وآتيتك مالاً وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك؟ فينظر يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم ينظر قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[(١)].

ويبدو أنها خطبة الجمعة الأولى التي صلاها ﷺ في بني سالم بن عوف.

وينبغي أن نتذكر نوعية الناس الذين يتحدث إليهم رسول الله ﷺ فهم أناس بسطاء لا عهد لهم بالعلوم والمعارف، أناس على الفطرة لديهم بقية من أخلاق سمعوا من اليهود عن الله والأنبياء ومكانة من يتبع النبي، فهم في حالة تعطش للتلقي.. والمطلوب هو شحذهم ودفعهم لبذل ما يقدرون عليه في بناء المجتمع الوليد.. ضمن ظروف فيها معاناة لشريحة كبيرة من العوَز المادي (المهاجرين) ولهذا نجد الخطبة تركز على:

١ - الآخرة والحساب أمام الله (قدموا لأنفسكم) فالإيمان بالآخرة هو المحرك الأول للجميع وخاصة للذين لا علم لهم بسنن التاريخ وقوانين عواقب الدنيا.

٢ - ماذا فعلت برزق الله الذي أعطاك؟

الحث على الصدقة ولو بشق تمرة.. فإن المجتمع الوليد أحوج ما يكون إلى التضامن المالي والعطاء.

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص١٢٣.

٣ - الحث على الكلمة الطيبة فإنها أفضل عطاء تؤلف القلوب وتجمع الشرائح المختلفة في كيان متماسك يحب الله ورسوله.

٤ - عدم إهمال عمل الخير مهما كان صغيراً فإن البناء يحتاج إلى الصغير والكبير من العمل والعمال.. وهو أمر ركز عليه القرآن والحديث كثيراً. فالجهاز الكبير قد يفتقر ليعمل إلى (مسمار أو برغي صغير) في مكان محدد.

وما أحوج المجتمع إلى الكلمة الطيبة والابتسامة الصافية عند اللقاء «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[١].. لقد كان رسول الله ﷺ يعلم الناس سنن التماسك الاجتماعي حتى تصبح الأمة كالجسد الواحد (أو البنيان المرصوص) ولكن بتوجيهات أخلاقية مربوطة بحب الله والرغبة في الفوز بنعيمه في الآخرة. وهذه هي أفضل طريقة مع هؤلاء البسطاء.. إلى أن يأتي اليوم الذي يتعلمون فيه سنن الاجتماع والبناء.. وهو أمر محقق طالما أن الله ثم النبي يحث على العلم والتعلم.

٥ - قالت العرب: (البلاغة في الإيجاز) وقد أوتي رسول الله ﷺ جوامع الكلم بحيث يقدر على توصيل الفكرة إلى النفس بإيجاز.. والإيجاز مهم جداً لأن السامع يستطيع أن يركز لمدة دقائق ثم يشرد (وهو ما أثبتته الدراسات الحديثة) والخطب الطويلة في مساجدنا الآن ينام الناس عنها.. ولا يستطيعون أن يتذكروا بعد ذلك عناصرها وأفكارها. فإذا كان الموضوع بحاجة إلى تفصيل فلا بد من إدخال (إثارة منشطة) أثناء الحديث كالقصة والمثل والحوار..

ولا شك أن النبي ﷺ كان يتمتع بلهجة خطابية تأثيرية. وكان يكرر الجمل الهامة عدة مرات. وعلى الداعي أن يدرس فن الخطابة وأساليب التأثير في السامع.

* * *

(١) رواه مسلم.

بداية التاريخ الإسلامي

نزول النبي ﷺ في بيت أبي أيوب

وأما علي بن أبي طالب فما لبث أن لحق بالنبي ﷺ في قباء بعد أن أدى الودائع لأصحابها. فلما نزل النبي ﷺ في دار أبي أيوب بعث مولاه زيد بن حارثة وأبا رافع ومعهما بعيران وخمس مئة درهم ليجيئا بفاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة زوجته وأسامة بن زيد. وكانت رقية قد هاجرت مع زوجها عثمان. وزينب عند زوجها بمكة أبي العاص بن الربيع (ولم يكن قد أسلم). وجاءت معهم أم أيمن امرأة زيد بن حارثة وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر وفيهم عائشة أم المؤمنين ولم يدخل بها النبي ﷺ[١].

وقد اتفق الصحابة في عهد عمر بن الخطاب على جعل ابتداء التاريخ الإسلامي من سنة الهجرة وجعلوا أولها من المحرم (بينما هجرته كانت في ربيع الأول) لأنه الشهر الأول بعد انصراف الحجاج من مكة. وكان العرب يؤرخون من عام الفيل. وذلك بعد أن أحس عمر بحاجة الدولة الإسلامية إلى ذلك فقد رفع إليه صك لرجل على آخر وفيه إنه يحل عليه في شعبان فقال عمر: أي شعبان؟ أشعبان هذه السنة التي نحن فيها أو السنة الماضية، أو الآتية؟ ثم جمع الصحابة فاستشارهم في وضع تاريخ يتعرفون به حلول الديون وغير ذلك[٢].

ولنستمع إلى أبي أيوب يحدثنا عن نزول النبي في بيته. يقول: نزل رسول الله ﷺ علي في السفل وأبو أيوب في العلو. فانتبه أبو أيوب فقال: نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ فتنحوا فباتوا في جانب (وفي رواية لابن إسحاق: فلقد انكسر حُبّ (جرة) لنا فيه ماء فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ٢٠٢.

(٢) المصدر السابق، ٣/ ٢٠٦.

تنشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله منه شيء يؤذيه) ثم قال للنبي ﷺ - يعني في ذلك - فقال ﷺ: «السفل أرفق بنا» فقال: لا أعلو سقيفة أنت تحتها. فتحول رسول الله ﷺ في العلو وأبو أيوب في السفل. فكان يصنع لرسول الله ﷺ طعاماً فإذا جيء به سأل عن موضع أصابعه فيتتبع موضع أصابعه ﷺ فصنع له طعاماً فيه ثوم فلما ردَّ إليه سأل عن موضع أصابع رسول الله ﷺ فقيل له: لم يأكل. ففزع وصعد إليه فقال: أحرام؟ فقال النبي ﷺ: «لا ولكني أكرهه» قال: فإني أكره ما تكره - أو ما كرهت - قال: وكان النبي ﷺ يأتيه الملك[1].

وفي رواية عن أنس بن مالك: جيء رسول الله ﷺ ببدر (أي طبق) فيه خَضِرات من بقول، قال: فسأل فأخبر بما فيها فلما رآها كره أكلها، قال: «كُلْ فإني أناجي من لا تناجي»[2].

نمضي في تأملاتنا:

١ - لم ينتبه العرب إلى ضرورة وضع تاريخ يؤرخون به.. فقد كانوا أمة أُميَّة لا دواوين لها ولا عقود. فلما كان عصر عمر (في العام الثامن عشر تقريباً) بدأ الواقع يشعرهم بما ينقصهم، وبدؤوا يدركون لماذا يؤرخ (الأعاجم) - كما ذكر في تاريخ البداية والنهاية - إن القارئ ليدهش من النقلة الشاسعة التي قفز إليها المسلمون من البداوة إلى الحضارة، وأجمل ما في الأمر أنهم كانوا بسطاء على الفطرة انتشروا في الأرض فأخذوا من الروم والفرس وصنعوا الحضارة التي تناسبهم.

٢ - أما عن نزول النبي ﷺ على أبي أيوب فهو خبر مليء بالأدب.. أبو أيوب لا يعلو مكاناً فيه رسول الله.. وأبو أيوب وزوجته لا ينامان ويجففان الماء خوفاً من إيذاء النبي ﷺ.. ورسول الله ﷺ لا يحب أن يصعد ليقيم في الأعلى حتى لا يشق على زواره وعلى أبي أيوب وأسرته؛ لأنهم سيكونون ممراً وطريقاً إلى النبي.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) ثبت في الصحيحين.

٣ - حب أبي أيوب للنبي ﷺ وحرصه على أن يأكل من آثار أصابع النبي ﷺ حرصاً على البركة. فلما يكتشف أن النبي لم يأكل يجزع ويسرع إلى النبي.. فهو حريص على أن يعرف الحلال من الحرام.. ثم يقول: فإني أكره ما كرهت.. هذا هو الحب الصافي.

٤ - حرص النبي ﷺ على أن تكون رائحته طيبة - ولو حرمه ذلك من بعض الغذاء - حتى لا يؤذي من يناجيه.. من الناس أو الملك جبريل.. أو حين يناجي ربَّه في صلاته.. وقد كان رسول الله ﷺ يعطي للجمال والأناقة واستعمال الطيب مكاناً ملموساً.. فالنفس الإنسانية تستمتع بالجمال وتتأثر به. ورحمة الله على مالك بن نبي حين يلح على تلازم العنصرين معاً في الثقافة الإسلامية المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي. ومرتبة الإحسان تمثل ذلك بشكل رائع. وإن الله كتب الإحسان على كل شيء. فكل عمل ينبغي أن يؤدى بالشكل الأفضل والأجمل.

٥ - حرص النبي ﷺ على بيان الحلال من الحرام.. فلا يحرم على الناس أمراً كرهه هو. فهو يبين أن الثوم - أو البصل - ليس حراماً وإنما دون أن يحدث أذى للناس.. فقد أمر بعد ذلك بألا يقرب المسجد من أكل منهما إلا أن يذهب الطهور رائحتهما.. وقد عرفنا ما في (البصل والثوم) من فوائد.. وقد أحل الله الطيبات وحرم الخبائث.. ولكن المسلم مطالَب بالجمال في مظهره ورائحته..

■ ■ ■

٢- بناء المسجد النبوي

ذكروا أن المربد كانت فيه قبور المشركين وكانت فيه خرب وكان فيه نخل، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت[(١)]، وبالخرب فسويت وبالنخل فقطع. فصفوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه حجارة، فجعلوا ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم يقول: «اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة»[(٢)].

وذكر ابن عمر أن المسجد كان عهد رسول الله ﷺ مبنياً باللبن وسقفه الجريد وعمده خشب النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً، وزاد فيه عمر وبناه على بنائه في عهد النبي ﷺ باللبن والجريد وأعاد عمده خشباً. وغيره عثمان ﷺ وزاد فيه زيادة كثيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة (أي الجص) وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج (ألواح من الشجر)[(٣)]. وقد زيد في زمان الوليد بن عبد الملك - باني جامع دمشق - زاده له بأمره عمر بن عبد العزيز حين كان والياً على المدينة وأدخل الحجرة النبوية فيه. ثم زيد فيه زيادة كثيرة فيما بعد، وزيد من جهة القبلة حتى صارت الروضة والمنبر بعد الصفوف المقدمة[(٤)].

---

(١) نبشت وأزيلت العظام إلى مكان آخر.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

(٤) البداية والنهاية، ٣/٢١٦.

فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه فقال قائل منهم:

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل[(١)]

ولما كان رسول الله ﷺ وأصحابه يبنون المسجد جعل أصحاب النبي ﷺ يحمل كل واحد لبنة لبنة وعمار يحمل لبنتين؛ لبنة عنه ولبنة عن النبي ﷺ فمسح ظهره وقال ﷺ: «ابن سمية، للناس أجر ولك أجران، وآخر زادك شربة من لبن وتقتلك الفئة الباغية»[(٢)] وقد قتله أهل الشام في وقعة صفين. ولا يلزم من تسمية أصحاب معاوية تكفيرهم.. لأنهم وإن كانوا بغاة فإنهم كانوا مجتهدين[(٣)].

ولم يكن في مسجد النبي ﷺ أول ما بني منبر يخطب الناس عليه. بل كان ﷺ يخطب الناس وهو مستندٌ إلى جذع عند مصلاه في الحائط القبلي فلما اتّخذَ له ﷺ المنبر وعدل إليه ليخطب عليه، فلما جاوز ذلك الجذع خار ذلك الجذع وحنَّ حنين النوق العشار لما كان يسمع من خطب الرسول ﷺ عنده. فرجع إليه النبي ﷺ فاحتضنه حتى سكن كما يُسكَّن المولود... وما أحسن ما قال الحسن البصري بعدما روى هذا الحديث عن أنس بن مالك: يا معشر المسلمين الخشبة تحنُّ إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه، أوَليس الرجال الذين يرجون لقاءه أحق أن يشتاقوا إليه[(٤)].

وذهب كثير من الباحثين - بالعودة إلى آراء عدد من الصحابة - أن المسجد النبوي هو المقصود بقوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ٩/١٠٨]، وقد ثبت في الصحيحين: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد؛ مسجدي هذا والمسجد الحرام ومسجد بيت المقدس»، وقوله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»، وقوله ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي».

---

(١) البداية والنهاية، ٣/٢١٦.
(٢) مروي بإسناد على شرط الصحيحين.
(٣) البداية والنهاية، ٣/٢١٨.
(٤) المصدر السابق، ٣/٢١٩.

وبني لرسول الله ﷺ حول المسجد الشريف حجر لتكون مساكن له ولأهله. وكانت مساكن قصيرة البناء قريبة الفناء. مبنية من جريد عليه طين. بعضها من حجارة مرصوفة (مصفوفة بعضها فوق بعض) وسقوفها كلها من جريد[(١)].

نمضي في تأملاتنا لأول عمل قام به رسول الله ﷺ بعد وصوله للمدينة:

١ - نرى في وصف بناء المسجد النبوي: هيكلاً بسيطاً متواضعاً بأقل تكلفة ممكنة.. هذا البناء البسيط كان يشع بنور العلم والهداية والحضارة على العالم الإسلامي قرابة قرن من الزمان. أما الآن فقد فَقَدَ إشعاعه رغم ضخامته والتماع رخامه، وعلى الرغم من القناديل و (الثريات) الضخمة الكثيرة التي نثرت على سقفه.. وا أسفاه لقد فقد روحه وإشعاعه. ولعل رسول الله ﷺ كان يفضل أن يبقى مسجده قائماً - وإن وسع وزيد فيه - بأقل تكلفة.. لكي تحول الأموال التي صرفت على تزيينه لإنشاء مدارس ومشافٍ وجامعات ومخابر... لكننا شغلنا بالقشر عن الجوهر.

٢ - رسول الله ﷺ يعمل معهم ويردد: «لا خير إلا خير الآخرة».. حتى الرجز والغناء موجه للتذكير بأولوية الآخرة.. فكيف لا يتطوع الصحابة للعمل وهم يرون نبيهم يعمل.. وهم يذكرون الآخرة وأجر الآخرة.. ورسول الله ﷺ يجود عليهم بالدعاء: «فارحم الأنصار والمهاجرة»، «فانصر الأنصار والمهاجرة». وهل بعد دعاء النبي ﷺ من مطمح؟! ولهذا قال قائلهم: (لئن قعدنا والنبي يعمل..). لبيك يا رسول الله وما أمتع العمل في صحبتك!

٣ - ومضى الصحابة يتنافسون، وعمار يعمل ضعفهم، فينال من النبي التقدير الممتاز «لك أجران». وكان ﷺ بارعاً في التقدير لمن يحسن عمله وبارعاً في رفع المعنويات. بينما يغض بصره عن المقصرين.. فإن أساء بعضهم واقتضى

(١) المصدر السابق، ٣/ ٢٢٠.

الأمر تصحيحاً قال: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا» ولا يفضح الفاعل.. صلوات الله وسلامه عليه لقد سبق كل الأبحاث التربوية في التركيز على (التعزيز) أكثر من لوم المقصر أو المخطئ.

٤ - قول النبي ﷺ لعمار: «تقتلك الفئة الباغية» أخذ على أنه نبوءة مستقبلية، ولا مانع في ذلك؛ فهو نبي.. ولكن ألا يمكن أن تفهم بشكل آخر.. ففي بعض الروايات أن عمار قال للنبي ﷺ - وقد أثقلوه باللبن -: (يا رسول الله قتلوني يحملون عليّ ما لا يحملون) فيقول له النبي ﷺ مباسطاً: «تقتلك الفئة الباغية» فما يفكر بقتل مؤمن نشيط فعال مثلك إلا الباغي.. ويرى نشاطه في العمل فيوصيه بالحرص على شرب اللبن حتى يكون آخر زاده. ولا مانع من أن يوافق كلام النبي ﷺ ما حدث بعد ذلك من أحداث.. فهو نبي وكلامه حق.. ولكننا كمسلمين في عصر متخلف اعتدنا ألا ننظر إلى كلام النبي إلا من زاوية غيبية. ولهذا أسوق هذا الكلام.. ولا أدعي أنه هو كل الصواب، فالله أعلم.

٥ - كلام ابن كثير عن عدم تكفير البغاة جيد وليتنا نعمم هذا الأمر في نظرتنا إلى كل من خالفنا في الاجتهاد.. وأخشى أن يكون قولنا هذا (بعدم تكفير البغاة) دفاعاً عن مذهبنا (أهل السنة) وانتصاراً للآباء (أهل الشام) فهل نقدر على التعميم؟

٦ - خبر حنين الجذع لفراق رسول الله ﷺ قد خرج من الغيبيات بعد أن كشف الإنسان أن المادة في جوهرها (طاقة) فكيف بالنبات (الجذع) الذي يعد من الأحياء..؟ وتعليق الحسن البصري عليه رائع.. واحتضان النبي ﷺ للجذع يسكته كان أروع.. صلوات الله وسلامه عليك أيها الحبيب وجمعنا الله بك على حوضك. أجدني عاجزة عن وصف إنسان نبيّ رقيق الإحساس مليء بالحب والعطاء.. فما أخسر من لم يعرف قدره وحرم من حبه والاقتباس منه ﷺ.

٧ - «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» ومن أكرمه الله فصلى في تلك البقعة المباركة أحس بروح الجنة.. ألِأنَّ خياله مشبع بقول النبي ﷺ هذا؟

٨ - حجرات أفضل خلق الله من جريد وطين.. قصيرة البناء وطيئة السقف.. فاربعوا على أنفسكم يا من تتطاولون بالبنيان وتتنافسون على الدنيا وتتحدثون بعد ذلك عن الدعوة والدعاة.. ارحموا هذه الكلمة من زيفكم.

وبعد فلا بد أن نذكر أن هجرة النبي ﷺ وأصحابه من مكة لم تكن سهلة عليهم ويكفي أن نذكر قول الرسول ﷺ عن مكة: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلي ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»[1]. وأن نذكر ما قالته عائشة رضي الله عنها عن المدينة حين قدموا إليها: أنها كانت أوبأ أرض الله من الحمى فأصاب أصحاب النبي منها بلاء وسقم وصرف الله ذلك عن نبيه.. وأصيب أبو بكر وبلال وعامر بن فهيرة.. وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته بإنشاد أشعار في الحنين إلى مكة.. فدعا رسول الله ﷺ: «اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها»[2]. إن هجرة الوطن ليست سهلة فكيف إذا كان الوطن مكة البلد الحرام وفيها أول بيت وضع لعبادة الله..؟!

لكن الهجرة درس كبير للدعاة، فيه تمحيص القلوب لله، فلا يتعلق القلب بوطن أو أرض.. فالحب لله أولاً.. والمؤمن ممتحن حتى يثبت نجاحه في ذلك. وفي الهجرة تعليم للدعاة ألا يتجمدوا في مكان واحد وألا يقفوا عند باب واحد.. فالمرونة والتكيف مع الواقع أمران ضروريان.. وقد أثبت التاريخ أن الكائنات التي عجزت عن التكيف قد انقرضت.. ومن يقف عاجزاً عند باب مغلق لن يصل إلى هدفه.. فهناك أبواب كثيرة يمكن أن تفتح ..﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٤/ ٩٧].

■ ■ ■

---

(١) رواه الإمام أحمد.
(٢) رواه البخاري.

٣- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

إنما المؤمنون إخوة

دخل المهاجرون إلى المدينة بلا مال فقد خلفوا بيوتهم وأموالهم وأهليهم في مكة، فأين ينزلون وماذا يعملون؟

بادر رسول الله ﷺ إلى علاج الموقف بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار إلى درجة أنهم صاروا يتوارثون بهذه المؤاخاة، وكانت مقدمة على القرابة إلى أن أنزل الله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/٦].

فلنسمع شيئاً من أخبار هذه المؤاخاة:

قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلني على السوق. فربح شيئاً من أقط وسمن، فرآه النبي ﷺ بعد أيام وعليه وضر من صفرة (أي أثر من لون الطيب) فقال النبي ﷺ: «مهيم يا عبد الرحمن؟» قال: يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار. قال:

«فما سقت فيها؟» (مهراً)، قال: وزن نواة من ذهب، قال النبي ﷺ: «أولم ولو بشاة»[(١)].

وعن أنس قال: قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً من كثير، لقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: «لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم»[(٢)].

وعن أبي هريرة قال قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: «لا»، قالوا: (يبدو أنهم المهاجرون): أفتكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا[(٣)] ويبدو أن المعنى كما شرحه حديث آخر: «هم قوم لا يعرفون العمل (في الزراعة) فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر»[(٤)].

❁ ❁ ❁

لقطات رائعة

في هذه الأخبار لقطات رائعة:

١ - فلقد كانت خطة النبي فعالة في دمج عناصر هذا المجتمع الجديد في أخوة في الله تنصهر فيها كل الفوارق في النسب والغنى والفقر. لقد أصبحوا جسداً واحداً (إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى).. وإنه لأمر جليل أن نرى قدرة النبي ﷺ - بل قدرة دين الله - على علاج مشاكل الواقع بأسلوب مثالي.. إذ لم نسمع من قبل أن أناساً قبلوا أن يقاسموا غيرهم أموالهم. لقد رأينا الاشتراكيين يطمحون إلى شيء من ذلك..

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البخاري.
(٤) البداية والنهاية، ٣/٢٢٩.

لكنهم أرغموا الناس عليه إرغاماً فسقطوا وتناثرت بلدانهم إلى قطع ثائرة تسعى للاستقلال عنهم.

٢ - والجميل أن هذه الأخوة لم يستغلها فريق على حساب فريق. بل طبقها كل فريق بالتضحية والإخلاص. فانظر إلى عبد الرحمن - وهو مُعدَم - يواجه كرم الأنصاري بالتعفف وعزة النفس شاكراً له مواساته وسائلاً عن السوق. وانظر إلى باقي المهاجرين يعبرون عن امتناعهم وخجلهم من إيثار الأنصار لهم. وقد خافوا من ضياع أجورهم أمام عظمة الأنصار في إيثارهم.

٣ - كانت نفوس الأنصار صافية خالصة في حبها وطاعتها للرسول.. حتى وصفهم الله ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩/٥٩]. فلقد كان عطاؤهم عن محبة وتقدير لما لقي إخوانهم المهاجرون من عنت ومشقة وحرمان في إيمانهم وهجرتهم. فكانوا مقتنعين بما يُعطى المهاجرون من عطايا.

٤ - كان المسلمون - وخاصة المهاجرين - يدركون قيمة العمل في دينهم وأن اليد العليا خير وأحب إلى الله من اليد السفلى.. ولهذا لم يركنوا إلى مساعدة الأنصار لهم، وسعوا إلى عمل ما يقدرون عليه، ورفضوا أن يكونوا عالة، ونرى النشاط والفعالية متمثلاً في أحدهم - عبد الرحمن بن عوف - إذ لم تمض عليه أيام حتى أصبح ميسوراً وتزوج ودفع مهراً من الذهب وأولم بشاة.. لقد مارس العمل الذي يتقنه، وأهل مكة ماهرون في التجارة.

كان إيمانهم يدفعهم إلى النشاط والفعالية وبذل كل ما في الوسع.. بينما إيماننا الآن يميت حركة الفكر واليد بدعوى أن كل شيء من عند الله.. فالرزق على الله، والمصائب محن من عند الله، لقد حذفنا أنفسنا من الوجود كلياً.. بينما أثبت الصحابي وجوده في كل مجال.. واعتبر المصائب ناتجة عن تقصيره وذنوبه.. و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١/١٣].

٥ - لقد حفظ رسول الله ﷺ للأنصار أموالهم ولم يقبل - ولا المهاجرون قبلوا - أن يقسم الأرض والنخيل بينهما.. وفي ذلك احترام لحق الملكية.. ودفع الإنسان أن يفعل الخير تطوعاً من نفسه.. وتعليم للجميع ألّا يُستغل الدين لتحقيق مآرب شخصية.. وفرض التآخي في البداية أن يتوارث المهاجرون والأنصار من بعضهم، فلما تحقق الغرض، وتكافل المجتمع، واستقرت أوضاع المهاجرين أرجع الله الأمر إلى نصابه، فأولو الأرحام أولى بعضهم ببعض في الميراث.. إلا من تطوع خيراً ضمن شروط الوصية بحيث لا يُحرم صاحب حق من الميراث.

* * *

٤- كتابة العهد مــع اليهــود

كتاب بين المهاجرين والأنصار وكتاب مع اليهود

كان العمل الثالث الهام الذي قام به النبي ﷺ بعد دخوله المدينة هو أنه كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم. وفيما يلي أهم ما جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم (أي الحال الذي وجدهم عليها الإسلام) يتعاقلون بينهم (يتعاونون في الدية) وهم يَفْدون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.. (قال ذلك عن: بني ساعدة وبني الحارث وبني جشم وبني النجار وبني عمرو بن عوف وبني النَّبيت وبني الأوس).

وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً (مثقلاً بالدين أو كثير العيال) أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل. وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (أي عظيمة) ظلم أو إثم أو عدوان أو

فساد بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولدَ أحدهم. ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافرٍ، ولا ينصر كافراً على مؤمن.

وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس. وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم. وإن سِلْم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.. وإنه من اعتبط (قتله بلا جناية توجب القتل) مؤمناً قتلاً عن بيِّنة فإنه قود به (أي يقتص منه) إلا أن يرضى ولي المقتول. وإن المؤمنين عليه كافة، وإنه لا يحل لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدِثاً ولا يؤويه، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردَّه إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يُوتِغُ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته. وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف. (وكرر ذلك ليهود بني الحارث وبني ساعدة..) إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم. وإن لبني الشُّطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم (البر والوفاء ينبغي أن يكون حاجزاً عن الإثم) وإن موالي ثعلبة كأنفسهم. وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته... وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. وإن بينهم النصح والنصيحة... وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم... وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تُجار حرمة إلا بإذن

أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ... وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دَهِم يثرب، وإذا دعوا إلى الصلح يصالحونه ويَلبسونه فإنهم يصالحونه وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم. وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن بر واتقى ومحمد ﷺ»[1].

تأملات حول ذلك

نتأمل هذين العهدين. الأول بين المهاجرين وأهل المدينة وفيه:

١ - المهاجرون والأنصار أمة واحدة. وإن كانت كل عشيرة تتعاون فيما بينها على الفدية والدية لكن الجميع يعاونون الفقير.

٢ - المؤمنون على الباغي ولو كان ولدَ أحدهم.

٣ - (لا يقتل مؤمن في كافر ولا يُنصر كافر على مؤمن) من الواضح أن القصد في هذا البند هو إيقاف الثارات الجاهلية. فإن الظالم لا ينصر وإن كان مؤمناً.

٤ - المؤمنون بعضهم أولياء بعض ويجير عليهم أدناهم (أي يستطيع أقلهم شأناً أن يعطي الأمان والجوار للآخرين وعلى المؤمنين أن يلتزموا) والسلام بينهم جميعاً على السواء وفي العدل.

٥ - القصاص من القاتل إلا إذا تجاوز ولي القتيل وعفا.

٦ - فظاعة جرم من يؤوي محدثاً (أي خارجاً على القانون مثيراً للفتنة).

٧ - المرجع إلى الله ورسوله عند الاختلاف.

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص ١٢٦.

والثاني بين المسلمين واليهود وفيه:

١ - يساعد اليهود المسلمين بالنفقة عند الحرب.

٢ - لليهود دينهم وللمسلمين دينهم. (حرية الأديان).

٣ - البراءة ممن ظلم وأثم فإنه يهلك نفسه ولا تحميه المعاهدة.. وإن البر والوفاء يمنع وقوع الظلم والإثم.

٤ - المسلمون واليهود بينهم النصر على من حارب أهل الصحيفة ومن هاجم المدينة.

٥ - المسلمون واليهود بينهم النصيحة والتناصح.

٦ - لا يأثم امرؤ بذنب حليفه (ولهذا لم يؤاخذ الخزرج على غدر حلفائهم من اليهود).

٧ - الجار كالنفس يُدافع عنه.

٨ - المرجع عند الاختلاف إلى الله ورسوله.

٩ - لا تجار قريش (لا تعطى حماية) ومن نصرها.

١٠ - من خرج من المدينة آمن ومن قعد آمن إلا من ظلم. (حرية التنقل).

نجد تقارباً بين العهدين من حيث الوقوف صفاً واحداً ضد الظلم والغدر والاعتداء على المدينة ومن حيث تقرير (المرجع) عند الاختلاف.

العهد بين المؤمنين كان يقرر التلاحم والتضامن الكامل بين المؤمنين. أما العهد مع اليهود فيقرر تعايشاً سلمياً عادلاً فيه التعاون على حماية المدينة التي هي وطن الطرفين، وفيه احترام لحرية الإنسان في الدين وفي السفر والإقامة، وفيه ضمان السلامة لكل من التزم بالعهد.. فمن ظلم فلا ذمة له. هذان العهدان كأنهما يمثلان ميثاقاً سياسياً، وقانوناً يضعه النبي ﷺ واضحاً أمام جميع الأطراف ويأخذ منهم الموافقة على الالتزام به. وكأنه (تصويت على الدستور).

وبعد موافقة جميع الأطراف أصبح النبي ﷺ مخولاً لحكم المدينة بموافقة جميع الأطراف الساكنة فيها.

وإن كان اليهود أحراراً في إدارة شؤونهم لكنهم سلَّموا السياسة العامة للمدينة إلى النبي. وفي ذلك تجلت حنكة النبي ﷺ وبراعته ومرونته في السياسة مع الإنصاف الذي لا يستطيع أن يرفضه أحد. إن هذه المعاهدة تلجم كل محاولة للكيد من اليهود.. ولقد كانت حجة عليهم فيما بعد عندما غدروا وكادوا، وكانت محاربة الرسول ﷺ لهم عندها مبررة قانونياً وأخلاقياً.

* * *

حَبْرٌ من يهود يسرع للإسلام

يقول عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس (لعله يقصد اليهود) فكنت فيمن انجفل، فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب. فكان أول شيء سمعته يقول: «أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»[1].

وفي رواية عن أنس: أن عبد الله بن سلام[2] سمع بقدوم النبي ﷺ وهو في أرض له فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال ﷺ: «أخبرني بهن جبريل آنفاً»، قال: جبريل؟ قال: «نعم»، قال: عدو اليهود من الملائكة... قال ﷺ: «أما أول أشراط الساعة فنار تخرج على الناس من المشرق تسوقهم إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة

---

(١) رواه الإمام أحمد.
(٢) يقول ابن إسحاق: كان اسمه الحصين فلما أسلم سماه النبي ﷺ عبد الله.

ماء الرجل نزعت الولد» فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. يا رسول الله إن اليهود قوم بهت وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني. فجاءت اليهود. فقال: «أي رجل عبد الله فيكم»؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا. قال: «أرأيتم إن أسلم؟» قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. قالوا: شرّنا وابن شرّنا وانتقصوه. قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله[1].

هذا الخبر فيه فوائد وعبر:

١ - لا يجوز تعميم الأحكام بالخير والشر على أمة معينة.. فالإنسان قابل للهداية مهما كان قومه ومهما كانت ثقافته.. صحيح أن ثقافة الأمة تصبغ الفرد بطابعها وتلقنه أفكارها.. لكن الإنسان يملك زاوية يحرك فيها رشده.

٢ - يقول عبد الله: فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب، سيماهم في وجوههم صدق الله سبحانه، والنابهون هم الذين يستنطقون قسمات الوجه ويفهمون لغة (السيمياء).. ومرة أخرى أقول إن للأفكار والأخلاق أثراً في الوجه من حيث السماحة والطمأنينة والنور الذي وضعه الله. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [عبس: ٨٠/٣٨].

٣ - من أوائل ما اهتم به الرسول ﷺ في وصاياه للناس في المدينة:

- أفشوا السلام، لأن إشاعة التحية بالسلام ينشر الأمن ويقوي الودّ بينهم.

- أطعموا الطعام.. وما أحوج المؤمنين - والمهاجرين خاصة - إلى ضمان لقمة العيش.

- وصلّوا بالليل والناس نيام فإن في ذلك برهاناً على الإخلاص لله حيث يهجر المؤمن نومه.. وبعداً عن الرياء فلا ينشغل بأحد عن ربه.. فطوبى لهؤلاء بلقائهم مع ربهم.

---

(١) رواه البخاري.

هذه الأسباب الثلاثة: الوداعة مع الناس والعطاء لهم وحسن الصلة مع الله.. عاقبتها (تدخلوا الجنة بسلام).. وهي جنة في الدنيا قبل الآخرة.

٤ - طالب الحق يسأل ويتبين قبل أن يصدر حكماً أو يتخذ موقفاً.

٥ - أسئلة عبد الله بن سلام ليس شرطاً أن تكون هماً لكل طالب حق في كل عصر، بل هي أمور ربما كان اليهود يعرفونها - دون غيرهم - من كتبهم وأحبارهم. والمهم في الأمر هو مخاطبة الناس على قدر عقولهم. بشرط ألا تنساق معهم إلى الخرافة والدجل.. وكان جواب النبي ﷺ من وحي الله.

٦ - موضوعية ابن سلام إذ لا يصرفه عن الحق كون (جبريل) هو الذي يوحي للنبي ﷺ وهو عدو لليهود - بزعمهم - كذلك إن ابن سلام يعرف عيوب قومه.. ويحذر النبي ﷺ من أنهم قوم بهت.. أي يفترون الكذب على البريء.

٧ - طريقة النبي ﷺ في فضح بهتانهم إذ يسألهم أولاً عن عبد الله ثم يكتشفون إسلامه - وهو ذكاء لماح في إقامة الحجة عليهم. وبعض الروايات تذكر أن الطريقة كانت من اقتراح عبد الله ولا حرج في ذلك فقد كان عبد الله حصيفاً فاهماً لبيباً وهذا ما جعله يسرع إلى الإسلام ويؤثر في أهل بيته وعمته فيسلمون..

لقد عجز اليهود - معظمهم - عن أن يكونوا (طلاب حق) لأنهم لم يتصفوا بالموضوعية والتحرر من الهوى. بل وضعوا (كيانهم) فوق الحق.

* * *

٥- ثلاثة أحداث هامة

أول من مات وأول من ولد بعد الهجرة

أول من مات بعد مقدم النبي ﷺ أسعد بن زرارة رضي الله عنه، وقد شهد العقبات الثلاث، وكان أول من بايع رسول الله ﷺ ليلة العقبة الثانية، وكان شاباً أخذته الذبحة - أو الشهقة - وكان نقيباً لبني النجار. فسأل بنو النجار رسول الله ﷺ أن يقيم لهم نقيباً بعده. فقال ﷺ: «أنتم أخوالي وأنا بما فيكم وأنا نقيبكم»، وكره أن يخص بها بعضهم دون بعض. فكان من فضل بني النجار الذي يعتدون به على قومهم أن كان رسول الله ﷺ نقيبهم(١).

وكان أول مولود ولد في الإسلام من المهاجرين عبد الله بن الزبير:

عن أسماء أنها حملت بعبد الله بن الزبير قالت: فخرجت وأنا متم (أي خرجت مهاجرة إلى المدينة وهي في شهرها التاسع) فأتيت المدينة فنزلت بقباء فولدته بقباء، ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعه في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها ثم وضعها في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بتمرة، ثم دعا له وبرّك عليه. فكان أول مولود ولد في الإسلام(٢).

---

(١) البداية والنهاية، ٣/٢٢٩.

(٢) رواه البخاري.

زواج النبي ﷺ من عائشة

وبنى رسول الله ﷺ بعائشة في شوال من السنة الأولى للهجرة. فعن عائشة قالت: تزوجني رسول الله ﷺ في شوال وبنى بي في شوال فأي نساء رسول الله ﷺ كانت أحظى عنده مني؟ وكانت عائشة تستحب أن تدخل نساءها في شوال[1] وكان بعض الناس يكرهون الدخول بين العيدين لما يتوهمون من خشية المفارقة بين الزوجين. وهذا ما جعل عائشة ﵂ تقول: (فأي النساء كانت أحظى عنده مني).

تأملات حول ذلك

في هذه الأخبار نتأمل ما يلي:

١ - قدرة النبي ﷺ على مراعاة النفوس بحيث يتحاشى إثارة الغيرة والحمية بين المؤمنين.. فهو يقول لبني النجار: أنا نقيبكم. حتى لا يخص أحداً دون الباقين فيحزنهم. وإنما كان أسعد بن زرارة نقيباً، لأنه كان أول من بايع في العقبة الثانية.. وهذه حجة عليهم.

٢ - تأمل جهاد أسماء تهاجر وهي في شهرها التاسع بوسائل نقل ذلك العصر، واعجب من لين ورخاء المؤمنين والمؤمنات في عصرنا وضعف بذلهم! ثم ولدت عبد الله في قباء ولحقت بالنبي ﷺ قبل أن ترضعه..!!

٣ - عناية النبي ﷺ واهتمامه بالكبار والصغار من المؤمنين، فهو يضعه في حجره ويطعمه التمرة بعد أن يلينها له بمضغها، ويدعو له ويبارك عليه. لقد كان هذا غذاء معنوياً عظيماً للمؤمنين والمؤمنات.. محبة النبي ﷺ لهم ورعايته.

٤ - فرح المؤمنين بميلاد عبد الله كان مرده إلى إشاعة سرت أن اليهود سحروا المؤمنين فلن يولد لهم ذرية، ولهذا ذكروا أنه أول مولود بعد الهجرة.

---

(١) رواه مسلم.

ولا بد من الانتباه إلى أثر الخرافات والأوهام في الحرب المعنوية وإلى أن إزالة الأوهام تحتاج إلى جهد طويل مستمر.. انظر إلى السيدة عائشة ﵂ كيف تلح على أن زواجها من النبي ﷺ قد تمَّ في شوال وأنه كان من أسعد الزيجات.. لكي تمحو الأوهام المسيطرة على النفوس. ولا بد من دراسة هذه الأوهام كيف تنشأ عند الشعوب.. لأنها تختلف عن الخبرات التي تكشفها الأمة أثناء تجاربها في الحياة.. هذه الخبرات تتحول إلى حكم وأمثال في حياة الشعوب لأنها كشفت سنة من سنن الحياة.. أما الأوهام فهي تعليلات خاطئة لتجارب الأمم.. تعطيها الأمم صفة السنة والقانون. ولا ننسى أثر الوهم في النفوس فربما افترق الزوجان لاعتقادهما بهذا الوهم.

أما زواج عائشة ﵂ فأجدني منساقة إلى ذكر الخبر كيف تمَّ لطرافته: عن عائشة ﵂ قالت: تزوجني النبي ﷺ وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج. فوعكت (مرضت) فتمزق شعري، وقد وفت لي جميمة (أي نما الشعر من جديد)، فأتتني أمي أم رومان وإني لفي أرجوحة ومعي صواحب لي، فصرخت بي فأتيتها ما أدري ما تريد مني، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار، وإني لأنهج (ألهث) حتى سكن بعض نفسي ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار قالت: فإذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن: على الخير والبركة وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن فأصلحن من شأني. فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى فأسلمنني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين[(١)].

الخبر بالنسبة إلى القارئ المعاصر عجيب وطريف.. لكنه بالنسبة لذلك العصر طبيعي جداً.. لم يعترض عليه أحد.. حتى عائشة فوجئت (لم يرعني إلا رسول الله) لكنها تباهي بهذا الزواج وبكونه من أسعد الزيجات. ولا بد من مراعاة أمور عنده:

---

(١) رواه البخاري.

١ - ضرورة الانتباه إلى موضع القدوة في حياة النبي ﷺ وفرزه عن خصوصيات النبي ﷺ وخصوصيات عصره. فالنبي ليس قدوة في عدد زوجاته - وكانت زيجاته بأمر من الله، ولعلي أقف عند ذلك في موضع آخر - وليس قدوة في زواجه من الصغيرة عائشة، فذلك أمر مألوف في ذلك العصر وفي تلك البيئة التي يتم فيها البلوغ في عمر مبكر.

٢ - لكنه ﷺ قدوة في بساطة زواجه وبعده عن التكلف والتكاليف التي ترهق الناس وتجعل الشباب عاجزين عن الزواج مما يسبب معاناة كبيرة للمجتمع.

* * *

كيف ندعو الناس إلى الصلاة؟!

ها هو أمر الإسلام قد استقر في مجتمع وليد وضعت له قوانين مبدئية رسمت الخطوط العريضة للتعامل بين الأفراد ومختلف العشائر والفرق.. وفرضت صلاة الحضر أربعاً - إلا الفجر والمغرب - وبقيت الركعتان للسفر. وفرضت الزكاة والصيام، وبدأت بعض المشاكل الفرعية بالظهور.. منها كيف ندعو الناس إلى الصلاة..؟ كان الناس يترصدون مواقيت الصلاة ويأتونها بغير دعوة.. لكن ذلك صعب على مجتمع لم تكن فيه (ساعات) واضحة يعرف فيها التوقيت، وإنما هي مراقبة الشمس والسماء.. همّ رسول الله ﷺ أن يجعل للصلاة بوقاً كبوق يهود الذي يهرعون به لصلاتهم ثم كرهه. ثم أمر بالناقوس فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة.

فبينما هم على ذلك إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة أخو بلحارث بن الخزرج النداء، فأتى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله إنه طاف بي هذه الليلة طائف، مرّ بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده فقلت له: يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر (إلى آخر

الأذان).. فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال: إنها لرؤيا حق إن شاء الله فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها. فإنه أندى صوتاً منك (أعلى وأرفع وأبعد مذهباً) فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب وهو في بيته. فخرج إلى رسول الله ﷺ يجر رداءه وهو يقول: يا نبي الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى. فقال ﷺ: فلله الحمد على ذلك(١).

قال الزهري: وزاد بلال في نداء صلاة الغداة: الصلاة خير من النوم مرتين فأقرّها رسول الله ﷺ(٢).

في هذا الخبر نقاط هامة جداً نتأمل بعضها:

١ - نلاحظ كيف ترك أمر الأذان حتى بذل الناس جهداً في التفكير فيه. ولم يوحَ به إلى النبي ﷺ مباشرة. وهذا تدريب للمؤمنين على الاجتهاد فيوشك أن ينقطع الوحي من السماء وعلى المؤمنين أن يتعلموا كيف يجدون الحلول لمشاكلهم.

٢ - جاء الإيحاء به - عن طريق الحلم - إلى اثنين من الصحابة ولم يوح به إلى النبي ﷺ.. وفي ذلك تكريم للصحابة وإعطاؤهم فرصة للمشاركة في صنع القرار وهو ما يجعلهم أكثر التزاماً واندماجاً في النظام الاجتماعي.

وموقف النبي ﷺ هنا رائع كيف أنه قبل من الصحابي اقتراحه ولم يقل لو كان حقاً لأوحي إليّ به.. بل هو تأمل الاقتراح فوجده حلاً مناسباً فقبله من الصحابي ولم ينسبه لنفسه.. ونقلت الروايات ذلك.. لقد كان ﷺ يبني مجتمع الاجتهاد و (الديمقراطية) في عصر لم يكن يعرف كل ذلك.

٣ - في الخبر رفض للتقليد وإشعار بضرورة تميز الأمة المسلمة عن غيرها برموزها الدينية والثقافية، وهو أمر ضروري في إعطاء هوية للفرد والأمة حتى

---

(١) رواه أبو داوود والترمذي وابن ماجه وابن خزيمة.

(٢) رواه ابن ماجه.

لا تذوب في الثقافات الأخرى. ولا يمنع هذا من اقتباس العلوم والوسائل من الأمم الأخرى.

٤ - معرفة النبي ﷺ بمواهب أصحابه. فقد كان يضع الرجل المناسب في المكان المناسب فهو يقول عن بلال: هو أندى صوتاً. ويصبح بلال هو المؤذن.

٥ - أندى من النداوة أيضاً وهو الجمال.. والصوت الجميل ضروري للمؤذن.. ورسول الله ﷺ حريص على الجمال. والثقافة الإسلامية تعطي للجمال المرتبة الثانية بعد الأخلاق.

* * *

الباب
الثالث

الإذن بالقتال

- مقدمة

١- بدء السرايا والغزوات (العام الثاني).

٢- تأملات حول غزوة بدر.

٣- النبي ﷺ واحة حب.

٤- اليهود يبدؤون النقض والغدر.

٥- تأملات في غزوة أحد.

٦- عودة إلى واحة الحب.

٧- لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة.

٨- صحبة وتعليم من نبئ إنسان.

٩- الأحزاب وحفر الخندق.

١٠- وماذا عن بني قريظة؟

مقدمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ﴾

تأمل كيف بدا الأمر

نزلت هذه الآية بعد الهجرة وفيها الإذن للمؤمنين بالقتال بعد أن كان ممنوعاً ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٢٢/٣٩-٤١].

هذا الموضوع كبير ويحتاج إلى تأمل غزير.. وقد سبب لنا عدم تدبره ودراسته مآسي كثيرة.. موضوع الجهاد في سبيل الله بالقتال تحديداً. ولا بد من دراسة كيف

بدأ القتال.. قبل أن نتحدث عن مآسي عالمنا. ومن المفيد أن نتدبر الآيات السابقة مع استحضار كل أحداث السيرة السابقة.

١ - كان القتال ممنوعاً حتى تشكل المجتمع المسلم بقيادة حاكمه محمد ﷺ.

٢ - ولقد تشكل هذا المجتمع دون أن تراق قطرة دم واحدة، فلقد بايع وجهاء المدينة رسول الله ﷺ واختاروه حاكماً لبلدهم، وقد أقرّ بذلك كل بطون الأوس والخزرج.. بل واعترف اليهود به حين وقعوا العهد معه.

٣ - ما كان المشركون ليسكتوا على ذلك بل إنهم صمموا على القضاء على مجتمع المسلمين الوليد، والآية تذكر سبقهم إلى القتال ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾ فالمسلمون كانوا يُقاتَلون ظلماً، وقد أُخرجوا من ديارهم بغير ذنب إلا أنهم خالفوا قومهم في الدين ..﴿يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾.

٤ - مبررات السماح للمؤمنين (كمجتمع يحكمه حاكم بشرع الله) بالقتال هي: وجود مقاتلين يمارسون:

١ً - إخراج الناس من ديارهم بغير حق.

٢ً - عدم الاعتراف للناس بحرية اختيار الدين الذي يريدون. أي ممارسة الإكراه في الدين.

فشروط السماح بالقتال كانت ذات شقين:

- شرط في المجاهد: أن يكون جندياً يطيع الحاكم المسلم في مجتمع مسلم يستنفر للقتال.

- شرط في المُقاتِل: أن يرفع السلاح فيكره الناس في الدين ويخرجهم من ديارهم. وجزى الله الأستاذ جودت سعيد خير الجزاء حيث تصدى في كتبه لبيان هذه القضية التي أهمل المسلمون بيانها ودراستها. ولولا أن منّ الله علينا بلقائه ودراسة أفكاره لخضنا في متاهات خاضها المخلصون مع الأسف فارتكبوا أخطاء

شنيعة جرعت الشعوب آلاماً كثيرة. وذلك بالدخول إلى الجهاد (قتالاً) دون مراعاة شروطه الشرعية.

٥ - ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ﴾ لقد كان الأسلوب الوحيد لحماية حرية الدين في ذلك العصر هو السماح للمجتمع المسلم أن يقاتل حماية لهذا الكيان الجديد صيانة له كي ينمو ويكون نواة حضارة عالمية أنعشت الأخلاق والعدل والعلم في الأمم، وكانت مصدر إشعاع للناس على مدى قرون طويلة.

ويذكر الرواة - وإن اختلفوا في تحديد العدد فأخذت بأشهر الأقوال - أنه ﷺ غزا تسع عشرة غزوة وبعث أربعاً وعشرين سرية (والفرق أن الغزوة يشارك فيها ﷺ بينما السرية يبعثها بقيادة أحد أصحابه) خلال عشر سنوات، فكأنه يخوض غزوتين ويرسل أكثر من سريتين في العام الواحد.

هذا ما فرضته الظروف وهو ما يناسب ذلك العصر الذي يعطي مجداً للبطولات الحربية.. ولقد أثبت هذا المجتمع الصغير الوليد بطولة وصبراً لا حدَّ لهما، فلقد كان قادراً على أن يخوض معركة كل ثلاثة أشهر - تقريباً - رغم قلة عدده وعتاده. وهذا ما أثار دهشة المشركين وأوهن عزيمتهم واضطرهم في النهاية أن يعترفوا له بالتفوق.

ولقد تأملت قول علي بن الحسين: (كنا نعلّم مغازي النبي ﷺ كما نعلّم السورة من القرآن)[1]. فأدهشتني هذه المبالغة - وإن كانت ثقافة عصره تبررها - ورأيت المؤرخين يمشون على أثره، ويستمر التجسيم والتعظيم لهذا الجانب مقابل خطب الجمعة - على الأقل - التي خطبها رسول الله ﷺ في المدينة خلال عشر سنوات..؟! ألم يكن جمعها وتحليلها ضرورياً لمتابعة تطور البناء التربوي لهذا المجتمع؟!

(١) رواه الواقدي.

فإن كان للقدماء عذرهم في أنهم كانوا يعيشون عصر البطولات الحربية.. فما بالنا نعرض عن رؤية ما جدَّ واختلف في عصرنا؟! فالبطولات الآن علمية تقنية صناعية، والشعوب الآن تلعن كل أمة تلجأ إلى الحرب والسلاح.. وقد أدركت الدول العظمى أن الحرب الذرية معناها فناء العالم، فأوقفت الحروب فيما بينها.. وإن استمرت تخدع العالم الثالث بسحر (الحبال والعصي) التي تلوح بها[1]. وجرت اتفاقيات دولية لنزع السلاح.. وأصبح الحديث عن السلام الشغل الشاغل في كل مكان.. رغم أن الدول العظمى لا تريده إلا ليزيد من سلطانها واستكبارها، ولكن التطور سيجبرهم على العودة إلى الأخلاق والآلام ستعلِّم الجميع أنْ لا مندوحة لهم من السعي إلى العدل والسلام.. ألم يخبرنا الله بذلك حين أمرنا بالدخول إلى السلام بعد أن يدرك الناس ضرورته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [البقرة: ٢/٢٠٨]. فالشيطان وراء النزاعات والحروب والأسلحة والدمار.

حين فكرت في ذلك كله شعرت أنه من الأولى أن أترك الحديث عن الغزوات، فلقد تحدث عنها الجميع.. لكن الحديث عن الجانب التربوي السنني في سيرة محمد ﷺ هو حاجة اليوم والغد.. فلا بد من الإفاضة فيه.. دون إهمال ما يرد من ذلك حتى أثناء الغزوات..

والله المستعان وبه التوفيق.. ومنه الغفران إن أخطأت وقصَّرت.

* * *

(١) أقصد الأسلحة الحديثة. وذلك لتتمكن من بيع الأسلحة بدلاً من إتلافها. ولتشغل شعوب العالم الثالث بالحروب الأهلية وتبقى الأرباح لها في كل الأحوال.

النفاق ظاهرة جديدة بعد الهجرة

هذه الظاهرة سببت للمجتمع المؤمن مشاكل عديدة. وسبب ظهورها هو أن المسلمين صاروا هم أصحاب السلطان والقوة في المدينة. أما في مكة فقد كانت القوة للمشركين فلم يظهر النفاق وإنما كان هناك (مستضعفون) أخفوا إيمانهم وتظاهروا بمسايرة المشركين (وهو أمر شبيه بالنفاق من حيث اختلاف الباطن عن الظاهر) وهؤلاء كان بعضهم معذورون ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٨/٤] وآخرون ندّد بهم القرآن وحثّهم على الخروج من الاستضعاف بالهجرة إلى المدينة.. فهاجر قسم وبقي آخرون حتى فتح مكة.

لماذا ظهر المنافقون في المدينة مع أن النبي ﷺ لم يكره أحداً على الدخول في الإسلام وفي المعاهدة التي كتبها لأهل المدينة ولليهود نجد احتراماً كبيراً لحرية الإنسان في أن يعتنق الدين الذي يريد..؟!

قسم منهم حقد على النبي ﷺ والمسلمين لأنهم خسروا الوجاهة والرئاسة في قومهم (مثل عبد الله بن أبي) ولم يظهر نفاقه إلا بعد غزوة بدر فرأى أن يعلن إسلامه حتى يحتفظ ببعض مكانته.. ويحضر مجالس النبي ﷺ والمسلمين كأنه منهم ليكيد لهم ويدبر الوقيعة بينهم.

وقسم تظاهر بالإسلام حرصاً على المكاسب والمغانم بعد أن رأى انتصار المسلمين في غزوهم.. وأن الرياح تجري معهم..

على كل حال لا يخلو عصر من ذوي النفوس الضعيفة الذين لا يملكون الجرأة على التصريح بآرائهم.. فهم خائفون متربصون لا همّ لهم إلا أنفسهم.. فإذا سنحت لهم فرصة طعنوا من الخلف، وإذا كشف بعض أمرهم حلفوا الأيمان واختلقوا الأعذار، ولعلنا نمرُّ أثناء طوافنا بتلك السنوات على بعض مواقفهم وكيف كان النبي ﷺ يتصرف معهم. فلقد أطلق القرآن عليهم وصف

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ٢/١٠]، وكان النبي ﷺ يحاول علاجهم وقد رفض قتلهم وقبل منهم ما يعلنون من طاعة وترك سرائرهم لله(١).

* * *

(١) إن ظهور المنافقين عند وصول المؤمنين إلى المجتمع القوي يبرز حقيقة هامة، وهي أن المشاكل لا تنتهي عند استلام السلطة بل إنها تكبر وتشتد.. والمعاناة مستمرة ما استمرت الحياة.. ولا تقف المشاكل إلا عند انتهاء الحياة.

١- بدء السرايا والغزوات
(العام الثاني)

وبدأت السرايا والغزوات مع بداية العام الهجري الثاني. فخرج رسول الله ﷺ في أربع غزوات وأرسل ثلاث سرايا كانت رابعها سرية عبد الله بن جحش في رجب من ذلك العام (بمعدل معركة في كل شهر وإن لم يحدث في معظمها قتال).. وسأقف عند سرية ابن جحش لما حصل حولها من إشكال والتباس.

قتال في الشهر الحرام؟!

وخلاصة الأمر في هذه السرية: أن رسول الله ﷺ أرسل عبد الله ومعه ثمانية من المهاجرين وكتب له كتاباً أمره ألا ينظر فيه إلا بعد مسيرة يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحداً. فإذا في الكتاب: امض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً.. فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف منهم أحد. فلما نزلوا نخلة مرت عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي، وتشاور الصحابة فيهم وذلك في آخر يوم من رجب (لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعنَّ به منكم ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام) فتردد القوم، ثم أجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم. فقتلوا عمرو بن الحضرمي، وأسروا عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان،

وأفلت الباقون. وأقبل عبد الله وأصحابه بالعير والأسيرين على رسول الله ﷺ.. فلما قدموا عليه ﷺ قال: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام» وأبى أن يأخذ منهم شيئاً.. فأسقط في يد القوم وظنوا أنهم قد هلكوا وعنفهم إخوانهم من المسلمين. وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا الرجال.. ورد بعض المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان.. فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله تعالى على رسوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾.. عند ذلك أخذ النبي ﷺ العير والأسيرين[1]. وكان ابن الحضرمي أول قتيل قتل بين المسلمين والمشركين. وهذه أول غنيمة للمسلمين. حادث لافت للنظر وفيه إشارات ومواقف هامة:

١ - عناية النبي ﷺ بكتمان الخطط في السرايا والغزوات.. وهنا حتى أمير السرية لا يعرف لماذا يخرج وإلى أين.. إلا بعد أن يبتعد يومين..

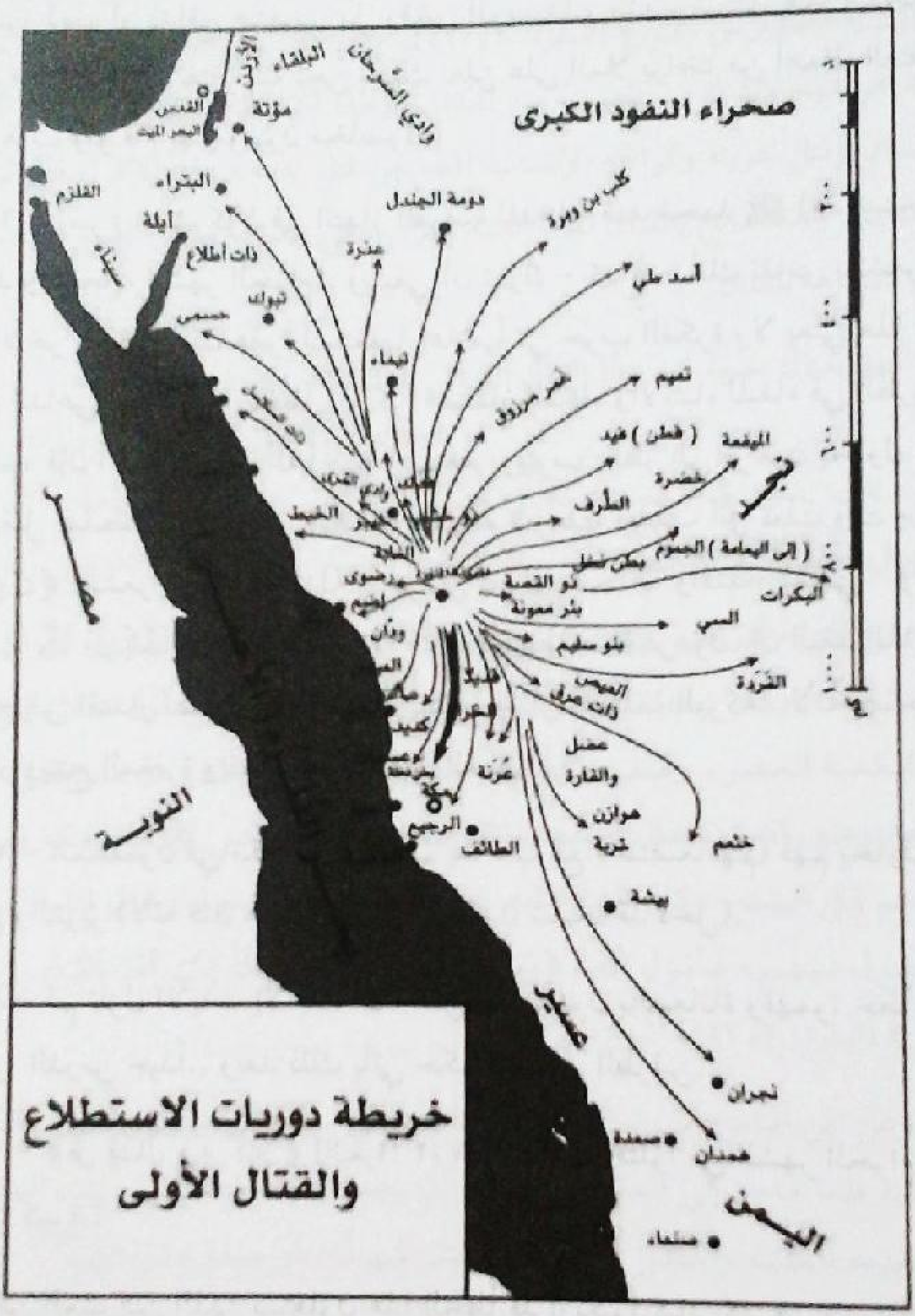
٢ - والمهمة خطيرة فيها اقتراب شديد من مشركي مكة.. وعددهم ثمانية!! ولهذا يكتب له في الكتاب (لا تستكره أحداً).

٣ - لم يتخاذل أحد من الثمانية عن المضي في المهمة التي طلبها منهم نبيهم.

٤ - نَدَبهم للاستطلاع وتحسس الأخبار لا للحرب.. ولهذا كان عددهم قليلاً. لكنهم لم ينتبهوا بدقة إلى حدود المهمة التي كلفوا بها. ولا ننسى أثر الظروف التي عاشها المهاجرون من ظلم مشركي قريش لهم وإيذائهم، وأثر الجو العام في الجزيرة العربية في ذلك العصر من استسهال للغزو والوثوب على العدو..

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ٢٤٩ (مختصراً).



(خريطة دوريات الاستطلاع والقتال الأولى)

٥ - موقف النبي ﷺ كان واضحاً في استنكار ما فعل أصحابه، ولم يحاول أن يبرر لهم أو يدافع عنهم.. بل رفض أن يستلم منهم شيئاً. هذا التجرد والموضوعية هو ما نفتقر إليه نحن بحيث نعلن على الملأ براءتنا من أعمال العنف والإرهاب ولو قام بها مؤمنون مخلصون.

٦ - أسرع المشركون في انتهاز الفرصة للدعاية ضد محمد ﷺ (قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام). وينبغي أن تدرك - كداعٍ - أنك تقاس بالشعرة. وأن الآخر يتربص منك هفوة ليستغلها إعلامياً في حرب الفكرة ولا يعني هذا أن يكون الداعي منزهاً عن الخطأ.. ولكن استنفار الذكاء والانتباه للبقاء في الطريق السليم، فإن أخطأ.. يعلن أنه أخطأ ويستغفر ويتوب. انظر إلى فرعون يحاول أن يستغل غلطة موسى في إيقاف دعوته ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٩]، لكن موسى يقول بشجاعة واقتدار نفسي: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢٠]، فتسقط حجة فرعون. إن النقد الذاتي يحتاج إلى اقتدار نفسي.. وهو شرط للتوبة وآثاره عظيمة البركة.. لأنه يصحح المسار وينتج المغفرة ويقطع الطريق على العدو.

٧ - المسلمون في مكة كان موقفهم يتناسب مع (استضعافهم) فهم يحاولون الدفاع والتبرير (لأنه كان هناك احتمال أن يكون شعبان قد دخل).

٨ - لم تنزل الآيات إلا بعد أن أحس المسلمون بالمعاناة وفهموا خطأهم وتعلموا الدرس جيداً.. وبعد ذلك يأتي حكم الله على الطرفين..

٩ - ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٧] فالذين قتلوا في الشهر الحرام قد ارتكبوا كبيرة..

لكن المشركين الذين يستغلون هذا الخطأ قد ارتكبوا كبائر كثيرة:

١ - صدّ عن سبيل الله. ٢ - وكفر بالله. ٣ - وكفر بالمسجد الحرام. ٤ - وإخراج أهل الحرم منه. هذه الجرائم الأربع أكبر عند الله مما فعل المسلمون..

قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة. فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة[1] وكان هذا أول نسخ وقع في الإسلام. وقد شنَّ اليهود - ومن ورائهم المنافقون - حملة دعائية ضد النبي ﷺ والإسلام عند ذلك ورد القرآن عليهم بحجج كثيرة منها أنهم يعرفون هذا الأمر كما يعرفون أبناءهم.

نمضي في تأملاتنا:

١ - كان الرسول ﷺ يحس بأن القبلة ستستقر على الكعبة، فهي أول بيت وضع للناس ليعبدوا الله فيه، وهي التي أذن إبراهيم في الناس للحج إليها تنفيذاً لأمر الله، وهذا ما جعله ﷺ متعلقاً بها. وقد استطاع في مكة أن يجمع بين الكعبة وبيت المقدس قبلة في صلاته.. أما في المدينة فقد استحال ذلك. فأصبح يقلب وجهه في السماء متضرعاً متطلعاً طامعاً أن تعود القبلة إلى الكعبة.

٢ - لماذا أمر المسلمون بالتوجه إلى بيت المقدس إذن في البداية؟! لا شك بأن في الأمر حكمة إلهية هامة.. نعدد بعضها. ومن أراد التوسع فليعد إلى تفسير الآيات في سورة البقرة:

أ- كان الأمر في البداية لتحرير النفوس من الارتباط بالوطن ورموزه والقبيلة ومقدساتها. ولقد ارتبطت قريش بالبيت العتيق وكانت تمتاز على كل القبائل بسدانة هذا البيت.

ب- أراد الله أن يمحص قلوب المؤمنين ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣]. وينبغي أن تكون الأولوية في قلب المؤمن لطاعة الله.

ج- كأنها لفتة للعرب الذين كانوا يعيشون في صحرائهم لا يعرفون شيئاً عن الأمم من حولهم.. لأن يفتحوا الجسور وينطلقوا لرؤية ما عند الآخرين، فهناك مقدسات غير مقدساتهم وهناك أديان سماوية جديرة بالاحترام.

(١) ثبت في الصحيحين.

٤- وفي أمر المسلمين بالصلاة إلى بيت المقدس ثم بالتحول إلى الكعبة إشارة إلى وحدة الأديان السماوية ووحدة المقدسات عند الجميع (يهوداً ونصارى ومسلمين) وضرورة تعظيمها واحترامها.

٥- كان الأجدر باليهود - الذين يعرفون أن قبلة النبي المنتظر ستكون إلى الكعبة - أن تميل قلوبهم للإسلام والمسلمين بعد أن صلوا إلى قبلتهم (بيت المقدس) وفي ذلك تعبير عن احترامهم، لكنهم لخبثهم عجزوا عن الاستفادة من فرص الهداية وحولوها إلى مادة للطعن والسخرية.

٣ - في الخبر تصوير فريد لمقدار الطاعة عند المؤمنين حيث تحولوا أثناء الصلاة إلى القبلة الجديدة.

٤ - موضوع النسخ وتغير الأحكام في الإسلام أمر إيجابي جداً لأن فيه مراعاة لتغير الظروف، وعملية بناء الإنسان وتربيته تتم وفق مراحل متتالية ترتقي من الحسن إلى الأحسن. وأبرز مثال على ذلك تدرج الآيات في تحريم الخمر، والتدرج في تحريم الربا، والارتقاء لا نهائي ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١/٣٥].

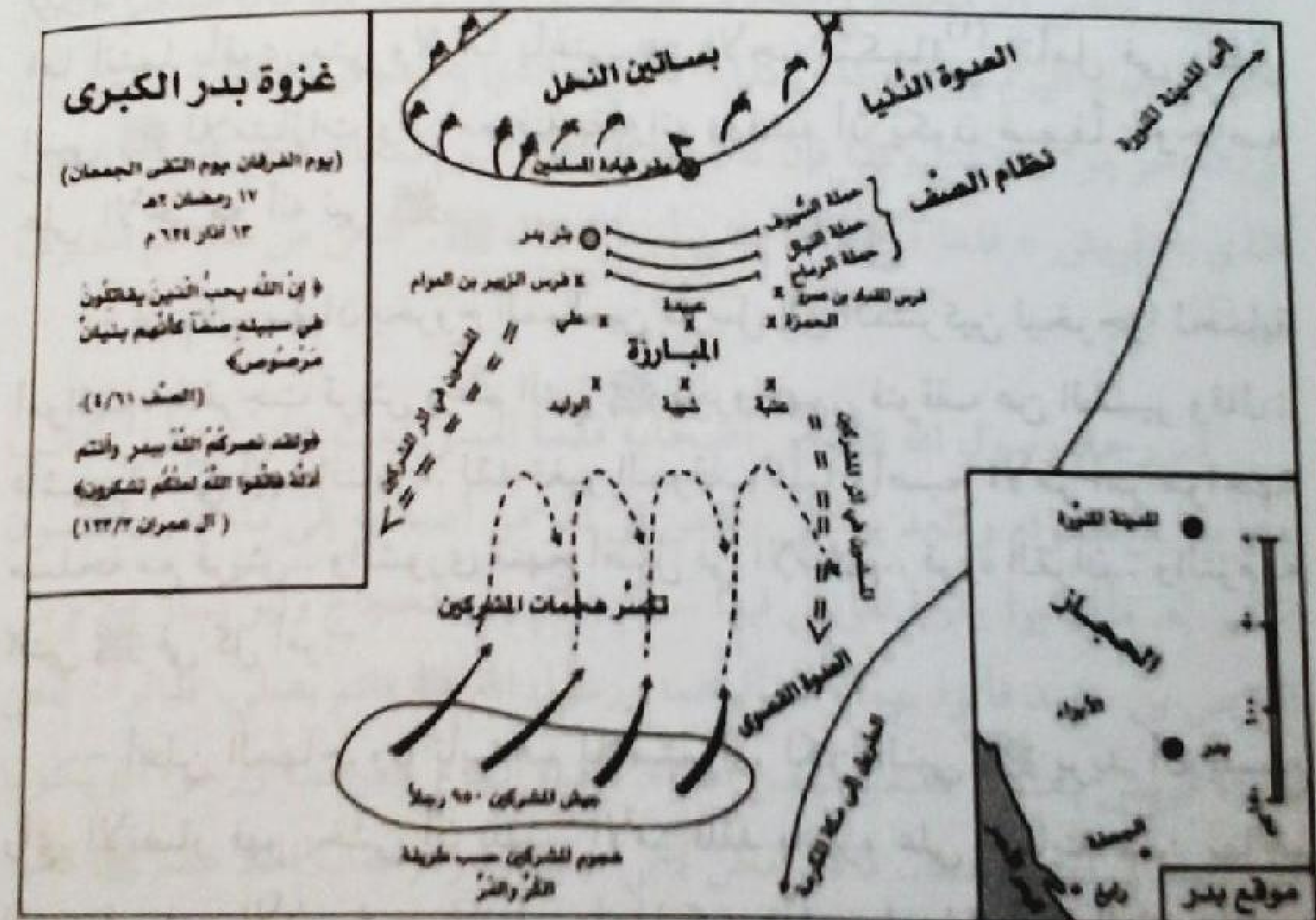
وتأمل في الفترة المكية.. حيث لم يفرض على المؤمنين إلا الصلاة.. ومنعوا من القتال.. وبعد الهجرة فرضت صلاة الجمعة ثم سمح بالقتال.. ثم فرض صيام رمضان وصلاة العيد وفرضت الزكاة.. وتتالت الأحكام..

هذه الفرائض والأحكام كانت تهيئ بيئة طيبة تساعد الفرد على سلوك طريق الخير وتغلق في وجهه أبواب الشر .﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨/٧]. فأثر البيئة لا ينكر. حتى إن سكينر - أحد أعلام المدرسة السلوكية في علم النفس - يقول: إنه لتغيير سلوك الإنسان يجب أن نغير البيئة أولاً. لكن توينبي يكمّل الصورة حين يتحدث عن ظهور النخبة المبدعة في البداية (البروليتارية الداخلية) فهي التي تضع تصورات جديدة وهي التي تقود الناس في تشكيل مجتمع جديد.

وأرى أن الفترة المكية قد أنتجت هذه النخبة المجاهدة.. وعلى أكتافها بني المجتمع الجديد وتشكلت بيئة جديدة تدفع الأفراد إلى الخير وتغلق الأبواب والنوافذ في وجه الشر. وإلا فكيف يمكن إيجاد بيئة جديدة طيبة طاهرة تنتج أفراداً طاهرين؟! إن الطفل حين يولد يستنشق كل قيم ومفاهيم البيئة من حوله.. فهو نتاج لمجتمعه وبيئته. ومع ذلك فإن هذا (الخلق الآخر) - الإنسان - مطالب بأن يقوم بتقديم إضافات أخرى للنمو والتطوير. وقد أعطاه الخالق القدرة على ذلك.

* * *

٢- تأملات حول غزوة بدر



(١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة)

خريطة غزوة بدر

- كان الطرفان يعيشان حالة حرب. وسمع النبي ﷺ عن عودة تجارة قريش من الشام مع أبي سفيان. فعرض على أصحابه الخروج إليها عسى أن تكون تعويضاً للمسلمين عمّا تركوا في مكة من أموالهم وبيوتهم - وقد استولى عليها الكفار - وهو أمر يجيزه منطق العصر والظرف الذي كانوا يعيشون فيه.

- خرج النبي ﷺ بثلاث مئة وثلاثة عشر من المسلمين معظمهم من الأنصار وهم لا يظنون أنهم يلقون حرباً. واستعمل أبا لبابة (والياً) على المدينة. واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس - وهو أعمى - وفي ذلك - تفعيل - لأصحاب العاهات في المجتمع وتكليفهم بما يناسبهم من الأعمال.. ولا يكونون عالة على الأمة.

- كانت الإبل قليلة معهم فكان كل ثلاثة يتعاقبون على البعير. ورسول الله ﷺ مثل سائر الناس.. فلما أراد صاحباه أن يمشيا عنه قال ﷺ: «ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»[(١)]. تأمل في رفض النبي ﷺ للامتيازات وفي معرفته بقدراته ورفضه أن يكون ضعيفاً.. وحرصه على الأجر مع أنه نبي ﷺ.

- علم أبو سفيان بخروج المسلمين فأرسل إلى المشركين ليخرجوا لحماية أموالهم، فخرجت قريش وعلم النبي ﷺ بخروجهم.. فتوقف عن المسير وقال: «أشيروا عليَّ أيها الناس». لقد تغير الموقف كلّياً وأصبح الأمر أمر مواجهة مسلحة مع قريش.. والشورى منهج أصيل في الإسلام.. قرره القرآن.. والتزم به النبي ﷺ في كل أمر.

- أعلن المهاجرون تأييدهم للاستمرار. لكن النبي ﷺ يريد أن يسمع رأي الأنصار فهو يخشى أن يلتبس الأمر فلقد بايعوه على حمايته ممن يهاجم المدينة.. فهو الآن يخرج غازياً.. ولهذا كرر «أشيروا عليَّ أيها الناس» حتى عبَّر الأنصار عن تأييدهم. فقالوا: لا نقول كما قال قوم موسى لموسى:

---

(١) رواه النسائي.

اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك. فأشرق وجه النبي وسرّه[1]. وهو أمر دقيق وهام لإبعاد الغموض والالتباس. وطالما أخذ رأيهم وذكروا تأييدهم فهم أشد تمسكاً بالأمر والتزاماً به.

- سرَّ النبي ﷺ من نتيجة الشورى.. فقال مستبشراً ومبشراً: «سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم». وفي ذلك رفع لمعنويات الجيش قبل الالتحام.

- نزل النبي ﷺ قريباً من بدر. فركب هو ورجل من أصحابه حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه. فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال ﷺ: إذا أخبرتنا أخبرناك.. قال الشيخ: بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان صدقني الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به رسول الله ﷺ - وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به قريش - فلما فرغ قال: ممن أنتما؟ فقال ﷺ: «نحن من ماء» ثم انصرف عنه[2].

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه فلما أمسى بعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له. فأصابوا راوية لقريش فيها أسلم غلام بني الحجاج وأبو يسار غلام بني العاص بن سعيد فأتوا بهما، فسألوهما ورسول الله ﷺ قائم يصلي. فقالوا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء. فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما.. قالا: نحن لأبي سفيان فتركوهما.. فلما سلّم ﷺ قال: «إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما؟! صدقا والله إنهما لقريش.

(١) رواه البخاري.

(٢) البداية والنهاية، ٣/ ٢٦٤ - ٢٦٥.

أخبراني عن قريش؟ قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى.. فقال ﷺ: كم القوم؟ قالا: كثير. قال: ما عِدَّتهم؟ قالا: لا ندري. قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً. فقال ﷺ: «القوم ما بين التسع مئة إلى الألف». ثم قال لهما: «فمن فيهم»؟ قالا: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر بن نوفل وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبد ود. فأقبل ﷺ على الناس فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها».

نرى في الخبر براعة الرسول ﷺ في التحري عن قريش وكيف عرف عددهم (قرابة ١٠٠٠) من عدد ما ينحرون من الإبل.. وكان يلتزم بالكتمان والتورية بأمر جيشه.

- كان في المشركين أناس عقلاء حاولوا منع حدوث المعركة.. فها هو أبو سفيان يغير مسار القافلة من بدر إلى طريق الساحل ويرسل إلى قريش أن يعودوا فقد نجت القافلة. فعاد الأخنس بن شريق بقومه بني زهرة ولم يشهدوا بدراً. وهذا عمير بن وهب الجمحي يقول لهم بعد أن أرسلوه ليحزر عدد المسلمين (رأيت البلايا تحمل المنايا نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم. والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فروا رأيكم). فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى إلى عتبة بن ربيعة (وهو الذي قال عنه النبي ﷺ يومها: «إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر»، وكان راكباً عليه)، فقال له: (هل لك إلى ألا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك ابن الحضرمي - أي تدفع ديته -) قال عتبة: قد فعلت فأت ابن الحنظلية - أبا جهل - فإني لا أخشى أن يسجر أمر الناس غيره. وفعلاً كان أبو جهل هو الذي يسجر لهب الغضب.. فما ان سمع بما يقولون حتى

أرسل إلى عامر بن الحضرمي - أخي عمرو الذي قتل في سرية ابن جحش - وقال له: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينيك.. وكان قد قال عندما جاء الخبر من أبي سفيان بالرجوع: والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم عليها ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب.. فلا يزالون يهابوننا أبداً[١].. فقام عامر واكتشف وصرخ: واعمراه.. واعمراه.. فحمي الناس.

وإني لأعجب كيف يتغلب أبو جهل برعونته على آراء الحكماء من قريش..؟! وهل الشر أقدر على التحريك من الخير..؟ وهل الحكمة ضعيفة أمام الخبث؟ أعتقد أن أبا جهل كان أكثر منهم فعالية وبراعة في تحريك الناس، ولا ننسى أن قريشاً كانت مشبَّعة بالحمية الجاهلية فهي تتجاوب مع دعوة أبي جهل ولا تقدر الحكمة حق قدرها. ولو أن قريشاً أصغت للحكمة بعد بدر لعرفت أن أبا جهل هو أول من تجرع نتائج الرعونة والحمية الجاهلية.. لكن وعيها لهذا الدرس استهلك سنيناً.

- موقف الحباب بن المنذر مدهش في دلالته على براعة التربية النبوية في نفوس الصحابة. فهو يقول للنبي عندما نزلوا على أول بئر في بدر: (أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟)، فيقول ﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة». قال: فإن هذا ليس بمنزل. فامضِ بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القُلُب - أي الآبار - ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً. ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.. فقال ﷺ: «لقد أشرت بالرأي».. عجباً.. لم يقل له: أنا نبي أفهم أكثر منك..!! لقد كان رسول الله ﷺ يبعد أصحابه عن تقديس شخصه وتنزيه رأيه عن الخطأ. أما وحي الله فقد بلّغه كاملاً.. وأما فيما سوى ذلك ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ١٧/٩٣]. وهو بذلك يستخرج كل ما يمكن

(١) البداية والنهاية، ٣/٢٦٦.

من إبداع وذكاء عند أصحابه. ويحرر عقولهم من الوقوع في الحرفية أمام النص.. بل الحكمة ضالة المؤمن.

- أعود لأتأمل براعة الخبثاء في تهييج العامة واللعب بعواطفهم وفي ذلك تعطيل للخير والسلام في الأرض. وما فعله أبو جهل يفعله المستكبرون في الأرض لخلق النزاع والصراع ليبقى لهم السلطان والهيمنة بعد إضعاف الطرفين والمؤمن الحكيم يختلف عن غيره من الحكماء بأنه يبلغ فكرته ويشرحها بدأب ويثبت عليها. أما الآخرون فينجرفون مع الناس ويتركون ما تبين لهم من الحق والخير.. خضوعاً لرأي الجماهير.. وهذا ضعف في الاقتناع. وها هو سعد بن معاذ يقدح زناد فكره و يقترح على النبي ﷺ: (يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعدُّ عندك ركائبك ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك).

هذا موقف مليء بالإخلاص والصواب من سعد.. وهكذا كانت تتحرك الحكمة والذكاء في الصف المسلم.

- فلما نزل الناس - في بدر - أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله ﷺ وفيهم حكيم بن حزام. فقال ﷺ لأصحابه: «دعوهم» فشربوا.. (ثم قتلوا جميعاً في بدر إلا حكيم بن حزام).

وهو تصرف فريد في الكرم وإظهار الاستعداد للموادعة والسلام.. وما كان رسول الله ﷺ يهمل اللفتات البسيطة لتحريك النفوس للخير.

- ويتحدث علي رضي الله عنه عن ليلة بدر: (ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح).

وهكذا بعد أن تتخذ كل الأسباب يفزع النبي ﷺ إلى ربّه.. يصلي ويبكي، حتى أشفق عليه أبو بكر وقال له: (يا رسول الله بعض مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك). ونلاحظ اختلاف الموقف عن يوم الغار عند الهجرة فقد كان أبو بكر جزعاً والنبي ﷺ يقول له: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما».. وكأن النبي ﷺ في ذلك اليوم كان يحس بأنه قام بكل ما يمكن من أسباب وبقي عمل الله.

أما في بدر فلم يكن هناك أي تكافؤ مادي بين الجيشين، وقد خرج المسلمون بعدد قليل لا يظنون أنهم يقاتلون قريشاً.. وهي أول معركة للمسلمين.. ولم يبذل لها ما يكفي من الأسباب.. فالنبي ﷺ في مقام الخوف[1]. والله أعلم.

- ها هو رسول الله ﷺ يعدل صفوف أصحابه قبل المعركة.. وسواد بن غزية بارز خارج الصف. فطعن (دفع بشدة) النبي ﷺ في بطنه بقدح (سهم) كان في يده وقال: «استو يا سواد» فقال: يا رسول الله، أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني (دعني آخذ حقي منك)، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه فقال: «استقد»، فاعتنقه فقبّل بطنه. فقال: «ما حملك على هذا يا سواد؟»، قال: يا رسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك. فدعا له ﷺ. هل بين القواد والمربين والعلماء.. من يعامل أتباعه بهذا العدل..؟! فكيف لا يحظى محمد ﷺ بحبهم واستعدادهم لفدائه بأرواحهم..؟ هذا عدا عن أنه نبي مرسل ينبغي نصرته والدفاع عنه.

- كان ﷺ يملك قدرة على التأثير والتحريض على الإقدام والبذل.. فها هو يردد وهو يثب في درعه يوم بدر: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٥٤/٤٥]، فيقول عمر: الآن فهمتها.. وها هو يقول للمؤمنين قبل الالتحام: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»، فيرمي عمير بن الحمام تمرات بيده قائلاً: لئن

---

(١) وهذا رأي صاحب تفسير المنار. راجع تفسيره للآية رقم ١٠ من سورة الأنفال.

حييت حتى آكلها إنها حياة طويلة. ويقول علي ﷺ: (لقد رأيتنا يوم بدر نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا من العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً)(١) فهو أول من يبذل ويجاهد.

- تحدث الباحثون عن نزول الملائكة يوم بدر وقتالهم مع المسلمين.. وصاحب المنار رحمه الله يقول: (ظاهر نص القرآن أن إنزال الملائكة وإمداد المسلمين بهم فائدته معنوية.. ولم يكونوا محاربين)(٢) إشارة إلى قول الله: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ، وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ٨/٩-١٠]. ويناقش في تفسيره عدم معقولية قتال الملائكة في بدر.. ومن يطيق قتال الملائكة؟! وأي تحقير لجهود المسلمين..؟! وأي تعظيم لقوة ألف من المشركين قاتلتهم ألف من الملائكة - أو أكثر - ولم تزد الخسائر على سبعين قتيلاً ومثلهم أسرى، لا بد من إزاحة هذه الجوانب الخوارقية التي لا منطق فيها.. والتي تشعر المسلم بخصوصية انتصار الإسلام في ذلك الوقت.. وعدم إمكانية التكرار والتسخير.

* * *

موقف مؤثر مع أبي حذيفة بن عتبة

- وقال رسول الله ﷺ لأصحابه يومئذ: «إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكرهاً، فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا ونترك العباس؟ والله لئن لقيته لألحمنه بالسيف. فبلغت رسول الله ﷺ

---

(١) رواه الإمام أحمد. وكل هذه الأخبار موجودة في البداية والنهاية الجزء الثالث.

(٢) تفسير المنار، ١٠/٥٦١.

فقال لعمر: «يا أبا حفص» قال عمر: والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص «أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟» فقال عمر: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه بالسيف فوالله لقد نافق. فقال أبو حذيفة: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة فقتل يوم اليمامة شهيداً رضي الله عنه[(١)].

موقف مؤثر أحببت أن أتأمله:

١ - كان ﷺ يكره أن يُقتل أحد من المسالمين، وهو يعرف أن كثيراً منهم أخرج إكراهاً أو بممارسة ضغط معنوي أو اجتماعي عليه. منهم بنو هاشم وعلى رأسهم العباس الذي رأيناه يحمي النبي ﷺ بعد وفاة أبي طالب ويقف معه يوم بيعة العقبة ليستوثق من صدق الأنصار.. أما كيف أكرهوه على الخروج..؟ فذلك أمر قد لا نفهمه نحن لأننا لم نعش وسط هذه الأجواء المليئة بالحمية القبلية.

أما أبو البختري بن هشام فهو الذي سعى في نقض صحيفة المقاطعة.. ورسول الله ﷺ لم يكن يعفيهم من إثم الخروج في صفوف المشركين ضد المسلمين ولكن كان يكره قتلهم لأياديهم البيضاء وعسى أن يهتدوا بعد ذلك. بدليل أنه لما أخذ العباس مع الأسرى عومل في الفداء كسائر الأسرى بل أشد.

٢ - كان النبي ﷺ يتوسم خيراً في عتبة بن ربيعة - والد أبي حذيفة - ولم يكن راغباً في قتله.. لكن عتبة اختار لنفسه هذا المصير عندما نزل للمبارزة مع أول النازلين، فهو واحد من الثلاثة الذين افتتحوا المعركة بطلب المبارزة..

٣ - لما قتل عتبة تأثر ابنه أبو حذيفة لذلك وهو أمر إنساني طبيعي.. خاصة أن أباه قد عرف بالحكمة والروية ولم يكن من الذين اشتدوا في إيذاء النبي ﷺ.. فآلمه أن تكون النهاية هكذا وكان يرجو غيرها.. وهذا ما جعله

---

(١) رواه ابن إسحاق.

يقول كلمته الغاضبة تلك.. إذ لم يكن في وضع عاطفي سليم يجعله يدرك وصية النبي ﷺ وروحها السلمية.

٤ - يتألم النبي ﷺ من كلمة أبي حذيفة تلك، ويبث ألمه إلى صاحبه عمر.. بأسلوب عتاب رقيق.. وربما أراد النبي ﷺ أن يعرف رأي عمر فلعل أصحابه لم يفهموا مراده وظنوه يتحيز لأقاربه وعشيرته.

٥ - عمر ينتشي من اختيار النبي ﷺ له ليناجيه ويشكو له ألمه، فهو يكنيه (أبا حفص) ويركن إليه سائلاً متألماً. فهنيئاً لك يا عمر بحب النبي ﷺ وثقته فيك!!

٦ - وعمر بطبعه الذي فيه شدة واستقامة يبادر إلى الاقتراح بضرب عنقه.. فلقد قال أبو حذيفة كلاماً شديداً فيه إدانة للنبي ﷺ بالتحيز.. فهو منافق برأي عمر.. لكن رسول الله ﷺ أرحم من ذلك بكثير.. لقد كان يملك أن يقتل أبا حذيفة، أو يعاقبه، أو يحبسه حتى تنتهي المعركة (مثلاً) أو يأتي به ويوبخه أو يعاتبه. ولن يجد من أصحابه إلا التأييد والطاعة.. ولكن رسول الله ﷺ مرهف الإحساس.. يعيش مشاعر أصحابه ويقدر عواطفهم.. فاكتفى بشكواه إلى عمر.. وأدرك من خلالها أن أصحابه يفهمونه لكن أبا حذيفة يعيش ظرفاً خاصاً.. فلنتركه حتى يسترد أنفاسه ويتماسك. وهكذا تجاوز النبي ﷺ الموقف وكأنه لم يكن.

٧ - أبو حذيفة يتماسك من جديد فيدرك فداحة ما قال ويبقى خائفاً من ذلك حتى يقتل شهيداً، وهذه رهافة المؤمن الذي يعيش متوتراً بين الخوف والرجاء.

- ياله من موقف مليء بالعواطف الإنسانية بفتح النوافذ أمامها كي تنطلق دون كبت.. إنه تقدير الآخر واحترام معاناته[1].

---

(١) وحين أمر النبي بقتلى المشركين أن يلقوا في القليب أخذ عتبة فسحب فنظر النبي ﷺ في وجه أبي حذيفة فرآه كئيباً. فسأله متلطفاً فقال: كنت أرجو أن يهديه حلمه ورأيه للإسلام فأحزنني ما مات عليه. فدعا له رسول الله بخير وواساه.

- وأصيبت عين قتادة بن النعمان فسالت حدقته على وجنته فأرادوا أن يقطعوها فسألوا رسول الله ﷺ فقال: «لا» فدعاه فغمز حدقته براحته فكان لا يدري أي عينيه أصيب، وفي رواية فكانت أحسن عينيه[١].

هذه الحادثة تعتبر معجزة في ذلك العصر.. لكن الطب الآن يقوم بمثل ذلك وأعجب.. ولكن النبي ﷺ سبق الأطباء بممارسة إعادة العضو إلى مكانه فإذا به يشفى. خاصة أن العين لم تنقطع أعصابها وشرايينها فيما يبدو.

❀ ❀ ❀

ماذا حلَّ بأبي جهل؟!

يقول عبد الرحمن بن عوف: إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السِّنِّ، فكأني لم آمن بمكانهما (أي شعرت أني في موقع ضعيف بينهما) إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه: يا عمِّ أرني أبا جهل. فقلت: يابن أخي ما تصنع به؟ قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه. وقال لي الآخر سراً من صاحبه مثله. فما سرني أنني بين رجلين مكانهما، فأشرت لهما إليه فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه[٢] وهما ابنا عفراء.

وعن أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «من ينظر ماذا صنع أبو جهل؟» قال ابن مسعود: أنا يا رسول الله. فانطلق فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، فأخذ بلحيته وقال: أنت أبو جهل؟ فقال: وهل فوق رجل قتلتموه[٣]!

وفي رواية عن ابن مسعود: فضربته حتى قتلته، ثم أتيت النبي ﷺ كأنما أُقَلُّ من الأرض (أي كأنني أحمل من شدة الفرح) فأخبرته فقال: «الله الذي لا إله إلا هو؟» فرددها ثلاثاً. قلت: الله الذي لا إله إلا هو. فخرج يمشي معي حتى قام

---

(١) رواه البيهقي في الدلائل.

(٢) رواه البخاري.

(٣) في الصحيحين. وانظر إلى مكابرة أبي جهل إلى آخر لحظة؟!

عليه فقال: «الحمد لله الذي أخزاك الله يا عدو الله، هذا كان فرعون هذه الأمة»[١].

والتقى بلال بأمية بن خلف فهتف: رأس الكفر أمية بن خلف؟ لا نجوت إن نجا[٢]، وقد كان أمية يعذب بلالاً في مكة ويفتنه عن دينه. فقتله.

وهكذا بدأت النتائج تظهر، وها هم المسلمون يظفرون بعواقب الدنيا، وبدأ الفرح بنصر الله. نعم يا رسول الله لقد قُضي على فرعون أُمّتِكَ في ذاك الزمان. ولا بد لكل فرعون في كل زمان من أن يذوق وبال أمره.

- وانتهت المعركة بقتل صناديد قريش ونصر المسلمين.. وجعل النبي يمشي هو وأبو بكر الصّديق بين القتلى ورسول الله ﷺ يقول: «نفلّق هاماً» فيكمل الصّديق:

...... من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما

إنه ﷺ وسط فرحة النصر لا يستطيع أن يكتم زفرة حزن على الظالمين..!!

* * *

النبي يستشير في أمر الأسرى

- واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعلياً وعمر في الأسرى. فقال أبو بكر: هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً. فقال ﷺ: «ما ترى يابن الخطاب؟» قال: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان - أخيه - فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم.

---

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) البداية والنهاية، ٣/٢٨٦.

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، وأخذ منهم الفداء. فلما كان من الغد قال عمر: فغدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر وهما يبكيان فقلت: أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟.. فقال ﷺ: «قد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة» لشجرة قريبة. وأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٧-٦٨] ثم أحلّ لهم الغنائم[١].

وفي رواية أنه ﷺ قال بعد استشارتهما: «إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.. وكمثل عيسى قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.. وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾.. وكمثل موسى قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾»[٢].

فلنتأمل ما في هذا الخبر من عبر:

١ - حرص النبي ﷺ على الشورى في كل أمر ما لم ينزل به حكم من الله.

٢ - كان في رأيي أبي بكر وعمر جوانب هامة تستحق النظر. أما عمر فقد أشار بما يناسب عصره. والظروف التي عانى منها المسلمون من هؤلاء المتجبرين.. لكن رسول الله ﷺ كان إذا خُيّر بين أمرين اختار أيسرهما وأرحمهما، والفداء فيه الرحمة للمسلمين والمشركين.

---

(١) رواه مسلم والإمام أحمد.

(٢) رواه الإمام أحمد.

٣ - التربية القرآنية كانت تعلم المسلمين أن يحركوا عقولهم ويجتهدوا فيما يعرض لهم، ولو أخطؤوا فإنهم سيتعلمون من أخطائهم، ولهذا تأخر نزول كثير من الأحكام حتى يحدث اجتهاد في البداية ومعاناة، ثم يسدد الله بالقرآن ما حصل من خطأ ويقر الصواب. والقاعدة أنه من اجتهد فأخطأ فله أجر.

٤- نزلت الآية تقول: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٧]. أما رسول الله ﷺ فما أراد الدنيا بالتأكيد.. لكن الله يعلم أن في الصف المسلم من لا يزال يُغلِّب حبّ الدنيا.. وقد صدرت إشارات توحي بذلك. فهم قد خرجوا ابتداء من أجل العير (قافلة أبي سفيان).. وكانوا يتمنون لو التقوا بقافلة أبي سفيان بدلاً من جيش قريش ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ٧].. ثم حصل بينهم شيء من النزاع حول الغنائم (الأنفال) فيما بعد.. ولهذا قال لهم الله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٨] فهنا لم يعطوا أجراً على اجتهاد خاطئ، لكن الله تجاوز عنهم وغفر لهم طمعهم في الدنيا؛ لأنه وعد أهل بدر بالمغفرة.. ولأنه لم يكن هناك حكم سابق في الأسرى فخالفوه.

٥ - نتأمل براعة النبي ﷺ في رفع معنويات أصحابه حيث يضرب مثلاً لصاحبيه بمواقف الأنبياء، وحتى رأي عمر الذي لم يوافق عليه.. يمدحه عليه ويشجعه. ورسول الله ﷺ يقبل التنوع في النفوس الإنسانية ولا يحب أن يكون الجميع قد صبوا في قالب واحد. فالجميع يحبون الله ولكن لكل واحد طريقته في الحب.

٦ - نفهم من الموقف القرآني ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٧] ترجيح ما يناسب ذلك العصر وتلك الظروف المحيطة بالمسلمين. وكأن النبي ﷺ كان في اختياره الفداء سابقاً لعصره في الرحمة والإنسانية. وكأن الله سبحانه وتعالى يقول للنبي ﷺ ينبغي أن تكون ابن عصرك.

ومن الواضح أن اختيار النبي ﷺ هو الصواب بالنسبة لعصرنا، وقد أصبح للأسرى معاملات منظمة بقانون دولي. وهذا ما يؤكد لنا ضرورة مراعاة تغير الأحكام بتطور الظروف وتغير الأزمان. إن (التاريخية) في الفكر وإطلاق الأحكام أمر لا مفر منه إن كنا نحرص على فهم روح الإسلام وتطبيقه بمقاصده إلى يوم الدين.

٧ - جاءت وصية النبي ﷺ عامة في كل الأسرى: «استوصوا بهم خيراً» وتمثل الصحابة قول الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٧٦/٨-٩]. وهو أمر كان له وقع حسن في نفوسهم.

كيف انتهت مشكلة الأسرى؟

- تم إنهاء مشكلة الأسرى على الشكل التالي:

أ- قُتل منهم اثنان: النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط لشدة أذاهما للدعوة، ولرسول الله ﷺ. وذكر أن عقبة قال للنبي ﷺ عندما أمر بقتله: أتقتلني يا محمد من بين قريش؟ قال ﷺ: «نعم. أتدرون ما صنع هذا بي؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقي وغمزها فما رفعها حتى ظننت أن عينيَّ ستندران، وجاء مرة أخرى بسلا شاة فألقاه على رأسي وأنا ساجد فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي»[1].

أما النضر فكان يصد الناس عن السماع لمحمد ﷺ ويقول تعالوا أحدثكم عن أخبار رستم واسفنديار.. ذاك خير من أساطير محمد.. إلى غير ذلك من الأذى.

٢- منَّ النبي ﷺ على عدد منهم فأطلقهم بدون فداء منهم: أبو العاص بن الربيع والمطلب بن حنطب وصيفي بن أبي رفاعة وأبو عزة الشاعر ووهب بن عمير.

---

(١) البداية والنهاية، ٣٠٦/٣.

- فأما أبو عزة فقد ادعى قلة المال وطلب الرحمة لبناته ووعد بألا يعادي محمداً بعد الآن. لكنه عاد يوم أحد مع المشركين وأسر.. فأخذ يلتمس الرحمة.. فقال له ﷺ: «لا أدعك تمسح عارضيك وتقول خدعت محمداً مرتين» وأمر بقتله.

- وأما أبو العاص بن الربيع فهو زوج زينب بنت النبي ﷺ، وأمه أخت خديجة رضي الله عنها (أم المؤمنين)، وكانت هي التي سألت رسول الله ﷺ أن يزوجه بابنتها زينب (وذلك قبل الوحي) وكان ﷺ لا يخالفها، وكان ﷺ قد زوج إحدى بناته لعتبة بن أبي لهب. فلما جاء الوحي أمر أبو لهب ابنه أن يطلق ابنة رسول الله فطلقها قبل الدخول، فتزوجها عثمان رضي الله عنه. ومشوا إلى أبي العاص فقالوا: فارق صاحبتك ونحن نزوجك بأي امرأة من قريش شئت. قال: لا والله لا أفارق صاحبتي، وكان النبي ﷺ يثني عليه في صهره[١]، وكان الإسلام قد فرق بين زينب وزوجها[٢] لكنها أقامت معه على إسلامها وهو على شركه. فلما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب رضي الله عنها في فداء أبي العاص بمال ومعه قلادة كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص. فلما رآها ﷺ رقَّ لها رقة شديدة، وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا. فقالوا: نعم يا رسول الله. فأطلقوه وردوا عليها المال[٣]. فتأمل كيف يلتمس النبي ﷺ الأمر من المسلمين ولا يصدر قراراً من عنده مع أنه نبيّهم وقائدهم.. وهذا أحد أسرار طاعتهم الرائعة له. وتأمل قلب النبي الذي يخفق بحب خديجة إلى آخر يوم في حياته.. كيف يتحرك لرؤية قلادة خديجة..؟! وللخبر بقية لا بد أن نستطرد وراءه لما فيه من لمسات، ولكن بعد أن ننتهي من التعليق على أحداث بدر.

---

(١) المصدر السابق، ٣/٣١١.
(٢) الصواب أنه لم يحدث هذا إلا بعد نزول سورة الممتحنة.
(٣) تهذيب سيرة ابن هشام، ص١٠٥.

٣- أخذ الفداء من عدد كبير من الأسرى. منهم سهيل بن عمرو. وكان عمر بن الخطاب قد قال يومها لرسول الله ﷺ: (دعني أنزع ثنيَّتي سهيل بن عمرو ويدلع - أي يخرج - لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً) فقال ﷺ: «لا أمثّل به فيمثّل الله بي، وإن كنت نبياً»[١] وكان سهيل خطيباً مفوهاً يحمس المشركين ضد النبي ﷺ قبل ذلك، لكنه أسلم يوم فتح مكة وحسن إسلامه، فلما توفي النبي ﷺ كاد أهل مكة يرتدون عن الإسلام فقام فيهم سهيل بن عمرو خطيباً وذكَّرهم واستطاع أن يثبتهم على الإسلام. وفي إحدى الروايات أنه ﷺ قال لعمر يوم بدر: (إنه عسى أن يقوم مقاماً تحمده عليه).. فكان هذا هو المقام المحمود. وقد كان رسول الله ﷺ يعرف أقدار الناس ومواهبهم ويرى مواضع الخير في نفوسهم.

- ومن الذين أخذ منهم الفداء العباس بن عبد المطلب وقد طلب رجال من الأنصار من النبي (ايذن لنا فلنترك لابن أختنا العباس فداءه) فقال ﷺ: «لا والله لا تذرون منه درهماً»[٢] وكان رجلاً موسراً ففادى نفسه وابني أخويه عقيلاً ونوفلاً بمئة أوقية من ذهب - وهذا أكثر من فداء غيره - وذكر أن العباس ادعى أنه كان قد أسلم فقال له ﷺ: «أما ظاهرك فكان علينا والله أعلم بإسلامك وسيجزيك»[٣].

وقيل إن الآية نزلت فيه وفي أمثاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٨/٧٠]. وهنا نجد كيف أنه لم يتساهل ﷺ مع أقربائه بل أخذ منهم أضعاف ما أخذ من غيرهم. وكيف أنه كان يأخذ الناس بظاهرهم ويترك القلوب لله باريها.

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه ابن إسحاق.

٤- جعل الرسول ﷺ فداء بعض الأسرى - ممن لا يملكون مالاً - أن يعلموا أطفال المسلمين القراءة والكتابة[(١)]. لقد كان ﷺ يبذل كل ما يقدر عليه من أجل إخراج هذه الأمة من الأمية والجهل.. إلى جانب وصاياه الكثيرة بالعلم. وفي هذا النوع من الفداء (الفكري) الفذ كان ﷺ يضع أمة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ عملياً على طريق القراءة.

* * *

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ كيف ستوزع؟

يقول ابن عباس: الأنفال هي الغنائم.

ويقول ابن جرير: هي زيادة يزيدها الإمام لفرد من أفراد الجيش أو لفرقة منه لحسن بلائهم إضافة إلى نصيبهم من الغنيمة العامة.

عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا، فتسارع في ذلك شبان القوم وبقي الشيوخ تحت الرايات فلما كانت المغانم جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا فإنا كنا ردءاً لكم لو انكشفتم لفئتم إلينا فتنازعوا. فأنزل الله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٨/ ١][(٢)].

وسأل أبو لبابة عبادة عن الأنفال فقال: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا فانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء. يقول عن سواء[(٣)]، وقالوا: على فواق [والحق أن المواقف تختلف والأعمال الفدائية تتفاوت، فقد يكون في بعضها ما يقوم به الفدائي وحده لا يجدي في عمله

---

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه والنسائي.

(٣) رواه الإمام أحمد.

معونة من ورائه، كمن يدخل منفرداً في جيش العدو، وليس من شك في أن من يقوم بعمل كهذا يستحق أن ينفرد بزيادة لا يشاركه فيها غيره، وهنا نقول: إن الرسول الحكيم وضع الأمر موضعه وأعطى كل ذي حق حقه. وقد سبق أن ذكرنا أن بعض الشراح جنحوا إلى تفسير قول الراوي (على فواق) إلى التفضيل في القسمة؛ فجعل بعضهم أفوق من بعض على قدر غنائهم وبلائهم. قال صاحب عون المعبود: «لإيفاء الوعد وهذا أقرب» وهذا الذي نجده أقرب إلى الحق أن يفي ﷺ بما وعد][1] نتأمل هذا الحادث:

١ - رسول الله ﷺ يفعّل طاقات الشباب ويحمسهم بالوعد بجوائز على أعمال بطولية تحتاج إليها معركة غير متكافئة في العدد والعدة مع المشركين.

٢ - الاختلاف الذي حصل بين الشباب والشيوخ لم يصل إلى حد الصراع.. بل كان اختلافاً في وجهات النظر، كل واحد عرض حجته. ومع ذلك فقد كان بداية لمشكلة قد تستفحل، ولكن القرآن سارع إلى علاجها.

٣ - ومع ذلك فإن الصحابي يقول: (ساءت فيه أخلاقنا) فما كان ينبغي في جو الجهاد وبذل النفس لله ودعم الملائكة لمثل ذلك أن يحدث. لكنه أمر إيجابي يكشف عن بشرية الصحابة وعدم عصمتهم من الخطأ.. فالقرآن يدين الخطأ ويسدد أعمالهم وهذا ما يردم الهوة بيننا وبينهم.. فهم بشر ونحن بشر.. ونستطيع أن نرتقي مثلهم.

٤ - عبر القرآن عن المشكلة بأنها جاءت كسؤال عن الأنفال، وفي ذلك تلطيف وتهوين شأنها، ومع ذلك يأتي العلاج قبل أن تستفحل بثلاثة توجيهات:

أ- اتقوا الله. واحذروا أن تصبح الدنيا ومغانمها هي الهدف من جهادكم.

---

(١) من هدي سورة الأنفال: محمد أمين المصري، ص٣٦.

٢- أصلحوا ذات بينكم: وإلا تمزقتم وخسرتم الدنيا والآخرة. فالتماسك هنا أهم.

٣- أطيعوا الله والرسول: ولو كان الأمر يحتاج إلى شورى لشاوركم. لكنه أمر تتحرك فيه الأهواء فالقول الفصل فيه لله والرسول كي يتحقق العدل.

ويربط ذلك كله بالإيمان ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.. هل تحب أن تفقد إيمانك..؟

٥ - هل قسم النبي ﷺ بعد ذلك بالسواء.. أم أعطى الشباب ما وعد..؟!

يبدو أن هناك خلافاً في الروايات. وكأن الدكتور أمين المصري - رحمه الله - يرجح أنه وفى بوعده للشباب، ولا حرج في ذلك، فللحاكم في المجتمع أن يجتهد ويقدر المصالح العامة والفردية، مادام أن المؤمنين قد بايعوه ليحكم بينهم، ومادام أن له مجلس شورى، ويستمع إلى وجهات النظر المتعددة.

ولقد فهمت من الروايات أنه ﷺ عالج الأمر بمنتهى الحكمة والسرعة فلقد جمعت الغنائم وجعل عليها قيماً، ومنع أن يأخذ منها أحد شيئاً قبل القسمة، ثم عجل بقسمها قبل أن يدخل إلى المدينة، في أثناء العودة، فلما أخذ كل واحد نصيبه.. كان في نصيب النبي ﷺ سيف كان سعد - ابن أبي وقاص - قد اشتهاه وطلبه من النبي قبل القسمة فأبى، فلما آل إلى النبي أعطاه لسعد وقال له: «إنك سألتني وليس لي وإنه قد صار لي وهو لك»[1]. بأبي أنت وأمي يا رسول الله كم كنت بارعاً في معاشرة الناس والدخول إلى أعماقهم، فهل نتعلم منك الفنية في حل المشاكل، وتقبل الناس على أنهم بشر.. ومحبتهم وإيثارهم بكل ما تملك دون أن تحيد عن العدل..؟!

* * *

(١) رواه الترمذي، ٨/٤٦٦.

٣- النبي ﷺ واحة حب

مؤامرة لقتل النبي ﷺ

جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحجر بعد مصاب أهل بدر بيسير، وكان عمير شيطاناً من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه ويلقون منه عناء، وهو بمكة وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر. فذكر أصحاب القليب ومصابهم فقال صفوان: والله ما في العيش بعدهم خير. قال عمير: صدقت أما والله لولا دين علي ليس عندي قضاؤه، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي فيهم علة؛ ابني أسير في أيديهم. فاغتنمها صفوان بن أمية فقال: عليَّ دينك أنا أقضيه عنك وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، فقال عمير: فاكتم عليَّ شأني وشأنك، قال: سأفعل. ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له، وسمَّ، ثم انطلق حتى قدم المدينة. فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر وما أكرمهم الله به.. إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب وقد أناخ على باب المسجد متوشّحاً السيف، فقال: هذا عدو الله عمير ما جاء إلا لشر وهو الذي حرش بيننا، وحزرنا للقوم يوم بدر. ثم دخل على رسول الله ﷺ فأخبره.. قال: فأدخله عليَّ. فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها، وقال لمن كان معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه

علمتم وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به» فقالوا: بل نرده عليه. فردوه عليه حتى إن الرجل ليأتي بالدلو، ويأتي الرجل بالشَّنَّة (السقاء البالي) وبالإداوة (وعاء من الجلد صغير).. وبالشِّظاظ (خشبة تدخل في عروتي الجوالق) حتى ردوا عليه ماله بأسره لا يفقد منه شيئاً. ثم احتمل إلى مكة فأدى إلى كل ذي مال من قريش ماله... ثم قال: يا معشر قريش هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيراً فقد وجدناك وفياً كريماً. قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت.

ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ[1]، فردَّ النبي ﷺ إليه زينب ﵂ زوجة.

كيف أعلق على هذا الخبر العجيب..؟! ما هذه الشخصيات العملاقة في أخلاقها وإنسانيتها؟! ما هذه النفوس الفذة في قوتها وكرمها؟! كل هذا والمسلمون يعيشون حالة حرب مع قريش وكل القبائل المناوئة.. إلا بعض القبائل التي اعتزلت الصراع.. فلنحاول أن نتأمل:

١ - ما كان لأبي العاص أن يطرق باب زينب لو لم يكن واثقاً من أنها لن تخيب أمله.. لقد عاش معها عمراً فهو يعرف وفاءها وقلبها المعطاء.

٢ - أليس غريباً - بل وغير مقبول لدينا نحن مسلمي هذا العصر - أن تؤوي زينب في بيتها رجلاً مشركاً تسلل إليها ليلاً..؟! بل وتجيره دون علم من أبيها الذي هو رسول الله ﷺ وحاكم المجتمع..!!

وانظر إليها كيف تعلن جوارها له بجرأة وذكاء إذ تخيرت الوقت الذي دخل فيه المسلمون بالصلاة. فهم أهدأ ما يكونون لسماع صوتها. وهم بين يدي الله

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص١٥١.

يطلبون رحمته ويتأملون الأمر لدقائق تحت ظل الرحمة الإلهية.. لا عجب.. فهي بنت النبي محمد ﷺ الذي أكرمها وربّاها على الحكمة والرحمة.

٣ - وانظر إلى موقف النبي ﷺ إذ يلتفت إلى أصحابه بعد السلام فيسألهم إن كانوا قد سمعوا ما سمع، فلما تأكد من ذلك يوضح لهم - بل ويحلف لهم - أنه لم يعلم بهذا الأمر قبلهم.. دون أن يشعر بالحرج من موقف ابنته أو الغضب لأنها تجاوزته وفعلت أمراً - يتعلق بسياسة الدولة - من وراء ظهره. ما هذه السماحة..؟! ثم يُمضي جوارها لأن الإسلام يقدس العهود ولو أبرمها أصغر واحد من المسلمين. فما هذا الوفاء؟!

٤ - وانظر إلى موقفه حين يعود إلى ابنته.. فلا يوبخها.. بل لا يعاتبها على ما فعلت.. بل يوصيها به خيراً على ألا يقربها.. أرى أن محمداً ﷺ قد أعجبه سلوك ابنته فهي شجاعة جريئة، وأعلنت جوارها على الملأ.. وهي وفية معطاءة لا ترضى إلا بأن تتفوق في إحسانها مع الآخر ولو كان مشركاً، وهو يثق بتقواها والتزامها لحدود الله.

٥ - ثم كيف يبعث إلى رجال السرية ويتحدث إليهم بشأن أموال أبي العاص.. الأموال من حقكم.. لكن إن رأيتم أن تحسنوا فإن هذا يسعدنا، فالرجل ليس كسائر المشركين في خلقه وهو ابن أخت خديجة أمكم التي بذلت لكم قلبها ومالها.. أسلوب فذ مع الأصحاب والأتباع لدفعهم إلى الإحسان.

٦ - تأمل في استجابة المسلمين كيف ردوا لأبي العاص كل ما أخذوه حتى الأشياء الصغيرة والبالية.. وكيف لا يستجيبون لكلمات النبي الحبيب التي لا تقاوم..؟!

٧ - ماذا حلَّ بك يا أبا العاص وأنت ترى كل ذلك..؟! أين تاه منك عقلك طيلة هذه السنوات فلم تر ما يصنع الإسلام في النفوس.. امرأة عملاقة في قوة النفس والخلق.. ونبي يحكم الناس بالحب والسماحة.. وأصحاب يتنافسون على

البر والإحسان... كل ذلك دون أن يحاول أحد منهم الضغط عليه للدخول في الإسلام..!! تلك هي الحياة الإنسانية الكريمة يا أبا العاص..

وانطلق أبو العاص إلى مكة وهو يكتم النور في عقله وقلبه.. يريد أداء الحقوق إلى الناس دون أن يُراود نفوسهم شك في أمانته.

أيها الناس هل بقي لكم عندي شيء..؟ فانطلقت الأفواه تثني على أمانته ووفائه وكرمه.. فالآن أُعلنها على الملأ ولو غاظتكم.. بعد أن اعترفتم بأني لم أطمع في أموالكم.. الآن أعلن إسلامي وأفارقكم.. فمكاني هناك بين أولئك المؤمنين المحبين المحسنين..

لقد كانت زينب تعلم أن أبا العاص بما جبلت عليه نفسه من أصالة ووفاء قريب من الإسلام، فانتظرت حتى يشرق النور في قلبه. وجاء يوم اللقاء.

ومازلت أعجب كيف لم يخطر في بال أبي العاص عندما أشرق النور في قلبه في المدينة أن يحتفظ بأموال قريش ويعطيها للمسلمين.. فلقد نهبت قريش أموال المهاجرين، واستملكت بيوتهم، وكان يمكن أن يقال هذه بتلك..؟! لقد أدرك أبو العاص يومها أن المسلمين لا يستبيحون السلب والنهب.. وأن أعمال المشركين لا يمكن أن تكون قدوة للمسلمين، إن أعمال المسلم تنبثق من وصايا ربه ولا يجوز أن تكون ردود أفعال لما يعمله المشركون.. وصدق عمر حين قال في وصاياه لجيش أرسله (بما معناه): (كونوا أخوف من ذنوبكم منكم من عدوكم.. ولئن لم تفوقوا عليهم بأخلاقكم تفوقوا عليكم بعددهم وعدتهم).. وأي قيمة للمسلمين إن كانوا يتصرفون مثل الآخرين..؟! وأي ميزة للإسلام إن لم يصنع النموذج الإنساني الأرفع الذي يرفض أن يعامل بالمثل ويختار الدفع بالتي هي أحسن..؟!

ماتم في يوم النصر

هكذا عنونت الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) وفاة رقية بنت النبي ﷺ في كتابها: تراجم سيدات بيت النبوة.

وكانت رضي الله عنها قد هاجرت مع زوجها عثمان رضي الله عنه إلى الحبشة، ثم إلى المدينة. وفي يوم بدر أصيبت بالحمى فتخلف عثمان عن الخروج مع النبي ليمرضها، وجاء البشير يهتف بانتصار المسلمين في بدر، ورقية تلفظ أنفاسها الأخيرة. أطلَّ رسول الله ﷺ يودع ابنته الراحلة.. فرأى فاطمة قد أكبت على مضجع أختها تبكي.. فما أكثر ما لقيت فاطمة من مصائب في أسرتها وما أكثر ما صبرت.. فلقد مات إخوتها الذكور، ثم ماتت أمها (أم المؤمنين)، ثم ها هي تعاني من فراق أختها، وكم صبرت على إيذاء المشركين لأبيها، وكم خافت عليه وأسرعت إليه تمسح العناء عن قلبه والأذى عن جسده.. خفَّ النبي ﷺ إلى فاطمة يواسيها ويمسح دموعها بطرف ثوبه[(١)].

ودفنت رقية ذات الهجرتين في يوم النصر.. هكذا هي الحياة فرح وحزن.. وأشد الناس بلاءً الأنبياء؛ لأنهم المعلمون الذين يقتدي الناس بقوتهم وتماسكهم في مواطن الحزن والفرح.

وضرب النبي ﷺ لعثمان بسهم في الغنائم؛ لأنه ما تخلف عن الخروج إلا بأمر من النبي ﷺ أن يبقى مع زوجته ليمرضها. وبعد مدة زوج النبي ﷺ عثمان ابنته الثانية (أم كلثوم). ولهذا كان يقال له (ذو النورين)، ويقال إنه لم يغلق أحد على ابنتي نبي واحدة بعد الأخرى غيره رضي الله عنه[(٢)].

فما أعظم تماسكك يا رسول الله صلى الله عليك..! وما أعظم مواساتك لمن حولك..! جمعنا الله بك.

---

(١) الإصابة، ٣/ ٨٣.

(٢) البداية والنهاية، ٣/ ٣٤٧.

زواج (أم أبيها)

إنها فاطمة الزهراء وقد لقبها رسول الله ﷺ: «أم أبيها» لكثرة حنوها عليه وشدة ملازمتها له. لقد قصرت الزهراء حياتها - بعد وفاة أمها خاصة - على الاهتمام بأبيها. فلما كانت الهجرة ثم تزوج النبي ﷺ من عائشة.. بدا أن الوقت قد حان للتفكير في الزواج. ومَن غير علي ﷺ يليق بها، وقد تربى معها في بيت النبوة، وحمل معها أعباء الدعوة.. لكن علياً يتهيب من طلبها.. خاصة عندما سمع أن أبا بكر وعمر ﷺ قد طلبا يد الزهراء قبله فردهما أبوها ﷺ في رفق بالغ[١].

ويتحدث علي عن نفسه فيقول: أردت أن أخطب إلى رسول الله ﷺ ابنته فقلت: ما لي من شيء (ما عنده مال)، ثم ذكرت عائدته، وصلته فخطبتها إليه. فقال: «هل لك من شيء؟» قلت: لا. قال: «فأين درعك الخطمية التي أعطيتك يوم كذا وكذا؟» قال: هي عندي[٢]...

وفي رواية أن مولاة له شجعته على خطبتها.. (حتى دَخلتُ على رسول الله فلما أن قعدت بين يديه، أفحمت، فوالله ما استطعت أن أتكلم جلالة وهيبة، فقال ﷺ: «ما جاء بك ألك حاجة؟» فسكت. فقال: «العلك جئت تخطب فاطمة؟» فقلت: نعم. فقال: «وهل عندك من شيء تستحلها به؟» فقلت: لا والله يا رسول الله. فقال: «ما فعلت درع سلحتكها؟» فوالذي نفسي بيده إنها لخطمية ما قيمتها أربعة دراهم. فقلت: عندي. فقال: «قد زوجتكها فابعث إليها بها..» فإن كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله ﷺ[٣]. وفي رواية أن النبي ﷺ أمره أن يبيعها ليجهز العروس بثمنها[٤]، وتقدم عثمان بن عفان

---

(١) طبقات ابن سعد، ٨/ ١١١ وسنن النسائي.

(٢) رواه الإمام أحمد.

(٣) البداية والنهاية، ٣/ ٣٤٦.

(٤) رواه البخاري.

فاشترى الدرع بأربع مئة وسبعين درهماً، وضعها علي أمام الرسول ﷺ فدفعها إلى بلال ليشتري ببعضها طيباً وعطراً، ثم يدفع الباقي إلى (أم سلمة) لتشتري جهاز العروس[١].

وتمَّ ذلك في رجب من السنة الأولى الهجرية.. ولم يتم الزواج إلا بعد بدر في السنة الثانية للهجرة. ودخلت فاطمة (سيدة نساء العالمين) على زوجها بجهاز بسيط: خميل (يبدو أنه كساء مخملي) وقربة (للماء) ووسادة أدم حشوها إذخر (نبات له رائحة طيبة)[٢].. وبشيء من الطيب والعطر (كما سبق). وفي رواية (خميلة ووسادة حشوها ليف ورحاءين وسقاءين وشيئاً من العطر والطيب)[٣].

في هذا الحادث نرى وكأن النبي يدخر فاطمة لعلي. ويدرك أن علياً يريدها ويعرف فقره وعسر حاله، ويقبل به صهراً مع أن أصهاره السابقين كانوا من الميسورين. ونتأمل طرافة الموقف، وعلي ساكت لا يقدر على الإفصاح عن حاجته.. حتى يقولها النبي نيابة عنه. فما أعظم تلطفه ﷺ..! ثم يذكّره بدرعه وما كان علي يظن أنها يمكن أن تفي بالغرض فهي لا تساوي أربعة دراهم.. ولكن النبي ﷺ يقبل بها مهراً لمن كان يدعوها (أم أبيها) لشدة حبه لها، فما قيمة المال مقابل رجل ربّاه النبي ﷺ في بيته، وتركه يوم الهجرة في فراشه.. فهو واثق بإيمانه وشجاعته وحسن خلقه، وانظر إلى عثمان رضي الله عنه كيف يشتري الدرع بثمن سخي.. إنه يبادر إلى شرائها قبل غيره ليدعم علياً ويعينه، فما أعظم هذه النفوس..؟! وأين نحن من ذلك كله..؟! وهل نقدر على جهاز يقارب جهاز سيدة نساء العالمين؟ ومتى نتحرر من التقاليد ومقاييس الدنيا وعالم المال..؟!

بل متى نسخر ما نملك من مال وطاقات لبناء إنساننا المتهدم من جديد؟!

---

(١) مسند الإمام أحمد. وسنن النسائي.

(٢) رواه البيهقي.

(٣) تراجم سيدات بيت النبوة: عائشة عبد الرحمن، ص٦٠١.

الحب أسلوب تربوي فذ

عرضت في الصفحات الماضية - القريبة - لوحة حميمة من بيت النبي ﷺ عناصرها الأساسية بناته رضوان الله عليهن، ألوانها تتماوج فيها المحبة والزهد والشجاعة والصبر والإحسان، ومحمد ﷺ الإنسان يتحرك ضمن هذه اللوحة بحبه وعطائه، حتى تغدو اللوحة فريدة في تميزها وأدائها.. إذ تعرض لنا كيف يكون الحب تربية والعطاء توجيهاً. وهذا نموذج آخر للتربية بالحب وما هو إلا غيض من فيض الحياة اليومية التي قضاها النبي ﷺ مع أصحابه وأهل بيته..

لما قدم النبي ﷺ إلى المدينة جاءته أم سليم بنت ملحان بابنها أنس - وكان حينئذ ابن عشر سنين - فقالت: يا رسول الله هذا أنس يخدمك. فخدم النبي ﷺ منذ قدم المدينة حتى مات فاشتهر بخادم النبي ﷺ[١]. ويتحدث أنس بعد ذلك عن حياته مع النبي ﷺ فيقول: (ما مَسستُ ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ، ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي قط: أف، ولا قال لشيء فعلتُه: لِمَ فعلتَه؟ ولا لشيء لم أفعلْه: ألا فعلتَ كذا؟)[٢].

أنس طفل ذكي في العاشرة من عمره، يصحب النبي ﷺ فيستمتع بالحب الذي يشع من عينيه وتنضح به بسمة شفتيه، ويستطيب تربيتات يديه فكفه ﷺ ألين وأنعم من الحرير، ورائحته أطيب من أي رائحة في الدنيا، يرى فيه الجمال والكمال متحركاً.. ففي كل حركة درس وتعليم وفي كل نظرة من عينيه توجيه.. كلماته كلها خير ورفق وتودد ومحبة.. فيا لها من تربية، تجمعت فيها عناصر فريدة:

١ - طفل ذكي يقظ بفهم لغة (السيمياء) من قسمات الوجه، ولمسات الأيدي ومدارات الكلام. وهو أمر يتقنه معظم الأطفال.

---

(١) الإصابة، ٤/ ٤٦١.

(٢) متفق عليه.

٢ - نبي قدوة يشع بالحب والخير في حركاته وكلماته.

٣ - أسلوب متطور في التربية يحذف اللوم والعتاب ويعطي الناشئ فرصة للتعلم بالاستنتاج والاكتشاف.. وبتأمل العواقب والنتائج.

والمشكلة في عالمنا الإسلامي أننا فهمنا التربية - وحتى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - على أنها مجموعة توصيات عناصرها: افعل.. ولا تفعل..

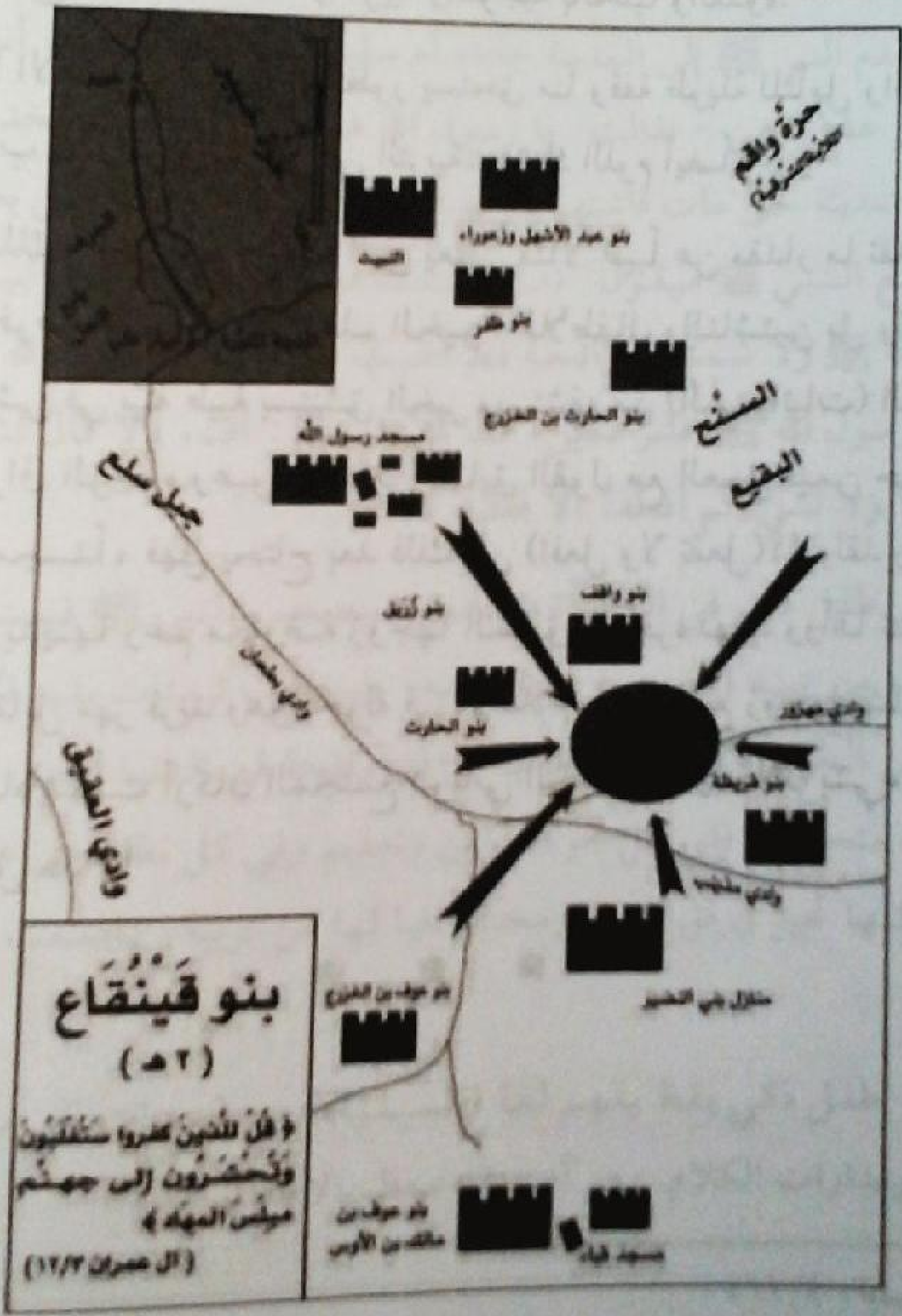
بينما العالم المتحضر يطبق أساليب جديدة: التعلم باللعب.. التعلم الذاتي (بمراقبة النتائج والاكتشاف).. والتربية والتوجيه بالحب والقدوة.

- هذا الأسلوب النبوي المتطور يستحق منا وقفة طويلة للتأمل والتأسي من حيث اجتناب الأوامر والنواهي في التربية.. وترك اللوم أيضاً..

- وكذلك أحس بأن حديث أنس يعطي مثالاً طيباً عن مقدار ما تقدمه البيئة الطيبة من فرص وتسهيلات لتعلم الخير - للأطفال والناشئين بل وللكبار - فالطفل الناشئ في بيئة طيبة يستنشق الخير ويستشفه من (السيميائيات) التي تحيط به، من إشراق الوجوه وعبوسها، من تطابق القول مع العمل فيمن حوله، من رؤية الخير مجسداً، فهل يحتاج بعد ذلك إلى (افعل ولا تفعل)؟! ولقد رأى أنس أمه تتشبث بدينها رغم معارضة زوجها السابق وهجره لها.. ورآها تتزوج من أبي طلحة مقابل مهر فريد وهو دخوله في الإسلام، ورآها مع زوجها يشاركان في البذل والجهاد لتثبيت أركان المجتمع الرّباني الجديد ولا يبخلان بشيء.. فكيف لا يستنشق كل هذا؟!

* * *

٤- اليهود يبدؤون النقض والغدر



خريطة غزوة بني قينقاع

فكيف إذا غضب ﷺ؟!

وانقضى عام كامل بعد بدر، والحرب بين المسلمين والمشركين على قدم وساق.. حدثت في تلك الفترة خمس غزوات (بقيادة النبي ﷺ) وسرية بقيادة زيد بن حارثة.

وكانت الغزوة الخامسة مع بطن من بطون اليهود: بني قينقاع في المدينة، وكان أول من نقض العهد من اليهود، وكانوا قد قالوا للنبي ﷺ بعد بدر عندما نصحهم بالإسلام: (لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، أما والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنا نحن الناس)، وبدؤوا باستفزاز المسلمين؛ فتحرشوا بامرأة مسلمة فثار لها أحد المسلمين، فشدت اليهود ضده وغضب له المسلمون فوقع الشر بينهم، فحاصرهم النبي ﷺ حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول - وكان قد أعلن إسلامه ظاهرياً بعد بدر - فقال: يا محمد أحسن في مواليّ. وكانوا حلفاء الخزرج. قال: فأبطأ عليه رسول الله ﷺ. فقال: يا محمد أحسن في مواليّ فأعرض عنه. فأدخل يده في جيب درع النبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «أرسلني»، وغضب ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً، قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ أربع مئة حاسر وثلاث مئة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة؟! إني والله امرؤ أخشى الدوائر. فقال له ﷺ: «هم لك»[1]. ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، وكان له من حلفهم مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم وقال: يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء. وفيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات من المائدة: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٢] ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٦].

---

(١) في سيرة ابن هشام: أن تحقن دماؤهم وأن لهم أموالهم وعليهم الجلاء عن المدينة فلحقوا بأذرعات (درعا).

نرى في هذا الخبر إلحاح المنافق عبد الله في الشفاعة لبني قينقاع، وبأسلوب يغضب النبي ﷺ.. ويفضح فيه دخيلة نفسه (إني والله امرؤ أخشى الدوائر)، فكأنه يقول: أنا لم أطمئن بعد للإيمان بالله. خلافاً لعبادة بن الصامت المطمئن إلى الله ورسوله. لقد كان بإمكان النبي ﷺ بإشارة من يده أن يرمي بعبد الله جانباً أو يأمر بقتله.. دون أن يجد لوماً أو معارضة، فلقد أساء عبد الله للنبي ﷺ وأغضبه.. وهو يشفع لأناس نقضوا العهد وبدؤوا بالإساءة.. لكن النبي ﷺ - وهو في موقع القوة - يعفو عن عبد الله المنافق ويجيبه إلى طلبه..!! وفي ذلك مكاسب عظيمة:

١ - فهو تعليم عملي لمن حوله وللناس كافة إلى يوم الدين كيف يملك نفسه عند الغضب.

٢ - وارتقى من ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ إلى ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ ثم إلى أعلى من ذلك وهو إعطاؤه ما يريد وهو المستوى الأعلى الذي ذكرته الآية: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٣ - قد يظن المسلمون أن هذا المستوى الأخلاقي الراقي لا يكون إلا في التعامل مع المؤمنين لكن النبي ﷺ عمم هذا التعامل على الكافرين والمنافقين.

٤ - كان محمد ﷺ يرحم مرضى القلوب، ويحاول علاجهم كما يرحم الطبيب مرضى الجسم. فهذا عبد الله بن أبي يقول الله عنه: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾، فهو مريض الفكر والنفس لا يثق بأن العاقبة للمتقين، ولا يعرف كيف يؤمن لنفسه السلامة فرسول الله ﷺ يرحمه ويعطيه ما يسكن نفسه - مبدئياً - إلى أن يحين وقت العواقب.. وبقي النبي ﷺ يعطيه الفرصة تلو الفرصة لعله يشفى من مرضه..

٥ - ما كان النبي ليعاقب عبد الله لمجرد أنه ألح عليه وضايقه في الطلب، قولاً وعملاً - حين أدخل يده في جيب درعه - فهو واحد من المسلمين.. وينبغي

أن يتعلم المسلمون أن عقاب من يخالفهم في الرأي، أو إسكاته لا يعالج المشكلة.. بل ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٤]. وهو ﷺ يقيم وزناً للدعاية الموجهة ضد المسلمين. فيقول لعمر عندما اقترح قتل ابن أبي بعد إثارته لمشكلة أخرى: «فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟!».. إياك أن تعطي الفرصة للآخر كي يطعن بمبادئك[1]..

٦ - قد يظن بعض من يقرأ الخبر أن المنافق استطاع أن يضغط على النبي ﷺ ويضطره إلى العفو عن بني قينقاع، وكان الأولى قتلهم أو الشدة في عقابهم.. وأنا لا أرى ذلك أبداً؛ لأن النبي ﷺ كان في موقع قوة ولا يستطيع ابن أبي أن يفرض عليه أمراً لا يريده.. لكن الدارس لشخصية النبي ﷺ يرى أنه أميل إلى العفو والرفق، وإعطاء الفرصة للآخر كي يصلح ما أفسد..

ولقد كان سلوكه مع اليهود جيداً في تدرجه - كما سيمر معنا فيما بعد - فهذه الفرقة الأولى التي نقضت العهد حاربها وانتصر عليها ثم تركهم وأموالهم. ثم نقضت الثانية (بنو النضير) عهدها، فحاربهم، وأخرجهم من المدينة فكان هذا أشد لأنهم لم يعتبروا ممن سبقهم.. فلما نقضت الثالثة (بنو قريظة) أثبت اليهود أنهم مصممون على الغدر ونقض العهود، ولم يتعلموا من الدروس السابقة شيئاً.. فحق عليهم القصاص من السماء؛ لأن المرض أصبح عضالاً ولا ينفع معه إلا الاستئصال.

٧ - مقابل المريض ابن أبي نرى صاحب القلب السليم عبادة يتبرأ مباشرة ممن ينقضون العهد، ويخلع ولاءهم، ويختار ظل الله وولاءه.

■ ■ ■

(١) ولا ننسى أن ابن أبي كان زعيم قومه وهذه أول غلطة يرتكبها بعد إسلامه وقد يغضب له بعض قومه إذا لم يكتشفوا نفاقه بعد. فلا بد من التأني وإعطاء فرصة للجميع حتى تتكشف لهم الأمور.

قتل كعب بن الأشرف

هو رجل من طيئ وأمه من بني النضير، كان يؤذي رسول الله ﷺ والمؤمنين ويشبب في أشعاره بنساء المؤمنين، ذهب بعد وقعة بدر إلى مكة وألب على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين وأنشد الأشعار في ندب من قتل من المشركين. لم يخرج من مكة حتى أجمع أمرهم على قتال رسول الله ﷺ، ثم عاد إلى المدينة يعلن العداوة ويحرض الناس على الحرب، حتى قال رسول الله ﷺ: «من لي بكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله؟»، فانتدب رجال من الأنصار لذلك منهم محمد بن مسلمة. وأذن لهم رسول الله ﷺ أن يقولوا ما شاؤوا من كلام للوصول إليه، فنادوه من حصنه في جوف الليل، واحتالوا عليه حتى قتلوه.. هذه الحادثة لا يجوز الاستشهاد بها على أنها دليل على جواز عمليات الاغتيال لمن أظهر العداء للمسلمين.. فالأمر له شروطه ولا يؤخذ على إطلاقه.

١ - في الإسلام العنف تحتكره الدولة، ولا يحق لأحد أن يحكم على أحد بالإعدام لأن هذا من اختصاص السلطة القضائية والتنفيذية في الدولة المسلمة، والعالم كله قد ارتقى إلى هذا المستوى - من حيث إن العنف حكر على الدولة - إلا العالم الثالث المتخلف - بما فيه المسلمون - وكثير من المتطرفين في شتى الدول الذين ينظر إليهم على أنهم إرهابيون خارجون على القانون. وما لم يُحقق هذا الأمر فإن الناس لا يأمنون على أنفسهم وتتحطم الحياة الاجتماعية في الأمة.

٢ - صار للمسلمين في المدينة دولة، وكتب النبي ﷺ مع أهلها من المسلمين واليهود والمشركين معاهدات تنص على التعايش السلمي، والتعاون بين كل الفئات ضد من يهاجم المدينة، وأنه لا تُجارَ قريش ومن نصرها وأنه لا جوار لمن ظلم وأثم فإنه يهلك نفسه، ولا يجوز لأحد أن يؤويه (لأنه مُحْدِثٌ).

٣ - وعلى هذا فإن كعب بن الأشرف قد خرج على نصوص المعاهدة فهو ظالم آثم. والدولة المسلمة - ممثلة بالنبي ﷺ - قد أصدرت حكمها عليه حرصاً

على توفير الأمن العام لسكان المدينة سواء كانوا مسلمين أم غير ذلك. وفعل ذلك غير كعب مثل أبي رافع بن أبي الحقيق فيما بعد.. وحكم عليه بالقتل.

٤ - أما المشركون من خارج المدينة فلم تكن بينهم وبين المسلمين معاهدات بل كانت حالة الحرب هي القائمة، وهذه الحالة تنتج قتلى من الطرفين.

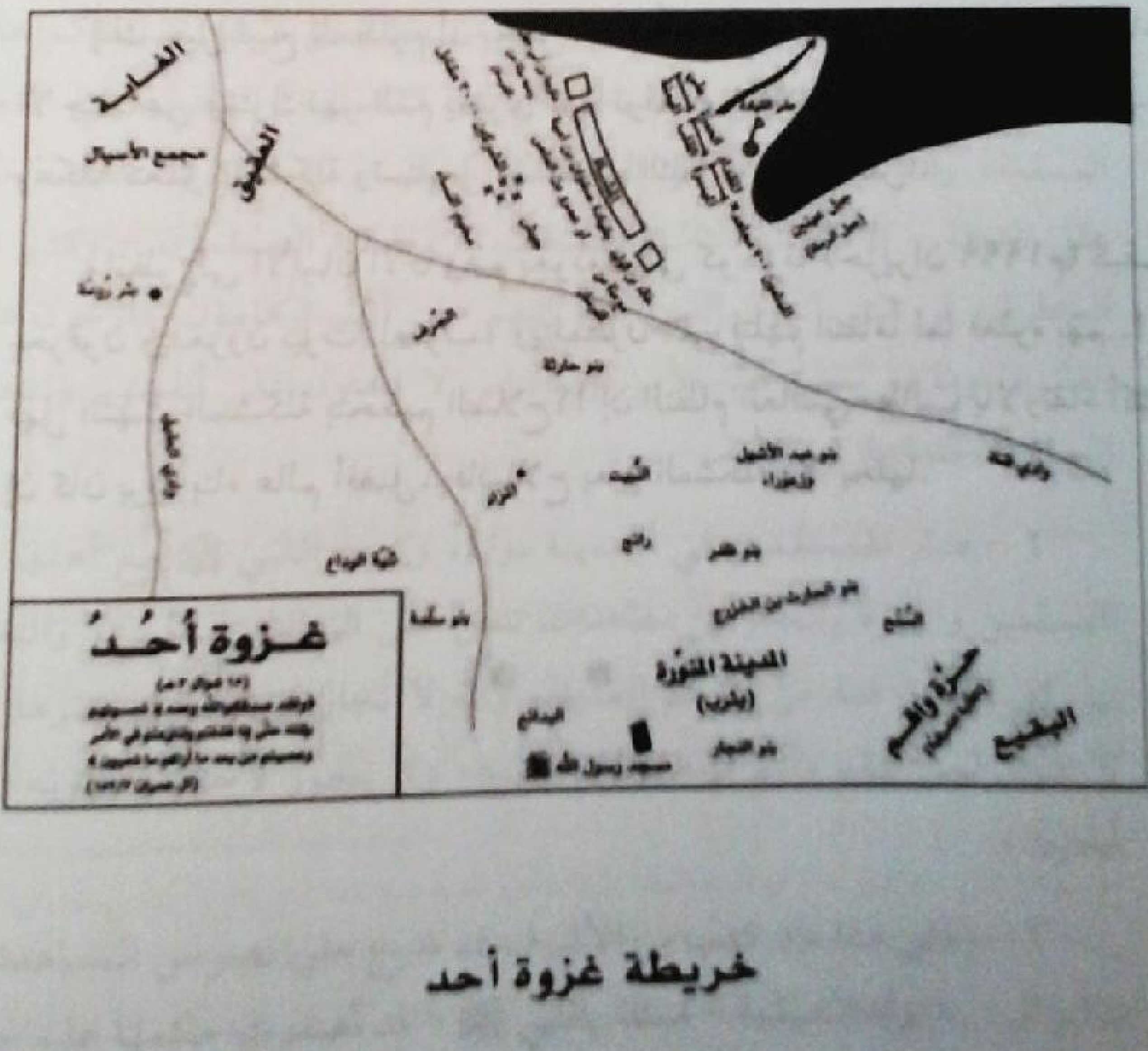
فالموضوع دقيق وبحاجة إلى تمييز في عالم تشوشت فيه الأفكار، والفتاوى، وينبغي للمسلم أن ينتبه أن المرجع بالنسبة إليه هو قانونه الذي أنزله الله، ولا يجوز أن تكون أعماله ردود أفعال لما يرتكبه الآخر من أخطاء، ولا عبرة عند المسلم بأن قانون الأمم المتحدة يبيح للأفراد المظلومين النضال المسلَّح بل إن عليه أن يلتزم التقوى من طرف واحد، وعدوه ليس قدوة له. وفي التاريخ عبر كثيرة ودروس تبرز لنا أهمية هذا الأمر، وكفى بالثورة الفرنسية دليلاً.. حتى صار يقال عنها: الثورة التي أكلت أولادها..

إنك حين تبيح للمظلوم أن يحمل سلاحاً يقضي به على الظالم، تهدم النظام الاجتماعي وتترك نهر الدم يجري دون توقف، فكل واحد يحس أنه مظلوم.. وهكذا تتعمق المشكلة وتستفحل وتستحكم الثارات في النفوس..

وانظر إلى الألبان الآن وهم يعودون إلى كوسوفا (حزيران ١٩٩٩م) كيف يحرقون ويدمرون بيوت الصرب، ويتلمظون على قتلهم انتقاماً لما فعلوه بهم..!! فهل انتهت المشكلة بتحكيم السلاح؟! إن النظام العالمي مطالب بالارتقاء أكثر إن كان يريد بناء عالم أفضل.. فالسلاح يعقد المشكلة ولا يحلها.

■ ■ ■

٥- تأملات في غزوة أحد



خريطة غزوة أحد

الشورى عند الخروج لها

قررت قريش الحشد لحرب محمد ﷺ انتقاماً من بدر، وأنفقت أرباح الأموال التي كانت في قافلة أبي سفيان في التجهز للمعركة، وخرج سادة قريش بنسائهم معهم - كي لا يفروا - يقودهم أبو سفيان حتى عسكروا قرب المدينة في ثلاثة آلاف رجل وذلك في شوال من السنة الثالثة للهجرة.

- جلس النبي ﷺ مع أصحابه يستشيرهم، وعرض رأيه فقال ﷺ: «قد رأيت والله خيراً، رأيت بقراً تذبح ورأيت في ذباب سيفي ثلماً ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة»[١]. فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة، وتدعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها[٢].

وكان رأي عبد الله بن أبي بن سلول مع رأي النبي ﷺ في ألا يخرج إليهم. فقال رجال من المسلمين: يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنًا عنهم وضعفنا.. فلما رأى النبي ﷺ أن الأكثرية تريد الخروج نزل عند رأيهم ودخل بيته فلبس لأمَتَه (أي درعه وسلاحه).

هذا الموقف يصور أهمية الشورى في الإسلام. فالنبي ﷺ - رغم الرؤيا التي توحي بعدم الخروج - ترك رأيه وجعل القرار للأكثرية. وهو أمر يدعو للدهشة والعجب.. لقد كان رسول الله ﷺ يرسخ دعائم (الديمقراطية) بحرصه على الشورى وعلى أن يتخذ القرار بتصويت الأكثرية.. ولقد تقدم العالم في هذا الاتجاه بقوة إلا بلدان العالم الثالث.. وصنع عالم الكبار (هيئة الأمم المتحدة) لتكون مرجعاً للناس في حل النزاع بالتصويت (الديمقراطي) لكن الكبار انتكسوا إلى الاستبداد وعطلوا (هيئة الأمم) وما فيها من خير بحق (الفيتو) للكبار الذين يحيون ضمن ازدواجية عجيبة: (ديمقراطية) في داخل بلدهم واستبداد في

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام، ص١٥٧.

الخارج..!! لكنها مراحل يمر بها التطور الإنساني وسيتجاوزها ليدخل في مرحلة العدل والسلام والسواء مع الجميع.

إن الشورى هي سنة من سنن الاجتماع، وقاعدة هامة للحكم الراشد والسياسة العلمية الحكيمة، ولا يزال المجتمع في تماسك وحماس ما دام يحس أن القرار قراره فهو ملتزم به وراضٍ عنه؛ ولهذا نجد التوجيه الإلهي بعد المعركة يؤكد على الشورى ويأمر بها ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ٣/١٥٩].. وحتى لا يظن أحد أن الشورى كانت سبب الهزيمة[١].

- لكنهم عندما دخل النبي ﷺ إلى بيته ليستعد للمعركة ندموا وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ ولم يكن لنا ذلك، فلما خرج ﷺ قالوا له: استكرهناك.. فإن شئت فاقعد صلى الله عليك، فقال ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل»[٢]. فلا مجال للتردد وقد انتهى وقت الشورى..

بعد اتخاذ القرار والشروع في تنفيذه فلا بد من المضي في التنفيذ ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/١٥٩]، وإلا تميعت الأمور وتبلبلت الآراء.. وعجز الإنسان وعجزت الأمة عن الحركة والتماسك.

- خرج النبي ﷺ بألف من أصحابه، لكن عبد الله بن أبي قال لأصحابه في الطريق: (أطاعهم وعصاني!! ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس).. فرجع بثلث الناس من أهل النفاق، وتبعهم عبد الله بن حرام يذكرهم ألا يخذلوا قومهم ونبيهم.. فلما أبوا إلا الانصراف قال: (أبعدكم الله فسيغني الله عنكم نبيه). وكانت عودتهم أفضل للمسلمين إذ ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٩/٤٧].

---

(١) ومع ذلك يناقش المسلمون الآن: هل الشورى مُلزمة للحاكم أم لا؟!!!

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام، ص١٥٨.

كذلك لما عرض الأنصار على النبي الاستعانة بحلفائهم من يهود قال ﷺ: «لا حاجة لنا فيهم». إذ ليست المشكلة في نقص العدد، وإنما في الاقتناع بصدق القضية التي يناضل الإنسان من أجلها. فكيف يشاركك في النضال من لا يشاركك في الهدف؟! فالمهم هو ما عند الجيش من إخلاص وصواب.

* * *

حسن تخطيط النبي ﷺ للمعركة

- من تخطيط النبي ﷺ أنه قال: من رجل يخرج بنا على القوم من كثب من طريق لا يمر بنا عليهم، فقال أبو خيثمة: أنا يا رسول الله، فنفذ بهم في حرة بني حارثة[1]..

- ومن اتخاذه للأسباب أنه ﷺ ظاهر بين درعين أي لبس درعاً فوق درع.

- ومن تخطيطه أنه ﷺ نزل عند جبل أحد فجعل ظهره وعسكره إلى أحد. وجعل الرماة خلفه وهم خمسون رجلاً تحت إمرة عبد الله بن جبير وهو معلم يومئذ بثياب بيض وقال له: «انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا. إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتينَّ من قِبَلك» فالأمر كان صريحاً وجازماً للرماة بألا يتركوا مواقعهم لأي سبب كان.

وبالرجوع إلى الخريطة نجد أن النبي ﷺ اختار أفضل مكان لعسكره فهو محمي من ثلاث جهات. واضطر المشركون إلى أن يواجهوه من جهة واحدة تعتبر ممراً بين حرتين (والحرة كالهضبة الوعرة الصعبة على الخيل)، وبذلك فَقَد المشركون امتيازهم في العدد لأن الممر لا يسمح بهجوم كلي.

- ومن تخطيطه أنه ﷺ دفع اللواء إلى مصعب بن عمير أخي بني عبد الدار.. فهو أول داعية للإسلام في المدينة، وهو من بني عبد الدار وهم

(١) البداية والنهاية، ٤/١٤.

حملة اللواء من قريش. ورسول الله ﷺ بذلك يعلم أتباعه الالتزام بعهود الجاهلية إن لم يكن فيها ظلم.

* * *

وضع الأمور في مواضعها

- رفع رسول الله ﷺ سيفاً يوم أحد وقال: «من يأخذ هذا السيف.. من يأخذه بحقه»؟ فأحجم القوم فقال أبو دجانة (سماك): أنا آخذه بحقه. فأخذه ففلق به هام المشركين، وفي رواية أن أبا دجانة أخرج عصابة حمراء - يعتصب بها عند الحرب - فاعتصب بها ثم جعل يتبختر بين الصفين، فقال ﷺ: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن»[1].

نتأمل قدرة النبي ﷺ على تحميس الناس للتنافس على البذل.. وبراعته في توزيع الجيش واختيار الشخص المناسب للمكان المناسب ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢١]. وتعليمه للمؤمنين المرونة في الإدراك فلكل ظرف ما يناسبه من تصرف، فإذا كان الفخر والاختيال مكروهاً بل ومنهياً عنه فإنه عند مواجهة الكافرين مقبول ومناسب؛ لأنه جزء من الاعتزاز بدين الله وخروج من الذل والاستضعاف أمام المستكبرين.

وكذلك: إن كان الخضوع والليونة مكروهة أمام المستكبرين فهي مستحبة مع المؤمنين ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤].. وكثير من الأحكام ترتبط بالظرف والحال.. وقد مرّ معنا أن الشورى تكون قبل اتخاذ القرار.. أما بعد القرار فلا يجوز التردد. والنجوى (الحديث سرّاً بين عدة أشخاص دون سائر الجماعة) لا خير فيها إلا في مواضع: الأمر بالمعروف، وتقديم الصدقة، والإصلاح بين متخاصمين، وقد يحتاج هذا الإصلاح إلى بعض الكذب. وقد رخص الرسول ﷺ بذلك للمصلح.

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ١٥.

- إن هذا الدين جاء لأصحاب العقول، والقرآن آيات لأولي الألباب كي يضعوا الحكم في مكانه.. ولا يوضع الحكم الشرعي في مكانه إلا عند من يفهم مقاصد الشريعة، ويعلم إضافات العصر، وما حصل من تطور في الحياة الإنسانية، فإن الحكم يجب أن يوضع في المكان الذي يثمر المنافع للناس.

أما أصحاب العقول الواقفة عند حرفية النص - قرآناً وسنة - فكثيراً ما تفلت منهم المقاصد والمنافع فيمشون على وجوههم ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٦٧/ ٢٢].

- وأبو سفيان أيضاً كان يحرض المشركين فها هو يقول لأصحاب اللواء من بني عبد الدار: (يا بني عبد الدار قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه). فهمّوا به وقالوا: نحن نسلّم إليك لواءنا؟! ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع. وقامت هند بنت عتبة مع النسوة اللائي معها بضرب الدفوف والإنشاد تحريضاً على القتال..

ولقد استعمل أبو سفيان - بعد إسلامه - نساء المسلمين يوم اليرموك في تحريض المسلمين ومنعهم من الفرار. وفن التحريض تتقنه المرأة، فما بال المرأة المؤمنة الآن لا تمارس فنونها ومواهبها..؟!

يقول أبو دجانة: رأيت إنساناً يحمس الناس تحميساً شديداً، فصمدت له، فلما حملت عليه السيف، ولول، فإذا امرأة (وفي رواية أنها هند بنت عتبة) فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة[1] لأن قتل النساء منهي عنه، وهذا من رحمة الله بالمرأة وصيانته لها مع أنه من قواعد الحرب في الإسلام أن يُقتل من يُقاتِل.

- حين نتأمل قصة وحشي في قتله لحمزة ﷺ نجد له عذراً؛ فهو رجل يشتري حريته من سيده الذي وعده بالعتق إن قتل حمزة، لكنه بعد فتح مكة

(١) البداية والنهاية، ٤/ ١٧.

وإسلام أهل الطائف ضاقت عليه الأرض وهمَّ بالهروب فقال له رجل: (ويحك إنه - أي رسول الله ﷺ - لا يقتل أحداً من الناس دخل في دينه وشهد شهادة الحق). وهكذا فاجأ النبي ﷺ بإسلامه.. فعفا عنه ﷺ لكنه - بعد أن سمع قصة قتله لحمزة - قال له: غيِّب عني وجهك فلا أرينك[(١)].

فتأمل ألم النبي ﷺ البالغ حدّاً يجعله غير قادر على النظر في وجه وحشي.. ومع ذلك فهو يعفو ويرحم من قتل أعز الناس عليه من أقاربه!!

واستمر الندم بوحشي حتى قتل بحربته تلك مسيلمة الكذاب يوم اليمامة..

- واستبسل المسلمون في طلب الشهادة، وقاتلوا بروح معنوية عالية، وقتل منهم عدد، منهم مصعب بن عمير - حامل اللواء - فحمله من بعده علي بن أبي طالب. وقتل حنظلة (الغسيل) ابن أبي عامر (الفاسق) الذي كان في صفوف المشركين.. وانكشف المشركون وسقط لواؤهم، وظن الرماة أن المعركة قد انتهت فمالوا على العسكر رغبة في الغنائم معرضين عن نداء أميرهم عبد الله بن جبير الذي ذكرهم بوصية النبي ﷺ لهم ألا يبرحوا أماكنهم، وانتبه خالد إلى الخلل الذي حصل، وكان على رأس مئة من خيل المشركين، فهاجم المسلمين من خلفهم، فكانت الهزيمة نتيجة لمخالفة أمر النبي ﷺ، وتحرك الرغبة بالدنيا وغنائمها.

- جاءت امرأة (عمرة بنت علقمة الحارثية) فرفعت اللواء لقريش فاجتمعوا عليه، وصرخ صارخ من بين المشركين: ألا إن محمداً قد قتل، فانكسرت نفوس المسلمين وتراجع كثير منهم عن القتال..

* * *

(١) المصدر السابق، ٤/١٨.

تاملات في اسباب الهزيمة

نتأمل في أسباب الهزيمة:

أ- كيف يقدر فرد على التأثير في مجرى الأحداث في ظرف معين، مثل المرأة التي رفعت اللواء للمشركين، والذي صرخ بإشاعة خذل بها المسلمين.

٢- وجود ضعف في الارتباط بالفكرة في الصف الإسلامي بحيث شعر بعض الصحابة بأنهم فقدوا مبرر القتال إن أصيب محمد ﷺ، حتى اقتضى الأمر نزول العتاب والتصحيح من السماء: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٤].

ولقد أصيب المسلمون بمرض التجسيد (أو التشخيص) في أطوار كثيرة من تاريخهم، وليس المرض خاصاً بالمسلمين، فكل أمة معرضة لأن يتوقف نموها الفكري عند مرحلة معينة، فالإنسان يتطور وينمو فكرياً وفق مراحل ثلاث - كما يقول مالك بن نبي رحمه الله - مرحلة الأشياء (الارتباط بالحاجات المادية)، ثم مرحلة الأشخاص (الأبوين وعالم الأشخاص المألوف لديه)، ثم مرحلة الأفكار (حين يرتبط بالمبادئ والقوانين).

وهكذا الأمم قد تراوح في مكانها عند مرحلة الأشخاص.. فتقدس الآباء وهو ما ندد به القرآن ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٠]، وتعتقد أن العلماء والزعماء هم الحق فلا رؤية إلا من خلال آرائهم. وعلي ﷺ يعاكس ذلك بتوجيهه (اعرف الحق تعرف رجاله ولا تعرف الحق بالرجال). وهذا المرض خطير على فكر الأمة ونموها.. إذ إنه يكبل الفكر بالأغلال فلا يتقدم، والأعظم من ذلك: أنه يعطي الفرصة للخصم بالقضاء على العقائد والأفكار عن طريق تصفية العالم (أو الأب الروحي)، أو إلصاق التهم به أو فضح نقائصه.. فتتحطم الأمة.

ولقد عانى عمر بن الخطاب ﷺ نفسه من آثار هذا المرض عند وفاة النبي ﷺ حين رفض تصديق الخبر، حتى قرأ أبو بكر الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ فكيف بنا نحن؟ وكم ينبغي لنا أن نمحص في حبنا لعلمائنا ومدى تأثيرهم على أفكارنا؟!

٣- خطورة الانسياق للإشاعات، وقد حذرت التربية القرآنية من الخوض في الإشاعات وتصديقها ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ بل إن القرآن يعلم أتباعه ألا يذيعوا الخبر ولو كان حقيقياً، وإنما يترك ذلك لأهل الحل والعقد ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٤/٨٣]. كل ذلك تحاشياً للآثار السيئة للإشاعة في معنويات الناس.

- في المقابل نجد نماذج رائعة من الثبات ووضوح الفكر والرؤية عند الصحابة.. كموقف أنس بن النضر الذي قال للمنهزمين: «إن كان محمد قد قتل فإن ربَّ محمد لم يقتل فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ﷺ..!! اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء» (أي المشركون) ثم شدَّ بسيفه فقاتل حتى قتل ﷺ[1].

- وقع النبي ﷺ في إحدى الحفر التي عملها أبو عامر الفاسق إيقاعاً بالمسلمين، وأصيب ﷺ في وجهه إصابات عدة، وفي ذلك دلالة كبيرة على أن النبي ﷺ لم ينصر بالخوارق، وإنما بمراعاة السنن واتخاذ الأسباب ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/١٦٥] هكذا ردَّ الله سبحانه على تساؤلات الصحابة الحائرة: كيف نهزم ونحن جند الله وأصحاب دعوته؟! فلا أحد فوق قانون الله وسننه. ولقد جاء الإسلام بإلغاء الامتيازات فلا فضل لأحد إلا بمقدار التزامه بآيات الكتاب، وآيات الآفاق والأنفس. وعندها يأخذ ثمار جهده في الدنيا - ولو بعد حين - وفي الآخرة.

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٢٣.

كذلك ننتبه إلى **قاعدة هامة**: وهي أن النتائج في الدنيا جماعية بينما في الآخرة فردية، ولهذا عمت نتيجة معصية الرماة على كل المسلمين، وحتى رسول الله ﷺ أصيب بشيء منها على الرغم من براءته من أي خطأ يومها. فما أفدح الخسائر التي تسبب بها خمسون جندياً على الجيش كله بمعصيتهم لأمر النبي القائد؟! وهو ما بيَّنه حديث خرق السفينة: «فإن تركوهم هلكوا جميعاً».

- عندما أصيب النبي ﷺ وجعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسحه ويقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟!» بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما أعظم ألمك! وأنت ترى القوم يقابلون حبك ورحمتك بالحقد والأذى إلى درجة البطش..!! لكنَّ الله سبحانه وتعالى أرحم، وأعلم، وأحكم، فتأمل كيف تنزل الآية في هذا الظرف ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ٣/١٢٨][١]. ومن كان يظن أن بعض صناديد قريش من أمثال خالد بن الوليد وأبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل سيصبحون من قادة الفتح الإسلامي الذي نشر النور على الدنيا..؟! فلا تستعجلوا النتائج، ولا تيئسوا من أي إنسان مهما تمرد وأخطأ، فإنه يحمل في أعماقه ازدواجية (الفجور والتقوى)، والماهر هو من يتوجه لدراسة أساليب التزكية كي يخمد الفجور، ويحيي في القلوب التقوى.. طوبى لمن ملأ قلبه بالحب لله وخلقه، وعقله بالمعرفة بسنن النفس، وأسرارها، لأنه ملك مفاتيح القلوب.

- واستبسلت ثُلّة من أصحاب النبي - مهاجرون وأنصار - وتكتلوا حول النبي ﷺ يفدونه بأرواحهم بعد أن صاح بهم كعب بن مالك - وكان أول من عرف النبي ﷺ بعد الهزيمة حين رأى عينيه تزهران من تحت المغْفر -: (يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﷺ) فأشار إليه النبي ﷺ أن أنصت[٢]، وذلك

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص١٦٣.
(٢) المصدر السابق، ص١٦٤.

أن النبي ﷺ خشي أن يسمع المشركون ذلك فينقلبوا كرة أخرى على المسلمين، ويحكموا الهجوم للقضاء على النبي مادام المسلمون متفرقين. وهو من إشارات التوجيه القرآني ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٤/ ٨٣]، لأن خبر الأمن أيضاً ينبغي أن يوضع في مكانه، وأهل الحل والعقد أقدر على تقدير عواقبه في المسلمين، وفي أعدائهم، فلا يجوز الخوض في الإشاعات دون تروٍّ ودراسة لعواقبها.

* * *

ثقة أعداء النبي بصدقه ﷺ

- فلما أُسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول: (أي محمد، لا نجوتُ إن نجوتَ!) فقال القوم: يا رسول الله! أيعطف عليه رجل منا؟ فقال ﷺ: دَعوه، فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمَّة، ثم استقبله، فطعن في عنقه طعنة تدأدأ (أي تدحرج) منها عن فرسه مراراً. وكان أبي بن خلف يلقى رسول الله ﷺ بمكة، فيهدده، ويتوعده بالقتل. فيقول ﷺ: بل أنا أقتلك إن شاء الله. فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشاً غير كبير، فاحتقن الدم، قال: قتلني والله محمد! قالوا له: ذهب والله فؤادك! والله إنْ بك من بأس قال: إنه كان قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بصق عليّ لقتلني.. فمات عدو الله بسَرِف (موضع على ستة أميال من مكة) وهم قافلون به إلى مكة[1].

فتأمل صبر النبي ﷺ وأناته في مواجهة هذا المشرك، فهو لا يعجل بقتله عسى أن ينثني، فلما أصرّ أبيّ على ملاحقته، ودنا منه ﷺ تصدى له بنفسه،

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص١٦٤.

ولم يسمح لأحد أصحابه أن يكفيه ذلك رغم جراحاته، وذلك أن الرجل كان يقصده ويتهدده في مكة، ومحمد ﷺ واثق من ربّه، قوي برسالته، فهيهات أن يصيبه الجزع والوهن.. وما أهون الكافر على الله..!! إن ضربة واحدة من يده ﷺ تكفيه ليتدحرج من كبريائه[١] وإن خدشاً واحداً في جسده يحدث شرخاً في أعماقه، وانظر إليه كيف يرتعد أمام يقينه بصدق محمد ﷺ (قال لي بمكة أنا أقتلك فوالله لو بصق علي لقتلني)!! ما أعجب نفوس هؤلاء؟! لقد كانوا على يقين من صدق النبي ﷺ، ومع ذلك منعتهم تقاليدهم من الإيمان.. أيها الداعي إلى الإسلام: هل يثق أعداؤك بصدقك كما كانوا يثقون بمحمد ﷺ وصدقه وأمانته..؟! ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢١].

- ذكر الرواة عند هذه الحادثة قول النبي ﷺ: «اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله في سبيل الله»[٢]. صلوات الله عليك يا رسول الله.. كم كنت حريصاً على عدم قتل أحد بيديك، بل تعطي الجميع فرصة للمراجعة والنجاة وهذا أبيّ استأنيت به، وهو يهاجمك متبجحاً حتى اختار لنفسه هذا المصير وهذا المصرع.

* * *

بطولات عدد من الصحابة

- نقف مبهورين أمام بطولات عدد من الصحابة في ذلك اليوم، فهذا أبو دجانة يترس بظهره أمام النبي.. والنبل يقع في ظهره، ومصعب بن عمير يقتل دون النبي ﷺ، وسبعة من الأنصار يقتلون واحداً تلو الآخر وهم يذبون المشركين عن اللحاق بالنبي، وهو يصعد مستعيناً بطلحة على أحد،

---

(١) وقد رأى النبي ﷺ فرجة في عنقه بين درعه وبيضته فطعنه فيها وذلك من اجتهاده ﷺ رغم أنه مؤيد من الله.

(٢) ثبت في الصحيحين.

فلما بقي طلحة وحده قاتل دون رسول الله ﷺ حتى أصيب بثمانين ضربة وشلَّت يده، فأدركه بعض الصحابة وأسعفوه، وهذا سعد بن أبي وقاص يرمي بين يدي النبي ﷺ، ورسول الله يناوله السهام ويقول: «ارم فداك أبي وأمي»[١].

- ولنستمع إلى أنس بن مالك يروي لنا بعض ما حدث في أحد - وعمره يومها يقارب ثلاثة عشر عاماً -: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة (زوج أم أنس) بين يدي رسول الله ﷺ مجوّب عليه بجحفة (ترس) له، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً، شديد النزع، كسر يومئذ قوسين، أو ثلاثاً، وكان الرجل يمر معه الجعبة من النبل فيقول: انثرها لأبي طلحة. ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك، ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما تنقزان (تحملان) القرب على متونهما تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان، ولقد وقع السيف من يدي أبي طلحة إما مرتين أو ثلاثاً[٢]. يقول أبو طلحة: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وآخذه[٣]، وذلك ما يصفه الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٤].

* * *

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البخاري.

حضور المرأة المؤمنة ومشاركتها

- في الحديث وصف لمشاركة المرأة المؤمنة يوم أُحد.. أم المؤمنين عائشة وأم سليم (أم أنس) تحملان الماء للجنود، ويصف المشهد حياً نابضاً بالحركة والعواطف.. (مشمرتان أرى خدم سوقهما) أي الخلاخل في سوقهما..!! نعلم أن هذا قبل نزول آية الجلباب - التي يتوقع أن تكون في السنة الخامسة - ولكن الأمر هنا أجلّ من التفكير في ستر السوق، وكما يقول ﷺ: «إن تهلك هذه العصبة لا تعبد في الأرض» فلا بد من التشمير والإسراع في حماية الدعوة، والداعي، والمجتمع الوليد الذي سيكون نبراساً للناس عبر العصور.

ورسول الله ﷺ لم يمنع المرأة من الخروج إلى المعارك بعد نزول آية الخمار وآية الجلباب، مع أن الإسلام لم يفرض عليها الجهاد في المعارك.. بل كانت تخرج معه دائماً إحدى نسائه إلا عند حصار الأحزاب للمدينة يوم الخندق، فقد أمر النساء أن تجتمع في حصن.. خوفاً من غدر اليهود.. المهم في الأمر أن ندرك الأولويات في العمل في خدمة الإسلام.. وأن نرى كيف أن اللباس الإسلامي للصحابية لم يحجبها عن المشاركة الفعلية في بناء المجتمع وصيانته والدفاع عنه، وأما ما عرف في عصور الانحطاط بعد ذلك (بالحجاب).. فلقد صوَّر المرأة وكأنها جارية يقتنيها الرجل ويخفيها ليستمتع بها وحده دون أن يكون لها دور في معاناة الأمة وإنقاذها. كل ذلك حصل عندما تاه الإنسان عن دوره ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠]، وتخاذل عن حمل الأمانة التي شرف بها جنسه.. وانساق وراء شهواته - رجلاً كان أو امرأة - ففقد كرامته وامتيازه.

- وهذا خبر آخر عن مساهمة المؤمنة يوم أُحد: نسيبة بنت كعب المازنية (أم عمارة) تقول: خرجت أول النهار أنظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه، والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ، فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف، وارمي عن القوس، حتى خلصت الجراح إلي. قالت أم سعد بنت سعد

ابن الربيع: فرأيت على عاتقها جرحاً، أجوف له غور، فقلت لها: من أصابك بهذا؟ قالت: ابن قمئة أقمأه الله، لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دلوني على محمد لا نجوت إن نجا، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير، وأناس ممن ثبت معه ﷺ، فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كانت عليه درعان(١).

- ونلمس الرفعة الأخلاقية والقلب الكبير في أتباع محمد ﷺ الذين تشربوا كل ذلك من نبيهم ﷺ. فهذا حذيفة بن اليمان يبصر المسلمين - وقد اختلط عليهم الأمر في أحد - يهجمون على أبيه اليمان - يظنونه من الأعداء - فناداهم (أي عباد الله أبي.. أبي) لكنهم لم ينتبهوا.. وقتلوه.. فقال حذيفة: (يغفر الله لكم) وتصدَّق بدية أبيه على المسلمين ولم يعاتب أحداً منهم.. فما أروع هذا السمو والتسامح الأخوي..؟!

وأما مصعب بن عمير ذاك الفتى الذي كان في الجاهلية من أعطر شباب قريش وأشدهم ترفاً.. فصنع منه الإسلام أول داعية لله في المدينة يبذل كل ما يملك من مال، وعلم، في هداية الناس وتعليمهم. ها هو يقتل يوم أحد ولا كفن له. يقول عبد الرحمن بن عوف - وقد أتي بطعام - وكان صائماً: (قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كفن في بردة إن غُطي رأسه بدت رجلاه وإن غُطي رجلاه بدا رأسه،.. ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط.. وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا) ثم جعل يبكي حتى برد الطعام(٢).

- وها هو مخيريق - وأصله من اليهود - يسجل يقظة متأخرة ولكنها ناجحة وقبل فوات الأوان، فقد قال لقومه يوم أحد: (يا معشر يهود والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق) قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: لا سبت لكم. فأخذ سيفه و عدته وقال: إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء. ثم غدا إلى

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٣٤.
(٢) رواه البخاري.

رسول الله ﷺ فقاتل معه حتى قتل. فقال ﷺ: «مخيريق خير يهود» وجعل أمواله أوقافاً بالمدينة. وكانت أول وقف بالمدينة[(١)].

- وها هو أصيرم بني عبد الأشهل يسلم وقت المعركة، فينطلق مباشرة لنصرة الإسلام فيستشهد، ويدخل الجنة، ولم يصلِّ لله قط. وذاك عمرو بن الجموح يقول يومها: (والله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة) فيكون له ما أراد.

- وعلى الطرف الآخر في صفوف المشركين ظهرت أعمال وحشية من إنسانية ممسوخة انقطعت عن ربها فحق عليها قوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ٥٩/١٩]. فقد انطلقت هند و النسوة اللائي معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ يجدعن الآذان والأنوف حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأنوفهم خدماً، (خلاخل) وقلائد، وأعطت خدمها وقلائدها وقرطها وحشياً. وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها..!! فما أفظع المنظر..؟! ووقف أبو سفيان يضرب في شدق حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول: (ذق عقق)!! فمر به الحليس بن زبان - وهو سيد الأحابيش يومها - فقال: (يا بني كنانة هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحماً) - أي وهو ميت عاجز - فقال أبو سفيان: (ويحك اكتمها عني فإنها كانت زلة)[(٢)] فلم ينهه إلا الخوف من التعيير في قومه.. ومع ذلك فإن به بقية خير تشعره بأن عمله (زلّة).

● ● ●

---

(١) البداية والنهاية، ٣٦/٤.
(٢) البداية والنهاية، ٣٨/٤.

حوار بين الطرفين قبل الانصراف

- وتأمل هذا الحوار الذي دار بين الطرفين قبل انصراف أبي سفيان بالمشركين. فقد أشرف أبو سفيان على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته: أنعمت، إن الحرب سجال يوم بيوم بدر.. أعل هبل. فقال ﷺ لعمر: «قم يا عمر فأجبه فقل: الله أعلى وأجل لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار» فقال أبو سفيان: هلم إلي يا عمر، فقال ﷺ لعمر: ائته فانظر ما شأنه. فجاءه فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً؟ فقال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن. قال: أنت عندي أصدق من ابن قمئة وأبر، ثم نادى أبو سفيان: إنه قد كان في قتلاكم مثل والله ما رضيت، وما سخطت وما نهيت ولا أمرت، ولما انصرف نادى: إن موعدكم بدر العام المقبل. فقال ﷺ لرجل من أصحابه: قل نعم هو بيننا وبينك موعد.

كان محمد ﷺ حريصاً على معنويات أصحابه لا يرضى لهم مسكنة ولا ضعفاً.. ومن قلب الهزيمة تنبثق قوة الحق على لسانه لتحيي القلوب من جديد باللجوء إلى الله واليقين بنصره وثوابه. فالله أعلى وأجل ولا مجال للمقارنة بين أتباعه وبين أهل الباطل.

وإذا ظن أبو سفيان أن هذه بتلك، وأن الحرب سجال فإنه واهم.. فلا سواء بين من يموت في سبيل الخير، ومن يموت في سبيل الطاغوت والظلم.

- وانظر كيف تتحول الهزيمة إلى انتصار للحق وأتباعه.. حين يعترف أبو سفيان لعمر (أنت عندي أصدق من ابن قمئة وأبر).. فمن المهزوم هنا؟ إنني ألمس في حديث أبي سفيان الضعف والهزيمة أمام جند الله الذين هم أصدق وأبر.. وفي إحساسه بالذنب من التمثيل بالقتلى فهو يتبرأ من المشاركة في هذا العمل المشين الذي ارتكبه المشركون.. وإن كان يحاول أن يغطي انزعاجه بقوله: (ما رضيت وما سخطت).. إن أبا سفيان في أعماقه يضن بهؤلاء المسلمين من أن ينقض عليه [illegible] وأصحابه فيقضي

عليهم رغم قلتهم وإصابتهم.. أو كأنه يحس بأنه لن يقدر عليهم فمن الأفضل أن يكتفي بهذا الانتصار الهزيل.. ويطلق وعيده باللقاء في بدر من العام القادم.

* * *

تخطيط حتى بعد المعركة

- ويقول الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب: اخرج في آثار القوم، وانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة. وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة. والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم. قال علي: فخرجت في أثرهم أنظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل[1]..

فهل رأيت أعظم من هذه البصيرة التي تضع حساباً لأسوأ الاحتمالات وتترصد حركات العدو فتعرف مقاصده من وسيلة النقل التي يركبها؟! وهل رأيت أعظم من هذه العزيمة والشجاعة في تصميمه - وهو مصاب حتى إنه صلى الظهر يومها وهو قاعد - على حماية المدينة من أطماعهم؟! بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد كنت في كل كلمة وفي كل حركة قدوة ومعلماً وموجهاً مؤثراً يعرف كيف يحرك العقول والقلوب.. صلوات الله عليك.. وعسى أن يمنّ الله علينا بصحبتك في الآخرة..

* * *

(١) المصدر السابق، ٤/ ٣٨.

تفقد الشهداء وحمزة بينهم

- وفرغ الناس لقتلاهم، وبدأ النبي ﷺ يتفقد أصحابه، فقال: من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع، أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فقال رجل من الأنصار: أنا (وكان سعد بن الربيع من النقباء ليلة العقبة وهو الذي آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبد الرحمن بن عوف). فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق، فقال له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ فقال: أنا في الأموات فأبلغ رسول الله ﷺ سلامي وقل له: إن سعد ابن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته. وأبلغ قومك عني السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف. ثم مات رضي الله عنه[(١)].

- فما أعظم المرتقى الذي سما إليه أصحابك يا رسول الله صلى الله عليك..!! سعد يجود بأنفاسه الأخيرة فلا يكون له هم إلا أن يحذر قومه من خذلان النبي ورسالته!!

وخرج النبي ﷺ يلتمس حمزة فوجده في بطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده ومُثّل به فجدع أنفه وأذناه، فقال: «لولا أن تحزن صفية وتكون سنة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلنّ بثلاثين رجلاً منهم»[(٢)]. إن كلمات النبي تلك تدل على شدة فظاعة المنظر، وعلى مقدار اللوعة في قلبه ﷺ..

فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه، قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلنّ بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب. فأنزل الله في ذلك: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٦/١٢٦-١٢٧] فعفا ﷺ وصبر، ونهى عن المثلة.

---

(١) البداية والنهاية، ٤/٣٩.
(٢) البداية والنهاية، ٤/٣٩ - ٤٠.

وذكر أن النبي ﷺ قال حين وقف على حمزة: «لن أصاب بمثلك أبداً. ما وقفت قط موقفاً أغيظ إلي من هذا»[١].

- موقف جليل يُخرج النبي ﷺ عن حلمه.. فقد بلغ السيل الزبى.. الكلمات من فم النبي تقطر ألماً، وتهب منها لفحة من سَموم الرغبة في الانتقام، لكن الله لا يسمح للآلام أن تفرض حكمها على النبي ﷺ، فالعدل فوق الجميع ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾.. وهناك ما هو أعظم من ذلك: وهو أن الخصم ليس قدوة لنا، فلئن أخطأ الآخرون فإن هذا لا يعني أن نخطئ مثلهم، وإلا فأي فضل لنا عليهم..؟! وهل يُصحّح الخطأ بالخطأ..؟ فما معنى الصبر والعفو إذن..؟! وكيف يميز الناس بين الخطأ والصواب؟ لا بد أن يظهر الصدق مقابل الكذب، والحلم مقابل الغضب، والعفو والصبر مقابل الإساءة، حتى يعرف الناس المنهج الأسمى والأفضل.. وحتى يُعرف فضل المحسنين، ومقدار إصلاحهم لاعوجاج الحياة التي شوهها المفسدون، ولهذا توجهنا الآيات: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٦/١٢٧-١٢٨]. فعواقب الله ستأتي في صفهم.

لقد كان محمد ﷺ إنساناً يتألم للمصاب في أحبابه.. وتبرز هذه الحادثة مقدار جهاده وحرصه على صفاء قلبه.. إذ ليس من السهل الحفاظ على (القلب السليم) الذي يشع بالخير والمحبة على الجميع.. لكن الله سبحانه كان يواسيه ويسدده. ورغم طغيان حالة الألم عليه ﷺ فإنه يتذكر بعض العواقب ويحسب لها حساباً «لولا أن تحزن صفية وتكون سنة من بعدي لتركته دون دفن حتى يحشر من بطون السباع وحواصل الطير».

- وأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إلى حمزة.. فقال ﷺ لابنها الزبير بن العوام: القها، فأرجعها، لا ترى ما بأخيها. فقال لها: يا أمه إن رسول الله ﷺ

(١) قاله ابن هشام.

يأمرك أن ترجعي. قالت: لِمَ؟ وقد بلغني أنه مثّل بأخي وذلك في الله.. لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله. فقال النبي ﷺ: «خلّ سبيلها»، فأتته، فنظرت إليه، وصلت عليه، واسترجعت واستغفرت[١]، فانظر إلى لطف النبي بعمته صفية، وقد قال سابقاً: «لولا أن تحزن صفية.. لتركته حتى يكون في بطون السباع» فهو مهتم بمشاعر صفية، وحريص على تجنيبها الحزن والألم، ويصرح بذلك معلماً أصحابه أن يراعوا عواطف المرأة ويتلطفوا بها.. وانظر إلى صفية كيف تتلقى أمر النبي.. فتسأل: ولِمَ؟! وتناقش دون حرج من مراجعة النبي ﷺ في أمره، فطاعة النبي لا تعني إلغاء الفهم والتعقل، وانظر إلى شجاعتها وقوة تماسكها أمام المشهد المروع، فهي تصبر وتحتسب وتصلي عليه، تلك هي المرأة المؤمنة، نيرة الفكر، قوية اليقين بربها، وما عنده من ثواب، راسخة في صبرها أمام النكبات تحتسبه عند الله.

- ثم أمر النبي ﷺ فدفن حمزة ومعه ابن أخته عبد الله بن جحش، وأمر بأن يجمع بين الرجلين والثلاثة في القبر الواحد، وأحياناً في الكفن الواحد، ويقدم في اللحد أكثرهما أخذاً للقرآن، ويجمع بين الرجلين المتصاحبين في اللحد الواحد، ولم يغسلوا بل تركهم بجراحهم، وقال عنهم: «أنا شهيد على هؤلاء أنه ما من جريح يجرح في سبيل الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه اللون لون الدم والريح ريح مسك».. ولكن نزع عنهم الحديد والجلود.

* * *

(١) البداية والنهاية، ٤/٤١.

بعض اللفتات الجميلة..

- نتأمل بعض اللفتات الجميلة عند دفن الشهداء.

١ - النبي ﷺ يختصر الجهد على المسلمين فقد كانوا جرحى ومجهودين فأمر بالجمع بين الرجلين والثلاثة في الكفن والقبر.

٢ - يقدم أحفظهما للقرآن. ويجمع بين المتصاحبين في الدنيا.. فما هذا اللطف..؟!

٣ - أراد بعض المسلمين أن ينقل شهداءه إلى مقبرته في المدينة فقال لهم: «ادفنوهم حيث صرعوا» وفي ذلك يسر وتخفيف على المسلمين.

٤ - عن جابر أنه لما قتل أبوه جعل يكشف عنه الثوب، ويبكي، فنهاه الناس. فقال رسول الله ﷺ: «تبكيه أو لا تبكيه.. لم تزل الملائكة تظله حتى رفعتموه..».. وجعل النبي ﷺ يواسي جابراً فقال له: «يا جابر ألا أبشرك؟.. أشعرت أن الله أحيا أباك فقال: تمنَّ علي عبدي ما شئت أعطكه؟ قال: يا رب عبدتك حق عبادتك أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقتل مع نبيك وأقتل فيك مرة أخرى. قال: إنه سلف مني أنه إليها لا يرجع»[1]. وفي رواية: قال: يا رب فأبلغ من ورائي، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ٣/١٦٩].

٥ - لم يصلِّ رسول الله ﷺ على الشهداء يوم أحد، وإنما صلى عليهم بعد ثماني سنين كالمودع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر فقال: «إني بين أيديكم فرط، وأنا عليكم شهيد، وإن موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها»[2].

(١) البداية والنهاية، ٤/٤٤.

(٢) رواه البخاري.

تأمل هذه النظرة السننية للأمة.. فلقد عرف المؤرخون أن وصول الأمة إلى الترف هو بداية الانحدار والسقوط.. ويشبه تويندي الأمر بالملاح يجدف بنشاط فإذا وصل إلى الشاطئ استرخى على مجاذيفه..

- وكان عدد الشهداء يوم أُحد سبعين رجلاً. بدليل قول الله تعالى عن أحد وبدر ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٥]، وكان المسلمون في بدر قد قتلوا سبعين وأسروا سبعين من المشركين.. وتأمل قول الله تعالى مجيباً على تساؤلهم هذا ﴿أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾؟ ..﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾، فالنتائج في الدنيا جماعية وحتمية، أما العفو والغفران فيكون في الآخرة.

- وقتل من المشركين اثنان وعشرون رجلاً، ولم يؤسر منهم سوى أبي عزة الجمحي، وكان في الأسرى يوم بدر، فمنَّ عليه رسول الله ﷺ بلا فدية، واشترط عليه ألا يقاتله. فلما أسر يوم أحد قال: يا محمد! امنن علي لبناتي، وأعاهد ألا أقاتلك. فقال ﷺ: «لا أدعك تمسح عارضيك بمكة وتقول خدعت محمداً مرتين». وذكر بعضهم أنه ﷺ قال يومئذ: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»[1].

- ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة فجاءت حمنة بنت جحش تستطلع الخبر، فنعي إليها أخوها عبد الله بن جحش، فاسترجعت، واستغفرت له، ثم نعي لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت، واستغفرت له، ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت، فقال ﷺ: «إن زوج المرأة منها لبمكان» وفي رواية: «إن للزوج من المرأة لشعبة ما هي لشيء» فارتباطها بزوجها لا يعدله أي ارتباط.

- ومرَّ رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ، فلما نُعوا لها قالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً هو

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٤٦.

بحمد الله كما تحبين. قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، قال: فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت: «كل مصيبة بعدك جلل» (قال ابن هشام: الجلل يكون من القليل والكثير وهو ها هنا القليل).

- وسمع النبي ﷺ بكاء نساء الأنصار على قتلاهن، فذرفت عيناه وقال: «لكن حمزة لا بواكي له» فسمع بعض الأنصار قوله، فأرسلوا نساءهم يبكين على حمزة، فاستغفر لهم النبي ﷺ، وقال لهم خيراً، وقال: «ما هذا أردت وما أحب البكاء» ونهى عنه[1]. فتأمل رهافة شعور هذا النبي الإنسان وكيف يغلبه الحزن تارة.. وكيف يسارع في الأنصار للنبي ﷺ ودقة ملاحظتهم لأحواله وسرعتهم في مواساته بأحزانه، رضي الله عنهم وأرضاهم.

لقد عبرت تلك المرأة - التي لم يُعرف اسمها - عن حالهم بقولها: (كل مصيبة بعدك جلل). فلا قيمة لمصاب أمام سلامة النبي وبقائه بينهم.

* * *

فورة النفاق..

- وفارت المدينة بالنفاق فور المرجل، وقالت اليهود: لو كان نبياً ما ظهروا عليه ولا أصيب منه ما أصيب ولكنه طالب ملك، وقال المنافقون مثل قولهم.. وأنحوا باللوم على المسلمين، لو أطعتمونا ما أصابكم الذين أصابوا منكم.. ونزلت الآيات من سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ تعزي، وتسلي وتحلل الأحداث، وتثبت المؤمنين، وتعلمهم سنن النصر، وثبت النبي ﷺ ومن معه أمام تلك الزلزلة، وكشفوا عن مقدار تماسكهم ورسوخ إيمانهم.

* * *

(١) البداية والنهاية، ٤/٤٨.

وماذا بعد أُحد؟

كان عجيباً أن تنصرف قريش دون أن تفكر في الإجهاز على المسلمين أو بمهاجمة المدينة، وأدرك رسول الله ﷺ أن المشركين قد يفكرون بالعودة، ومهاجمة المدينة. فلا بد من سبقهم في الاستعداد، والخروج رغم تعب المسلمين وجراحهم.. فهذا يوهن كيد المشركين، ويكسر من طمعهم بالمسلمين، ويحيي معنويات المسلمين، ويشحذ عزائمهم، ويرد إليهم ثقتهم بأنفسهم.

فلما كان اليوم الثاني من أحد أمر رسول الله ﷺ بالخروج لطلب العدو، وأذن مؤذنه (ألا لا يخرجن أحد إلا من حضر يومنا بالأمس)، فاستأذنه جابر بالخروج معهم، وذكر للنبي ﷺ أن أباه أمره بالمقام في المدينة على أخواته (يوم أُحد) فأذن له النبي ﷺ، وقال عبد الله بن أُبي (المنافق): أنا راكب معك. فقال ﷺ: «لا»، فاستجاب المسلمون رغم ما بهم من البلاء. حتى ذكر أن أخوين من بني عبد الأشهل كانا جريحين فقال أحدهما للآخر: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجا يمشيان، وكان أحدهما أيسر جرحاً من الآخر، فكان إذا غُلب أخوه حمله عقبة ثم يعود ليمشي عقبة.. حتى أنزل الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٢].

• • •

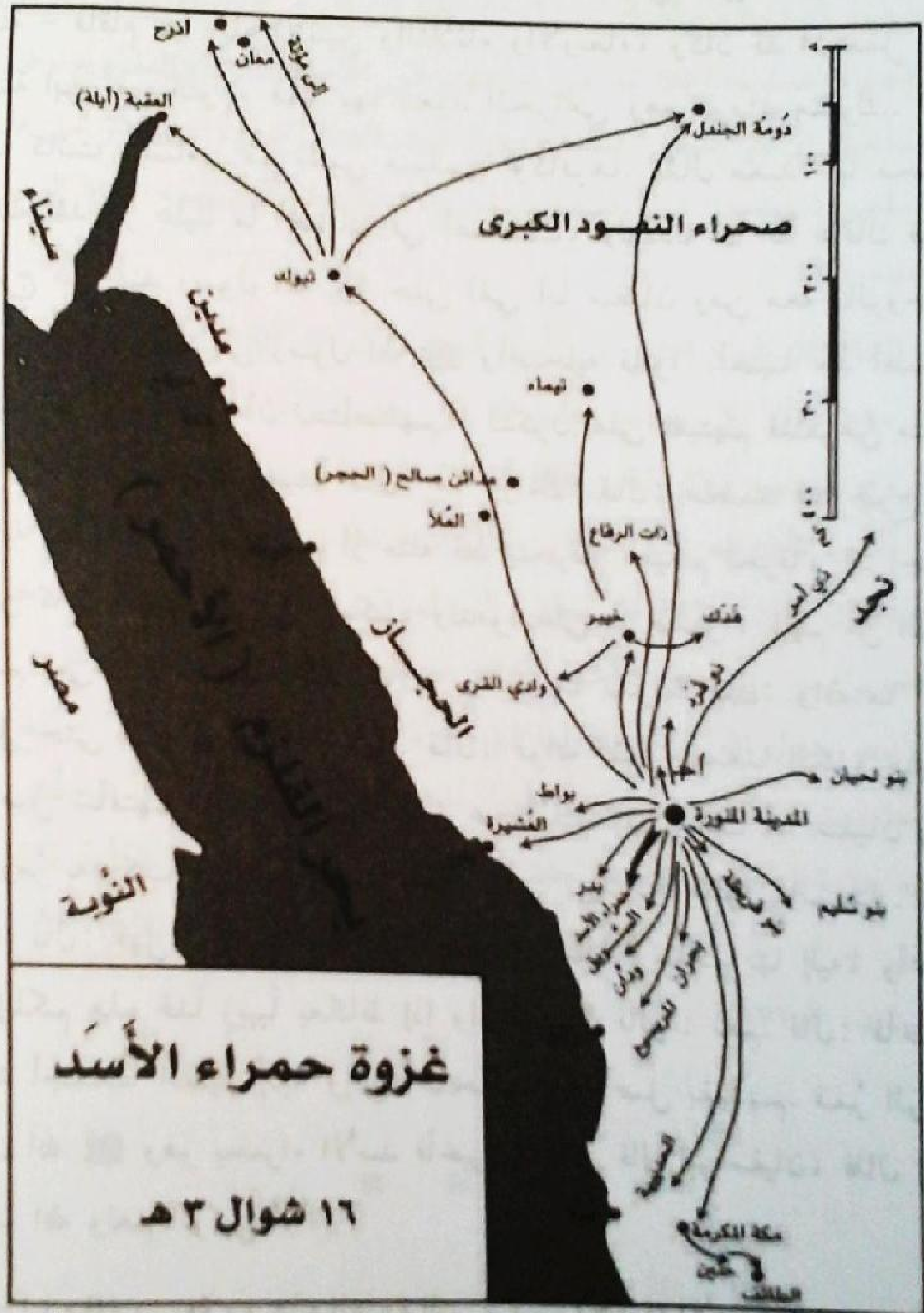
وقفة مع حمراء الأسد

وصل النبي ﷺ بجيشه إلى حمراء الأسد - وهي على ثمانية أميال من المدينة - فأقام بها أيام الإثنين والثلاثاء والأربعاء، وكان قد استعمل على المدينة ابن أم مكتوم، فمرَّ بها معبد الخزاعي وهو يومئذ مشرك.. لكن خزاعة كانت تتضامن مع النبي مسلمها وكافرها. فقال معبد: يا محمد! أما والله لقد عزَّ علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم. ثم خرج من عند رسول الله ﷺ حتى لقي أبا سفيان ومن معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه قالوا: أصبنا حدَّ أصحابه وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم؟! لنكرنَّ على بقيتهم فلنفرغنَّ منهم. فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أرَ مثله قط يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط. قال: ويلك ما تقول؟ قال: والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل. قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل شأفتهم، قال: فإني أنهاك عن ذلك. فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه. ومرَّ به ركب من عبد القيس فقال: أين تريدون؟ قالوا: المدينة.. نريد الميرة. قال: فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه، وأحمل لكم إبلكم هذه غداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم. قال: فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم. فمرَّ الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال ﷺ: «حسبنا الله ونعم الوكيل»[1].

- لنا وقفة سريعة مع هذه الغزوة التي سميت (حمراء الأسد):

---

(١) البداية والنهاية، ٤/٤٩ - ٥٠.



خريطة خروج ... الأسد

١ - نتأمل حكمة النبي وتأمله الدائم في: ماذا يمكن أن يفعل الخصم..؟!

فيحسب حساب أسوأ الاحتمالات ويخطط ويستعد لمواجهته.

٢ - قد نستغرب حرص النبي ﷺ على ألا يخرج معه إلا من شهد أحداً.. رغم تعبهم وإصابتهم.. لكنه ﷺ كان يرى فيهم صفات لا تتوفر في غيرهم:

أ- الإخلاص فليس فيهم منافق.

ب- الاندفاع والرغبة في الثأر.

ج- أكسبتهم الهزيمة خبرة بسنن النصر وعرفوا أهمية طاعة القائد.

٣ - ثم إن النبي ﷺ أراد أن يحقق شيئاً آخر من الخروج غير إرهاب المشركين. فلقد أراد ﷺ أن يستخرج الطاقات المكنونة عند هؤلاء المجهودين ألا يستسلموا للوهن وانكسار العزيمة، لقد جعلهم يكتشفون قوتهم وما يملكون من قدرات فيما لو تحركت عزائمهم.

وكم نعاني في عالمنا من جهلنا بقدراتنا ومواهبنا.. نعيش في عالم شعاره (ما بيطلع بيدي شيء) وقد غفل عن معنى قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠]، ولم يدرك مغزى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ١٣].. فما أشد خسارتنا ونحن نهمل معظم ما نملك من مواهب وقدرات ونسترخي وراء الكسل أو الاستضعاف والذل..؟!

٤ - وانظر إلى جابر وحرصه على الخروج مع النبي ﷺ وكيف بين له أنه ما تخلف عن أحد إلا طاعة لوالده الذي خرج، واستشهد، وأمر ابنه أن يقوم على أخواته. فالنبي ﷺ يأذن له لصدقه وبيان عذره.. وليس ذلك كالمنافق عبد الله بن أبي الذي يريد الخروج حباً بالظهور وطلباً للجاه في قومه.

لكن سياسة النبي ﷺ الهادئة والحكيمة معه - إضافة إلى سوء عمله - جعل أمره يتردى بين قومه. فقد كان قبل أحد يقوم مقاماً في كل جمعة حين يجلس رسول الله ﷺ وهو يخطب بالناس فيقوم عبد الله ويقول: أيها الناس هذا

رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله به وأعزكم، فانصروه، واسمعوا له، وأطيعوا. ثم يجلس. فلما صنع يوم أحد ما صنع ورجع الناس، قام يفعل ذلك.. فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه، وقالوا: اجلس أي عدو الله لست لذلك بأهل[1].

٥ - وانظر في أثر الحرب المعنوية على المشركين، وكيف تثنيهم عن عزمهم على العودة للقضاء على المسلمين، بينما يواجه المسلمون الأمر بثبات واستنفار للجهد وإنابة إلى الله ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، إن الحرب الفكرية والنفسية تمحص الناس، وتغربلهم، وتكشف معدنهم فكيف يثبت فيها من كان كما وصفه الله سبحانه ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٣] فلا مثل أعلى يشغلهم ولا فكر صحيح يملأ فراغ عقولهم..

ومن المؤسف أن الصورة قد انقلبت الآن.. فالعالم الإسلامي تعصف به الحرب الفكرية والمعنوية وتزلزل كيانه الهش.. وليست المشكلة في الخبثاء الذين يوجهونها، فهم موجودون في كل زمان ومكان.. ولكن المشكلة في البناء الهش للشخصية في عالمنا، في عصر ما عاد يثبت فيه إلا الراسخون في العلم.

أعدوا ما استطعتم من قوة

٦ - أخيراً لا ننسى مقتضيات ذلك العصر التي فرضت إرهاب المشركين بهذا الاستنفار السريع، والخروج في طلبهم. ولكل عصر مفاهيمه وأساليبه في العزة وإثبات الذات، فإذا ردد المسلمون: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٠]، فينبغي أن ننتبه إلى ما حصل من اختلاف في مفهوم (القوة) في عصرنا. فلقد أصبحت القوة الفكرية والعلمية هي قوة العصر. فماذا أعددنا أمام عالم الحاسوب والإنترنت؟! وهل نظن أننا سنفرض احترامنا على الآخرين بشراء الأسلحة أو صنعها؟! لقد جرب كثيرون هذا الأسلوب فما نالوا إلا ألقاب (الإرهاب) وأضروا بالمسلمين أكثر من أن ينفعوهم، وباؤوا بنفور الناس منهم ومن إسلامهم. إن القتال كان أفضل وسيلة

---

(١) المصدر السابق، ٤/ ٥١.

في ذلك العصر لحماية مجتمع العدل واللا إكراه، والوسائل تتطور بمرور الزمن، وتقدم العلوم والمعارف.. ومن أصر على ركوب الجمل في عصر الطيران والصواريخ أصبح موضع سخرية العالم.

إن العالم يقترب من فهم كلمات الله التي جاء بها الرسل: (في البدء كانت الكلمة) (أنا الفهم لي القدرة) ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/٩].. ويعرف أن سلطان العلم فوق كل سلطان.. وأن الجاهلين يُسخَّرون للذين يعلمون.. وأن الذين يعلمون مسؤولون عن توعية وحماية وإنقاذ الذين لا يعلمون.. وأن العلماء ورثة الأنبياء، ووجهاء الدنيا والآخرة ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة: ٥٨/١١].. ولكن متى يدرك المسلمون ذلك..؟!

- وقبل كل شيء لا بد للمخلصين أن يتوجهوا لبناء مجتمع (اللا إكراه) على نهج النبي ﷺ: بالجهر بالحق، وكف اليد، والصبر على الأذى، وبذل الحب، والإحسان للناس، فإذا بنوا مجتمع العدل واللا إكراه - دون اللجوء إلى العنف - وجب عليهم بعد ذلك استعمال وسائل عصرهم للحفاظ عليه وحمايته من الخبثاء، بل ونصرة المستضعفين في كل مكان وعونهم مادياً وفكرياً حتى يتماسكوا أمام الطواغيت ويتحصنوا بقوة العصر.

الأسلحة أصنام عصرنا

أما التعلق بالسلاح.. فهو التشبث بأسلوب فانٍ، فات أوانه (وهذا التشبث كما يذكر توينبي من آفات تفكير الإنسان عند انهيار حضارته)[1]. وهو في رأي المفكر جودت سعيد عبادة الأصنام الجديدة، والشرك بالله، والخضوع للسحرة والدجالين، الذين يوهمون الناس أن الأسلحة ذات سلطان.. لإغرائهم بشراء الأسلحة، والإعراض عن المجالات الحيوية التي تكون بها نهضة الأمة،

(١) مختصر دراسة للتاريخ: أرنولد توينبي، ط١، ١٩٦١م، ٢/ ٩٣.

وهكذا يأخذون أموالنا ويتركوننا للجهل والخرافة والحروب الأهلية. ولا ننس أن كل سلاح غير ذري لم يعد له قيمة، وأما السلاح الذري فكيف يخفى علينا أنه محرَّم شرعاً..؟! لقد نهى الإسلام عن قتل النساء والرهبان، وقطع الأشجار.. فكيف يسمح بسلاح يلوث البيئة ويقضي على الأخضر واليابس.. حتى ولو امتلكه العدو.. فإن استباح العدو حرق الناس وتدمير العالم فهل يجوز لنا ذلك؟! وأي فرق بيننا وبينهم إذن.؟!

إن هذا هو المغزى الذي ينبهنا الله إليه في قول ابن آدم الأول: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٥/٢٨]، إن ابن آدم هنا يبدو عملاقاً حتى حين يقتله أخوه... ولولا موقفه الذي يمثل نزع السلاح من طرف واحد لما استحقت القصة أن تذكر في القرآن.. وما العبرة باثنين يقتتلان؟!إنها عندئذ ليست (فلم هندي) فقط.. بل هي (فلم غربي) ترسخه العولمة في نفوس البشر..!

* * *

٦- عــــودة إلـــى واحــة الحــب

وانظر إليه مع الأطفال..!!

في أواخر العام الثالث الهجري رزقت فاطمة بأول أولادها الحسن بن علي رضي الله عنهم جميعاً، وكان ذلك مصدر فرح للنبي ﷺ الذي حرم من الذرية من بعد خديجة رضي الله عنها، وهو متعطش للأبناء والطفولة، فكم كان يهش للأطفال ويتلطف بهم ويداعبهم، وهذا جانب من حياة النبي يستحق منا وقفة. إذ إننا ندهش من أن رسول الله ﷺ رغم كل أعبائه كان يجد وقتاً لملاعبة الأطفال والاهتمام بهم. وها أنا أسوق بعض الأمثلة:

- كان رسول الله ﷺ ذات مرة يقبل الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس، وهو جالس. فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد، ما قبّلت منهم أحداً، فنظر إليه الرسول ﷺ ثم قال: «من لا يَرحم لا يُرحم»[١].

- وجاء أعرابي يسأل النبي ﷺ: أتقبلون صبيانكم؟ فما نقبلهم.

فأجابه النبي ﷺ: «أوَأملك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟»[١].

- وكان يزور الأنصار، ويسلم على صبيانهم واحداً واحداً، ويمسح على رؤوسهم، ويدعو لهم، ويخصهم بالمحادثة والأسئلة[٢].

---

(١) الأدب المفرد: البخاري، ص٣٤.

(٢) كتاب الرسول العربي المربي: د. عبد الحميد الهاشمي، ص١٢٤.

- وكان ﷺ إذا مرَّ بالأولاد وهم يلعبون ألقى عليهم السلام، ووقف ينظر إليهم. وكان يخاطب الصغير بما يثير اهتمامه. فيقول سائلاً الطفل عن عصفوره الخاص: «يا أبا عمير ماذا فعل النغير»[١]؟

- وعن عبد الله بن شداد عن أبيه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي الظهر أو العصر وهو حامل الحسن أو الحسين، فتقدم الرسول ﷺ فوضعه، ثم كبر للصلاة، فصلى، فسجد بين ظهري صلاته (في وسط الصلاة) سجدة أطالها. قال الصحابي: إني رفعت رأسي، فإذا الصبي على ظهر رسول الله وهو ساجد. فرجعت في سجودي فلما قضى رسول الله الصلاة قال الناس: يا رسول الله! إنك سجدت بين ظهري الصلاة سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليك..؟ فقال ﷺ: «كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني - أي جعل ظهري مطية للركوب - فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته»[٢].

- وأخذ الحسن بن علي - ﷺ - تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فمه. فقال النبي ﷺ: «كخ، ارمِ بها. أما علمت أنا لا نأكل الصدقة»[٣].

- وعن عمر بن أبي سلمة ربيب رسول الله ﷺ قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة فقال ﷺ: «يا غلام سمِّ الله تعالى، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك»[٣]، فما زالت تلك طِعمتي.

- وعن أم قيس بنت محصن ﷺ أنها أتت رسول الله ﷺ بابن لها لم يبلغ أن يأكل الطعام. فوضعه النبي ﷺ في حجره. فبال في حجر رسول الله ﷺ. فدعا رسول الله ﷺ بماء فنضحه على ثوبه، ولم يغسله غسلاً[٤].

---

(١) كتاب الرسول العربي المربي: د. عبد الحميد الهاشمي، ص١٢٤.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده.
(٣) رياض الصالحين.
(٤) رواه مسلم.

- وعن أبي قتادة الأنصاري ﷺ قال: رأيت النبي ﷺ يؤم الناس، وأمامة بنت أبي العاص - وهي ابنة زينب بنت رسول الله ﷺ - على عاتقه. فإذا ركع وضعها، وإذا رفع من السجود أعادها[1] فلم يستأثر الصبيان بعنايته.

- وعن أسامة بن زيد قال: طرقت باب النبي ﷺ في بعض الحاجة فخرج رسول الله ﷺ وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو، فلما فرغت من حاجتي قلت: ما هذا الذي أنت مشتمل عليه يا رسول الله؟ فكشفه. فإذا الحسن والحسين. وقال: «هذان ابناي وابنا ابنتي. اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما»[2].

- وعن أبي قتادة الحارث بن ربعي أن رسول الله ﷺ قال: «إني لأقوم إلى الصلاة وأريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه»[3].

- ومرَّ النبي ﷺ ببيت فاطمة ﷺ فألفاها وزوجها قد غلبهما النعاس والحسن يبكي ويطلب طعاماً. فلم يهن على الأب الكريم أن يوقظ العزيزين النائمين بل أسرع إلى غنمة كانت في ساحة الدار فحلبها وسقى الحسن من لبنها حتى ارتوى[4].

- ووقف ﷺ يوماً يخطب المسلمين. فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران. فنزل النبي ﷺ من المنبر، فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال يخاطب القوم: «صدق الله إنما أموالكم وأولادكم فتنة... نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»[5].

- وحدثت السيدة عائشة أن الرسول ﷺ أهديت إليه هدية فيها قلادة من جزع (الخرز اليماني وهو الذي فيه بياض وسواد تُشبَّه به الأعين) فقال:

---

(١) رواه مسلم.
(٢) سنن الترمذي.
(٣) رواه البخاري.
(٤) و (٥) تراجم سيدات بيت النبوة: د. عائشة عبد الرحمن، ص٦١٤ و٦١٧.

«لأدفعنَّها إلى أحب أهلي إلي» فقالت النساء: ذهبت بها ابنة أبي قحافة، لكن رسول الله ﷺ دعا أمامة بنت زينب فأعلقها في عنقها[١].

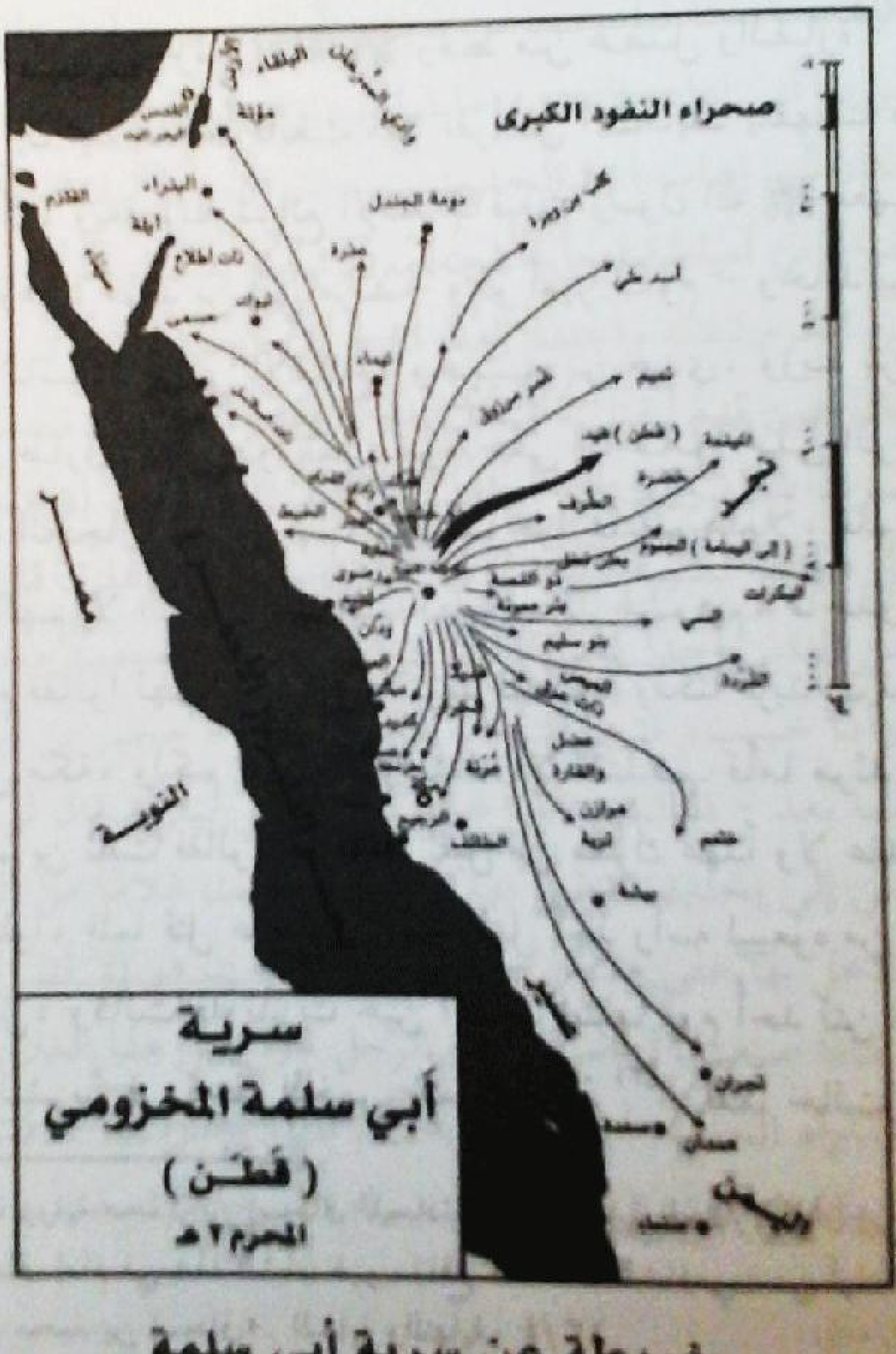
هذه الأخبار تمثل غيضاً من فيض، وهي تعرض علينا كيف كان النبي ﷺ يحب الأطفال، ويتفرغ لملاعبتهم ومؤانستهم، ويهتم بأن يسلّم عليهم واحداً واحداً ويحدث كلاً منهم بما يهمه فيسأل هذا عن عصفوره، ويمكث ساجداً لحفيده الذي ارتحله، ولا يتحرك حتى لا ينغّص عليه لعبه، والناس سجود..! ويحمل البنات والصبيان من أحفاده في صلاته.. ويقطع خطبة الجمعة كي يحمل حفيديه، ويبول أحد الصبيان في حضنه فلا يغضب، ويرش حضنه بالماء..!! يعطي الحب للأطفال بلا حدود.. ولا يهمل تعليمهم إذا اقتضى الموقف ذلك.. فها هو يعلم طفلاً كيف يأكل.. ويعلم حفيده أن يتعفف عن الأكل من الصدقات. ويرحم الأطفال فلا يطوّل في صلاته مع أنه قال: «جعلت قرة عيني في الصلاة» فهو يؤثر الطفل على نفسه.. كل هذا يعلمنا فيه ﷺ أن عبادة الله ليست طقوساً وحركات.. بل إنها حب وعطاء ورحمة بالناس الذين هم (عيال الله).. ولب العبادة هو الإحسان مع الناس ابتغاء مرضاة الله.. بعيداً عن المظاهر والرياء..

- لقد كان رسول الله ﷺ تلقائياً في التعبير عن عواطفه.. لا يكبتها ويتصنع الوقار.. يعيش حياته الإنسانية بكل جوانبها سواء كان زوجاً أو أباً أو جداً أو قائداً أو حاكماً أو هادياً للناس.. يعبر ببساطة عن فرحه وحزنه، وعن حبه وغضبه، وإن كان سريع التمالك لغضبه (يسبق حلمه غضبه). وهو يملك قلباً مرهفاً قادراً على تحسس مشاعر الناس وعواطفهم.. ولساناً بليغاً معبراً عن مشاركته لمن حوله في أحاسيسهم.. وهذا ما جعله يملك القلوب، ويقدر على غسلها من القسوة والحقد. صلوات الله عليه وسلامه فهو الحبيب المصطفى.. جمعنا الله به على حوضه.

* * *

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات.

٧- لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة



خريطة عن سرية أبي سلمة

غدر وخيانة (يوم الرجيع)..

نعود إلى السنة الرابعة من الهجرة. وقد بلغ النبي أن طليحة الأسدي وأخاه قد جمعا حلفاء لهم ليقصدوا حرب النبي ﷺ - وذلك أن رجلاً من بني أسد جاء وأخبر النبي بذلك - فأرسل النبي ﷺ سرية بقيادة أبي سلمة - وكان قد جرح في أحد ولبث شهراً يداوى حتى شفي - فخرج إليهم أبو سلمة فتفرقوا وتركوا نعماً كثيراً من الإبل والغنم رجع بها إلى المدينة.. فلما دخلها انتقض جرحه فمات لثلاث بقين من جمادى الأولى.

ثم إنه قدم على رسول الله ﷺ رهط من عضل والقارة[1] فقالوا: يا رسول الله! إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام. فبعث رسول الله ﷺ معهم نفراً ستة من أصحابه وهم: مَرْثد بن أبي مرثد - وهو أمير القوم - وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق. فخرجوا مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع (ماء لهذيل بناحية الحجاز) غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيلاً، فلم يرع القوم وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم فقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم. فأما مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً، ثم قاتلوا حتى قتلوا، فلما قتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن سهيل، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنيها يوم أحد لئن قدرت على رأس عاصم لتشربنّ في قحفه الخمر، فمنعته الدَّبْر[2]. فلما حالت بينهم وبينه

---

(١) أسوق هنا رواية محمد بن إسحاق للحادثة وأترك رواية البخاري لأن ابن كثير يقول: «ابن إسحاق إمام في هذا الشأن غير مدافع كما قال الشافعي: من أراد المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق». البداية والنهاية، ٤/ ٦٣.

(٢) جمع دبور.

قالوا: دعوه حتى يمسي فيذهب عنه فنأخذه، فبعث الله الوادي[1] فاحتمل عاصماً فذهب به. وقد كان عاصم قد أعطى الله عهداً ألا يمسه مشرك ولا يمسّ مشركاً أبداً تنجساً. فكان عمر بن الخطاب يقول: «يحفظ الله العبد المؤمن. كان عاصم نذر ألا يمسه مشرك، ولا يمسّ مشركاً أبداً في حياته، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه في حياته» وأما خبيب، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق، فلانوا ورقوا ورغبوا في الحياة، فأسروهم ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبد الله بن طارق يده من القران، ثم أخذ سيفه، واستأخر عنه القوم، فرموه بالحجارة حتى قتلوه، فقبره بالظهران. وأما خبيب وزيد فقدموا بهما مكة فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة. فابتاع خبيباً حجير بن أبي إهاب التميمي حليف بني نوفل لعقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل - وكان أبو إهاب أخا الحارث بن عامر لأمه - ليقتله بأبيه. وأما زيد فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه فبعثه مع مولى له يقال له «نسطاس» إلى التنعيم وأخرجه من الحرم ليقتله واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب. فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك بالله يا زيد! أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي. قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً. ثم قتله نسطاس. وأما خبيب، فتحدثت عنه ماوية - مولاة حجير بن أبي إهاب وقد أسلمت فيما بعد - فقالت: كان خبيب حُبس في بيتي، قال لي حين حضره القتل: ابعثي إلي بحديدة أتطهر بها للقتل. فأعطيت غلاماً من الحي الموسى فقلت له: ادخل بها على هذا الرجل البيت، فوالله إن هو إلا أن ولى الغلام بها إليه فقلت: ماذا صنعت؟! أصاب والله الرجل ثأره يقتل هذا الغلام فيكون رجلاً برجل. فلما ناوله الحديدة أخذها من يده ثم قال: لعمرك ما خافت أمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدة إلي. ثم خلى سبيله، ثم خرجوا بخبيب حتى جاؤوا به

(١) أي تدفق ماؤه.

إلى التنعيم ليصلبوه وقال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا، قالوا: دونك فاركع، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم فقال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة. فكان خبيب أول من سنَّ هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين. ثم رفعوه على خشبة فلما أوثقوه قال: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فبلِّغه الغداة ما يصنع بنا، ثم قال: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً. ثم قتلوه. وكان معاوية بن أبي سفيان يقول: حضرته يومئذ فيمن حضره مع أبي سفيان، فلقد رأيته - أي أبي - يلقيني إلى الأرض فرقاً (خوفاً) من دعوة خبيب - وكانوا يقولون: إن الرجل إذا دُعي عليه فاضطجع لجنبه زلت عنه - وكان عمر بن الخطاب - أثناء خلافته - استعمل سعيد بن عامر على بعض الشام فكانت تصيبه غشية وهو بين ظهري القوم، فذكر ذلك لعمر وقيل إن الرجل مصاب، فسأله عمر عن ذلك.. فقال: والله يا أمير المؤمنين ما بي من بأس، ولكني كنت فيمن حضر خبيب بن عدي حين قتل، وسمعت دعوته فوالله ما خطرت على قلبي وأنا في مجلس قط إلا غشي عليَّ. فزادته عند عمر خيراً. وذكر ابن هشام أن خبيباً أقام في أيديهم حتى انسلخت الأشهر الحرم ثم قتلوه. فلما أجمعوا على قتله قال قصيدة منها بيتان:

فلست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي شق كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شِلْوٍ ممزع[1]

هذه قصة يوم الرجيع الذي كان مؤامرة توحي بضعف المشركين عن المواجهة، ولهذا يلجؤون إلى الاحتيال والغدر. نقف عند الحادثة قليلاً.

١ - ما كان رسول الله ﷺ ليمتنع من طلب هؤلاء الذين ادعوا الإسلام، وطلبوا أن يرسل معهم من يعلمهم القرآن. فالدعوة إلى الله تستحق المخاطرة في سبيلها.. وطلب الناس لمعلم يعلمهم لا يجوز الإعراض عنه.

---

(١) ذكر ذلك في صحيح البخاري.

٢ - لم يجد القراء الستة حرجاً في أن يختلفوا إلى رأيين وكل منهم اتخذ الموقف الذي انشرح له صدره، وكلهم كانوا شهداء عند الله. ولم يعاتب أحد على اجتهاده.

٣ - نحس بالصلة الحميمة والرعاية الإلهية الرحيمة حين حمى الله جسد عاصم من المشركين وفاء بنذر عاصم.. فما أروع هذا الود الإلهي..!!

٤ - حب الصحابة لنبيهم كان مثار دهشة وإعجاب، وكأن أبا سفيان في سؤاله لزيد عن ذلك يريد أن يسمع الناس، ويتعجبوا كما يتعجب هو..

٥ - هل كان المسلم يقابل الغدر بالغدر؟!

خبيب يقول للصبي: (لعمرك ما خافت أمك غدري حين بعثتك بالحديدة..) هذا جانب مدهش ومشرق في حياة النبي ﷺ وأصحابه.. أنهم كانوا موضع ثقة أعدائهم المشركين..!! لقد كان المشركون على يقين من أن المسلمين لا يغدرون ولا يأخذون الطفل بذنب أهله..!!

٦ - خبيب يسنُّ ركعتين عند الموت.. ولولا أن يظنوا أنه جزع من الموت لأكثر من الصلاة..!! هذه مواقف في القمة كانت تزلزل أعماق المشركين.. وتشعرهم بأنهم ليسوا على شيء أمام هؤلاء العمالقة.

٧ - وانظر إلى رعب المشركين من دعوة خبيب عليهم عند قتله.. إنه يعبر تماماً عن يقينهم بأن أصحاب محمد ﷺ على حق.

٨ - وانظر إلى رحمة الله وحلمه وعلمه. إذ لم يستجب لدعوة خبيب لأنه سبحانه يعلم أن بين هؤلاء من سيحسن إسلامه ويخلص في عمله.

٩ - وتأمل إحساس سعيد بن عامر بالمسؤولية أمام الله؛ لأنه قعد عن نصرة رجل مسلم يقتل أمامه وهو شاهد لا يستنكر..!!

١٠ - كانت هذه المأساة نصراً حقيقياً للإسلام والمسلمين. فلقد كان المسلمون يدفعون أرواحهم ثمناً لترسيخ قيم الوفاء والإخلاص لله.. كانوا يبنون عالماً جديداً تتجلى فيه كرامة الإنسان ونبله أمام ضعة الجاهلية الجهلاء. كانوا بالتزامهم كلمة التقوى من طرف واحد يكتسحون النفوس والعقول، ويسحبون البساط من تحت كل المبادئ الزائفة.. كان الشهداء يتساقطون.. بينما عالم الإسلام ينمو ويزدهر ويرسخ في الأرض. لأنه البناء الأخلاقي الذي يصبو إليه الإنسان.. فأي كسب إنساني حضاري يمكن أن يقارب ما حققه الأنبياء وحواريوهم..؟!

* * *

وغدر آخر (بئر معونة)

في صفر - بعد أربعة أشهر من معركة أحد - قدم أبو براء عامر بن مالك - ولقبه ملاعب الأسنة - على رسول الله ﷺ بالمدينة. فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه فلم يسلم ولم يبعد. وقال: يا محمد! لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك. فقال ﷺ: إني أخشى عليهم أهل نجد. فقال أبو براء: «أنا لهم جار» فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة في أربعين رجلاً من خيار المسلمين فيهم: الحارث بن الصمة، وحرام بن ملحان، وعروة بن أسماء بن الصلت، ونافع بن بديل بن ورقاء، وعامر بن فهيرة (مولى أبي بكر)، فساروا حتى نزلوا بئر معونة - وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سليم - فلما نزلوا بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر في الكتاب حتى عدا على الرجل، فقتله، ثم استصرخ عليهم بني عامر، فأبوا أن يجيبوا، وقالوا: لن نخفر أبا براء، وقد عقد لهم عقداً وجواراً. فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم - عصية ورعلاً وذكوان والقارة - فأجابوه فخرجوا حتى غشوا القوم، فأحاطوا بهم

في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا أسيافهم، ثم قاتلوا القوم حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد، فإنهم تركوه به رمق فارتث[١] من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق. وكان في سرح القوم (أي مع المواشي) عمرو بن أمية الضمري، ورجل من الأنصار من بني عمرو بن عوف، فلم ينبئهما بمصاب القوم إلا الطير تحوم حول العسكر فقالا: والله إن لهذه الطير لشأناً، فأقبلا لينظرا، فإذا القوم في دمائهم، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة. فقال الأنصاري: ماذا ترى؟ فقال عمرو: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فقال الأنصاري: لكني لم أكن لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو، وما كنت لأخبر عنه الرجال. فقاتل القوم حتى قُتل. وأخذ عمرو أسيراً فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل، وجزّ ناصيته، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه فيما زعم. وخرج عمرو حتى إذا كان بالقرقرة (مكان) أقبل رجلان من بني عامر حتى نزلا في ظل هو فيه، وكان مع العامريين عهد من رسول الله ﷺ وجوار لم يعلمه عمرو بن أمية، وقد سألهما حين نزلا ممن أنتما؟ قالا: من بني عامر. فأمهلهما حتى إذا ناما، عدا عليهما وقتلهما، وهو يرى أن قد أصاب بهما ثأراً من بني عامر، فلما قدم عمرو على رسول الله ﷺ أخبره بالخبر، فقال ﷺ: «لقد قتلت قتيلين.. لأدِيَنَّهما» ثم قال ﷺ: «هذا عمل أبي براء قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً»، فبلغ ذلك أبا براء فشقَّ عليه إخفار عامر إياه وما أصاب أصحاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره، فحمل ربيعة بن عامر بن مالك (أي ابن أبي براء) على عامر بن الطفيل فطعنه[٢]..

- وعن أنس بن مالك[٣] لما طعن حرام بن ملحان - وكان خاله - يوم بئر معونة قال بالدم هكذا فنضحه على وجهه ورأسه وقال: فزت ورب الكعبة.

---

(١) حمل من المعركة رثيناً أي جريحاً.
(٢) البداية والنهاية، ٤/ ٧٢ - ٧٣.
(٣) رواه البخاري.

- وذكر أن عامر بن الطفيل سأل عمرو بن أمية - بعد أسره - من هذا؟ وأشار إلى قتيل فقال عمرو: هذا عامر بن فهيرة. قال عامر: لقد رأيته بعدما قتل رفع إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض ثم وضع(١). فأتى النبي خبرهم فنعاهم فقال: إن أصحابكم قد أصيبوا، وإنهم قد سألوا ربهم فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا.

* * *

هل يقابل الغدر بالغدر؟

تأمل معي هذا (المسخ المشوه) للمجتمع الإنساني الذي جاء الإسلام ليلغيه.. مخرجاً للناس أمة القيم والأخلاق التي ينبغي للإنسان أن يرتقي إليها..

- فها هو رسول الله ﷺ يرسل مصابيحه - مرة أخرى - وسط هذه الظلمة المدلهمة.. لإنقاذ العالم بدعوة الأمن والإيمان، فلا بد من تبليغ الدعوة حتى في حالة الطوارئ.. حيث الحرب معلنة بين الطرفين.

- وها هم أهل الجاهلية ينقسمون فريقين.. فريق فتاك غدار، وفريق يدرك خسّة الغدر فيرفضه، ويتعاطف مع المسلمين بعد ذلك.

- وهذا عمرو بن أمية - وكان فتاكاً في الجاهلية - ينسى نفسه وينساق إلى المعاملة بالمثل مع الجاهليين، وليس من السهل تحرير النفس من أثقال الجاهلية وخاصة في مثل تلك المواقف القاسية.

- ويتلقى اللوم من رسول الله ﷺ، خاصة أنه تسرّع ولم يتبين أمر الرجلين وتصرف بروح الفتك الجاهلية، لا بروح العدل والإحسان التي كان الإسلام يرسخها في قلوب الناس. فالإسلام يقول: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٥٣/ ٣٨] ويقول: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ٦].

---

(١) رواه البخاري.

- وأعظم من ذلك.. فإن رسول الله ﷺ يتكفل بدفع الدية لأهل القتيلين وهما من القبيلة التي غدرت وقتلت أصحابه؛ لأن معهما عهد أمان من النبي ﷺ.. فما هذا الالتزام؟ وما هذا الوفاء؟! ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٤٨/٢٦]. فأين نحن من هذه القيم؟! نحن نظن أن الوفاء مع العدو سذاجة وحماقة وضعف، ولا ندرك سنة بناء الإنسان والأمة.

ما قيمتك أيها المسلم إن كنت تفعل كما يفعل الآخر..؟!

هل يمكن القضاء على الطغيان والإرهاب بسلوك طريق الإرهاب؟

وهل نمحو الغدر والخيانة بسلوك طريق الغدر والخيانة..؟

وهل يُقضى على العنف باللجوء إلى العنف؟!

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ٤/ ١٤٠]!! ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٢٩]!!

كيف تقنع الناس بأن الإسلام رقي أخلاقي وإنساني.. إن تخليت عن الأخلاق والإنسانية أثناء نضالك ضد الظلم والشر؟!

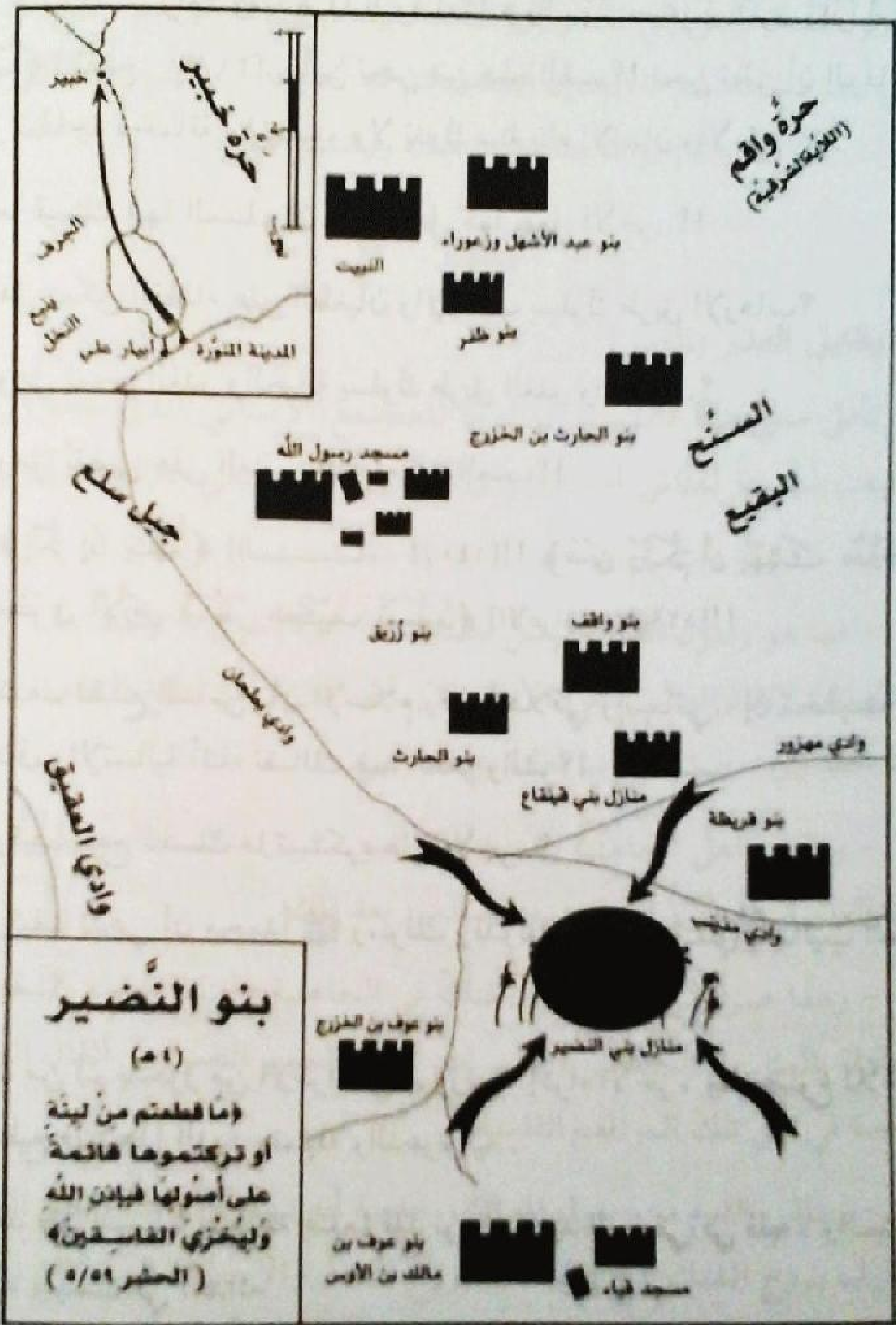
وكيف تبيح لنفسك ما تستنكره على الآخر..؟

وكيف تدعي أن محمداً ﷺ رسولك وقدوتك، وأنت تقتدي بأساليب الطغاة والخونة..؟

إن من لم يتحرر من الإكراه في صورتيه: إكراه الآخر، والخضوع للآخر، لا يستطيع فهم هذا الدين وتمثيله والدعوة إليه..

لقد فقد المسلم إشعاعه عندما فقد نور التوحيد الحقيقي في قلبه، والمشكلة الآن فيه وليست في أعدائه.

لأن التوحيد هو رفض الامتيازات كلياً، وقبول السواء بين الناس جميعاً.. التوحيد هو الرضى بما اختاره الله للإنسان من أن يكون في أحسن تقويم، ويرفض الانزلاق مع الآخر إلى أسفل سافلين.



خريطة غزوة بني النضير

وغدر اليهود..

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية للعهد الذي كان ﷺ أعطاهما، فلما أتاهم ﷺ قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت. ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة ويريحنا منه. فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه صخرة، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي فأتى رسولَ الله الخبرُ من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة، فلما استلبث النبيَّ ﷺ أصحابُه قاموا في طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه فقال: رأيته داخلاً المدينة فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه فأخبرهم الخبر بما أرادت يهود من الغدر به. وأمر النبي ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم - قال ابن هشام: «واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وذلك في شهر ربيع الأول - فسار حتى نزل بهم فحاصرهم ست ليال ونزل تحريم الخمر حينئذ، وتحصنوا في الحصون. فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل والتحريق فيها. فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد، وتعيب من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟! وكان رهط من الخزرج منهم عبد الله بن أبيّ وديعة وسويد وداعس (من المنافقين) قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم. فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم، ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة (أي السلاح).

فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل فكان الرجل منهم يهدم بيته على نجاف بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به فخرجوا إلى خيبر. ومنهم من سار

إلى الشام. فكان من أشراف من ذهب منهم إلى خيبر سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع، وحيي بن أخطب. فلما نزلوها دان لهم أهلها. قال: وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ يعني النخيل والمزارع، فكانت له خاصة يضعها حيث شاء، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار. إلا أن سهل بن حنيف وأبا دجانة ذكرا فقراً فأعطاهما. ولم يُسلم من بني النضير إلا رجلان وهما يامين بن عمير بن كعب ابن عم عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب. فأحرزا أموالهما.. فأنزل الله فيهم سورة الحشر بكمالها(١)..

إنها إحدى صفحات الغدر من تاريخ اليهود الحافل بالغدر ونقض العهود: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٠]. فلنتأمل:

- سبق أن ذكرنا أن النبي ﷺ عندما قدم إلى المدينة كتب عهداً بينه وبين اليهود على التعايش السلمي وحماية المدينة من أعدائها والتعاون... وعلى أساس هذا العهد ذهب النبي ﷺ يستعين بهم لدفع دية الرجلين، وقد وافقوا على ذلك ولم يعترضوا أو يجادلوا، وهذا يدل على أن محمداً ﷺ لم يتعد حدود المعاهدة المكتوبة.

- لكنهم لحقدهم على النبي وحسدهم له وجدوها فرصة لاغتياله والتخلص منه ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٠] ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤٣].

- انصرف النبي ﷺ بهدوء عندما أعلمه الوحي بتآمرهم، وكان هذا منتهى الحكمة.. فلو فاتحهم بالأمر لتكاثروا عليه وعلى أصحابه، ولو ذكر لأصحابه الأمر فقد يظهر عليهم الغضب.. فكان الأولى أن يجهز المسلمين في المدينة..

- تأمل كيد المنافقين وموالاتهم لليهود.. لكنها كانت كلاماً فارغاً لأن المنافق لا يعرّض مصالحه للخطر، وليس له مبدأ يناضل من أجله.

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٧٥ - ٧٦

- لما رأى النبي ﷺ تحصنهم بحصونهم - وكانت منيعة - وأن حصارهم ربما يطول لجأ إلى قطع نخيلهم وتحريقه.. لكسر معنوياتهم.

- وانظر إلى اعترافهم ودهشتهم، فليس من عادة النبي ﷺ أن يلجأ إلى مثل هذه الأساليب (قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من صنعه)؟! ومما لا شك فيه أن قطع الشجر عمل سيئ، ولكنها حالة حرب بين طرفين والإنسان فيها أغلى من النبات، ولقد أدت هذه الحركة إلى حقن الدماء واستسلام اليهود الذين أيقنوا بتفوق المسلمين، وهو ما وصفه الله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٥٩/٢]. إن الأمر يندرج تحت قاعدة (اختيار أهون الشرّين).

- كان هذا هو الغدر الثاني لليهود - بعد بني قينقاع - وما زال النبي ﷺ يعفو عن دمائهم، ويكتفي بإخراجهم من أطراف المدينة فلعلهم يعتبرون، وفي ذلك إبعاد كيدهم عن المدينة. ثم إن النبي ﷺ أكرم اللذين أسلما منهم وترك لهما أموالهما.

- كانت غنائم هذه الغزوة فيئاً للنبي ﷺ خاصة، فقسمه على أصحاب الحاجات.

- وفي رواية أخرى عن عمر بن الخطاب قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب فكانت لرسول الله ﷺ خاصة، فكان يعزل نفقة أهله سنة ثم يجعل ما بقي في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله.

ثم بيّن الله حكم الفيء وأنه للمهاجرين والأنصار والتابعين[(١)]... (راجع سورة الحشر). وتصرف النبي ﷺ في المال لافت للنظر.. فهو يأخذ ثمار الزرع

---

(١) ثبت في الصحيحين.

وما تعطيه الأراضي والمواشي. فيدخر نفقة أهل بيته لسنة.. والباقي يصرفه في إعداد العدة للدفاع عن هذا المجتمع الوليد.. فهو يقوم بالأسباب ويتوكل على الله، ولا يضيع من يعول، لكن نفقة أهله كان فيها كثير من الزهد أيضاً؛ لأنه كان سخياً معطاءً لأصحاب الحاجات، وقد حدث أن جاءت فاطمة - ابنته - مع زوجها مرة تطلب خادمة من سبي ساقه الله غنيمة لتساعدها في أمور بيتها، فقال ﷺ: «لا والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ولكن أبيع وأنفق عليهم بالثمن»[1] ثم يعلمهما التسبيح والحمد والتكبير دبر كل صلاة. وإذا أويا إلى فراشهما.. فذلك (خير مما سألتماني).

- هذا حبه وإيثاره للمسلمين فكيف لا يفديه المسلمون بأرواحهم؟!

- وهذا تعليمه لأهل بيته على الصبر والذكر، وإن ذكر الله هو ذكر سنته في العطاء.. وعندها يعتمد المسلم على نفسه في الخروج من الفقر وينفع أمته بالعمل.

* * *

صلاة الخوف

لما أصيب خبيب وأصحابه خرج رسول الله ﷺ طالباً بدمائهم ليصيب من بني لحيان غرة، فسلك طريق الشام ليريَ أنه لا يريد بني لحيان حتى نزل بأرضهم، فوجدهم قد حذروا وتمنعوا في رؤوس الجبال، فقال ﷺ: «لو أنا هبطنا عسفان لرأت قريش أنا قد جئنا مكة» فخرج في مئتي راكب حتى نزل عسفان ثم بعث فارسين حتى جاءا كراع الغميم ثم انصرفا. فذكر أبو عياش أن رسول الله ﷺ صلى بعسفان صلاة الخوف[2].

---

(١) تراجم سيدات بيت النبوة: الدكتورة عائشة عبد الرحمن، ص٦٠٢.
(٢) البداية والنهاية، ٤/٨١ - ٨٢.

وعن جابر بن عبد الله قال: صلى رسول الله ﷺ بأصحابه الظهر بنخل (موضع) فهمَّ به المشركون ثم قال: دعوهم فإن لهم صلاة بعد هذه الصلاة هي أحب إليهم من أبنائهم، فنزل جبريل على رسول الله ﷺ فأخبره، فصلى بأصحابه صلاة العصر فصفَّهم صفين بين أيديهم رسول الله ﷺ، والعدو بين يدي رسول الله ﷺ. فكبر وكبروا جميعاً، وركعوا جميعاً، ثم سجد الذين يلونهم والآخرون قيام فلما رفعوا رؤوسهم سجد الآخرون ثم تقدم هؤلاء وتأخر هؤلاء[1]...

واختلف الباحثون: هل غزوة عسفان قبل الخندق أو بعدها؟ فإنهم أخَّروا الصلاة يومئذ عن ميقاتها لعذر القتال، ولو كانت صلاة الخوف مشروعة إذ ذاك لفعلوها ولم يؤخروها، ولهذا قالوا إن هذه الغزوة كانت بعد بني قريظة.

المهم في الأمر أن نتأمل:

١ - أهمية الحذر واليقظة، وحتى في الصلاة تتخذ الأسباب اللازمة للحماية من العدو.

٢ - أن الصلاة لا تسقط لأي عذر وتؤدى حسب الإمكان.

❀ ❀ ❀

وعفو آخر..!

ويذكر ابن إسحاق هنا أنه ﷺ بعد غزوة بني النضير بشهرين خرج يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان.. وهي غزوة ذات الرقاع. وقيل سميت كذلك لما كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق من شدة الحر. فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب وقد خاف بعضهم بعضاً، لكن البخاري يقول: إن هذه الغزوة كانت بعد خيبر لأن أبا موسى الأشعري قد شهدها، وإنما كان قدومه مع جعفر ليالي

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٨١ - ٨٢.

خيبر. أترك هذا الأمر للباحثين، وأهتم بخبر ذكر عند هذه الغزوة: وهو أن رجلاً من بني محارب يقال له غورث بن الحارث قال لقومه من غطفان ومحارب: ألا أقتل لكم محمداً؟ قالوا: بلى وكيف تقتله؟ قال: أفتك به. وقد روي الخبر بعدة طرق. أذكر منها:

عن جابر قال: قاتل رسول الله ﷺ محارب وغطفان بنخل. فرأوا من المسلمين غرة فجاء رجل منهم يقال له غورث حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف وقال: من يمنعك مني؟ قال: الله. فسقط السيف من يده، فأخذ رسول الله ﷺ السيف وقال: من يمنعك مني؟ فقال: كن خير آخذ. قال ﷺ: تشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: لا ولكن أعاهدك على ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، فأتى أصحابه وقال: جئتكم من عند خير الناس.

تأمل في هذا الخبر شجاعة النبي ﷺ، ورباطة جأشه، وهو يواجه الرجل وسيفه المشهور بهدوء الواثق بقدر الله. وأرى أن هذا الثبات هو الذي زلزل الرجل، وجعله يتخاذل، ويسقط السيف من يده.. بدليل أنه لم يشعر بأن الله حمى محمداً ﷺ ولم يؤمن بالله.. والأمر الثاني الذي أدهشه هو عفو النبي عنه، وإطلاقه بعد أن عاهده على ألا يحاربه، وكل هذا جعله يقول لقومه: جئتكم من عند خير الناس.

- لقد كان رسول الله ﷺ بارعاً في الحب والعفو.. يُشع بهما في كل مجال فلا يتمالك من يلقاه من أن يحبه ويعجب به..

كان ﷺ قرآناً يمشي على الأرض.. كان ﷺ الصورة الحية الواقعية لقانون الله ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٤].

لقد طبق قانون الله وحصل على الثمار..

لكن المسلمين لا يريدون أن يصدقوا قانون الله ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أو اختلطت عليهم الأمور، فلم يعرفوا متى يكون القتال ومتى يكون العفو والدفع بالتي هي أحسن، وكيف نلومهم وعلماؤنا لم يكتبوا لنا ما يكفي في بيان هذه القضايا الشائكة..؟!

لقد عشنا قروناً ونحن نظن أن (السيف أصدق أنباء من الكتب) نتغنى بالجهاد.. ولا نعرف معنى الجهاد.. ولا متى يكون الجهاد.. ونعجز عن مجاهدة ما في أنفسنا من اندفاع وغضب وعدوان. نحن لم ننتصر على نوازع الشر في أنفسنا.. فكيف نواجه عدونا..؟!

* * *

٨- صحبة وتعليم من نبيٍّ إنسان

درس من الحيوان..

قال جابر بن عبد الله: بينا أنا مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من أصحابه بفرخ طائر، ورسول الله ﷺ ينظر إليه، فأقبل إليه أبواه - أو أحدهما - حتى طرح نفسه في يدي الذي أخذ فرخه فرأيت أن الناس عجبوا من ذلك فقال ﷺ: «أتعجبون من هذا الطائر أخذتم فرخه فطرح نفسه رحمة لفرخه؟! فوالله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه»[١].

ها هو جابر يصف حدثاً بسيطاً جرى معهم أثناء تلك الغزوة.. لكن رسول الله ﷺ يجعل من هذا الحدث البسيط مولّداً يشحن أصحابه بالحب، والطاقة، والرغبة في بذل كل شيء طلباً لرضى الله، الذي يحب عباده ويرعاهم أكثر من رعاية الأم والأب، فتأمل أمنك وأنت بحمى الرحمن، تركن إلى إرادته وحكمته، وتأمل فزعك إليه كلما زعزعتك الأحداث.. وسرعة غوثه ونجدته لك، هنيئاً لمن وصفهم الله في قرآنه ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ و ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.. تلك هي النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية.. تتنعم بالسكينة في ظل أمره ونهيه..

ذاك هو السواء النفسي الذي يتحدث عنه الباحثون في النفس.

---

(١) البداية والنهاية، ٤/٨٦.

ولجمل جابر قصة..!

يقول جابر: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرقاع على جمل لي ضعيف، فلما قفل رسول الله ﷺ جعلت الرفاق تمضي، وجعلت أتخلف حتى أدركني رسول الله ﷺ فقال: ما لك يا جابر؟ قلت: يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا. قال: أنخه، قال: فأنخته، وأناخ رسول الله ﷺ ثم قال: أعطني هذه العصا من يدك أو اقطع عصا من شجرة، ففعلت، فأخذها رسول الله ﷺ فنخسه بها نخسات ثم قال: اركب. فركبت فخرج، والذي بعثه بالحق، يواهق ناقته مواهقة[1] (يسابق). وتحدثت مع رسول الله ﷺ فقال: أتبيعني جملك هذا يا جابر؟ قلت: بل أهبه لك. قال: لا ولكن بعنيه. قلت: فسُمْنيه (أي ساومني فيه) قال: قد أخذته بدرهم، قلت: لا، إذن تغبنني يا رسول الله. قال: فبدرهمين. قلت: لا. فلم يزل يرفع لي رسول الله ﷺ حتى بلغ الأوقية، فقلت: أفقد رضيتَ؟ قال: نعم. قلت: فهو لك. قال: قد أخذته. ثم قال: يا جابر هل تزوجت بعد؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: أثيباً أم بكراً؟ (الثيّب: هي من سبق لها الزواج. والبكر: العزباء) قلت: بل ثيباً. قال: أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟ قلت: يا رسول الله إن أبي أصيب يوم أحد وترك بنات له سبعاً، فنكحت امرأة جامعة (لعله يقصد ذات خبرة) تجمع رؤوسهن فتقوم عليهن، قال: أصبت إن شاء الله، أما إنا لو جئنا صراراً أمرنا بجزور فنحرت فأقمنا عليها يومنا ذلك، وسمعتْ بنا فنفضت نمارقها، (وسائدها وفرشها). فقلت: والله يا رسول الله ما لنا نمارق، قال: إنها ستكون، فإذا أنت قدمت فاعمل عملاً كيساً. فلما جئنا صراراً أمر رسول الله ﷺ بجزور فنحرت وأقمنا عليها ذلك اليوم، فلما أمسى رسول الله ﷺ دخل ودخلنا (يقصد إلى المدينة لأنه كان من هديه ألا يفاجئ أهله بالدخول)؟ قال: فحدثت المرأة الحديث، وما قال لي رسول الله ﷺ، قالت: فدونك فسمع وطاعة. فلما أصبحت أخذت برأس

(١) يواهقها: يعارضها في المشي لسرعته.

الجمل فأقبلت به حتى أنخته على باب رسول الله ﷺ ثم جلست في المسجد قريباً منه. وخرج رسول الله ﷺ فرأى الجمل فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا جمل جاء به جابر. قال ﷺ: فأين جابر؟ فدعيت له. فقال: يابن أخي خذ برأس جملك فهو لك، ودعا بلالاً فقال: اذهب بجابر فأعطه أوقية، فذهبت معه، فأعطاني أوقية وزادني شيئاً يسيراً، فوالله ما زال ينمى عندي ويرى مكانه من بيتنا حتى أصيب أمس فيما أصيب لنا. يعني يوم الحرة[1]. (في عهد يزيد بن معاوية عندما وجه حملة إلى المدينة بعد أن نقض بعض أهلها بيعتهم له).

نمضي في تأمل هذا الخبر الطريف وما حصل من (مباسطة) بين النبي ﷺ وجابر أثناء الطريق..

- النبي ﷺ يتفقد أصحابه في الطريق ويعود إلى المتأخر منهم كي يعينه.. أو أنه يمشي في مؤخرتهم ليكون مرجعاً لهم في حاجاتهم وحماية لهم ممن يطلبهم من خلفهم.

- يتولى بنفسه تحفيز جمل جابر وتنشيطه بنخسه بغصن.

ويتجاوب الجمل وكأنه نشط من عقال حتى يسابق ناقة النبي ﷺ..

- وينطلق النبي ﷺ في إيناس جابر الذي فقد أباه في أُحد، وأصبح مسؤولاً عن عيال أبيه، إلى جانب حرصه على الجهاد وصحبته النبي ﷺ.. لقد ورث جابر حملاً ثقيلاً عن أبيه، وحتى جمله.. يبدو وكأنه ناء بحمله، فيختار النبي ﷺ صحبته ويتولى إيناسه..

- ويباسطه النبي ﷺ: أتبيعني جملك هذا يا جابر..؟

وعندما يتأكد جابر من عزم النبي على الشراء يبدأ في المساومة..

- ورغم إيمانه بالنبي، وحبه الشديد له ينطلق معه على سجيته ويجاريه في المباسطة. فيقول عندما عرض عليه درهماً: (لا، إذن تغبنني يا رسول الله).. وتمضي المساومة حافلة بروح الدعابة.

---

(١) البداية والنهاية، ٤/٨٦ - ٨٧.

- ثم ينتقل النبي ﷺ إلى موضوع آخر فهو يريد أن يطمئن على صاحبه، هل هناك من يقاسمه حمله ويخفف عنه: (هل تزوجت)؟ ويمضي في السؤال مما ينعش جابراً، ويشعره باهتمام النبي ﷺ به، فيرتاح لبثه بعض أخباره في بيته وعائلته، ويستغرب النبي ﷺ عندما يسمع أن جابراً الشاب الأعزب قد تزوج من ثيب..! ألم يكن الأنسب لك أن تقترن (بكراً) تتجانس مع وضعك؟!

- ونلمس في جواب جابر تعقلاً وإيثاراً، فهو يؤثر مصلحة أخواته على هوى نفسه، ويعبر النبي ﷺ عن إعجابه باختياره (أصبت إن شاء الله).

- وينطلق النبي ﷺ في (المباسطة) التي فيها التوجيه إلى التلطف مع الأهل، ودغدغة الحنين إلى الزوجة وعشها الدافئ.. سننزل يا جابر قبل الدخول إلى المدينة، حيث نذبح، ونأكل ونمكث بقية يومنا، وعندها تسمع زوجتك بقرب قدومك فتستعد، وتنفض الفرش والوسائد.

- ونتأمل هدي النبي وأدبه عند العودة من أسفاره، فقد كان يكره أن يباغت أهله ويطرقهم طروقاً، وإنما يتريث خارج المدينة حتى تصلهم أخبار قدومه، فيكونون على استعداد في النفس والهيئة.. وهو أدب جميل من النبي ﷺ فيه الثقة والاحترام لمشاعر الزوجة، ورغبتها في ألا يرى زوجها منها إلا ما تحب هي أن تبديه، وأين هذا ممن يتجسسون على زوجاتهم أو يفاجئونهن في أوقات غير مألوفة لكشف أسرارهن.. إن أدب الاستئذان حافل باحترام الآخر.. مشاعره وأسراره.. ورسول الله ﷺ كان الصورة المثلى لتطبيق آداب القرآن.

- ونعود إلى جابر الذي يقول بأسى: والله! يا رسول الله ما لنا من نمارق.. فأحوالنا أصعب من تحمل هذا (الترف)..

فيطيب النبي ﷺ خاطره ويقول: ستكون لكم يوماً ما فاصبر..

- ثم يوصيه بالتلطف في معاشرة زوجته (اعمل عملاً كيساً) عندما يقدم عليها..

- وكان جابر قد أخذ موضوع بيع الجمل مأخذ الجدّ، فإذا بالموقف ينجلي عن رغبة النبي ﷺ بالمساعدة والمؤانسة.. وها هو ﷺ يقول لجابر: «يابن أخي خذ برأس جملك فهو لك».. بهذا التودد: يابن أخي.. ثم يأمر بلالاً أن يعطيه أوقية، ويبدو أن العطاء من بيت مال المسلمين، وقد يكون من مال النبي ﷺ، وعلى كل حال فإن جابراً يستحق المساعدة.

- وانظر إلى بلال: يعطي أوقية ويزيد عليها يسيراً، وهو دأب المسلم كي يطمئن أنه قد أعطى الرجل حقه..

ويتحدث جابر عن جمله أنه ما زال مصدر خير لأهل البيت إلى أن أصيب في معركة الحرة، وهذا من بركة معالجة النبي ﷺ له.

هذا غيض من فيض لطف النبي ﷺ بأصحابه وحسن رعايته لهم.

* * *

نصرت بالرعب

ثم إن رسول الله ﷺ مكث في المدينة ثلاثة أشهر ثم خرج في شعبان إلى بدر لميعاد أبي سفيان، فنزل بدراً وأقام عليه ثمانياً ينتظر أبا سفيان. وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنة من ناحية الظهران. وبعض الناس يقول قد بلغ عسفان. ثم بدا له في الرجوع فقال: يا معشر قريش! إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، فإن عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا. فرجع الناس فسماهم أهل مكة جيش السويق، يقولون إنما خرجتم تشربون السويق. وأتى مخشي بن عمرو الضمري - وقد كان وادع النبي ﷺ في غزوة ودان على بني ضمرة - فقال: يا محمد! أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: نعم يا أخا بني ضمرة، وإن شئت رددنا إليك ما كان بيننا وبينك وجالدناك ... بينكم. قال: لا والله

يا محمد ما لنا بذلك من حاجة. ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيداً"[١].

وفي هذه السنة الرابعة مات حفيد للنبي ﷺ: عبد الله بن عثمان - ابن رقية - عن ست سنوات. وولد له حفيد جديد: الحسين بن علي من فاطمة في شعبان.

* * *

زيجات يكرم النبي ﷺ بها أصحابه

(حفصة بنت عمر تصبح أماً للمؤمنين):

كان زوجها الأول الصحابي خنيس بن حذافة السهمي القرشي - من أصحاب الهجرتين وشهد بدراً وأحداً - قد مات متأثراً بجراحة أصابته في أحد. وحفصة ما زالت في ريعان شبابها. ومضت عدتها. ففكر عمر أن يختار لها زوجاً جديراً بها.. فذهب يعرضها على أبي بكر.. لكن أبا بكر سكت ولم يجب..!! تمالك عمر غيظه، وذهب يعرضها على عثمان، لكن عثمان اعتذر بأنه لا يريد الزواج الآن.. فوجد في نفسه على صاحبيه.. وانطلق إلى النبي يتخفف مما جاش في صدره، فيلاطفه النبي ﷺ ويبشره: «يتزوج حفصة من هو خير من عثمان. ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة»[٢] ويدرك عمر مغزى هذه البشرى.. وأي شرف أعظم من مصاهرة النبي، وهل كان يحلم أن تصبح حفصة أماً للمؤمنين..؟ ويخرج من عند النبي والدنيا لا تسع لفرحته.. فيلقاه أبو بكر فيهنئه ويقول معتذراً: (لا تجد علي يا عمر فإن رسول الله ﷺ ذكر حفصة (أي ذكر أنه سيخطبها) فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٨٧ - ٨٨.
(٢) الإصابة، ٨/ ٥١.

لتزوجتها). وتزوج عثمان من أم كلثوم بنت محمد ﷺ. وذكر أن زواج النبي ﷺ من حفصة قد تمَّ في شعبان.

- ونلمس في الخبر حرص الصحابة على تزويج كل من تأيم..
- وأن الرجل لم يكن يجد حرجاً في أن يخطب لابنته ويسعى في تزويجها.
- ونلمس مقدار أدب أبي بكر في حفظ السر، وفي الاعتذار من صاحبه.
- ونجد النبي ﷺ حريصاً على إكرام عمر ومصاهرته، وقد ارتبط مع الأربعة الراشدين بأواصر المصاهرة وهي سياسة جيدة في إحكام العلاقات وتقويتها.

وزينب (أم المساكين):

وزينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية، من المهاجرات وقد استشهد زوجها في أحد، واختلفوا في زوجها الذي استشهد: أهو عبد الله بن جحش..؟ أم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب (الذي استشهد في بدر)؟ المهم أنها كانت من المهاجرات ويصل نسبها إلى عبد مناف وأرملة ابن عم - أو عمة - رسول الله ﷺ وكانت معروفة بالطيبة والكرم والعطف على الفقراء.. حتى إنه لا يُذكر اسمها إلا مقترناً بأم المساكين لرحمتها بهم. فأراد النبي أن يكرمها، ويؤويها، فتزوجها في رمضان من السنة الرابعة[1]. فلم تلبث عنده إلا قرابة شهرين ثم ماتت، وقد نالت شرف القرب من النبي وأن تكون إحدى أمهات المؤمنين.

أم سلمة بنت زاد الركب:

أبوها أحد أبناء قريش المعدودين وأجوادهم المشهورين، وقد لقب (زاد الركب) لأنه كان إذا سافر لا يترك أحداً يرافقه ومعه زاد بل يكفي رفقته الزاد. وزوجها الذي مات عنها أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ابن عمة النبي ﷺ - برة بنت عبد المطلب - وأخوه من الرضاعة - أرضعتهما ثوبية - وقد عرفنا بعض

(١) المعلومات الواردة عن زواج حفصة وأم المساكين مأخوذة من كتاب (تراجم سيدات بيت النبوة): الدكتورة بنت الشاطئ، ص ٣٠٠، ٣١٦.

أخبارها في هجرتها وجهادها. عن أم سلمة قالت: أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سررت به، قال: «لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول: اللهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها إلا فعل به» قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت: اللهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها. ثم رجعت إلى نفسي فقلت: من أين لي خير من أبي سلمة؟ فلما انقضت عدتي استأذن علي رسول الله ﷺ وأنا أدبغ إهاباً لي، فغسلت يديَّ من القرظ وأذنت له، فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف فقعد عليها فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله ما بي ألا تكون بك الرغبة، ولكني امرأة بي غيرة شديدة فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السِّن وأنا ذات عيال. فقال: أما ما ذكرت من الغيرة فسيذهبها الله عنك، وأما ما ذكرت من السِّن فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي، فقالت: قد سلمت لرسول الله ﷺ. فقالت أم سلمة: فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه رسول الله ﷺ[1].

تتأمل هذه الزيجات الثلاث المتقاربة - خلال أشهر - وكيف كانت تتم ببساطة وفيها روح المواساة والتكافل.. وفيها التكريم للمهاجرات المجاهدات وقد استشهد أزواجهن.. فما أعظم أن ينعمن بعشرة النبي في الدنيا ويحشرن معه في الآخرة.. ويستمتعن بهذا المركز المرموق في الأمة (أمهات المؤمنين).. إننا - أبناء هذا العصر - نعجب من مسارعة النبي ﷺ في الزواج منهن.. وسنعجب أيضاً من عددهن.. ولكن الأمر كان متناسباً تماماً مع روح ذلك العصر. ولم ينتقده أعداؤه في ذلك العصر على عدد زيجاته. بل ربما كانوا يتمنون مصاهرته لأنه (كفء كريم) كما قال أبو سفيان عندما سمع بزواجه من ابنته أم حبيبة فيما بعد..

---

(١) البداية والنهاية، ٤/٩١.

ولقد نزلت الآيات تبيح للنبي ﷺ أن يتزوج من شاء من المؤمنات لما كان يتحقق في ذلك من مصالح فردية واجتماعية كثيرة:

١ - فلقد كان يكرم أصحابه ويربطهم إليه أكثر بمصاهرتهم.

٢ - ولقد كان يكرم المجاهدات برفعهن إلى هذه المنزلة ويعلم أصحابه كيف يكون التكافل الاجتماعي مع من فقد المعيل في مجتمع لم يعرف بعد أسلوب الضمانات والتكافل الحديث.

٣ - وكان يكسر عداوة القبائل، ويتودد إليهم بمصاهرتهم.

٤ - وكان يجهز للأمة معلمات يصبحن مرجعاً في الفقه والفهم والزهد.

ولعل النبي ﷺ كان يبحث بينهن عن واحدة تسد فراغ خديجة (﵂)، لكنهن كلهن لم يستطعن أن يفعلن ذلك، ويبدو ذلك في غضب النبي ﷺ عندما عبرت عائشة عن غيرتها من خديجة.. (ما تذكر من عجوز أبدلك الله خيراً منها.. لقد كانت.. وكانت). ولا بد أن نذكر أن كل امرأة كانت تتمنى أن تنال ما نلن من صحبة النبي ﷺ في الدنيا والآخرة على الرغم من كل التقشف في بيت النبي وأن زوجات النبي ﷺ عندما خيرن.. اخترن الله ورسوله وترفعن عن الدنيا.

* * *

هل نقرا كتب اهل الكتاب؟

وفي سنة أربع أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب يهود. فثبت عنه في الصحيح أنه قال: تعلمته في خمسة عشر يوماً[1].

هل يقصد أنه قرأ لغة اليهود وتعلمها في خمسة عشر يوماً - أي تعلم اللغة العبرية -؟

أم يقصد أنه قرأ التوراة وتعلمها في تلك المدة؟

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٩١.

وفي الحالين نجد النبي ﷺ حريصاً على أن يكون في أصحابه من يعرف لغة اليهود وعلومهم.. وما في كتابهم المقدس. وهو أمر يستنكره بعض المسلمين وقد يستشهدون بأحاديث أخرى يستوحون منها نهياً عن قراءة كتب أهل الكتاب.

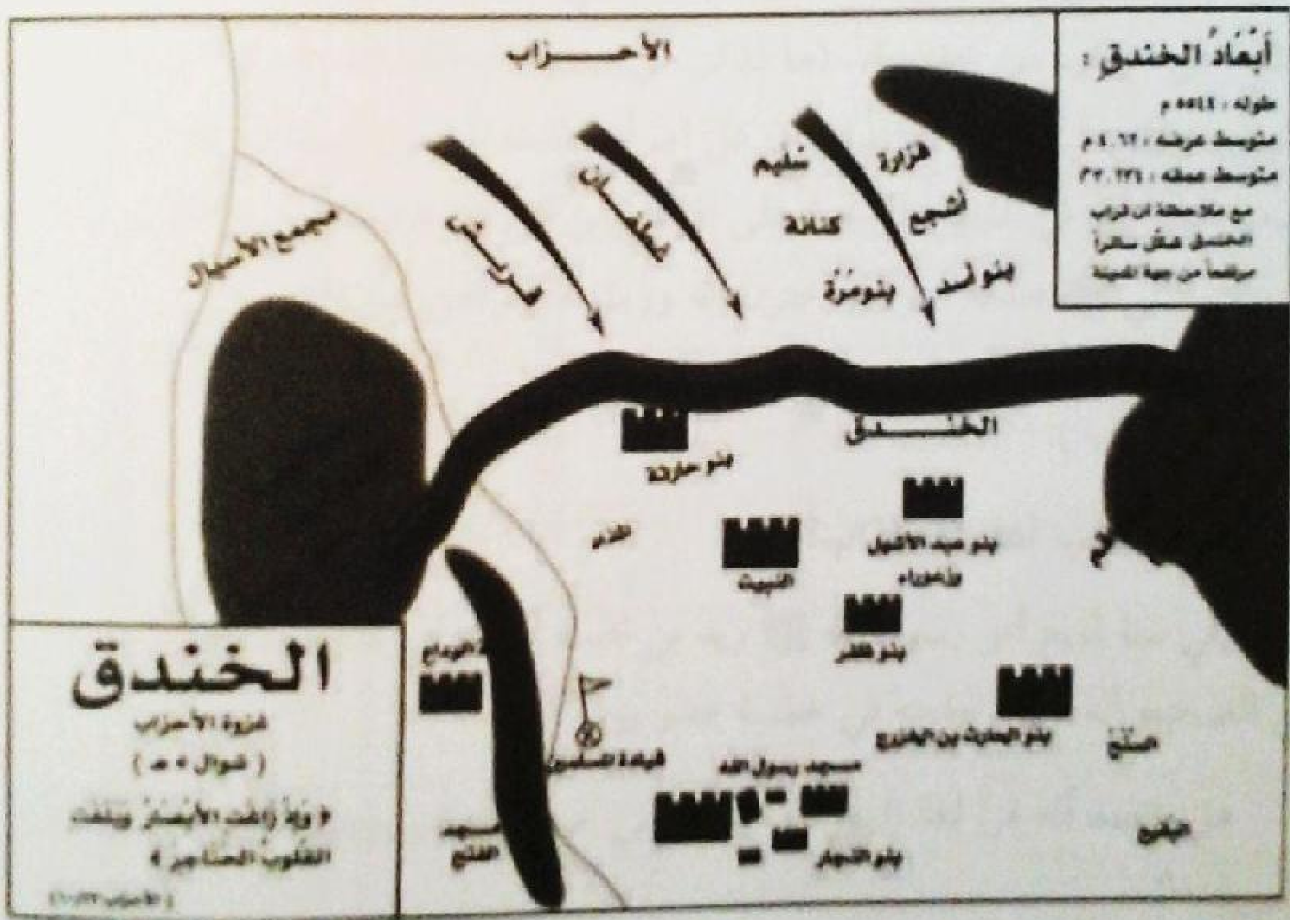
ولكن الأحاديث ينبغي أن تدرس ضمن ظروفها ومناسباتها وإلا وقعنا في تعارض بعضها مع بعض.

إن من درس القرآن وتشبع بروحه يقدر على الإفادة من كل كتاب آخر يقع بين يديه.. فكيف بكتب أهل الكتاب وكثير مما فيها يؤيد معاني القرآن..؟!

إن الحَجْر الفكري لا ينتج إلا عقولاً محدودة لا تدرك قيمة قرآنها. وعباد الله ليسوا هم الذين لا يقرؤون إلا القرآن وإنما هم ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ، ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٣٩/ ١٧-١٨].

• • •

٩- الأحزاب وحفر الخندق



خريطة غزوة الخندق

دور اليهود في تحزيب العرب

وذلك أن نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق النضري وحيي بن أخطب النضري وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق و... في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه، فهم الذين أنزل الله فيهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤/٥١-٥٢] فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا لذلك واتعدوا له[١]. ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاؤوا غطفان.. فدعوهم إلى حرب النبي ﷺ وأنهم يكونون معهم عليه وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك، فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان.. وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن.. والحارث بن عوف في بني مرة، ومسعر بن رخيلة.. فيمن تابعه من قومه من أشجع. فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة. قال ابن هشام: يقال إن الذي أشار به سلمان. فعمل فيه رسول الله ﷺ ترغيباً للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون وتخلف طائفة من المنافقين يعتذرون بالضعف، ومنهم من يتسلل خفية بغير إذنه ولا علمه ﷺ.

* * *

(١) أي تواعدوا.

دأب على الجهد برغم الجوع

فعمل المسلمون فيه حتى أحكموه[١].. وصاروا يرددون رجزاً.

يقول أنس: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم. فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: «اللهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة». فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا[٢]

وعن البراء قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدة بطنه وكان كثير الشّعر. فسمعته يرتجز بكلمات عبد الله بن رواحة:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

ثم يمد صوته بآخرها[٣].

ويقول جابر: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب فعاد كثيباً أهْيَل أو أهيم. فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر فعندك شيء؟ قالت: عندي شعير وعَناق،

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٩٥.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه البخاري.

فذبحت العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة. ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج فقلت: طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان. قال: كم هو؟ فذكرت له، فقال: كثير طيب، قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي، فقال: قوموا. فقام المهاجرون والأنصار. فلما دخل - أي جابر - على امرأته قال: ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم. قالت: هل سألك؟ قلت: نعم. فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمّر البرمة والتنور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه، ثم ينزع. فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية. قال: كلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة[(١)].

وفي رواية أنهم عند حفر الخندق كانوا يؤتون بملء كفي - كف الراوي - من الشعير فيصنع لهم بإهالة سنخة توضع بين يدي القوم والقوم جياع، وهي بشعة في الحلق ولها ريح منتن[(٢)].

وعن سلمان الفارسي قال: ضربت في ناحية من الخندق فغلظت علي صخرة ورسول الله ﷺ قريب مني، فلما رآني أضرب، ورأى شدة المكان عليَّ نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى. ثم ضرب الثالثة فلمعت برقة أخرى. قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: أوَقد رأيت ذلك يا سلمان؟ قلت: نعم. قال: أما الأولى فإن الله فتح عليَّ باب اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح عليَّ باب الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح عليَّ بها المشرق[(٣)] مما جعل المسلمين يستبشرون. بينما قال المنافقون: يعدنا كسرى وقيصر ونحن لا نأمن

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه البخاري. ولا ننسى أن الوضع النفسي يجعل الإنسان يكتفي بالقليل من الطعام.
(٣) رواه ابن إسحاق.

أن نبرز إلى بيوتنا.. فنزل فيهم قول الله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ١٢].

حدث ذلك في شوال من السنة الخامسة للهجرة. وذكر أن سلمان الفارسي هو الذي أشار بحفر الخندق. وقد حفر على جهة واحدة من المدينة جبل سلع وحرات (صخور بركانية يصعب القتال فيها)، وكانت سائر جهات المدينة محمية بجبال وحرات إلا منفذاً واحداً يُقيم عنده بنو قريظة، وكان بينهم وبين النبي ﷺ عهود محكمة فأمنوهم. وحفر الخندق بطول ١٢٠٠٠ ذراع وقدر عرضه بتسعة أذرع إلى ما فوقها وعمقه سبعة أذرع إلى عشرة. وأنجز حفرة في ما بين تسعة إلى عشرة(١) وذلك في شوال من السنة الخامسة.

وذكر في تاريخ ابن كثير أن رسول الله ﷺ قسم الحفر على المسلمين حيث كلف كل عشرة رجال بحفر أربعين ذراعاً.

حين نعيد النظر في الأحداث نقف على النقاط التالية:

- نتعجب من كيد اليهود وحقدهم على المسلمين.. إلى درجة أن يقولوا لعباد الأصنام: دينكم خير من دين محمد؟! ولو كانوا يعقلون لكانوا أسبق الناس إلى ما عرفوا من الحق فنالوا عز الدنيا والآخرة.

لقد دفعهم التشبث بمصالحهم الدنيوية إلى الجحود بمحمد ﷺ ودينه، ولكن مصالح الدنيا تمشي وراء الحق في نهاية المطاف، وإن ظن كثيرون في البداية أنه خيار صعب بين الدنيا والحق.. فهل نعزو موقفهم هذا إلى جهل بسنة التاريخ إضافة إلى ضعف صلتهم بالله وإخلاصهم له؟!

- هل يأتي يوم ينتهي فيه كيد الخبثاء؟ لقد أخذ الشيطان على نفسه عهداً بالكيد للناس إلى يوم الدين، ولن ينتهي وجود الخبثاء والماكرين في الأرض. وليست العلّة فيهم.. بل فيمن ينخدع بهم.. بل إن وجودهم ضروري؛ لأنه في

(١) أطلس التاريخ العربي الإسلامي: [illegible] ٣.

كثير من الأحيان يمثل (التحدي المناسب) الذي يحرك الحضارة نحو التقدم والابتكار. فالمؤرخ توينبي يرى بأن الحضارات تبدأ حين تتحرك للرد على تحدٍّ ما (أي العقبات والمكائد التي تدبر من الأعداء) ورحمة الله على مالك بن نبي الذي قال إن الاستعمار كان له فضل علينا لأنه أزعج نومنا واضطرنا لليقظة(١).

- تعود الناس أن يحكموا مذهب (ميكيافيلي) في السياسة.. فالغاية تبرر الواسطة. وهكذا تلاعب اليهود بالحقائق، لكن المسلمين تمنعهم قيمهم من سلوك هذا المسلك.. فالحق فوق الجميع. ولهذا لم يكذب جعفر في جوابه للنجاشي عن حقيقة عيسى.. لكنه اختار الجواب الأنسب لهم.

سمع رسول الله ﷺ مشورة سلمان الفارسي في حفر الخندق، وهو أمر لم تكن العرب تعرفه، وعلى الرغم من غرابة هذا الأمر فإن النبي ﷺ فكر فيه ورأى فيه حماية للمدينة من جحافل المشركين. وهو درس للمسلمين في القدرة على الاقتباس من الأمم الأخرى والانتفاع بخبراتها، ودرس في تعلم أساليب جديدة.

- ودرس في القدوة.. فرسول الله ﷺ يشترك معهم في الحفر وينشد معهم الرجز الذي فيه رفع لمعنوياتهم، فإذا اعترضتهم صخرة واستعصت عليهم سارع لمعونتهم..

يجوع معهم ويعصب بطنه بالحجارة، فلما دعاه جابر للطعام يجدها فرصة لإطعام أصحابه.. ويكون ﷺ آخر من يأكل.

- وما أعظم تبشيره لهم في هذه اللحظات العصيبة بانتشار الإسلام في المشرق والمغرب. وكيف كان هذا برداً وسلاماً على قلوب المؤمنين بينما كان مثار ارتياب وتكذيب من المنافقين. فرسول الله ﷺ يمارس رفع معنويات أصحابه لما لذلك من أثر في شحذ طاقاتهم واستخراجها.

---

(١) شروط النهضة، دار الفكر، ط٤، ١٩٨٧م، ص١٥٣.

دقة تخطيط النبي في حفر الخندق

- نتأمل تخطيط النبي ﷺ لحفر الخندق:

١ - فهو يدرس جهات المدينة كلها ويختار المنطقة التي يجب حفر الخندق فيها.

٢ - تقاس الأطوال اللازمة للحفر طولاً وعرضاً وعمقاً.

٣ - يُقسم طول الخندق كل أربعين ذراعاً يشتغل فيه عشرة.

وهكذا حفر الخندق ثلاثة آلاف صحابي وأنجزوه في عشرة أيام وهم في حالة جوع وبرد.. فما أعظم قدرة النبي على تحريك الطاقات الإنسانية واستثمارها بشكل منظم.

وأما المنافقون فقد تملصوا وتسللوا وأطلقوا ألسنتهم بالتخذيل.. لكن قلوب الصحابة كانت أقوى من هذا البلاء.

* * *

كلما عاهدوا عهداً نبذوه

﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٠]

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة.. في عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نَقمى إلى جانب أحد. وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذراري والنساء فجعلوا فوق الآطام. واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

ولما نزل الأحزاب حول المدينة أغلق بنو قريظة حصنهم دونهم. وخرج حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقدهم وعهدهم، فلما سمع به كعب أغلق حصنه دون حيي فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه: ويحك يا كعب افتح لي. قال: ويحك يا حيي إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً. قال: ويحك افتح لي أكلمك. قال: ما أنا بفاعل. قال: والله إن أغلقت دوني إلا خوفاً على جشيشتك (طعام من البر يطحن غليظاً) أن آكل معك منها.. فأحفظ الرجل ففتح له. فقال: ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طامٍ (مرتفع الأمواج)، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال. وبغطفان على قادتها وسادتها، وقد عاهدوني وعاقدوني على ألا يبارحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه. فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر، وبجَهام قد هراق ماؤه، فهو برعد ويبرق ليس فيه شيء ويحك يا حيي! فدعني وما أنا عليه فإني لم أرَ من محمد إلا صدقاً ووفاء.

فلم يزل حيي يفتله بالذروة والغارب (يخاتله ويراوغه) حتى سمع له على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً، لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك. فنقض كعب عهدَه وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ[١].

* * *

يتحسس اخبار اليهود

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبر وإلى المسلمين، بعث ﷺ سعد بن معاذ (سيد أوس) وسعد بن عبادة (سيد الخزرج) ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير، فقال: انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص١٩٠.

حقاً فالحنوا لي (أي أشيروا في الكلام) لحناً أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس.

فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم فيما نالوا من رسول الله ﷺ. وقالوا: من رسول الله! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد!.. فجعل سعد بن عبادة يشاتمهم، فقال سعد بن معاذ: إنا والله ما جئنا لهذا ولما بيننا أكبر من المشاتمة. ثم ناداهم (سعد بن معاذ) فقال: إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يا بني قريظة وأنا خائف عليكم مثل يوم بني النضير أو أمرّ منه.. (فردوا عليه رداً فاحشاً) فقال: غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن، ثم أقبل السعدان ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه ثم قالوا: عضل والقارة، (أي كغدرهم بأصحاب الرجيع)، فقال ﷺ: الله أكبر! أبشروا يا معشر المسلمين، ثم تقنع رسول الله ﷺ بثوبه حين جاءه الخبر، فاضطجع ومكث طويلاً فاشتد على الناس البلاء والخوف حين رأوه اضطجع. وعرفوا أنه لم يأته عن بني قريظة خير.. ثم إنه رفع رأسه وقال: أبشروا بفتح الله ونصره[(١)].

نمضي في تأمل الأحداث:

- ها هو رسول الله ﷺ يخطط لكل شيء، فينتقي الموضع الذي يعسكر فيه ويعطي ظهره للجبل (سلع) ويتربص بالخطر المحدق من جميع الجهات (راجع الخريطة في أطلس التاريخ العربي الإسلامي للدكتور شوقي أبو خليل). فعن يساره المشركون وبينه وبينهم الخندق، ومن أمامه المنافقون يجوسون في أطراف المدينة ويرجفون بما يثبط الناس، بينما تجثم حصون بني قريظة عن يمينه.. ولم يعطهم ظهره لأنه يخشى غدرهم، ويأمر بجعل النساء والأطفال في الحصون، ويعهد لابن أم مكتوم القيام بشؤون المدينة.

---

(١) البداية والنهاية، ٤/١٠٣ - ١٠٤.

- أتعجب من دأب حيي بن أخطب في محاولته إقناع كعب بن أسد.. بل إنه يعرف نقطة الضعف في كعب فيدخل إليه بمفتاح الخوف من الاتهام بالبخل. ثم يتحدث ويداور ولا يكلُّ ولا يملُّ حتى يقنع الرجل بالغدر..!! هل يتصف أهل الحق بمثل هذه الفنية والدأب في الدخول إلى الناس..؟!

- وانظر إلى كعب كيف يكرر اعترافه بوفاء محمد ﷺ، وصدقه في الالتزام بالعهود..! وهو أمر يثقل ضمير كعب ويجعله يستهجن نقض العهد رغم عداوته لمحمد ﷺ.. هذا إلى إدراكه لعواقب الأمور (جئتني والله بذل الدهر)، ويبدو أنه كان أكثر علماً من حيي بسنة الله في إهلاك الأمم.. لكن علمه كان أضعف من أن يصمد أمام فنيّة حيي وإغراءاته..

- حرص النبي ﷺ على معنويات أصحابه فهو يوصي السعدين حين يرسلهما لاستطلاع أمر بني قريظة بكتمان الخبر إن كان غدراً وأن يستعملوا الإشارة في إخباره.

- تأمل موقف سعد في إدراكه وأخلاقيته: - ما جئنا للمشاتمة.. ونصحه لليهود: - أخاف عليكم مثل يوم بني النضير أو أمرَّ منه.. وحين يقابل فحشهم بقوله: غير هذا كان أجمل بكم وأحسن.. ذاك هو النموذج الذي صنعه القرآن وربّاه محمد ﷺ بالقدوة والتوجيه.

- لقد ثقل الأمر على رسول الله ﷺ رغم أنه بادر إلى تبشير المسلمين. فلقد أصبح الحال كما وصف الله تلك الغزوة ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ١٠]. لكن فهم سنة الحياة والابتلاء تثبت المؤمنين وترسخ أقدامهم في مواجهة المحن ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢٢]. فهم يدركون أن تغيير الأفكار والأديان والأعمال يستقطب عداء الناس لكن سنة الله ماضية ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا

يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرعد: ١٣/١٧]. لقد وعدهم الله إن ثبتوا ونصروا دين الله - مهما كانت جحافل أعدائهم - أن ينصرهم ويثبت أقدامهم.

ولا بد أن نتذكر هنا حديث المفكر المرحوم مالك بن نبي عن العقبات والصعوبات التي تعترض الأمة، وأنها مؤشر جيد؛ لأنها تحرك الأمة وتخرجها من نومها.. ولقد تحدث المؤرخ توينبي في دراسته التاريخية عن الحضارات.. عن أهمية وجود العقبات لأنها التحدي الذي يحرك إبداع النخبة ويحرك الحضارة نحو القمة[1] ..﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [النور: ٢٤/١١]. وإن المصيبة التي لا تقصم ظهرك تزيدك قوة.. لأنها تعطيك خبرة واقتداراً أكبر على استخدام الفكر والطاقة. ولا بد أن ينحسر القديم البالي الضار أمام الجديد المتفتح النافع للناس.

* * *

محاولة لتخفيف العبء

وأقام رسول الله ﷺ مرابطاً، وأقام المشركون يحاصرونه بضعاً وعشرين ليلة قريباً من شهر، ولم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبل. فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن و الحارث بن عوف المري - وهما قائدا غطفان - وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة. فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل ذلك بعث إلى السعدين فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول الله! أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ فقال ﷺ: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب

---

(١) مختصر دراسة التاريخ، الجزء الأول - الفصل [illegible] المسائل المشقة.

فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما. فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله! قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله، وعبادة الأوثان لا نعبد الله، ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قِرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال النبي ﷺ: أنت وذاك. فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا[١].

- تأمل خوف النبي ﷺ على أصحابه حتى إنه يخشى أنهم قد حملوا فوق طاقتهم. فيفكر في تخفيف العبء عنهم برد غطفان عن حصارها.

- لكنه ﷺ لا يبرم أمر الصلح حتى يشاور سيّدي الأوس والخزرج لأن الخطر يهدد مدينتهم وأموالهم وعيالهم.. ولا يستشير المهاجرين؛ لأن الخطر يمس الأنصار أكثر..

- وانظر إلى أدب المؤمن حين يسأل: هل هذا أمر من الله؟ أو أمر الرسول؟ أم هو التفكير في مصالحنا..؟

- وانظر إلى الجرأة في مخالفة رأي الرسول ﷺ بعد أن تبين لهما قصد النبي ﷺ، وكان الرفض الشجاع لصلح يُفسّر على أنه ضعف وذل.. والرضى بحكم الله واليقين بما عنده من نصر وأجر للثابتين الصابرين.

- وكان في ذلك كله تخذيل للأحزاب إذ شعروا أن المسلمين لن يتأثروا بالحصار، وأن الثبات على الجهاد هو اختيارهم وليس مفروضاً عليهم..

* * *

(١) البداية والنهاية، ٤/١٠٤ - ١٠٥.

لقطات مضيئة..

وسط ظلمات الشرك والغدر.. ووقاحة النفاق وتخبطه.. تطل علينا صور وضيئة لرجال ونساء صدقوا ما عاهدوا الله عليه.. أذكر بعضها دون تعليق:

- ها هي ثلة من فرسان قريش فيهم: عمرو بن عبد ود، وعكرمة بن أبي جهل.. يمرون على منازل لبني كنانة ويقولون: تهيؤوا يا بني كنانة للحرب فستعلمون من الفرسان اليوم، ثم أقبلوا تُعنق بهم خيلهم (أي تسرع) حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها. ثم تيمموا مكاناً من الخندق ضيقاً، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه، فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع. وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم.. وكان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أحد. فخرج يوم الخندق معلماً - ليُرى مكانه - فلما خرج قال: من يبارز؟ فبرز له علي ﷺ فقال له: يا عمرو! إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه، قال: أجل. قال علي: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك. قال: فإني أدعوك إلى النزال، قال له: لِمَ يابن أخي فوالله ما أحب أن أقتلك، قال علي: لكني والله أحب أن أقتلك، فحمي عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه، فقتله علي. وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة[1].

وفي رواية أن النبي ﷺ قال لعلي عندما طلب عمرو المبارزة: إنه عمرو، اجلس، ثلاث مرات، قال علي عند الثالثة: وإن كان عمراً؟! وبعث المشركون إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفته بعشرة آلاف.. فقال ﷺ: هو لكم لا نأكل ثمن الموتى[2].

---

(١) البداية والنهاية، ٤/١٠٥.
(٢) البداية والنهاية، ٤/١٠٧.

- ويتحدث عبد الله بن الزبير عن ذكرياته عن ذلك اليوم.. فيقول: جُعلت يوم الخندق مع النساء والصبيان في الأطم - وكان عمره في الخامسة تقريباً - ومعي عمرو بن أبي سلمة فجعل يطاطئ لي فأصعد على ظهره فأنظر. فنظرت إلى أبي وهو يحمل مرة ها هنا ومرة ها هنا فما يرتفع له شيء إلا أتاه. فلما أمسى جاءنا إلى الأطم، قلت: يا أبت رأيتك اليوم وما تصنع. قال: ورأيتني يا بني؟ قلت: نعم. قال: فدى لك أبي وأمي[١]..

وهكذا كان الأطفال يتلقون الدروس العملية في الجهاد والبذل من آبائهم..

- وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تحدثنا عن يوم الخندق وكانت في حصن بني حارثة - وهو من أحرز حصون المدينة - وكانت أم سعد بن معاذ معها في الحصن. تقول: وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب.. مر سعد وعليه درع مقلصة قد خرجت منها ذراعه كلها وفي يده حربته يرفل بها ويقول:

لَبِّث قليلاً يشهد الهيجا جَمَل ... لا بأس بالموت إذا حان الأجل

فقالت له أمه: الحق بنيّ فقد والله أخرت..!! فقلت لها: يا أم سعد، والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي، وخفت عليه حيث أصاب السهم منه.. فرمي بسهم قطع منه الأكحل.. فقال سعد: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهد من قوم آذوا رسولك، وكذبوه وأخرجوه. اللهم! وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة[١]. وقد استجاب الله دعوته.

- وكانت صفية بنت عبد المطلب في فارع - حصن حسان بن ثابت - قالت: وكان حسان معنا فيه مع النساء والصبيان، فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ وليس

(١) البداية والنهاية، ١٠٨/٤.

بيننا وبينهم أحد يدفع عنا، ورسول الله ﷺ والمسلمون في نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إذا أتانا آت.. فقلت: يا حسان! إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا مَن وراءنا من يهود، وقد شغل رسول الله ﷺ وأصحابه فانزل إليه فاقتله. قال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا.. (ربما لا يتقن قتالاً إلا باللسان) فلما قال لي ذلك، ولم أرَ عنده شيئاً احتجزت (جمعت ثيابي حولي) ثم أخذت عموداً ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلته. فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت: يا حسان انزل فاستلبه فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل، قال: ما لي بسلبه حاجة يابنة عبد المطلب[(١)].

- وشغل المسلمون عن صلاة العصر بمقاتلة المشركين لهم يومها حتى قال ﷺ: «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس»[(٢)] فصلوها بعد غياب الشمس، وهذا دليل على أن صلاة الخوف لم تكن قد شرعت قبل الخندق.

- ولجأ المسلمون إلى نبيهم: يا رسول الله هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر..! قال ﷺ: «نعم، اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا»[(٣)].

ووقف ﷺ يدعو ربّه بعد أن أدى كل ما يقدر عليه من أسباب: «اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب. اللهم اهزمهم وزلزلهم»[(٤)].

* * *

(١) المصدر نفسه، ١٠٨/٤ - ١٠٩.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه الإمام أحمد.
(٤) ثبت في الصحيحين.

سلطان الذكاء..

ثم إن نعيم بن مسعود - من غطفان - أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت. فقال ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد فخذِّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة» فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديماً في الجاهلية فقال: يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم. قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم. فقال: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم ونساؤهم وأموالهم بغيره فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهائن من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه، قالوا: أشرت بالرأي. ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت علي حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا عني. قالوا: نفعل. قال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين - قريش وغطفان - رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى تستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم. فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً، ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال: يا معشر غطفان إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إلي ولا أراكم تتهمونني؟ قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم. قال: فاكتموا عني. قالوا: نفعل. ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم. فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان من صنيع الله تعالى لرسوله ﷺ أن أرسل

أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقال لهم: إنا لسنا بدار مقام، هلك الخفّ والحافر، فأعدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه؛ فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابهم ما لم يخفَ عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه، فقالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق. فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة: إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق، ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم، فأرسلوا إليهم: إنا والله ما نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً، فأبوا عليهم، وخذل الله بينهم، وبعث الله الريح في ليلة شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم[١]..

وهكذا نجح عقل واحد في فكّ عرا ثلاثة جيوش بعضها عن بعض.. فانظر إلى سلطان الذكاء الإنساني واقتداره.. لقد قام نعيم بما يسمى الآن (حرباً معنوية أو (غزواً فكرياً).. وما زال هذا العلم ينمو ويزدهر في عصرنا حتى أصبحت الدول القوية تعتمد عليه في السيطرة على ثروات الأمم الأخرى واستعمارها.. وكتب فيه المفكر الجزائري مالك بن نبي كتابه الرائع (الصراع الفكري في البلدان المستعمرة).

* * *

(١) البداية والنهاية، ٤/١١١ - ١١٢.

أرسل حكيماً.. ولا توصه

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم أراد أن يعرف أخبارهم، وما يدبرون من أمر فاختار حذيفة بن اليمان لهذه المهمة. واسمع إلى حذيفة يخبرنا الخبر، وقد سأله رجل من أهل الكوفة: يا أبا عبد الله، أرأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟ قال: نعم يابن أخي. قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد. فقال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا. فقال حذيفة: يابن أخي، والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وصلى رسول الله ﷺ هوياً من الليل (قطعة من الليل). ثم التفت إلينا فقال: من رجل يقوم فينظر ما فعل القوم ثم يرجع - يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة - أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة؟ فما قام رجل من القوم من شدة الخوف والجوع والبرد. فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال: يا حذيفة! اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون، ولا تُحدثنَّ شيئاً حتى تأتينا! فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل: لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء. فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ من جليسه؟ فقال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي فقلت: من أنت؟ قال: فلان ابن فلان[1]، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ إليَّ: ألا تحدث شيئاً حتى تأتيني.. ثم شئت لقتلته بسهم. فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط (كساء) لبعض نسائه مراجل (ضرب من وشي اليمن)،

---

(١) في شرح المواهب: فضربت بيدي على يد الذي عن يميني فأخذت بيده فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان. ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص.

فلما رآني أدخلني إلى رجليه وطرح عليَّ طرف المِرط، ثم ركع وسجد وإني لفيه، فلما سلَّم أخبرته الخبر(١).

وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم. ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة.

نعود لنتأمل الخبر وننظر في أوله فلا نتمالك من الابتسام والرجل يقول لحذيفة: (لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض..) ليس من سمع الأخبار كمن عاشها، وكثيراً ما نبخس الناس قدرهم لأننا لا نحاول وضع أنفسنا في مكانهم وزمانهم وظروفهم.

وكثيراً ما ننخدع بأنفسنا ويصور لنا حماسنا الخيالي أننا قادرون على البطولة، وأن حبنا للنبي ﷺ أعظم وبذلنا من أجله يمكن أن يكون أكثر.. إن الحماس فارغ إن لم يجرب المعاناة، وما تحتاج إليه من صبر والزام للنفس، وما أكثر الذين يتكلمون.. وما أقل الذين يعملون..

- وها هو حذيفة يحاول نقل صورة من صور المعاناة في يوم الخندق.. ورسول الله يطلب رجلاً ليعرف أخبار القوم ويضمن له الصحبة في الجنة.. فلا يقوم أحد من شدة الخوف والتعب والجوع والبرد، وعندما يحدد النبي ﷺ حذيفة ويختاره للمهمة.. يقوم متثاقلاً يجر نفسه جراً..

- نتأمل تعليمات النبي ﷺ الواضحة:

١ - ادخل في القوم كأنك منهم.

٢ - انظر ماذا يصنعون وماذا يدبرون؟

٣ - لا تفعل شيئاً آخر (لا تحدث أمراً حتى تأتينا).

- وانظر إلى سرعة البديهة عند حذيفة فهو يبادر الجالسين عن يمينه ويساره بالسؤال: من أنت؟ هذه الحركة الذكية اربكت جارَيْه مع أنهما من

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص١٩٧ - ١٩٨.

دهاة العرب المعدودين (معاوية وعمرو بن العاص) وجعلتهما لا يفكران بسؤاله عن نفسه..

ومرة أخرى.. أقف مبهورة أمام الذكاء الإنساني حين يسخر لنصرة الخير.. بينما يظن الناس أن التقي المتدين ساذج ومغفل، إن التقي ينبغي أن يتفوق بذكائه وعلمه على الآخر؛ لأن تقواه وبعده عن المعاصي يمنحه صفاءً ذهنياً وقوة نفسية، وكل ذلك يجعله في حالة توتر وانتباه. ويعطيه قدرة على المبادرة واغتنام الفرص.

- وننظر إلى دقة حذيفة في الالتزام بوصية النبي ﷺ، فلم يقتل أبا سفيان مع كونه في متناول يده.. وكم نحن بحاجة إلى الالتزام بوصاياه ﷺ في كفّ اليد وكسر السلاح عند الهرج - أي في عصر الفتن - ولا ننسى أن أبا سفيان أصبح من قواد المسلمين بعد ذلك.. وكم في الناس من أمثال أبي سفيان..؟!

- نحس حنان النبي ﷺ على حذيفة الذي عاد من المهمة مقروراً فيدخله بين رجليه أثناء صلاته ويلقي عليه طرف كسائه..

وهكذا ترتد الآلاف المؤلفة وتتراجع أمام تصميم الإيمان وثباته ..﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢٥].

ويعود النبي ﷺ إلى المدينة مبشراً أصحابه: «لن تغزوكم قريش بعد عامهم هذا ولكنكم تغزونهم»[(١)]. عاد مرفوع الرأس في وجه اليهود والمنافقين، مهللاً، ذاكراً نعمة ربه عليه وعلى المسلمين:

«لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده فلا شيء بعده»[(٢)].

---

(١) في رواية البخاري: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا».

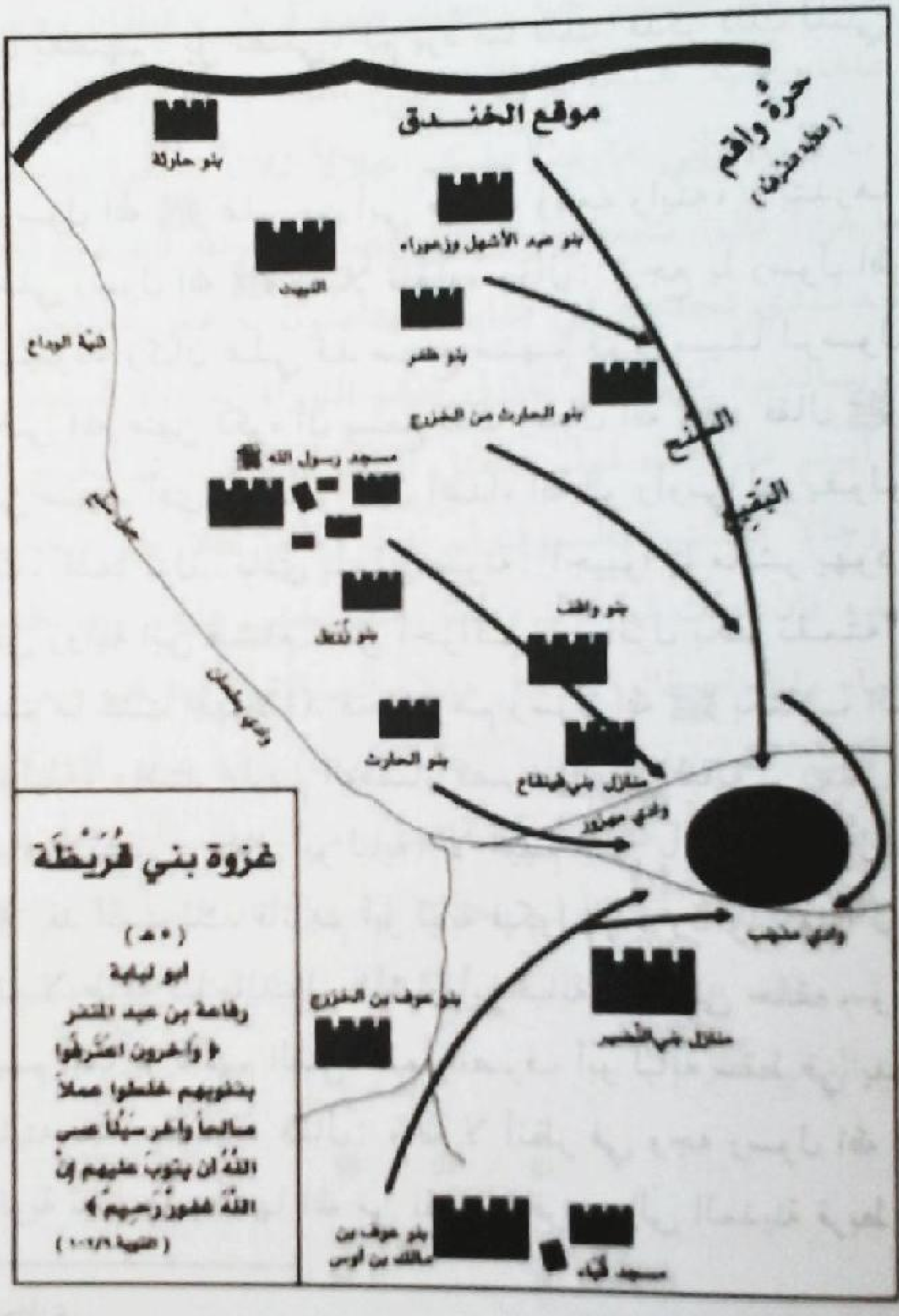
(٢) ثبت في الصحيحين.

وبقي رسول الله ﷺ يذكر نصر الله هذا كلما عاد إلى المدينة من غزو أو حج أو عمرة: يكبر ثم يقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»..

وهكذا يهزم السلاح والعتاد والعدد الكثير.. أمام قوة الإيمان والفكر والذكاء الإنساني، ومن لم يصدق فليسأل التاريخ..! أما من فقد امتيازه في الإيمان والفكر والذكاء.. فإنه ينخرط في اللهاث وراء أعتى الأسلحة ويتلطخ بالدماء تحت رايات جاهلية.. ويتشدق بالجهاد في سبيل الله، أو ينخدع بمن يلوح له به.. ولا ينبغي للمسلم أن يكون خبيثاً ولا مغفلاً. (لست بالخب وليس الخب يخدعني).

* * *

١٠ - وماذا عن بني قريظة؟



خريطة انسحاب الأحزاب والتوجه إلى بني قريظة

التوجه إليهم وظهور الاتجاهين (الاتباع- الاجتهاد):

قالت عائشة رضي الله عنها: لما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل فقال: قد وضعت السلاح؟! والله ما وضعناه! فاخرج إليهم، قال: فإلى أين؟ قال: ها هنا وأشار إلى بني قريظة. فخرج النبي ﷺ[1].

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي العصر حتى نأتيها. وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك. فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحداً منهم[2].

وقدم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ومعه رايته، وابتدرها الناس. فلما رأى علي رسول الله ﷺ مقبلاً تلقاه، وقال: ارجع يا رسول الله فإن الله كافيك اليهود، وكان علي قد سمع منهم قولاً سيئاً لرسول الله ﷺ وأزواجه رضي الله عنهن فكره أن يسمع ذلك رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: أظنك سمعت فيَّ منهم أذى، فامضِ فإن أعداء الله لو رأوني لم يقولوا شيئاً مما سمعت، فلما نزل.. نادى بأعلى صوته: أجيبوا يا معشر يهود يا إخوة القردة (وفي رواية ابن هشام: هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟ قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً!). فحاصرهم رسول الله ﷺ بكتائب المسلمين بضع عشرة ليلة، واشتد عليهم الحصار فصرخوا بأبي لبابة بن عبد المنذر - وكانوا حلفاء الأنصار - فقال أبو لبابة: لا آتيهم حتى يأذن لي رسول الله ﷺ، فقال له ﷺ: قد أذنت لك. فأتاهم أبو لبابة فبكوا إليه، وقالوا: ماذا ترى وماذا تأمرنا؟ فإنه لا طاقة لنا بالقتال. فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه، وأمر عليه أصابعه يريهم أنما يراد بهم القتل. فلما انصرف أبو لبابة سقط في يده، ورأى أنه قد أصابته فتنة عظيمة، فقال: والله لا أنظر في وجه رسول الله ﷺ حتى أحدث لله توبة نصوحاً يعلمها الله من نفسي، فرجع إلى المدينة فربط يديه إلى

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه ابن إسحاق.

جذع من جذوع المسجد. فقال ﷺ حين غاب عليه أبو لبابة: أما فرغ أبو لبابة من حلفائه، فذُكر له ما فعل. فقال ﷺ: لو جاءني لاستغفرت له، وإذ قد فعل هذا فلن أحركه من مكانه حتى يقضي الله فيه ما يشاء[١].

ونزل النبي ﷺ على بئر من آبار بني قريظة، وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف في قلوبهم الرعب، وقد كان حيي بن أخطب دخل معهم حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد بما عاهده عليه. عندها قال كعب بن أسد: يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا بما شئتم منها. قالوا: وما هنَّ؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل وأنه للذي تجدونه في كتابكم فتأمنون به على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره، قال: فإذا أبيتم عليَّ هذه فهلمَّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين بالسيوف لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك لم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء. قالوا: أنقتل هؤلاء المساكين؟ فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم علي هذه، فالليل ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة. قالوا: أنفسد سبتنا، ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عنك من المسخ..؟! فقال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة من الدهر حازماً[٢].

* * *

(١) رواه ابن إسحاق.
(٢) رواه ابن إسحاق.

توبة أبي لبابة

أما أبو لبابة فقد أقام مرتبطاً ست ليال تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله حتى يتوضأ ويصلي ثم يرتبط حتى نزلت توبته في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢/٩]..[(١)].

وذكر ابن إسحاق أن الله أنزل توبته على رسوله من آخر الليل، وهو في بيت أم سلمة فجعل يبتسم، فسألته أم سلمة فأخبرها بتوبة الله على أبي لبابة، فاستأذنته أن تبشره، فأذن لها، فخرجت فبشرته.. وثار الناس إليه يبشرونه، وأرادوا أن يحلوه من رباطه، فقال: والله لا يحلني منه إلا رسول الله.. فحله عند صلاة الفجر.

نقف قليلاً لنتأمل هذه الأخبار ونلتقط إيحاءاتها.

- يبدو من خبر جبريل أن النبي ﷺ لم يكن عازماً على الانطلاق مباشرة لحرب بني قريظة. فلعله أراد إعطاء فرصة لأصحابه للراحة، أو لعله لم يقرر بعد محاربتهم، لكن الله يعلم أن الإسراع في حصارهم كان هو الأفضل قبل أن يستعدوا ويتحصنوا.

- حين قال لهم رسول الله ﷺ: «لا يصلينَّ أحد العصر إلا في بني قريظة»، ظهر في الصحابة اتجاهان:

١ - المتمسكون بظاهر النص.

٢ - المجتهدون بناء على المقصد.

والرسول ﷺ لم يعاتب أحداً منهم، مما يومئ باحترام التفكير والاجتهاد، واحترام الاختلاف في الرأي ما دام أنه لم يؤد إلى نزاع وتفرق في الكلمة، وعلى هذا فإنه لا يحق لأحد أن يمنع التفكير والاجتهاد بحجة وجود نص في القضية، فقد سمح النبي ﷺ لأصحابه أن يجتهدوا رغم صدور تعليمات صريحة منه ﷺ بل

(١) رواه ابن هشام.

إنه كان أحياناً يترك رأيه ويأخذ بآرائهم حين يكشف الحوار عن صوابية آرائهم (كما حدث مع الحباب بن المنذر يوم بدر).

ومن المؤسف أن يَضعف التيار الثاني الذي يفكر في مقاصد الشريعة ويحاول كشف الموقف الذي يحقق (الخير الأبقى) لأكثر الناس في ظرف معين، وإن تطور الحياة الإنسانية قد أوجد أحوالاً وظروفاً تحتاج إلى تأمل واجتهاد لكشف ما هو أقرب رشداً.

- نرى في الخبر حرص علي ﷺ على ألا يسمع النبي ﷺ ما يسوءه من بني قريظة. ولكن النبي ﷺ أصبح يعرف طبيعتهم ونفاقهم..

- ونتأمل نداء النبي ﷺ لهم (يا إخوة القردة) فلقد كان غدرهم ونقضهم للعهد معه في أحلك الساعات، وكان يذكرهم بما فعل الله بإخوانهم حين نقضوا عهد الله وخالفوا أمره ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٦٥]..

- فاسمع إلى جوابهم: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً..!! ياله من اعتراف بالانحطاط أمام قمة سامقة في الخلق والالتزام ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.. وهو أمر قد شهد به أعداؤه. وكان سبباً في انتصاره واكتساحه للنفوس.

- نتأمل أدب أبي لبابة ورهافة حسه، فهو لا يذهب إلى حلفائه اليهود حتى يأذن له رسول الله ﷺ، وهو دون قصد يشير إشارة توحي بأن النبي ﷺ سيقتلهم.. لكنه لا يغادر مكانه حتى ينتبه إلى فداحة الغلطة التي وقع بها، فيحلف ألا يقابل النبي ﷺ حتى يتوب الله عليه.. ويحكم على نفسه بعقاب قاسٍ.. يلبث فيه عدة ليال.

- والنبي ﷺ يتركه وما اختار من موقف، ولو جاءه لاستغفر له.. ويفرح حين تنزل الآية بقبول توبة أبي لبابة.

وهذه أم المؤمنين أم سلمة تستأذن النبي ﷺ أن تخرج - والوقت آخر الليل - لتبشر أبا لبابة.. والنبي يأذن لها..!! كثيراً ما أحس أمام أخبار السيرة بالدهشة

والعجب؛ فكأنَّ المسلمين لم يقرؤوا هذه الأخبار.. وكأن الصحابة أناس يعيشون في كوكب آخر.. ومن طينة غير طينة البشر.. فلا يجوز لنا أن نقبس من حياتهم وأعمالهم.

- وأتعجب من كعب بن أسد - زعيم بني قريظة - إذ يعرض على قومه متابعة النبي ﷺ ويحلف على أنهم قد تبين لهم أن محمداً هو النبي المرسل الموجود في كتابهم، فهو يعرف الحق، فما الذي يمنعه - إذ رفض قومه - من أن ينضم هو إلى الحق ويؤمن بالنبي ﷺ؟ أهي الرغبة في عدم التخلي عن قومه عند الشدة؟ وانظر إلى رفضهم العجيب (لا نفارق حكم التوراة أبداً).. لكنهم برفضهم قد فارقوا حكم التوراة..!! إنها عينة بشرية من الذين يقرؤون الكتاب ولا يجاوز حناجرهم، هؤلاء الحرفيون المتشبثون بالأشكال والقوالب موجودون في كل عصر وزمان.

ويعيب كعب على قومه: أنهم لا يعرفون الحزم في أمورهم، والحزم هو الوصول إلى قرار والمضي فيه.. لكنه هو أيضاً مصاب بهذا العيب.. ألم يغير رأيه عندما احتال عليه حيي بن أخطب فترك قرار الوفاء إلى الغدر..؟! وما أسهل أن ترى العيب في الآخر.. فهل تقدر على فحص نفسك؟

- وانظر إلى أبي لبابة يتدلل على النبي ﷺ فهو يريد أن ينال شرف فك النبي ﷺ لوثاقه، ورسول الله ﷺ يدلِّله ويكرمه، كيف لا وقد تاب توبة نصوحاً.. فأكرمه الله بالمغفرة..؟!

* * *

نجاة في آخر لحظة..؟

ثلاثة من اليهود ليسوا من بني قريظة ولا من النضير.. هم بنو عم القوم: ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد، أسلموا في تلك الليلة التي نزلت فيها قريظة على حكم رسول الله ﷺ[١] وكان عمرو بن سعدى القرظي يفكر في

(١) البداية والنهاية، ٤/ ١٢١.

الإسلام منذ إجلاء بني النضير، وكان قد اجتمع بوجوه بني قريظة في ذلك اليوم ونصحهم بالدخول في الإسلام حتى قال الزبير بن باطا: (والتوراة لقد قرأت صفته في كتاب باطا، التوراة التي نزلت على موسى، ليس في المثاني التي أحدثنا). وقال له كعب بن أسد: ما يمنعك من اتباعه؟ قال: أنت يا كعب. قال: فلم؟ والتوراة ما حلت بينك وبينه قط، قال الزبير: بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا فإن اتبعته اتبعناه[1]، وكره عمرو أن يصير تابعاً.. فلما كانت ليلة بني قريظة خرج عمرو بن سعدى فمر بحرس رسول الله ﷺ وعليهم محمد بن مسلمة، فلما رآه قال: من هذا؟ قال: أنا عمرو بن سعدى - وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ وقال: لا أغدر بمحمد أبداً - فقال محمد بن مسلمة حين عرفه: اللهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام، ثم خلى سبيله، فخرج على وجهه حتى بات في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة تلك الليلة، ثم ذهب لم يدر أين توجه من الأرض إلى يومه هذا، فذكر شأنه لرسول الله ﷺ فقال: ذاك رجل نجاه الله بوفائه[2].

فانظر إلى الأخلاق كيف تصبح هي الاختيار الأصوب..؟!

لقد نجاه الوفاء، لكن كبرياءه حرمته من أن يذكر في الدهر بالمكرمات، ولو اتبع النبي ﷺ لصار صحابياً جليلاً يقتدى بسيرته العطرة عبر الزمن وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «من تواضع لله رفعه».

* * *

سعد بن معاذ يحكم

فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله إنهم كانوا موالينا دون الخزرج وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت - يعنون عفوه عن بني قينقاع حين سأله فيهم عبد الله بن أبي -

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٨٠.
(٢) المصدر السابق، ٤/ ١٢١.

فقال ﷺ: يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى. قال: فذلك إلى سعد بن معاذ، وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم يقال لها رفيدة في مسجده، وكانت تداوي الجرحى (وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين، وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق: اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعودَه من قريب)[١]. فلما حكمه.. أتاه قومه فحملوه على حمار، وكان رجلاً جسيماً جميلاً ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو أحسن في مواليك فإن رسول الله ﷺ ولاك لتحسن فيهم، قال: قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم.. فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين قال ﷺ: قوموا إلى سيدكم.. فقال سعد: عليكم عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم. قال: وعلى من ها هنا - في الناحية التي فيها رسول الله وهو معرض عنه إجلالاً له - فقال ﷺ: نعم. قال سعد: فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء[٢] فقال رسول الله ﷺ لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة.

وفي رواية أن بني قريظة طلبوا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ[٣] فلما فرغ من قتلهم انفتق عرقه فمات. وكان عددهم ست مئة أو سبع مئة، والمكثر لهم يقول كانوا ما بين الثمان مئة والتسع مئة. وفيهم حيي بن أخطب وقد جيء به وعليه حلة فقاحية (موشاة أو زاهية اللون) قد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة لئلا يسلبها، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: «أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذل الله يُخذل، ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل»[٤] ثم قتل.

---

(١) ما بين القوسين إضافة وردت من تهذيب سيرة ابن هشام، ص٢٠١.
(٢) البداية والنهاية، ١٢١/٤.
(٣) عند الإمام أحمد.
(٤) المصدر السابق، ١٢٥/٤.

تأمل موقف حيي وحقده على النبي ﷺ وتصميمه على عداوته، وسوء فهمه لقدر الله وخذلانه، إن هذا يفسر قول النبي ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله». فهناك أمراض مستعصية لا دواء لها إلا الاستئصال، ولقد أتيحت لأحد كبار بني قريظة فرصة للنجاة وهو الزبير بن باطا - الذي ذكرنا شهادته قبل قليل بأن محمداً ﷺ هو النبي المذكور في التوراة - فقد أراد ثابت بن قيس أن يكافئه فقد كان الزبير قد منَّ على ثابت في يوم بعاث - قبل الإسلام - فطلب من النبي ﷺ أن يطلقه فأطلقه له، فقال الزبير: شيخ كبير لا أهل ولا ولد فما يصنع بالحياة؟ فاستطلق ثابت من النبي أهله وولده فأطلقهم له، ثم طلب إطلاق ماله من النبي فأطلقه له، لكن الزبير حين علم بقتل أشراف قومه قال: أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير فما أنا صابر حتى ألقى الأحبة[1].!! فالأشخاص أعظم شأناً عنده من الحق، ومن الله ورسوله.

- لقد كان هذا هو حكم الله المناسب لحالة هؤلاء في ذلك العصر وضمن تلك الظروف، ولو تركوا لاستمروا في الكيد والنقض والغدر. ولم يكن رسول الله ﷺ مع كل ذلك يخيب رجاء في العفو والإطلاق، فهذه سلمى بنت قيس تسأل رسول الله ﷺ أن يطلق رفاعة بن شموال - وكان قد لاذ بها - وقالت: يا رسول الله! إن رفاعة يزعم أنه سيصلي ويأكل لحم الجمل، فأجابها إلى ذلك وأطلقه[2].

لقد اختار بنو قريظة مصيرهم بأيديهم، ولقد حكم فيهم من اختاروه من حلفائهم: سعد بن معاذ، وحكم فيهم بما يناسب ذلك العصر وتلك الظروف، وما كان أحد ليتعاطف معهم بعدما فعلوا.. ولم تكن رغبة الأوس في التوسط لهم تعاطفاً معهم، بل كانت نوعاً من التنافس مع إخوانهم الخزرج الذين سبق لهم أن شفعوا.

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ١٢٥.

(٢) المصدر السابق، ٤/ ١٢٦.

أول مركز إسعاف تؤسسه رفيدة

- وأتأمل ما ذكر عن الصحابية رفيدة وخيمتها في المسجد التي تداوي بها الجرحى، لقد كانت نواة لأول مستشفى في العالم الإسلامي.. وقد وقفت نفسها على الخدمة المجانية لكل من يحتاج إلى علاج أو رعاية. إنها المرأة.. أول من يتوجه إلى الأعمال الإنسانية، ولقد أحاط التاريخ شخصية (فلورنس نايتنجيل) بهالة من الجلال والنور لسعيها في إسعاف الجرحى وتأسيس مراكز رعايتهم، ولكن من يذكر رفيدة المؤمنة التي نصبت خيمتها لكل قاصد، ووقفت حياتها على البر وعلاج الجرحى.. فما أشد تفريطنا بتاريخنا وتقصيرنا بحق عظمائنا الذين لم نعرفهم ولم نعرّف العالم عليهم.

* * *

وامرأة عجيبة!!

وعلى النقيض من ذلك نجد امرأة من بني قريظة تفردت بمصير خاص. تقول عائشة أم المؤمنين: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة.. والله إنها لعندي تحدّث معي وتضحك ظهراً وبطناً، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق، إذ هتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله. قلت: ها ويلك! ما لك؟ قالت: أقتل. قلت: ولم؟ قالت: لحدث أحدثته[(١)]. وكانت قد طرحت رحى على خلاد بن سويد (من المسلمين) فقتلته، فأخذت به قصاصاً، فكانت عائشة تقول: فوالله ما أنسى عجباً منها: طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل..؟! وصدق الله سبحانه عندما ضرب مثلاً للذين آمنوا على الإيمان بامرأتين وعلى الذين كفروا بامرأتين. فاندفاع المرأة وراء ما تؤمن به جياش ومتوقد، فهي من أفضل الناس إيماناً.. وهي من أسوئهم كفراً، يمكن أن تكون مناراً في أعلى عليين.. ويمكن أن تكون انحطاطاً إلى أسفل سافلين..

ولو أحسنا التوجيه والتوعية لأعطتنا من طاقاتها المعطلة الكثير..

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص٢٠٣.

يا حُسن اللقاء..!

ثم إن سعداً دعا فقال: اللهم! إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك. فانفجر كَلْمه (جرحه) وكان قد برئ.. ورجع إلى قبته (خيمته) التي ضربها عليه رسول الله ﷺ. قالت عائشة: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[١] ويقول جابر: سمعت النبي ﷺ يقول: اهتز العرش لموت سعد بن معاذ[٢].

وعن الحسن البصري: اهتز عرش الرحمن فرحاً بروحه[٣]. وشاركت الملائكة في حمل جنازته، وعن جابر قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال: من هذا العبد الصالح الذي مات؟ فتحت له أبواب السماء وتحرك له العرش؟ فخرج رسول الله ﷺ فإذا سعد بن معاذ[٤].

وكان ﷺ من أحسن الناس وأعظمهم وأطولهم، سيداً في قومه سيداً في رأيه، صادقاً في حبه لله ورسوله منذ أن أسلم على يدي مصعب بن عمير، تمنى على ربه الشهادة فمنحه إياها.. واستعد الملأ الأعلى لاستقباله، فهنيئاً له بطيب اللقاء والاستقبال. يقول البراء بن عازب: أهديت للنبي ﷺ حلة حرير فجعل أصحابه يمسونها ويعجبون من لينها، فقال ﷺ: أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ خير منها وألين[٥]. (أي في الجنة).

ثم إن النبي ﷺ قسم أموال بني قريظة ونساءهم بين المسلمين. وتلك هي قوانين الحرب في ذاك الزمان. الأسرى يسترقون، ونساء الجيش المنهزم وأطفاله

(١) البداية والنهاية، ١٢٨/٤.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البيهقي.
(٤) رواه البيهقي في الدلائل.
(٥) رواه البخاري.

يصبحون غنائم يسترقهم المنتصرون. هذا هو حكم المرحلة التاريخية التي عاشها النبي وأصحابه الذين عاشوا واقعهم وعصرهم ما لم يأت أمر من الله بالنهي والتغيير.

أما التوجيه القرآني فكان أرقى من ذلك العصر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤٧/ ٤]. وشبيه بذلك ما وصل إليه الناس في عصرنا من قوانين في معاملة الأسرى واتفاقات دولية في تبادلهم.

ولعل الخبر التالي يلقي مزيداً من الضوء على ملك اليمين في ذلك العصر: كانت ريحانة بنت عمرو بن خُنافة من نصيب النبي ﷺ من بني قريظة، فعرض عليها ﷺ أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب، فقالت: يا رسول الله بل تتركني في ملكك فهو أخف عليَّ وعليك، فتركها. وكانت قد تعصت بالإسلام وأبت إلا اليهودية، فوجد في نفسه ﷺ لذلك من أمرها، فبينما هو مع أصحابه إذ سمع نعلين خلفه، فقال: إن هذا لثعلبة بن سعية يبشرني بإسلام ريحانة. فجاءه فقال: يا رسول الله قد أسلمت ريحانة، فسرَّه ذلك.. وكانت عند رسول الله ﷺ حتى توفي عنها وهي في ملكه[١]. فانظر كيف رفضت ريحانة الحرية..!! وانظر كيف أن النبي لم يُكرهها على شيء! وكان يمكن أن تبقى في كنف النبي ﷺ ولو أصرت على دينها.. وإن آلم النبي ﷺ ذلك، ومن الطبيعي أن يتألم فهو يحب الهداية لكل من يعيش معه ويلوذ به، ولو لم يكن كذلك لما كان نبياً هادياً..

ولقد مهد القرآن بتوجيهاته - وخاصة في حضّه على عتق الرقاب - إلى الوصول إلى تحرير العبيد وإلغاء الرِّق. إذ لم يكن إلغاؤه ممكناً في ذلك العصر لأن ذلك يسبب خللاً اجتماعياً وارتباكاً في حياة الأرقاء أنفسهم الذين كانوا يؤثرون البقاء في ظل أسيادهم ويخافون تكاليف الحرية، ولو استمر المسلمون

---

(١) سيرة ابن هشام، ص٢٠٤.

في تفاعلهم مع هدي قرآنهم لكانوا أسبق الناس إلى إلغاء الرِّق ولكنهم حين هجروا قرآنهم، وآثروا الهوى والشهوات، أصبح أحرارهم عبيداً. فألغوا الحرية من عالمهم وسلطت عليهم أمم الأرض تستعبدهم وتسرق أرزاقهم، تركوا عبادة الأحد فأصبحوا عبيداً لكل أحد.

ثم إن الخزرج استأذنوا رسول الله ﷺ في إرسال نفر منهم لقتل سلام بن أبي الحقيق النضري، وكان يدعى أبو رافع، وهو أحد الذين حزَّبوا الأحزاب، وكان يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز - وقيل في خيبر - فبعث رسول الله ﷺ إليه رجالاً من الأنصار وأمر عليهم عبد الله بن عتيك[١] فدخل حصنه وقتله. وأرسل ﷺ عبد الله بن أنيس إلى خالد بن سفيان الهذلي الذي كان يجمع الناس لغزو النبي ﷺ وهو بعُرَنة.. وأمر بقتله[٢].

تلك هي ظروف الحرب المعلنة على المدينة من جميع الجهات.. وكان لا بد من مثل هذه المبادرات لإنهاء الحرب بإطفاء الذين يؤججون نيرانها، وتنحيتهم جانباً حتى يتمكن الناس من رؤية الحق.

* * *

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه الإمام أحمد.

الباب
الرابع

بين
الأحزاب
و
الحديبية

١- أحداث في الحبشة: محنة أم حبيبة.

٢- زواج بأمر من الله.

٣- خبر بني المصطلق (حديث الغزالي)

٤- فتنة تؤجج.

٥- غارة على المدينة

١ - أحداث في الحبشة

محنة ام حبيبة في الحبشة

اسمها رملة بنت أبي سفيان بن حرب، أسلمت في مكة مع زوجها عبيد الله بن جحش، وهاجرت معه إلى الحبشة حيث وضعت بنتاً هي (حبيبة)، وغلبت عليها كنيتها (أم حبيبة)، وفي الحبشة ارتد عبيد الله بن جحش عن الإسلام إلى النصرانية، وحاول أن يؤثر في زوجته حتى تتنصر مثله.. لكنها تمسكت بدينها وصبرت على أذاه، وعلى غربتها التي تضاعفت بتخلي عبيد الله عن إسلامه، ولقد ضاقت بها السبل ففقدت الزوج والأهل.. فما هي بقادرة على العودة إلى مكة حيث يتزعم أبوها العداء لمحمد ﷺ ودينه، ولا بد أن تفتن في دينها إن عادت.. ولا هي بقادرة على الرحيل وحدها إلى المدينة.

ثم إن عبيد الله مات بعد فترة في الحبشة نصرانياً، وبقيت أم حبيبة تجتر آلامها وتحتسب أمرها عند الله، حتى فوجئت بالبشرى تقرع بابها.. تقول أم حبيبة: ما شعرت وأنا بأرض الحبشة إلا برسول النجاشي جارية يقال لها: أبرهة كانت تقوم على ثيابه، فاستأذنت عليَّ فأذنت لها فقالت: إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ كتب إلي أن أزوجكه.. فقلت: بشرك الله بالخير، وقالت: يقول لك الملك: وكِّلي من يزوجك. فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكَّلته، وأعطيت أبرهة سوارين من فضة وخدمتين من فضة كانتا علي وخواتيم من فضة..

سروراً بما بشرتني به، فلما أن كان من العشي أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن كان معه من المسلمين أن يحضروا، وخطب النجاشي - فحمد الله وأثنى على رسوله - ثم قال: أما بعد فإن رسول الله ﷺ طلب أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان فأجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وقد أصدقتها أربع مئة دينار، ثم سكب الدنانير بين يدي القوم. فتكلم خالد بن سعيد - فحمد الله وأثنى عليه - ثم قال: قد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وزوجته أم حبيبة فبارك الله لرسول الله ﷺ. ثم أرادوا أن يقوموا فقال: اجلسوا فإن من سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج. فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا[1].

حدث هذا بعد غزوة الخندق. لكن أم حبيبة لم ترحل إلى المدينة وحدها بل رحلت مع جعفر بن أبي طالب والمسلمين الذين كانوا في الحبشة، وكان وصولهم إلى المدينة عند انتصار المسلمين على يهود خيبر وعندها تزوجت.

هذا زواج مليء بالتكريم والكرامة.. وكل من يتأمل في الظروف المحيطة به يدرك حكمة النبي ﷺ وسعة قلبه، فما كان لمحمد ﷺ أن يتغافل عن محنة ابنة سيد قريش بينما هو مهتم بالكبير والصغير والغني والفقير من أتباعه، أتترك ابنة أبي سفيان غريبة في الحبشة وقد اختارت الاعتصام بدين الله ولو كلفها ذلك فقدان الأهل والزوج وفقدان الجاه والسند.. دون ولي ولا معيل..؟! وماذا يكون موقف أبي سفيان حين يرى ضيعة ابنته لأنها اختارت الثبات على الإسلام؟! وهل يتطلع أحد من المسلمين إلى خطبة ابنة سيد قريش وحامل لواء العداء لرسول الله فيها..؟! وكانت العرب تقيم للكفاءة في النسب والسيادة وزناً كبيراً عند المصاهرة.

لقد كان زواج النبي ﷺ من أم حبيبة عملاً عظيماً بكل المعايير.. فهو إنقاذ وإكرام لأم حبيبة التي سارعت بخلع كل حليها وإعطائها للجارية التي بشرتها

(١) البداية والنهاية، ٤/١٤٣ - ١٤٤.

بذلك، وأي تكريم أعظم من أن تصبح أماً للمؤمنين؟! وزوجة لخاتم الأنبياء والمرسلين..؟ إنها الآن ترفع رأسها باعتزاز أكبر في وجه أهلها وعشيرتها.. فلقد كانت قريش كلها تعترف لمحمد ﷺ بشرف الأصل والخُلُق.. ولعلها تتمنى أن تحظى بمصاهرته.

وهو كسر لحدة العداوة في قلب أبي سفيان، وتودد إليه بمصاهرته وضم ابنته إلى بيته ﷺ، وإرضاء لغروره فقد كان حريصاً على أن يختص بشيء من الشرف.

وهو تعليم للمسلمين أن يتضامنوا ويتراحموا فيما بينهم، وأن يفصلوا بين المؤمن وأهله الذين يناصبونهم العداء.. فما ذنب المؤمنين والمؤمنات إن ساءت أعمال أهليهم..؟!

وهو درس عظيم للناس كافة في نبذ التعصب، وعدم أخذ الناس بجرائر أهلهم.. وفي التكافل والتضامن أمام المحن. وفي السياسة الحكيمة مع الأعداء، وفي علاج القلوب النافرة، وفي تكريم كل من يحسن عملاً ومن ثمّ دعمه مادياً ومعنوياً حتى لا يصاب بالإحباط.

وموقف النجاشي كان مليئاً بالنبل والكرم يتجلى فيه عمق الإجلال والحب للنبي ﷺ، والحرص على إكرام الخطيبة - بالمهر والعطايا - وإجراء ترتيبات الزواج، وإكرام المسلمين بوليمة الزواج، وهو يعرف سنن الأنبياء.. حقاً إن الخبر مليء باللطف والكرامة..

• • •

ويحك يا عمرو أطعني واتبعه..!

انصرف عمرو بن العاص مع الأحزاب حين انصرفوا خائبين يوم الخندق، وكان يقلب أمر محمد ﷺ في نفسه وهو يرى أمره يعلو ويشتد، فقال لبعض أصحابه: أرى أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده فإن ظهر محمد على قومنا فإنا إن نكن تحت يدي النجاشي أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خير، فوافقوه، ثم جمعوا للنجاشي هدايا مما يحب أكثر - وكان يحب الأدم - يقول عمرو: ثم خرجنا حتى قدمنا عليه فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه (والظاهر أنه أرسله لخطبة أم حبيبة له من النجاشي). قال عمرو: فدخل عليه ثم خرج من عنده؟ فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية لو قد دخلت على النجاشي فسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه فإذا فعلت رأت قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد، فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع. فقال: مرحباً بصديقي.. ثم قربت إليه الأدم - الهدايا - فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيها الملك إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا فأعطنيه لأقتله فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا، فغضب ثم مدَّ يده فضرب بها أنفه.. فلو انشقت الأرض لدخلت فيها فرقاً. ثم قلت: أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه. قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى فتقتله؟! قلت: أكذاك هو؟ قال: ويحك يا عمرو أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق وليظهرن على من خالفه، كما ظهر موسى بن عمران على فرعون وجنوده. قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم. فبسط يده فبايعته على الإسلام ثم خرجت على أصحابي، وكتمتهم إسلامي ثم خرجت عامداً إلى رسول الله ﷺ لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد - وذلك قبيل الفتح - وهو مقبل من مكة، فقلت: أين أبا سليمان؟ فقال: والله لقد استقام الميسم وإن

الرجل لنبي، أذهب والله أسلم، فحتى متى؟! قلت: والله ما جئت إلا لأسلم[١]. وهذا بعد الحديبية.

نلمس في الخبر بداية يأس المشركين من القضاء على محمد ﷺ.. ونجد فيه لقطة تمثل طبيعة عمرو بن العاص التي تؤثر السلامة، فهو أول من يخطط لضمان المستقبل من قريش ويحاول أن يستغل صداقته للنجاشي إلى أقصى حد، ولكن النجاشي بإخلاصه وحرصه على الحقيقة يفلح في التأثير في عمرو.. ويؤكد له أن محمداً ﷺ هو النبي المنتظر وأنه سيكتسح الساحة لا محالة فيسرع عمرو إلى المبايعة على الإسلام.. فالأمر كما قال خالد: حتى متى نكابر ونتصدى للحق وهو غالب..؟!

ومن الواضح أن أهل ذاك الزمان ما كانوا يتأثرون بالحجة والمنطق قدر تأثرهم بالقوة والغلبة والانتصار.. بينما أهل زماننا قد يخضعون للقوي الغالب.. لكنهم في أعماقهم لا يصدقونه وإنما هم ناقمون متربصون.

* * *

(١) البداية والنهاية، ٤/١٤١ - ١٤٢ بشيء من التصرف.

٢- زواج بأمرٍ من الله

كان رسول الله ﷺ يحب مولاه زيداً وقد أعتقه وتبناه حتى صار يدعى زيد ابن محمد، وعند الهجرة آخى بينه وبين حمزة بن عبد المطلب ثم خطب له ابنة عمته (أميمة بنت عبد المطلب)، وهي زينب بنت جحش فامتنعت في البداية هي وأهلها من قبول هذا الزواج، وكبر عليها أن تقترن وهي الشريفة المضرية من أحد الموالي.. وكان رسول الله ﷺ يسعى جاهداً لإزالة هذه الفوارق العصبية، وينفذ عملياً إجراءات المساواة وتحطيم الطبقات ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣].. وألحّ النبي ﷺ في إنفاذ هذا الزواج حتى نزلت الآية ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٣٦]. فوافقت زينب طاعة لله والرسول.. لكنها في حياتها مع زيد لم تنس أبداً هذا الفارق فهي الشريفة وهو من الموالي.. وانعكس إحساسها على سلوكها مع زيد فنغص عليهما حياتهما. وبدأ زيد يشتكي من ترفعها عليه إلى رسول الله ﷺ وهو يسكّنه ويوصيه بالصبر، ثم جعل يستأذن النبي في طلاقها والنبي يقول له: «أمسك عليك زوجك واتق الله».. لكن الزوجين لم يأتلفا.. وأعراف الجاهلية لا تزول آثارها من النفوس بين عشية وضحاها، وجاء اليوم الذي فقد فيه زيد صبره فطلق زينب، فلما انقضت عدتها نزلت الآيات بتزويجها من النبي ﷺ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٣٧]. وذلك أن الله أعلمه

أن زيداً سيطلق زينب، وأن الله سيزوجه منها. لكنه ﷺ كان متحفظاً من الأمر ويخشى أن يقال عنه بأنه شجع زيداً على طلاق زوجته كي يتزوجها هو، ويخشى أن يقال: تزوج محمد ﷺ من زوجة ابنه، ومحمد ﷺ نبي إنسان مرهف الشعور يبتعد عن الشبهات وينأى عن مواطن التُّهَم. فهو يستثقل هذا الأمر ويؤجله، لكن الله سبحانه وتعالى يعلن الأمر على الملأ في قرآن يتلى على الناس إلى يوم الدين: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾؟!.

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحي إليه من كتاب الله تعالى لكتم ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ﴾[1]. وذلك أن العتاب في الآية شديد.. ورسول الله ﷺ ما كان يخشى الناس في أمور الدين، وقد عرفنا فيه الرسوخ والثبات على الحق ومناوأتهم إلا أن يكون الأمر حراماً واضحاً أو أمراً من الله بيّناً.

لكن الله تعالى أراد أن يمحو كل آثار التبنّي، واختار نبيه ليكون أول من يخرق هذا العرف الجاهلي بزواجه من مطلقة متبنّاه ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧/٣٣]. فلما انقضت عدة زينب رضي الله عنها قال ﷺ لزيد بن حارثة: «اذهب فاذكرها علي» فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها. قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول إن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي وقلت: يا زينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى آمر ربي عز وجل، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها[2].

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره للآية.

(٢) رواه الإمام أحمد.

وكانت زينب ﵂ تقول للنبي ﷺ: إني لأدلُّ بثلاث، ما من نسائك امرأة تدلُّ بهن: «إن جدي وجدك واحد، وإني أنكحنيك الله عز وجل من السماء، وإن السفير جبريل عليه الصلاة والسلام»(١).

وبعد فهل أستطيع الإحاطة بمواضع الخير والعظمة في هذا الخبر؟! أمضي في المحاولة على قدر علمي وفهمي، وأترك الباقي لمن هو أعلم مني..

١ - كان رسول الله ﷺ عظيم الحرص على كسر العصبية الجاهلية والتسوية بين الناس مهما اختلفت أنسابهم.. ولم يكن تزويجه لزيد من زينب حادثاً فريداً من نوعه، بل كانت هناك زيجات أخرى أجراها النبي ﷺ على هذا المنوال رغبة منه في تغيير النفوس والأفكار والأعراف..

٢ - إن تغيير الأفكار والأعراف لا يتم بسرعة وسهولة.. حتى إن رسول الله ﷺ قال لأحد أصحابه: «إنك امرؤ فيك جاهلية».. فلقد كان الصحابة يعانون من آثار التراث الثقافي الجاهلي، ولا ضير في ذلك فلقد كانوا بشراً من خلق الله انحفرت في نفوسهم أفكار وتقاليد موروثة بذلوا جهدهم في تغييرها، لكنها كانت ترفع رأسها بين حين وآخر.

٣ - توجيه النبي ﷺ لزيد: «أمسك عليك زوجك واتق الله» يمثل وصية للزوجين بأن لا يستهينا بعقد الزواج فيسارعا في نقضه. فمن الأفضل أن يبذل الطرفان جهدهما للاستمرار.. وتوجيه النبي ﷺ للرجل أقوى.. وكأن التقوى تقتضي منك ألا تطلق إلا لضرورة.

٤ - إن تبليغ مثل هذه الآية ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٣٧] يحتاج إلى شجاعة الأنبياء. فما أعظم صدق النبي وأمانته.

٥ - وفي ذلك دليل - من أدلة كثيرة - على أن القرآن وحي من عند الله تعالى، ومحمد ﷺ رسول يبلغ آيات ربه.

---

(١) رواه ابن جرير عن الشعبي.

٦ - وإن الله يعلم الناس جميعاً: إن الكمال لله وحده ولا أحد فوق النقد. فالإنسان ناقص معرض للخطأ - ولو كان نبياً - والله سبحانه المنزَّه.

٧ - وإن توجيه بعض النقد للنبي يشعر المؤمن بأهمية النقد واستبطان الذات لغسلها وتنقيتها من كل تشويش، وقد أصبح جلياً في هذا العصر أهمية وجود النقد لأفكار الأفراد والأمم وأعمالهم؛ لأن هذا هو السبيل السوي للتصحيح والارتقاء.

٨ - لقد تم إلغاء التبني كلياً بإلغاء كل آثاره عملياً بتطبيق النبي ﷺ.

٩ - رد الاعتبار لزينب رضي الله عنها وهي من السابقات للإيمان والهجرة.. بعد أن طلقها زيد. فقد يقول قائل: من يتزوجها بعد أن زهد بها زيد وهو من الموالي..؟!

١٠ - في الإسلام لا يسقط اعتبار الإنسان إن أخطأ فلكل إنسان مواضع ضعف لا تلغي كرامته الإنسانية، وها هي زينب تصبح أماً للمؤمنين رغم فشلها مع زيد، وفي ذلك احترام لكيان المؤمن وإن زلت قدمه.

* * *

سمر عند العروس..!!

يقول أنس بن مالك: بني على النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم فأرسلت على الطعام داعياً فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون.. فدعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه، فقلت: يا نبي الله ما أجد أحداً أدعوه. قال: ارفعوا طعامكم، وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، قالت: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.. كيف وجدت أهلك بارك الله لك؟ فتقرّى حجر نسائه كلهن ويقول لهن كما قال لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي ﷺ،

فإذا رهط ثلاثة في البيت يتحدثون، وكان النبي ﷺ شديد الحياء، فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة. فما أدري أخبرته أم أخبر أن القوم خرجوا فخرج (عاد) حتى إذا وضع رجله في أسكفة الباب وأخرى خارجه أرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب[1]. وفيها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٣].

وفي إحدى الروايات أن زينب - العروس - كانت تجلس في الحجرة وتولي وجهها إلى الحائط.. والرهط جالسون يسمرون..!!

فتأمل هذا المستوى الذي كان عليه العرب عند نزول الآية.. من جفوة وجهالة وبعد عن الذوق والأدب واللياقة، وكيف جعل الله من هؤلاء خير أمة أخرجت للناس في عصرها.

ها هي الآيات تنزل لتعلمهم آداب الوليمة ﴿إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ ومراعاة التخفيف على صاحب الوليمة بالانصراف بعد الطعام، وترك الاسترسال في الأحاديث. فلأهل الدار حقوقهم وحاجاتهم..

- ورسول الله ﷺ كان حبيباً إلى قلوب الجميع.. وكلهم يتمنى ألا يفارقه ويستزيد من المكث في بيته، وحتى أنس - راوي الحديث - يريد أن يدخل خلف النبي ﷺ بعد أن انصرف الناس ولكن النبي ﷺ يرخي الستر دونه..!! ورسول الله ﷺ يتأذى من هذا الحب الأناني الجاهل، لكنه كان ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها.. فلا يصارحهم ولا يعتذر عن استقبالهم.. حتى تنزل الآيات لتعلم المؤمنين كيف يخففوا عن النبي ﷺ هذا الحب الثقيل.. في سورة

(١) رواه البخاري.

الأحزاب - كما سبق - وفي سورة المجادلة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: ٥٨/١٢].

- ونتأمل زوجات النبي ﷺ وهنَّ يباركن للنبي ﷺ في زواجه متقبلات للأمر رغم غيرتهن ورغبتهن بالاستئثار بالنبي ﷺ.. فلقد كان الأمر طبيعياً بمنطق ذلك العصر فلم يستنكرنه. لقد كنَّ بأدبهنَّ جديرات بالنبي ﷺ.

- حرَّم الله على المؤمنين الزواج من نساء النبي ﷺ من بعده ورفعهن إلى منزلة (أمهات المؤمنين) فما يكون لأحد أن ينتهك حرمة هذا البيت الذي كان الوحي ينزل فيه، بل تبقى نساء النبي منارات للعلم والهداية للجميع. ولهذا فرض الحجاب عليهن فلا يُكَلَّمن إلا من وراء ستار.. ردعاً للقلوب الضعيفة وتأديباً للعيون الوقحة، وحرصاً على طهارة القلوب كلها.. وهو ما تمناه عمر ﷺ صيانة للبيت النبوي من كل أذى.

- إن المؤمن لا يبلغ الحد المقبول من الإيمان حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وحتى من نفسه التي بين جنبيه، وعندها يصبح الإيمان سلوكاً وعملاً مؤثراً في الحياة، وإن من طبيعة المشاعر أن يكره الرجل الزوج السابق لزوجته، فكيف يسمح للمؤمن أن يورط قلبه في هذا المنزلق..؟! وإنها لرحمة كبيرة من الله بالمؤمنين أن يجنبهم مثل هذه التجارب القاسية.

* * *

تقوى عطرة..

عرفت زينب بالتقوى والصلاح حتى قالت عائشة - رغم أنها ضرتها -: «ما رأيت امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله وأصدق حديثاً وأوصل للرحم وأعظم أمانة وصدقة». وقد ثبت في الصحيحين عند حديث الإفك - كما سيأتي - أن عائشة رضي الله عنها قالت: وسأل رسول الله ﷺ عني زينب بنت جحش وهي التي كانت تساميني من نساء النبي ﷺ، فعصمها الله بالورع، فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري ما علمت إلا خيراً. وقالت عائشة رضي الله عنها أيضاً: قال رسول الله ﷺ: «أسرعكن لحوقاً بي أطولكن يداً». قالت فكنا نتطاول أينا أطول يداً. فكانت زينب أطولنا يداً لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق[1].

فانظر إلى توجيه النبي ﷺ - غير المباشر - إلى عظمة العمل لخدمة الناس..!! وما أكثر التوجيهات في الإسلام إلى العمل. ويكفي أنه ﷺ كان القدوة الحية في ذلك.

* * *

(١) رواه مسلم.

٣- خبر بني المصطلق (حديث الغزالي)

حديث الغزالي عن غزوة بني المصطلق

نقل ابن كثير في (البداية والنهاية) أنه ثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن عون قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال[١] فقال: قد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق، وهم غارون في أنعامهم تسقي على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى سبيهم.. وقفت عند الخبر وتذكرت أن الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - كان قد وقف عند هذا الموضوع في مقدمة كتابه (فقه السيرة) واختلف مع الشيخ ناصر الدين الألباني الذي حقق كتاب الغزالي فضعف الخبر الذي ساقه الغزالي عن الغزوة وأراد أن يثبت بدلاً عنها ما روي في الصحيحين.. فكتب الغزالي رأيه في المقدمة منذ ١٩٦٥م. وهذا بعض ما جاء فيها:

«قتال يبدؤه المسلمون على هذا النحو مستنكر في منطق الإسلام مستبعد في سيرة رسوله. ومن ثم رفضت الاقتناع بأن الحرب قامت وانتهت على هذا النحو، وسكنت نفسي إلى السياق الذي رواه ابن جرير - ومفاده أن النبي ﷺ بلغه أن هذه القبيلة تستعد لقتاله وأن سيدها قد استكمل العدة لذلك - فهو على ضعفه الذي كشفه الأستاذ الشيخ ناصر يتفق مع قواعد الإسلام المتيقنة وأنه لا عدوان إلا على

---

(١) يقصد دعاء القوم إلى الإسلام قبل قتالهم.

الظالمين، وحديث الصحيحين لا موضح له إلا أن يكون وصفاً لمرحلة ثانية من القتال بأن يكون أخذ القوم على غرة جاء بعدما وقعت الخصومة بينهم وبين المسلمين، وأمسى كلا الفريقين يبيت للآخر... بعد هذا لا أرى أن يلزمني أحد بقبول ما رواه الشيخان عن عبد الله بن عون قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال فكتب إلي: إنما كان في أول الإسلام، وقد أغار ﷺ على بني المصطلق وهم غارون[1]، آثرت هذا المنهج في كتابة السيرة فقبلت الأثر الذي يستقيم متنه مع ما صح من قواعد أحكام وإن وهى سنده. وأعرضت عن أحاديث أخرى توصف بالصحة؛ لأنها في فهمي لدين الله وسياسة الدعوة لم تنسجم مع السياق العام.. أرى المكان متسعاً لتسجيل تعقيبات (الشيخ) كلها على ما أوردت من نصوص، فإني عظيم الحفاوة بهذا الاستبحار العلمي وهو يمثل وجهة نظر محترمة في تمحيص القضايا الدينية. وأعتقد أن من حق القارئ علي أن يعرف رأي أحد المحققين المتشددين في المرويات التي أحصيتها هنا سواء خالفته أم وافقته. وشكر الله جهده في المحافظة على تراث النبوة وهدانا جميعاً سواء السبيل».

أجمل ما في كلام الغزالي - رحمه الله - هنا هو احترام الرأي الآخر.. وأدب الحوار مع المخالف، واحترام حق الناس في سماع كل وجهات النظر ولو كنت أختلف معها، ولا ننسى أن هذا الكلام منذ أكثر من خمس وثلاثين سنة.. فما أعظم سبقه في هذا المجال رحمة الله عليه..!

- أما موضوع الأحاديث الصحيحة، فكثير من الباحثين يقولون إن المتواتر من الأحاديث لا يُرد، أما الباقي فلا بد من مناقشة متنه ولو صح سنده كي يكون منسجماً مع القرآن وقواعد الإسلام.

- لكنني أقول: لا ينبغي أن يزعزعنا ثبوت حديث صحيح إن كان متنه لا يتفق مع منطق عصرنا؛ لأننا نؤمن بتغير الأساليب والأحكام بتغير العصور تحقيقاً

---

(١) انظر كيف خرج بحكم شرعي مفاده أن الإنذار والدعوة للإسلام قبل القتال قد نسخ بعمل الرسول ﷺ..؟!!

للعدل ومصالح أكثر الناس والمرجع في ذلك مقاصد الشريعة التي نصت عليها كثير من الآيات: مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٥]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٠]. لكن هذا الأمر لا يترك لسواد الناس، ولكن علماء الأمة المتخصصين في كل جوانب المعرفة والتنظيم الاجتماعي مطالبون ببحث هذه القضايا وبيانها للناس، وتقديم اجتهادات جديدة تربط بين الدين والمعاصرة.

- وأعود لأكرر أن القبائل العربية المشركة من حول النبي ﷺ هي التي فرضت حالة الحرب بين الطرفين في عصر كانت فيه الكلمة الأولى للبطولات العسكرية، والمنتصر في المعارك الحربية هو صاحب الحق.. بينما عالمنا الآن يمشي إلى السلام بخطا حثيثة وإن كان ضجيج المفرقعات ما زال مسموعاً، لكنها شظايا الوداع بإذن الله.

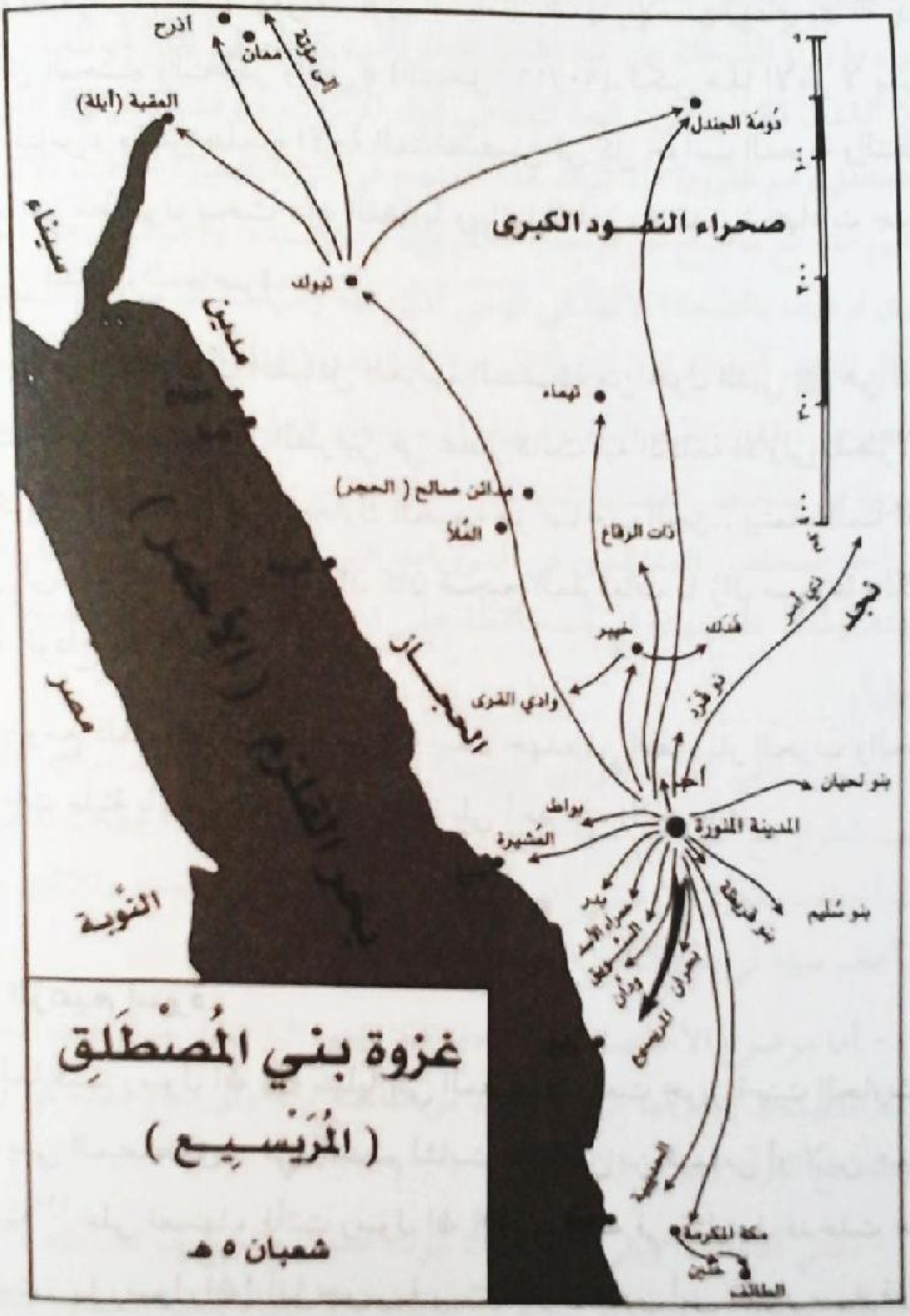
- ومع ذلك فقد كان محمد ﷺ يبذل جهده في إطفاء نار الحرب والحقد بإجراءات مليئة بالحب والرحمة، وفيما يلي أحد هذه الإجراءات.

* * *

ابنة الزعيم أسيرة..

لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث - سيد بني المصطلق - في السهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له فكاتبته[1] على نفسها، فأتت رسول الله ﷺ لتستعينه في كتابتها. فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله! أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فجئتك أستعينك على كتابتي. قال ﷺ:

(١) المكاتبة: اتفاق بين العبد وسيده على أن يعتقه مقابل مبلغ من المال.



خريطة غزوة بني المصطلق

فهل لك في خير من ذلك؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: أقضي عنك كتابك وأتزوجك، قالت: نعم يا رسول الله قد فعلت، قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهار رسول الله فأرسلوا ما بأيديهم. فلقد أعتق بتزويجه إياها مئة أهل بيت من بني المصطلق. تقول أم المؤمنين عائشة (والحديث كله من روايتها): فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها[١].

نتأمل هذا الخبر وما حدث فيه من بركات، ولا ننكر أن رسول الله ﷺ أعجب بجويرية فهي كما وصفتها عائشة ﵂ امرأة مليحة ومن منا لا يعجب بالجمال، والله جميل يحب الجمال، لكننا نخطئ كثيراً إن قصرنا هذا الزواج على أنه (حالة إعجاب)..

لقد رأى رسول الله ﷺ ابنة سيد القوم أسيرة، تلجأ إليه ملهوفة ليعينها على التحرر من العبودية، فيختار النبي ﷺ لهذه المشكلة حلاً يربح فيه الجميع.. يصبح فيه صهراً للمهزومين فيربح قلوبهم، وولاءهم، ويستميلهم إلى الإسلام. وأي تكريم أعظم للحارث من هذه المصاهرة..؟ وتأتي التتمة على أيدي المسلمين - تلاميذ محمد ﷺ النجباء - الذين أطلقوا سراح كل أسراهم من بني المصطلق، فماذا يفعل الناس أمام هذا الحب والتسامح؟! وهل يقدر أحد على صدّ إشعاع المحبة النفاذ عن قلبه؟! إنها بركات المحبة وإكرام الآخر ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٤].

أين هذه المعاني ممن ينظر إلى الأمر على أنه اصطفاء لأجمل بنات قومها..؟! ولو أراد النبي ﷺ لاصطفى الحسناوات لنفسه قبل أن يقسم السبايا على الجيش، دون أن يجد من يمنع أو يعترض.. لكن زواجه ﷺ من جويرية كان عملاً نبيلاً مباركاً، وتخطيطاً ذكياً لاقتلاع جذور الكراهية والصراع.

* * *

(١) البداية والنهاية، ٤/ ١٥٨.

حادثة قتل خطأ

أصيب رجل من المسلمين في تلك الغزوة يقال له هشام بن صبابة، أصابه رجل من الأنصار، وهو يرى أنه من العدو فقتله خطأ. فقدم أخوه مقيس بن صبابة من مكة مظهراً للإسلام، فطلب دية أخيه هشام من رسول الله ﷺ؛ لأنه قتل خطأ فأعطاه ديته. ثم مكث يسيراً، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله ورجع مرتداً إلى مكة.. ولهذا كان مقيس هذا من الأربعة الذين أهدر رسول الله ﷺ يوم الفتح دماءهم وإن وجدوا متعلّقين بأستار الكعبة[1].

هذا نموذج من التشوه القبيح الذي يصيب النفس الإنسانية فتصبح مسخاً مروعاً من الإنسان، سماته اللؤم والغدر، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، لا يصل الخير إلى قلبه لأنه محتال مخادع.

- ورسول الله ﷺ يعطيه دية أخيه بسماحة دون أي محاولة للتثبت من أمره، فالقلوب أمرها إلى الله، والحق لا بد أن يؤدى لصاحبه.. وأسلوب النبي ﷺ المتسامح هذا كثيراً ما كان يطفئ كيد الماكرين ويزيح ظلمات الحقد عن القلوب لتبصر النور من جديد. أما من غرقت نفسه في لجج الخداع والمكر فعلى نفسه قد حكم، ولن يضر الله ورسوله شيئاً، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.. فلا تندم على البراءة والإحسان مع الآخر، فإن التاريخ قد أثبت أن العاقبة للمتقين والمحسنين، هذا هو الدرس الذي نتعلمه دائماً من سيرة الحبيب ﷺ.

* * *

(١) البداية والنهاية، ٤/١٥٦.

٤- فِتنَةٌ تُؤَجّج

ها هو الجيش المظفر يستعد للرحيل عائداً إلى المدينة، والناس يتزودون من الماء، وقد تزاحموا وتدافعوا عليه.

ويأتي جهجاه بن مسعود - وهو أجير لعمر بن الخطاب - يقود فرسه فيزاحم سنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج فيقتتلان، ويصرخ الجهني: يا معشر الأنصار..! ويصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين.. ويسمع المنافق عبد الله بن أبي بن سلول رجع الصدى، وهو بين رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث، فيقول عبد الله غاضباً: أوَقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول (سمّن كلبك يأكلك) أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم، فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مر به عباد بن بشر فليقتله، فقال ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه..؟! لا، ولكن آذن بالرحيل، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها. فارتحل الناس وقد مشى عبد الله بن أبي إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم بلّغه ما سمع منه، فحلف بالله ما قلت ولا تكلمت به. وكان في قومه شريفاً عظيماً،

فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله! عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل - حدباً على ابن أبي ودفعاً عنه - فلما استقل رسول الله ﷺ وسار لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلم عليه. وقال: والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها، فقال ﷺ: أوَما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: أي صاحب يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أبي. قال: وما قال؟ قال ﷺ: زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل. قال: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله! ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه يرى أنك قد استلبته ملكاً. ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً. وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، ثم راح رسول الله ﷺ بالناس وسلك الحجاز حتى نزل على ماء، ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين كابن أبي ومن كان على مثل أمره. فأخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم وقال: هذا الذي أوفى الله بأذنه[1].

وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبي إلى رسول الله فقال: يا رسول الله إني قد بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمر لي به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي أن يمشي في الناس، فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال ﷺ: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا.

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ١٥٧.

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه، ويعنفونه. فقال ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له أنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

وذكر أن ابنه عبد الله ﷺ وقف لأبيه عبد الله بن أبي عند مضيق المدينة فقال: قف.. فوالله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ في ذلك فلما جاء رسول الله ﷺ استأذنه في ذلك فأذن له فأرسله حتى دخل(١)..

فلنتأمل أسلوب النبي الفذ في إخماد نيران الفتن وعلاج المشاكل:

١ - ها هو عمر يشير بقتل ابن أبي مؤجج الفتنة. ولكن رسول الله ﷺ ينبهه: فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟أنسيت حرب الدعاية والإعلام؟.. سيقولون: محمد قتل أحد أصحابه بسبب بعض كلمات قالها في لحظة غضب!! لو أن المسلمين يتعلمون من نبيهم كيف تُدرس العواقب وكيف توزن لاختيار أهون الشرّين. صحيح أن ابن أبي يُشعل الفتن.. ولكن قتله سيؤدي إلى فتنة أكبر قد تزلزل المسلمين في ولائهم للنبي ﷺ.

٢ - ثم إن الوزر لا يقع على ابن أبي وحده.. فالمسلمون مسؤولون عن الانجراف وراء الفتنة، وينبغي أن يصلوا إلى درجة الحصانة ضد الفتن. ووجود هذا المنافق فيهم وسعيه للإيقاع بينهم كان ضرورياً كي يتحصنوا ضد الفتن - مثل اللقاح ضد الأمراض - ويتعلموا الوقاية.

٣ - أمر النبي ﷺ أن ينادى بالرحيل فأسرع الناس في التهيؤ له وانشغلوا عن الشجار والقيل والقال.

---

(١) البداية والنهاية، ٤/١٥٨.

٤ - جاء عبد الله بن أبي إلى النبي ﷺ بعد أن عرف أن أمره قد فضح يقسم ويحلف أنه ما قال، سكت الرسول ﷺ وأعرض عنه، خاصة أن أناساً من الأنصار قد صدقوه وأخذوا يدافعون عنه، وزيد غلام حَدَثٌ نقل الخبر ولم يشهد معه أحد، والنبي ﷺ يعرف نفاق ابن أبي وصدق زيد، لكنه يسكت عن مناقشة الموضوع مع الأنصار..

٥ - مشى رسول الله ﷺ بالناس أكثر من أربع وعشرين ساعة، فلما أذن لهم بالنزول وقعوا نياماً، وهكذا مات الخصام والفتنة بأرضها.

٦ - أسيد بن حضير يحاور النبي ﷺ في الطريق، ويسأل بأدب المؤمن عن سبب الرحيل في وقت ليس من عادة النبي أن يرحل به..

نتأمل أدب أسيد ومعرفته بأحوال النبي ﷺ وحسن إجابته عندما عبر النبي عن ألمه من كلام المنافق ابن أبي.. أنت والله الأعز يا رسول الله، وأنت لو شئت تخرجه، ثم يطلب من النبي ﷺ الرفق بابن أبي.. ويقدر الظرف والمشاعر التي يعاني منها هذا المنافق.

فما أعظم هذا العلم والحلم. ما أعظم أن تتفهم ظروف المذنب ومشاعره..!!

٧ - ويأتي ابنه المؤمن وإيمانه يسابقه إلى النبي ﷺ، يريد أن ينهي الصراع المحتدم في أعماقه، فهو بار بأبيه وهو محب لله ورسوله.. وهو يخشى أن تغلبه نفسه فينحرف إلى العصبية الجاهلية ويعلن استعداده لأن يكون هو المنفذ لحكم رسول الله في أبيه..!!

فما أشد هذه المعركة الداخلية التي خاضها هذا المؤمن، وما أعظم الانتصار الذاتي الذي حققه بهذا الموقف.. وبوقوفه على باب المدينة يمنع أباه من الدخول حتى يأذن له رسول الله ﷺ..

٨ - وانظر إلى رفق النبي ﷺ وحلمه حين عفا عنه، وتركه يدخل المدينة وكأن شيئاً لم يكن، رغم نزول الآيات بتصديق حديث زيد بن الأرقم.

٩ – قد يختلط على المسلم الأمر فلا يميز بين النميمة وبين ضرورة إطلاع القائد على حقيقة ما يجري ويقال، وينتج عن ذلك خلل كبير. فالقائد مسؤول عن تنفيذ مهمة معينة ينبغي أن يحاط علماً بكل ما يجري ويقال حتى يعرف كيف ينجز مهمته ويتحاشى العقبات، ويصحح قبل أن تقع العواقب الوخيمة.. أما النميمة فهي تفسد النفوس، وتثير الأحقاد وتقطع التواصل بين المؤمنين، ولقد أحسن زيد هنا في نقله للنبي الخبر وإلا أكلت نار الفتنة المهاجرين والأنصار؛ ولهذا مدحه النبي (أوفى الله بأذنه).

١٠ – كيف جاءت النتائج في النهاية يا عمر؟ لقد كان قومه يدافعون عنه، لكنهم الآن هم الذين يلومونه.. وحتى ابنه يحاسبه وينحاز للنبي ﷺ..

موقف النبي ﷺ من عمر هنا موقف تعليمي، يطلب منه فيه أن يتأمل العواقب.. وكم نحن بحاجة إلى هذه الدروس التعليمية السنية.. انظر في العواقب ولا تتسرع في الحكم وإعطاء الحلول.

أخيراً: أما آن للمسلمين أن يدعوا النزاع والاقتتال فيما بينهم، تارة على الماء، وتارة على الأرض، وأخرى على ما هو أتفه من ذلك، وإلى متى سنبقى ألعوبة بأيدي المنافقين والخبثاء فنلقي بأنفسنا في النار التي أضرموها، ونعجز عن تحقيق السلام فيما بيننا..؟!

* * *

وهذه أخرى أشد وأدهى..

ما كادت فتنة النزاع على الماء تنطفئ حتى أثار المنافقون فتنة جديدة أشد وأدهى، وذلك في حادثة الإفك التي نزلت فيها آيات من سورة النور لتبرئ أم المؤمنين عائشة مما افتري عليها. وسأسوق خبر الإفك كما روته عائشة رضي الله عنها وإنما باختصار:

كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها

سهمي، وخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعدما نزل الحجاب. فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل، ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل.. فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني، أقبلت إلى رحلي فلمست صدري، فإذا عقد لي من جذع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني فاحتملوا هودجي.. وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب. فتيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون لي، وغلبتني عيناي فنمت. وكان صفوان بن المعطل السلمي قد عرس من وراء الجيش، فأدلج، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني - وقد كان رآني قبل الحجاب - فاستيقظت باسترجاعه، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني حين أناخ راحلته فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول. فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمناها شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، ويريبني في وجعي أني لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذي أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟.. حتى خرجت بعدما نقهت، وخَرَجَتْ معي أم مسطح قِبَل المناصع وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا.. وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها في بيوتنا. فانطلقت أنا وأم مسطح.. وأمها خالة أبي بكر الصديق، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح. فقلت لها: بئسما قلتِ! تسبين رجلاً شهد بدراً؟! فقالت: أي هنتاه ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل رسول الله ﷺ فسلم ثم قال: كيف تيكم؟ فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ - وأنا حينئذ أريد أن

أتيقن الخبر من قبلهما - فأذن لي. فقلت لأمي: ماذا يتحدث الناس به؟ فقالت: أي بنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها.. فقلت: سبحان الله وقد تحدث الناس بها..؟! فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي.

فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما، ويستشيرهما في فراق أهله. فأما أسامة فأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، وأما علي فقال: لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر. فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟ فقالت: والذي بعثك بالحق إن رأيت منها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله.

فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول فقال وهو على المنبر: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، ما كان يدخل على أهلي إلا معي. فقام سعد بن معاذ[1] فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. فقام سعد بن عبادة - سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية، فقال: كذبت، لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل. فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال: كذبت لعمر الله لنقتلنّه، فإنك منافق تجادل عن المنافق. فتثاور الحيان: الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر، فلم يزل ﷺ يخفضهم حتى سكتوا.. فبينا نحن على ذلك (عائشة رضي الله عنها

(١) هنا وهم في الاسم لأن سعد بن معاذ كان قد استشهد بعد بني قريظة.

تبكي ومعها امرأة من الأنصار تبكي وهي في بيت أبيها) إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس.. وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء. قالت: فتشهد ﷺ حين جلس ثم قال: «أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله، وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه». فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله، فقلت وأنا جارية حديثة السّن لا أقرأ كثيراً من القرآن: والله لقد علمت لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقونني، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقنني، فوالله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ثم تحولت فاضطجعت على فراشي. وأنا أعلم أن الله مبرئي ببراءتي. ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، فسري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك.. وقال: «أبشري يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك»، فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل الذي أنزل براءتي. وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ﴾ الآيات العشر كلها.. فقال أبو بكر - وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره -: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/٢٢]، فقال أبو بكر: بلى والله، إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب: «يا زينب ماذا علمت ورأيت»؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري والله ما علمت إلا خيراً. وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك[١]. فلما نزلت هذه الآيات قام رسول الله ﷺ فذكر ذلك وتلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدهم[٢]. أي حد القذف. وهم كما تسميهم روايات أخرى: حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش.

وبعد فقد سبق لي أن تناولت حادثة الإفك بالتفصيل في كتابي (من هدي سورة النور)[٣]. ولا أحب أن أكرر تعليقاتي وسأكتفي بإشارات سريعة:

- ابتداء تلمس حزن النبي ﷺ وشدة تأثره بما يلغط به الناس حتى إنه يبدو ساكناً واجماً عاجزاً عن الإيناس والتلطف.. ومع ذلك فإنه لا يفاتح عائشة بالموضوع، ويبقى ساكتاً عنه شهراً.. فما أعظم صبرك يا رسول الله!.. ولا أظن رجلاً في العالم يطيق مثل هذا الصبر على مثل هذه المحنة وفي أحب الناس إليه، وهو نبي أرسل للناس ليتمم مكارم الأخلاق.. فكيف يدعو الناس إلى الخلق الكريم.. والناس تخوض في عرضه، ولا ينزل الوحي لإنقاذه وإسكاتهم؟!! ولو قام بزجر الناس وعقابهم دون بيان من الله، لقيل رجل يدافع عن عرضه. لقد آثر أن ينفرد بتحمل هذا الألم ولم يخبر عائشة إشفاقاً عليها من هوله..

ثم إنه أخذ يستشير بعض من حوله.. فكان جواب الأكثرية: والله ما علمنا عنها إلا خيراً، وأما علي فكأنه أراد أن يهوّن الأمر على النبي ﷺ - وقد رآه مهموماً متألماً - ولعله شعر أنه يمكن حسم الموضوع من جذوره بفراق السيدة عائشة.. تألم علي رضي الله عنه لألم النبي ﷺ، وأراد أن يخفف عنه لكنّ التعبير خانه،

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.
(٢) رواه الإمام أحمد.
(٣) من هدي سورة النور، ص٤٥.

ونطق بكلمات ليس فيها اتهام السيدة عائشة.. لكنها غير مدروسة، وتوحي بشيء من التحامل أو عدم الثقة. فكيف كان وقع هذه الكلمات على قلب البريئة عائشة رضي الله عنها؟!

لا أظنني أبالغ إن قلت إن هذه الكلمات كانت هي السبب العميق وراء موقف عائشة رضي الله عنها من علي عندما تولى الخلافة.. وكانت هي السبب في معركة الجمل وسقوط المئات من الصحابة قتلى في ذلك اليوم.

وكم نفرط في وصية الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٧٠] مدروساً ومدققاً بحيث لا يقال حتى ينظر في عواقبه، فكم من المعارك نشبت بسبب كلمات طائشة. وصدق من قال:

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

- وأراد النبي ﷺ أن يحسم الأمر فقام يخطب في الناس، وكأنه ينذر من يروج هذه الإشاعة بالعقاب ويستطلع مشاعر الناس وآراءهم عما يدور وإذا به يفاجأ بالشجار ينشب بين الأوس والخزرج حتى كادوا أن يقتتلوا وهو ما زال على المنبر..!! لقد أصبحت هيبة النبي ﷺ في خطر.. وهنا أحس النبي ﷺ أنه لا بد من حسم الأمر عن طريق عائشة رضي الله عنها، فلا بد من مصارحتها لتقول في هذا الأمر كلمة الفصل. إذ إن الأمر فشا دون شهود ولا بينات. ولا بد من وضع حد لهذا اللغط.

- وهنا يبلغ الألم الذروة في نفس البريئة عائشة رضي الله عنها إذ تحس أن كل من حولها لا يقدرون على الدفاع عنها. يرفض أبواها الكلام لأن كلامهما سيفسر على أنه عصبية للبنت. ويوجعها سؤال النبي ﷺ - الذي كان لا بد منه - فلا تجد لنفسها مخرجاً إلا بالركون إلى الله والرضا بعلمه وعدله، وإن كانت لا تطمع في أن ينزل ببراءتها آيات تتلى إلى يوم الدين.. لكن عطاء الله كان أعظم من كل توقع.

- ولهذا افتتحت الآيات الحديث عن هذا المصاب ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ٢٤/١١]، فالمحنة التي لا تقضي عليك تزيدك قوة لأنها تعطيك مناعة فقد تعلمت دروساً جديدة واكتسبت خبرات بسنن الحياة.

- لقد أراد المنافقون بهذه الفرية:

١ - الطعن في عرض النبي ﷺ وصاحبه؟

٢ - الحط من المكانة الأخلاقية للدعوة الإسلامية.

٣ - إشعال نار الفتنة في المجتمع الإسلامي.

فنزلت الآيات:

١ - ببراءة عائشة رضي الله عنها وطهارة البيت النبوي.

٢ - وكشفت المنافقين وخططهم.

٣ - وعلمت المجتمع المسلم كيف يواجه مثل هذه القضايا.

٤ - ونزلت أوامر وتوجيهات تحمي المجتمع من الفاحشة.

٥ - وعلمتهم الآيات أن المشكلة في أخطاء المسلمين لا في كيد أعدائهم.

٦ - وأدرك المسلمون الخسائر الفادحة التي تنتج عن إطلاق اللسان والخوض في إشاعات بدون دليل أو علم.

٧ - ثم مسح الله القلوب وداوى الجراح وأصلح بين عباده، حين علمهم الدواء الذي يعيد للأمة تماسكها ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٤/٢٢].

- إنه درس في تقبل الآخر ولو اخطأ، لأن كل إنسان يخطئ، وكلنا بحاجة إلى من يغفر لنا لأننا نخطئ.. إن تقبل الذات وتقبل الآخر يعطي صحة نفسية، وعندها يصبح الإنسان قادراً على العفو والإحسان.

هذه الأمور كانت هي بعض الخير الذي ناله المجتمع المسلم من وراء هذه الحادثة. وتبقى بعض الإشارات الهامة التي أجدها تستحق التسجيل:

١ - نرى حرص النبي ﷺ - في أول الحديث - على خروج المرأة في الأسفار لتشهد وتشارك فيما تقدر عليه، ومن المعروف أن وجود المرأة في مواضع الخطر يجعل الرجل أشد بسالة وأعلى همة حفاظاً على عرضه من جهة، وحفاظاً على مكانته في نفس المرأة فلا يسقط من عينها إن ضعف وتخاذل.

٢ - عقد عائشة ﵂ يمثل موضوعاً طريفاً فهو سبب في هذه الحادثة، وفي مرة أخرى كان سبباً في نزول حكم التيمم. إذ عسكر الجيش في مكان لا ماء فيه بحثاً عن عقد عائشة، ولم تتلق عائشة ﵂ أي زجر في مسألة عقدها هذا! إن هذا جدير بالتأمل.. إنه الإسلام الميسَّر.. دين الفطرة.. لا يستنكر على الإنسان أن يلبي رغباته البشرية التي لا يؤذي بها أحداً.

٣ - لكن الله أشار إلى خلل سلوكي صدر عن عائشة ﵂ حين قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ [النور: ٢٤/ ٢٣] فالبراءة محببة وممدوحة إلا إذا وصلت إلى حد (الغفلة).. ويخطئ الناس كثيراً حين يقولون: (يا غافل لك الله) بالعكس فإن سنن الله لا تحابي أحداً.. والقانون لا يحمي المغفلين..

ولقد كان على عائشة ألا تذهب للبحث عن عقدها حتى تعلم أحداً بالأمر، ولهذا نزلت الآية في أواخر سورة النور ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور: ٢٤/ ٦٢].

٤ - نلاحظ قلة عدد الذين أقيم عليهم حد القذف في هذه القصة. فهم ثلاثة من المؤمنين، وأما المنافقون فيبدو أنهم كانوا يتكلمون في الخفاء ولم تثبت عليهم التهمة علناً، وما كان رسول الله ﷺ ليعاقب بدون بينة، وكل من يعيش وسط مجتمع مسلم يتمتع بحماية وكرامة فلا يؤخذ بالتهم والظنون ولا بد من البيِّنة، بل إن كان هناك احتمال واحد للبراءة يؤخذ به بحسب القاعدة (ادرؤوا الحدود بالشبهات).

٥ - على المؤمن ألا يطمئن لمكانته فمهما علا مقام الإنسان فإنه معرض للتهم، بل إنه معرض لها أكثر، فلا بد من الابتعاد عن مواضع الشبه حتى تكون التهمة بعيدة التصديق[١].

٦ - المؤمن يغلب الظن الحسن لأنه ينظر للناس من خلال طهارة نفسه، وأما المجرم فإنه يظن السوء بالناس ولا يثق بهم ﴿لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ٢٤/١٢].

٧ - إن كشف بعض أخطاء الصحابة لا يحط من قدرهم بل يزيل الحاجز بيننا وبينهم فهم بشر مثلنا، أخطؤوا وتابوا وارتفعوا إلى أعلى المستويات البشرية، وانظر إلى عفو أبي بكر عن مسطح، وعفو عائشة رضي الله عنها عن حسان بن ثابت، إذ كانت تكرمه بعد ذلك.. هذا الإدراك يساعدنا على العفو والتسامح والإحسان.

* * *

(١) تراجع العبر والفوائد من هذه الحادثة في كتاب من هدي سورة النور، ص٥٨.

٥- غارةٌ على المدينة

لم تمض أيام قليلة على عودة النبي ﷺ إلى المدينة حتى أغار عيينة بن حصن الفزاري في خيل من غطفان على لقاح (إبل حوامل ذوات ألبان) لرسول الله ﷺ بالغابة (موقع قرب المدينة من ناحية الشام) وفيها رجل من بني غفار وامرأة له، فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة في اللقاح، وكان أول من علم بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع السُّلَمي فأشرف في ناحية سلع ثم صرخ: واصُبْحاه (ينذر أهل المدينة) ثم خرج يشتد في آثار القوم، وكان مثل السبع، حتى لحق بالقوم، فجعل يردهم بالنبل، ويقول إذا رمى: خذها وأنا ابن الأكوع، اليوم يوم الرُّضَّع، (جمع راضع وهو اللئيم. أي اليوم يهلك اللئام). فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هارباً ثم عارضهم فإذا أمكنه الرمي رمى وهو يردد قوله.. وبلغ رسول الله ﷺ صياح ابن الأكوع فصرخ بالمدينة: الفزع الفزع.. فترامت الخيول إلى رسول الله ﷺ، فأمَّر عليهم سعد بن زيد وقال: اخرج في طلب القوم حتى ألقاك بالناس..

وأقبل رسول الله ﷺ في المسلمين، وقد قتل - أي سلمة - ثلاثة من المغيرين واستنقذوا بعض اللقاح، وسار رسول الله ﷺ حتى نزل بالجبل من ذي قَرَد فأقام عليه يوماً وليلة. وقال سلمة بن الأكوع: يا رسول الله لو سرحتني في مئة رجل لاستنقذت بقية السرح، وأخذت بأعناق القوم. فقال ﷺ: إنهم الآن ليُغبقون في غطفان (يشربون لبن العشي).

ثم رجع ﷺ قافلاً حتى قدم المدينة. وأقبلت امرأة الغفاري على ناقة من إبل رسول الله ﷺ حتى قدمت عليه فأخبرته الخبر وقالت: يا رسول الله إني قد نذرت لله أن أنحرها إن نجاني الله عليها. فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها، ونجاك بها ثم تنحرينها؟! إنه لا نذر في معصية الله ولا فيما لا تملكين إنما هي ناقة من إبلي، فارجعي إلى أهلك على بركة الله»[1].

وقد ذكر ابن هشام هذه الغزوة - ذي قرد - قبل غزوة بني المصطلق. بينما يقول البخاري: إنها حدثت بعد قصة الحديبية وقبل خيبر. وعنده أن سلمة قال للنبي ﷺ: قد حميت القوم الماء، وهم عطاش، فابعث إليهم الساعة. فقال ﷺ: «يابن الأكوع ملكت فأسجح» ثم رجعنا وردفني رسول الله ﷺ على ناقته حتى قدمنا المدينة.

وفي رواية (فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: خير فرساننا أبو قتادة وخير رجالتنا سلمة، فأعطاني رسول الله ﷺ سهم الفارس والراجل جميعاً ثم أردفني على العضباء (ناقة النبي) راجعين إلى المدينة. فلما كان بيننا وبينها قريب من ضحوة، وفي القوم رجل من الأنصار كان لا يُسبق جعل ينادي: هل من مسابق، ألا رجل يسابق إلى المدينة؟ فأعاد ذلك مراراً، فقلت له: أما تكرم كريماً ولا تهاب شريفاً؟ قال: لا، إلا رسول الله ﷺ. قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي خلني فلأسابق الرجل. قال: إن شئت، فطفرت عن الناقة ثم إني ربطت عليها شرفاً أو شرفين، يعني استبقيت من نفسي، ثم إني عدوت حتى ألحقه فأصك بين كتفيه بيدي قلت: سبقتك والله، قال: فضحك وقال: إن أظن. فسبقته إلى المدينة[2] فلم نلبث إلا ثلاثاً حتى خرجنا إلى خيبر.

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص٢١٠.
(٢) البداية والنهاية، ٤/ ١٥٣.

ها هو سيد بني فزارة عيينة لا يجد في نفسه غضاضة من أن يغير على إبل تسرح خارج المدينة وينهبها، تلك هي حياة العرب قبل الإسلام: الإغارة والسلب والنهب، فيتصدى لملاحقة المغيرين عدّاء المدينة سلمة بن الأكوع بعد أن صاح بأهل المدينة منذراً، وفي النهاية يتمكن المسلمون من إنقاذ الموقف وإن كان لسلمة النصيب الأوفى.. لكن سلمة لا يكتفي ويقول للنبي: يا رسول الله لقد منعتهم من الماء وهم الآن عطاش وهذه فرصة لملاحقتهم والقضاء عليهم. فيرد النبي ﷺ: «يابن الأكوع ملكت فأسجح» تلك هي سماحة النبي وتعليمه لأصحابه. لقد كان ﷺ يتتبع جذور الجاهلية في قلوب أصحابه ليقتلعها، فلقد جاء الإسلام ليرفع الإنسان إلى أعلى مستوى ممكن: العفو مع العدو والرحمة به.

- وندهش أثناء قراءة الخبر من سرعة الاستنفار في الصف المسلم.. فما هو إلا نداء حتى تنطلق الخيل بالمسلمين.. وهذا يدل على حالة الحرب التي يعيشونها وعلى قوة الإيمان والاستعداد للبذل في سبيل الله.

- وتأمل في قول رسول الله ﷺ للمرأة عن الناقة: بئس ما جزيتها.. فما أعظم هذا القلب المحب حتى للحيوان.

ويجد في الحادث فرصة لتعليم شروط النذر، فالعبادة تكون بالمعقول وبما تملك.. والإسلام يرفض المعاصي لأنها طريق الأذى واللا معقول.

- وانظر إلى تكريم النبي ﷺ لمن أجاد فهو يخص أبا قتادة وسلمة بشيء من المديح، ويعطي العداء سلمة رعاية خاصة، ويسمح له بالتسابق مع الأنصاري، لقد كان يعيش معهم حياة مليئة بالاستمتاع البريء ينطلق فيها الأصحاب على سجيتهم في تنافس أخوي مرح.

ونلمس في الخبر روح البداوة حيث يقاس المكان بالزمان (حين وصف بعدهم عن المدينة بأنه ضحوة) ويعبر عن بعد المغيرين بأنهم يشربون لبن المساء في قومهم..

ولا بد لقارئ السيرة أن يستحضر الظروف ويعيش ذاك الزمان وذاك المكان حتى يفهم حق الفهم، ويقدر بعد ذلك على التقاط روح المنهج والخلق النبوي ليعيشه في عصرنا..

ولا أنسى ما قاله العلامة حسين فضل الله مرة عند الحديث عن النبي وسيرته: (بما معناه): (نحن لا نريد أن نعود إلى حياة النبي ﷺ في ذلك الزمان.. ولكن نريد أن نأتي بالنبي ليعيش معنا في عصرنا).

فهنا بيت القصيد.. لو كان محمد ﷺ في عصرنا كيف كان يحيا؟

هذا بحث يستحق منا كل جهد..

* * *

القوة العسكرية والشعر قوة في الميدان

قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٠].

ما قوة ذاك الزمان وذاك المكان؟

إنها القوة العسكرية.. والشعر الذي كان العرب يعقدون له مواسم وأسواقاً مثل سوق عكاظ، حيث يلقي الشعراء قصائدهم ويختار أفضلها لتكتب على أستار الكعبة وتسمى المعلقات.

ولقد عني رسول الله ﷺ بهاتين القوتين، وشجع سمرة ورافعاً على أن يتصارعا أمامه.. وقال: ألا إن القوة الرمي..

ولقد شجع رسول الله ﷺ الشعراء المسلمين على قول الشعر في الإسلام ومعارك المسلمين، فكان حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة يردون على المشركين ويقارعون شعراءهم بالبيان.. وكم سمعت المسلمين يستشهدون بالآية: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾ وبأحاديث النبي ﷺ السابقة ليبرهنوا على

صواب السعي وراء أفتك الأسلحة في هذا العصر وقد غاب عنا أن قوة عصرنا هي قوة العلم.. وأن الذين وصلوا إلى أفتك سلاح (السلاح الذري) محتارون الآن في كيفية التخلص منه.. إن روسيا لا تزال تتحطم وتتمزق أمام أعيننا رغم أنها السباقة في السلاح الذري، وذلك لأنها مارست الاستكبار على الناس وهو نقص في العلوم الإنسانية.. لأن المبادئ والأخلاق والقيم الإنسانية أصبحت الآن علوماً تدرس.. والجاهل فيها لا بد له أن يسقط ..﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٢٠/٨١]. ومن لم يصدق فلينظر في الماضي والحاضر كيف يتساقط الطغيان..

إن الذين يستشهدون بالآية لا يخطر في بالهم أن يجهزوا الخيل للحرب مع أن الآية تقول: ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٨/٦٠] لأن الخيل لم يعد لها قيمة في الحروب العصرية.. فلماذا لا ننتبه إلى التغير الأكبر الذي حدث، وهو أن العدو لا ترهبه الأسلحة المادية الآن لأنه يستطيع بما عنده من علم بالأمم وثقافاتها أن يحول السلاح إلى صدور حامليه، لقد أصبح السلاح الذي بين أيدي العرب وبالاً عليهم ومصدر ربح لأعدائهم.

وها هي اليابان تقف في العالم قوة كبرى بسبب العلم والصناعة والدأب في العمل.. دون عسكري واحد ولا قطعة سلاح واحدة..

ثم ما الأسلحة التي يفكر فيها المسلمون..؟!

هل يشترونها من أعدائهم؟ وهل يعقل أن يبيعك عدوك سلاحاً تنتصر به عليه..؟ يقولون: لا. نريد أن نصنع أسلحتنا بأيدينا.. فماذا تصنّعون؟ كل الأسلحة التي دون الذرية لم يعد لها قيمة.. فهل تصنّعون سلاحاً ذرياً؟! وهل تظنون أن إسلامنا يبيح صنع هذا السلاح الذي لا يبقي ولا يذر..؟!

كيف يتساهل المسلمون في هذه القضية، ولا يحسون حاجة إلى فتوى شرعية في هذا الأمر؟!

وفي وقت تدعي فيه الأمم القوية بأنها تريد إنهاء الأسلحة الذرية وتحقيق السلام للعالم، يظن العالم الإسلامي أن سبب ضعفه وعجزه هو عدم امتلاك السلاح.. فماذا فعل المسلمون بالسلاح في حربي الخليج..؟! ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ٩/١٢٦]..؟!

* * *

الباب
الخامس

صلح الحديبية

١- خروج النبي ﷺ للعمرة.

٢- قريش تأبى دخوله.

٣- حرص النبي ﷺ على السلام.

٤- الصلح هو الفتح المبين.

٥- خطوة إعلامية حان أوانها.

١- خروج النبي ﷺ للعمرة



خريطة خروج النبي ﷺ إلى الحديبية

حنين إلى البيت الحرام..

في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة خرج رسول الله ﷺ معتمراً لا يريد حرباً، واستعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي، واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت، فأبطأ عليه كثير من الأعراب، وخرج ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار، ومن لحق به من العرب، وساق معه الهدي وأحرم بالعمرة؛ ليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً للبيت معظماً له.

يقول جابر: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مئة. حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال: يا رسول الله! هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل (الحديثة النتاج من الإبل والمطافيل التي معها أولادها. أي خرجوا بذوات الألبان ليتزودوا منها ولا يرجعوا..)، وقد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طوى (موضع قرب مكة) يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموا إلى كراع الغميم (واد أمام عسفان). فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة..!! فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة»[1]. ثم قال: «من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها»؟ فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله! فسلك بهم طريقاً وعراً أجرل (كثير الحجارة) بين شعاب. فلما خرجوا منه - وقد شق ذلك على المسلمين - فأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي قال رسول الله ﷺ: قولوا نستغفر الله ونتوب إليه. فقالوا ذلك، فقال: والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها. قال: اسلكوا ذات اليمين..

---

(١) السالفة: صفحة العنق.

في طريق يخرجه على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة، فلما رأت خيل قريش قترة الجيش قد خالفوا عن طريقهم ركضوا راجعين إلى قريش. وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك ثنية المرار بركت ناقته فقال الناس: خلأت، فقال: ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها، ثم قال للناس: انزلوا، قيل له: يا رسول الله ما بالوادي ماء ينزل عليه، فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل به في قليب من تلك القُلُب (الآبار) فغرزه في جوفه فجاش بالرواء، حتى ضرب الناس عنه بعطن (مبرك الإبل حول الماء). فلما اطمأن رسول الله ﷺ أتاه بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة فكلموه، وسألوه: ما الذي جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمته، ثم قال لهم نحو ما قال لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش! إنكم تعجلون على محمد، وإنه لم يأت لقتال إنما جاء زائراً لهذا البيت. فاتهموهم وجبهوهم، وقالوا: وإن جاء لا يريد قتالاً.. فوالله لا يدخلها علينا عنوة ولا تحدث بذلك عنا العرب. وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله ﷺ مسلمها ومشركها لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة.

* * *

٢- قريش تأبى دخوله

ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأضيف، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: هذا رجل غادر. فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلمه قال له ﷺ نحواً مما قال لبديل وأصحابه، فرجع إلى قريش فأخبرهم، ثم بعثوا بحُلَيس بن علقمة أو ابن زبان، وكان يومئذ سيد الأحابيش.. فلما رآه رسول الله ﷺ قال: إن هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه. فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال لهم ذلك. فقالوا له: اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك، فغضب عند ذلك وقال: يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم. أيُصَدُّ عن بيت الله من جاء معظِّماً له؟! والذي نفس الحليس بيده لتخلُّنَّ بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفِرنَّ بالأحابيش نفرة رجل واحد! فقالوا له: مَهْ، كُفَّ عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به. ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال: يا محمد، أجمعت أوشاب الناس (أخلاطهم) ثم جئت بهم إلى بيضتك (عشيرتك) لتفضها بهم؟! إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً. وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا

عنك غداً! وأبو بكر الصّديق خلف رسول الله ﷺ قاعد فقال: امصص بظر اللات.. أنحن ننكشف عنه؟! قال: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أبي قحافة. قال: أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بها. ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد، فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ﷺ ويقول: اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل ألا تصل إليك! فيقول عروة: ويحك ما أفظك وأغلظك!! فتبسم رسول الله ﷺ فقال له عروة: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة. قال: أي غُدَر. وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس؟ (ويقصد تذكيره بما دفع من دية لثلاثة عشر قتيلاً من بني مالك من ثقيف قتلهم المغيرة قبل إسلامه. إصلاحاً بين حيين من ثقيف). فكلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم به أصحابه وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً. فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ إلا وابتدروا وضوءه، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه. فرجع إلى قريش، فقال: يا معشر قريش. إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه! وقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً. فَرَوْا رأيكم.

وإن رسول الله ﷺ دعا خِراش بن أمية الخزاعي، فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على بعير له يقال له (الثعلب) ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له. فعقروا جمل رسول الله ﷺ، وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ، ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له. فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجل أعزّ بها مني: عثمان بن عفان، فدعا رسول الله ﷺ عثمان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء

زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته. فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلّغ رسالة رسول الله ﷺ. فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل[1]..

نقف في الخبر هنا حتى نتأمل الأحداث وما توحي به:

- نلاحظ منذ البداية حرص النبي ﷺ على توضيح مقصده من الخروج فهو يستنفر العرب من حوله ليخرجوا معه للعمرة، من القبائل والبوادي، والخبر لا يوحي بأنه يستنفر المسلمين منهم فقط.. بل كل من يريد العمرة من غير المحاربين له، وهو بذلك يجعل قريشاً في موقف حرج فقد استخدم أساليب الإعلام لذلك العصر في توضيح مقصده، وهو مقصد لا تملك قريش شرعية صده عنه. ثم إنه أحرم وساق سبعين بدنة هدياً للكعبة، وهذا يؤكد قصده.

- لكن قريشاً تعتبر ذلك تحدياً لإرادتها وسلطانها فتخرج لقتال المسلمين وقد عاهدت الله ألا تسمح لهم بدخول مكة.. لقد شعروا بأن سلطانهم على الحرم مهدد بالزوال إن دخل محمد وأصحابه معتمرين، إنها الكبرياء الفارغة..

* * *

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص٢٢١ - ٢٢٥.

٣- حرص النبي ﷺ على السـلام

«يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب».. لِمَ تركب قريش رأسها..؟ ولِمَ يسلِّم الإنسان نفسه للحقد والبغض حتى يصبح أداة دائمة للحرب..

إن تعبير النبي ﷺ هنا عجيب في دلالته.. لقد استحوذت الحرب على تفكيرهم كلِّه فما عادوا يرون أي حل آخر غيرها.. لقد أكلت قلوبهم ثم وجودهم.. ولو كان فيهم ذرة بصيرة لتركوا أمر محمد ﷺ للعرب..

تتأمل قدرة النبي ﷺ على وزن المواقف بعواقبها.. إنه يستعرض الحلول الممكنة ويضع نفسه في مكان الخصم ليقارن بين الخيارات لاختيار أقلها غرماً.. لقد كان بإمكان قريش أن تترك محمداً للعرب.. فإن انتصر العرب عليه ارتاحوا منه.. وإن انتصر هو دخلت في الإسلام سالمة غانمة.. فإن لم ترد ذلك قاتلته وهي ما زالت بقوتها لم توهنها المعارك.. لكن قريشاً اختارت أسوأ الخيارات.. الحرب الدائمة لمحمد ﷺ..

حديث النبي ﷺ هنا مليء بالواقعية وينطلق من مصالح قريش الدنيوية.. ويكشف عن قدرة رائعة في التحليل والتخطيط والحديث مع الخصم ضمن مصالحه.

لكن الخصم حين تأكل قلبه الكراهية يفقد القدرة على رؤية مصالحه.. ويغدو عدو نفسه، فيسلمها طعاماً لنار الحرب التي تأكل الأخضر واليابس.

- لكن الصورة معكوسة الآن.. ويا ويح المسلمين لقد أكلتهم الحرب.. ولو أنهم تركوا روسيا لمشاكلها الداخلية (النفسية والاجتماعية) لقضت عليها وأراحتهم منها.. ولحافظوا على طاقاتهم لبناء أنفسهم.

لكن المسلمين - معظمهم - الآن قد أكلتهم الحرب. منحوها قلوبهم وأموالهم وجل اهتماماتهم.. فمزقتهم إرباً وجعلت حياتهم سعيراً.

- وانظر إلى تصميم النبي وثباته على الحق مهما عرَّضه ذلك للمخاطر.. «حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة»..!

- ويأمر أصحابه بتغيير الطريق حتى يتجنب الصدام مع قريش ويبعد شبح الحرب، ويسلكون في سبيل ذلك طريقاً شاقاً وعراً.. لأن طريق الحرب أشد وعورة.

- بركت الناقة بأمر الله لتحقيق خير كبير لكل الناس. فتأمل قول النبي ﷺ: «حبسها حابس الفيل»، إنه ﷺ يستحضر التاريخ ويقارن الأحداث بعضها مع بعض ويستخرج السنة والقانون.. فهذا بلد الله الحرام وما يجوز لأحد أن يدخله بالقوة والقهر.. ولا يجوز أن يحصل عنده نزاع؛ لأن الله جعله مثابة للناس وأمناً.. إنه منارة أمن للناس في كل زمان ومكان كي يدركوا نعمة الأمن ويحاولوا الارتقاء لتحقيقه في كل مكان وزمان.

ولهذا يعلن النبي ﷺ قراره: «لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها».

- وتتدخل خزاعة لاستجلاء الموقف وتسكين قريش وتطمينها أن محمداً ﷺ لا يريد حرباً.. لكن قريشاً تقول: والله لا يدخلها علينا عنوة..

وبدأت الرسل تتنقل بين الطرفين. ونتأمل فراسة النبي ﷺ في الرجال حيث يقول حين يرى مكرز بن حفص مقبلاً: هذا رجل غادر..!! كيف عرف؟ لابد أن للأخلاق آثاراً وعلامات في الحركات وسيماء الوجه..

ويقول حين يرى الحليس بن علقمة قادماً: هذا من قوم يتألّهون ويعرفون للشعائر والعبادات قدرها.. ويأمر أصحابه أن يبعثوا الهدي (الإبل)[1] في وجهه.. فلما رآها رجع إلى قريش قبل أن يصل إلى النبي ﷺ إعظاماً لما رأى.

هذه المعرفة بالأشخاص وأخلاقهم وبعادات كل قبيلة.. أعطت النبي ﷺ اقتداراً عظيماً في حسن التعامل والتأثير. وما أحوجنا نحن إلى الدراسات الإنسانية لكشف مفاتيح الآخر.. فقد كان رسول الله ﷺ يفتح القلوب بعلمه وحبه لربّه ثم للآخر.. أما حبه لربّه فقد جعله متفانياً صابراً مصمماً على المضي في درب الله، وأما حبه للآخر فقد أعطاه الرحمة والتصميم على إنقاذه. وأما علمه فهو الذي جعله يخاطب الناس على قدر عقولهم وبحسب اهتماماتهم.

- فانظر إلى أثر ذلك على الحليس وغضبه من قريش: والذي نفس الحليس بيده لتخلُّنَّ بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرنَّ بالأحابيش نفرة رجل واحدا!.. فإذا بهم يحاولون ترضيته - بعد أن سخروا منه وقالوا: إنما أنت أعرابي لا علم لك - ويطلبون منه أن يتأنى بهم.

- أما عروة بن مسعود الثقفي فيبدو داهية محنّكاً يحاول زعزعة التلاحم بين النبي ﷺ وأصحابه.. مما جعل أبا بكر يغلظ له في القول..

ويعترف عروة بأن لأبي بكر فضلاً عليه يجعله يترك الرّد بالمثل على أبي بكر. و (الفضل ما شهدت به الأعداء) وهو أمر ذو أثر بالغ في انتشار الدعوة.. ونعود إلى عروة ومحاولاته.. ورسول الله ﷺ يستمع إليه هادئاً مبتسماً.. وأما الأصحاب فقد صدرت منهم حركات عفوية تشي بمقدار حبّهم لنبيهم.. فالمغيرة يقول له:

---

(١) الهدي: ما خصص هدياً للكعبة من المواشي وتوضع له القلائد علامة.

اكفف يدك قبل ألّا تصل إليك، وآخرون يسارعون إلى ماء وضوء النبي ﷺ وما يسقط من شعره..

وفي اعتقادي أن رسول الله ﷺ لم يعترض على حركاتهم تلك في هذا الموضع كي يُشعر عروةَ - والمشركين من ورائه - بمقدار ما هو عليه من تمكُّن ومنعة. وهي حرب معنوية لخذلان المشركين تكسر حدة الشرّ في قلوبهم.

وفعلاً يرجع عروة بالرسالة الضمنية التي أراد لها النبي ﷺ أن تصل إلى المشركين: والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه! وقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً. فَرَوْا رأيكم.

- ومع ذلك فإن قريشاً لم تهدأ ثائرتها.. وكادت أن تقتل مبعوث النبي خراشاً بعد أن قتلت جمله، ويستمر النبي في محاولة البيان وتسكين الغضب.. فيفكر بإرسال عمر بن الخطاب.. لكن عمر - تلميذ النبي - متفهم للظروف مدرك لمقصد النبي، فيلفت نظر النبي إلى أنه ليس الشخص المناسب لهذه المهمة، فقريش لا تحب أن تسمع له، أما عثمان فهو عزيز بقومه هين لين محبوب من قريش، ومع ذلك فقد منعته قريش من العودة..

- وتأمل حبّ عثمان لرسول الله ﷺ، وقد عرضوا عليه أن يطوف بالبيت إكراماً له.. لكنه يقول: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ..!!

وهكذا تمضي الأحداث في محورين:

محور يتحرك فيه المشركون، يتأجج فيه الغضب، ويستعصي على محاولات التسكين من القبائل المجاورة والعقلاء فيهم..

ومحور يتحرك فيه النبي ﷺ بالسكينة والحكمة لإطفاء الحرب وإقرار السلام يمسك فيه زمام أصحابه حتى لا يستفزهم الغضب.. ويحاول تسكين غضب قريش بكل ما يملك من وداعة وإرسال من يبلّغ عنه..

فهل يمكن التقريب حتى يلتقي المحوران..؟!

وكيف يواجه المسلمون الإشاعة بأن قريشاً قد قتلت عثمان؟

* * *

بيعة الموت أم بيعة الرضوان؟!

حقاً لقد تجاوزت قريش كل الحدود..! لقد حاولت قتل مبعوث النبي (خراش بن أمية).. ثم تقتل عثمان..؟!

ولقد كانت الأعراف كلها في ذلك العصر تمنع قتل الرسل والسفراء..

لقد صبر النبي ﷺ ولزم السكينة إلى أقصى حد.. وكبح زمام الغضب عند أصحابه بكل ما يملك.. ولكن أيقتل عثمان..؟!

التفت النبي ﷺ إلى المسلمين قائلاً: لا نبرح حتى نناجز القوم. ودعاهم إلى البيعة. وكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة.

وكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، وكان جابر يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت ولكن بايعنا على ألا نفرّ.

فبايع رسول الله ﷺ الناس ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجدّ بن قيس أخو بني سلمة. وكان جابر يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد ضبأ (لصق بها) يستتر من الناس.

وبايع رسول الله ﷺ عن عثمان - غيابياً - فضرب بإحدى يديه على الأخرى.

ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل[1].

نتأمل سلوك النبي ﷺ أمام هذه الإشاعة:

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ١٦٧.

- إنه يضع في حسابه أسوأ الاحتمالات ويخطط لمواجهته.. ولا يتسرع في التنفيذ حتى يتأكد من الخبر. وهو سلوك في منتهى الإحكام والدقة. فإن جاء الأمر بحسب أسوأ الاحتمالات.. تكن له مستعداً.. وإن لم يكن ذلك فقد كفيت ولم تخسر شيئاً.. وهكذا تكون رحمة الله قريباً من المحسنين، الذين يحركون عقولهم إلى أقصى حدّ، ويتقنون أعمالهم بحسن التخطيط والعمل، فهم جاهزون لكل احتمال، فكيف تخطئهم رحمة الله..؟! إنهم مستعدون لاقتناصها في الحرب والسلم.. حقاً ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٥٦] وحدهم..

- سميت هذه البيعة بيعة الرضوان لأن الله تعالى قال فيها: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٤٨/١٨]، فهي في الحقيقة بيعة الرضوان والسكينة وفيها البشارة بالفتح القريب.. الذي هو صلح الحديبية - وهو ما أرجحه - الذي كان عظيم الأثر والبركات كما سنرى. وقد أحسن جابر ﷺ التعبير حين قال: لم نبايع على الموت بل بايعنا على ألا نفرّ.. بايعنا على الحياة الحقة.. بايعنا على إثبات الذات.. لا على الانسحاب.. فإن الموت هو التملص من حمل الأمانة والتخاذل عن نصرة الحق، هؤلاء من وصفهم الله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ١٦/٢١]. ولعمري إنها لشهادة رائعة قد نالها أصحاب هذه البيعة؛ فقد علم الله ما في قلوبهم وأعطاهم على ذلك: الرضوان والسكينة والفتح القريب..

- وتأمل في هذا المتخلّف عن البيعة كيف ينكمش ويستتر بناقته عن عيون الناس..! لقد كان حرّاً في ألا يبايع.. لكن المجتمع كله يستنكر موقفه.. فانظر إلى أبعاد الحرية الفردية في ظل الإسلام.. وانظر إلى أثر المجتمع في نفوس الأفراد.. فإذا كان المجتمع على حق فما أعظم أن تقمع النوازع الشريرة بهذا الشكل، وأما إن كان على باطل فما أعظم جهاد الفرد في الجهر بالمعارضة.

- وانظر إلى حبّ النبي ﷺ لأصحابه فلا يهمل أمر الغائب وصاحب العذر، فهو يبايع نيابة عن عثمان. ويعلن ذلك على الملأ ليتعلم أصحابه.

❀ ❀ ❀

ذكريات.. أم قداسة؟!

ذكرت قول قيس في الديار وذكرياتها:

أمرُّ على الدِّيارِ ديار ليلى   أقبِّلُ ذا الجدارَ وذا الجدارا
وما حبُّ الديارِ شَغَفْنَ قلبي   ولكنَّ حبُّ من سكنَ الديارا

قلوب الشعراء والأدباء مرهفة في حنينها.. وكل إنسان تمرُّ به ساعات تعصف فيها الذكريات حتى يودُّ لو يقبِّل جدران بيت سكن فيه يوماً ما ويعانق أشجار حديقته.. غبت عن بلدي دمشق مرة لمدة سنة وبعض سنة.. فلما عدت إليها كاد قلبي يطير مع غيومها، وطفرت من عيني الدموع وأنا أملأ صدري من هوائها العليل.. وكدت أعانق أشجار الياسمين المشعة على جنبات شوارعها.. ها هو بيتنا الذي ضمَّ أفراحنا وأتراحنا. وها هو مسجد الحي الذي طالما تدارسنا فيه القرآن.. سقى الله تلك الأيام. الذكريات مشاعر مليئة بالصفاء والجمال لا يعترض عليها إلا من قُدَّ قلبه من حجر.. لكن تصعيد هذه المشاعر حتى تصل إلى تقديس الأماكن أمر خطير جداً يودي بالإنسان إلى مهاوي الشرك.

ولقد رأى عمر بن الخطاب المسلمين في زمن خلافته.. يطوفون بالشجرة التي بايع المسلمون تحتها بيعة الرضوان.. فخاف عليهم أن تتطور هذه المشاعر وتنحرف.. وتجرفهم إلى التقديس والشرك.. وهم حديثو عهد بالتوحيد، ولم يمض على إزالة الأصنام من الكعبة سوى بضع سنين.. فما كان منه إلا أن أمر بقطعها وإزالة كل أثر لها.. ولعمري إنه لعمل عبقري من عمر تلميذ محمد ﷺ.. فإن المسلمين حتى الآن وفي عصر العلم والتنور يكادون يسقطون أمام كل خرافة ويتبركون بآثار المشايخ..

❀ ❀ ❀

٤- الصلح هو الفتح المبين

كتابة الصلح

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ وقالوا له: ائت محمداً فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدّث العرب عنا أنه دخلها عنوة أبداً. فأتاه سهيل، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: قد أراد القوم الصلح حيث بعثوا هذا الرجل. فلما انتهى سهيل إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام وتراجعا. ثم جرى بينهما الصلح. فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أوَلسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلامَ نعطي الدنيّة في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر، الزم غرزه (الغرز للرجل بمنزلة الركاب للسّرج، أي الزم أمره) فإني أشهد أنه رسول الله. قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال: بلى. قال: أوَلسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أوَليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلامَ نعطي الدنيّة في ديننا؟ قال: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيّعني. وكان عمر رضي الله عنه يقول: ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي

صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمته يومئذ حتى رجوت أن يكون خيراً. ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب باسمك اللهم. فقال ﷺ: اكتب باسمك اللهم. فكتبها ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو. فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال ﷺ: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيلَ بن عمرو: اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكفّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردَّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردّوه عليه. وإن بيننا عيبة مكفوفة (العيبة وعاء من جلد يكون فيه المتاع، وضرب ذلك مثلاً للقلوب التي طويت على ما تعاقدوا عليه) وإنه لا إسلال ولا إغلال (الإسلال: السرقة الخفية والإغلال: الخيانة). وإنه من أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده. وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وإنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الراكب: السيوف في القُرب، لا تدخلها بغيرها.

فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو جندل ابن سهيل بن عمرو يرسُف في الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ. وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا، وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ. فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمَّل عليه رسول الله ﷺ في نفسه، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون. فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه (جمع عليه ثوبه عند صدره وقبض عليه يجره) ثم قال: يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك

قبل أن يأتيك هذا. قال ﷺ: صدقت. فجعل يَنتُره بتلبيبه ويجرّه ليردَّه إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين..أأُردُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟! فزاد ذلك الناس إلى ما بهم، فقال ﷺ: يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم.

فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول: اصبر يا أبا جندل فإنهم مشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب! ويدني عمر قائم السيف منه، يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه! فضنَّ الرجل بأبيه ونفذت القضية.

فلما فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجالاً من المسلمين والمشركين: أبو بكر الصّديق وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن سهيل بن عمرو وسعد بن أبي وقاص ومحمود بن مسلمة ومكرز بن حفص (وهو يومئذ مشرك) وعلي بن أبي طالب (بالإضافة إلى أنه كاتب الصحيفة)[١].

فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا» فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس. فقالت: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم حتى تنحر بُدْنَك وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً.

* * *

(١) البداية والنهاية، ١٦٨/٤.

استثناء المرأة بسورة الممتحنة

ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ١٠]. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك. فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية[١]. ثم رجع النبي إلى المدينة.

أقف لأتأمل هذا الصلح ومعاناة الصحابة منه، فقد منعوا من العمرة بلا مبرر، وفرضت عليهم شروط في الصلح رأوا أنها قاسية.. حتى إن عمر يحتج ويتساءل: علام نعطي الدنيَّة في ديننا..؟!

حتى إن رسول الله ﷺ يأمر أصحابه أن يتحللوا فلا يستجيبون..؟! وما ذلك إلا لقصر نظر يتحكم في الإنسان حين تستهلكه الأمور الآنية العاجلة ولا ينتبه إلى العواقب البعيدة للأمور. ولو كنا في مكانهم لتألمنا وغضبنا أكثر منهم لأننا لا نرى أبعد من أنوفنا.. ولولا ما سجله التاريخ من عواقب لهذا الصلح العظيم لما أدركنا ولا أبصرنا.. فلنعد إلى الخبر:

١ - ها هو رسول الله ﷺ يرى سهيلاً مقبلاً فيقول: أرادت قريش الصلح بإرسال هذا الرجل.. وهي تزكية من النبي ﷺ لسهيل فهو أحد وجهاء مكة العاقلين الذين يحترم رأيهم وكلمتهم.. وربما ظهرت على تقاطيع وجهه مبادرات الصلح والسلام.. ورسول الله ﷺ بارع في فراسته.

٢ - نتأمل سكينة أبي بكر أمام الحادث.. فهو يعجز عن بيان الحكمة من هذا الصلح لعمر.. لكنه يسلِّم لله ورسوله ويرضى.. ومن رضي فله الرضى.. وما أعذب سكينة الإيمان التي تجعل المؤمن مستأنساً بالركون إلى ربِّه.

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ١٧٦.

٣ - ونتأمل ندم عمر ﷺ الذي أحس أنه تجاوز حدود الإيمان بهذا الاحتجاج والغضب.. فيكثر من النوافل والعبادات ليكفر عن نفسه هذا الموقف.

٤ - أما رسول الله ﷺ فهو قمة في الثبات والرسوخ، إنه يدرك بيقين أن هذا الدين سينتشر لأنه الحق والخير للناس.. والمشركون سيرغبون به أكثر عندما يرون حرص النبي ﷺ على موادعة قومه وإطفاء غضبهم ومنحهم بعض ما يطلبون.. ولقد أحسَّ ﷺ منذ بركت ناقته أن الله يوجهه إلى ذلك.

٥ - ولقد كان سعي قريش إلى هذا الصلح إنجازاً عظيماً.. لأنها بذلك قد اعترفت بالمجتمع الجديد الذي بناه محمد ﷺ، وكان ذلك ثمرة صبر وجهاد طويل منه ﷺ. وإن كان سهيل ما زال يكابر ويتعنَّت في الكتابة، لا نعرف الرحمن، لا نعترف بنبوَّتك، لكن رسول الله ﷺ يستوعبه ويحترم رغبته ما دام لم يفرض عليه صيغة تدل على الكفر (كأن يقول: باسم هبل).

٦ - أما شروط هذا الصلح فلا نستغرب منها إلا واحداً.. فقد قبلت قريش أن تلتزم بالاستقامة في وعودها (لا إسلال ولا إغلال) لكنها فرضت شرطاً جائراً بشأن من يلجأ إلى المسلمين من قريش دون إذن وليه.. فعلى محمد ﷺ أن يردَّه. لكننا نرى الأمر يتحول لصالح المسلمين حين نتأمل العواقب.. فلقد أثبتت بنود الصلح والأحداث الواقعية أن المسلمين لا يستبيحون إكراه الإنسان في دينه.. فمن ارتدَّ عن الإسلام فليذهب حيث يشاء بينما أثبت المشركون عكس ذلك فهم مصممون على إكراه الناس وفتنتهم في دينهم. ولقد كانت قريش بذلك تحفر قبرها بيديها. فإن هذا الإنسان الذي تزدهر في أعماقه نفخة من روح الله يكره الإكراه ويتمرد عليه.

• • •

قريش تطلب إلغاء شرطها الظالم

رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير - رجل من قريش - وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا. فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً. فاستلّه الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت ثم جربت.

فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه. فأمكنه منه فضربه حتى برد. وفرّ الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو. فقال ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعراً» فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول. فجاءه أبو بصير فقال: يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمّتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم. فقال النبي ﷺ: «ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر. وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو فلحق بأبي بصير. فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عِصابة، فوالله ما يسمعون بِعِيرٍ خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل إليهم فمن أتاه فهو آمن. فأرسل النبي ﷺ إليهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٤](١).

فها هي قريش نفسها تعاني من شرطها الجائر وصدق من قال: (على الباغي تدور الدوائر)، بينما يعطي محمد ﷺ الحرية للإنسان في اختيار دينه وفكره وبلده. فإذا بها تناشده أن يلغي شرطها الظالم المشؤوم ذاك..

بأبي أنت وأمي يا رسول الله كم كان موقفك رائعاً أثناء كتابة هذا الصلح في هدوئك وسكينتك.. في ثقتك بربك وسننه في الحياة وبالحق الذي تدعو الناس إليه، كنت تنظر إليهم من عليائك برحمة وإشفاق وعينك تستشرف المستقبل،

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ١٧٦.

وكأنك تقول: تكلموا ما شئتم واكتبوا ما شئتم.. فإن التاريخ سيكتب للحق وينحاز إليه.. ولن تستطيعوا منع الحق من الإشراق والانتشار.. ولا حتى عن أنفسكم.

٧ - يقول الزهري عن الآية: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧/٤٨]: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه (أي صلح الحديبية). إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس كلُّم بعضهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة. فلم يكلَّم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه. ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر. قال ابن هشام: والدليل على ما قاله الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مئة رجل في قول جابر. ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف[١].

- ولقد تحدث الباحثون كثيراً عن معجزات النبي ﷺ ومنها في هذا الموطن:

انبثاق الماء للمسلمين.. فقد جاؤوا إلى النبي ﷺ يشتكون: ليس عندنا ما نتوضأ به ولا ما نشرب إلا ما في ركوتك، فوضع النبي ﷺ يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون[٢].

لكن المعجزة الكبرى أنه جاء بقرآن يعلم الناس سنن الحياة في زمن لم يعرف الناس فيه العلوم الإنسانية.. من مثل: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧/١٣].. ومحمد ﷺ يتحرك وفق هذه السنن وينتصر بها..

٨ - وأتأمل صبر أبي جندل واستعجال عمر في ذلك الموقف.. لقد أسلم

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ١٧٠.

(٢) رواه البخاري.

سهيل - والد أبي جندل - بعد ذلك يوم الفتح وحسن إسلامه.. ووقف في أهل مكة خطيباً عندما كادوا أن يرتدّوا فثبّتهم على الإسلام[1] أليس هذا أفضل وأعظم بكثير من قتله يا عمر؟! ألم يقل رسول الله ﷺ عنه: «إنه عسى أن يقوم مقاماً نحمده عليه» ولكننا جميعاً نستعجل.. لأننا محرومون من رؤية المستقبل.. أما من عرف سنن الله وقوانينه في الحياة فهو القادر على التنبؤ بالمستقبل، وهو الراسخ في الفكر والعمل.

حقاً إن نتائج الحب والرحمة مع الآخر مذهلة..!!

٩ - ولأول مرة في الخبر نعلم أن مع رسول الله ﷺ زوجته أم سلمة في ذلك اليوم..!! معنى ذلك أنه كان هناك نساء مؤمنات خرجن للعمرة مع النبي ﷺ يومها.. فهل بايعن بيعة الرضوان؟ أم كانت بيعة للرجال فقط؟

لم أجد في المراجع التي بين يدي شيئاً عن هذا الأمر.. لماذا؟! وعلى أي شيء يدل هذا؟ يكاد مؤرخونا يقصرون صناعة التاريخ على الرجال..!!

١٠ - ونعجب من جرأة أم سلمة وحكمتها وهي تشير بالحل الصائب على رسول الله ﷺ، ونعجب بموقف رسول الله ﷺ الذي يشرك المرأة في هموم الأمة، بل يأخذ برأيها حين يكون صواباً. ولو كان يرى المرأة ناقصة عقل ودين لما تعامل معها بهذا الشكل.. إنني أجد سلوك النبي ﷺ وأسلوب تعامله مع النساء يتعارض كلياً مع ذاك الحديث الذي يتشبث به الرجال..!!

١١ - نجد في الخبر أن الله تعالى قد استثنى النساء من شرط قريش.. فالتي تفارق قومها وتأتي مؤمنة مهاجرة لا تردُّ إليهم.. ويفرق بينها وبين زوجها الكافر، بعد أن تُمتحن وتبايع الله ورسوله. وفي ذلك تكريم خاص بالمرأة ورحمة بأنوثتها وضعفها.

(١) راجع صفحة (٢١٩) من هذا الكتاب.

- أما كيف كانت تمتحن فقد سئل ابن عباس عن ذلك فقال: كان يمتحنهن بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله(١).

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ١٢](٢).

- وفي ذلك أيضاً صيانة لمؤسسة الأسرة من أن تنقسم على نفسها، وتعجز عن التعايش الودود اللازم لرعاية الأجيال الجديدة، ومنحها السواء النفسي. وفي الحقيقة أن هذه العلاقة الحميمة - الزواج - لا يمكن أن تستقيم وتزدهر إلا إذا ضم الطرفين مثلٌ أعلى موحد، فلا تتضارب الأهداف والأساليب.

- وحين حكم الله بالتفريق بين المؤمنة والكافر، وبين المؤمن والكافرة، ضمن للرجل أن يسترد ما دفع من مهر في الحالين فليس من العدل أن يفقد الزوجة والمال.. بل يسترد المال ويبحث عن قرينة تتفق معه..

والمرأة ستجد من يخطبها ويقدم لها المهر، مؤمنة كانت أم كافرة، وفي ذلك تبرئة للمؤمنة المهاجرة من أن تكون هجرتها طمعاً في المال.. وزواج بمهر جديد..

عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره وكان عمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه ﷺ، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر: ثكلتك أمك يا عمر نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك! قال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام المسلمين، وخشيت أن ينزل فيّ قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيّ قرآن، فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه

---

(١) تفسير ابن كثير، ص٦٣٠.
(٢) رواه البخاري.

فقال: «لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس»[(١)] ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٤٨/١-٣] وفيها يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٤٨/٢٧].. يبدو من الحديث أنه حصل أثناء العودة من الحديبية.. فنزل عليه الوحي بالسورة وعمر لا يحس بانشغال النبي ﷺ بالوحي. ونفهم من الآيات أن رسول الله ﷺ كان قد أخبر أصحابه قبل ذلك بأنه رأى رؤيا وفيها أنهم يدخلون المسجد الحرام معتمرين.. فظن الصحابة أن ذلك سيكون في خروجهم للحديبية.. وصدموا عندما لم يتحقق لهم ذلك. لكن الله يؤكد لهم أن هذا سيحدث - وقد حدث هذا في عمرة القضاء قبل فتح مكة - وإن الله يقول: إنه جعل قبل ذلك ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾.. فكان الفتح هو صلح الحديبية الذي فتح قلوب الناس فصاروا يدخلون في دين الله أفواجاً.

ذاك هو الصلح الذي قال عنه الله ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ والذي فرح به المشركون واغتاظ منه المسلمون.. لكن وخلال سنتين فقط.. انقلبت الأمور انقلاباً كاملاً وظهر أن الصلح كان كسباً رائعاً للإسلام والمسلمين.

إنني أحس بأنني ما أعطيت هذا الموضوع حقه من البيان والتأمل..

فما أعظم هذا التساهل الجميل الصادر عن علم ورسوخ من النبي ﷺ..!!

وما أرقى حرصه على السلام وسط هذا الجو المشحون بالغضب من الطرفين!

---

(١) رواه البخاري.

وما أعظم ذاك الوفاء الذي بلغ قمة لم تتطلع إليها الإنسانية بعد.. إذ بدا - في ذلك الحين - معاكساً لمصالح المسلمين. وما أشد خداع العاجلة. إن من لم يعرف سنن الله في الحياة لا يرى أبعد من أنفه.. فكيف يرى العواقب البعيدة..؟! ولا يتحرر الإنسان من الاستعجال إلا بدراسة التاريخ.

- إن الله قد قال بأن السيئة لا تمحى بسيئة مثلها.. ولكن أتبع السيئة الحسنة تمحها.. لكن المسلمين يقرؤون القرآن للتبرك.. ولا يجاوز حناجرهم..

أين من يؤمن بأن قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٤] هو قانون إنساني..؟!

- ولنا أن نتأمل بعض ما انكشف من آيات الله في الآفاق والأنفس. فلقد وقعت اليابان بعد خسارتها في الحرب العالمية الثانية اتفاقاً مع الدول العظمى ينص على تسريح جيشها وحرمانها من القيام بأي مجهود حربي أو تطوير للأسلحة.. وقد بدا هذا الشرط للكبار ساحقاً لليابان يحول بينها وبين المنافسة في عالمهم.. لكن هذا الشرط كان مصدر خير لليابان.. فقد كرست جهودها وكل ما تملك من طاقات لتطوير التعليم وبناء الاقتصاد.. وهي الآن عملاق لا يستهان به تتحدى أمريكا بعلمها واقتصادها.. فمتى ندرك أن العلم والسلم هما القوة الحقيقية..؟! وخاصة في عصرنا هذا..

• • •

٥- خطوة إعلامية حـان أوانـها

- في ذي الحجة من هذه السنة السادسة أرسل النبي سفراء إلى حكام خمس دول مجاورة ليبلغهم رسالة الله ويدعوهم إلى الدخول في الإسلام.

- أرسل حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية.

- وشجاع بن وهب بن أسد إلى الحارث بن أبي شمر الغساني وهو ملك الغساسنة، وكانوا نصارى، يقيمون في جنوب سورية. (وفي دمشق).

- وأرسل دحية[١] بن خليفة الكلبي إلى قيصر وهو هرقل ملك الروم.

- وعبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس.

- وعمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك النصارى بالحبشة.

أما عن نتائج هذه الرسائل فنؤجل الحديث عنها إلى ما بعد غزوة مؤتة.. كما جاء في تاريخ ابن كثير أخذاً برأي البيهقي بينما الواقدي يذكرها هنا- لكننا نتأمل إحدى نتائج صلح الحديبية.. وهي أن دولة الإسلام قد صار لها كيان معترف به فيمن حولها.. وأصبحت تراسل الدول من حولها وتدعوها إلى

(١) البداية والنهاية، ٤/ ١٨٠.

الحق والعدل والقسط.. لقد آن للإسلام أن يخرج من الجزيرة ويرسل إشعاعاته فيما حولها لتشهد وتتدخل في أحداث العالم.. وها هو رسول الله ﷺ يرسل النذر لحكام العالم كي يتواضعوا لله ويخضعوا لهديه ويكفوا عن ظلم الناس واستعبادهم ويرفعوا الإكراه عنهم كي يسمعوا كلمة الحق ويختاروا ما يشاؤون: «أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن أبيت فإن إثم الأكاريين عليك».

* * *

الباب
السادس

مرحلة
ما بعد الحديبية

١- الخروج إلى خيبر. تأملات

٢- قبائل أخرى حول المدينة.

٣- صدق الله رسوله الرؤيا (عمرة القضاء)

٤- محمد (ﷺ) مع المرأة.

٥- من بركات صلح الحديبية.

٦- توجه إلى أطراف الشام (مؤتة).

٧- الدعوة ترسل أشعتها إلى ما حولها.

١- الخروج إلى خيبر
- تأملات -



خريطة القضاء على اليهود

وماذا عن اليهود؟

لقد وفر صلح الحديبية للمسلمين قدراً طيباً من الطمأنينة، فقد وادعتهم قريش ومن حولها من القبائل.. وهي فرصة لالتقاط الأنفاس والالتفات إلى شؤون حياتهم اليومية. ولكن هل كفَّ اليهود عن الكيد؟! صحيح أنه لم يبق لهم في المدينة وجود سياسي وعسكري.. وإن بقي منهم أفراد وأسر تعيش في المدينة آمنة في ظل الوفاء بالعهود مع النبي ﷺ، لكنهم كانوا يجتمعون في خيبر متربصين بالمسلمين فرصة.. وقد غرتهم حصونهم المنيعة وقوتهم الاقتصادية والعسكرية.. فقد كانت لهم مزارع واسعة تؤمن لهم المؤن والغلال.. وعشرة آلاف مقاتل أشداء.. ومن حولهم موالٍ وحلفاء.. من مثل قبيلة غطفان التي ترابط شرقهم وهي مستعدة للدخول معهم في حرب ضدَّ محمد ﷺ.

في محاولتي لتقصّي أسباب خروج النبي ﷺ لغزو خيبر.. لم أجد عند ابن كثير ولا ابن هشام شيئاً يذكر. لكن الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - في كتابه (فقه السيرة) عرض لتصوير الظروف التاريخية التي اقتضت الغزوة.. ووجدت الدكتور عماد الدين خليل في كتابه (دراسة في السيرة) يتتبع جذور الغزوة بدقة وحبذا لو يراجع القارئ حديثه عن الصراع مع اليهود في الفصل التاسع من الكتاب.. وسأستفيد من بعض اجتهاداته.

بلغت خيبر أنباء هزيمة قريظة فاتصل بعض اليهود بزعيمهم سلام بن مشكم وسألوه الرأي فأجابهم: نسير إلى محمد بما معنا من يهود خيبر فلهم عدد، ونستجلب يهود تيماء، وفَدَك ووادي القرى، ولا نستعين بأحد من العرب فقد رأيتم في غزوة الخندق ما صنعت بكم العرب. ثم نسير إليه في عقر داره. فقالت اليهود: هذا الرأي[1]. ولكن بعض الزعماء عارضه في الإقدام على مجازفة كهذه غير مأمونة النتيجة. وفضلاً عن هذا كله فإن يهود خيبر كانوا السبب في خروج سرية يقودها علي بن أبي طالب ﷺ في أواخر العام السادس الهجري كانت

---

(١) الواقدي، ٢/ ٥٣٠ - ٥٣١.

وجهتها فَدَك حيث يقطن حي من بني سعد بن بكر كانوا قد سعوا إلى مدّ أيديهم لأولئك اليهود لقاء أن يمنحوهم جزءاً من ثمار خيبر[١] وها هم الآن يتحالفون مع غطفان في محاولة جديدة ضد المدينة. وقد علم الرسول ﷺ بما يدور في خلدهم فأخذ يتهيأ لقتالهم، ويمهد لذلك بإرسال مجموعات من فدائيي الأنصار لاغتيال بعض قادة اليهود هناك كسلّام بن أبي الحقيق (وهو أبو رافع) وأسير بن رزام الذي كان يجتمع ببني غطفان ليعقد معهم العقود ليكونوا مع اليهود في حالة دخول أهل خيبر في حرب مع المسلمين[٢].

وما لبث النبي ﷺ بعد أسابيع من عودته إلى المدينة أن انطلق (مطلع السنة السابعة) صوب خيبر على رأس حملة استنفر لها الراغبين في الجهاد فحسب دون الغنائم. ذلك أن يهود خيبر كانوا أقوى الطوائف اليهودية بأساً وأعظمها دربة على القتال... كان يريد جيشاً مؤمناً بأهدافه مقدراً للظروف... ويذكر المقريزي أن عدد المسلمين الذين توجهوا إلى خيبر كانوا ألفاً وأربع مئة مقاتل يصحبهم مئتا فرس... كما أسهم في الخروج عدد من النسوة ليداوين الجرحى وينسجن الملابس ويهيئن الطعام[٣].

سمع بنو غطفان بخروج النبي ﷺ إلى خيبر فخرجوا ليساندوا اليهود ضدّه لقاء نصف ثمار خيبر لذلك العام. فاضطرهم الرسول ﷺ للعودة إلى ديارهم بعد أن أوهمهم أن هجومه متّجه إليهم[٤].

قال ابن إسحاق: وكان ﷺ حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عِصْر (جبل بين المدينة ووادي الفرع) فبني له فيها مسجد، ثم على الصهباء (موضع بينه وبين خيبر روحة) ثم أقبل ﷺ بجيشه حتى نزل بواد يقال له الرجيع. فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدّوا أهل خيبر...

---

(١) تاريخ الطبري، ٢/٦٤٢؛ ابن سعد، ٢/١/٦٥.

(٢) ولفنسون: تاريخ اليهود، ص١٥٧ - ١٥٨.

(٣) دراسة في السيرة، ص٣٥١ - ٣٥٢.

(٤) دراسة في السيرة، ص٣٥٢.

فخرجوا ليظاهروا يهود عليه، حتى إذا ساروا منقلة (مرحلة) سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حِسّاً، ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا في أهليهم وأموالهم وخلّوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر[1].

وعن سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر ألا تسمعنا من هينهاتك - وكان عامر رجلاً شاعراً - فنزل يحدو بالقوم يقول:

لاهمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا

فاغفر فداءً لك ما أبقينا وألقين سكينة علينا

وثبّت الأقدام إن لاقينا إنا إذا صيح بنا أبينا

وبالصياح عوَّلوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: «من هذا السائق»؟ قالوا: عامر بن الأكوع. قال: «يرحمه الله». فقال رجل من القوم: وجبت يا نبي الله لولا أمتعتنا به[2]، فقتل بعد ذلك شهيداً.

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أتى خيبر ليلاً. وكان إذا أتى قوماً بليل لم يغر بهم حتى يصبح. فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم (المسحاة: المجرفة من حديد. والمكتل: قفة كبيرة). فلما بصروا بالنبي ﷺ قالوا: محمد والله!! محمد والخميس (الخميس: الجيش لانتظامه خمس فرق: ميمنة وميسرة ومقدمة ومؤخرة والقلب)، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر خربت خيبر. إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين.

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام: عبد السلام هارون، ص٢٣٠.
(٢) رواه البخاري.

فأصبنا من لحوم الحمر (الأهلية) فنادى منادي النبي ﷺ: «إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر فإنها رجس»[(١)].

وكان علي بن أبي طالب قد تخلّف عن رسول الله ﷺ في خيبر وكان رَمِداً، فقال: أنا أتخلف عن النبي ﷺ؟ فلحق به... يقول أبو هريرة: فقال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله عليه».

قال عمر: فما أحببت الإمارة إلا يومئذ. فدعا علياً فبعثه ثم قال: «اذهب فقاتل حتى يفتح الله عليك ولا تلتفت»[(٢)]. وفي رواية أن رسول الله ﷺ دعا له فبرئ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية. فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال ﷺ: «انفذ على رِسْلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه. فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم»[(٣)].

وبرز من اليهود مَرْحَب فجعل يرتجز مفتخراً بنفسه ويطلب المبارزة. فبرز له عامر بن الأكوع، فوقع سيف مرحب في ترس عامر فذهب يسعل له (لعل القصد أنه أراد أن يضرب خصمه) فرجع على نفسه فقطع أكحله فكانت فيها نفسه. قال سلمة بن الأكوع - ويبدو أنه ابن أخي عامر -: فخرجت فإذا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: بطل عمل عامر قتل نفسه. فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي فقال: ما لك؟ فقلت: قالوا إن عامراً بطل عمله. فقال: من قال ذلك؟ فقلت: نفر من أصحابك. فقال ﷺ: «بل له الأجر مرتين»[(٤)]... ثم إن علياً ﷺ قتل مرحب.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم والبيهقي.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه مسلم والبيهقي.

ويقول أبو هريرة: شهدنا خيبر فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه يدّعي الإسلام: «هذا من أهل النار». فلما حضر القتال قاتل الرجل أشد القتال حتى كثرت به الجراحة حتى كاد بعض الناس يرتاب. فوجد الرجل ألم جراحه فأهوى بيده إلى كنانته فاستخرج منها أسهماً فنحر بها نفسه... فقالوا: يا رسول الله صدّق الله حديثك: انتحر فلان فقتل نفسه. فقال ﷺ: «قم يا فلان فأذن أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، وأن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر»[1].

- أعود لألخص نتيجة هذه الغزوة: راحت حصون خيبر الممتدة في المنطقة على شكل سلاسل والمنقسمة إلى ثلاث مناطق... يدافع عنها زهاء عشرة آلاف مقاتل.. تسقط بأيدي المسلمين حصناً بعد حصن، وكان أولها سلاسل حصون: ناعم والقموص... وكان آخر الحصون مقاومة للمسلمين سلاسل الوطيح والسُّلالم وقلعة الزبير، حيث عصى اليهود، وظلوا يقاومون بضعاً وعشرين ليلة... وسقط فيها ما يقرب من مئة قتيل يهودي وخمسة عشر مسلماً. حتى إذا أيقن المدافعون بالهلكة سألوا الرسول ﷺ أن يجليهم عن المنطقة وأن يحقن دماءهم فأجابهم إلى طلبهم. فلما نزلوا إليه عرضوا عليه أن يقيهم في أرضهم لقاء أن يدفعوا للمسلمين نصف حاصلاتهم. فوافق النبي ﷺ على العرض... رغبة منه في الإفادة من أي طاقة في إعمار الأراضي واستثمارها. إلا أنه بيّن لهم أن موافقته هذه غير ملزمة إلى الأبد. «فإنا إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم» لما يعرفه عن طبع اليهود من عدم الوفاء بالعهد ومن انتهاز أي فرصة تسنح للغدر والخيانة[2].

نقف لنتأمل هذه الأخبار المنوعة المقتطفة من عدة مراجع.. والتي جرت خلال هذه الغزوة التي استغرقت قرابة شهر.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) دراسة في السيرة، ص٣٥٣، ٣٥٤.

- رسول الله ﷺ يتتبع أخبار تحركات القبائل من حوله فهو يقظ لما يحاك ويأخذ زمام المبادرة في التوجه إلى يهود خيبر قبل أن يتمكنوا من جمع اليهود في القرى المجاورة ووضع خطة موحدة لمجابهة النبي ﷺ.

- نلاحظ كيف تتخاذل النفوس عندما تكون على باطل فهم متهيبون من التحرك ضد النبي ﷺ رغم قوتهم العسكرية.. بينما يختار النبي جنوده من الذين يريدون الجهاد في سبيل الله دون التطلع إلى المغانم.. فللحق قوته في النفس الإنسانية إذ يعطيها الثبات والتفاني..

إن صواب المثل الأعلى وقوة التعلق بالله تمنح الإنسان معنويات عالية تجعله أشد تماسكاً وصلابة من الآخرين.

- سمح للنساء بالخروج مع الجيش لتشارك بما تقدر عليه من الجهاد - وإن كان القتال لم يفرض عليهن - لكن وجودهن يحرض الرجال ويدعمهم.. ولا تنكر مهارتهن في التمريض والتموين وغير ذلك مما يحتاج إليه الجيش.

- وتأمل في دقة التخطيط لمنع غطفان من مناصرة اليهود.. فهو ﷺ ينزل بمكان يقطع فيه الاتصال بين غطفان واليهود. ولعله أرسل نفراً من خلف غطفان ليوهمهم أنه غزا ديارهم.. فأحدثوا صوتاً وحركة.. كانت كافية لجعل غطفان ترجع إلى ديارها لحمايتها من هجوم النبي ﷺ. ولقد تحاشى النبي ﷺ بذلك القتال مع غطفان.. وفوت الفرصة على اليهود في الاستعانة بهم.

- ونعيش مع الجيش ساعات المسير في الليل.. إيمانهم يضيء الظلمات من حولهم.. وقلوبهم عامرة باليقين وإن خالطه شيء من التوجس، ويهتف أحدهم بالشاعر عامر كي يحدو بهم.. فالصمت ثقيل والليل طويل.. فينطلق صوت الشاعر معبراً عما في النفوس.. وضارعاً مقرّاً بالفضل لربِّ هذه القلوب.

لاهم لولا أنت ما اهتدينا ... فثبت الأقدام إن لاقينا

ويعجب النبي ﷺ بهذا الحداء ويتجاوب قلبه مع الصوت الشجي المعبر.. فيسأل عن صاحبه.. فيدعو له بالرحمة. فتكون نبوءة له بالشهادة..

- (كان إذا أتى قوماً بليل لم يغر بهم حتى يصبح) تلك هي سنة النبي ﷺ وتلك بعض أخلاقه.. ما كان ليغير على الناس ليلاً ليروّع وينكّل.. بل ينتظر الصباح وينذرهم.. ولا يقاتل إلا من خرج مقاتلاً..

- حرص النبي ﷺ على رفع معنويات الجيش.. انظروا هاهم قد فروا إلى حصونهم.. حقاً لقد خربت خيبر بخراب نفوس ساكنيها.

- وانظروا إلى المسلمين - ومنهم عمر - كيف يتطلعون إلى الإمارة يومها.. ولم يكن هذا من أخلاقهم.. لكن رسول الله ﷺ قال: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله.. فكيف لا يتنافسون على هذا؟! وانظر إلى علي رضي الله عنه يصبر على الرمد ولا يطيق التخلف عن رسول الله ﷺ، فيلحق بالجيش ويكون هو القائد.. لقد كان علي أحد الأبطال المغاوير حتى نسج المسلمون حوله الأساطير.. وفي الحقيقة إن القوة النفسية النابعة من عمق الصلة مع الله تفعل الأعاجيب.

لقد جمع المسلمون بين صدق الإخلاص لله واستنفار الذكاء في التخطيط والقيام بأحسن ما يقدرون عليه من أسباب.. فكيف لا ينتصرون؟!

- لكننا نحن نغلف أحداث السيرة بالمعجزات والخوارق.. فنجعل بيننا وبين السيرة سدّاً لا نقدر على اقتحامه..

نحن نلتقط: أن النبي ﷺ مسح على عيني علي ودعا له فشفي..

وأن علياً كان خرافياً في بطولته لا يقف له شيء..

لكن العلم الآن بدأ يتحدث عن أثر شحن القوة النفسية في علاج الأمراض.. وكم كشف العلم.. وكم سيكتشف..؟! ولكن متى نبصر..؟!

- وتأمل وصية رسول الله ﷺ إلى علي عندما يعينه قائداً.. بل إن سؤال علي مهم وجميل: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟

إن رسول الله ﷺ يطلب منك يا علي أن تكون داعياً قبل أن تكون محارباً.. وحتى في حالة الحرب وفي جبهات القتال.. فالهداية أهم وأعظم عاقبة من قتل العدو وأخذ الغنائم.. لو تقدر يا علي أن تقتل الشر فيهم لكان خيراً لك..! هل تستطيع أيها المسلم أن تقتل الشر في الآخر..؟! ألا تستنفر ذكاءك في هذا المجال لتطهير نفوس الآخرين من الشرور والآثام.. بدلاً من أن تبذل جهدك في تحطيمهم؟! فوالله إن هذا لخير لك من (حمر النعم).. ومن الدنيا وما فيها.

- وتأمل التمييز بين من قتل نفسه خطأ.. وهو عامر بن الأكوع فهو شهيد وله أجران - كما قال ﷺ - وبين من انتحر عامداً فهو مقطوع عن ربّه في الأصل.. وأعماله متوجهة للدنيا وحسن الظهور بين الناس.

- والقاعدة أن الأعمال لا تنجح في الدنيا ولا تقبل في الآخرة إلا إذا توفر فيها الإخلاص والصواب.. فإن جهل الناس في الدنيا المقاصد لكل عامل.. فإن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ولا يقبل إلا ما كان خالصاً له وحده. ولهذا علّق النبي على هذا الذي قاتل ببسالة في صفوف المسلمين ثم انتحر: إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر، إنه يمكن أن ينفع الإسلام والمسلمين بعض أعماله.. لكنه بمقاصده قد خسر نفسه.. فما أصعب أن تتعب وتجاهد.. ثم تخسر كل شيء..

- ثم ننظر فيما تمّ من اتفاق بين يهود خيبر وبين النبي ﷺ.. فنرى تسامحاً يربح فيه الطرفان.. فالمسلمون وقتها غير متفرغين للإقامة في خيبر وزراعتها.. ولا يملكون مهارة اليهود في ذلك.. ويهود خيبر قد ضمنوا البقاء في أرضهم وأموالهم.. مقابل مشاركة المسلمين في الثمار.. ثم إن النبي ﷺ وضع في حسابه غدرهم وخيانتهم فبيّن لهم أن الاتفاق مؤقت غير دائم وأن المسلمين يستطيعون

إخراجهم في أي وقت شاؤوا.. وفي ذلك بيان ووضوح حتى لا يقال: نكث رسول الله ﷺ بوعده.. كما أن فيه تحذيراً لهم من الغدر..

وقد أخرجهم بعد ذلك عمر في زمن خلافته لما صدر منهم من مكر بالمسلمين إلا من كان له عهد خاص من النبي فقد أمر عمر بأن يأتوه به ليفي لهم به.

* * *

ما يفعل المسلمون بالتوراة؟!

كان بين الغنائم التي غنمها المسلمون في غزوة خيبر صحائف متعددة من التوراة، فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبي ﷺ بتسليمها لهم. ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول ﷺ من المكانة العالية. مما جعل اليهود يشيرون إلى النبي بالبنان حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة. ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة (٧٠ ب.م) إذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم. وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا أيضاً صحف التوراة. هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام[١].

ما أعظم احترام الآخر عند النبي ﷺ.. لقد علم أصحابه احترام مقدسات الآخرين وعدم انتهاكها ولو كان بها أخطاء.. فإن الخطأ يعالج بالدعوة والحوار والإقناع ولا يعالج بالتمزيق والإكراه.. لقد كان ﷺ يقنع الناس بالحق فيكسرون أصنامهم بأيديهم.. ويتخلون عن الخطأ والباطل من أنفسهم.. ثم إن محمداً ﷺ يحترم الكتب السابقة التي نزلت على الأنبياء من قبله.. كيف لا وربه يأمره ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٣]. وآيات القرآن تشهد

---

(١) دراسة في السيرة، ص٣٥٤.

للتوراة: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٤].

* * *

فما أسرع كيدهم..!!

ما إن انتهت المعركة وتمّ الاتفاق بين الطرفين.. حتى جاءت امرأة منهم وهي زينب بنت الحارث - زوجة سلام بن مشكم أحد زعماء خيبر - إلى النبي ﷺ تهدي له شاة مصلية (مشوية). وقد سألت: أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذراع. فأكثرت فيها من السم ثم سمّت سائر الشاة. فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ تناول الذراع فلاك منها مُضغة فلم يُسغها. ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ. فأما بشر فأساغها. وأما رسول الله ﷺ فلفظها ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم. ثم دعا بها فاعترفت، فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: بلغت من قومي ما لم يخفَ عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيُخبر. فتجاوز عنها رسول الله ﷺ. ومات بشر من أكلته التي أكل[1].

تأمل كيف كان ﷺ يحاور المذنب ولا يحكم عليه حتى يسمع دفاعه عن نفسه.

وتأمل في قدرته ﷺ الهائلة على العفو والتجاوز.. إن سماحته وعفوه قد فتحا القلوب وحوّلا العدو إلى ولي حميم، وجعلا الناس يدخلون في دين الله أفواجاً..

إن الانتصارات العسكرية تخلف الأحقاد والقروح النفسية..

بينما يخلف التفوق الأخلاقي انتصاراً نفسياً يمحو الأضغان ويشيع الحب بين الطرفين.. بل إنه يشع عبر التاريخ ليطهر أعماقنا ويمسح قلوبنا.

(١) وفي رواية أنها قتلت قصاصاً لموت بشر.

إنهاء الكيان السياسي لليهود في الجزيرة

لما سمع يهود فَدَك - القرية اليهودية المجاورة - بما حلّ برفاقهم في خيبر من معاملة طيبة بعثوا إلى الرسول ﷺ يعلنون رغبتهم في المصالحة على مناصفة أراضيهم. أما وادي القرى فقد ظلت عاصية فتوجه إليها الرسول ﷺ وفرض الحصار عليها. ودعا أهاليها إلى الإسلام، وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم وحسابهم على الله، ولكنهم أبوا وأصرّوا على القتال، وجرت بينهم مناوشات... والرسول ﷺ يعرض عليهم الإسلام وهم يأبون... وتمكن بعد قليل من فتح بلدهم عنوة. وبقي هناك أربعة أيام قسم فيها الغنائم على أصحابه وترك المزارع بيد اليهود مناصفة عليها. ولما بلغت يهود تيماء أنباء الانتصارات الإسلامية صالحوا الرسول ﷺ على الجزية وأقاموا في بلدهم(١).

وفي هذا العام نفسه - السابع الهجري - كتب رسول الله ﷺ إلى زعماء بقايا التجمعات اليهودية في أقصى الشمال.. فبعث إلى بني جنبة بمقنا القريبة من أيلة على خليج العقبة: «أما بعد فقد نزل علي رسلكم، راجعين إلى قريتكم فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون لكم ذمة الله وذمة رسوله، وأن رسول الله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم لا ظلم عليكم ولا عدى، وإن رسول الله جاركم مما منع منه نفسه.. وإن عليكم ربع ما أخرجت نخلكم وربع ما صادت عروككم (مراكبكم) وربع ما اغتزل نساؤكم وإنكم برئتم - بعد - من كل جزية أو سخرة. فإن سمعتم وأطعتم فإن على رسول الله أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم. وأن ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل رسول الله». وكتب لجماعة أخرى من اليهود تدعى بني غاديا «أن لهم الذمة وعليهم الجزية ولا عداء».

كما كتب لبني عريض كتاباً آخر يحدد فيه ما عليهم دفعه للمسلمين لقاء حمايتهم لهم. وكتب لأهل جرباء وأذرح من اليهود «أنهم آمنون بأمان الله وأمان

---

(١) دراسة في السيرة، ص٣٥٦ - ٣٥٧.

محمد وأن عليهم مئة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين ومن لجأ إليهم من المسلمين». وبذلك تمكن الرسول ﷺ من تحويل هذه التجمعات اليهودية في أقصى الشمال إلى جماعات من المواطنين في الدولة الإسلامية، يدفعون لها ما تفرضه عليهم من ضرائب ويحتمون بقوتها وسلطانها ويتمتعون بعدلها وسماحتها(١).

كانت هذه العهود التي كتبها رسول الله ﷺ لليهود مليئة بالعدل والتسامح.. وإذا قيست بما كان يفعله المنتصرون بالمغلوبين في عصره لبدت قمة لم يكن العالم يحلم بمثلها في تلك العصور المظلمة.

لكن اليهود يريدون التسلط على الناس وفي قلوبهم غصة من انتزاع النبوة والريادة منهم. ولو أنهم استقاموا على سنة الله لنالوا ما أرادوا ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٥]. لكنهم لجؤوا إلى الغدر والخيانة والظلم والاستكبار.. وهيهات أن تفتح القلوب بمثل هذه الأعمال..

* * *

بهذا قامت السموات والأرض

وكلف النبي ﷺ عبد الله بن رواحة أن يأتي خيبر كل عام فكان يأتيهم كل عام فيخرجها عليهم (الثمار والمحاصيل) ثم يضمنهم الشطر. فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه(٢) وأرادوا أن يرشوه، فقال: يا أعداء الله تطعموني السحت؟! والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي ولأنتم أبغض إلي من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على ألا أعدل عليكم..

---

(١) المصدر السابق، ص٣٥٧ - ٣٥٨.

(٢) أي إحصائه وتقديره.

فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض[1].

خبر قصير.. ولكن دلالاته كبيرة وعظيمة..

١ - عبد الله بن رواحة تلميذ القرآن وربيب المدرسة النبوية. يتمثل قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٥/٨]، فيشعر بثقل الأمانة.. ويدقق في تقدير الثمار.. حتى لا يظلم من يكرههم.. لقد ربى القرآن أتباعه على الموضوعية والتجرد من العاطفة والهوى في التعامل مع الآخر.

٢ - درب الصحابي نفسه حتى أصبح قادراً على العدل مع الجميع.. فالعدل هو التقوى، والله يحب المتقين.. فهل يقدر المسلم المعاصر على هذا؟!

٣ - ليس للرشوة مكان في مجتمع الصحابة لأنهم مستيقنون أنها سحت.

٤ - كيف لا يهتف اليهود بتأثر أمام هذا الموقف: بهذا قامت السموات والأرض؟!

لقد قامت على الحق والعدل وعدم التأثر بالهوى.. فأين نحن من هذا كله..؟!

* * *

صدقت يا بلال..

انصرف رسول الله ﷺ من خيبر فلما كان ببعض الطريق قال من آخر الليل: «من رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام»؟ قال بلال: أنا يا رسول الله. فنزل ﷺ ونزل الناس فناموا. وقام بلال يصلي. فصلى ما شاء الله عز وجل أن يصلي ثم استند إلى بعيره واستقبل الفجر يرمقه؛ فغلبته عينه فنام. فلم يوقظهم

---

(١) البداية والنهاية، ٤/١٩٩.

إلا مسُّ الشمس. وكان رسول الله ﷺ أول أصحابه هبَّ فقال: «ماذا صنعت بنا يا بلال»؟ قال: يا رسول الله أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك. قال: «صدقت». ثم اقتاد رسول الله ﷺ بعيره غير كثير، ثم أناخ فتوضأ وتوضأ الناس. ثم أمر بلالاً فأقام الصلاة. فصلى رسول الله ﷺ بالناس. فلما سلّم أقبل على الناس فقال: «إذا نسيتم الصلاة فصلّوها إذا ذكرتموها. فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾»[1].

تأمل هذا الحوار: - ماذا صنعت بنا يا بلال؟

فيقول بلال: - يا رسول الله أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك..

جواب جمع بين الأدب والجرأة وقوة الحجة.. فيقول النبي ﷺ ببساطة وقناعة: - صدقت. مثل هذا النبي المربي يمكن أن يخرج أجيالاً مثل بلال.

- ونجد رسول الله ﷺ يتنحى عن هذا المكان الذي غلبهم فيه النوم عن الصلاة.. وكأنه كره البقاء فيه ولو ريثما يؤدي الصلاة.

- ونرى التيسير في نهج النبي ﷺ.. فالإنسان ليس كاملاً ولا مثالياً.. فإن نام أو نسي.. صلى حين يصحو أو يذكر.

* * *

صفية بنت حيي

هي ابنة حيي بن أخطب أحد زعماء بني النضير وقد قتل في يوم بني قريظة. وزوجة كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق صاحب حصن القموص أعز حصن في خيبر. فلما اقتحم المسلمون الحصن وقتل كنانة.. أخذت نساء الحصن سبايا وفيهن صفية وابنة عم لها.. وكان بلال يقودهما نحو معسكر المسلمين فمرَّ

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص٢٣٤.

بهما على ساحة امتلأت بالقتلى من يهود.. فصاحت ابنة عم صفية وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها. وبقيت صفية واجمة صامتة.. فلما رآهما رسول الله ﷺ أشاح عن النائحة قائلاً: «اعزبوا عني هذه الشيطانة» والتفت إلى بلال معاتباً: «أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟»[١]. ثم إنه ﷺ ألقى رداءه على صفية فكان ذلك إعلاماً بأنه ﷺ قد اصطفاها لنفسه.

وفي رواية عن أنس: جمع السبي بخيبر فجاء دحية الكلبي فقال: يا رسول الله أعطني جارية من السبي. قال ﷺ: اذهب فخذ جارية. فأخذ صفية بنت حيي. فجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة والنضير ما تصلح إلا لك؟! قال ﷺ: ادعوا بها، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: خذ جارية من السبي غيرها. ثم إن رسول الله ﷺ أعتقها وتزوجها[٢]. فخرج ﷺ بها حتى بلغ سَدَّ الصهباء حلت (أي طَهُرَتْ) فبنى بها رسول الله ﷺ ثم صنع حيساً[٣] في نِطَع صغير ثم قال لي (لأنس): آذن من حولك. فكانت تلك وليمته على صفية. ثم خرجنا إلى المدينة فرأيت النبي ﷺ يحوّي لها وراءه بعباءة. ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب[٤].

وفي سيرة ابن هشام: فبات بها رسول الله ﷺ في قبة له (خيمة) وبات أبو أيوب خالد بن زيد متوشحاً سيفه يحرس رسول الله ﷺ ويطيف بالقبة، حتى أصبح رسول الله ﷺ، فلما رأى مكانه قال: ما لك يا أبا أيوب؟ قال: يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قَتَلْتَ أباها وزوجها وقومها،

---

(١) تاريخ الطبري، ٣/ ٩٤، والسيرة، ٣/ ٣٥١، والإصابة، ٨/ ١٢٦.
(٢) رواه أبو داوود.
(٣) وهو تمر يخلط بسمن وأقط (وهو لبن مجفف).
(٤) رواه البخاري.

وكانت حديثة عهد بكفر (وهذا يعني أنها أسلمت) فخففتها عليك. فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني[١]. إن أبا أيوب لم ينس حادثة المرأة اليهودية التي أهدت الشاة المسمومة للنبي ﷺ.. فخاف من صفية على النبي.

إلى هنا ونحن نستغرب موقف صفية ﵂ كيف ترفعت عن الحقد والعداء ولم تتحكم فيها أحداث المعركة.. ولم تجنح بها رياح البغضاء والانتقام..؟! فلنستمع إلى صفية تتحدث عن ذكرياتها لعلها تضيء لنا تفسيراً لهذا الموقف الرصين.. فلقد عاشت طفولتها في (يثرب) التي كان اليهود يوطدون سلطانهم فيها ويتفاخرون على أهلها بقرب ظهور نبي منهم تدين له الدنيا.. وهي تتذكر غيظ قومها عندما استقبلت المدينة النبي المهاجر. تقول: وكنت أحبَّ ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولدهما إلا أخذاني دونه. فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، غدا عليه أبي وعمي مغلّسين[٢] فلم يرجعا إلا مع غروب الشمس، فأتيا كالّين ساقِطَين يمشيان الهوينى.. فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلي واحد منهما مع ما بهما من الغم. وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله. قال عمي: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ أجاب: عداوته والله ما بقيت»[٣].

لم تنسَ صفية ﵂ هذا الموقف.. وفي ظني أنها منذ تلك اللحظة وهي على يقين من نبوة محمد ﷺ لكنها تسكت وتراقب الأحداث وهي تدرك أن قومها على باطل.. وتمر الأيام وتزف صفية إلى كنانة بن الربيع. وفي ليلة عرسها رأت في المنام أن قمراً وقع في حجرها. فذكرت رؤياها لزوجها فغضب وقال: – ما هذا

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص٢٣٤.

(٢) قبل شروق الشمس.

(٣) السيرة، ٢/١٦٥؛ تراجم سيدات بيت النبوة: د. عائشة عبد الرحمن، ص٣٦٩.

إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمداً. ولطم وجهها لطمة خضر عينها منها. فأتي بها رسول الله ﷺ وبها أثر منه. فسألها: ما هذا؟ فأخبرته الخبر[١] ونقف لنتساءل: هل كان جواب كنانة عن علم بتفسير الأحلام؟ أم أنه سمع من صفية كلمات إعجاب بمحمد ﷺ؟! أم هو تنبؤ نابع مما عندهم من علم بالكتب السابقة؟! أم هي الهزيمة النفسية والهم الدائم من تفوق محمد ﷺ؟! وما الذي حصل في نفس صفية بعد هذه الرؤيا؟ وبعد هذا التأويل؟ وبعد هذه اللطمة وهي عروس من زوجها؟!

ورأت محمداً ﷺ بعد ذلك وجلال النبوة يغشاه.. والرحمة تشع من عينيه وهو يلوم بلالاً: «أنزعت من قلبك الرحمة يا بلال..»؟!

وها هو يلقي رداءه عليها فيسكن روعها ويطمئن قلبها.. إنها الآن في حماية نبي كريم.. فلا غدر ولا لؤم بعد اليوم.. ولا إهانة ولا ظلم مع هذا الإنسان العظيم.. فكيف لا تؤمن بمحمد ﷺ؟!

وها هو يحررها من الرّق ويتزوجها فيجعل منها إحدى أمهات المؤمنين..!! ويعمل لها وليمة لزفافها.. ويكرمها ويهيئ لها مكان ركوبها خلفه فيضع لها عباءة.. ويجلس عند البعير ويضع ركبته لتصعد عليها..!!

ويبلغ الركب المدينة.. (فعثرت الناقة الضباء، وندرت صفية (وقعت) فقام ﷺ فسترها، وقد أشرفت النساء فقلن: أبعد الله اليهودية)[٢] فانظر إلى قولهن (أبعد الله اليهودية)..

لقد عانى المسلمون من كيد اليهود وغدرهم الكثير.. حتى أصبحوا لا يطيقون كلمة (يهودي).. ونحن نقدر هذا الإحساس لأننا تذوقنا المعاناة مع اليهود. فما كان منهم عندما وقعت صفية إلا أن فسروا الحادث على أنه انتقام الله.. لكن

---

(١) البداية والنهاية، ٤/١٩٧.

(٢) صحيح مسلم.

رسول الله ﷺ بهذا الزواج يعلم المسلمين التسامح والتجرد من العواطف السلبية.. وألا يعمم المؤمن الأحكام على الأقوام.. إن شعلة الخير المقدسة موجودة في أعماق كل إنسان.. فمنهم من يطفئها ومنهم من يفسح لها المجال لتتقد.. وطوبى لمن ساعد أخاه الإنسان في تغذيتها وتأجيجها.

ولم يمض الأمر بسهولة.. ولم تنج صفية رضي الله عنها من التعريض بها من أمهات المؤمنين.. إنهن يفخرن عليها بأنهن قرشيات أو عربيات.. والغيرة تدفع المرأة إلى مواقف وكلمات خاطئة.. وتألمت صفية وبكت.. وعرف النبي ﷺ شكواها فقال: «ألا قلت: وكيف تكونان خيراً مني وزوجي محمد وأبي هارون[1] وعمي موسى؟»[2] فهل هناك حجة أقوى من ذلك..؟

وأتعجب كيف كان رسول الله ﷺ يجد الوقت لعلاج مثل هذه المشكلات البيتية التي كانت تثار بسبب غيرة زوجاته وشدة حبهن له ﷺ حتى إن كل واحدة تودُّ لو تستأثر به.. إن سياسة الأمة وقيادة الجيوش وتلقي الوحي وتعليم الصحابة أمور دينهم.. لم تشغله عن واجباته زوجاً وأباً.. يبذل الحب ويداعب ويسدد الأخطاء ويصلح بين أهل بيته.. لقد كان يتقبل غيرتهن ومشاعرهن.. ويتركهن ينطلقن على سجيتهن.. فإذا جاوزن الحق أو العدل.. كانت كلمات التوجيه.. والتغير في وجه النبي ﷺ.. كافيين لردِّ الأمر إلى نصابه.

أخيراً أقول: إن الرجل لا يتزوج من قوم ليذلهم بل ليكرمهم.. ورسوله الله ﷺ كان يتألف الأقوام ويكرمهم ويجمعهم ويكسر عداوتهم بزواجه منهم.. فلقد كانت مصاهرته شرفاً تتطاول له القبائل.

ولقد كان زواجه ﷺ من صفية رضي الله عنها علاجاً لقلوب المسلمين حتى تنكسر عداوتهم لليهود ويخفف من غضبهم ضد اليهود لما لاقوه من كيدهم.. وكان علاجاً لقلوب اليهود.. فهلموا يا معشر اليهود إلى محمد ﷺ فقد أصبح صهراً

---

(١) وكانت رضي الله عنها من نسل هارون.
(٢) الإصابة، ٨/ ١٢٧.

لكم.. إنه يفتح الجسور ويمد يديه.. وهي فرصتكم لتستعيدوا كرامتكم كأمة نزل عليها كتاب الله في الماضي وهي أولى الناس بالانضمام إلى الرسالة الجديدة.. ومناصرة النبي الذي تعرف صفاته حق المعرفة.. ولكن إلى أي مدى تأثر اليهود بهذا السلوك النبوي..؟! نحن نعلم أن حروب اليهود مع النبي توقفت بعد خيبر.. لكن هل توقف كيدهم للمسلمين عبر التاريخ..؟!

* * *

نصيب الرسول ﷺ من الغنائم

عرفنا ما فعل النبي ﷺ بنصيبه من السبي.. أعتق صفية وتزوجها.. فماذا فعل رسول الله ﷺ بنصيبه من الغنائم..؟

كان سهم النبي ﷺ الذي أصاب مع المسلمين مما قسم بخيبر، وفدك بكمالها، وهي طائفة كبيرة من أرض خيبر نزلوا من شدة رعبهم منه صلوات الله وسلامه عليه فصالحوه، وأموال بني النضير المتقدم ذكرها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت هذه الأموال لرسول الله ﷺ خاصة. (راجع الآية السابقة من سورة الحشر) وكان يعزل منها نفقة أهله لسنة ثم يجعل ما بقي مجعل مال الله يصرفه في الكراع والسلاح ومصالح المسلمين، فلما مات صلوات الله وسلامه عليه اعتقدت فاطمة وأزواج النبي ﷺ - أو أكثرهن - أن هذه الأراضي تكون موروثة عنه، ولم يبلغهن ما ثبت عنه ﷺ من قوله: «نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة». ولما طلبت فاطمة وأزواج النبي ﷺ والعباس نصيبهم من ذلك وسألوا الصّديق أن يسلمه إليهم؛ ذكر لهم قول رسول الله ﷺ وقال: أنا أعول من كان يعول رسول الله ﷺ، والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي[1].

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٢٠٣.

تأمل أسلوب إنفاقه :

١ - يعزل نفقة أهله لسنة.. يدخرها لهم. وهو أشد الناس إيماناً بأن الله هو الرزاق الكريم.. لكنَّ الإنسان مكلَّف بالتخطيط.

٢ - يصرف ما بقي مما يرد إليه من غلال في مصالح المسلمين (للفقراء والأسلحة..).

٣ - الأمة كلها ترث أموال الأنبياء.. ما أعظم هذه القيم التي عاشوا عليها (صلوات الله عليهم).

* * *

هجرة.. وهجرتان..

سبق أن ذكرنا أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي يطلب منه من بقي من أصحابه بالحبشة. فقدموا صحبة جعفر، وقد فتح النبي ﷺ خيبر.. عن جابر قال: لما قدم رسول الله ﷺ من خيبر قدم جعفر من الحبشة، فتلقاه ﷺ وقبّل جبهته وقال: «والله ما أدري بأيهما أفرح، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»[(١)]. فما أعظم هذا الإيناس! وكان الذين تأخروا مع جعفر من أهل مكة إلى أن قدموا معه بعد خيبر ستة عشر رجلاً ومعهم نساؤهم إلا اثنتين توفيتا في الحبشة[(٢)].

وعن أبي موسى (الأشعري) قال: بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم.. إما قال في بضع وإما قال في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً.

---

(١) البيهقي.

(٢) ابن إسحاق.

فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر. فكان أناس من الناس يقولون لنا - يعني لأهل السفينة -: سبقناكم بالهجرة، ودخلت أسماء بنت عميس[1] - وهي ممن قدم معنا - على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها فقال: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس. قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم. قال: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم. فغضبت وقالت: كلا والله.. كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم وكنا في دار - أو: في أرض - البعداء والبغضاء بالحبشة. وذلك في الله وفي رسول الله ﷺ، وايم الله لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت للنبي ﷺ وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه. فلما جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي الله إن عمر قال كذا وكذا..!! قال: فما قلت له؟ قالت: قلت كذا وكذا. قال: «ليس بأحق بي منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان». قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأهل السفينة يأتوني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم أفرح به ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي[2].

فانظر إلى قوة شخصية المرأة المسلمة وقدرتها على البيان وتقديم الحجج.. وإدراكها لروح التكليف ولمكانتها وما لها من أجر عند الله..

وانظر إلى غضبها: لا أطعم طعاماً حتى أسأل النبي ﷺ، لانتقاصه من فضلها.. وأحس بأن عمر كان يمازحها ولا يعني حقاً ما يقول. وفي ذلك عبرة لنا بأن نخفف من غلوائنا في الفصل بين الجنسين.. فلقد كان الصحابة يتحدثون مع الصحابيات وأحياناً يمازحونهن.

---

(١) وهي زوجة جعفر بن أبي طالب في ذلك الوقت.

(٢) رواه البخاري.

وانظر إلى رسول الله ﷺ يشجع أسماء على أن يكون لها ردّ على كلام عمر.. «فما قلت له»؟ ويستمع إليها.. ويوافقها.. بل ويقول: لكم هجرتان.. لقد كان دينهم أغلى عليهم من كل شيء.. لا يقر لأحدهم قرار إذا انتقصوا من دينه.. ولقد أصبح هذا الحديث أغلى عليهم من الدنيا وما فيها يتنافسون على سماعه وحفظه. هذا وقد قسم النبي ﷺ لجعفر وأصحابه من غنائم خيبر اعترافاً وتقديراً منه لجهادهم وهجرتهم.

❁ ❁ ❁

هم مني.. وأنا منهم

هؤلاء الأشعريون تلقوا من النبي ﷺ امتيازات عدة.. منها:

أنه ﷺ قال عنهم: «إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار»[(١)].

وعن أبي موسى (الأشعري) قال: قدمنا على النبي ﷺ بعد أن افتتح خيبر فقسم لنا (أي من الغنائم) ولم يقسم لأحد لم يشهد الفتح غيرنا[(٢)].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الأشعريين إذا أرملوا (افتقروا) في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسويّة، فهم مني وأنا منهم»[(٣)].

فتأمل معرفة النبي بأحوال أصحابه وتأمل أسلوبه في تزكية النفوس وترسيخ الخير فيها.. إنه يعظ بالقدوة ويتحدث عن نماذج الخير ليشيعه.. إنه يقول للمحسن أحسنت.. أما المسيء فقد يعاتبه وقد يعرض عنه.. - الأشعريون نموذج حي

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) تفرد به البخاري دون مسلم.

(٣) رواه مسلم.

للإيمان.. ليلهم تهجد بالقرآن.. ونهارهم هجرة ثم صحبة للنبي ﷺ.. فقرهم مليء بالعزة والرحمة.. فهم لا يسألون المساعدة من الآخرين.. بل يجمعون كل ما يملكون ثم يتقاسمونه على حد سواء.. هؤلاء قوم سبقوا الاشتراكيين في الزمان.. وسبقوهم في الحب والتراحم والإخلاص لوجه الله.. فانظر إلى تكريم النبي لهم بهذا الوسام «هم مني وأنا منهم»!!

* * *

درس في الأمانة

يقول أبو هريرة: افتتحنا خيبر فلم نغنم ذهباً ولا فضة، وإنما غنمنا الإبل والبقر والمتاع والحوائط، ثم انصرفنا مع رسول الله ﷺ إلى وادي القرى ومعه عبد له يقال له مدعم أهداه له بعض بني الضبيب. فبينما هو يحط رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عائر[١] حتى أصاب ذلك العبد، فقال الناس: هنيئاً له الشهادة، فقال رسول الله ﷺ: «كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أصابها يوم خيبر لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً» فجاء رجل حين سمع ذلك من رسول الله ﷺ بشراك أو شراكين فقال: هذا شيء كنت أصبته، فقال رسول الله ﷺ: «شراك أو شراكان من نار»[٢].

وهذا نموذج آخر من التربية النبوية على الدقة في الأمانة.. إن من يمد يده للصغير يمكن أن يمدها بعد ذلك لما هو أكبر.. وحتى سَيْر النَّعل ينبغي التحرج منه.. وهنا يلجأ النبي ﷺ إلى الترهيب.. فالمال الحرام سحت مهما كان قليلاً.. والنار أولى به.. لأنه يشعل النار في المجتمع..

إن الأمة تنهار حين تفقد الأمانة وتنعدم الثقة.. إن الأمن معدوم في أمة لا تحس بثقل الأمانة.. وحقاً إنه لا إيمان لمن لا أمانة له.

---

(١) عار الفرس: انفلت وذهب ها هنا وها هنا. أي طائش.

(٢) رواه البخاري.

لقد انطلق المسلمون بنور الهداية بعد ذلك إلى كسرى وقيصر.. وجاء جنودهم بكنوز كسرى وحليّه إلى عمر ليضمها إلى بيت مال المسلمين لتوضع بعد ذلك في حوائج الأمة ومصالحها.. حتى دهش عمر ﷺ وهو يرى الكنوز بين يديه فقال: إن قوماً أدّوا هذا لأمناء..!!

فقال له علي ﷺ: عففتَ فعفُّوا، ولو رتعت لرتعوا.

* * *

٢- قبائل أخرى حول المدينة

سرية أسامة: ماذا تفعل بلا إله إلا الله؟!.

عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة. فصبحناهم، وكان فيهم رجل إذا أقبل القوم كان من أشدهم علينا وإذا أدبروا كان حاميتهم، فغشيته أنا ورجل من الأنصار فلما تغشيناه قال: لا إله إلا الله، فكفَّ عنه الأنصاري وقتلته، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟!» قلت: يا رسول الله إنما كان متعوذاً من القتل، قال: فكررها علي حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ[١].

وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال لأسامة: ما تفعل بلا إله إلا الله إذا جاءتك تحاجك يوم القيامة..؟!

هذا الخبر يملأ النفس بالتحرج والتقوى.. فحذار من التسرع في القتل وحذار من التسرع في التكفير وحتى أثناء المعركة إن من يستسلم لا يجوز قتله.. فانظر كم ابتعدنا عن هدي محمد ﷺ؟

- إن كلمة التوحيد ثقيلة في ميزان الله.. ولا يعلم القلوب إلا الله.. فلا يحل لأحد أن يكفّر من قال: لا إله إلا الله. فنحن لا نتعامل إلا مع ظاهر الإنسان ونترك باطنه لربِّه.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

أيها المسلمون اتركوا الناس لربّ الناس فهو أعلم بهم. ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٨٨/ ٢٥-٢٦]. فلماذا ننصب أنفسنا لمحاسبة الناس؟!

* * *

اللهم لا تغفر له..!!

وأرسل رسول الله ﷺ بعثاً إلى أضم في نفر من المسلمين منهم: أبو قتادة الحارث بن ربعي ومحلم بن جثامة بن قيس. يقول راوي الحديث أبو حدرد: فخرجنا حتى إذا كنا ببطن أضم مرّ بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له معه متيع له ووطب من لبن، فسلّم علينا بتحية الإسلام فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله لشيء كان بينه وبينه (أي عداوة سابقة) وأخذ بعيره ومتيعه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه الخبر فنزل فينا القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ٩٤].

وفي رواية أن عيينة بن بدر طالب النبي ﷺ بدم عامر بن الأضبط.. فعرض عليه النبي ﷺ الدية فقال عيينة: والله لا أدعه حتى أذيق نساءه من الحزن مثلما أذاق نسائي. فقال رسول الله ﷺ: «هل لكم أن تأخذوا خمسين بعيراً الآن وخمسين إذا رجعنا إلى المدينة؟» فلم يزل بهم حتى رضوا بالدية. فقال قوم محلم بن جثامة: ايتوا به حتى يستغفر له رسول الله ﷺ، فجاء رجل طوال ضرب اللحم في حلة قد تهيأ فيها للقتل فقام بين يدي النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «اللهم لا تغفر لمحلم» قالها ثلاثاً، فقام وإنه ليتلقى دموعه بطرف ثوبه[1].

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٢٢٥.

محلم هذا نموذج للرجل الجاهلي الذي سرى في دمه غدر الجاهلية واستسهال القتل وسفك الدماء لعداوة أو رغبة في سلب. ورسول الله ﷺ يجاهد آثار الجاهلية في النفوس.. يريد أن يحررها من الوحشية لتصبح خالصة لله منضبطة بأمره.. فتأمل كيف يبذل جهده في إقناع أهل القتيل ليصلح بين حيين فلا يقتتلا فتزهق الأرواح وتسيل الدماء.. انظر إليه كيف يحاكم جنده.. فهو الذي وصفه ربه في القرآن: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨/٩] يؤتى بالمسلم الجاني ليستغفر له.. فيقول: اللهم لا تغفر له.. لقد قتل رجلاً ألقى السلام على المسلمين ولم تظهر منه بادرة عدوان.. اللهم لا تغفر له..

اللهم لا تغفر لمن يعتدي ويروع الناس.. اللهم لا تغفر لمن يستهين بالأرواح والدماء.. ولا يقيم وزناً للموادعة وللعهود والذمم.. وينصرف الرجل يائساً من مجلس رسول الله يتلقى دموعه ببرديه.. فما مضت له سابعة حتى مات فدفنوه فلفظته الأرض، فجاؤوا النبي ﷺ فذكروا ذلك له فقال: «إن الأرض لتقبل من هو شرٌ من صاحبكم ولكن الله أراد أن يعظكم من حرمتكم»[1].

لقد أراد الله أن يعظ عباده ويعلّم المسلمين معنى الحرمات وفظاعة انتهاك الحرمات حتى إن الأرض ترفض من ينتهكها.

﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤/٤] كنتم تغدرون وتغيرون وتنهبون.. كنتم تسفكون الدماء من أجل المغانم.. فمنَّ الله عليكم بالهداية والارتقاء فأصبحتم رواد النور والكرامة والحرية.. ولا مكان لغادر بينكم.

■ ■ ■

(١) البداية والنهاية، ٢٢٦/٤.

لا تطعه.. واسجد واقترب

واستعمل النبي ﷺ رجلاً من الأنصار على سرية، بعثهم وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأغضبوه في شيء فقال: اجمعوا لي حطباً فجمعوا. فقال: أوقدوا ناراً، فأوقدوا. ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى. قال: فادخلوها. قال: فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار. فسكن غضبه وأطفئت النار. فلما قدموا على النبي ﷺ ذكروا ذلك له فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف»[1].

إن الإنسان في الإسلام لا يمكن أن يكون أداة لا إرادة لها في يد ولي الأمر.. لقد جاء الإسلام ليعلم المستضعف كيف يخرج من استضعافه.. ليعلم الإنسان كيف يثبت ذاته ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق: ٩٦/ ١٩].. وكل فضيلة هي الوسط بين انحرافين.. فالطاعة المطلقة لولي الأمر إلغاء للذات وعبودية للمستكبر.. والتمرد على ولي الأمر بحجة الحرية الفردية هو تمزيق للأمة وانفلات بلا ضوابط. أما الطاعة المشروطة بأوامر الله - بالمعروف - فهي التنظيم الواعي المشفوع بجهاز حساس للرقابة يحول بين الحاكم والطغيان.. فالرعايا ليسوا عصياً وبنادق بيد الحاكم.. والحاكم يعلم أنهم لن يطيعوه إلا في الخير والحق والصواب. إن ديناً يعلم أتباعه كيف يكونون شهداء للحق وبالحق، ومتى يقولون: نعم، ومتى يقولون: لا، دون أن يرفعوا سلاحاً أو يسفكوا دماً، وأين تنتهي حدود حريتهم.. وأين ينبغي أن يقف الآخر فلا يطغى.. إن ديناً من هذا النوع ينتظره العالم أجمع.. ليحكم النظام العالمي الجديد.

* * *

(١) ثبت في الصحيحين.

يا سلمة.. هب لي المرأة!

يقول سلمة خرجنا مع أبي بكر، وأمره رسول الله ﷺ علينا، فغزونا بني فزارة. فلما دنونا من الماء أمرنا أبو بكر فعرسنا (نزلنا عنده وبتنا).. فلما صلينا الصبح أمرنا أبو بكر فشننا الغارة..

ثم نظرت إلى عنق من الناس فيه من الذرية والنساء نحو الجبل وأنا أعدو في آثارهم (وكان عدّاء) فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فرميت بسهم فوقع بينهم وبين الجبل، فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر حتى أتيته على الماء وفيهم امرأة من فزارة عليها قشع من أدم ومعها ابنة لها من أحسن العرب. فنفلني (أعطاني) أبو بكر بنتها. فما كشفت لها ثوباً حتى قدمت المدينة. ثم بتُّ فلم أكشف لها ثوباً. فلقيني رسول الله ﷺ في السوق فقال لي: «يا سلمة هب لي المرأة» قلت: والله يا رسول الله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوباً. فسكت رسول الله ﷺ وتركني، حتى إذا كان من الغد لقيني ﷺ في السوق فقال: «يا سلمة هب لي المرأة» فقلت ما قلته بالأمس، حتى إذا كان من الغد لقيني ﷺ في السوق فقال: «يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك» قلت: يا رسول الله والله ما كشفت لها ثوباً، وهي لك يا رسول الله.

فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة وفي أيديهم أسارى من المسلمين ففداهم رسول الله ﷺ بتلك المرأة[١].

وقفت أمام الخبر وقد انتابني نوع من الأسى والاستياء.. كيف ترسل المرأة وكأنها مال أو متاع إلى أهل مكة لتكون فداء الأسرى..؟!

إن من حقي وأنا أعيش عصراً ألغي فيه الرِّق وارتقى فيه الإنسان حتى أصبح يطمح إلى إلغاء الحروب وتعميم السلام.. من حقي أن أستاء من كل إشارة تلحق الهوان بالمرأة وبالإنسان عامة..

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٢٢٠ - ٢٢١.

لكن عليّ أن أتأمّل الأمر من جانبين:

أ- هل تحررت المرأة في عصري فعلاً من أن تكون سلعة تباع وتشترى..؟! أترك للقارئ الجواب، وهو يستعرض القنوات الفضائية، ويرى كيف تستغل المرأة لترويج السلع والأزياء، وكيف تباع وتشترى جارية لكل الناظرين..

٢- العودة إلى الظروف التاريخية التي كان يعيشها محمد ﷺ ومجتمعه الوليد.. لقد كان الأسرى في ذلك الزمان غنائم تباع وتشترى وتسترق.. لقد كان هذا قانوناً عالمياً لا يمكن كسره دفعة واحدة.. لكن القرآن يزحزح الموضوع شيئاً فشيئاً.. فيعيد الكرامة الإنسانية للرقيق ويوجه المسلمين إلى الأمثل في التعامل مع الأســـــرى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ [محمد: ٤٧/ ٤]. فإما مَنّاً: أي إطلاق السراح دون مقابل أو العتق. وإما فداء: أي يشترى الأسير بمال أو متاع.

وقد مرَّ معنا أن فداء بعض الأسرى بعد غزوة بدر كان تعليم صبيان المسلمين القراءة والكتابة.. وهو ابتكار جديد ما عرفت له البشرية حينها مثيلاً.

فإذا عدنا إلى الحادث لنتأمله بروح عصره رأينا فيه ومضات تستحق التقدير:

١ - أصحاب النبي ﷺ هم تلاميذ محمد ﷺ لا يشنُّون الحرب بليل حتى لا يؤخذ الناس على حين غرّة ويهلك الحرث والنسل.

٢ - براعة الحذّاء سلمة.. وهو حين يلاحق الأطفال والنساء لا يقتل أحداً منهم بل إنه يرمي بسهم يسبقهم ليؤخر هروبهم ويجعلهم يستسلمون.

٣ - تلك المرأة الوضيئة أصبحت من نصيبه.. فهو معجب بها لكنه لا يمسها.. كيف نفسر هذا السلوك..؟! أحس أن سلمة قد أحبها وأكرمها في نفسه، فلم تطاوعه نفسه أن يتعامل معها كأسيرة مملوكة..

وازداد الحرج في نفسه عندما طلبها منه رسول الله ﷺ. فهو يتريث..

٤ - لقد كان بإمكان رسول الله ﷺ أن يصدر أمراً لسلمة بالتخلي عن أسيرته.. لكنه ﷺ كان يحترم أصحابه ويعرف حقوقهم وأقدارهم ويرغب في شحنهم ودفعهم لفعل الخير عن طواعية ورضا قلبي.

٥ - ما كان اليأس ليعرف طريقاً إلى قلب النبي ﷺ فهو يكرر الطلب ويعرف أن النفوس لا تستجيب دفعة واحدة ولا بد من الصبر عليها والاستمرار في التذكير، حتى إنه في النهاية يستحلف سلمة (لله أبوك)..

٦ - إن قارئ الخبر يُفاجأ بالنتيجة.. فلربما تصور القارئ أن النبي ﷺ أراد أن يصطفي المرأة لنفسه.. فإذا به يفاجأ بأن النبي ﷺ جعلها فداء لبعض أسرى المسلمين..

- لقد أثبت سلمة ارتقاءه وإيثاره عندما تخلى للنبي ﷺ عن أسيرته.

- ولقد اختار النبي ﷺ أهون الشرَّيْن بجعلها فداء لأسرى المسلمين. ومما لا شك فيه أن تحرير جماعة أفضل من تحرير نفس واحدة. أحسبني قد كتبت انطباعاتي بتجرد حول هذا الحادث بصفتي إنسانة لا بصفتي مسلمة.

وقد افترضت أسوأ الاحتمالات.. بينما هناك احتمال كبير أن تكون العملية عبارة عن (تبادل أسرى) تنال فيها المرأة حريتها مقابل تحرير المسلمين والأمر عندها طبيعي وكريم.

* * *

٣- صدق الله رسوله الرؤيا بالحق (عمرة القضاء)

ثم خرج رسول الله ﷺ ومعه المسلمون - ممن كان صُدَّ معه في عمرة الحديبية - إلى مكة معتمراً عمرة القضاء فدخلها في ذي القعدة سنة سبع. عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وقد وهنهم حمى يثرب فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم(١). وقد سئل ابن عباس: يزعم قومك أن رسول الله ﷺ قد رمل بالبيت وأن ذلك سُنَّة؟ فقال: صدقوا وكذبوا. قلت: ما صدقوا وكذبوا؟ قال: صدقوا رمل رسول الله ﷺ. وكذبوا ليس بسنّة.. إن قريشاً زمن الحديبية قالت: دعوا محمداً وأصحابه حتى يموتوا موت النَّغف فلما صالحوه على أن يجيئوا من العام المقبل فيقيموا بمكة ثلاثة أيام فقدم رسول الله ﷺ والمشركون من قبل قعيقعان، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ارملوا بالبيت ثلاثاً» قال: وليس بسنّة(٢).

ودخل رسول الله ﷺ مكة وعبد الله بن رواحة آخذ بخطام ناقته يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير في رسوله
يا رب إني مؤمن بقيله أعرف حق الله في قبوله(٣)

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه مسلم.
(٣) البداية والنهاية، ٤/ ٢٢٨.

فطاف بالبيت على ناقته واستلم الركن بمحجنه (كالصولجان). قال ابن هشام: من غير عِلّة (أي طاف راكباً واستلم الحجر بالعصا وهو معافى غير مريض) والمسلمون يشتدون حوله[١].

وتغيب رجال من أشراف المشركين أن ينظروا إلى رسول الله ﷺ غيظاً وحنقاً ونفاسة وحسداً. وخرجوا إلى الخندمة. فقام ﷺ وأقام ثلاث ليال.. فلما أتى الصبح من اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ورسول الله ﷺ في مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عبادة فصاح حويطب: نناشدك الله والعقد لما خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث. فقال سعد: كذبت لا أم لك ليس بأرضك ولا بأرض آبائك، والله لا يخرج. ثم نادى رسول الله ﷺ سهيلاً وحويطباً: «إني قد نكحت فيكم امرأة فما يضركم أن أمكث حتى أدخل بها ونصنع الطعام فنأكل وتأكلون معنا»؟! فقالوا: نناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا، فأمر رسول الله ﷺ أبا رافع فأذَّن بالرحيل وركب رسول الله ﷺ حتى نزل بطن سرف وأقام المسلمون، وخلّف رسول الله ﷺ أبا رافع ليحمل ميمونة. وأقام بسرف حتى قدمت عليه[٢].

وفي رواية أنه ﷺ لما دخل المسجد - وقد صفوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه - اضطبع بردائه (أي أدخل رداءه من تحت إبطه الأيمن، وجعل طرفه على منكبه الأيسر فبدا بذلك أحد ضبْعيه، والضبع وسط العضد بلحمه) وأخرج عضده اليمنى ثم قال: رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوة، ثم استلم الركن وخرج يهرول[٣].

فكان هذا مصداق بشارته سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٤٨/٢٧].

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) البداية والنهاية، ٤/٢٢٩.

(٣) تهذيب سيرة ابن هشام، ص٢٣٧.

ها هو رسول الله ﷺ يعود إلى مكة الحبيبة زائراً معتمراً بعد فراق دام سبع سنوات.. البلد الحرام والبيت العتيق تلك البلاد المباركة التي كانت أحب بلاد الله إلى قلبه الشريف.. ما أعظم الحنين إلى تلك البقاع التي باركها خليل الرحمن إبراهيم.. ولكن ثلاثة أيام من الإقامة فقط!! لا بأس فإن البون شاسع بين يوم الهجرة.. وهذا اليوم..

فمنذ سبع سنوات خرج رسول الله ﷺ من مكة متخفياً مطارداً مهدور الدم.. واليوم يعود إليها زائراً بموجب عقد مكتوب فلا يجرؤ أحد على التصدي له.. وأقصى ما قدر عليه المشركون أن يناشدوه بعد ثلاثة أيام أن يخرج من مكة.. وتستمر الأمور بالتغير والتطور حتى يأتي - وخلال عامين - يوم ثالث لم يتوقعه العرب.. إنه يوم فتح مكة..

نعود إلى عمرة القضاء لنعيش أحداثها ونتأمل حركات النبي ﷺ وأقواله فيها:

- ها هم المشركون يصطفون ليراقبوا موكب النور الذي جاء معظماً لبيت الله وحرمته ملتزماً بما نص عليه العهد (ما معكم من السلاح إلا السيوف في القرب) - وذلك لأن المسافر لا بد له من سيف يحميه في تلك البوادي - وأما عظماء قريش فقد هربوا من هذا المنظر.. فقد كان فوق طاقتهم واحتمالهم..

وظن المشركون أنهم سيرون رجالاً أنهكتهم الحروب والأسفار وقلة الزاد.. وما زالت تخامرهم الأوهام والأماني بهلاك محمد ﷺ وأصحابه من كثرة الحروب والمعاناة.. إنهم يراقبون متربصين لحظة شماتة.. يتمنون رؤية الضعف والوهن على أجسام المسلمين.. ما زالوا عبيداً لقوة الجسد.. غافلين عن قوة الفكر والروح.. فلنتكلم معهم باللغة التي يفهمونها.. وهكذا وجه النبي ﷺ أصحابه «رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة».. يوجههم بأسلوب الدعاء لهم.. فكيف لا يستجيبون..؟! إن هذا أفضل من أسلوب الأوامر. وبدأ بنفسه فكشف عن عضده وهرول..

- ونتأمل فقه ابن عباس حين يفهم عمل النبي ﷺ ضمن ظروفه، فإن زالت تلك الظروف فلا داعي للكشف والهرولة.. وما أحوجنا إلى أمثال ابن عباس ليخرجونا من الجمود على النص..

- وللشعر مكانه في هذا الدخول.. فما أشد تعلق العرب بالشعر وما أعظم تكريمهم للشعراء.. ولم يتوان شعراء المسلمين عن خوض المعركة.

- ورسول الله يطوف على ناقته.. ويستلم الحجر بعصاه.. دون أن يلجئه إلى ذلك مرض.. وفي ذلك بيان للمسلمين بجواز ذلك ولا حرج.

- ونرى حمية سعد بن عبادة في ردّه الشديد على سهيل وحويطب. لكن رسول الله ﷺ يناديهم ويرفق بهم ويستأذن في إتمام زواجه في مكة.. ويدعوهم إلى وليمة الزفاف التي سيقيمها..!!

صلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله.. تريد كسر العداوة في القلوب بكل أسلوب.. والمؤاكلة من أجمل الأساليب في توثيق المودة وتليين القلوب.. فماذا تريدون أكثر من هذا الإكرام..؟!

ولكن.. يا ويح قريش.. لقد أكلتهم الحرب.. أكلت قلوبهم وتكاد تقضي على بقايا الإنسان منهم.. فهم نافرون رافضون لكل تودُّد؟؟

- عند ذلك كان الحل الأمثل هو أن ينادي ﷺ بالرحيل حتى تفهم وتؤمن قريش بصدق التزام محمد ﷺ بعهوده وصفاء سريرته. ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٤٨/٢٦].

* * *

٤- محمد (ﷺ) مـع المـرأة

من يكفل هذه الصبية؟

وخرج النبي ﷺ من مكة فتبعته ابنة حمزة تنادي: يا عم، يا عم... فتناولها علي فأخذ بيدها وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك، فحملتها. فاختصم فيها علي وزيد وجعفر، فقال علي: أنا أخذتها وهي ابنة عمي. وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي (وذلك بناء على مؤاخاة النبي بينه وبين حمزة بعد الهجرة). فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال: «الخالة بمنزلة الأم» وقال لعلي: «أنت مني وأنا منك» وقال لجعفر: «أشبهت خَلقي وخُلُقي» وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا». قال علي: ألا تتزوج ابنة حمزة؟ قال ﷺ: «إنها ابنة أخي من الرضاعة»[1]. وفي رواية زوجها رسول الله ﷺ سلمة بن أبي سلمة. فكان النبي ﷺ يقول: «هل جزيت أبا سلمة»[2]؟ وذلك أن سلمة هو الذي زوج رسول الله ﷺ من أمه أم سلمة.

تأمل هذا التنافس على كفالة هذه الصبية..!! ثلاثة من كبار الصحابة: زيد وجعفر وعلي يتسابقون لنيل فضل كفالة هذه الفتاة التي استشهد أبوها.. فما أعظم هذا الإسلام الذي غير القلوب والأفكار.. من وأد البنات.. إلى

---

(١) تفرد به البخاري.

(٢) البداية والنهاية، ٤/ ٢٣٥.

التنافس على كفالتهن ورعايتهن..!! وما أعظم إكرام الشهيد في رعاية أهله من بعده.. ورسول الله ﷺ يرعى (سلمة) ابن الشهيد أبي سلمة ويزوجه من ابنة حمزة ويتساءل هل كافأتُ أبا سلمة على بلائه في الإسلام؟! وهل أحسنت لابنه سلمة؟! وانظر إلى أسلوب النبي ﷺ في إرضاء كل الأطراف بعد أن حكم ان الفتاة لخالتها.. يا علي: أنت مني وأنا منك.. نحن أسرة واحدة وأنت وعيالك أهل بيتي.. ويا جعفر: أشبهت خَلْقي وخُلُقي.. فماذا تريد أعظم من هذه الشهادة..؟! ويا زيد: أنت أخونا ومولانا بحسب حكم الله ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥]. صحيح أن ابنة حمزة هي ابنة أخيك.. لكنها ابنة أخينا أيضاً.. لكن خالتها - وهي أسماء بنت عميس زوجة جعفر - هي أولى بكفالتها لأن الخالة مثل الأم في حنانها وفي قربها من شخصية الأم وطباعها فلا تشعر البنت بالغربة.. فهل رأيت جمال الحكم وكيف يكون مليئاً بالعدل والإحسان..؟!

وهم يعرضون على النبي ﷺ الزواج من ابنة حمزة.. زيادة في الرعاية والتكريم لها.. وأي امرأة من المؤمنين لا تتمنى هذه الحظوة والمكانة؟! لكن رسول الله ﷺ ينبه إلى الحكم الشرعي.. إنها ابنة أخي..

وينبه جعفراً أيضاً حتى لا يفكر في الزواج منها (كما جاء في رواية أخرى): «ولا تنكح المرأة على خالتها ولا على عمتها»[1].

وهكذا كانت صحبة النبي ﷺ كلها تعليم لشرع الله وتدريب مستمر على العدل والإحسان.. فكيف لا يبدعون..؟!

ومن لنا نحن بهذا التدريب المستمر على العدل والإحسان..؟!

ليس لنا إلا القراءة اليقظة المتمعنة لسيرة هذا النبي العظيم العطرة.

* * *

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٢٣٥.

آخر الزوجات ميمونة

كان اسمها برّة بنت الحارث[١]. وكانت أرملة في السادسة والعشرين من عمرها[٢] عندما دخل رسول الله ﷺ مكة لأداء عمرة القضاء. وكانت قد جعلت أمرها إلى أختها أم الفضل - زوجة العباس عم النبي ﷺ - فجعلت أم الفضل أمرها إلى زوجها العباس. فزوجها رسول الله ﷺ وأصدقها عنه أربع مئة درهم، وذكر السهيلي أنه لما انتهت إليها خطبة رسول الله ﷺ لها وهي راكبة بعيراً قالت: الجمل وما عليه لرسول الله ﷺ. قال: وفيها نزلت الآية ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٠][٣]. وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة وهو محرم. فقال سعيد بن المسيب: وَهِمَ ابن عباس وإن كانت خالته، ما تزوجها إلا بعد ما أحل[٤]. (في مكة بعد أن اعتمر وتحلل فكان الحل والنكاح جميعاً فشُبِّه ذلك على ابن عباس) - أسارع في البدء من النهاية.. لأتأمل كيف كان سعيد بن المسيب التابعي الورع يتعامل مع النصوص التي تصل إليه. فهذا حديث صحيح يرويه حبر الأمة: ابن عباس..! لكن سعيداً يقول وَهِمَ ابن عباس وشُبِّه عليه الأمر؛ لأن تحلل النبي ﷺ جاء قريباً من عقده على ميمونة.. إنه تحرر فكري مدهش ذاك الذي كان يتحلى به ابن المسيب وعدد من التابعين.. إنهم لم يلغوا عقولهم أمام آراء الصحابة ورواياتهم عن النبي. وهو أمر لا نكاد نجده عند كثيرين من العلماء المعاصرين. - ثم إننا نلمس من الخبر أن ميمونة ﵂ هي التي رغبت في الزواج من النبي ﷺ ولعلها أفضت بذلك إلى أختها.. وأختها أم الفضل أوحت إلى العباس بالفكرة وهو بدوره عرض الأمر على النبي. وهو ما جعل

---

(١) ورسول الله ﷺ هو الذي سماها ميمونة استبشاراً بالظرف الجيد الذي تمّ فيه الزواج منها.

(٢) سيدات بيت النبوة: د. عائشة عبد الرحمن، ص٤١٥.

(٣) البداية والنهاية، ٤/ ٢٣٣.

(٤) رواه البخاري.

بعض كتّاب التفاسير يذكرون أن الآية نزلت فيها ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾. وهو ما اختارته الدكتورة عائشة عبد الرحمن في كتابها عن سيدات بيت النبوة. وهذه الزيجات المتعددة خصص بها النبي من دون سائر المؤمنين لحكم كثيرة منها إكرام عدد من المؤمنات اللواتي أبلين في الإسلام بلاء حسناً.. وتوثيق العلاقات بين القبائل وكسر عداء كثير منهم.. وإعداد مراكز للتعليم والتفقه في الدين تتمثل في حجرات أمهات المؤمنين. ولقد كان العرب بحاجة ماسة لأن يتعلموا كيف يكون التعامل مع المرأة وكيف تراعى مشاعرها وحاجاتها. ولقد كانت بيوت النبي نموذجاً حيّاً للحياة الطبيعية في ظل مثل أعلى يلملم الضرائر مهما اختلفت مشاعرهن ومهما باعدت الغيرة بينهن.. فهن مشتركات في حب الله ورسوله.. راضيات بالكفاف من العيش في ظل نبي منحهن الكرامة والحرية في التعبير عن مشاعرهن ورغباتهن..

لقد كان ﷺ معهن محباً صابراً يتجاوز عن أخطائهن ويغضي الطرف عن نزهاتهن.. يتقبلهن كنساء ولسن من الملائكة.. عواطفهن مشروعة وحاجاتهن محترمة وغيرتهن طبيعية..

لكنه ﷺ قد اختار لنفسه حياة الزهد والإيثار.. ولم يكرههن على ذلك، بل خيرهن بين الرضا به ومعه.. وبين أن يسرحهنَّ ليتمتعن بالحياة الدنيا وزينتها ﴿فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٢٨/٣٣]، لكنهنَّ اخترن الحياة معه ﷺ كلهن وآثرن التسامي والارتقاء فوق الترف والاستمتاع.. راضيات بالكفاف المليء بالكرامة والإعزاز.

❁ ❁ ❁

استئذان..

أقف قليلاً عند بعض الأخبار المروية نماذجَ لتعامله مع المرأة صلوات الله وسلامه عليه، سأل ابن عمر رضي الله عنه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقال: أخبرينا

بأعجب ما رأيته من رسول الله ﷺ؟ فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً.. أتاني في ليلتي حتى مسَّ جلده جلدي ثم قال: «ذريني أتعبد لربي عز وجل». قلت: والله إني لأحب قربك وإني أحب أن تعبد ربك. فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى بلَّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلَّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح.. قال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: «ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليَّ في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٠]. ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[١]. لله درك يا أم المؤمنين وأنت تخشعين لتلك الذكريات.. ترويننها بدموعك.. كما هي ومن غير تعليق.. إنها لقطة من تلك الذكريات العجيبة في سموها.. إنها ليلة واحدة من سيرة المصطفى ﷺ المدهشة في عطرها وطيبها..

رسول الله ﷺ يستأذن من عائشة رضي الله عنها في أن ينصرف لعبادة ربِّه.. إنها ليلتها.. وللزوجة أنوثتها وحقوقها.. وهي ملهوفة للقائه.. وهي أحب الخلق إليه.. لكن شوقه للقاء ربه أعظم ووجده بعبادته أعظم.. فهو يستأذن بودّ.. معترفاً بأنوثتها مقرّاً بحقها.. إنه يستأذن لا لينصرف لمشاغل الدنيا.. ولا ليلهو في مجالس اللهو..!! إنه يستأذنها في عبادة ربِّه..!! في التهجد لله..!!

فهل يدرك الرجال معنى هذا؟! وهل في الدنيا رجل يتعامل مع زوجته بمثل هذا الأدب؟!

ويأتي جواب عائشة متناغماً مع هذا الأدب.. أحب قربك وأحب ما تحب.. وتجلس بنت الصِّديق ساهرة تراقب عبادة الحبيب.. حتى ترى عجباً.. يقوم باكياً، ويسجد باكياً، ويضطجع باكياً. ويتساءل بلال ما يبكيك يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟!

---

(١) رواه ابن مردويه وعبد بن حميد.

ما الذي جعل رسول الله ﷺ يبكي طول ليله حتى يصبح؟!

إن أكثر هذا البكاء بكاء فرح بلقاء الله والحظوة بمناجاته..

إنه بكاء العرفان والتقدير لنعم الله.. «أفلا أكون عبداً شكوراً»؟!

إنه بكاء الإحساس بالمسؤولية وثقل التكليف أمام آية من آيات القرآن نزلت عليه ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٠] فأين الذين يقرؤون ويتدبرون؟! ويل لمن قرأ ولم يتدبر.

يا أولي الألباب ويا أصحاب العقول النابهة.. هل شبعتم من تأمل آيات الله في خلقه.. من النظر في سمواته وأرضه..؟!

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٦٧/ ٤].

لقد ذقنا الويل لأننا قرأنا ولم نتدبر.. ولأننا لم نقرأ ولم نتدبر.. لكننا ما عرفنا شيئاً.. لماذا نذوق الويل؟ ولماذا نقرأ؟ وكيف نتدبر؟

لكن رسول الله ﷺ مدرك لكل ذلك.. ولعله كان يبكي على أمته.. وعلى الناس جميعاً.. لله درك يا أم المؤمنين.. فلقد كان أمره كله عجباً..

ولقد سُئلت مرة عما يعمل في البيت فقالت: كان في مهنة أهله، يقمُّ بيته ويرفو ثيابه، ويخصف نعله، ويحلب شاته(١).

هكذا وبكل بساطة يكون في البيت معاوناً لأهله.. وهو النبي والحاكم والقائد...!!

* * *

(١) رواه البخاري وأحمد.

لا آذن.. ثم لا آذن..

ويفكر علي يوماً بالزواج على فاطمة رضي الله عنها فيخطب ابنة أبي جهل..

فلما سمعت بذلك فاطمة رضي الله عنها أتت النبي ﷺ فقالت له: إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك وهذا علي ناكحاً ابنة أبي جهل..!

قال المِسْوَر (راوي الحديث) فقام النبي ﷺ فسمعته حين تشهد ثم قال: «أما بعد فإني أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثني وصدقني. وإن فاطمة بنت محمد مضغة مني وإنما أكره أن يفتنوها. وإنها والله لا تجتمع ابنة رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً». فترك علي رضي الله عنه الخطبة[1].

وفي رواية أنه خطب في صحبه قائلاً: «إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم عليَّ بن أبي طالب، فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم... اللهم إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم.. فإن ابنتي بضعة مني يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها وإني أتخوف أن تفتن في دينها».

ثم ذكر صهره أبا العاص فأثنى عليه في مصاهرته إياه أحسن الثناء وقال: «حدثني فصدقني ووعدني فأوفى لي، وإني لست أحرم حلالاً ولا أحل حراماً ولكن الله لا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله ببيت واحد أبداً»[2].

من الواضح هنا أن رسول الله ﷺ غضب إكراماً لابنته فاطمة.. لكن الأمر يبدو وكأنه ليس مجرد مشكلة شخصية تتعلق بابنته فاطمة رضي الله عنها.. وإنما هو أمر يستحق أن يقوم الرسول من أجله خطيباً في الناس في المسجد..! فلنحاول تفكيكه.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه الستة والإمام أحمد.

١ - فاطمة رضي الله عنها تقول: إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك.. وهي شهادة للنبي ﷺ بالموضوعية.. فهو يغضب للحق ولا يغضب لأهله (عصبية). والدليل على ذلك أنه ﷺ رفض أن يخصَّ ابنته بعطاء من الغنائم وكان يؤثر حاجات المسلمين على حاجاته وحاجات أهل بيته.

لكن فاطمة رضي الله عنها هنا تقولها بألم.. وكأنها تقول: أنا لا أصدق ألا يحس أبي الحبيب بألمي فلقد عشت ونفسي قطعة من نفسه.. فكيف لا يغضب لغضبي..؟ وكيف يزعم الناس ذلك..؟

٢ - يقوم النبي ﷺ ليعلن على الملأ أن ابنته قطعة من نفسه، يتألم بألمها ويزعجه ما يزعجها.. فاسمعوا يا من كنتم تئدون البنات..!!

٣ - (لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد) هذه النقطة لها وزنها في الموضوع فقد شكلت عنصر استفزاز في القضية ومحرضاً على الرفض لكن هل هي كل شيء؟

٤ - ذكر النبي ﷺ صهره أبا العاص وأنه وعده فصدقه - وذلك حين أرسل زينب إلى أبيها في المدينة - وإن كان كلام النبي ﷺ عاماً يشير إلى برّ أبي العاص بزوجته زينب.. وهي إشارة واضحة لعلي بأنه بعمله هذا يخرج عن سنة أصهاره في وفائهم لبنات النبي وعدم الزواج عليهن. وتلك حقيقة تاريخية.. أن بنات النبي ﷺ لم تكن لهن ضرائر في حياتهن.

٥ - يرفض النبي ﷺ زواج علي من أخرى إلا إذا طلق فاطمة رضي الله عنها.

٦ - يقول ﷺ: أنا لا أحرم حلالاً، ولكن أخشى على فاطمة أن تفتن في دينها.. فهو يعرف حساسيتها ورقة شعورها.

بعد هذا التفكيك.. أصبح جلياً أن رسول الله ﷺ كره التعدد لبناته وأعلن ذلك على الملأ، وكأنه يريد أن يعلِّم الناس أنه أمر مكروه إن لم يكن له داعٍ

من مرض في الزوجة أو عقم أو غير ذلك من دواعي التعدد الفردية والاجتماعية.. وأن من حق المرأة (ومن حق وليها) أن ترفض التعدد ولو أدى ذلك إلى طلاقها..

وقد يسأل سائل: كيف يعدد رسول الله ﷺ وهو يكره لبناته هذا الأمر؟!

(لقد كان لزواج المصطفى ﷺ من كل واحدة من نسائه مبرراته الخاصة وظروفه الملجئة.. وإلا فما باله ﷺ قد اكتفى بخديجة ﵂ خمساً وعشرين سنة لم يتزوج عليها حتى ماتت وهو في الخمسين من عمره.. وحين كانت الأحداث الكبار تشغل باله، والجهاد في سبيل الدين الجديد يملأ وقته)[1].

وأقول ابتداء: إن هذا الأمر من خصوصيات النبي ثم إن القيام بشؤون تسع زوجات عبء لا يقدر عليه إلا محمد ﷺ فهو تكليف أكثر من أن يكون امتيازاً.. أما الامتياز فكان من نصيب زوجاته اللواتي أصبحن أمهات المؤمنين واستمتعن بتكريم لا مثيل له من محمد ﷺ الزوج المحب الحاني ومن المؤمنين إلى يوم الدين.. ولهذا اخترن الله ورسوله عندما خيرهن رسول الله بينه وبين الدنيا وزينتها.. ولعل كل المؤمنات حينها كن يتمنين لو يتاح لهن أن يصلن إلى هذه المرتبة.

أعود فأقول إن رسول الله ﷺ قد جعل من شكوى فاطمة ﵂ قضية تعرض على ضمائر المسلمين.. حيث قام فيهم خطيباً ليدافع عن كرامة ابنته ومشاعرها.. وهو في ذلك الرسول الهادي المعلم.. فاعرفوا للمرأة حقها.. وارفقوا بعواطفها.. ولعلي أقف في موضع آخر عند وصية النبي ﷺ بالرفق بالقوارير..

* * *

---

(١) تراجم سيدات بيت النبوة: د. عائشة عبد الرحمن، ص٦١٠.

شفاعة..

أعتقت أم المؤمنين جاريتها بريرة وكانت متزوجة من عبد اسمه مغيث. فصار الخيار لها في البقاء معه أو تركه، فتركته فجزع لذلك مغيث، وأشفق عليه النبي ﷺ فقال لبريرة: «لو راجعته»، قالت: يا رسول الله تأمرني؟ قال: «إنما أشفع»، قالت: لا حاجة لي فيه[1].

يا له من خبر قصير عجيب.. يحمل إلينا إيقاعاً لعواطف متباينة.. يعترف بها الرسول ويحترمها.. فهو مشفق على مغيث لما يرى من حبه لبريرة وجزعه على فراقها.. ويحاول أن يعينه ويتوسط له.. ورسول الله ﷺ كان المثل الأعلى في القيام في حوائج المسلمين..

وبريرة كارهة لمغيث راغبة عنه.. لكن رسول الله ﷺ يطلب منها أن ترجع إليه.. ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٣٦]. ولئن كان كلام النبي ﷺ أمراً لتطيعنَّه وإن ضغطت على مشاعرها.. ولهذا توجهت للنبي بالسؤال: تأمرني؟ فيقول ﷺ: «إنما أشفع» وهيهات أن يأمر رسول الله ﷺ بأمر يتجاهل فيه إرادة المرأة وعواطفها.. فلا إكراه في الدين ولا إكراه في الحب والزواج..

فما يكون من بريرة إلا أن ترفض شفاعة النبي في مغيث.. فهي تعرف ما يفرضه لها دينها من حقوق وواجبات. وتعرف حدود الطاعة لنبيُّها.. ورسول الله ﷺ يتقبل هذا الرفض منها لشفاعته ببساطة.. ودون لوم أو عتاب.. إنه يحترم إرادتها ومشاعرها ويتركها وشأنها..!!

* * *

---

(١) رواه البخاري.

٥- من بركات صلح الحديبية

ردُّ المقوقس

كان النبي ﷺ قد أرسل كتاباً إلى المقوقس مع حاطب بن أبي بلتعة يقول فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإنما عليك إثم القبط. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

وقرأ المقوقس الكتاب ثم طواه في عناية وتوقير، ووضعه في حق من عاج دفعه إلى واحدة من جواريه. والتفت إلى حاطب يسأله عن النبي ﷺ وأن يصفه له.. فكّر المقوقس ملياً ثم قال لحاطب: قد كنت أعلم أن نبياً قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وهناك كان مخرج الأنبياء، فأراه قد خرج من أرض العرب.. ولكن القبط لا تطاوعني.. (وضنَّ بملكه أن يفارقه). ثم دعا بكاتبه فأملى عليه الرّد: (أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام.. وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم وبكسوة ومطية لتركبها. والسلام عليك). ودفع المقوقس كتابه إلى حاطب معتذراً بما يعلم من تمسك القبط بدينهم وموصياً إياه بأن يكتم ما دار بينهما.. وانطلق حاطب عائداً إلى النبي ﷺ ومعه

مارية وأختها سيرين وعبد خصي وألف مثقال ذهباً وعشرون ثوباً ليناً من نسج مصر وبغلة شهباء (دلدل) وجانب من عسل (بنها) وبعض العود والند والمسك[1].

وصل ردُّ المقوقس مع حاطب في السنة السابعة للهجرة.. وهو ردٌّ كريم حافل بالاحترام والتودُّد.. وهو يوحي بالتصديق برسالة النبي ﷺ.. لكنّه يخاف من شعبه ويخاف أن يخسر ملكه - وهو موقف هرقل نفسه أيضاً كما سنرى فيما بعد - وهو أمر قلما ينتبه إليه الناس.. فلقد ظن الناس دائماً أن الشعوب مغلوبة على أمرها وتخاف من ملوكها..

ولو عرفوا أن الملوك تخاف من شعوبها وتحسب لأفكار الناس ومعتقداتهم ألف حساب.. لعرفوا كيف يثبّتون الخير بين الناس.. لو عرفوا ذلك لرفعوا رؤوسهم وأثبتوا ذواتهم.. ولأشفقوا على الملوك والحكام بدلاً من أن يحقدوا عليهم.. لأنهم في الحقيقة أتباع للرأي العام..

والويل للأمة حين ينافق الناس ويزيفون (الرأي العام).. لأنهم بذلك يضللون الحاكم والمحكومين.. وهم أول من يتجرع عاقبة التزييف.. ألا يكفي أنهم يكابدون الازدواجية في الفكر والقول والعمل.. ويغرقون في لجج التزييف الذي ابتدعوه ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٥/٤٣].

وحين نتأمل رسالة النبي ﷺ نجد فيها كل البلاغة إذ يعرض فيها أسس الإسلام بأوجز عبارة.

سلام على من اتبع الهدى.. أسلم تسلم من عواقب معاكسة سنن الله.

يؤتك الله أجرك مرتين؛ لإيمانك بدينك ثم لإيمانك بخاتم الأنبياء.

إن توليت عليك إثم القبط؛ لأنك تحول بينهم وبين الهداية والحق والعدل.

تعالوا إلى كلمة سواء؛ أن يكون لكل منا مثل ما للآخر، ولا أحد فوق القانون.

يشرح السواء: ألا نعبد إلا الله ولا نخضع إلا لسننه وآياته. وألا نسمح لأحد بأن يجعل لنفسه امتيازات تجعله فوق القانون.

---

(١) تراجم سيدات بيت النبوة: د. عائ[illegible] ٣٩٨.

فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون.. هذا هو الموقف الذي تتجسد فيه كرامة الإنسان عن سائر المخلوقات.. فهو ليس نعجة في القطيع.. ولا أداة بيد المستكبر.. إنه يثبت إنسانيته المكرمة حين يعلن على الملأ تمسكه بالحق.

والمقوقس حين تقرأ عليه الرسالة يدرك قيمتها وأبعادها.. فيتعامل معها بتوقير.. ويكرم حاملها.. ويرسل الهدايا لمرسلها.. هدايا تدل على إعجاب وليس فيها معنى الذُّل والخضوع.. فلم يكن أحد من حكام البلدان المحيطة بجزيرة العرب يحسب للعرب حساباً أو يظن أنهم يمكن أن يمسوا ملكه بأذى..

ويقبل رسول الله ﷺ هدية المقوقس.. ورسالته المليئة بالتلطف والاعتذار فهي خطوة على الطريق.. وهي أفضل بكثير من ردود بعض الملوك.. ولم يتفوق عليه في ذلك إلا نجاشي الحبشة الذي آمن وكان إيجابياً في إيمانه..

ويضم رسول الله ﷺ مارية إلى أهل بيته.. ويعطي سيرين لحسان بن ثابت، وتصبح مارية بعد ذلك (أم ولد) حين تنجب له إبراهيم، وإن لم يطلق عليها أم المؤمنين.. ويذكر بأنها أسلمت وسيرين قبل وصولهما إلى النبي ﷺ..

وتتطلع عينا رسول الله ﷺ إلى المستقبل وكأنه يرى أصحابه وقد وصلوا إلى مصر فيذكرهم بالماضي ويوصيهم بالرحمة «استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً»(١). تذكروا أمكم هاجر.. والجذور التي تجمعكم بهم. وهم أهل كتاب وذمة أيضاً.. لقد كان رسول الله ﷺ في كل قول أو عمل مجمّعاً للناس مقرباً بين المتباعدين.. وما أحوجنا إلى هدي محمد ﷺ ونحن على مشارف (النظام العالمي الجديد). فلا يمكن أن ينجح التعايش العالمي إلا باحترام الآخر والرحمة به والتعاون معه على الخير.

إسلام عمرو بن العاص

وكنت قد ذكرت كيف لحق عمرو بن العاص بالنجاشي مع بعض أصحابه وذلك بعد أن شعر أن أمر محمد ﷺ يعلو وينتشر.. وكيف أنه رأى عمرو بن أمية

---

(١) رواه مسلم.

الضمري يدخل على النجاشي بكتاب من رسول الله ﷺ يطلب فيه أن يزوجه من أم حبيبة بنت أبي سفيان.. فطلب عمرو من النجاشي أن يسلمه عمرو بن أمية ليقتله.. فغضب النجاشي وقال: (يا عمرو تسألني أن أعطيك رسول من يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى والذي كان يأتي عيسى لتقتله؟!). قال عمرو: فغير الله قلبي عما كنت عليه، وقلت في نفسي عرف هذا الحق العرب والعجم وتخالف أنت؟ ثم قلت: أتشهد أيها الملك بهذا؟ قال: نعم أشهد به عند الله يا عمرو فأطعني واتبعه فوالله إنه لعلى الحق وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قلت: أتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم. فبسط يده فبايعني على الإسلام..

ثم خرجت على أصحابي.. ففارقتهم وكأني أعمد إلى حاجة.. فعمدت إلى موضع السفن فأجد سفينة قد شحنت تدفع.. فركبت معهم ودفعوها حتى انتهوا إلى الشعبة وخرجت من السفينة ومعي نفقة، فابتعت بعيراً وخرجت أريد المدينة حتى مررت على مر الظهران ثم مضيت حتى إذا كنت بالهدة فإذا رجلان قد سبقاني بغير كثير يريدان منزلاً.. فنظرت فإذا خالد بن الوليد، قلت: أين تريد؟ قال: محمداً[(١)].

* * *

أين خالد؟! مثله جهل الإسلام؟!!

وأما خبر خالد فيقول عن نفسه: شهدت هذه المواطن كلها على محمد ﷺ فليس في موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء، وأن محمداً سيظهر. فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل من المشركين فلقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بعسفان، فقمت بإزائه وتعرضت له. فصلى بأصحابه الظهر أمامنا، فهممنا أن نغير عليهم ثم لم يُعزم لنا.. فاطلع على ما في أنفسنا من الهم به فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف. فوقع ذلك

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٢٣٧.

منا موقعاً.. وقلت الرجل ممنوع فاعتزلنا، وعدل عن سير خيلنا وأخذ ذات اليمين. فلما صالح قريشاً بالحديبية.. قلت في نفسي: أي شيء بقي؟ أين أذهب؟ إلى النجاشي؟ فقد اتبع محمداً وأصحابه عنده آمنون!! فأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية فأقيم في عجم..؟! فأقيم في داري بمن بقي. فأنا في ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضية فتغيبت ولم أشهد دخوله. وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في عمرة القضية، فطلبني فلم يجدني، فكتب إلي كتاباً فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلكَ عقلُكَ! ومثل الإسلام جهله أحد؟ وقد سألني رسول الله ﷺ عنك وقال: أين خالد؟ فقلت: يأتي الله به. فقال: «مثله جهل الإسلام؟ ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين كان خيراً له.. ولقدّمناه على غيره» فاستدرك يا أخي ما قد فاتك من مواطن صالحة.

فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الإسلام وسرّني سؤال رسول الله ﷺ عني، وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة مجدبة فخرجت في بلاد خضراء واسعة فقلت إن هذه لرؤيا.

فلما أجمعت الخروج إليه ﷺ قلت: من أصاحب؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت: يا أبا وهب أما ترى ما نحن فيه.. وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو قدمنا على محمد واتبعناه فإن شرف محمد لنا شرف؟ فأبى أشد الإباء فقال: لو لم يبق غيري ما اتبعته أبداً. فافترقنا وقلت: هذا رجل قتل أخوه وأبوه ببدر. فلقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان فقال مثل ما قال صفوان. قلت: فاكتم علي. قال لا أذكره. فأمرت براحلتي فخرجت بها إلى أن لقيت عثمان بن طلحة فقلت: إن هذا لي صديق فلو ذكرت له ما أرجو، ثم ذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكُره، ثم قلت: وما عليّ وأنا راحل من ساعتي.. فذكرت له الأمر.. فقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب في حجر لو صبّ فيه ذنوب (أي دلو) من ماء لخرج.. فأسرع الإجابة. فاتعدت أنا وهو يأجج إن

سبقني أقام وإن سبقته أقمت عليه. فأدلجنا سحراً فلم يطلع الفجر حتى التقينا.. حتى انتهينا إلى الهدة فنجد عمرو بن العاص.. فقال: إلى أين مسيركم؟ فقلنا: وما أخرجك؟ فقال: وما أخرجكم؟ قلنا: الدخول في الإسلام واتباع محمد ﷺ. قال: وذاك الذي أقدمني. فاصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة فأنخنا بظهر الحرة ركابنا. فأخبر بنا رسول الله ﷺ فسرَّ بنا.. فلبست من صالح ثيابي (وعمرو يقول: لبسنا) ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ فلقيني أخي (الوليد) فقال: أسرع فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بك فسرَّ بقدومك وهو ينتظركم. فأسرعنا المشي فاطلعت عليه فما زال يتبسم إلي حتى وقفت عليه فسلمت عليه بالنبوة فردَّ السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فقال: «تعال» ثم قال ﷺ: «الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير» قلت: يا رسول الله إني قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحق فادع الله أن يغفرها لي. فقال ﷺ: «الإسلام يجبُّ ما قبله» قلت: يا رسول الله على ذلك. قال: «اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيل الله» وتقدم عثمان وعمرو فبايعا رسول الله ﷺ.. وكان قدومنا في صفر سنة ثمان.. والله ما كان رسول الله ﷺ يعدل بي أحداً من أصحابه فيما حزبه[(١)]. وكذلك روى عمرو بن العاص دخولهم على النبي ﷺ وحفاوته بهم.

في هذا الخبر نرى خالداً يدور في دوامة من الحيرة.. فهو غير مقتنع بما عليه قومه من دين.. مدهوش من انتصارات محمد ﷺ وانتشار أمره.. مأخوذ بما يرى من أنه ﷺ محمي وممنوع من كيد أعدائه. وهو يستعرض الخيارات التي أمامه بواقعية ومن خلال أرضيته العربية التي لا تقبل الخضوع للعجم.

إنه يحس بأن محمداً ﷺ سيكتسح مكة فماذا يفعل عندها..؟! ويتغيب عن مكة يوم عمرة القضاء هرباً من مواجهة همه وغمه وهو يرى انتصار المسلمين.

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٢٣٩ - ٢٤٠.

وتأتي رسالة أخيه الوليد لتحسم هذه الحيرة.. وما أعظم ثمار الكلمة الطيبة.. وما أعظم محمداً ﷺ الذي يزرعها في كل مكان.. بكل ثقة ويقين.. ويتعلم منه أصحابه.. أمسك خالد الرسالة فما راعه إلا سؤال النبي ﷺ عنه: «أين خالد..؟! مثله جهل الإسلام؟!» فيتملكه الخجل.. ما ينبغي لعاقل مثله أن يخفى عليه أمر الإسلام.. ويمضي مع الرسالة فيجد الأبواب تفتح له والتكريم يُعرض عليه فكيف يرفض..؟! لقد انفتح قلبه لاهتمام النبي ﷺ به ووعده بالتقديم.

- ثم نجد خالداً يحاول مع أصدقائه - وهو في ذلك أفضل من عمرو بن العاص الذي انسلَّ من أصحابه في الحبشة ولم يفكر في دعوتهم - فيأبى اثنان ويقبل الثالث عثمان بن طلحة.. ويرحل معه متكتماً يحذر قريشاً أن تحول بينه وبين الهجرة..

وفي المدينة يُبشر النبي ﷺ بقدومهم.. فيتهيؤون للقائه بأحسن ملابسهم.. ويهش النبي ﷺ ويبش لهم.. ناسياً ما كان منهم من كيد وعداوة.. وحين يذكر خالد وعمرو ما كان منهما في الماضي يبتسم النبي ﷺ قائلاً: «الإسلام يجبُّ ما قبله».

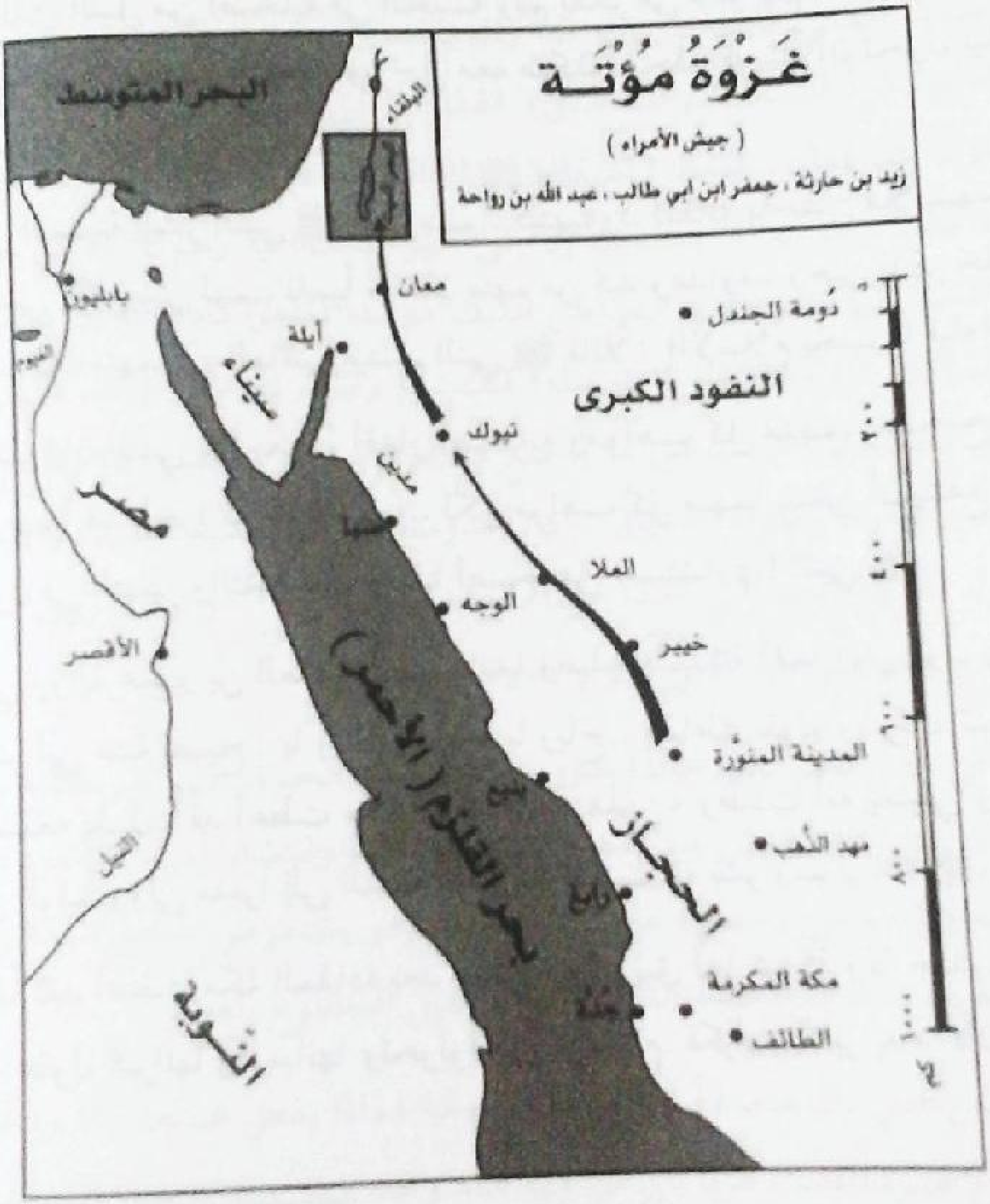
ولقد كان النبي ﷺ يعرف أقدار أصحابه ومواهب كل منهم.. صحيح أن خالداً وعمراً قد تأخرا في إسلامهما.. لكن مواهب كل منهما ينبغي أن ينتفع بها المسلمون في التدبير والتخطيط.. ولهذا أصبحا من (مستشاري) النبي ﷺ.

وفي رواية عمرو بن العاص أنهم عندما وصلوا المدينة (فما أنس قول رجل لقيناه ببئر أبي عتبة يصيح: يا رباح يا رباح يا رباح.. فتفاءلنا بقوله وسرنا، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين، وظننت أنه يعنيني ويعني خالد بن الوليد وولى مدبراً إلى المسجد سريعاً فظننت أنه بشر رسول الله ﷺ..)[1].

حقاً لقد أعطت مكة المقادة بعد هذين.. ولم يبق لها شوكة ولا جلد.. فلقد تحركت عقول كبرائها وفرسانها وتحولوا إلى الإسلام. فكيف تكابر بعد الآن..!

(١) البداية والنهاية، ٤/٢٣٨.

٦- توجه إلى أطراف الشام (مؤتة)



خريطة غزوة مؤتة

توجُّهٌ إلى أطراف الشام

بعث رسول الله ﷺ كعب بن عمير الغفاري[(١)] في خمسة عشر رجلاً حتى انتهوا إلى ذات أطلاح من الشام، فوجدوا جمعاً من جمعهم كثيراً فدعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم ورشقوهم بالنبل، فلما رأى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوهم أشد القتال حتى قتلوا، فارتث منهم رجل جريح في القتلى، فلما أن برد عليه الليل تحامل حتى أتى رسول الله ﷺ. فهمّ بالبعثة إليهم فبلغه أنهم ساروا إلى موضع آخر[(٢)].

هذه السرية التي قضى بها خمسة عشر شهيداً.. يبدو لي أنها كانت السبب في إرسال جيش الأمراء إلى مؤتة وهي في أرض البلقاء (الأردن) قريباً من البحر الميت. وذلك في شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة في ثلاثة آلاف، وقد أمّر عليهم رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وقال: «فإن قتل زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة، فإن قتل فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم»[(٢)]. فتخلّف ابن رواحة فجمّع مع النبي ﷺ (أي صلى الجمعة معه) فرآه ﷺ فقال: «ما خلّفك؟» فقال: أجمّع معك. قال: «الغدوة أو روحة خير من الدنيا وما فيها»[(٣)]. وكان رسول الله ﷺ قد خرج يشيعهم ويودعهم.

ثم مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مئة ألف من الروم، وانضم إليه من لخم وجذام و... مئة ألف منهم عليهم رجل من بليّ.. (من المستعربة). فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين ينظرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له،

---

(١) عند الطبري (عمرو بن كعب الغفاري).

(٢) البداية والنهاية، ٤/ ٢٤١.

(٣) المصدر السابق، ٤/ ٢٤٢.

فشجع الناس عبد الله بن رواحة وقال: يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة. ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين..

فقال الناس: قد - والله - صدق ابن رواحة. فمضى الناس. وابن رواحة ينشد الأشعار.. حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية (مشارف).. وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة. يقول أبو هريرة: شهدت مؤتة فلما دنا منا المشركون رأينا ما لا قبل لأحد به من العدة والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب.. فبرق بصري، فقال لي ثابت بن أرقم: يا أبا هريرة كأنك ترى جموعاً كثيرة؟ قلت: نعم، قال: إنك لم تشهد بدراً معنا، إنا لم ننصر بالكثرة[(١)].

وقاتل المسلمون وقتل أمراؤهم الثلاثة واحداً بعد الآخر وهم يحملون الراية. ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم. قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد. فلما أخذ الراية دافع القوم وحاش بهم (انحاز بهم خوفاً عليهم) ثم انحازَ وانحيزَ عنه حتى انصرف بالناس[(٢)].

ولما أصيب القوم قال رسول الله ﷺ (وكأن الله كشف له المشهد عن بعد): «أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيداً. ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيداً» ثم صمت رسول الله ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون[(٣)]. ثم قال: أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً، ثم قال: «لقد رفعوا إلي في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبيه، فقلت: عمّ هذا؟ فقيل لي: مضيا وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى»[(٤)].

---

(١) رواه البيهقي.
(٢) البداية والنهاية، ٤/ ٢٤٥.
(٣) وذلك أن عبد الله تردد قبل أن يأخذ الراية.
(٤) تهذيب سيرة ابن هشام، ص٢٤١.

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبر. فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها ابن رواحة فأصيب، وعيناه تذرفان، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»[(١)] يقول عبد الله بن عمر: فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ووجدنا في جسده بضعاً وتسعين من ضربة ورمية[(١)]. وكان ابن عمر إذا حيّا ابن جعفر قال: السلام عليك يابن ذي الجناحين[(١)].

ويقول خالد بن الوليد: لقد دُقَّ في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقي في يدي إلا صفحة يمانية[(١)].

يقول ابن كثير: ويمكن الجمع بين قول ابن إسحاق وقول الباقين: أن خالداً لما أخذ الراية حاش بالقوم المسلمين حتى خلصهم من أيدي الكافرين من الروم والمستعربة. فلما أصبح وحول الجيش ميمنة وميسرة ومقدمة وساقة كما ذكره الواقدي (بدل خالد أماكن الفرق فأنكر الروم الرايات الجديدة) وتوهموا أن ذلك عن مدد جاء إلى المسلمين، فلما حمل عليهم خالد هزموهم بإذن الله والله أعلم[(٢)].

نقف عند أمور في خبر هذه الغزوة:

١ - رسول الله ﷺ يدفع بالمسلمين إلى الشمال - وذلك بعد أن أرسل إلى هرقل يدعوه، فالإسلام رسالة إنقاذ للناس جميعاً ولا بد من إزاحة الجبابرة من وجهه.

٢ - يؤمر النبي ﷺ على الجيش زيد بن حارثة - قبل غيره من أشراف قريش - وهو مولى.. وغير قرشي.. وفي الجيش جعفر وخالد..

إن سبقه للإسلام وكونه قد تربى في بيت النبي ﷺ على القيم القرآنية يعطيه الأولوية في قيادة الجيش ولو كان في الأصل عبداً.

وهذا الاختيار من الرسول ﷺ فيه تعليم للمسلمين وترسيخ للقيم.

٣ - دقة التقدير الإلهي في وزن أعمال المجاهدين، فهذا عبد الله بن رواحة يتردد قليلاً قبل أن يندفع فتنخفض مكانته قليلاً عن صاحبيه.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) البداية والنهاية، ٤/٢٤٨.

٤ - حين انطلق الجيش من المدينة عاد عبد الله بن رواحة ليكسب الجمعة مع النبي ﷺ. لكن رسول الله ينكر عليه ذلك ويعلمه أن الخروج في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها.. وهو أمر ينبغي للمسلمين أن ينتبهوا له.. إذ إنهم يبالغون في التركيز على العبادات الفردية على حساب العبادات الاجتماعية.

إن السعي في إنقاذ الإنسان.. وخدمة مصالح الأمة المسلمة أعظم أجراً من صلاة ركعات - من غير الفرائض - ذلك هو الجهاد ذروة سنام الإسلام.

٥ - نجد دفعة الإخلاص في جيش الأمراء هذا عالية جداً.. كيف يتصدى ثلاث آلاف لمئتي ألف..؟! هذا الإخلاص له وزنه الكبير.. لكنَّ خالد بن الوليد ينقذ الموقف بتخطيط ذكي.. فيجمع إلى الإخلاص الصواب وحسن التدبير.. وهذا الذي جعله جديراً باللقب الذي أطلقه عليه رسول الله ﷺ: سيف الله. إن سيف الله لا يكتفي بالإقدام والشجاعة وصدق النية. فكم من مريد للخير لا يصيبه.. والشجاعة من غير تخطيط تصبح تهوراً.. إن سيف الله يعمل عقله وذكاءه وخبرته.. ليضع خطة أفضل لإنقاذ الأمة.

* * *

فُرّار أم كُرّار..؟!

ذكرت بعض الروايات أن أهل المدينة استقبلوا الجيش العائد فجعلوا يحثون عليهم بالتراب ويقولون: يا فرّار فررتم في سبيل الله. فقال ﷺ: «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله عز وجل». لكن ابن كثير ينقد الخبر ويقول: (إنما كان للذين فرّوا حين التقى الجمعان، وأما بقيتهم فلم يفرّوا بل نصروا كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ. (أخذ الراية سيف من سيوف الله ففتح الله على يديه). وإنما كان التأنيب للذين فرّوا وفيهم عبد الله بن عمر. فقد ورد أن ابن عمر قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة وكنت فيمن حاص، فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟! ثم قلنا: لو دخلنا المدينة قُتلنا، ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا.

فأتيناه قبل صلاة الغداة. فخرج فقال: من القوم؟ قلنا: نحن فرّارون. قال: لا بل أنتم الكرّارون أنا فئتكم، وأنا فئة المسلمين[١]. فأتيناه حتى قبلنا يده[٢].

- نفهم من الخبر أن عدداً من ذلك الجيش هرب أثناء المعركة من شدة هولها..

ونجد الهاربين وقد ضاقت عليهم الأرض وضاقت بهم أنفسهم.. فما يدرون ما يفعلون. وأهل المدينة قد نبذوهم وتبرؤوا منهم. فيلوذون برسول الله معترفين بذنبهم.. فيتلقاهم ﷺ بصدره الحنون مقدراً معاناتهم فيرفع معنوياتهم من جديد ويرد لهم اعتبارهم.. (بل أنتم الكرّارون). العائدون إلى الجهاد بتنظيم أكثر. ويفسر الموقف على أنهم لم يفرّوا من الله ورسوله بل إنهم انحازوا إلى الرسول ليعيد تشكيلهم في بعث جديد.

❀ ❀ ❀

أدب مع القائد

وهذا عوف بن مالك الأشجعي يحدثنا عن لقطات أخرى من الغزوة: قال: خرجت مع من خرج مع زيد بن حارثة من المسلمين في غزوة مؤتة ومدوي من اليمن ليس معه غير سيفه. فنحر رجل من المسلمين جزوراً فسأله المدوي طابقة من جلده فأعطاه إياه فاتخذه كهيئة الدرقة (شيء كالترس). ومضينا فلقينا جموع الروم وفيهم رجل على فرس له أشقر عليه سرج مذهب وسلاح مذهب، فجعل الرومي يغري بالمسلمين، وقعد له المدوي خلف صخرة فمرَّ به الرومي فعرقبَهُ فخرّ، وعلاه فقتله وحاز فرسه وسلاحه، فلما فتح الله للمسلمين بعث إليه خالد بن الوليد يأخذ منه السلب، قال عوف: فأتيته فقلت يا خالد أما علمت أن رسول الله ﷺ قضى بالسلب للقاتل؟ قال: بلى ولكني استكثرته له. فقلت: لتردَّنه إليه أو لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ. فأبى أن يرد عليه. قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله ﷺ فقصصت عليه قصة المدوي وما فعل خالد. فقال ﷺ: «يا خالد ردّ

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ٨/١٦].

(٢) رواه الإمام أحمد.

عليه ما أخذت منه». قال عوف فقلت: دونك يا خالد ألم أفِ لك؟ فقال ﷺ: «وما ذاك»؟ فأخبرته، فغضب ﷺ وقال: «يا خالد لا ترد عليه، هل أنتم تاركو أمرائي؟ لكم صفوة أمرهم، وعليهم كدره»(١).

أتأمل مدى الموضوعية عند راوي الحديث عوف بن مالك إذ يروي الخبر ولو كان يدينه في موقف مع خالد قائد الخلاص في مؤتة.

ما الذي دفع عوفاً إلى معارضة خالد حين صادر ما غنمه الرجل المدوي؟ هل هو مجرد إعادة الحق إلى نصابه..؟!

ربما كان عوف هنا يستخف بخالد فهو حديث عهد بالإسلام..

وربما ظن أن خالداً داخله الغرور حين قاد الجيش إلى نصر غير متوقع فأراد أن ينقص من اعتداده.. وربما داخَلَ عوفاً نوع من الغيرة الخفية فأراد أن ينقص من قدر خالد..

لقد كان خالد يحاور بهدوء.. فلماذا احتدَّ عوف وهدَّد بأن يشكوه أو (يفضحه) عند رسول الله ﷺ..؟!

إن في الأمر دوافع خفية لغير الله جعلت من عوف يقول لخالد بتشفٍّ: (دونك يا خالد ألم أفِ لك؟).

وجعلت النبي ﷺ يغضب ويرجع عن حكمه.. فلقد كان الأمر أشبه ما يكون بـ(كلمة حق أريد بها باطل).. ويلتفت النبي إلى أصحابه مؤدباً:

- هل أنتم تاركو أمرائي؟ ما بالكم لا تعرفون حقهم؟!

أيكون لكم صفوة أمرهم.. يبذلون جهدهم في تحمل أعباء القيادة ويحملون همَّ أتباعهم والتخطيط لحمايتهم ونصرهم.. هم يتعبون وأنتم تجنون الثمرة.. (وعليهم كدره) فصوابهم وإحسانهم لكم.. وخطؤهم عليهم وحدهم..؟! ما هذا بالإنصاف..! وليس هذا أدب المؤمن مع قائده..

صحيح أن النبي ﷺ علمكم حدود الطاعة للأمير: إنما الطاعة بالمعروف.. وصحيح أن الإسلام لا يقبل من الفرد أن يكتم الحق.. ولا يقبل منه (نفي الذات)

---

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم.

لكن هذا لا يعني فقدان الحب والأدب والتقدير مع القائد.. وللحوار والبيان آدابه. كما قال الشافعي: (ما جادلت أحداً إلا وتمنيت أن يظهر الله الحق على لسانه) ولا خير في الجهر بالحق إن خلا منه الإخلاص والرفق والأدب.

❀ ❀ ❀

أبناء الشهداء

ولما أقبل أصحاب مؤتة تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولقيهم الصبيان يشتدون.. ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة، فقال: خذوا الصبيان فاحملوهم، وأعطوني ابن جعفر. فأتي بعبد الله فأخذه فحمله بين يديه[1].

وعن عبد الله بن جعفر: كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر تلقى الصبيان من أهل بيته، وأنه قدم من سفر فسبق بي إليه، فحملني بين يديه ثم قال: «جيء بأحد ابني فاطمة» إما حسن وإما حسين، فأردفه خلفه. فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة[2].

ها هم الصبيان يشتدون مسرعين للقاء آبائهم العائدين من الحرب.. ورسول الله ﷺ ينظر إليهم فيشفق عليهم من أن تخيب آمالهم بلقاء آبائهم.. فيقول لأصحابه: خذوهم واحملوهم.. ويأخذ ابن جعفر فيضمه إليه.. ويساوي بينه وبين أحفاده في الرعاية والحفاوة..

لقد كان ﷺ أباً لكل الأطفال.. فكيف إذا كانوا أيتاماً..!

❀ ❀ ❀

اصنعوا لهم طعاماً..

وتقول أسماء بنت عميس - زوجة جعفر -: دخل علي رسول الله ﷺ وقد دبغت أربعين مناء وعجنت عجيني وغسلت بنيَّ ودهنتهم ونظفتهم. فقال

---

(١) البداية والنهاية، ٤/٢٤٨.

(٢) رواه الإمام أحمد.

رسول الله ﷺ: «ائتني بابني جعفر» فأتيته بهم فشمهم وذرفت عيناه. فقلت: يارسول الله بأبي أنت وأمي ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: «نعم، أصيبوا هذا اليوم» قالت: فقمت أصيح.. واجتمع إلي النساء، وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله فقال: «لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم»(١).

زوجة جعفر - صاحبة الهجرتين - تقوم على شؤون بيتها وأولادها وكأنها تسارع في إنجاز أعمالها استعداداً لعودة المجاهد..

وإذا بها تفاجأ بالخبر حين يزورهم رسول الله ﷺ فيضم الأولاد ويشمهم ويبكي.. فلا تتمالك نفسها من أن تعول وتصيح حتى يجتمع عليها النساء.. ورسول الله ﷺ إنسان مرهف يتحسس آلام الآخرين ويقدر مشاعرهم. فيأمر بصنع طعام لآل جعفر مواساة لهم ومشاركة لهم فيما أهمهم. ثم أمهل آل جعفر ثلاثاً أن يأتيهم، ثم أتاهم فقال: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ادعوا لي ابنَي أخي» قال عبد الله بن جعفر: فجيء بنا كأننا أفرخ، فقال: «ادعوا لي الحلاق» فجيء بالحلاق فحلق رؤوسنا، ثم قال: «أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب وأما عبد الله فشبيه خَلْقي وخُلُقي» ثم أخذ بيدي فأشالها وقال: «اللهم اخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه» قالها ثلاث مرات. فجاءت أمنا فذكرت له يتمنا.. فقال: «العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟»(٢).

وهنا نجد الرسول ﷺ ينهى عن الحداد والبكاء على الميت بعد ثلاثة أيام. ويحلق لأولاد جعفر إشعاراً بانتهاء الحداد..

صحيح أن الموت مؤلم ومحزن.. ولكن الإسلام دين الحياة والانطلاق إلى العمل بحيوية.. وينبغي إزالة كل ما يثبط الإنسان عن ممارسة نشاطه وأداء واجبه في الحياة..

---

(١) رواه الإمام أحمد.
(٢) رواه الإمام أحمد.

ويمضي رسول الله ﷺ في إيناس الأيتام ولمسهم وشمهم.. والحديث إليهم بما يسعدهم: أنت تشبه جدك.. وأنت تشبهني.. والدعاء لهم.. وتأتي أرملة الشهيد تشكو إلى النبي يتم أولادها..

- وعجباً لها تأتي النبي وتتحدث إليه.. أليست معتدة على زوجها..! لقد أرهق الناس - في عصرنا - المعتدة بقيود ما أنزل الله بها من سلطان.. فجعلوها حبيسة البيت لا يجوز أن تحدث أحداً من الرجال أو ترد عليه.. وكل إفراط لا بد أن يثمر تفريطاً.. ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه.. المهم أن رسول الله ﷺ لا ينكر عليها أن تحدثه وتشتكي إليه.. بل يطمئنها ويقول: أنا ولي أيتامك في الدنيا والآخرة..

فماذا تريدين أكثر من ذلك؟!

* * *

لجاجة..

وتحدثنا عائشة رضي الله عنها عن غضبها من رجل ألح على النبي ﷺ في شكاية الباكيات.. تقول: لما قتل زيد وجعفر وابن رواحة، جلس رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الحزن، وأنا أطّلع من صاير الباب - شق - فأتاه رجل فقال: أي رسول الله إن نساء جعفر.. وذكر بكاءهن. فأمره ﷺ أن ينهاهن. فذهب الرجل ثم أتى فقال: والله لقد غلبننا. فزعمت أن رسول الله ﷺ قال: «فاحث في أفواههن التراب»، فقلت (وكأنها تخاطب نفسها): أرغم الله أنفك، فوالله ما أنت تفعل ذلك، وما تركت رسول الله ﷺ من العناء[1].

يرحمك الله يا أم المؤمنين.. كيف أدركت جلافة هذا الرجل في إلحاحه على النبي ﷺ.. والنبي في حال من الحزن يحتاج فيها إلى السكينة.. ثم كيف سبب له

---

(١) رواه مسلم.

إلحاحه في أن يُؤمر بحثو التراب في أفواههن.. وهو أمر لا يقدر عليه.. وكأن الرسول ﷺ قالها للرجل مغتاظاً منه مكلفاً له بما لا يقدر عليه.. ويحك يا هذا هل تقدر على إسكاتهن..؟! كفّ عن هذه (اللَّجاجة) في هذا الموقف العصيب.. واترك كل إنسان يعبر عن ألمه. وقد يطغى الحزن على المرء فلا يقدر على كفكفته.. صبراً يا أم المؤمنين.. فكم عانى محمد ﷺ من جلافة العرب.. وكم صبر على خشونتهم وضيق أفقهم.. حتى صنع منهم ناساً آخرين يعرفون كيف يستأذنون.. وكيف يتحسسون آلام الناس ويتحملونهم. أين عمر (الجاهلية) من عمر الفاروق أمير المؤمنين..؟!

* * *

شهادة من طالب علم لجعفر

يقول أبو هريرة: إن الناس كانوا يقولون: أكثر أبو هريرة - أي أكثر من رواية الحديث - وإني كنت ألزم رسول الله ﷺ بشبع بطني خبزاً لا آكل الخمير ولا ألبس الحرير ولا يخدمني فلان وفلانة، وكنت ألصق بطني بالحصباء من الجوع، وإن كنت لأستقرئ الرجل الآية هي معي كي ينقلب بي فيطعمني، وكان خير الناس للمساكين جعفر بن أبي طالب، وكان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان في بيته، حتى إن كان ليُخرج إلينا العكة (وعاء جلدي يضعون فيه السمن وما شابه) التي ليس فيها شيء فنشقها فنلعق ما فيها[١].

ويقول أيضاً: ما احتذى النعال ولا انتعل، ولا ركب المطايا ولا لبس الثياب من رجل بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر بن أبي طالب[٢]. ويقصد في الكرم والعطاء.. وإلا فأين الصديق والفاروق..

---

(١) تفرد به البخاري.

(٢) رواه الإمام أحمد.

فها هو أبو هريرة الذي أوقف نفسه على طلب العلم.. ولزم رسول الله ﷺ يراقب حركاته وسكناته ويتلقى كلماته.. يكتفي من الزاد بما يمسك عليه حياته.. ويرضى بالجوع على أن يملأ قلبه وسمعه وبصره من رسول الله ﷺ وهديه وأخلاقه.. ها هو يشهد لجعفر بالكرم وكثرة العطاء..

ويبين للناس علّة كثرة أحاديثه عن رسول الله ﷺ فلقد لازمه سنوات لا يشغله عنه رزق ولا سعي في الأسواق.. ولا بد لكل أمة من شباب يتفرغون لطلب العلم وعلى الأمة أن تتكفل بشؤونهم.

❀ ❀ ❀

دعنا منك يا أبا الحسن..!!

وكان جعفر حين استشهد شاباً في التاسعة والثلاثين.. وقد ترك لزوجته أسماء بنت عميس أطفالاً صغاراً.. وقد هاجرت معه إلى الحبشة وكان فيها إمام المهاجرين والمتحدث بلسانهم عند النجاشي.. فكيف يكون حزنها ولوعتها عليه..؟!

واشتد جزع أسماء.. بكت زوجها طويلاً ورثته بقصيدة قالت فيها:

فآليتُ لا تنفكُّ نفسي حزينةً　　عليكَ ولا ينفكُّ جلدي أغبرا

فللهِ عيناً من رأى مثلَهُ فتىً　　أكرَّ وأحمى في الهياج وأصبرا

فلما انقضت عدتها خطبها أبو بكر الصّديق ﷺ فتزوجها فأولم. وجاء الناس للوليمة فكان منهم علي بن أبي طالب. فلما ذهب الناس استأذن علي أبا بكر ﷺ في أن يكلم أسماء من وراء الستر، فأذن له. فلما اقترب من الستر نفحه ريح طيبها، فقال لها علي: - على وجه البسط - من القائلة في شعرها:

فآليتُ لا تنفكُّ نفسي حزينةً عليكَ ولا ينفكُّ جلدي أغبرا

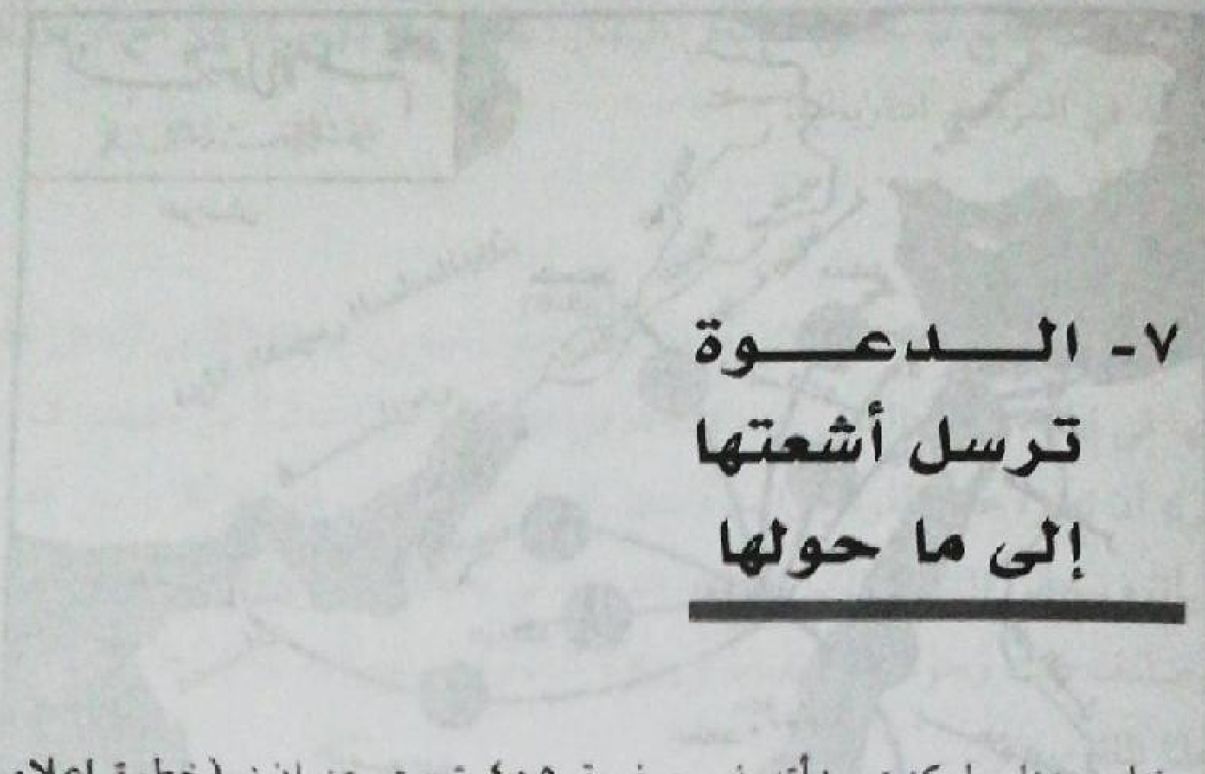
قالت: دعنا منك يا أبا الحسن فإنك امرؤ فيك دعابة..

فولدت للصّديق محمداً بالشجرة - بين مكة والمدينة - ورسول الله ﷺ ذاهب إلى حجة الوداع، فأمرها أن تغتسل وتهل. ثم لما توفي الصّديق تزوجها علي بن أبي طالب[١].

أقف أمام طرافة الخبر وكلي عجب من قوة تدفق الحياة وشدة إيقاع نبضها في ذلك المجتمع الفتي.. مجتمع لا مكان للحزن والإحباط فيه.. مجتمع لا يترك أفراده للعزلة والانزواء.. بل إنه يلاحق الأرامل والأيتام ليعيد إليهم نبض الحياة ويضطرهم إلى هجر المآسي والأحزان.. فأي روح تأججت في تلك الأمة..؟!

* * *

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٢٥٧.

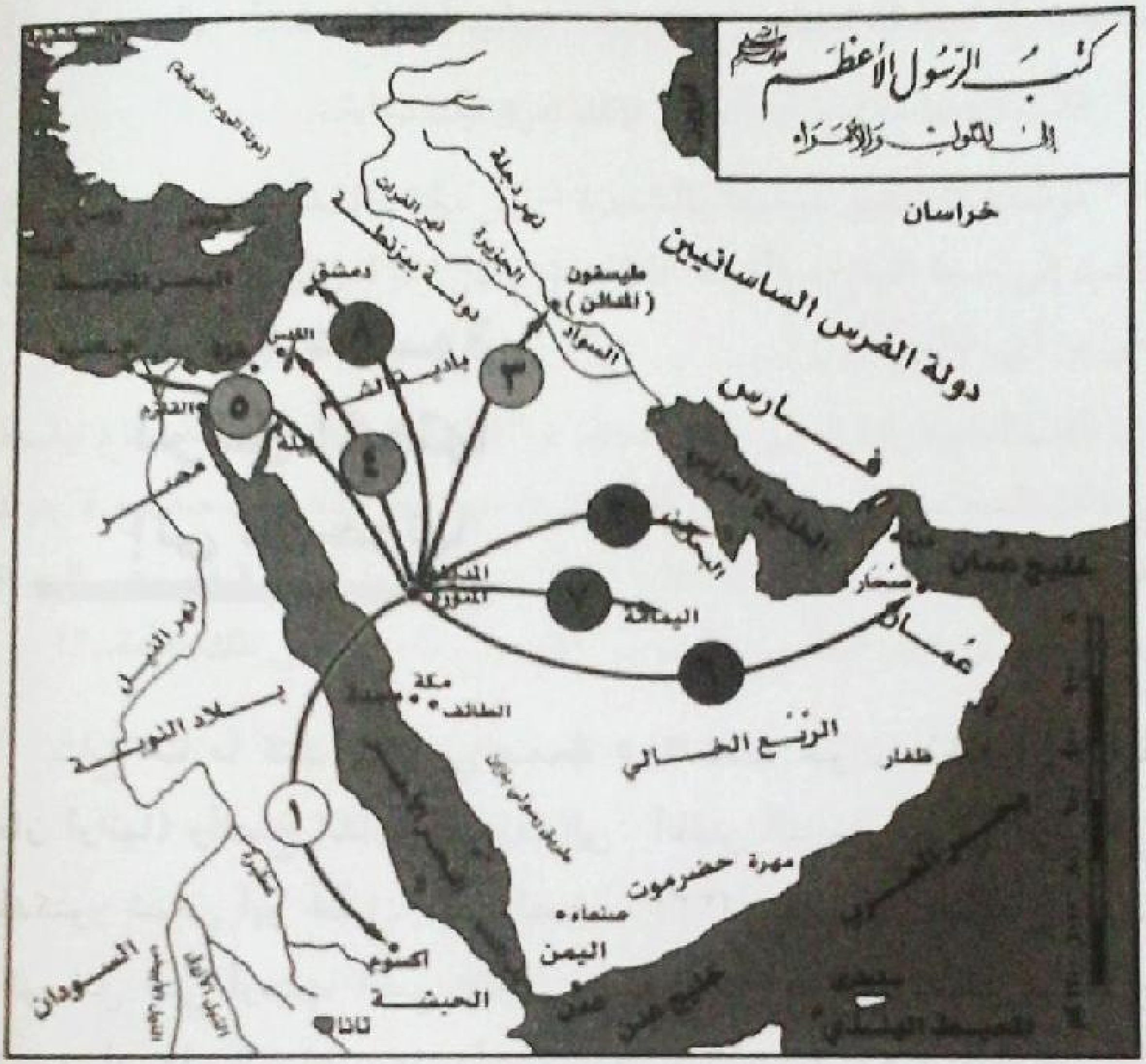


٧- الـــدعـــوة ترسل أشعتها إلى ما حولها

تتابع هنا ما كنت بدأته في صفحة ٤٠٥ تحت عنوان: (**خطوة إعلامية حان أوانها**) وأنصح القارئ بالعودة إلى: أطلس التاريخ العربي الإسلامي للدكتور شوقي أبو خليل. ففي الصفحة (٣٣) منه رسم مخططاً للكتب والرسائل التي أرسلها النبي ﷺ إلى الملوك من حوله. ومعظم الباحثين يقررون أن هذه الرسائل إنما بدأت بعد صلح الحديبية. وكما يقول أنس بن مالك فإن رسول الله ﷺ كتب إلى كسرى وقيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل - وليس بالنجاشي الذي صلى عليه[١]-. وقد سبق لي أن تحدثت عن رسالته ﷺ مع عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي (المؤمن). ورسالته إلى مقوقس مصر مع حاطب بن أبي بلتعة.. وكيف ردّ المقوقس بإرسال الهدايا والاعتذار عن عدم قدرته على متابعة النبي ﷺ.

---

(١) رواه مسلم.



١- إلى النجاشي

٢- إلى المنذر بن ساوى

٣- إلى كسرى الفرس

٤- إلى هرقل قيصر الروم

٥- إلى المقوقس عظيم مصر

٦- إلى جَيْفَر وعبد ابني الجُلَنْدى

٧- إلى هوذة بن علي

٨- إلى الحارث بن أبي شِمر الغسَّاني

مخطط الكتب والرسائل

والآن نتابع ما حصل مع باقي الرسل.. بحسب ما يتيسر لنا من أخبار مروية موثقة في المراجع التاريخية.

هرقل وأبو سفيان

أرسل النبي ﷺ كتابه إلى هرقل الروم مع دحية بن خليفة الكلبي فدخل عليه بها في إيلياء - أي القدس - وكان هرقل قد خرج إليها ماشياً من حمص شاكراً لربّه أن نصره على الفرس واستردَّ منهم الصليب الأعظم. فلما قرأها أرسل جنوده ليأتوه ببعض التجار العرب الموجودين في بلاده كي يستفسر عن هذا النبي. وصادف ذلك وجود أبي سفيان في بلاد الشام فلنستمع إليه يخبرنا عما حصل في هذا اللقاء. يقول:

أرسل إليه هرقل في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش. فأتوه وهم بإيلياء (أي بيت المقدس) فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم ودعا بالترجمان. فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً. قال: أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه. فوالله لولا أن يؤثروا عني كذباً لكذبت عنه. ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. - ولم تمكنّي كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله فذكرت أن لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا، فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل. وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد منهم.. وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر.. وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميَّ هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به مع دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٤]. فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين

خرجنا: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة إنه يخافه ملك بني الأصفر؟! فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام[(١)].

خبر طويل وبليغ يخرج منه القارئ مبهوراً بما عند هرقل من علم ودهاء.. متسائلاً: أوَ لم يؤمن هرقل؟!

ها هو أبو سفيان - على ما عرف عنه من حسن تدبير ودهاء - يجد نفسه محاصراً عاجزاً عن التلاعب أمام أسئلة هرقل.. فيقول عن هرقل بعد ذلك: (فوالله ما رأيت من رجل قط أزعم أنه كان أدهى من ذلك الأغلف)[(٢)].

- وأبو سفيان رغم جاهليته يأنف من أن يقال عنه كاذب.

- وهو يبحث جاهداً عن مطعن في أخلاق النبي وصفاته فلا يجد.. إلا أن يوحي بالتخوف من عدم الالتزام بصلح الحديبية.. والفضل ما شهدت به الأعداء.

هذا المستوى الأخلاقي السامق هو سرُّ نجاح محمد ﷺ واكتساحه للعقبات والعداوات. ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٦٨/ ٤].

وتأمل علم هرقل بأحوال الأنبياء وأوصافهم..!!

وانظر في دقة الأسئلة التي ينتقيها للكشف عن حقيقة محمد ﷺ..!!

وبعد السماع والتحليل ينطلق هرقل إلى الاستنتاج والتنبؤ: (سيملك موضع قدميَّ هاتين).. تحليل علمي دقيق ومعرفة بالتاريخ والعواقب.

ثم يطلق التمنيات والحسرات: لو أعلم أني أخلص إليه.. لو كنت عنده.. لكنها أماني رجل يؤثر السلامة ولا يملك الشجاعة لخوض العقبات.

---

(١) رواه البخاري.
(٢) البداية والنهاية، ٤/ ٢٦٣. والأغلف: هو غير المختون.

ويذكر ابن جرير في تاريخه أن هرقل قال لدحية: والله إني لأعلم أن صاحبك نبيٌّ مرسل وأنه الذي كنا ننتظر ونجده في كتابنا ولكني أخاف الروم على نفسي، ولولا ذلك لاتبعته، فاذهب إلى صفاطر الأسقف فاذكر له أمر صاحبكم فهو والله في الروم أعظم مني وأجود قولاً عندهم مني فانظر ماذا يقول لك. فآمن صفاطر ولبس ثياباً بيضاً.. فخرج على الروم في الكنيسة فقال: يا معشر الروم إنه قد جاءنا كتاب من أحمد يدعونا فيه إلى الله وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن أحمد عبده ورسوله. فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فضربوه حتى قتلوه. فلما عاد دحية إلى هرقل أخبره.. فقال: قد قلت لك إنا نخافهم على أنفسنا(١).

وفي رواية أن هرقل جمع الروم في دسكرة له بحمص وأمر بأبوابها فغلقت. ثم قال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت لكم ملككم؟ فتتابعوا لهذا النبي.. فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلّقت. فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردّوهم عليّ. وقال: إني إنما قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت. فسجدوا له ورضوا عنه(٢).

- أرى أن رجلاً يملك مثل هذا الدهاء.. كان يقدر لو أراد أن ينجو بنفسه إلى رسول الله ﷺ، لكنه ضنّ بملكه.. واحتفظ بقناعته لنفسه..

- وهكذا المقوقس كان خائفاً من شعبه.. خائفاً من الجماهير ومن أصحاب الرأي والنفوذ في الأمة.. فمتى تدرك الجماهير سلطانها..؟ ومتى تدرك النخبة المفكرة مقدار تأثيرها على مجريات الأحداث..؟ أليس عجيباً أن هرقل رغم علمه وسلطانه لم يقدر أن يعلن إسلامه متحدياً التيار الجارف المعارض لرأيه..!!

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٢٦٧.

(٢) المصدر السابق، ٤/ ٢٦٦.

ونحن هنا لا يهمنا أن نحكم على هرقل: أسلم أم لا.. ونعلم أن الله قد رخص بـ (التقية) ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٨]. لكننا نتعجب من الحاكم الذي يتقي شعبه.. ونتعجب من الشعب الذي يجهل قدر نفسه..

فإلى متى تبقى الجماهير ركاماً مهملاً؟ وكيف تقدر النخبة المفكرة المصلحة على بث الروح فيها؟! لقد حققت الثورة الإيرانية المعاصرة هذا الأمر.. لكنها لم تخبرنا: كيف فعلت ذلك؟! فالأمر خاضع لسنة من كشفها أمسك بالمفتاح واستطاع أن يغير ويُسَخِّر.

ونتأمل إيمان (النجاشي) الذي لم يبالِ بالمعارضة.. وإيمان (بلال) الذي لم يبالِ بالأسياد وتعذيبهم.. وأدرك قيمة ذاته..

- إن التوحيد يحرر الإنسان من كل خوف من العباد.. ويعلم الإنسان كيف يحقق ذاته ويستعيد كرامته فلا يسلّم إرادته للآخرين.

- أما نص الكتاب الذي أرسله النبي ﷺ إلى هرقل - وأرسل مثله تقريباً إلى كل الملوك - فنجده قصيراً بليغاً يذكر أصحاب المراكز والسلطان بمسؤوليتهم عن الناس. فالقدوة يضاعف له الثواب إن أحسن.. ويحمل مع الناس أوزارهم إن أعرض وصدَّ عن الحق.. وإن دعوة الله ترد لعامة الناس اعتبارهم وتنصفهم من أصحاب السلطان فيهم. والكتاب فيه ترغيب وترهيب كبيران.

- ونعود إلى أبي سفيان فنجده يخرج من مجلس هرقل مأخوذاً لا يدري أيصدّق ما سمعت أذناه أم يكذبه..؟! أهرقل يخاف من أمر محمد ﷺ؟ لكنه بعد ذلك أيقن بصدق نبوءة هرقل.. وإن أخذ دور المتفرج يرقب الأحداث في كثير من الأحيان.. ويحاول إيقاف مدّها في بعض الأحيان، لكن أبا سفيان كان قد تزلزل في أعماقه منذ ذاك اللقاء مع هرقل.

وماذا عن كسرى؟

وبعث النبي ﷺ عبد الله بن حذافة إلى كسرى ملك فارس وكتب معه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله. وأدعوك بدعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيّاً ويحق القول على الكافرين فإن تُسلم تَسْلَم، وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك). فلما قرأها شقّه وقال: يكتب إليَّ بهذا وهو عبدي؟! ثم كتب كسرى إلى باذام[1]، وهو نائبه على اليمن: أن ابعث إلى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك فليأتياني به، فبعث باذام قهرمانه - وكان كاتباً حاسباً - بكتاب فارس وبعث معه رجلاً من الفرس يقال له خرخرة وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى. وقال لأباذويه: ائت بلاد هذا الرجل وكلمه وائتني بخبره. فخرجا حتى قدما الطائف فوجدا رجلاً من قريش في أرضها فسألوه عنه فقال: هو في المدينة. واستبشر أهل الطائف وقريش بهما وقالوا: أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك.. كفيتم الرجل. فخرجا حتى قدما على رسول الله ﷺ فكلمه أباذويه فقال: شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذام يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثني إليك لتنطلق معي، فإن فعلت كتب لك إلى ملك الملوك ينفعك ويكفه عنك، وإن أبيت فهو من قد علمت فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك. ودخلا على رسول الله ﷺ وقد حلقا لحاهما وأعفيا شواربهما فكره النظر إليهما وقال: «ويلكما.. من أمركما بهذا؟» قالا: أمرنا ربّنا - يعنيان كسرى - فقال رسول الله ﷺ: «ولكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي» ثم قال: «ارجعا حتى تأتياني غداً». وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بأن الله قد

(١) في ابن جرير اختلاف في الأسماء فإنه سمى باذام باذان.

سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله في شهر كذا وكذا في ليلة كذا وكذا من الليل.. فدعاهما فأخبرهما، فقالا: هل تدري ما تقول؟! إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا فنكتب عنك بهذا ونخبر الملك باذام؟ قال: «نعم أخبراه ذاك عني وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهي إلى الخف والحافر، وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء»، ثم أعطى خرخرة منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك فخرجا من عنده حتى قدما على باذام فأخبراه الخبر. فقال: والله ما هذا بكلام ملك وإني لأرى الرجل نبياً كما يقول وليكونَنَّ ما قد قال، فلئن كان هذا حقاً فهو نبي مرسل، وإن لم يكن فسنرى فيه رأياً. فلم ينشب باذام أن قدم عليه كتاب شيرويه: (أما بعد فإني قد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم ونحرهم في ثغورهم فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك، وانطلق إلى الرجل الذي كان كسرى قد كتب فيه فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه). فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذام قال: إن هذا الرجل لرسول. فأسلم وأسلمت الأبناء من فارس من كان منهم باليمن. وقد قال باذويه لباذام: ما كلمت أحداً أهيب عندي منه! فقال له باذام: هل معه شُرَط؟ قال: لا[1].

هنا نجد البون شاسعاً بين هرقل المستنير وكسرى الأرعن.. حيث يمزق كسرى الرسالة ويتصور نفسه ملك الملوك المتصرف بالبلاد والعباد.. ومن سنن الله أن تكون عاقبة أمثال هذا الملك وخيمة.. وكما قال ﷺ في رواية أخرى: «مزّق كسرى ملكه» وعلى يد أقرب الناس إليه: ابنه..

- وأما باذام - أو باذان - ملك اليمن فيبدو متأنياً حكيماً إذ يوصي رسوله أن يأتي بلاد النبي ويقابل النبي ويأتيه بأخباره..

---

(١) البداية والنهاية، ٤/٢٦٩ - ٢٧٠

- وقريش.. يا ويح قريش ما زالت موتورة ماضية في عنادها.. تظن أن كسرى ونائبه سيكفيانها أمر محمد ﷺ.. ولا تتابع الأحداث ولا تتعظ بعواقب الأمور..

- ومحمد ﷺ مطمئن إلى ربه واثق من انتصار دعوته لأنها الحق.. وإذا جاء الحق زهق الباطل.. ولا يفوته وهو مشغول بالحدث السياسي الجليل - وهو مجيء الرسل لاعتقاله - أن يشير إلى لفتة جمالية.. فيستنكر إطلاق الشوارب حتى تعيق الكلام والطعام..

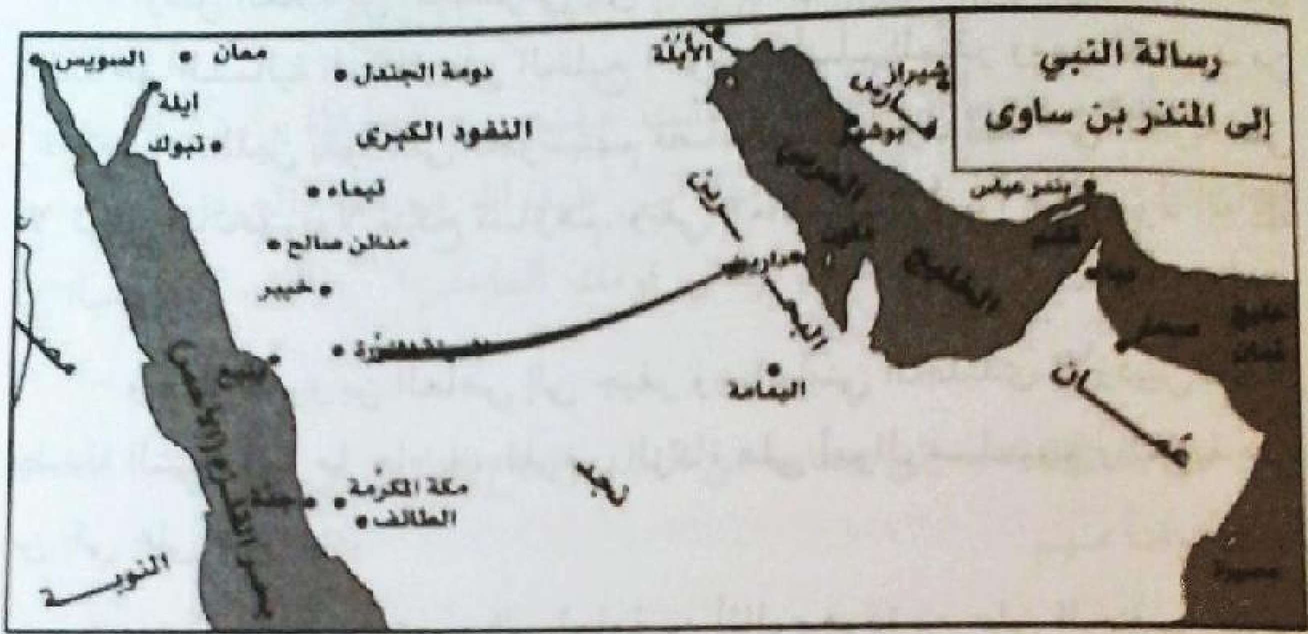
- ويأتي عرض النبي ﷺ حكيماً ومغرياً لصاحب اليمن.. ورسول الله ﷺ هنا يدرك طبائع الملوك وأن مناصبهم أحب إليهم من كل شيء فهو يتألفه بهذا العرض.. ثم إن هذا من مصلحة بلده فهو أعرف الناس بشؤونها ومصالحها.. وبقاؤه على أهلها يحميهم من الفوضى والفتن.. ماداموا راضين به ومطمئنين في كنفه. بل ويرفق رسالته بهدية مادية.. وأعظم من ذلك كله إخباره عن هلاك كسرى.

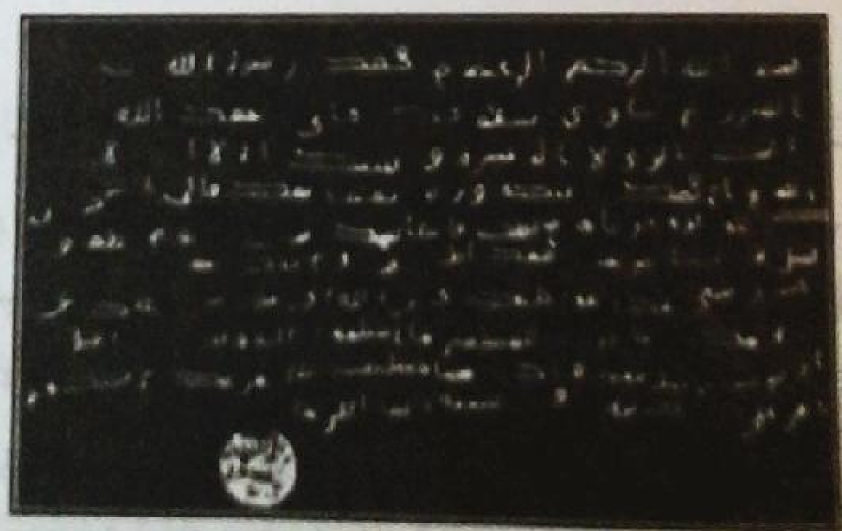
وباذام يدرك مباشرة أن الملوك لا تتجرأ على الإخبار بالغيب.. ويعلم أن محمداً ﷺ نبي مرسل.. ويأتي البريد ليثبت فراسته..

سبحان الله ما أبعد البون بين الحكمة والرعونة ﴿هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩/٣٩]؟! ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٩].

ويقول باذويه: - ما كلمت أحداً أهيب عندي منه..!! ﷺ. ولعل باذام ظنَّ أن النبي ﷺ محاط بجيش من الحرس و (الشرطة) لكنه جلال النبوة.. وسلطان الحق والخلق النبيل..

إن الشخصيات العظيمة التي تعيش لرسالة نبيلة تفرض احترامها على من يجالسها.. وكما وُصِف عيسى الأعزل في الإنجيل: إنه يتكلم وكأن معه سلطاناً.





رسالة النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى

خريطة للبحرين

رسائل اخرى

كما أرسل النبي ﷺ دعاته إلى كبار العرب الوثنيين والمجوس يدعوهم إلى الإسلام.

- أرسل العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي أمير البحرين والمناطق الشمالية المطلة على الخليج العربي. فأسلم المنذر ومعه الكثيرون من رعاياه، أما الذين بقوا على مجوسيتهم فصالحهم الرسول ﷺ على الجزية على ألا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم. وبقي العلاء هناك أميراً من رسول الله ﷺ في البحرين.

- وبعث عمرو بن العاص إلى جيفر وعباد ابني الجلندى الأزديين بعُمان فصدقا النبي وأقرّا ما جاء به، فعرض الزكاة على أموال مسلميهم والجزية على من بقي على مجوسيته.

- وبعث سليط بن عمرو إلى ثمامة بن أثال وهوذة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة. ويبدو أن ذهاب وفد بني حنيفة في السنة التالية المسماة بعام الوفود كان استجابة من زعماء هذه القبيلة الكبيرة لنداء الرسول ﷺ قبل أن يرتد مسيلمة هناك[1].

ويبدو أن رسول الله ﷺ لم يترك قبيلة ولا زعيماً في الجزيرة العربية إلا وأرسل إليهم رسله ودعاته.. (ويسرد ابن سعد أسماء عدد كبير من الزعماء العرب في الجنوب والشمال ممن تلقوا نداء الإسلام من الرسول ﷺ فاستجاب له كثير منهم وبقي الآخرون على شركهم)[2].

ولنتأمل نموذجاً من رسائله تلك.. جاء في كتابه ﷺ إلى أسيبخت بن عبد الله صاحب هجر: «إنه قد جاءني بني الأقرع بكتابك وشفاعتك لقومك وإني قد شفعتك وصدقت رسولك في قومك، فأبشر فيما سألتني وطلبتني بالذي تحب.. (انظر تودد النبي ولطفه).

---

(١) دراسة في السيرة: د. عماد الدين خليل، ص٢٣٥ و٢٣٦.
(٢) المصدر السابق، ص٢٣٦.

- فإن تجئنا أكرمك، وإن تقعد أكرمك.. (انظر كرم النبي).

- أما بعد فإني لا أستهدي أحداً - أي لا أطلب هدية - (انظر عفته).

- وإن تهدِ إليَّ أقبل هديتك.. (لا يصد من يتودد إليه).

- وقد حمد عمالي مكانك.. (اعتراف بالفضل وتشجيع).

- وأوصيك بأحسن الذي أنت عليه من الصلاة والزكاة وقراية المؤمنين، وإني قد سميت قومك بني عبد الله فمرهم بالصلاة وبأحسن العمل.. وأبشر. والسلام عليك وعلى قومك المؤمنين»[١] (التثبيت على الخير والتبشير).

حتى إنه ﷺ كتب إلى جماعة من العبيد وقطاع الطريق في جبل تهامة بعد أن استقبل وفداً منهم:

«هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لعباد الله العتقاء.. (يختار لهم اسماً كريماً) إنهم إن آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فعبدهم حر ومولاهم محمد..

ومن كان منهم من قبيلة لم يرد إليها.. (حتى لا ينكلوا به بل يحميه النبي ﷺ)..

وما كان فيهم من أدم أصابوه أو مال أخذوه فهو لهم. (عفا الله عما سلف).

وما كان لهم من دَيْن في الناس ردَّ إليهم ولا ظلم عليهم ولا عدوان»[٢].

- فما أعظم هذا القلب الكبير الذي يشفق على هؤلاء الذين دفعتهم الجاهلية بظلمها وجهلها إلى دروب وعرة حتى أصبحوا شوكة في حلق العرب..

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٣٧. وتأمل كيف أن النبي ﷺ يستعمل ضمير المفرد عن نفسه ولا يقول كما يقول الزعماء عن أنفسهم (نحن.. وفعلنا) فما أعظم هذا التواضع؟!

(٢) المصدر السابق، ص٢٣٧.

إنه ﷺ يقدر ظروفهم.. ويؤمن ببذرة الخير والكرامة التي لا يخلو منها قلب إنسان.. فيمد يده الحانية لينقذها من ركام الظلم والظلمات..

إن عظمة محمد ﷺ تتجلى في جوانب عدة.. منها أنه لم يفقد إيمانه قط بعظمة هذا الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم وأسجد له ملائكته..

- صلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله ما أعظمك وأنت تباشر عملية (إعادة تأهيل المجرمين).. وتحريرهم من قيود الجريمة والمعصية.. ليصبحوا أفراداً صالحين ينضمون إلى مواكب النور.. حقاً لقد سبق الأنبياء كل علماء النفس والقانون بقدرتهم على علاج الإنسان المنحرف وإعادة تأهيله.

- ولننظر في العروض السخية التي يقدمها لهم رسول الله ﷺ.. إنه يجذبهم ويتألفهم ليعطفهم عن الجريمة والانحراف.. وقد يقال: كيف ترك لهم بعض ما نهبوا..؟! ولكن العرب كلهم كانوا يستبيحون الإغارة والسلب والنهب قبل الإسلام.. ثم إن توبتهم وإيمانهم هي ربح للجميع وتحقيق للأمن يتمناه كل العرب في الجزيرة.. وفي المجتمعات الحديثة يدفع الناس ضرائب لحكوماتهم كي توفر لهم الأمن وخدمات أخرى.. فلتكن هذه إحدى ضرائب الأمن. وهكذا يربح الجميع..

* * *

من الأمير في ذات السلاسل؟

بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص يستنفر العرب إلى الإسلام. وذلك أن أم العاص بن وائل كانت من بني بليٍّ فبعثه ﷺ إليهم يتألفهم بذلك حتى إذا كان على ماء بأرض جذام يقال له: السلاسل - وبه سميت تلك الغزوة ذات السلاسل - فلما كان عليه وخاف (لعله خاف كثرة المشركين) بعث إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين

فيهم أبو بكر وعمر، وقال لأبي عبيدة حين وجّهه: «لا تختلفا»، فخرج أبو عبيدة، حتى إذا قدم عليه قال عمرو: إنما جئت مدداً لي، فقال أبو عبيدة: لا، ولكني على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه. وكان أبو عبيدة رجلاً ليناً سهلاً، هيناً عليه أمر الدنيا. فقال له عمرو: أنت مددي. فقال أبو عبيدة: يا عمرو إن رسول الله ﷺ قد قال لي لا تختلفا وإنك إن عصيتني أطعتك، فقال له عمرو: فإني أمير عليك.. قال: فدونك.. فصلى عمرو بن العاص في الناس.

فصاروا خمس مئة فساروا الليل والنهار حتى وطئ بلاد بلي ودوخها[1].. يقول عمرو بن العاص: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟»، فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٢٩]، فضحك النبي ﷺ ولم يقل شيئاً[1].

- فتأمل البون الشاسع بين الرجلين: أبي عبيدة وعمرو بن العاص..

لقد كان عمرو بن العاص حديث عهد بالإسلام.. بينما خالط الإسلام كيان أبي عبيدة كله.. فالمهم عنده هو طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله ولن يعكر نواياه بالتطلع إلى الإمارة.. ولما علم رسول الله بموقفه قال: «يرحم الله أبا عبيدة..». أما عمرو فهو يكرر: أنا الأمير.. وكان الأجدر به أن يتواضع لمن سبقه بالإيمان.

- ولا بد من الوقوف عند وصية رسول الله ﷺ «تطاوعا ولا تختلفا».. وهل أهلك هذه الأمة إلا الاختلاف والتفرق.. ثم التقاتل فيما بينهم..؟!

وانظر إلى أبي عبيدة كيف يتشبث بوصية رسول الله ﷺ حتى يقول: وإنك إن عصيتني أطعتك.. فهو تصميم على الالتزام من طرف واحد.. فمهما فعلت أنت

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٢٧٣ و ٢٧٤.

ومهما تطاولت فإنك لن تستفزني.. بل أسلِّم لك لأنهي الخلاف. هذه تربية النبي ﷺ فمتى نفهم ذلك.. ومتى نميز بين الفهم والحكمة.. وبين الذل والضعف؟!

- ولا أقصد بحديثي الطعن في أصحاب رسول الله ﷺ. بل إنهم بشر كانوا يخطئون ويصيبون.. وهذا عمرو يدرك بفطنته مقصداً من مقاصد الشريعة وهو صيانة حياة الإنسان والحرص عليها.. فيتوصل باجتهاده إلى التيمم قبل أن ينزل حكم من السماء. (أو أن الحكم كان قد نزل ولم يتوسع المسلمون بتطبيقه) وهو ذكاء جدير بالتقدير.. لكن بعض الجوانب في سنة النبي وتخطيطه لم تكن قد أشرقت في نفسه.. وها هو يتحدث عن نفسه ليكشف بعض ما كان خافياً عليه بسبب اعتداده - الزائد عن الحد - بنفسه. يقول: بعثني رسول الله ﷺ على جيش ذات السلاسل وفي القوم أبو بكر وعمر فحدثت نفسي أنه لم يبعثني على أبي بكر وعمر إلا لمنزلة لي عنده، فأتيته حتى قعدت بين يديه فقلت: يا رسول الله من أحب الناس إليك؟ قال: «عائشة». قلت: إني لست أسألك عن أهلك. قال: «أبوها». قلت: ثم من؟ قال: «عمر». قلت: ثم من؟ حتى عدد رهطاً.. قلت في نفسي: لا أعود أسأل عن هذا[1]. وفي رواية فسكتُّ مخافة أن يجعلني في آخرهم..

الموقف طريف.. حتى إن عَمراً يسخر من اغتراره بنفسه فيه..

أين كنت يا عمرو.. كنت في واد والنبي في وادٍ آخر..

النبي ﷺ اختار عمرو بن العاص للقيام بهذه المهمة لقرابته من القبيلة التي يقصدها؛ فالنبي يريد أن يتألف الناس ويجنبهم العناد والقتال. لكن عمراً اشتط به الزهو والخيال.. لكنه تلقى درساً بليغاً جعله يتراجع وينكمش إلى حدوده.

---

(١) البداية والنهاية، ٤/٢٧٥. والخبر موجود في الصحيحين.

- وما أظن رسول الله ﷺ قد خفي عليه ما داخل عَمْراً من تطاول.. لكنه كان هو الرجل المناسب للإمارة في ذات السلاسل.. حرصاً من النبي ﷺ على جني أفضل الثمار بأقل ما يمكن من الأضرار. ولهذا لم يعطِ عَمْراً جواباً ليّناً يغذي فيه هذا الشطط في الاعتداد، بل أجابه بصدق رائع يوضح لعمرو منازل من سبقه من المهاجرين وسائر المؤمنين الذين بذلوا لهذا الدين أموالهم وأرواحهم.

- وأقف أمام اعتراف النبي ﷺ بحبه لعائشة.. بل على أنها أحب الناس إليه.. وهو أمر عظيم الدلالة.. ففي ذلك تعليم للناس أن يعبروا عن عواطفهم.. ومن أسوأ عيوبنا أننا كثيراً ما نهمل التعبير عن عواطفنا حتى تصبح الحياة جرداء قاحلة.. وينبغي أن يدرك الرجال أن المرأة بارتقائها.. جديرة بأن تنال كل الحب.. ولا حرج من الاعتراف بذلك.

* * *

هل معكم.. تطعمونا؟

وهذا خبر كان ينبغي أن يذكر قبل صلح الحديبية - كما يقول ابن كثير - وذلك أن النبي ﷺ أرسل سرية تترصد عيراً لقريش.. يتحدث عنها جابر رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ وأمّر علينا أبا عبيدة نتلقى عيراً لقريش، وزودنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره. فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة. (فسأله أحد السامعين: كيف كنتم تصنعون بها؟) قال: كنا نمصها كما يمص الصبي ثم نشرب عليها الماء فتكفينا يومنا إلى الليل. وكنا نضرب بعصينا الخبط (ورق الشجر) ثم نبله بالماء فنأكله. (وفي رواية أخرى أن قيس بن سعد بن عبادة نحر لهم ثلاث جزائر ثلاث مرات ليطعم الجيش، وعدده ثلاث مئة، حتى نهاه أبو عبيدة كي لا تفنى الإبل فيما يبدو)، فانطلقنا إلى ساحل البحر فرفع لنا على

ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا به دابة تدعى العنبر. فقال أبو عبيدة: ميتة.. ثم قال: لا بل نحن رسل رسول الله ﷺ وفي سبيل الله وقد اضطررتم فكلوا. فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلاث مئة حتى سمنّا ولقد كنا نغرف من وقب عينه بالقلال الدهن ونقتطع منه القدر كالثور.. وأخذ - أبو عبيدة - ضلعاً من أضلاعه فأقامها ثم رحّل أعظم بعير فمر تحتها.. وتزودنا من لحمها وشايق. فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا له ذلك فقال: «هو رزق أخرجه الله لكم فهل معكم شيء من لحمه تطعمونا؟» فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ فأكل منه[1].

- السرية بالتأكيد كانت قبل صلح الحديبية لأنها أرسلت لتترصد قريشاً.. فلم لم توضع في مكانها..؟ هذه إحدى المشاكل التي تواجه دارس التاريخ.. وكثيراً ما يصعب تحديد زمن الحادث.. في أي عام وفي أي شهر. والمهم هو الدلالات.

وعلى رأسها ما نلمسه من فقر المسلمين وجوعهم.. وصبرهم على هذا الجوع.. بل وخروجهم للجهاد رغم كل هذا الجوع..

- ونجد أبا عبيدة قائداً مدبراً يضبط مسألة التموين بإحكام.. ويتحسب لما هو أسوأ.. فينهى قيس بن سعد عن نحر الإبل.. فلئن جاءوا ووجدوا ظهراً يركبونه أفضل من ألا يجدوا الأمرين.

- وتسعفهم رحمة الله بما ألقى لهم البحر.. ولكن هل هو حوت من البحر أم دابة من الأرض اسمها العنبر؟!

أبو عبيدة يتردد ويقول: إنها ميتة.. لكن هل يبقى حيوان بري ميتاً شهراً فلا ينتفخ أو ينتن..؟! أغلب ظني أن الحيوان كان بحرياً وكما نعلم عن البحر (هو الطهور ماؤه الحل ميته). فلا مشكلة في الأكل منه.

---

(١) البداية والنهاية، ٤/٢٧٦.

- كما أننا نعلم أن الأكل من الميتة محصور بحدود الضرورة للإبقاء على الحياة.. أما أن يأكلوا حتى يسمنوا كما ورد في الخبر.. فهو أمر غير مقبول.

- وقد يكون تردد أبي عبيدة من باب التثبت والورع.. والله أعلم.

- وأما قول النبي ﷺ لهم: هل معكم منه شيء تطعمونا.. فيمكن تفسيره على وجهين.. إما أنه حيوان بحري ميت فهو حلال يؤكد النبي على حلّه.. أو أنه برّي ميت.. ولكن الجوع بلغ من النبي والمسلمين حدّاً حلّت لهم فيه الميتة.. والنبي بأكله منه يرفع الحرج عن الجميع ويعلمهم يسر الإسلام وسماحته.

- والوصف الذي وصف به هذا الحيوان يجعله أقرب إلى أن يكون من الحيتان الضخمة التي يوجد منها حتى الآن.

❀ ❀ ❀

موت النجاشي

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ نعى إلى الناس النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى فصف بهم وكبر أربع تكبيرات. وفي رواية أنه ﷺ قال: «مات اليوم رجل صالح فصلوا على أصحمة»[1].

ولكن متى كان هذا..؟ لا نملك تحديداً زمنياً دقيقاً سوى أنه قد جاء في صحيح مسلم أنه ﷺ لما كتب إلى ملوك الآفاق كتب إلى النجاشي وليس هو بالمسلم. وفي رواية للبيهقي أن موته كان متزامناً مع زواج النبي ﷺ من أم سلمة.. والله أعلم. المهم في الأمر أن نتأمل وفاء النبي ﷺ للنجاشي وتقديره لأعماله وشهادته له بأنه رجل صالح.. ولو لم يهاجر إلى النبي ولم يلقه.. ولم يتح له أن يتابع شرائع الإسلام.. فالمهم إيمانه وأعماله الصالحة وحرصه على العدل.. وهذا

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٢٧٧.

يذكرني بآية البر ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٧]. لقد شهد النبي للنجاشي بأنه رجل صالح فهم البر وحققه.. وصلى وأصحابه عليه صلاة الغائب عن الجنازة..

وكثير من المسلمين قاسوا على عمل النبي ذاك وصاروا يصلون صلاة الغائب على روح كل مسلم صالح لم يحضروا جنازته.

بينما قال ناس آخرون بأنه ﷺ صلى على النجاشي؛ لأنه لم يُصلَّ عليه في بلده.

* * *

الباب
السابع

مرحلة
فتح مكة

١- قريش تتململ (عدوان على خزاعة)

٢- الخروج إلى مكة (أولئك العصاة).

٣- فتح مكة: تخطيط محكم وخشوع.

٤- الجزيرة تفتح ذراعيها للإسلام.

٥- زعيم هوازن يغرر بقومه.

٦- حصار الطائف.

٧- نور الإسلام يتاخم الحدود.

٨- عام الوفود.

٩- عام البعوث.

١٠- حجة الوداع.

١- قريش تتململ
(عدوان على خزاعة)

ابو سفيان يحاول تاكيد عقد الحديبية

مضى على صلح الحديبية عام ونصف.. وأمر قريش في تراجع.. وحتى الشرط الجائر الذي وضعته في الصلح (أن على محمد ﷺ أن يرد من جاءه مسلماً من قريش دون إذن وليه) اضطرت أن ترجو محمداً أن يلغيه ويقبل الهاربين منها كي لا ينغّصوا عليها سفرها وتجارتها.. وأما محمد وأتباعه فإنهم يتنقلون من نصر إلى نصر.. ورقعة الإسلام في انتشار حتى تكاد تطوق مكة وتفرض عليها الحصار. ماذا تفعل قريش وهي غارقة في الظلم والظلمات..؟ إنها تظن أن النور سيعميها ويؤذيها.. فلا بد من محاولة لإطفاء النور.. فهل تسنح لها فرصة لتروي غليلها وتنفس عن بعض حقدها..؟!

كيف وعقد الحديبية ينص على عشر سنوات من الهدنة والأمان..؟!

وهل تقدر قريش على السكوت والالتزام عشر سنوات..؟!

عشر سنوات تقف فيها موقف المتفرج على انتشار الإسلام وزيادة رسوخه في البلاد والعباد..؟! إن هذا ما لا يطاق..!!

وجاءت الفرصة لقريش كي تغدر تحت جنح الظلام راجية ألا يفضح غدرها.. وذلك أن بني بكر - حلفاء قريش - وثبوا على خزاعة - حلفاء النبي في

الحديبية - ليلاً بماء يقال له (الوتير) وهو قريب من مكة (وذلك لثارات قديمة بين القبيلتين). وذلك في شعبان من السنة الثامنة للهجرة. إذ خرج نوفل بن معاوية الدئلي في قومه وهو يومئذ سيدهم وليس كل بني بكر تابعه فبيت خزاعة (هاجمهم ليلاً) وهم على (الوتير).. فأصابوا رجلاً منهم وتحاوزوا واقتتلوا. ورفدت قريش بني بكر بالسلاح وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً حتى جاوزوا خزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر - لزعيمها نوفل -: إنا قد دخلنا الحرم إلهك.. إلهك.. فقال كلمة عظيمة: لا إله اليوم يا بني بكر أصيبوا ثأركم.. فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم؟ ولجأت خزاعة إلى دار بديل بن ورقاء بمكة وإلى دار مولى لهم يقال له رافع[١].

عندها ركب عمرو بن سالم حتى قدم على رسول الله ﷺ يخبره الخبر. وأنشده أبياتاً منها:

يا ربِّ إني ناشد محمداً ... حلف أبيه وأبينا الأتلدا

قد كنتمُ ولداً وكنا والدا ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا

فانصر رسول الله نصراً أبدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا

في فيلق كالبحر يجري مزبدا ... إن قريشاً أخلفوك الموعدا

هم بيتونا بالوتير هجدا ... وقتلونا ركعاً وسجّدا

فقال رسول الله ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم»، وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز، وكتمهم مخرجه، وسأل الله أن يعمي على قريش خبره حتى

---

(١) البداية والنهاية، ٢٧٨/٤ و ٢٧٩.

يباغتهم في بلادهم[١] وقال ﷺ: «كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم يشد في العقد ويزيد في المدة»[٢].

وخرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ فأخبروه بما أصيب منهم ومظاهرة قريش بني بكر عليهم. ثم انصرفوا راجعين حتى لقوا أبا سفيان بعسفان قد بعثته قريش إلى رسول الله ﷺ يشد العقد ويزيد في المدة، وقد رهبوا للذي صنعوا (أي خافوا عواقب غدرهم). قال أبو سفيان: من أين أقبلت يا بديل؟ وظن أنه قد أتى رسول الله ﷺ. فقال: سرت في خزاعة في هذا الساحل في بطن هذا الوادي. فعمد أبو سفيان إلى مبرك ناقته فأخذ من بعرها ففتَّه فرأى فيه النوى فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً (لأن أهل المدينة يضعون النوى مع علف الإبل). ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته، فقال: يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أو رغبت به عني. فقالت: هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس فلم أحب أن تجلس على فراشه، فقال: يا بنية والله لقد أصابك بعدي شر، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ. فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه، فقال عمر: أنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ فوالله لو لم أجد لكم إلا الذر لجاهدتكم به، ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ وعندها حسن غلام يدب بين يديهما، فقال: يا علي إنك أمسّ القوم بي رحماً وأقربهم مني قرابة، وقد جئت في حاجة فلا أرجعنَّ كما جئت خائباً فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ، فقال: ويحك أبا سفيان والله

---

(١) البداية والنهاية، ٤/٢٧٨ و ٢٧٩.

(٢) المصدر السابق، ٤/٢٨٠.

لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة فقال: يا بنت محمد هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ فقالت: والله ما بلغ ببني ذلك أن يجير بين الناس وما يجير أحد على النبي ﷺ، فقال: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني؟ قال: والله ما أعلم شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك. فقال: أوَترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: لا والله ما أظن، ولكن لا أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس ثم ركب بعيره فانطلق. فلما أن قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلمته فوالله ما ردَّ علي شيئاً، ثم جئت ابن أبي قحافة فوالله ما وجدت فيه خيراً، ثم جئت عمرَ فوجدته أعدى عدو، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم وقد أشار علي بأمر صنعته فوالله ما أدري هل يغني عنا شيئاً أم لا؟ قالوا: بماذا أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس ففعلت، قالوا: هل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا. قالوا: ويحك ما زادك الرجل على أن لعب بك فما يغني عنا ما قلت، قال: لا والله ما وجدت غير ذلك[1].

- نرى في الخبر كيف كان رسول الله ﷺ لا يخيب رجاء مظلوم.. ولكن دون أن يفصح عن خطته.. وإنما بشارة: «نصرت يا عمرو..».

- ونرى قريشاً وقد انتبهت من طيشها وأدركت خطورة فعلتها.. وهي تعلم أنه لا طاقة لها اليوم بمقاومة المسلمين وقد أصبحوا القوة الكبرى في الجزيرة.. فتسرع بإيفاد أبي سفيان كي يؤكد العقد ويمد فيه.

- ونرى بديلاً - ولم يكن مسلماً بعد - وقد التقى بأبي سفيان في الطريق

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٢٨٠ و ٢٨١

يحاول كتمان الأمر عنه.. لكن أبا سفيان أذكى من أن ينطلي عليه الأمر فهو يكشف الحقيقة من فحص روث الإبل..

- ونرى في الخبر إجماع المسلمين على طاعة الرسول ﷺ، وعلى أن قريشاً قد جاوزت الحد ولا تستحق أي تعاطف.. ومع ذلك فقد كاد علي يصرّح بما عزم عليه النبي ﷺ، والعجيب أن أبا سفيان بذكائه المعروف لم يدرك عزم النبي ﷺ على قتالهم..!!

فكأن عقول سادة قريش قد شلت عن الحركة والاستنتاج، فلم يدر بخلدهم أن محمداً ﷺ سيأتيهم غازياً بعد أن غدروا.. ولعل هذا كان من تدبير الله بهم استجابة لدعاء النبي ﷺ: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها». ورسول الله ﷺ بدعوته هذه لا يريد التنكيل بهم.. بل يريد أن يتحاشى قتالهم، لأنهم إن فوجئوا على غير استعداد تركوا عنادهم واضطروا للاستسلام.

- هذه الحادثة كانت بعد نزول آيات الحجاب - في سورتي النور والأحزاب - ومع ذلك فإن أبا سفيان يدخل على فاطمة ويكلمها وتكلمه والمتشددون ينسبون إلى الزهراء ﷺ قولها: خير أحوال المرأة ألا ترى الرجال ولا يرونها.. فكيف يعللون ذلك؟!

- ويدهشنا موقف أم حبيبة التي تطوي فراش رسول الله ﷺ عن أبيها!! وهو يتساءل: هل وجدته غير مناسب لمقامي فهو قديم وغير مناسب لزعيم قريش..؟! أم العكس..؟! لكنها تصدمه بصراحتها..

ربما يحس القارئ بقسوتها على أبيها.. ولكن أين كنت يا أبا سفيان عندما امتحنت أم حبيبة بزوجها في الحبشة..؟ لقد تحرك رسول الله ﷺ لإنقاذها بينما أنت تدبر المكائد له..!! ولا تبالي بمصير ابنتك..!!

عشرون عاماً يا أبا سفيان وأنت تعاند وتكيد وتكابر متشبثاً بأصنامك وبأفكار الجاهلية وعاداتها العفنة.. واليوم تأتي راجياً مسترحماً.. تدخل على النبي فتكْذِب وتَدَّعي الوفاء وتلحُّ في طلب تمديد الصلح..؟! حقاً إنك بحاجة لهذه الصدمة.. ولا بأس بأن تقول لك ابنتك: إنَّ من يتمسك بنجاسة الشرك لا أسمح له أن يلوث فراش رسول الله ﷺ ولو كان أبي.

* * *

دعني فلأضرب عنقه..

وأمر رسول الله ﷺ عائشة أن تجهز وتخفي ذلك.. وكتمت عائشة الأمر حتى عن أبيها أبي بكر.. ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة وأمر بالجد في التهيؤ وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها» فكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم، ثم أعطاه امرأة زعم محمد بن جعفر أنها من مزينة.. وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً فجعلته في رأسها ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت به. وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام فقال: «أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم..» فأدركاها بحليفة بني أبي أحمد فاستنزلاها فالتمساه في رحلها فلم يجدا فيه شيئاً، فقال لها علي: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا ولتخرجنَّ لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك. فلما رأت الجد منه قالت: أعرض. فأعرض، فحلَّت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه. فأتى به رسول الله ﷺ. فدعا النبي ﷺ حاطباً فقال: «يا حاطب ما حملك على هذا؟»، فقال: يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله ما غيرت ولا بدلت، ولكنني كنت امرأ ليس لي في

القوم من أصل ولا عشيرة وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم[١].

فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق؟ فقال ﷺ: «وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

وأنزل الله في حاطب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ٦٠/١].

هذا رجل يرتكب الخيانة العظمى بإفشاء أسرار عسكرية لدولة النبي ﷺ.. فكيف يتصرف معه النبي..؟!

١- يرسل من يأتي بالكتاب قبل كل شيء حتى يصبح دليل الخيانة بيده..

٢- ونجد أدب علي والزبير في تفتيش المرأة مدهشاً.. رغم أنها تقوم بدور (الجاسوسة).. فيحذرانها من أن تضطرهما لكشفها..

٣- وعندما يصل الدليل إلى يد النبي ﷺ يستدعي حاطباً ويسمع لدفاعه عن نفسه.. وحق الإنسان - ولو كان مجرماً - في الدفاع عن نفسه مقدس.. وحتى أمام نبي ينزل عليه الوحي.

٤- يستوعب النبي ﷺ لحظات الضعف البشري فحاطب مؤمن وقد شهد بدراً وجاهد فيها.. لكنه مشغول البال بأهله في مكة ويخشى عليهم من إيذاء قريش وفتنتها فيرسل هذا الكتاب ليكفّ الأذى عن أهله.. وهو في قرارته موقن بأن الله سيحمي رسوله وسينصره..

٥- عمر لم يتحرر بعد من تسرعه وشدته في مواجهة الخطأ والمخطئين.. فدواء كل مخطئ عنده هو السيف.. ولكن رسول الله ﷺ طبيب القلوب ونبي المرحمة.. يستوعب بشرية الناس وزلاتهم ويقدر أعمالهم السابقة فلا ينسى

(١) وفي رواية البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «أما إنه قد صدقكم».

الفضائل أمام الخطأ.. ولا يسقط الرجل من عينه عندما يزل؛ بل يحيي نفسه من جديد ويذكره بمآثره ويمنحه فرصة التوبة والتصحيح.

٦- كانت غلطة حاطب فادحة ومع ذلك لم تخرجه من الإيمان فها هو الله سبحانه يخاطبه وأمثاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾.

٧- والله سبحانه وتعالى يعلم عباده ألا يخلطوا بين الرحمة بالناس وبين موالاتهم، فالمحبة والصداقة شيء طيب مع الجميع.. لكن الولاء والتناصر والإفضاء بالأسرار لا يكون إلا بين أصحاب المبدأ الواحد.

* * *

٢- الخروج إلى مكة
(أولئك العصاة)

ومضى رسول الله ﷺ لسفره واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري، وخرج لعشر مضين من رمضان (وبعض من أرخ قال بأول رمضان).. فصام وصام الناس. (حتى أتى كراع الغميم والناس معه مشاةً وركباناً، وذلك في شهر رمضان. فقيل: يا رسول الله، إن الناس قد اشتدَّ عليهم الصوم، وإنما ينظرون كيف فعلت؟ فدعا رسول الله ﷺ بقدح فيه ماء فرفعه فشرب والناس ينظرون، فصام بعض الناس وأفطر بعضهم حتى أخبر النبي ﷺ أن بعضهم صائم، فقال ﷺ: «أولئك هم العصاة»[(١)].

وفي روايات أخرى أن المسلمين أفطروا جميعاً. وفي رواية أنهم صاموا حتى إذا بلغوا المنزل الذي يلقون فيه العدو أمرهم رسول الله بالفطر فأفطروا.

ونحن نعلم أن الله رخص للمسافر بالفطر.. ومن شاء أن يصوم فلا حرج.. لكن حين تشتد المشقة.. وحين نتوقع مواجهة العدو.. وهو ما تحتاج فيه إلى استنفار قوتك.. فلا معنى لهذا التشدد إلا على أنه رفض لرخص الله.. وتأمل هذا الموقف: رسول الله ﷺ يتعمد أن يقف أمام الجميع وعلى مرأى منهم فيشرب ليرى الناس إفطاره.. ومع ذلك فبعضهم يستمر في الصيام؟! أيريد أن

---

(١) رواه مسلم.

يشعرنا بأنه أصلب من النبي في الصبر والطاعة..؟!! بل أولئك هم العصاة.. وليس التشدد في الدين والتنطع طاعة.. بل هو معصية لله؛ لأن الله أمر ونهى وشرع لنا الدين ليرفع عنا المشقة والعنت.. فمتى ندرك مقاصد الله في شرعه..؟!

* * *

أحقاً قال: لا حاجة لي بهما..؟!

وخرج العباس مهاجراً بعياله إلى رسول الله ﷺ فلقيه بالجحفة. وجاء أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي - وهو أخو أم سلمة أم المؤمنين - فلقيا رسول الله ﷺ بنيق العقاب (مكان) فيما بين مكة والمدينة، والتمسا الدخول عليه فكلمته أم سلمة فيهما فقالت: يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك.. قال: «لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي وأما ابن عمتي فهو الذي قال لي بمكة ما قال» (وذلك حين قال له: والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلماً إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر ثم تأتي بصك وأربعة من الملائكة يشهدون أن الله قد أرسلك).

فلما خرج إليهما الخبر بذلك ومع أبي سفيان ابن له فقال: والله ليأذنَنّ لي أو لآخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبنَّ في الأرض ثم نموت عطشاً وجوعاً. فلما بلغ ذلك النبي ﷺ رقَّ لهما ثم أذن لهما فدخلا عليه فأسلما. وأنشد أبو سفيان[1] أشعاراً يعتذر فيها للنبي ﷺ عما مضى منه.

نرى في هذا الخبر ألم النبي ﷺ وإحساسه بالمرارة من هجاء ابن عمه له في الجاهلية وشدة تكذيب ابن عمته لرسالته فيما سلف.. مع ما عرف به ﷺ من حسن الخلق وصلة للرحم فكان منهما ما كان، وكما قال الشاعر:

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٢٨٧.

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

ومحمد ﷺ إنسان مرهف.. ولقد عبر عن مرارة ألمه بقوله: «لا حاجة لي بهما» ورفض أن يقابلهما.. صدقت يا رسول الله.. إنه لا حاجة لك بهما.. لكنهما بأمسّ الحاجة إليك لتنقذهما من النار..

اسودت الدنيا في عيني أبي سفيان بن الحارث وضاقت عليه الأرض بما رحبت.. أين يذهب وقد رفض الحبيب لقاءه..؟! وكيف ينجو ورسول الله ﷺ عليه غاضب؟! وهداه صدق توبته إلى إعلان الإضراب عن الطعام والشراب والمأوى هو وابنه إن لم يأذن له النبي ﷺ بمقابلته والاعتذار إليه..

فهل يقدر النبي (الرؤوف الرحيم) أن يمضي في غضبه أمام هذا الإضراب؟! صلوات الله وسلامه عليك يا سيدي ما أسرع ما رضيت وعفوت ورحمت.

* * *

مؤانسة الأصحاب

عن جابر قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمرّ الظَّهران نجتني الكباث (ثمر الأراك) وإن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بالأسود منه فإنه أطيب» قالوا: يا رسول الله أكنت ترعى الغنم؟ قال: «نعم وهل من نبي إلا وقد رعاها»[1].

وانطلق ابن مسعود فيمن يجتني، فجعل أحدهم إذا أصاب حبة طيبة قذفها في فيه، وكانوا ينظرون إلى دقة ساقي ابن مسعود وهو يرقى الشجرة فيضحكون، فقال ﷺ: «تعجبون من دقة ساقيه فوالذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد». وكان ابن مسعود ما اجتنى من شيء جاء به وخياره إلى رسول الله ﷺ فقال في ذلك:

---

(١) رواه البخاري.

هـذا جَـنـايَ وخِيـارُه فـيـه إذ كـلُّ جـانٍ يَـدُه إلـى فِـيـه[١]

وعن أنس قال: أنفجنا أرنباً ونحن بمر الظهران فسعى القوم فلغبوا (أي تعبوا من ملاحقة الأرنب) فأدركتها فأخذتها فأتيت بها أبا طلحة (زوج أمه) فذبحها وبعث إلى رسول الله ﷺ بوركها وفخذيها فقبله[٢].

ها نحن نرافق الجيش وقد حطّ الرحال قريباً من مكة والناس يبحثون عما يؤكل من شجر أو حيوان.. والرسول يحادثهم ويؤانسهم.. فحين يقول لهم: «عليكم بالأسود» من الشمر يعرفون أن له خبرة بالرعي والمراعي حول مكة ويبدو أن الرعاة بالذات كانوا يجنون ثمار الأراك.. فيتساءلون: (أكنت ترعى الغنم)؟

وكأنهم يشعرون أن النبي أعظم من أن يرعى الغنم.. لكن الله سبحانه وتعالى جعلها سنّة في أنبيائه يتعلمون منها دروساً عظيمة..

فالخروج إلى المراعي يغذي الروح بتأمل آيات الله في كونه وخلقه.. ويجعل النبي يحيا حياة الرعاة الفقراء ويدرك معاناتهم وحاجاتهم.. ويتعلم النبي بهذه المهنة كيف يسوس الرعية وكيف يرعى شؤونهم ويحميهم من الأخطار. فهي دورة تدريبية عملية لرعاية الأمة.

- ويتأمل الرسول ﷺ الموقف والصحابة يضحكون من صغر ساقي ابن مسعود.. فلا يقول لهم زاجراً لا تسخروا منه.. ولو قال ذلك لنفر ابن مسعود من أصحابه.. ولوجم الصحابة من توبيخ النبي لهم على حركة عفوية خرجت منهم.. بل يقول مباسطاً ومعلماً ومواسياً: «تعجبون من دقة ساقيه» فهو مجرد استغراب صدر عن الصحابة فلا تحزن يابن مسعود ولتعلم أنت وأصحابك أن قدميك الصغيرتين أثقل في ميزان الإيمان من جبل أحد.. فما أحلى هذا التعليم من

---

(١) رواه البيهقي.

(٢) ثبت في الصحيحين.

الحبيب الذي يعرف كيف يحيي النفوس ويؤلف بينها. ولقد صدق رسول الله ﷺ في تقديره لميزات ابن مسعود فها هو يجمع الثمار بخيارها ويؤثر بها رسول الله ﷺ. وما ذلك إلا مثال على جوده وتفانيه..

- وهذا أنس يمسك بالأرنب.. ويرسلون جزءاً منه هدية للنبي فيقبله.. فما كان ﷺ يرد الهدية مهما صغر شأنها، لعظم أثرها في بناء التواصل والمحبة.

❁ ❁ ❁

واصباح قريش (دور العباس في الدخول السلمي)..!

وقف العباس يتأمل جيش رسول الله ﷺ بآلافه العشرة..المهاجرون والأنصار لم يتخلف منهم أحد وقبائل عدة استجابت لنفير النبي ﷺ.. وماذا تفعل قريش أمام هذه الجحافل..؟!

قال العباس (في نفسه): واصباح قريش.. والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر..

فجلستُ على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء فخرجت عليها حتى جئت الأراك فقلت: لعلّي أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخل عليهم عنوة، فوالله إني لأسير عليها وألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان (وكانا قد خرجا يتحسسان الأخبار) وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً. فيقول بديل: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب. فيقول أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها. قال العباس: فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة. فعرف صوتي فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم. قال: ما لك فدىً لك أبي وأمي؟ قلت: ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله ﷺ في الناس فقال: واصباح قريش

والله فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربنّ عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك. فركب خلفي... فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته ﷺ. حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إلي، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله..؟! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد... ثم خرج عمر يشتد نحو رسول الله ﷺ وركضت البغلة فسبقته.. قال: فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلأضرب عنقه.. قلت: يا رسول الله إني قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه فقلت: والله لا يناجيه الليلة دوني رجل. فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب (أي قوم عمر) ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف. فقال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب.. فقال ﷺ: «اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فائتني به»... فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ فلما رآه قال: «ويحك يا أبا سفيان ألم يَأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟» فقال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد. قال: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله؟» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً. فقال له العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك!! فشهد شهادة الحق فأسلم. فقلت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً.. قال: «نعم

من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن»، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: «يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها». فخرجت بأبي سفيان حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني ﷺ أن أحبسه. ومرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول سليم، فيقول: ما لي ولسليم، ثم تمر به القبيلة فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: مزينة. فيقول: ما لي ولمزينة، حتى نفدت القبائل... حتى مرَّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد. فقال: سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً! قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة. قال: فنعم إذن. قلت: النجاء إلى قومك.. حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأحمس[1] قُبِّح من طليعة قوم. فقال أبو سفيان: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم؛ فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد[2]. وفي رواية أن سعد بن عبادة (وكان على الأنصار) لما مرَّ بأبي سفيان قال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة. فشكى أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ ذلك فعزله ﷺ عن راية الأنصار وأعطاها الزبير بن العوام.

---

(١) الحميت: زق السمن. الأحمس: الشديد اللحم، شبهته بالزق لضخامته وسمنه.
(٢) البداية والنهاية، ٤/٢٨٩ و٢٩٠ و٢٩١.

نتأمل هذه الأحداث التي جرت قبيل الدخول إلى مكة:

- نتأمل الرحمة والحب في قلب العباس.. رغم كل ما فعلت قريش بابن أخيه.. فهو مشفق عليهم من عاقبة ما فعلوا.. ويتحرك بذكاء إذ يركب بغلة رسول الله ﷺ حتى لا يثير الريبة بتحركاته.. وينطلق في بحثه عن رجل يمكن إرساله لقريش كي تأتي وتستأمن وتستسلم حقناً للدماء.

- أما قريش فإني أعجب من غفلتها وعدم استعدادها لمواجهة المسلمين وقد ظهر لها فشل مسعى أبي سفيان في توثيق صلح الحديبية.. ما الذي أخمد فورانها وعطل كيدها..؟! هذا من خذلان الله لهم إذ أتاهم من حيث لم يحتسبوا ففت من عزائمهم وعطل عقولهم.

- ومع ذلك يخرج أبو سفيان وبديل وهما يتوجسان.. ولا يخطر لهما أن النيران التي يرونها هي نيران جيش المسلمين..!!

- وتلفت نظري الصداقة بين العباس وأبي سفيان رغم اختلاف الدين والرأي.. وأبو سفيان يقول للعباس: فدىً لك أبي وأمي؟

لقد كان لديهم شيء من أخلاق الاختلاف واحترام الآخر.

- أما عمر فقد كان نسيج وحده.. كان حرصه على النبي والمسلمين يصور له السيف على أنه الدواء الناجع لتصفية كل كيد ولم يدرك بعد فعالية الحب والإحسان في العلاج.

- ويسارع العباس فيقول: إني قد أجرته.. وما كان النبي ﷺ ليخفر مسلماً في جواره.. وهو يحس بداية النجاة لأبي سفيان.

- لكن العباس في هذا الموقف يظلم عمر ويفسر موقفه على أنه تابع من العصبية للقوم، لكن عمر صادق في الولاء لله وللرسول.. وفي الحب لما يحب الرسول.. وهذا درس لنا كي لا نتسرع في اتهام المخطئ بعدم الإخلاص.

- وانظر إلى حكمة النبي ﷺ في التصرف وفي علاج النفوس حين أمر العباس أن يجعل أبا سفيان يبيت معه في رحله.. ثم يأتيه في الصباح.. لماذا؟

أ- لو أسرع النبي ﷺ بالعفو عن أبي سفيان لاستهان أبو سفيان بالأمر فمن شأن الإنسان أن يزهد بما لم يدفع ثمنه.. ولا بد لأبي سفيان من القلق والمعاناة ومراجعة الذات.. قبل أن ينال العفو.

٢- لقد كانت فرصة لأبي سفيان كي يقضي ليلة بين المسلمين يرى فيها العجب من حيويتهم وعبادتهم وحسن طاعتهم لنبيهم. جاء في بعض الروايات: أنه لما أصبح تلك الليلة ورأى الناس يجنحون للصلاة وينتشرون في استعمال الطهارة خاف وقال للعباس: ما بالهم؟ قال: إنهم سمعوا النداء فهم ينتشرون للصلاة. فلما حضرت الصلاة ورآهم يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده قال: يا عباس ما يأمرهم بشيء إلا فعلوه؟ قال: نعم والله لو أمرهم بترك الطعام والشراب لأطاعوه.. فقال: يا عباس ما رأيت كالليلة ولا ملك كسرى وقيصر[1].

- وانظر إلى قول أبي سفيان لرسول الله ﷺ عندما يكلمه في الصباح: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك.. هل كان يقولها نفاقاً وإيثاراً للسلامة..؟ الكلام الذي بعده يدل على أن أبا سفيان كان صريحاً وصادقاً فهو يصرح بأنه لم يقتنع برسالة النبي ﷺ.. وإن اقتنع بأن أصنامه لم تحمه ولم تنصره فلا وجود لها أمام الله الواحد القهار.. فهي شهادة للنبي ﷺ من رجل لم يتّبعه بعد.

- ونرى العباس يمارس أسلوب عصره في الضغط على أبي سفيان: ويحك أسلم قبل أن تضرب عنقك..!! فيسلم.. فهل كان مقتنعاً حقاً؟

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٢٩١.

- لكن رسول الله ﷺ أدرك أن علاج أبي سفيان لم يستكمل بعد.. فيتابع في تعريضه لموجات من الترغيب والترهيب.. فهو رجل يحب الزعامة فيقول له: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن».. ويقول للعباس: «احبسه في مضيق الوادي.. حتى يرى جنود الله» وكثرتهم وقوتهم.

لقد كان إسلام أبي سفيان ضرورياً لتستسلم قريش وتحقن الدماء.. ولهذا نجد الرسول ﷺ يتعاون مع العباس في إعطائه فرصة للتفكير والمراجعة وتأمل الأحداث.. بينما يهدر دم عدد ممن اشتد أذاهم من المشركين ولو تعلقوا بأستار الكعبة.. كما سنرى بعد قليل.

- ويتعجب أبو سفيان وهو يستعرض القبائل الزاحفة.. وحين يرى كتيبة المهاجرين والأنصار يتزلزل.. والله ما لأحد بهؤلاء من طاقة؟!

(لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً)؟! وحتى الآن لم تعرف أنها النبوة؟!

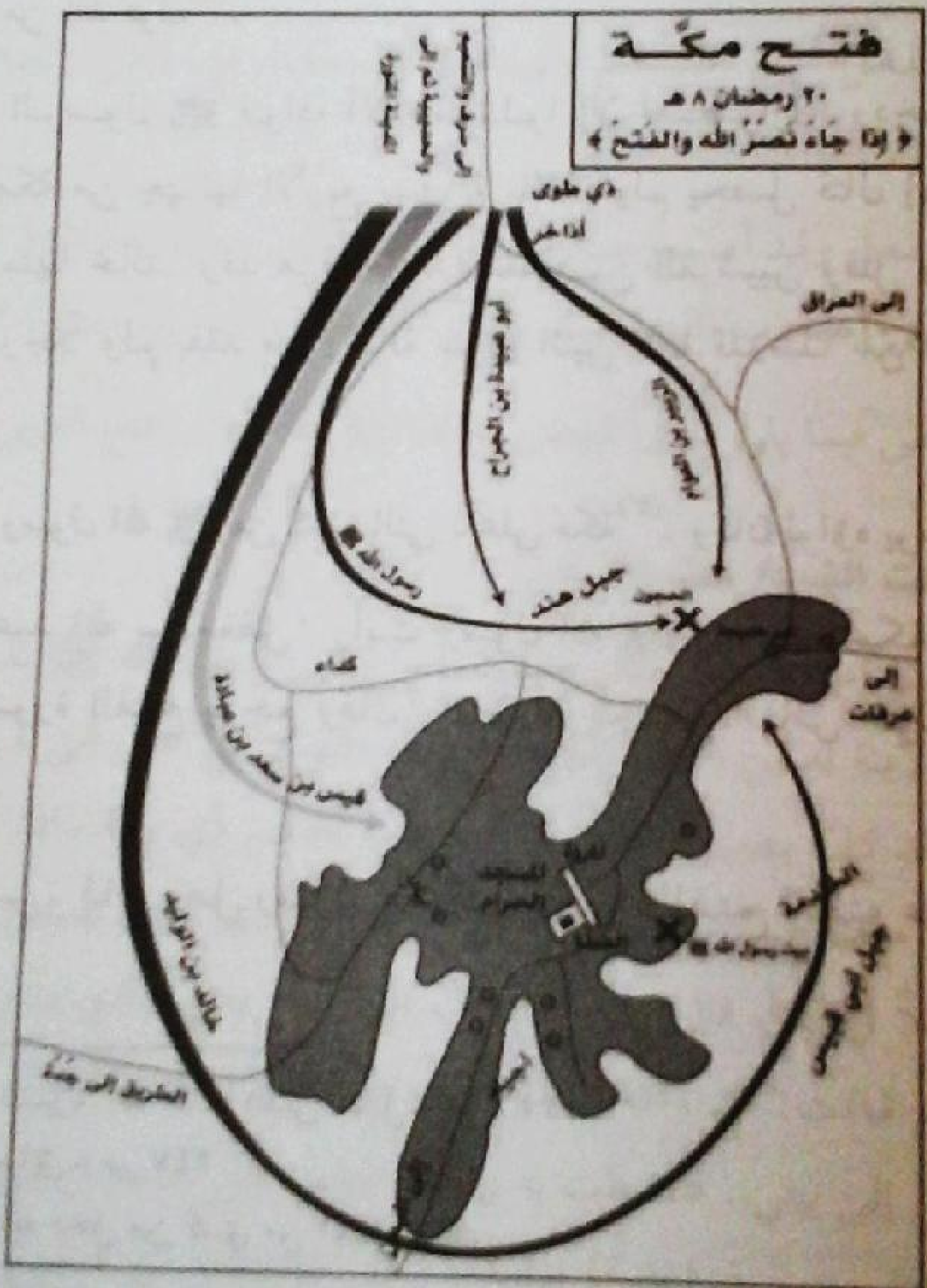
- لكن أبا سفيان متوجس من كلمة قالها سعد بن عبادة عندما مرَّ به.. إن سعداً قد أخذته الحمية حين رأى أبا سفيان وتذكر ثارات المسلمين فظنَّ ألا يطفئ تلك النار إلا استباحة حرمات مكة.. ويشكوه أبو سفيان إلى النبي ﷺ فيخشى النبي ﷺ من سعد أن يحقق وعيده بينما الأمر بحاجة إلى ضبط الأعصاب وكبح الحمية والحماس.. فهم داخلون إلى بيت الله الحرام ليحققوا فيه الأمن والسلام.. فيعزل سعداً.

- وأتعجب من قوة شخصية هند واستطالتها على زوجها أبي سفيان.. لكن القوم لم يسمعوا لها.. وآثروا السلامة والنجاة فأسرعوا إلى بيوتهم وإلى البيت الحرام مذعنين لدخول محمد ﷺ مصدقين لوعده لهم بالأمان.

- وكان النبي ﷺ هو أول من طبق (منع التجول) لتحقيق الأمن وكبح جماح ردود أفعال المشركين وهم يرون جنود الله تخترق أحياء مكة.

* * *

٣- فتح مكة: تخطيط محكم.. وخشوع



خريطة غزوة الفتح

وزع الرسول ﷺ قواده لكي يدخلوا كل من الجبهة التي حددت له: قيس بن سعد بن عبادة (وفي رواية أن النبي عينه بدلاً عن أبيه لما قال ما قال، وهو بذلك يتحاشى غضب سعد إذ يعين ابنه، وهو قرار حكيم لتحاشي أي مؤثر انفعالي في تلك اللحظات الحاسمة) يدخل من الجهة الشرقية. أبو عبيدة عامر بن الجراح يتقدم بقواته بين يدي الرسول ﷺ ليدخل مكة من جهتها الغربية. الزبير بن العوام يقود خيل المهاجرين والأنصار إلى أعلى مكة حيث الحجون لكي يعزز راية المسلمين هناك. وخالد بن الوليد يدخل مكة من الجنوب حيث تجمع مقاتلو قريش وحلفاؤهم وأحابيشهم لمنع القوات الإسلامية من الدخول[١].

وأمر الرسول ﷺ قواده ألا يقاتلوا إلا اضطراراً.. ودخلت قوات المسلمين مكة من جهاتها الأربع بسهولة بالغة. ولم يحصل قتال إلا في الجهة التي دخل منها خالد. وقد هزم خالد المعترضين القرشيين وقتل وجرح منهم ثلاثة عشر رجلاً ولم يفقد من رجاله سوى اثنين كانا قد شذا عن الطريق التي سلكها[٢].

ودخل رسول الله ﷺ من كُدَاء التي بأعلى مكة[٣]. وكان لواؤه يومها أبيض.

يقول عبد الله بن مغفل: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يرجع وقال: لولا أن يجتمع الناس حولي لرجعت كما رجع[٤].

وعن أنس: قال دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على راحلته متخشعاً[٥].

---

(١) دراسة في السيرة: د. عماد الدين خليل، ص٢٤٦.

(٢) المصدر السابق، ص٢٤٧.

(٣) وفي رواية أنه دخل من كُدَي من أسفل مكة.

(٤) رواه البخاري.

(٥) رواه البيهقي.

وهكذا تدفق المسلمون من جميع جهات مكة وزحفوا متغلغلين في طرق مكة وشعابها قاصدين البيت الحرام. وفي ذلك خذلان لكل من تسوّل له نفسه أن يقاوم الفتح المبين.. ومع كل هذا الجهد والاجتهاد في التخطيط يدخل النبي ﷺ ذاكراً تالياً لآيات الله خاشعاً لكرم الله متواضعاً أمام هذا النصر المبين الذي منَّ به الله.

وننظر في حال النبي ﷺ وهو يدخل بلده مكة التي طارده أهلها وآذوه وتآمروا عليه وحاربوه.. ماذا يفعل وهو يدخل عليهم بعشرة آلاف جندي مؤمن ينتظر من النبي إشارة ليسارع في التنفيذ..؟!

ماذا يفعل أمام حقدهم وكيدهم واستكبارهم على الحق وغدرهم بالعهود؟!

ماذا يفعل وقد أصبح صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في البلد الذي استعصى على أصحاب الفيل حيث ردّهم الله عنه ومزقهم شرَّ ممزق..؟!

سأعرض فيما يلي صوراً لبعض مواقفه ﷺ أثناء هذا الفتح المبين:

هلا تركت الشيخ حتى آتيه..

عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لما وقف رسول الله ﷺ بذي طوى قال أبو قحافة لابنة له من أصغر ولده: أي بنية اظهري بي على أبي قبيس (جبل في مكة) - وقد كفَّ بصره - فأشرفت به عليه فقال: أي بنية ماذا ترين؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً. قال: تلك الخيل. قالت: وأرى رجلاً يسعى بين يدي ذلك السواد مقبلاً ومدبراً. قال: أي بنية ذلك الوازع - يعني الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها - ثم قالت: قد والله انتشر السواد. فقال: قد والله إذن دفعت الخيل فأسرعي بي إلى بيتي.. فانحطت به وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته. وفي عنق الجارية طوق من وَرِق (فضة) فيلقاها رجل فيقتطعه من عنقها. فلما دخل ﷺ مكة ودخل المسجد أتى أبو بكر بأبيه يقوده فلما رآه رسول الله ﷺ قال:

«هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه»؟! قال أبو بكر: يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه. فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره، ثم قال: أسلم، فأسلم،.. وكان رأسه كالثغامة بياضاً. فقال رسول الله ﷺ: «غيروا هذا من شعره» ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته وقال: أنشد الله والإسلام طوق أختي؟ فلم يجبه أحد. فقال: أي أخية احتسبي طوقك فوالله إن الأمانة في الناس اليوم القليل. يعني به الصّديق ذلك اليوم على التعيين لأن الجيش فيه كثرة ولا يكاد أحد يلوي على أحد مع انتشار الناس، ولعل الذي أخذه تأول أنه من حربي[1] (أي مما يجوز سلبه من الغنائم).. قد خالف أمر النبي بـ (منع التجول).

- تتأمل في هذا العجوز الذي فقد بصره - أبي قحافة - وهو يشتهي أن يشهد الحدث العجيب الذي ما كان أحد من قريش يتوقعه.. فيأخذ الصغيرة لتصعد به في جبل أبي قبيس.. وتكون عينه التي يبصر بها..

وإني لأظن أن أهل مكة كلهم كانوا يتمنون أن يراقبوا هذا الدخول العجيب.. لكن خوفهم على أنفسهم دفعهم للالتزام (بمنع التجول).. أما أبو قحافة فظن أن بإمكانه أن يشهد ثم يسرع في العودة.. لكن الخيل سبقته.. ومع ذلك فإن أحداً من المسلمين لم يتناوله بسوء.. وفي الحقيقة: إن هذا الجيش يُمدح في أن الأذى الذي حصل كان قاصراً على ضياع طوق من فضة..

- وانظر إلى النبي القائد المظفر يشفق على الشيخ من سعيه إليه وسط الزحام فيعاتب أبا بكر: «هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه»؟! صلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله ما أعظم تواضعك وما أحلى رحمتك بالضعفاء..؟! ثم يكرمه فيجلسه بين يديه ويمسح صدره ويدعوه للإسلام.. فكيف لا يسلم؟!

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٢٩٤.

- وانظر إلى حرصه على جمال المظهر حتى وهو مشغول في هذا الموقف الكبير.. يأمر أهل العجوز أن يغيروا الشيب في شعره..!!

❀ ❀ ❀

أين تنزل غداً..؟!

ويأتي أسامة بن زيد إلى النبي ﷺ يوم الفتح متسائلاً:

- يا رسول الله أين تنزل غداً؟ فقال ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل من رباع؟!»[١]. ثم قال: «منزلنا غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر»[١] (لعلها إشارة إلى اجتماع بني بكر بن عبد مناة بن كنانة في ذاك المكان واتفاقهم على الغدر بخزاعة).

بأبي أنت وأمي يا رسول الله تدخل مكة بلدك.. حيث كانت دارك ودار خديجة رضي الله عنها.. حيث أقمت أكثر من خمسين عاماً.. فلا تجد داراً تأوي إليها..!! لقد وضع ابن عمك عقيل يده عليها.. وكان بإمكانك أن تأمره بالخروج منها.. وتنزل في خيمة تنصب لك في أطراف مكة..!! في الحجون عند قبر خديجة تماماً[٢].

وقفت على هذا الخبر الذي لا يجاوز سطراً أتملاه لأرى فيه العجب..

- فرسول الله ﷺ الذي عهدناه مرهفاً في عواطفه.. متألم من فقد الدار التي ضمت ذكرياته مع رفيقة عمره وشقيقة روحه خديجة رضي الله عنها.. هناك حيث كان يأوي إليها مكلوم الفؤاد من تكذيب قومه وإيذائهم.. فتمسح جراحه وتشد أزره وتمنحه كل ما تملك من مال وحنان ودعم.. فكأنه بنزوله عند قبرها يريد أن تشاركه لحظة انتصاره كما شاركته جهاده وصبره ودعوته فما أعظم هذا الوفاء..! وها هو يقف ﷺ ليعبر عن ألمه وحرمانه بكلمات: «وهل ترك لنا عقيل من رباع»؟! فيا له من عتاب..

---

(١) رواه البخاري.

(٢) تاريخ الطبري، ج٣، حوادث السنة الثامنة للهجرة.

- لكنه ﷺ يتماسك ويأبى أن يستعيد الدار ويترفع عن أن يطلب من أحد داره فضلاً عن أن يغصبها منه.. فما كان لرسول الله ﷺ أن يسلك سلوك الملوك في فتحهم للبلدان.. لقد دخل ليعطي النور للجميع.. لا ليأخذ الأموال.

- وفي ذلك درس عملي لمن كان معه من المهاجرين الذين استولت قريش على دورهم وأموالهم حين هاجروا بدينهم إلى المدينة.. فاليوم يوم إحسان.. وليس يوم تسلط وانتقام..

- وفي اختياره الإقامة في خيمة تنصب.. إشارة واضحة إلى أنه لا ينوي الإقامة. ومع ذلك فإن الأنصار لم ينتبهوا إلى ذلك، وقالوا فيما بينهم: «أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته».. وخافوا أن يتركهم.. فلما أعلمه الوحي بمخاوفهم قال ﷺ: «كلا.. إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم فالمحيا محياكم والممات مماتكم» فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضنَّ بالله ورسوله. فقال ﷺ: «إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم»[1].

العواطف هنا بين النبي والأنصار أحلى من أي وصف أو تعليق..!!

❁ ❁ ❁

وماذا حلَّ بالمقاومين؟!

وكان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو قد جمعوا ناساً بالخندمة ليقاتلوا[2]. وكان حماس بن قيس (أخو بني بكر) يُعد سلاحاً قبل قدوم رسول الله ﷺ ويصلح منه، فقالت له امرأته: لماذا تُعِد ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه، فقالت: والله ما أرى يقوم لمحمد وأصحابه شيء، قال: والله إني

(١) رواه مسلم.
(٢) ذكره ابن كثير عن ابن إسحاق.

لأرجو أن أخدِمَكِ بعضهم.. ثم شهد الخندمة مع صفوان وعكرمة وسهيل فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد ناوشوهم شيئاً من قتال. فقتل كرز بن جابر وحنيش بن خالد (وكانا في جيش خالد فشذا عنه فسلكا غير طريقه) وقتل من خيل خالد أيضاً سلمة بن الميلاء، وأصيب من المشركين قريب من اثني عشر ثم انهزموا فخرج حماس منهزماً حتى دخل بيته ثم قال لامرأته: أغلقي عليَّ بابي. قالت: فأين ما كنت تقول؟ فقال:

إنك لو شهدتِ يوم الخندمه ... إذ فرَّ صفوانُ وفرَّ عكرمه
وأبو يزيد قائم كالموتمه ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمه
يَقطعن كل ساعد وجمجمه ... ضرباً فلا يُسمع إلا غمغمه
لهم نَهيتٌ خلفنا وهمهمه ... لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه[1]

وخرج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها إلى اليمن. فقال عمير بن وهب: يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومه وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر، فأمّنه يا رسول الله صلى الله عليك، فقال: «هو آمن»، فقال: يا رسول الله فأعطني آية يعرف بها أمانك؟ فأعطاه ﷺ عمامته التي دخل فيها مكة. فخرج بها عمير حتى أدركه وهو يريد أن يركب في البحر فقال: يا صفوان فداك أبي وأمي.. الله الله في نفسك أن تهلكها هذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به. قال: ويلك أغرب عني فلا تكلمني.. قال: أي صفوان فداك أبي وأمي أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس ابن عمك عزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك..؟ قال: إني أخافه على نفسي. قال: هو أحلم من ذلك وأكرم. فرجع معه حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك قد أمّنتني؟ قال ﷺ: «صدق»، قال: فاجعلني بالخيار فيه شهرين؟ قال:

---

(١) البداية والنهاية، ٤/٢٩٦.

«أنت بالخيار أربعة أشهر»[١] وفي رواية أن زوجته فاختة بنت الوليد هي التي طلبت له الأمان واسترجعته.. ثم أسلم.

وأما عكرمة فركب البحر فأصابهم عاصف فقال أصحاب السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم ها هنا شيئاً. فقال عكرمة: والله لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص لا ينجني في البر غيره.. اللهم إن لك عليَّ عهداً إن عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده فلا أجدنَّه إلا عفواً كريماً. قال: فجاء فأسلم[٢] وفي رواية ابن هشام: أن عكرمة هرب إلى اليمن وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام، فاستأمنت له من رسول الله ﷺ فأمَّنه، فخرجت في طلبه إلى اليمن حتى أتت به رسول الله ﷺ فأسلم[٣].

وأما سهيل بن عمرو فلم يذكر ابن كثير كيف تمَّ إسلامه.. وفي رواية ابن إسحاق أنه اشترك في القتال والمقاومة ضد دخول المسلمين إلى مكة.. وصاحب (الإصابة) يذكر رواية فيها أن رسول الله ﷺ - يوم الفتح - دخل البيت (الحرام) ثم خرج فوضع يده على عضادتي الباب فقال: «ماذا تقولون»؟ فقال سهيل بن عمرو: نقول خيراً ونظن خيراً أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت. فقال ﷺ: «أقول كما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم»[٤]. فأسلم وكان محمود الإسلام.. ثبَّت أهل مكة عند وفاة النبي ﷺ فمنعهم من الرِّدَّة.. وذكر عنه أنه وقف بباب عمر ومعه بعض الطلقاء ومعهم جماعة من المهاجرين والأنصار. فجعل عمر يأذن لهم بالدخول عليه على قدر منازلهم فنظر الطلقاء بعضهم إلى بعض. فقال لهم سهيل: على أنفسكم فاغضبوا دعي القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم..!! فكيف بكم إذا دعيتم إلى أبواب الجنة[٥]؟!

(١) المصدر السابق، ٤/٣٠٨.
(٢) الدارقطني والحاكم وابن مردويه.
(٣) تهذيب سيرة ابن هشام: عبد السلام هارون.
(٤) الإصابة في تمييز الصحابة، ٢/ ٩٣.
(٥) المصدر السابق، ٢/ ٩٤.

إن من يتأمل هذه الأخبار يعجب للبون الشاسع بين مواقف المؤمنين والكافرين..

- فهذا حماس بن قيس متأجج وراء حمية الجاهلية يَعِد امرأته بأن يأتيها برقيق من جيش محمد ﷺ يكونون لها خدماً..!! والنبي ﷺ ينهى قواده عن القتال إلا لضرورة الدفاع.. ويقول: «من دخل بيته فهو آمن»..

حتى إن المقاومين يقتلون ثلاثة من المسلمين.. بينما يقتصر ضرب المسلمين للمشركين على بعض الجراح تصيبهم.. مع أنهم هم المنتصرون..؟

فهل يستوي هذا الذي يقتل ويريد أن يسترق الناس ويستعبدهم.. مع من يكتفي بالدفاع لإيقاف فورة الجاهلية.. ويعطي الأمان لمن يدخل بيته مستسلماً.. أو يفر هارباً..؟!

- وانظر إلى عمير بن وهب وقد تربى في مدرسة الحب على يدي الحبيب ﷺ.. يشفق على صفوان - رغم جبروته وعناده - وما أسرع ما لبى النبي ﷺ رجاءه بمنح الأمان لصفوان ويعطيه عمامته.. ويجشم نفسه الإسراع وراء صفوان الذي كاد أن يركب البحر.. فيخاطبه بلغة الحب التي تغلب الجبابرة.. ولا يزال يكرر بأبي أنت وأمي يا صفوان.. وصفوان كالفرس الجامح يهدد ولا يكاد يصدق أن محمداً يمكن أن يعفو..!! كيف وقد قضى عمره يحاربه ويؤلب عليه..؟! كيف وقد رفض أمانه الذي منحه لأهل مكة..؟!

- ويقف صفوان أمام النبي ﷺ - والشك يغزو قلبه - ويتساءل: إن هذا زعم أنك قد أمنتني..!! ألم تصدق بعد يا صفوان؟! حسناً فلنتأكد.. ويطلب مهلة شهرين ليفكر.. ولكن من قال لك يا صفوان إن النبي ﷺ يكره الناس على الإسلام..؟ ومن قال لك إنه يجبرك على أي شيء ما دمت قد كففت سلاحك عن الناس؟! بل خذ أربعة أشهر..

فهل يمكن لصفوان ألا يدخل في الإسلام بعد هذا كله..؟!

- وما أعظم موقف الزوجتين المؤمنتين.. إذ تسعيان في طلب الأمان لهذين المحاربَيْن.. وترحل زوج عكرمة وراءه إلى اليمن لتعود به إلى النور.. مع أنه كان من الذين أهدر النبي ﷺ دمهم لشدة أذاهم.. فأي حب وأي رحمة..؟!

لقد أدرك المقاومون أنهم كانوا يقاومون انبلاج الصباح.. وأن الحقد أعماهم وكاد يرديهم.. لولا موجات الحب التي غمرتهم من النبي ﷺ والمؤمنين والمؤمنات.. فهل رأيت دواء أنجع من الحب..؟!

* * *

والذين أهدرت دماؤهم؟

صحيح أن النبي ﷺ قد عهد إلى أمرائه حين دخلوا مكة ألا يقاتلوا لكنه أمر بقتل نفر سماهم.. وإن وجدوا تحت أستار الكعبة.. لارتكابهم جرائم كبرى..

- وكان منهم عكرمة بن أبي جهل وقد نجا بتوبته وشفاعة زوجته كما أسلفنا.

- ومنهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان قد أسلم وكتب الوحي ثم ارتد.. ففرَّ إلى عثمان وكان أخاه من الرضاعة. فلما جاء به ليستأمن له صمت عنه رسول الله ﷺ طويلاً ثم قال: نعم. فلما انصرف مع عثمان قال ﷺ لمن حوله: «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني قد صمت فيقتله؟»، فقالوا: يا رسول الله هلا أومأت إلينا؟ فقال: «إن النبي لا يقتل بالإشارة» وفي رواية: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين». وقد حسن إسلامه بعد ذلك وولاه عمر بعض أعماله ثم ولاه عثمان.. ومات وهو ساجد في صلاة الصبح[١].

- ومنهم عبد الله بن خطل: لما أسلم بعثه رسول الله ﷺ مصدقاً (يجمع الصدقات) وبعث معه رجلاً من الأنصار وكان معه مولى له يخدمه وكان مسلماً.

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٢٩٧.

فنزل منزلاً وأمر المولى أن يذبح له تيساً فيصنع له طعاماً، فنام فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً فغدا عليه فقتله ثم ارتدّ مشركاً. وكانت له قينتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ. فأمر رسول الله ﷺ بقتلهما. فقتل ابن خطل وقتلت إحدى قينتيه واستؤمن للأخرى[١].

- والحويرث بن نقيذ بن وهب، وكان ممن يؤذي رسول الله ﷺ بمكة. ولما تحمَّل العباس بفاطمة وأم كلثوم ليذهب بهما إلى المدينة يلحقهما برسول الله ﷺ نخس بهما الحويرث الجمل فسقطتا إلى الأرض. فقتله علي بن أبي طالب[١].

- ومقيس بن صبابة لأنه قتل قاتل أخيه خطأ بعدما أخذ الدية ثم ارتد مشركاً. فقتله رجل من قومه.

- وسارة مولاة لبني عبد المطلب كانت تؤذي رسول الله ﷺ. فاستؤمن لها فأمنها وعاشت إلى زمن عمر بن الخطاب[١].

وعلى هذا يكون عدد الذين أهدر دمهم ثمانية: خمسة رجال وثلاث نساء. ولم يقتل منهم سوى النصف. وحصل الباقي على الأمان.

وهي صورة نموذجية لحقن الدماء أثناء فتح أعظم معقل للجزيرة العربية كلها.. كان يؤوي كبار المعاندين والمتآمرين على وأد النور وترسيخ الظلم والجهل. وما أظن أن رسول الله ﷺ كان يمكن أن يخيب رجاء أحد في طلب الأمان لأي إنسان.. بدليل أنه ﷺ كره أن يعطي الأمان لعبد الله بن سعد.. ذاك الذي كان مسلماً يكتب الوحي للنبي ثم ارتد مشركاً وأخذ يروج الأباطيل عن القرآن.. لكنه لبى طلب عثمان وشفاعته فيه.. وكان علم الله وقدره أعظم من نظر النبي وتقديره للأمور.. فلقد صدق الرجل في توبته وأصبح جندياً مخلصاً من جنود الإسلام وذلك فضل الله يؤتيه لمن علم فيه المبادرة للخير.

---

(١) المصدر السابق، ٤/ ٢٩٧ و٢٩٨.

وأم هانئ تجير أيضاً..!!

وتحكي لنا أن هانئ بنت أبي طالب أنه لما كان عام الفتح فرَّ إليها رجلان من بني مخزوم (من أحمائها) فأجارتهما. قالت: فدخل عليَّ عليٌّ فقال: أقتلهما.. فلما سمعته أتيت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة، فلما رآني رحب بي وقال: «ما جاء بك»؟ قلت: يا نبي الله كنت أمَّنت رجلين من أحمائي فأراد علي قتلهما، فقال ﷺ: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»، ثم قام رسول الله ﷺ إلى غسله فسترت عليه فاطمة ثم أخذ ثوباً فالتحف به ثم صلى ثماني ركعات سبحة الضحى[(١)]. وفي رواية أنها دخلت عليه وهو يغتسل وفاطمة ابنته تستره بثوب فقال: «من هذه؟» قالت: أم هانئ. قال: «مرحباً بأم هانئ».. وبعضهم يقول: إن الصلاة التي صلاها النبي ﷺ يومها كانت صلاة الفتح. وقد صلى سعد بن أبي وقاص مثلها يوم فتح المدائن في إيوان كسرى[(٢)].

في الخبر صورة مبهرة للمرأة المؤمنة.. بحنانها ورأفتها.. بجرأتها وقوة شخصيتها، لا تنكمش في بيتها وتقول لا شأن لي في أمور سياسية تتعلق بأمن الدولة.. بل تبادر في الشفاعة للرجلين.. ويبدو أنهما اشتركا في القتال في الخندمة حتى إن علياً يلاحقهما ويطلب قتلهما - ورسول الله ﷺ لا يردها.. ولا يعتذر منها بأنه لا شأن لها في قضايا تتعلق بأمن الدولة لا يفصل فيها إلا إمام المسلمين..!! بل يقول بكل ترحيب وإكرام: «أجرنا من أجرت» وما أسعده بالمؤمنين والمؤمنات وقد امتلأت قلوبهم بالحب والرحمة.

أين أنت يا أختي المؤمنة من تلك الشخصية النسائية الفذة التي صاغها القرآن ورباها النبي ﷺ وشجعها على المشاركة في كل خير..؟!

* * *

---

(١) رواه مسلم.

(٢) البداية والنهاية، ٤/ ٣٠٠.

ارفعوا أيديكم عن القتل..

ويستمر النبي ﷺ في توجيهاته لأصحابه ويكرر: «إن مكة حرمها الله ولم يحرِّمها الناس لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد (يقطع) بها شجراً[(١)]، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب»[(٢)].

لكن خزاعة موتورة.. ولم تتشرب توجيهات النبي ﷺ.. إنها لم تنس بعد غدر بكر وقريش.. فقتلت رجلاً كان قد قتل منها رجلاً.. وبلغ الأمر النبي ﷺ فقام في أصحابه يخطب ويكرر.. فكان مما قال ﷺ:

«يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل لقد كثر القتل إن نفع.. لقد قتلتم رجلاً لأدِيَنَّه..»[(٣)].

جدير بنا أن نتأمل أمر النبي ﷺ هنا..

- ابتداء يأمر بالامتناع عن القتل وسفك الدماء.

- ثم يبين الحكمة من هذا الأمر.. هل تظنون أن القتل ينفع في إنهاء العداوة والثارات..؟! ألا ترون أن القتل يجر القتل.. والدم يستتبع الدم..؟! ولا سبيل لإيقاف هذا السيل إلا بأن ترفعوا أيديكم عن القتل.. إن سفك الدم لا يحل المشكلة.. ولا بد من إيقاف هذا الأسلوب؟

---

(١) في الحديث أن العباس قال: إلا الإذخر يا رسول الله فإنه لا بد منه للدفن والبيوت. فسكت ﷺ ثم قال: إلا الإذخر. وفي ذلك مثل من استدراك الصحابة على النبي وإقراره لهم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) البداية والنهاية، ٤/ ٣٠٥.

- ولهذا لم يأمر النبي ﷺ بقتل من خالف توجيهاته من خزاعة (بقتل رجل) بل قال: «لقد قتلتم رجلاً لأدِينّه». لقد تكفل ﷺ بدفع دية المقتول كي يقطع سلسلة القتل للثأر.. ويطفئ الرغبة في الانتقام.

وما أحوجنا ونحن في عالم يعج بالعنف وسفك الدماء.. إلى سماع كلمات النبي ﷺ والاستنارة بهديها. يا أيها الناس ارفعوا أيديكم عن القتل.. وتأملوا في الأحداث هل حقق لكم القتل أي خير..؟! إن الأطراف كلها يتربص بعضها ببعض.. وكل طرف يضمر غلاً وحقداً حتى كأنه يجثم على بركان.. حتى إذا أحس أنه امتلك القوة الكافية للبطش بالآخر انفجرت براكينه.. فمتى تدركون توجيهات النبي ﷺ..؟! ومتى تفهمون دروس الواقع والتاريخ؟! لقد قدم لكم العلم خدماته.. وأخرج لكم أسلحة لا تبقي ولا تذر وكأنها تقول لكم عودوا إلى صوابكم قبل أن يحدث الطوفان الذري.. وعندها لن تجدوا (سفينة نوح) للنجاة.

* * *

جاء الحق وزهق الباطل

وأقبل رسول الله ﷺ حتى أقبل على الحجر فاستلمه وطاف بالبيت وأتى إلى صنم إلى جنب البيت كانوا يعبدونه وفي يد رسول الله ﷺ قوس وهو آخذ بسيتها فلما أتى على الصنم فجعل يطعن في عينه ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً»(١).

ويقول ابن مسعود: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاث مئة نصب فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل..»(٢).

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخاري.

ويقول ابن عمر: أقبل ﷺ يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفاً أسامة بن زيد ومعه عثمان بن طلحة من الحجبة حتى أناخ في المسجد فأمر أن يؤتى بمفتاح الكعبة. فدخل ومعه أسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة فمكث فيه نهاراً ثم خرج فاستبق الناسُ فكان عبد الله بن عمر أول من دخل فوجد بلالاً وراء الباب قائماً، فسأله أين صلى رسول الله ﷺ فأشار له إلى المكان الذي صلى فيه، قال عبد الله: ونسيت أن أسأله كم صلى من سجدة[(١)].

وفي رواية: أنه بعد أن طاف.. سجد سجدتين ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها ودعا بماء فشرب منها وتوضأ.. والناس يبتدرون وضوءه والمشركون يتعجبون من ذلك ويقولون: ما رأينا ملكاً قط ولا سمعنا به - يعني مثل هذا - وأخّر المقام إلى مقامه اليوم وكان ملتصقاً بالبيت[(٢)].

وفي رواية أنه دخل البيت فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم ورأى إبراهيم مصوراً في يده الأزلام يستقسم بها فقال: «قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام..! ما شأن إبراهيم والأزلام؟ ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٧]، ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست»[(٣)].

- وتساقطت الأصنام منكسرة أمام انبلاج نور الحق.. فما يقدر الباطل على التماسك والصمود حين يظهر الحق وينجلي.. بل ينكمش ويتوارى.

وتفتح الكعبة أبوابها لمحمد ﷺ فيطهرها من الشرك والضلال.. وقد صوروا إبراهيم يستقسم بالأزلام فتطمس التصاوير وتعود كعبة إبراهيم ملاذاً للإيمان والتوحيد.. ورسول الله ﷺ يصلي ويدعو فيها.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) البداية والنهاية، ٤/ ٣٠٠.

(٣) المصدر نفسه، ٤/ ٣٠١.

ونتأمل حب الأصحاب لنبيهم ﷺ فهذا ابن عمر يبحث عن المكان الذي صلى فيه النبي ﷺ ليصلي فيه.. وها هم المسلمون يتهافتون على ما يقطر من أطراف النبي من ماء أثناء وضوئه يتبركون به.. وأهل مكة في دهشة وذهول..!

ويرى النبي ﷺ مقام إبراهيم ملتصقاً بالبيت معرقلاً طواف الطائفين.. فيأمر بإبعاده وتأخيره عن مكان الطواف تيسيراً على الناس.. وهذا درس للناس في ضرورة المرونة والتكيف مع ما يستجد من حاجات الناس.. وإنما بعث الأنبياء لرفع الأصار والأغلال عن الناس، ومحمد ﷺ رحمة مهداة.

❀ ❀ ❀

أنتم الطلقاء

وقام رسول الله ﷺ على باب الكعبة يقول:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده».

ألا كل مأثرة أو دم أو مالٍ يُدَّعى فهو تحت قدميَّ هاتين إلا: سدانة البيت[١] وسقاية الحاج. ألا وقتيل الخطأ شبهِ العمد بالسَّوط والعصا، ففيه الدية مغلَّظة، مئة من الإبل أربعون منها في بطونها أولادها.

يا معشر قريش: إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمَها بالآباء..

الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣].

---

(١) أي خدمته.

ثم قال: «يا معشر قريش.. ما ترون أني فاعل فيكم؟» قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «اذهبوا فأنتم الطُّلقاء»(١)!

كانت هذه خطبة فتح مكة. وفيها:

- توحيد الله وشكره على النصر وردّ الأمر إليه.

- إسقاط مفاخر الجاهلية ودعاويها إلا ما فيه خدمة بيت الله ونفع الناس.

- ويحذر من قتل الخطأ الذي ينتج عن ضرب بأداة ويشبهه بقتل العمد ويجعل فيه دية مشددة إمعاناً في ردع النفوس عن الدخول في الشجار والصراع.

- ويؤكد إلغاء التفاخر بالأنساب. ويقرر التفاضل بالتقوى وهو المقياس الرباني العادل.. إذ لا فضل للإنسان في نسبه أو شكله.. وإنما هي أعماله.

- وبعد يا قريش.. لقد حان وقت المحاسبة على كل ما أسلفتم.. وهذا هو النبي الأمين الذي كذبتموه وآذيتموه وطردتموه من بلده وتآمرتم على قتله.. وجيشتم الجيوش للقضاء عليه وعلى أمته..

هذا الذي نصح لكم.. وغششتم..

هذا الذي وفى بعهده معكم.. ونقضتم معه وغدرتم..

فماذا يفعل بكم اليوم وقد دخل عليكم مؤيداً بنصر ربه.. وأصبحتم في قبضته؟!

- ماذا تظنون أني فاعل بكم؟!

- طافت بأذهانهم صور الماضي.. فلم يروا فيها لقطة تدل على رغبة محمد ﷺ بالانتقام.. فأقروا مذعنين: أخ كريم وابن أخ كريم..

- ويتمثل النبي ﷺ بموقف يوسف حين قال: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ١٢/ ٩٢].. فيقول لقومه بسماحة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»!!

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص٢٥٧ و٢٥٨.

- أنتم الطلقاء هكذا دون قيد أو شرط؟!

ولم يطلب منهم أن يدخلوا في الإسلام.. كما أنه عندما أعطى الأمان لهم في حديثه مع أبي سفيان.. لم يطلب منهم الإسلام..

لكنهم الآن أدركوا عظمة الإسلام ونعمة الإسلام وسماحة الإسلام... فأقبلوا على النبي ﷺ وجعلوا يدخلون في دين الله أفواجاً..

إن الموقف أعظم من كل ما كتب عنه.. خاصة عندما نضعه ضمن ظروفه التاريخية زماناً ومكاناً.. فلقد كان الموقف يمثل قفزة نوعية تجاوزت كل أخلاق الفاتحين في ذلك العصر.. وأبرز اقتدار الإنسان على طي صفحة الانتقام.. للارتقاء في علاقات إنسانية مليئة بالحب والاحترام.

* * *

يوم برٍّ ووفاء..

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد. فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده ﷺ. فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك. فقال رسول الله ﷺ: أين عثمان بن طلحة؟ فدُعي له، فقال: «هاك مفتاحَك يا عثمان، اليوم يوم برٍّ ووفاء»[(١)]. وأمر مؤذنه بلالاً أن يصعد فيؤذن (فوق الكعبة) معلناً انتهاء عهد الوثنية في مكة.

- برٌّ ووفاء بماذا؟!

باتفاق قديم جرى بين أبناء قصي بن كلاب الذي استرجع البيت من خزاعة ووطد الأمر لقريش في مكة.. وصارت إليه جميع الرئاسة من حجابة البيت وسدانته واللواء. وبنى داراً لإزاحة المظالم وفصل الخصومات سماها دار

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص٢٥٨.

الندوة.. فلما مات تنازع أبناؤه على هذه الوظائف الشريفة.. ثم اتفقوا واصطلحوا على أن تكون: الرفادة (أي إطعام الحجيج) والسقاية لبني عبد مناف، وأن تستقر الحجابة واللواء والندوة في بني عبد الدار[(١)].

لكن علياً يحس يوم الفتح بشيء من طموحات المنتصرين.. ويظن أن انتصار النبي ﷺ يستوجب جمع كل هذه الوظائف الشريفة في آل بيته.. إنه منطق المنتصر.. لكن رسول الله ﷺ كان يقلب الأعراف والموازين.. لقد حقق (ثورة ثقافية) ضد منطق القوة.. فالكلمة اليوم ليست للأقوى.. بل للأخلاق والبر والوفاء.. وغنائم الفتح ليست الأموال والمناصب.. بل هي القلوب التي تشحن بالخلق والتقوى..

* * *

ماذا كنت تحدث به نفسك؟

وبعض النفوس ما زالت تنطوي على حقد.. ومن هؤلاء فَضالة بن عمير الليثي الذي أضمر في نفسه رغبة في قتل الرسول ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح. فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ: أفضالة؟ قال: نعم، فضالة يا رسول الله. قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله. فضحك النبي ﷺ ثم قال: استغفر الله. ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه.. فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه[(٢)].

هكذا كان رسول الله ﷺ يعالج الحقد والتآمر.. قد يكون الله أخبره عما في قلب فضالة من غدر.. وقد يكون النبي ﷺ قد أدرك بالفراسة ما يجول في خاطر

(١) البداية والنهاية، ٢/٢٠٩.
(٢) تهذيب سيرة ابن هشام، ص٢٥٩.

فضالة.. فقد كان ﷺ بارعاً في قراءة الوجوه وما تنطوي عليه تقاطيعها.. وقليل منا من يقدر على إخفاء مشاعره وهمومه..

وهذا فضالة تفضحه نظراته التي تنضح بالعداء.. والهم البادي على وجهه. ولعل شفتيه قد اختلجتا ببعض الهمهمات.. إن كيانه مضطرب بأمر لا تطمئن إليه نفسه.. يلاحظ النبي ﷺ كل ذلك فيبادره متلطفاً متودداً.. ما الأمر يا فضالة؟ أتظن أن بإمكانك إخفاء كل هذا الاضطراب عن النبي؟! يضحك النبي ويقول له: (استغفر الله).. أجل استغفر الله حتى ترتاح وتعود إليك سكينتك.. ولئن فكرت بقتلي فإني أرجو حياتك وهدايتك.. وهذا كفي أضعه على قلبك ليعيد إليه الحب والنور والسكينة..

هكذا كان المصطفى الحبيب يداوي القلوب بالحب..! صلوات الله وسلامه عليه.

* * *

٤- الجزيرة تفتح ذراعيها للإسلام

اجعل أمر الجاهلية تحت قدميك

وهكذا تمَّ فتح مكة التي كانت حجر الزاوية في التكذيب والتأليب على محمد ﷺ.. وبدأت الجزيرة العربية تفتح ذراعيها للدين الذي انتشر في رحاب مكة وطهر البيت الحرام من الأصنام التي كانت محج قبائل الجزيرة.

وسارع النبي ﷺ إلى استكمال خطوات التمكين والانتشار.. فبعث خالد بن الوليد داعياً ولم يبعثه مقاتلاً.. ومعه قبائل من العرب.. فلما رآه القوم أخذوا السلاح، فقال خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا.. فقال رجل من بني جذيمة يقال له جحدم: ويلكم.. إنه خالد والله ما بعد وضع السلاح إلا الأسار، وما بعد الأسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبداً. فأخذه رجال من قومه فقالوا: يا جحدم أتريد أن تسفك دماءنا؟ إن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب وآمن الناس، فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه، ووضع القوم سلاحهم لقول خالد... فأمر بهم خالد فكتفوا ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم، فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ رفع يديه إلى السماء ثم قال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد»... وانفلت رجل من القوم فأتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فقال ﷺ: «هل أنكر عليه أحد؟» قال: نعم قد أنكر عليه رجل أبيض ربعة فنهمه خالد فسكت عنه، وأنكر عليه رجل آخر طويل

مضطرب فاشتدت مراجعتهما، فقال عمر بن الخطاب: أما الأول يارسول الله فابني عبد الله، وأما الآخر سالم مولى أبي حذيفة.. ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فقال: «يا علي اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك»، فخرج علي حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به ﷺ فودى الدماء وما أصيب لهم من الأموال حتى إنه لَيَدي ميلغة الكلب (الإناء الذي يشرب منه)، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال، فقال لهم علي حين فرغ منهم: هل بقي لكم دم أو مال لم يودَ لكم؟ قالوا: لا. قال: فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله ﷺ مما لا يعلم ولا تعلمون. ففعل ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فقال: «أصبت وأحسنت»[١]. وفي رواية: أن خالداً دعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، وخالد يأخذ بهم أسراً وقتلاً[٢].

❁ ❁ ❁

يا خالد دع عنك أصحابي..

وفي رواية أنه كان بين خالد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام في ذلك، فقال له عبد الرحمن: عملت بأمر الجاهلية في الإسلام؟ فقال: إنما ثأرتُ بأبيك. فقال عبد الرحمن: قد قتلتُ قاتل أبي ولكنك ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة.. حتى كان بينهما شر. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «مهلاً يا خالد دع عنك أصحابي فوالله لو كان لك أحد ذهباً ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته»[٢].

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٣١٣.

(٢) المصدر السابق، ٤/ ٣١٤.

وقصة الفاكه بن المغيرة أنه خرج مع عوف وابنه عبد الرحمن ومع عفان وابنه عثمان في تجارة إلى اليمن ورجعوا ومعهم مال لرجل من بني جذيمة كان هلك باليمن فحملوه إلى ورثته فادعاه رجل من بني جذيمة فأبوا عليه فقاتلهم فقُتل عوف والفاكه.. وقَتَل عبد الرحمن يومها قاتل أبيه. وهذا سبب الحوار بين خالد وعبد الرحمن.

هذا الخبر يكشف عن عمق جذور الجاهلية في النفس.. حتى إنه لا يستنكر على خالد من الجيش إلا رجلان ابن عمر وسالم مولى أبي حذيفة!!

ورواة الخبر كأنهم يبررون عمل خالد بأن القوم قالوا: صبأنا بدلاً من أن يقولوا أسلمنا، فأشكل عليه الأمر.. لكن ما جرى لعمه في الجاهلية مع بني جذيمة لم يُمَحَ من أعماقه.. وكان له أثره في الإسراع في قتلهم.

فماذا فعل رسول الله ﷺ؟

- جزع النبي ﷺ من ذكر المجزرة وفزع إلى ربه يبرأ إليه مما صنع خالد.. وهذا مثل قول طاغور: (اللهم علمني أن أكره الشر لا الأشرار) فهو لا يتبرأ من خالد..

- ثم سأل: ألم يستنكر عليه أحد؟! يريد أن يعرف إلى أي مدى تشرب أصحابه مفاهيم الإسلام..؟! وإلى أي حدٍّ أثرت فيهم تربيته وتوجيهاته..

وأنكر ابن عمر فأدى واجبه ثم سكت طاعة للأمير.. وأنكر سالم وراجع خالداً في حكمه حتى اشتد عليه.. واستنكر عبد الرحمن بن عوف.. وأدانه بأنه عمل بمنطق الجاهلية في هذا الموقف.. واشتد الجدال بينهما.. حتى إن النبي ﷺ تدخل معاتباً وناهياً خالداً عن نزاعه مع عبد الرحمن «دع عنك أصحابي..» فلقد تلقوا مني تربية طويلة المدى.. ولقد عرضوا أرواحهم للخطر حين نبذوا الجاهلية وأعمالها في وقت كان فيه أنصار الإسلام قلة مستضعفين.. دع عنك أصحابي يا خالد.. فلقد تغلغلت رحمة الإسلام ونقاوة مفاهيمه في قلوبهم.. حتى أصبحوا

يميزون بوضوح دوافع الجاهلية عن ضرورات الدفاع.. دع عنك أصحابي.. فقد تشربوا روح القرآن حتى انعكس على سلوكهم وحياتهم.. دع عنك أصحابي فإنك لن تصل إلى مرتبتهم مهما فعلت.. وهو درس بليغ لغرور خالد..

- ثم أرسل النبي ﷺ علياً ليصلح ما أفسد خالد. وأوصاه أن يجعل أمر الجاهلية تحت قدميه.. فما مغزى هذه الوصية في هذا الظرف؟!

إن أمر الجاهلية أن يكون الحكم للأقوى فلا يحاسب الغالب على أخطائه. وأن المرء يتعصب لقومه ويسعى في ثاراتهم..

فاحذر يا علي أن تتعاطف مع خالد لأنه مسلم.. ولا تحكم منطق الجاهلية ولا ثاراتها في الأمر.. وأعطاه مالاً ليدفع دية القتلى ويسعى في إرضاء بني جذيمة.

- ونرى علياً يقوم بالأمر على أحسن وجه فلا يدع خسارة لحقت بهم إلا ويعوضهم عنها.. حتى أقروا بأنهم قد استوفوا حقوقهم.. لكنه يعطيهم ما بقي معه من مال زيادة في الحرص على التحلل من هذا الفعل العظيم وإحساناً منه في الوفاء.. وهو في ذلك تلميذ محمد ﷺ الذي كان يحرص على الإحسان في كل شيء.. ولقد نال مكافأته من النبي ﷺ حين شهد له: «أصبت وأحسنت».

وتمضي الأيام ويشتد خالد في قتال المرتدين في زمن أبي بكر ﷺ فيقول له عمر بن الخطاب: (اعزله فإن في سيفه رهقاً) فيقول الصّديق: (لا أغمد سيفاً سلّه الله على المشركين)(١). وإني لأعجب من كلام الرجلين الذي يبدو متعاكساً مع طبيعتهما.. فهل انكسرت شدة عمر بعد طول توجيه من النبي ﷺ؟! وهل زلزلت الأحداث لين أبي بكر وأشعرته بضرورة الشدة والحزم.. في عصر يعطي الولاء للأقوى..؟! الله أعلم.

---

(١) البداية والنهاية، ٤/٣١٤.

- وتبقى بعد ذلك كلمات النبي ﷺ وتقييمه للأشخاص فوق كل اعتبار.. فمع أن خالداً سيف من سيوف الله.. لكنه لا يقارن ولا يمكن أن يصل إلى مرتبة السابقين إلى الإسلام الراسخين في تشرب القرآن.

- وأعود لأقف أمام قدرة النبي ﷺ على الفصل بين العمل وفاعله.. فالخطأ أو الذنب لا يجعل صاحبه يسقط من عين النبي ﷺ.. والإنسان مهما علا تكون له أخطاء.. ورسول الله ﷺ كان عظيماً في تقبله للناس وحنانه ورأفته بالمخطئين.. «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» ولا أبرأ إليك من خالد.. كم نحن بحاجة إلى جهاد ومراجعة للنفس حتى نرتقي إلى هذا المستوى؟!

* * *

أما كان فيكم رجل رحيم..؟!

وعند ابن كثير هنا خبر كرره بثلاث روايات. مفاده أن رسول الله ﷺ بعث سرية (تدعو إلى الإسلام) فغنموا (فيما يبدو من قوم رفضوا الإسلام) وفيهم رجل فقال لهم: إني لست منهم، إني عشقت امرأة فلحقتها فدعوني أنظر إليها نظرة ثم اصنعوا بي ما بدا لكم. فإذا امرأة أدماء طويلة فقال لها: اسلمي حبيش قبل نفاد العيش. (وذكر شعراً). فقالت: نعم فديتك. فقدموه فضربوا عنقه، فجاءت المرأة فوقعت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت. فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر، فقال: «أما كان فيكم رجل رحيم»[1]؟! لو تركتم هذا العاشق الذي شغله حبه عن كل ما حوله فليس له في قتال المسلمين ناقة ولا جمل.. ألا سحقاً لجذور الجاهلية.. وما أقبح جلافتها.. تذكرت أمام الخبر توجع نبي الله لوط حين قال لقومه: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ١١/٧٨]، وهنا رسول الله ﷺ يقلب النظر في هؤلاء الجفاة

(١) البداية والنهاية، ٤/٣١٥ - ٣١٦.

ويتحسر قائلاً: «أما كان فيكم رجل رحيم»؟! أتعجب من وحشية الجاهلية.. ثم أتساءل هل تحرر الإنسان المعاصر من الوحشية وترفع عن سفك الدماء؟! القرآن يبشر بهذا الارتقاء حين ردَّ على الملائكة: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠].

❁ ❁ ❁

هدم العُزَّى

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد - لخمس بقين من رمضان - إلى العزى، وكانت بيتاً بنخلة (موضع على طريق الطائف) يعظمه قريش وكنانة ومضر وكان سدنتها وحجابها من بني شيبان من بني سليم حلفاء بني هاشم. فلما سمع حاجبها السلمي بمسير خالد إليها علق سيفه عليها ثم اشتد في الجبل الذي هي فيه (وهو ينشد شعراً يحثها فيه على قتل خالد) فلما انتهى إليها خالد هدمها ثم رجع إلى رسول الله(١).

وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال له: «ارجع فإنك لم تصنع شيئاً» فرجع خالد فلما نظرت إليه السدنة أمعنوا هرباً في الجبل وهم يقولون: يا عزى خبليه.. يا عزى عوريه.. وإلا فموتي برغم. فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها ووجهها.. فقتلها ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره فقال: «تلك العزى»(١).

هذه الخرافات والأوهام - كالعزى وغيرها من الطواغيت - كانت تنطلي على الناس لجهلهم وسفاهة عقولهم.. لكنهم سلَّموا بالحق لما رأوا عجزها. ولقد تعلق الناس بعد ذلك بأصنام وطواغيت جديدة لن يتركوها حتى يروا عجزها..

---

(١) المصدر السابق، ٤/ ٣١٦. كذلك أرسل عمرو بن العاص فهدم سواعاً وسعد بن زيد الأنصاري فهدم مناة. انظر الطبري، ٣/ ٦٦.

وكلما ازداد الجهل ازداد الشرك وعبادة الطاغوت.. والعالم المتخلف الآن يعبد القوة والسلاح ولم يؤمن بعد بعجزها عن حلّ المشاكل بينما تلجأ الدول المتقدمة علمياً إلى نبذ هذه الطواغيت (الأسلحة) وإتلافها. فمتى يتحرر العالم الإسلامي من الشرك وينبذ تلك الطواغيت..؟!

❁ ❁ ❁

ما سبب هلاك الناس..؟

وأقام رسول الله ﷺ في مكة تسعة عشر يوماً يقصر في صلاته وفي ذلك إعلان واضح أنه لا ينوي الإقامة فيها.. وكان يقول لأهل مكة: «يا أهل البلد صلوا أربعاً فإنا سفر»(١). وكان يعلم الناس ويقيم حكم الله فيهم.. من ذلك: أن امرأة (في روايات أنها شريفة من بني مخزوم) سرقت في غزوة الفتح ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه. فلما كلم أسامة فيها رسول الله ﷺ تلوّن وجهه وقال: «أتكلمني في حدٍّ من حدود الله؟» فقال أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «أما بعد فإنما هلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها. فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت. قالت عائشة: كانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله(٢).

تأمل كيف يبادر النبي ﷺ في استنكار الشفاعة لمن ارتكب جرماً يستوجب حدّاً.. ولا يكتفي بعتاب أسامة ولومه على ذلك.. بل يقوم في الناس خطيباً ويلقنهم درساً في (علم الاجتماع) وفي سنن هلاك الأمم..!!

---

(١) البداية والنهاية، ٤/٣١٧.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

إن رفض السواء وإقرار الامتيازات بين الناس.. وإعطاء حق (الفيتو) لأمم دون أخرى.. إن هذا هو الطاغوت بعينه.. وكل من يؤمن بذلك يؤمن بالطاغوت ويكفر بالله.. وهذا هو سبب هلاك الأمم لأنه بكل بساطة يقضي على العدل ويورث الحقد والضغائن بين الناس، ويغذي الحقد والعنف. ولهذا لن يستقر السلام في العالم حتى تلغى الامتيازات. ويُلغَى حق الفيتو من هيئة الأمم المتحدة.. ذلك الحق الذي يحيل كل قرارات العدل والخير التي تصوت عليها الأمم.. إلى مهزلة وهذر من دون طائل.

- ويأتي البيان الفصل منه ﷺ حين يؤكد أنه مستعد لإقامة الحد على أحب الناس إليه وهي بضعة منه.. لو أنها سرقت..! لقد جاء الإسلام لإنهاء كل طغيان وكل ظلم ولمحو العصبيات من النفوس وكل ذلك تتضمنه كلمة التوحيد.. فالناس كلهم سواء أمام الله والقانون.. والله وحده فوق الجميع.

- وانظر في حال تلك المرأة التي أقيم عليها الحد.. كيف حسنت توبتها بعد ذلك.. ولم تنبذ من المجتمع بل وجدت زوجاً يقبل أن تكون رفيقة عمره.. ثم كيف كانت عائشة تهتم بأمرها وترفع حاجتها للنبي ﷺ، لقد كان المجتمع المسلم يعين المنحرف على العودة إلى الخير ويساعده على التوبة والاستقامة.. كان قادراً على مغفرة الخطأ ونسيانه.. يمنح المذنب فرصة لطي صفحة الماضي والبدء بالصلاح من جديد.

لقد كان يقوم بإعادة تأهيل المجرم التائب.

أقول هذا بغض النظر عن نوع العقوبات. فمن الواضح أن ذاك المجتمع في ظروفه التاريخية والمعرفية قد استفاد من تطبيق تلك الحدود بتلك العدالة والنزاهة. وكان مثالياً في قلة نسبة الجرائم فيه لعوامل عديدة لا مجال لذكرها الآن.. والباب مفتوح أمام علماء النفس والاجتماع ليقدموا أساليب مطورة وفعالة في منع الجريمة وإعادة تأهيل المنحرف.

حوار طريف

وجلس رسول الله ﷺ لبيعة الناس على الصفا وعمر بن الخطاب أسفل من مجلسه. فأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا. فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة؛ (لما كان من صنيعها بحمزة فهي تخاف أن يأخذها رسول الله بحدثها ذلك) فلما دنين من رسول الله ﷺ ليبايعهن قال: «بايعنني على ألا تشركن بالله شيئاً» فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه من الرجال؟ (تابَع): «ولا تسرقن» فقالت: والله إني كنت أصبت من مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة وما كنت أدري أكان ذلك علينا حلالاً أم لا؟ فقال أبو سفيان - وكان شاهداً لما تقول -: أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل، فقال رسول الله ﷺ: «وإنك لهند بنت عتبة؟» قالت: نعم فاعف عما سلف عفا الله عنك. ثم قال: «ولا تزنين» فقالت: يا رسول الله وهل تزني الحرة؟ ثم قال: «ولا تقتلن أولادكن» قالت: قد ربيناهم صغاراً حتى قتلتهم أنت وأصحابك ببدر كباراً؟ فضحك عمر بن الخطاب حتى استغرق. ثم قال: «ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن» فقالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل. ثم قال: «ولا يعصينني» فقالت: في معروف.

فقال رسول الله لعمر: «بايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم»[(١)].

تقول عائشة رضي الله عنها: لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط. وفي رواية ما كان يبايعهن إلا كلاماً[(٢)].

تبدو هند في هذا المشهد في حالة يقظة للضمير.. خجلة مما صدر عنها في الماضي.. مستنفرة الذهن والانتباه لتستدرك ما فاتها من خير.. حاضرة البديهة

---

(١) البداية والنهاية، ٤/٣١٩.

(٢) ثبت في الصحيحين.

سريعة الجواب.. تهاب النبي ﷺ وتثق بحلمه وعفوه.. فهي تتخفى في البداية عن النبي ﷺ، ثم لا تلبث أن تنطلق على سجيتها.. فتكشف عن نفسها وتصرح بما يعتمل في قلبها.. وهي في كل ذلك ذكية وجريئة.. صادقة مع نفسها ومع من حولها.

- فهي منذ البداية تنتبه إلى أن النبي ﷺ يطلب من النساء أن يلتزمن بأمور لم يطلبها من الرجال. فلماذا؟

أنا أفهم الأمر على أنه إبراز لخطورة دور المرأة في المجتمع، فهي العنصر الأساسي في الأسرة، وهي صانعة الأجيال، وهي التي تدفع الرجل إلى السعي فيما تؤمن به.. فلا بد من امتحان التزامها بأمر الله وتوعيتها بحقيقة ما يطلب منها.. ولهذا أمر القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾ [الممتحنة: ٦٠/١٠]، وبنود الامتحان في آخر السورة.

- ويمضي النبي ﷺ في بيانه دون أن يعلق على تساؤلها.. فإذا بها خائفة عندما يذكر السرقة.. فقد كانت تأخذ من أبي سفيان خفية.. وينطلق لسانها معبراً عن تأثمها مما كان.. وهنا يعرفها النبي ﷺ فما يزيد عن أن يسأل: «وإنك لهند بنت عتبة»؟ فتقر وتطلب العفو.. فيسكت النبي ﷺ متجاوزاً.. خلافاً لقوله لوحشي (قاتل حمزة): «لا تريني وجهك».. وما ذلك إلا لرفقه بالنساء وحرصه على إكرامهن.

- ونتأمل بعد ذلك كيف تتساءل مدهوشة (وهل تزني الحرة؟!).. لقد كانت الحرية والعفة متلازمتين في الجاهلية الأولى.. فأي انتكاس أصاب الحرية في عصرنا..؟!

- ونضحك كلنا مع عمر رضي الله عنه عندما نسمع ردها على قول النبي ﷺ: «ولا تقتلن اولادكن» فأي صراحة..؟ وأي سرعة بديهة..؟ وأي إحساس بالأمان يجعلها تخرج ما يعتمل في قلبها من حسرة على من قتل من أهلها..

ولا تتلقى على ذلك كلمة لوم أو طعن في هؤلاء الذين كادوا للنبي حتى قتلوا بكيدهم وحرصهم على قتل النور والخير..!! ويمضي النبي في بيانه متجاوزاً..

- وها هي تقر بقبح البهتان.. وتعلن رغبتها في التجاوز والارتقاء.

- فحين يقول النبي ﷺ: «ولا يعصينني» تقول بوعي وإدراك: (في معروف)، وهكذا نجحت هند في الامتحان وتحررت من آصار الماضي وحظيت باستغفار النبي ﷺ.

وتأتي روايات أخرى لتذكر أن هنداً قالت: يا رسول الله ما كان مما على وجه الأرض أخباء أحب إلي من أن يذلوا من أهل أخبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل أخباء أحب إلي من أن يعزّوا من أهل أخبائك. فقال ﷺ: «وأيضاً والذي نفس محمد بيده»(١). فكأنه ﷺ يبادلها الشعور ويتلطف بها (صلوات الله وسلامه عليه). ثم سألته: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني فهل عليَّ من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ قال ﷺ: «خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك»(٢).

- فانظر كيف خرجت هذه الحالة وأمثالها عن أن تكون سرقة.. وذلك بالعودة إلى مقاصد الشريعة وأصولها.. وتلك مرونة نحتاج أن نتعلمها بعد أن نفهم المقاصد.

- وتعجَّبْ من هند كيف كانت في الجاهلية ذات استعلاء وكيد وسطوة.. وكيف صارت هينة لينة مرهفة تخشى الوقوع في الحرام..؟! إنه الإسلام يغسل النفوس..

---

(١) رواه البيهقي.
(٢) ثبت في الصحيحين.

لا هجرة بعد الفتح

فقد جاء أناس في تلك الفترة إلى رسول الله ﷺ ليبايعوه على الإسلام والهجرة في سبيل الله فقال لهم: «لا هجرة بعد فتح مكة ولكن جهاد ونيَّة وإذا استنفرتم فانفروا»(١). وقال: «مضت الهجرة لأهلها»(٢). وعللت عائشة الأمر، كان يفر أحدهم بدينه إلى الله عز وجل، وإلى رسوله مخافة أن يفتن عليه، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام فالمؤمن يعبد ربه حيث يشاء(٣).

وابن كثير يقول: «لم تبق هجرة اللهم إلا أن يعرض حال يقتضي الهجرة بسبب مجاورة أهل الحرب، وعدم القدرة على إظهار الدين عندهم، فتجب الهجرة إلى دار الإسلام»(٣). فالأمر مرتبط بالظروف والملابسات المحيطة بالمؤمنين. فتأمل كيف تتغير الأحكام بتغير الأزمان والظروف.. وكيف أن واجباً هاماً من واجبات المؤمنين قبل الفتح قد أصبح لاغياً بعد ذلك بسبب تغير وضع المجتمع المسلم.

ثم إن أمر الهجرة قابل للتجدد بتعرض المسلمين لظروف مشابهة لما قبل الفتح.. أما كيف ندرك الحكم لكل ظرف..؟! فهو أمر لا نقدر عليه إلا بفهم مقاصد الشريعة أولاً، ثم فهم الواقع وما حدث فيه من تطور، ومعرفة ما ينفع الناس لكل عصر؛ لأن ما ينفع الناس ليس ثابتاً جامداً لكل العصور.. بدليل أن الهجرة التي كانت تنفع قبل الفتح لم يعد لها لزوم بعده.

* * *

(١) الإمام أحمد.

(٢) البخاري.

(٣) البداية والنهاية، ٤/ ٣٢٠.

أكذاك تقول يا بن عباس؟

عن ابن عباس، قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لِمَ تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم فما رأيت أنه أدخلني فيهم يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١١٠/١]؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً. فقال لي: أكذاك تقول يا بن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ قال عمر: لا أعلم منها إلا ما يقول[1].

هذا نموذج من معرفة عمر بالرجال.. فهو يقدر نبوغ الشباب ويجمع اللامع منهم مع ذوي الخبرة والحكمة في مجلس مستشاريه.. وما أحوج الشيوخ ذوي الحكمة والتأني إلى مبادرات الشباب وتوقد أذهانهم.. وكلا الطرفين يتكاملان.

- وعمر يدرك من السورة مغزى بعيداً.. ولعله أدرك ذلك بعد وفاة النبي ﷺ.

- وكذلك ابن عباس - فكأن السورة تقول لمحمد ﷺ: لقد أديت رسالتك ونجحت في إتمام مهمتك..

- ومحمد ﷺ يُوجّه من ربّه عند انتصاره إلى التسبيح والحمد والاستغفار.. فما أحوج المنتصر إلى الخضوع والخشوع لله.. وذكر أوامره وسننه.. وإلا أصبح النصر بداية الغفلة.. وفي ذلك بداية النهاية..

- لقد تعلم عمر من نبيّه كيف يقنع الناس بوجهة نظره بتجربة عملية يدرك مغزاها كل من أنكر عليه تصرفه ذاك.

❀ ❀ ❀

(١) رواه البخاري.

القارئ الصغير..!

يقول عمرو بن سلمة: قال لي أبو قلابة: ألا تلقاه فتسأله؟ (ولم يحدد من هو هذا المسؤول!) فلقيته فسألته، قال: كنا بماء ممر الناس وكان يمر بنا الركبان فنسألهم: ما للناس ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله وأوحى إليه كذا. فكنت أحفظ ذاك الكلام فكأنما يقرّ في صدري، وكانت العرب تلوَّم بإسلامهم الفتح فيقولون: اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم وبدر أبي قومي بإسلامهم، فلما قدم (أبوه) قال: جئتكم والله من عند النبي حقاً. قال: صلّوا صلاة كذا في حين كذا، وصلاة كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآناً. فنظروا فلم يكن أكثر قرآناً مني لما كنت أتلقى من الركبان، فقدموني بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين. وكانت علي بردة إذا سجدت تقلصت عني، فقالت امرأة من الحي: ألا تغطون عنا است قارئكم؟ فاشتروا فقطعوا لي قميصاً فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص[(١)].

- كان هذا الطفل اللماح يحفظ كل ما يسمع من الناقلين لما أنزل على النبي ﷺ.. وهذا دليل على اهتمامه وإعجابه بما يسمع من كلام الله فكانت الآيات تنطبع في ذاكرته النقية الطاهرة.. فهو طفل سليم الفطرة ذكي الفؤاد قوي الذاكرة.. ويبدو أن مرحلة (الحفظ) هي أقوى ما تكون عند الأطفال.. وبعض التربويين يرى ضرورة استغلال ذلك بشكل جيد.

- ونرى القبائل تتريث في إسلامها وتنتظر موقف قريش.. وكيف سينجلي الصراع بينها وبين المسلمين. ولهذا كان الفتح حدثاً هاماً هزَّ أركان الجزيرة العربية وأرسى قواعد (الثورة الثقافية) الإسلامية فيها.

- وتأتي ساعة الصفر وتسرع قبيلة هذا الطفل إلى الإسلام وتبدأ بممارسة أركانه وشعائره.. فتبحث عن إمام حافظ يؤمها في الصلاة..!

---

(١) تفرد به البخاري.

- ويصبح طفل (سبع السنوات) إماماً لقومه.. وإن الله ليرفع بهذا القرآن أقواماً ويخفض آخرين. لكن ثوبه قصير ينشمر عنه عند السجود..!!

- وهكذا صنعوا له قميصاً جديداً سابغاً.. فما فرح بشيء كفرحه بهذا القميص الجديد..!! فأي طفولة عذبة تنطلق على سجيتها في هذا الخبر..؟!

- ونجد الأمر النبوي: «يؤمكم أقرؤكم للقرآن» رائعاً في تجليس المقاييس.. فالإمامة ليست للأقوى ولا للأغنى ولا للأجمل أو الأكثر جاهاً وعشيرة.. بل هي للأعلم بالقرآن.. الأحفظ له.. والحافظ الحقيقي من يحفظه لفظاً وعملاً.. يتأسى برسول الله ﷺ الذي كان قرآناً يمشي على الأرض.

ولم يمض على الفتح إلا قرابة أسبوعين عندما علم النبي ﷺ أن هوازن قد اجتمعت واستعدت لغزوه فبادر بالتعبئة والخروج إليهم وانضم إلى جيشه ألفان من أهل مكة (الطلقاء) فأصبح تعداد المسلمين أكثر من اثني عشر ألفاً من المقاتلين. فانطلقوا وقد خالطهم خدر الاطمئنان إلى كثرة العدد حتى قال بعضهم: (لن نغلب اليوم من قلّة).. فهل كان هذا كافياً..؟!

* * *

٥- زعيم هوازن يغرر بقومه

جذور الجهل والشرك..

يقول الحارث بن مالك: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية، فسرنا معه إلى حنين، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها: (ذات أنواط) يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً، فرأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سدرة خضراء عظيمة، فتنادينا من جنبات الطريق: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟ فقال ﷺ: «الله أكبر! قلتم - والذي نفسي بيده - كما قال قوم موسى لموسى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/١٣٨] إنها السنن.. لتركبنَّ سنن من كان قبلكم»[(١)].

وكم من ذات أنواط تعلقت بها قلوب كثير ممن يتسمَّون بالمسلمين عبر الأيام والدهور.. تعلقوا بقبور الأولياء والصالحين.. تعلقوا بالجبابرة الطغاة.. وتعلقوا بمشايخهم أحياناً وكأنهم أرباب..!!

واليوم، فالأسلحة الذرية والنووية (ذات أنواط) يهرعون إليها.. وهم يعلمون أنها ستصرع أجسامهم كما صرعت عقولهم وقلوبهم.. ولعمري إنها الجهل

---

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن إسحاق.

والشرك الجديد.. وكان الأولى بنا - نحن المسلمين - أن نبادر إلى التبرؤ منها والتنديد بها.. بدلاً من أن نقول لهيئة الأمم: (اجعلوا لنا حقاً في التسلح الذري كما جعلتم لإسرائيل!!) حقاً لقد قلتم كما قالوا..!! وحقاً (لتركبنَّ سنن من كان قبلكم) إنها قوانين اجتماعية لحياة الأمم.. فكلما ضعفت الأفكار وتشوشت.. برز الصنم كما قال مالك بن نبي رحمه الله.

* * *

الرأي قبل شجاعة الشجعان

واجتمعت هوازن على ملكها مالك بن عوف النضري، واجتمعت معها ثقيف كلها ولم يحضر من هوازن كعب وكلاب (بطنان من هوازن). وفي بني جشم دريد بن الصمة شيخ كبير ليس فيه شيء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب، وكان شيخاً مجرباً. فلما أجمع مالك السير إلى رسول الله ﷺ أحضر مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس وفيهم دريد بن الصمة.. فلما نزل قال: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نعم مجال الخيل لا حزن ضرس (أي صعب العبور) ولا سهل دهس، ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاء؟! قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم. قال: أين مالك؟ فدعي له. فقال له: يا مالك إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير و... قال: سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم. قال: ولِمَ؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم... قال: راعي ضأن والله، هل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحتَ في أهلك ومالك، ثم قال: ما فعلت كعب وكلاب؟ قال: لم يشهدها منهم أحد. قال: غاب الحد والجد، لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكلاب، ولوددت أنكم

فعلتم ما فعلت كعب وكلاب، فمن شهدها منكم؟ قالوا: عمرو بن عامر وعوف بن عامر. قال: ذانك الجذعان من عامر لا ينفعان ولا يضران. ثم قال: يا مالك، إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً.. ارفعهم إلى متمنع بلادهم وعليا قومهم ثم الق الصبا على متون الخيل فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك. قال: والله لا أفعل، إنك قد كبرت وكبر عقلك، ثم قال مالك: والله لتطيعنني يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري - وكره أن يكون لدريد فيها ذكر أو رأي - فقالوا: أطعناك، فقال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يَفُتْني. ثم قال مالك لقومه: إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ثم شدوا شدة رجل واحد[1].

أحببت أن أثبت هذا الخبر برغم عدم ارتباطه المباشر بالنبي ﷺ لما فيه من بيان لأهمية الحكمة التي لم يكن يصل إليها في الماضي إلا الشيوخ لكثرة تجاربهم.. أما الآن فالعلوم الإنسانية تقدم الحكمة لطلابها المخلصين بالاستفادة من تجارب السابقين والمعاصرين التي تحصيها الوسائل المتطورة؟

دريد هذا رجل عليم بالأماكن والرجال، ولقد كان قادراً على أن يجنب قومه كارثة حرب خاسرة.. لكن غرور مالك وطيشه وتعلق قومه به زعيماً مطاعاً ضيع عليهم تلك الفرصة. ويبدو أن دريداً هذا قد أصيب بصره من الكبر. ها هو يمدح وادي (أوطاس) بأنه مناسب لنزول القوم به.. ثم يستنكر خروج النساء والأطفال وما يملكون من دواب. ويناقش مالكاً في ذلك.. ويسأل عن كعب وكلاب، ويقول: لو كان في هذا الأمر خير ما غابت عنه كعب وكلاب.. وليتكم فعلتم كما فعلوا.. بالكفّ عن قتال محمد ﷺ. إن له معرفة ثاقبة بالرجال وبعواقب الأمور.. ويشير على مالك بأن يجعل الأهل والأموال في مكان ممتنع ثم ينصرف إلى القتال..

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٣٢٣.

- ويقول: إن المنهزم لا يرده شيء.. ولعلها شهادة منه بخواء الرجل الجاهلي من المثل الأعلى والتفاني فيه.. فلماذا يُقدم الجاهلي على الموت إن كان لا يؤمن بالآخرة؟ بل الحياة هي أكبر همه..

- لكن مالكاً حريص على أن يتفرد بالرأي والحكم ولا يريد أن يذكر دريد بشيء من الفضل في هذه الموقعة.. فيتهم دريداً بضعف العقل والخرف بسبب كبره.. لكن أسلوب مالك في الضغط على قومه كي يطيعوه غريب.. فلا هو يحاول إقناعهم بصحة رأيه، وهذا دليل على أنه كان يشعر بضعف رأيه وحجته. ولا هو يُرهبهم بسلطانه وبطشه - كشأن الملوك والحكام - ولعل هذا يدل على ضعف بطش ملوك القبائل العربية في ذلك العصر. لأن الرجل البدوي كان محكوماً بسلطان العصبية القبلية أكثر من أي شيء آخر.

ونحن الآن ربما ننظر إلى أسلوبه في الضغط عليهم.. على أنه صبياني مضحك.. لكنه كان فعالاً في انتزاع الطاعة المطلوبة من قومه.. فهل كانوا يحبونه إلى هذا الحد؟! أم أنه استثار نخوتهم وتعاطفهم بهذه المسكنة..؟!

- ويقول دريد يائساً.. معبراً ببلاغة فائقة عما جرى ويجري: (هذا يوم: لم أشهده): لم أوافق عليه.. ولم أستطع أن أقدم فيه نفعاً كما يفعل الشاهد. (ولم يَفُتني): فلم أغب عن أحداثه ورأيت ما فيه من خطأ وصواب.

- ويمضي مالك في غروره واغتراره بأصحابه.. فهو يظن أن بإمكانهم أن يؤثروا الموت على الحياة.. وأن باطلهم أقوى من حق المسلمين.. وأنه قادر على صدّ النور.. وأمثال مالك لا يستيقظون إلا على الصدمات المؤلمة.. وقد لا يستيقظون..

* * *

درس في الموضوعية

ولما سمع بهم نبي الله ﷺ بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم. فانطلق ابن أبي حدرد فدخل فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له.. ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر.. فكذبه عمر بن الخطاب، فقال له ابن أبي حدرد: لئن كذبتني يا عمر فربما كذبت بالحق. فقال عمر: ألا تسمع ما يقول يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «قد كنت ضالاً فهداك الله»(١).

- في الخبر حرص النبي ﷺ على التحقق من أخبار عدوه.. فهو يرسل العيون.. ويوصي من يرسله بأن يمكث أياماً بين القوم ليعرف ما يدبرون له.. وما عددهم وما عدتهم.. وكيف يخططون..

- وانظر إلى براعة ابن أبي حدرد في أداء المهمة فلم يكشفه أحد.. ثم عاد بأخبار توحي بقوة العدد وشدة تجمعهم على قائدهم.. مما جعل عمر يكذب الخبر.. وكأنه يخشى أن يفت ذلك من عضد المسلمين. لكن ابن أبي حدرد متأكد من أخباره فلا يسكت لعمر.. كيف وقد اتهمه في حسن أدائه لما انتدب إليه؟!

- ويثور عمر من رد ابن أبي حدرد فيستنجد بالنبي ﷺ: أسمعت يا رسول الله آأنا أكذب بالحق؟! فيهدئه النبي ﷺ ويذكره بأنه كذب بالحق يوماً ما.. أما كنت ضالاً مكذباً فهداك الله يا عمر..؟! مهلاً يا عمر ولا تتعد حدودك.. لا تتسرع في التكذيب دون دليل.. ولا تتسرع في الحكم دون برهان.. إنه درس للجميع بعدم التسرع في نفي ما تكره.. إنه درس في الموضوعية وحسن التلقي.

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٣٢٤.

أغصباً يا محمد؟!

وذكر للنبي ﷺ أن عند صفوان بن أمية أدراعاً له وسلاحاً فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك فقال: «يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غداً» فقال صفوان: أغصباً يا محمد؟! قال ﷺ: «بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك» قال: ليس بهذا بأس. فأعطاه مئة درع بما يكفيها من السلاح[(١)].

وفي رواية أنه ضاع بعضها (بعد الحروب) فعرض عليه رسول الله ﷺ أن يضمنها له فقال صفوان: أنا اليوم يا رسول الله في الإسلام أرغب[(٢)].

- تأمل إكرام النبي لصفوان حين يناديه: يا أبا أمية.. ثم يسأله أن يعيره ما عنده من سلاح.. وكان بإمكانه أن يصادر ما يشاء دون سؤال.

- وهذا صفوان وما زال في نفسه شيء ضد النبي ﷺ على الرغم من كل ما سلف من حسن معاملة النبي ﷺ له وعفوه عنه. ها هو يسأل باستنكار وحمية: أغصباً؟! أين ذهبت بك ظنونك يا صفوان؟ إنك أمام خاتم المرسلين.. لا أمام ملك جبار يغصب ويصادر الأموال والممتلكات..

وتهدأ ثائرة صفوان أمام تأكيد النبي ﷺ ويثق بصدقه ووفائه.. وهو أمر كان يشهد له به أعداؤه..

وتمضي الأيام.. وتعود الأدرع إلى صفوان ناقصة ويريد النبي ﷺ أن يعوضه عن النقص فيها.. لكن صفوان اليوم غير صفوان الأمس..

صفوان اليوم مسلم مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله.. فقد شفي من حقده بعد أن تلقى العلاج على جرعات من طبيب القلوب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) المصدر السابق، ٤/ ٣٢٤.
(٢) رواه الإمام أحمد.

لا نؤتينَّ من قِبَلِك..

وسار النبي ﷺ بجيشه حتى أمسى. وقد جاءه من أعلمه أن هوازن قد اجتمعوا على بكرة أبيهم بوادي حنين. فقال ﷺ: «من يحرسنا الليلة»؟ قال أنس بن أبي مرثد: أنا يا رسول الله، قال: فاركب. فركب فرساً له وجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له ﷺ: «استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه ولا نُغرنَّ من قِبَلك الليلة». فلما أصبحوا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه فركع ركعتين ثم قال: «هل أحسستم فارسكم؟» قالوا: ما أحسسنا. فثوّب بالصلاة (أي أقامها) فجعل رسول الله ﷺ يصلي ويلتفت إلى الشعب حتى إذا قضى صلاته قال: «أبشروا فقد جاءكم فارسكم»، فجعل ينظر إلى خلال الشجر في الشعب وإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: إني انطلقت حتى إذا كنت في أعلى هذا الشعب حيث أمرني رسول الله ﷺ فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما فنظرت فلم أرَ أحداً. فقال له رسول الله ﷺ: «هل نزلت الليلة»؟ قال: لا، إلا مصلياً أو قاضي حاجة. فقال له ﷺ: «قد أوجبت، فلا عليك ألا تعمل بعدها»[(١)].

نلاحظ الدقة في الحركة والتخطيط لدى رسول الله ﷺ:

١- فهو يستطلع ويرسل من يأتيه بأخبار تحركات العدو.

٢- ولا يقاتل بليل بل يريح جنوده ويعين حارساً يحفظ فم الممر إلى المسلمين.

٣- يأمره بركوب فرسه كي يتمكن من رصد التحركات ويوصيه: لا نؤتين من قبلك.

٤- يسأل عن الحارس حين يصبح ويقلق عليه.. ثم يبشر أصحابه بسلامته فهو حريص على رفع معنوياتهم.. وأهم ما في الجيش معنوياته القوية.

---

(١) البداية والنهاية، ٣٢٦/٤.

٥- أدى الحارس واجبه في حفظ الممر.. لكنه قد فَقَد آثار العدو.. فأين ذهبوا؟! ويشعر النبي بخلل في انتباه هذا الحارس.. ويسأله: «هل نزلت الليلة؟»..

٦- ومع ذلك فإن النبي ﷺ يشكر الحارس: قد أديت واجبك وآن لك أن ترتاح..

٧- لا شك بأن النبي ﷺ قد أحس ببعض القلق عن تحركات العدو.. لكنه لم يبح إلى من كان حوله بشيء حتى لا يفت في عزائمهم.. وهو على يقين بأن الله لن يخذله مادام أنه يبذل كل ما في وسعه. فلنتحرك على بركة الله.

❀ ❀ ❀

المحنة تفضح الدخائل

لكن مالك بن عوف كان قد سبق المسلمين إلى الوادي.. فوزع جنوده في الشعاب والمضائق في كمائن مختفية على أطراف المنحدر إلى الوادي.

وأقبل رسول الله ﷺ وأصحابه حتى انحط بهم الوادي في عماية الصبح، فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل فشدت عليهم، وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد. وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين يقول: «أين أيها الناس؟ هلموا إلي أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله» قال فلا شيء.. وركبت الإبل بعضها بعضاً[1].. فلما انهزم الناس تكلم رجال من ضعاف الإيمان بكلام فضح دخائلهم.. فقال أبو سفيان (صخر بن حرب) - وكان إسلامه بعد مدخولاً وكانت الأزلام بعد معه يومئذ -: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر. وصرخ كلدة بن الحنبل - وهو مع أخيه لأمه صفوان بن أمية -: ألا بَطَلَ السحر اليوم. فقال له صفوان (وما زال مشركاً): اسكت فضَّ الله فاك فوالله لئن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن[2].

---

(١) البداية والنهاية، ٤/٣٢٦.

(٢) المصدر السابق، ٤/٣٢٧.

أما زلت يا أبا سفيان مزلزلاً مزعزعاً..؟!

وأنت يا صفوان تأخذك الحمية لقومك فتتعاطف مع المسلمين عصبية؟ وما زال بين الطلقاء من يظن أن محمداً ساحر..؟!

لا بأس عليكم.. وستكشف لكم الأحداث عن حقائق الأمور.

وكان الأمر كما وصفه الله في ذلك اليوم ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ، ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ٢٥-٢٦].

الاطمئنان إلى كثرة العدد أدى إلى الغرور والغفلة.. وكما يقول توينبي: يبدأ النقصان عندما يصل الملاح إلى هدفه فيستلقي على مجاذيفه. الاطمئنان الذي يفقد الإنسان توتره ويقظته هو أول الخذلان..

لقد كان درساً ربّانياً يتلقاه حديثو العهد بالإسلام كي يدركوا ضرورة التقوى والحذر وأهمية الفزع إلى الله في كل حال.

وكان محنة كشفت عن مواضع الخلل في هذا الخضم الزاخر من المسلمين.. فقد يصبح (الكم) أكداساً تعيق الحركة - كما سنرى في معاناة الذين كانوا راغبين في الوصول إلى النبي لمناصرته - ولا مخرج من الشدائد والأزمات إلا بوجود النوعية المناسبة في إخلاصها وصوابها.. وضمن نسبة معينة مقابل عدد الكفار ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٥]. أي: العدد الكافي من النخبة الواعية.

• • •

يا لبيكاه.. يا لبيكاه..

وثبت مع النبي ﷺ في هذا الموقف نفر من أهل بيته: علي بن أبي طالب وأبو سفيان بن الحارث وأخوه ربيعة والفضل بن العباس، وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد.. ورهط من المهاجرين منهم أبو بكر وعمر.

يقول العباس: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمته أنا وأبو سفيان بن الحارث لا نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقى الناس ولى المسلمون مدبرين فطفق رسول الله ﷺ يُركِّض بغلته قِبَلَ الكفار، وأنا آخذ بلجامها أكفها إرادة ألا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ. وقال رسول الله ﷺ: «أي عباس نادِ أصحاب السَّمُرة» (أي أصحاب بيعة الشجرة). فوالله لكأنما عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيكاه.. يا لبيكاه.. فاقتتلوا هم والكفار والدعوة في الأنصار وهم يقولون: يا معشر الأنصار. ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج. فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال: «هذا حين حمي الوطيس» ثم أخذ حصيات فرمى بهن في وجوه الكفار ثم قال: «انهزموا وربِّ محمد» قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، فوالله ما هو إلا أن رماهم رسول الله ﷺ بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلاً وأمرهم مدبراً[(١)]. وفي رواية أنه ﷺ أمر العباس أن ينادي (ويبدو أنه صاحب صوت جهوري): «يا عباس نادِ يا معشر الأنصار يا أصحاب الشجرة» فأجابوه: لبيك.. لبيك. فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره فلا يقدر على ذلك فيقذف درعه عن عنقه ويأخذ سيفه وترسه ثم يؤم الصوت حتى اجتمع إلى رسول الله ﷺ منهم مئة. فاستعرض الناس

---

(١) رواه مسلم.

فاقتتلوا، وأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه فنظر إلى مجتلد القوم فقال: «الآن حمي الوطيس» فوالله ما راجعه الناس إلا والأسارى عنده مكتفون(١)..

وسئل البراء بن عازب: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟! قال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر... ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء وإن أبا سفيان (ابن الحارث) آخذ بزمامها وهو يقول: أنا النبي لا كذب، ثم نزل عن بغلته فاستنصر وهو يقول: «اللهم نزل نصرك». قال البراء: ولقد كنا إذا حمي البأس نتقي برسول الله ﷺ، وإن الشجاع الذي يحاذي به(٢).

- هذه صورة من شجاعة النبي ﷺ وثباته عند الشدة والروع. حتى إن علياً رضي الله عنه مع ما عرف عنه من بطولة وإقدام ذكر عنه أنه قال: كنا إذا حمي الوطيس تدرعنا برسول الله ﷺ.

- وتأمل في روعة الإيمان عند الذين ثبتوا من المهاجرين، وعند هؤلاء الذين نادى عليهم رسول الله ﷺ يا أصحاب البيعة.. فانعطفوا إليه هاتفين يا لبيكاه.. وجعل الرجل منهم إن لم يطاوعه بعيره على مواجهة القتال تركه وتخفف من درعه وهرع إلى رسول الله ﷺ..!! أرأيت كيف كان ﷺ يعرف مفاتيح قلوبهم.. وكيف يُحوّل خوفهم إلى إقدام؟!

- وكان هؤلاء المئة الذين تجمعوا حول النبي ﷺ مؤثرين الموت في سبيل الله ونصرة نبيهم.. هم الذين غيّروا وجه المعركة من الهزيمة إلى النصر.. ولا يتعارض هذا مع إيماننا بأن الله حمى نبيه ونصر جنده.. لكن ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٤٧/٧]. ولا يتعارض مع كون النبي ﷺ حصبهم داعياً عليهم وأن الله استجاب دعاءه.. وإلا فلماذا أمر العباس أن ينادي عليهم..؟!

(١) البداية والنهاية، ٣٢٩/٤.

(٢) رواه البخاري.

وأم سليم وسط هذا الهول..!!

ولقي أبو طلحة أم سليم ومعها خنجر فقال: ما هذا؟ فقالت: إن دنا مني بعض المشركين أن أبعج في بطنه، فقال أبو طلحة: أما تسمع ما تقول أم سليم؟! فضحك رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله أقتل من بعدها من الطلقاء؟ انهزموا بك، فقال ﷺ: «إن الله قد كفى وأحسن يا أم سليم»(١).

ورجل من هوازن على جمل له أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح طويل أمام هوازن.. إذا أدرك طعن برمحه وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه. فأسرع إليه علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار(٢).. وتكفلا به.

وهذا سلمة بن الأكوع يثبُتُ فترة.. ثم ينهزم.. ويكاد إزاره يسقط منه فيجمعه بيده ويمر على النبي وهو منهزم - فيستمر ولا يقف - فيقول الرسول ﷺ: «لقد رأى ابن الأكوع فزعاً»(٣). فإذا ذكرنا بطولة ابن الأكوع عرفنا شدة هول ذلك اليوم. ولقد حرك النبي ﷺ كل ما يمكن في تحميس النفوس لمواجهة هذا الهول حتى الرغبة في الغنائم إذ قال لهم: «من قتل قتيلاً له عليه بيّنة فله سلبه»(٤). وهو أمر ذو أهمية بالغة عند أعراب الجزيرة.

فلما تمّ النصر وفرّت البقية الباقية من هوازن، أمر رسول الله ﷺ بالغنائم فجمعت من الإبل والغنم والرقيق. وأمر أن تساق إلى الجعرانة (موضع فتحبس هناك، وجعل مسعود بن عمرو الغفاري حارساً عليها، لانشغاله عن توزيعها بفلول هوازن وثقيف الذين توزعوا في ثلاث جهات: أوطاس ونخلة والطائف.

* * *

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٣٢٧.

(٢) المصدر السابق، ٤/ ٣٢٦.

(٣) المصدر السابق، ٤/ ٣٣١.

(٤) رواه البخاري.

ما كانت هذه لتقاتل!!

ومرَّ رسول الله ﷺ يومئذ بامرأة مقتولة والناس متقصفون عليها. فقال ﷺ: «ما كانت هذه لتقاتل!!». وكان خالد على مقدمة الجيش فقال رسول الله ﷺ لبعض أصحابه: «أدرك خالداً فقل له إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفاً»(١).

ولا يملك القارئ إلا أن يتساءل: لماذا قتلوها ولم يأخذوها أسيرة مع الغنائم؟ هل قاتلتهم أو تناولتهم بالأذى؟ أم كان القتل خطأ..؟ فمن الواضح أن العرب كانوا يحبون سبي النساء أكثر من قتلهن.

أغلب الظن أن القتل حدث خطأ.. فقد استبعد رسول الله ﷺ أن تكون المرأة قد قاتلت.. فلم تكن النساء تتصدى للقتال في أغلب الأحوال. وتأتي الأوامر النبوية حازمة صارمة بعد رؤية هذا المنظر المؤثر.. ويعتبر النبي ﷺ خالداً مسؤولاً عنه. (بل صرحت إحدى الروايات أنه كان هو من قتلها).. فاحذر يا خالد! ولا تقتل إلا من قاتلك.. ولا تقتل إلا من كان قادراً على قتالك.. لا تقتل الأطفال والنساء.. ولا تقتل العسيف (أي الأجير عند العدو) فلا شأن له بالنزاع بينك وبين أسياده.. وإنما هو عبد لقضاء الحاجات.

هل أدرك الجميع أن النبي ﷺ دخل إلى المعركة مضطراً.. فهو حريص على التخفيف والاختصار في القتل وسفك الدماء..؟! أستبعد ذلك. لكن لا لوم عليهم كانوا أبناء زمانهم ومكانهم.

* * *

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٣٣٧. والعسيف هو الأجير.

ما تفعل بالشيخ؟!

انهزم المشركون يوم حنين فأتى بعضهم الطائف ومعهم مالك بن عوف. وعسكر بعضهم بأوطاس، وتوجه بعضهم إلى نخلة.

وتبعت خيل رسول الله ﷺ من سلك الثنايا. فأدرك ربيعةُ بن رفيع السلمي (ويُعرف بابن الدُّغنّة وهي أمه) دريدَ بن الصّمة فأخذ بخطام جمله وهو يظن أنه امرأة، وذلك أنه في شجار لهم (يبدو أنه شيء يشبه الهودج).. فأناخ به فإذا شيخ كبير وإذا دريد بن الصمة ولا يعرفه الغلام. فقال له دريد: ماذا تريد بي؟ قال: أقتلك. قال: ومن أنت؟ قال: أنا ربيعة بن رفيع السلمي، ثم ضربه بسيفه فلم يُغن شيئاً. قال: بئس ما سلحتك أمك، خذ سيفي هذا من مؤخر رحلي في الشجار ثم اضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ، فإني كذلك كنت أضرب الرجال، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة، فرب - والله - يوم منعت فيه نساءك.. فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله إياه. فقالت: أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثاً[1]..!!

- شيخ عجيب يتعرف على الشاب الذي يريد قتله.. ولا يعرّفه بنفسه إلا في النهاية.. مع أنه صاحب فضل على أهله وعشيرته. ثم يسوءه ألّا يعرف الشاب كيف يضارب بالسيف.. فيمنحه سيفه ويدله كيف تكون الضربة قاضية.. اقتلني ثم أخبر أمك أنك قد قتلت دريداً.. فكم حميت نساءك..!!

- والشاب (ربيعة) أعجب حالاً إذ يتصدى لشيخ.. ماذا يريد منه؟ يستعرض عضلاته في قتله؟! وبعد أن يحسن له الشيخ ويعرفه بنفسه.. يمضي في قتله؟!

لقد كان الشيخ شامخاً في ضعفه.. ينظر إلى الفتى المزهو بنفسه في استخفاف وإشفاق.. وهو زاهد في الحياة بعد أن ذاق حلوها ومرها.. ولا بأس عنده بأن

---

(١) المصدر نفسه، ٤/ ٣٣٧.

يُقتل.. لكنه الكبير المحنَّك المعلِّم إلى آخر لحظة.. بل وصاحب الفضل على قاتله..!

أما الفتى (ربيعة) فما أدري بم أصفه..

لكنه بمقياسي لم يَرُح رائحة جوهر الدين.. وإنما هي جلافة أعرابي. وحتى أمه لم تزد على أن اعترفت بأنه أعتق ثلاث أمهات له..!! ولعل العلة كامنة فينا.. فنحن نقرأ الأخبار بروح عصرنا.. ونعجز عن الدخول في ثقافة ذلك العصر.

* * *

شريد أبي عامر

ويعث رسول الله ﷺ في آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر الأشعري فناوشوه القتال فرُمي أبو عامر فقتل، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري (ابن عمه) ففتح الله عليه. وفي رواية أن أبا عامر لقي يوم أوطاس عشرة إخوة من المشركين فحمل عليه أحدهم فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول: اللهم اشهد عليه فقتله أبو عامر، ثم حمل عليه آخر فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول: اللهم اشهد عليه فقتله أبو عامر.. (قال ذلك للتسعة) وبقي العاشر فحمل على أبي عامر وحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول: اللهم اشهد عليه، فقال الرجل: اللهم لا تشهد عليَّ، فكفَّ عنه أبو عامر، فأفلت فأسلم بعد فحسن إسلامه. فكان النبي ﷺ إذا رآه قال: «هذا شريد أبي عامر»[1].

وفي رواية: أن أبا عامر (لما أصيب) قال لأبي موسى: يابن أخي أقرئ رسول الله ﷺ السلام وقل له: استغفر لي.. فمكث يسيراً ثم مات، فرجعت

(١) المصدر السابق، ٤/٣٣٨.

فدخلت على رسول الله ﷺ في بيته وهو على سرير مرمل وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبيه، فأخبرته بخبرنا.. فدعا بماء فتوضأ ثم رفع يديه فقال: «اللهم اغفر لعبيد أبي عامر.. اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك» فقلت: ولي فاستغفر. فقال: «اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً»[1].

- هذا نموذج للمؤمن الداعي يمارس دعوته داخل المعمعة.. وحتى آخر لحظة.. فلما أحس عند العاشر ليناً أمام دعوته كفّ عن قتاله.. وكانت فرصة للرجل ومأثرة لأبي عامر أن ينقذ رجلاً من أن يقتل كافراً.. حقاً إنه ربيب محمد ﷺ..

- لقد شرد الرجل عن مسار إخوته التسعة الذين سبقوه.. فنعم الشرود.

وهذا أبو موسى الأشعري يبادر إلى حمل الراية بعد ابن عمه ليؤدي الأمانة ويتمم الإنجاز على أحسن حال..

- ومع ذلك فالرجلان يطلبان من رسول الله ﷺ أن يستغفر لهما..!! فما أحلى خشوعهما لله.. وما أعجب غرورنا بأنفسنا واعتدادنا بأعمالنا البسيطة التي لا تقارن مع جهادهما..!!

- وتأمل رسول الله ﷺ وقد كادت الجزيرة العربية تدين له.. وهو مضطجع على فراش مرمل قد أثر رمله في جسده..!

فيا خيبة الملوك والزعماء أمام زهد خاتم الأنبياء الذي يعيش بين الفقراء فيواسيهم ويفهم معاناتهم ويصر على البقاء معهم.

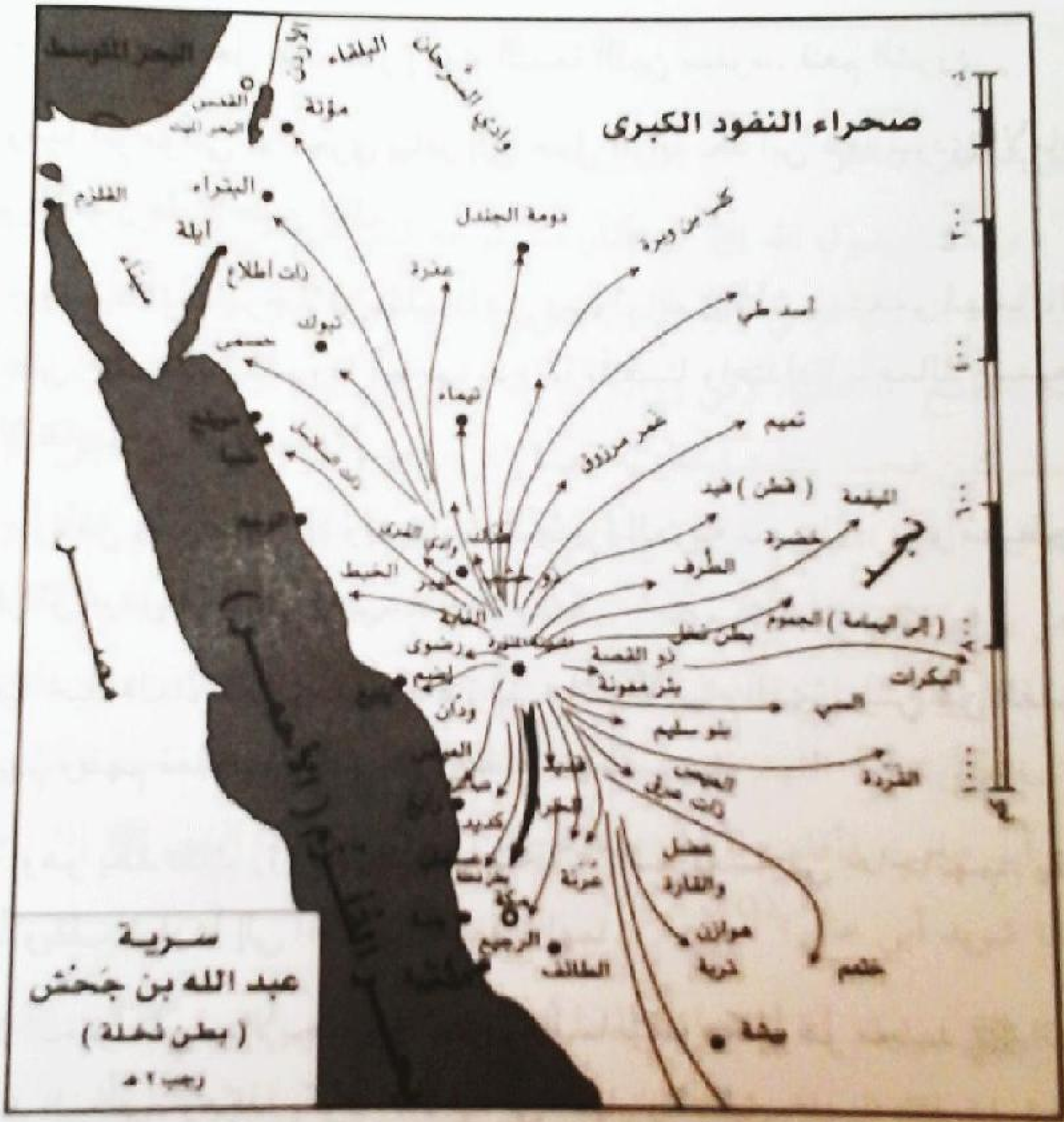
- وهو بعد ذلك رؤوف رحيم بأصحابه يضع نفسه في حاجاتهم.. يقوم فيتوضأ ويقف ضارعاً إلى الله طالباً المغفرة لهما.

إن الخبر مليء بالإيحاءات المؤثرة السامية.. هكذا هو محمد ﷺ النبي المجاهد المعلّم.. وهكذا يكون التلاميذ في الفهم والتطبيق..

---

(١) البخاري.

٦- حصار الطائف



خريطة الغزوات والسرايا بعد الخندق

قَدِمَ فلُّ المنهزمين الطائف فأغلقوا عليهم أبواب مدينتها وصنّعوا الصنائع للقتال. ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل قريباً من الطائف فضرب عسكره، فقتل ناس من أصحابه بالنبل، وذلك أن العسكر اقترب من حائط الطائف، فتأخروا إلى موضع مسجده عليه الصلاة والسلام بالطائف الذي بنته ثقيف بعد إسلامها. فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة[1]. ويقال: سبع عشرة ليلة يقاتلهم ويقاتلونه. واتخذ النبي إجراءات كثيرة لتذليل الحصار ودفعهم للاستسلام. منها:

١ - بعث منادياً ينادي: من خرج إلينا (من العبيد) فهو حر[1]. فنزل إليه ثلاثة وعشرون من العبيد فأعتقهم[2]. فلما قدم وفد أهل الطائف (فيما بعد) وأسلموا قالوا: يا رسول الله ردّ علينا رقيقنا الذين أتوك؟ قال: «لا أولئك عتقاء الله»[3].

٢ - حاول نفر من الصحابة إحراق جدار أهل الطائف فأرسلوا عليهم سكك الحديد محماة ورموهم بالنبل فقتلوا منهم رجالاً. فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف[3]. وقيل: إنه رماهم بالمنجنيق.

٣ - تقدم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فناديا ثقيفاً بالأمان حتى يكلموهم فأمنوهم. فدعوا نساءً من قريش وبني كنانة ليخرجن إليهم وهما يخافان عليهن السباء (ويبدو أنهن متزوجات لرجال من ثقيف) إذا فتح الحصن، فأبين[3].

٤ - واستأذن عيينة بن حصن رسول الله ﷺ في أن يأتي أهلَ الطائف فيدعوهم إلى الإسلام فأذن له، فجاءهم فأمرهم بالثبات في حصنهم وقال: لا يهولنكم قطع ما قطع من الأشجار.. فلما رجع قال له ﷺ: «ما قلت لهم؟» قال: دعوتهم إلى الإسلام وأنذرتهم النار وذكرتهم بالجنة. فقال ﷺ: «كذبت

---

(١) البداية والنهاية، ٣٤٧/٤.

(٢) البخاري.

(٣) البداية والنهاية، ٣٤٨/٤.

بل قلت لهم كذا وكذا» فقال: صدقت يا رسول الله أتوب إلى الله وإليك من ذلك[١].

فهذا الرجل سمح له النبي ﷺ بأن يكلم ثقيفاً لعله يقنعهم.. وهو زعيم فزارة وذو وجاهة بين العرب.. لكنه قام بعكس ما ادَّعى.. ففشلت المهمة لكن الرجل تاب حين كشف النبي لعبته. فكسب نفسه.

٥ - وجعل النبي ﷺ يحمس أصحابه على البذل والجهاد فقال: «من بلغ بسهم فله درجة في الجنة» و «من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل محرر»[٢] (أي يعادل تحرير عبد من الرِّق).

وأحس رسول الله ﷺ أن الحصار يمضي دون طائل، وكأن الله يريد بأهل الطائف مصيراً أفضل. فقال لأصحابه: «إنا قافلون غداً إن شاء الله» فثقل عليهم وقالوا: نذهب ولا نفتح؟! فقال ﷺ: «اغدوا على القتال» فغدوا، فأصابهم جراح، فقال: «إنا قافلون غداً إن شاء الله» فأعجبهم، فضحك النبي ﷺ[٣].

- فلقد صعب على الأصحاب أن يتقبلوا قرار الانسحاب دون إنجاز الفتح، فلما رأى عدم اقتناعهم أظهر موافقتهم وقال لهم: «دونكم فقاتلوا».. فلما شنّوا الحملة وأُثخنوا أدركوا مغزى قرار النبي ﷺ ومدى رحمته بهم. فأسرعوا في الطاعة بعدها. وهو أسلوب تربوي نبوي رائع في جعل الإنسان يفحص العواقب، ويتعلم منها القرار الأصوب.

* * *

(١) أورده البيهقي.
(٢) رواه البيهقي.
(٣) رواه البخاري.

ادع الله عليهم..

وعاد المسلمون وفي قلوبهم غيظ من أهل الطائف فلقد اصطلوا بنارهم ولم ينالوا منهم مرامهم.. فقالوا: يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم!! فقال ﷺ: «اللهم اهدِ ثقيفاً»(١). فجاءه وفدهم في رمضان سنة تسع.

فهل فهناك أعظم بركة من هذا الدعاء؟!

وماذا يستفيد المسلمون إن دعا عليهم بالهلاك والعذاب؟!

وأي ربح تجنيه من التشفي والانتقام؟!

ستبقى نيران العداوة ميراثاً تتلقاه الذراري عبر الأجيال..

أما هداية ثقيف فهي كسب لها ولمن حولها وللمسلمين وإنهاء العداوة بالحب والمؤاخاة.. وإيقاف الحروب وتوحيد الصف وتحقيق الأمن للمجتمع الرباني الجديد كي يتابع في تحقيق إنجازاته وإبداعه.. كي يربح الجميع ولا يخسر أحد.. فأي قلب كبير..؟! وأي علم غزير..؟! وأي صفاء نفسي لا تشوشه الأحداث..؟! صلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله، فقد كنت أكبر من الأشخاص والأحداث رغم خوضك غمارها ومعاناتك من سعيرها. وصدق الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/١٢٨].. وكما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٧].

* * *

(١) رواه الترمذي.

وفد هوازن: يربح الجميع ولا يخسر أحد..

فلما انصرف النبي ﷺ عن الطائف عائداً إلى الجعرانة، أتاه وفد هوازن، وكان معه ﷺ من سبيهم ستة آلاف من الذراري والنساء ومن الإبل والشاء ما لا يدري عدته.. وأعلن وفد هوازن إسلامهم وقالوا: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخفَ عليك، فامنن علينا منَّ الله عليك. وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك (عند رضاعه من حليمة)، ولو أنا ملحنا لابن أبي شَمِر أو النعمان بن المنذر ثم أصابنا منهما مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما، وأنت رسول الله خير المكفولين.. (وأنشد شعراً فيه مدح ورجاء)[١]. فقال لهم رسول الله ﷺ: «معي من ترون وأحب الحديث إلي أصدقه فاختاروا إحدى الطائفتين إما السَّبي وإما المال؟ وقد كنت استأنيت بكم» وكان ﷺ انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف (ولم يبادر في قسم الغنائم)، فلما تبين لهم أنه ﷺ غير راد إليهم إلا إحدى الطائفتين، قالوا: إنا نختار سبينا. فقام رسول الله ﷺ في المسلمين وأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء قد جاؤوا تائبين، وإني قد رأيت أن أردَّ إليهم سبيهم فمن أحب أن يطيِّب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول مال يفيء الله علينا فليفعل» فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله. فقال لهم: «إنا لا ندري من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم»، فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه بأنهم قد طيبوا وأذنوا[٢].

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٣٥٢.

(٢) رواه البخاري.

وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال لوفد هوازن: «إذا أنا صليت بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ في أبنائنا ونسائنا فإني سأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم»، فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فقالوا ما أمرهم به فقال: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم» فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال العباس بن مرداس السلمي: أما أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: بل ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فيقول عباس لبني سليم: وهنتموني؟ فقال ﷺ: «من أمسك منكم بحقه فله بكل إنسان ستة فرائض من أول فيء نصيبه» فردوا إلى الناس نساءهم وأبناءهم[(١)].

- نرى في الخبر بلاغة خطيب هوازن وحسن عرضه لما يرجون من رسول الله ﷺ.

- ونجد رسول الله ﷺ متعاطفاً مع رجائهم فهو رحيم بالجميع فكيف لا يرحم قبيلة أمه بالرضاع.. بل يصرّح أنه استأنى في قسم الغنائم منتظراً قدومهم مسلمين لكنه يبصرهم بأن أمر الغنائم مرتبط بحقوق المجاهدين فيها وأقصى ما يملك أن يتنازل هو عن نصيبه فيها.. لكنه ﷺ يدلهم على خطة واقعية توصلهم إلى بعض ما يبتغون.. فلو أنهم طلبوا رد كل شيء لثقل الأمر على المجاهدين.. بل أصبح أقرب إلى الاستحالة.. ولهذا خيرهم أولاً بين السبايا أو الأموال. فلما أذعنوا للواقع واختاروا أهلهم.. دلهم على طريقة مؤثرة تجعل المسلمين يتجاوبون مع رجائهم. وذلك بأن:

أ- يعرضوا الأمر بعد الصلاة والنفوس مرهفة مشحونة بذكر الله.

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٣٥٣.

٢- لقنهم كلاماً حسناً مؤثراً يطرحون به قضيتهم.. (نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله).. وفي ذلك إثارة نخوة المسلمين كي يؤازروهم ويتشفعوا لهم..

٣- عند ذلك سأعطيكم على الملأ حصتي وحصة بني عبد المطلب.. وأشجع الناس على أن تطيب لكم عن نصيبها..

ورسول الله ﷺ يعلم أن المهاجرين والأنصار لا يتأخرون عن التأسي به في العطاء والمن وقد سبق لهم أن تسامحوا مع بني المصطلق إكراماً لأم المؤمنين (جويرية).. لكنه مع ذلك لا يكتفي بأصوات التسامح والموافقة فلعل رجالاً قد سكتوا حياء ولم تطب نفوسهم.. فيطلب من عرفاء الناس أن ينقلوا له رغبات الجميع.. حتى لا يشعر أحد بالغبن ولا يكون في صدره شيء يشوش عليه صلته بالله ورسوله..

- لقد كانت خطة النبي ﷺ رائعة في دفع المؤمنين إلى الخير. فهو يريد لهم الخير والارتقاء.. لكنه لا يكرههم عليه.. بل يجعلهم يختارونه بملء إرادتهم، ومع ذلك تسمع أصوات نشاز ضمن هذا اللحن الجميل المتناسق.. فهؤلاء زعماء ثلاثة لا همَّ لهم إلا المال والغنائم.. يبخلون ويضنون عن غير عوز.. لكنهم يأكلون ولا يشبعون!

هؤلاء الثلاثة كانوا صوت الجاهلية الممجوج وسط هذا المشهد المليء بالحب والعطاء المتناغم.. كي ندرك سعة البون بين الجشع والسخاء.. بين الأنانية والإيثار.. بين التسلط والسماحة..

هؤلاء الثلاثة يخرسون أقوامهم ويظنون أن من حقهم أن يكونوا صوت القبيلة.. فالزعيم هو كل شيء ولا حق لغيره بالاختيار أو الكلام..!

لكن بني سليم - قوم العباس بن مرداس - قد خرجوا من لعبة الاستكبار والاستضعاف.. وعلمهم الإسلام كيف يكون إثبات الذات في الخير والارتقاء

فهتفوا: بل ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فما أعذب هذا الصوت..!! إنه النور يعود ليكتسح المشهد من جديد..

- ولننظر كيف يتعامل الرسول ﷺ مع الرافضين (حزب المعارضة):

أ- يعترف لهم بحقهم في الرفض ولا يوجه لهم أي لوم.

٢- الكلمات التي يوجهها لهم ليس فيها ما يخدش كرامة أو شعوراً.

٣- يعرض عليهم تعويضاً (ستة فرائض) من أول غنيمة قادمة. مقابل ترك نصيبهم من الأسرى.

- كانت حصيلة هذا الموقف: تحرير ستة آلاف رقبة من أن تُستعبد..

وشحن النفوس بالمحبة والتآخي والقدرة على التسامي والعطاء..

وحتى (جبهة المعارضة) خرجت راضية قريرة العين بوعدها بالتعويض..

وما أبرع رسول الله ﷺ في اختيار الحلول التي يربح فيها الجميع ولا يخسر أحد. هل نقدر على تعلم هذه الصفة؟!

إننا بحاجة إلى علم غزير بالأسباب والعواقب.. وقلب كبير يملؤه الحب للجميع.

* * *

ردوا علي ردائي..!!

ثم ركب رسول الله ﷺ واتبعه الناس يقولون: يا رسول الله اقسم علينا فيئنا، حتى اضطروه إلى شجرة فانتزعت ردائه، فقال: «أيها الناس، ردوا علي ردائي فوالذي نفسي بيده لو كان لكم عندي عدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً»، ثم قام رسول الله ﷺ إلى

جنب بعير فأخذ من سنامه وبرة فجعلها بين إصبعيه ثم رفعها فقال: «أيها الناس، والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم فأدّوا الخياط والمخيط فإن الغلول عار ونار وشنار على أهله يوم القيامة» فجاء رجل من الأنصار بكبة من خيوط شعر فقال: يا رسول الله أخذت هذه لأخيط بها برذعة بعير لي دَبَر، فقال ﷺ: «أما حقي منها فلك» فقال الرجل: أما إذا بلغ الأمر فيها فلا حاجة لي بها فرمى بها من يده(١).

الله الله أيها الحبيب المصطفى كم تحملت وصبرت على الناس.. ها هم يتزاحمون حولك طالبين المغانم حتى تمر بشجرة فتسحب منك رداءك..

رويدكم أيها الناس.. ما بالكم قد نسيتم أنكم تؤذون رسول الله ﷺ ومع ذلك فالنبي صابر عليهم لا يوجه لهم لوماً.. بل يطمئنهم بأنه سيعطيهم حقهم غير منقوص مهما كان عدد الغنائم كثيراً فسأقسمها عليكم ولن تروا مني بخلاً ولا خوفاً من سلطان أحد ولا كذباً في حق أي منكم..

ثم يؤكد لهم أن لن يأخذ من هذه الغنائم إلا الخمس الذي قرره له الله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٤١].. وهذا الخمس سيرد على ذوي الحاجات منكم.. فما بالكم خائفين ملحفين في الطلب؟!

ويا له من موقف يضطر فيه الرسول ﷺ إلى أن يحلف لهم مؤكداً أنه لن يحرمهم شيئاً من حقوقهم..!! ومن المؤكد أن هؤلاء كانوا من جفاة الأعراب وليسوا من المهاجرين والأنصار. والرسول ﷺ محاصر بين زحامهم دون حرس.. وهو يعرف كيف يهدئهم ويسوسهم ويعيدهم إلى الصواب.. بل ويذكرهم بالدقة في الأمانة..

«أدوا الخياط والمخيط» الإبرة والخيط لا يحل لكم أن تأخذوها من الغنائم قبل القسمة.. فإنها غلول والغلول عار ونار وشنار.

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٣٥٣.

سمع هذه الموعظة رجل من الأنصار كان قد أخذ كبة خيوط يخيط بها برذعة بعيره.. فجاء يعلن عنها ويستأذن.. فيرد عليه النبي ﷺ رداً عجيباً فيه تربية لكل من يسمع.. ولكل من يقرأ إلى يوم القيامة:

«أما حقي فيها فلك»!! يا الله.. أأقف بين يدي الله لأسأل عن خيوط؟! رمى الأنصاري بالكبة من يده خجلاً من الله في هذا الموقف..

فكيف بمن يبلع ويبلع.. ولا يكاد يشبع..؟!

لهف نفسي على المسلمين ماذا حلّ بهم..؟! لقد استباحوا الرشوة والتطفيف والغش.. والظلم ظلمات يوم القيامة..

أين نحن من هديك يا رسول الله..؟! أين من يتورع عن الكبائر قبل الصغائر؟! لقد ربيتهم على الورع في دقائق الأمور. وكنت أنت القدوة الحسنة في الأمانة والزهد والترفع والنزاهة.. وستبقى صفاتك وكلماتك تشع على المؤمنين إلى يوم القيامة.

* * *

الحوار مع المعارض..

وقسم رسول الله ﷺ الغنائم وأعطى لبعض الزعماء من قريش وسائر العرب عطايا سخية يتألف بها قلوبهم. ولم يكن في الأنصار منها شيء قليل ولا كثير.. فوجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله قومه، فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم. فقال: «فيم»؟ قال: فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب، ولم يكن فيهم من ذلك شيء، فقال ﷺ: «فأين أنت من ذلك يا سعد»؟ قال: «ما أنا إلا امرؤ من قومي»، فقال رسول الله ﷺ: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة فإذا

اجتمعوا فأعلمني».. حتى إذا لم يبق من الأنصار أحد إلا اجتمع له أتاه فقال: يا رسول الله قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار حيث أمرتني.. فقام رسول الله ﷺ فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «يا معشر الأنصار ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألَّف بين قلوبكم؟» قالوا: بلى. ثم قال ﷺ: «ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ وبماذا نجيبك؟ المن لله ولرسوله. قال: «والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصُدِّقتم: جئتنا طريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، وخائفاً فأمناك، ومخذولاً فنصرناك» فقالوا: المنّ لله ولرسوله. فقال ﷺ: «أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام؟! أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفسي بيده، لو أن الناس سلكوا شِعباً وسلكت الأنصار شِعباً لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار». فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا بالله ربّاً ورسوله قسماً. ثم انصرفوا وتفرقوا[١].

أول ما يلفت نظرنا في الخبر هو القدرة على المعارضة التي كان يتمتع بها أصحاب النبي ﷺ.. فهم أناس يتصفون بالحرية في التفكير والتعبير وهذا نتاج لأمرين:

أ- صفات العرب من صراحة وبعد عن المكر بشكل عام (حتى قبل الإسلام).

٢- التربية القرآنية التي تعزز الحرية في النفس الإنسانية وتبعدها عن الازدواجية. فالأنصار ينتقدون قسم النبي ﷺ، وسعد يأتي فيصارح النبي بما يدور من كلام.. ويعترف سعد بأنه يشارك قومه في شعورهم واعتراضهم.

(١) البداية والنهاية، ٤/٣٥٨.

وهنا يتصدى النبي ﷺ لعلاج المعارضة..

١ - يأمرهم بجمعهم وحدهم حتى لا يأخذ الأمر طابع التشهير بهم ولومهم على الملأ.

٢ - يبدأ بتذكيرهم بنعمة الله عليهم، وكيف كانوا قبل الإسلام وكيف صاروا.. فيتأثرون مباشرة ويعترفون بفضل الله وفضل رسوله عليهم.

٣ - لكنه يتابع العلاج.. فلا بد من إخراج كل ما يعتلج في قلوبهم من اعتراضات فيقول: ألا تجيبوني؟ لكن الأدب يمنعهم من مواجهة النبي بما في النفس..

لكن الأدب لا يكفي في إنهاء الشكوك وتصفية النفس، ولا بد من إخراج ما في القلب لعلاجه.. فيتصدى رسول الله لعرض ما في النفس من خواطر وردود..

٤ - لكن عرض النبي ﷺ هنا يأتي بأسلوب أخاذ مليء بالمدح والاعتراف بما فيهم من خير وأصالة.. وأنهم قادرون على التسامي أعلى وأعلى.. فكأنه يقول: إنني أعلم أن أدبكم يمنعكم من إطلاق الزمام لأنفسكم.. ولو شئتم لقلتم حقائق لا يملك أحد أن يكذبكم بها..

نعم جئتكم طريداً فآويتموني وخائفاً فأمنتموني و... فلكم الفضل في ذلك يعرفه الله ورسوله لكم وسائر الناس.

٥ - ماذا يمكن أن يقول الأنصار أمام هذا الثناء والإقرار من رسول الله ﷺ؟!

ها هو رسول الله ﷺ ينحاز إليهم ويقول: عندكم حق في كل ما يخطر في بالكم.. فماذا تريدون؟! فتنطلق ألسنتهم بصدق: بل المنّ لله وللرسول..

٦ - وهنا أصبحت النفوس مهيأة للإدراك بعد مسح التشويش منها أتغضبون إن أعطيت بعض ضعاف الإيمان شيئاً من الدنيا لأثبتهم وأكسر عداوتهم بينما تركتكم لإيمانكم الخالص لله والذي لا تزعزعه الغنائم..؟!

ونلاحظ أن النبي ﷺ في مدحه لهم لم يقل إلا صدقاً.. ولو ذكر ما ليس فيهم لكان نفاقاً ممجوجاً.. وينبغي ألا ننسى أنه لا يخلو إنسان من صفات طيبة مهما كان مخطئاً.. ورسول الله ﷺ كان يعرف كيف يلتقط الجوهر من بين الأقذار فيمسحه ويبرز لألاءه.

٧ - وهنا يعطيهم النبي ﷺ عطاء فريداً يملأ قلوبهم بالرضا والنشوة.. فلا تتطلع بعده إلى شيء من الدنيا. ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير وتأخذون أنتم رسول الله..؟! ويمضي في مدحهم وتأكيد حبه لهم.. فلو أن الناس جميعاً سلكوا طريقاً وسلك الأنصار غيره لمشيت وراء الأنصار. ولولا فضل الهجرة لاخترت أن أكون من الأنصار.. وينطلق النبي في الدعاء لهم ولذراريهم.. ولذراري ذراريهم..

فماذا يريدون أكثر من ذلك.. لقد نالوا ما لم ينله أحد.

وإننا نحن حين نقف أمام الخبر.. على بعد الزمان والمكان.. وعدم ارتباطنا بالأشخاص والأحداث التي تجري وقتها.. لا نملك أنفسنا من التأثر والبكاء.. فكيف بالأنصار..؟! لقد غسل رسول الله ﷺ قلوبهم بالحب وفرغها من كل تشويش بحسن التفهم والبيان المؤثر. فانقلب الاعتراض إلى ولاء.

وقد نعجب كيف يُداوَى ضعف الإيمان بالعطاء المادي؟!

لكن هذا ما حصل فعلاً مع بعض الشخصيات.. مثلاً يقول صفوان بن أمية: ما زال رسول الله ﷺ يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إليَّ حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلي منه[1]. فلعل رسول الله ﷺ قد عرف أن بعض الشخصيات المعادية له كانت تعرف أن الإسلام حق والشرك باطل.. لكنها مصابة بأمراض نفسية: كالحقد أو الطمع في الدنيا أو في الزعامة.. فهو يعالجها بالحب والعطاء المادي.. وأتذكر قول الصوفيين هنا (اللهم صلِّ على محمد طبِّ القلوب ودوائها).. لقد كان ﷺ يعرف موضع الإصابة ويعطي الدواء.

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٣٦٠.

وتأمل هذا الخبر الثاني الذي يسوقه أنس بن مالك قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته. قال: مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء[1]. فهو يعالج ويعطي درساً في الصبر وحسن الخلق والدفع بالتي هي أحسن.. وأكثر الناس تحركهم مصالحهم وتصنع ولاءهم.. أما النخبة المؤمنة فيتنبهون إلى المصالح في الآخرة.

* * *

العدل الحرفي.. أم فقه الحالة؟

وسأل رسول الله ﷺ وفد هوازن عن مالك بن عوف (زعيمهم) ما فعل؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف. فقال: «أخبروه أنه إن أتاني مسلماً رددت إليه أهله وماله وأعطيته مئة من الإبل». فلما بلغ ذلك مالكاً انسل من ثقيف حتى أتى رسول الله ﷺ وهو بالجعرانة - أو بمكة - فأسلم وحسن إسلامه، فردَّ عليه أهله وماله، ولما أعطاه مئة قال مالك بن عوف:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... في الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ... ومتى تشأ يخبرك عما في غد

(إلى آخر الأبيات) واستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه وتلك القبائل ثمالة وسلمة وفهم. فكان يقاتل بهم ثقيفاً لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيّق عليهم[2].

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٣٦٠.
(٢) البداية والنهاية، ٤/ ٣٦١.

لقد عرف رسول الله ﷺ مواهب مالك ومكانته في قومه وأدرك أن بقاءه في ثقيف نابع من خوفه من نقمة النبي ﷺ عليه. فوجه إليه هذا النداء الحافل بالعفو والسخاء.. تعال إلينا تربح أنت.. ونربحك نحن..

ومرة أخرى يشعر النبي ﷺ بالعتاب يجول في قلوب بعض أصحابه فيقول: «إني أعطي قوماً أخاف هلعهم وجزعهم، وأكل قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى منهم عمرو بن تغلب» قال عمرو: فما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النَّعم[1] وذلك لأنه تلقى شهادة عالية من رسول الله ﷺ بأن قلبه مليء بالخير والغنى.. وهو أقصى ما يتمناه المؤمن.

لكن بعض أصوات المعارضة خرجت عن حدود الأدب مع رسول الله وأخذت طابع الاحتجاج الأرعن المتطاول على النبي ﷺ.. فماذا فعل بها ﷺ؟!

قال رجل (عن قسمة النبي للغنائم): والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها وما أريد فيها وجه الله. فقلت (أي راوي الحديث): والله لأخبرن رسول الله ﷺ، فأتيته فأخبرته فقال: «من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟! رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[2].

ويقول جابر: أتى رجل بالجعرانة النبي ﷺ منصرفه من حنين وفي ثوب بلال فضة ورسول الله ﷺ يقبض منها ويعطي الناس، فقال: يا محمد اعدل(؟!!) قال ﷺ: «ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل لقد خبتُ وخسرت إذا لم أكن أعدل». فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق؟ فقال ﷺ: «معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يتجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية»[3] وفي رواية أخرى

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم عن الليث.

أن رجلاً من تميم يقال له ذو الخويصرة هو الذي قال ذلك وأن رسول الله ﷺ قال عنه: «دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الإسلام». قال أبو سعيد فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ وأشهد أن علياً قاتلهم وأنا معه[1].

هنا نجد النبي ﷺ يتمالك غضبه ويرفض اقتراح عمر بقتل الرجل.. فكيف يقبل الناس على الإسلام إن سرت إشاعة تقول إن النبي ﷺ يقتل أصحابه..؟!

ثم إن المعارضة مهما كانت شديدة لا تعالج بالتصفية الجسدية مادامت أنها لم تتجاوز حدود الكلام لتصبح خروجاً على المجتمع ومحاربة لله ورسوله.

لكن رسول الله ﷺ ينتهز الفرصة لينبه أصحابه إلى خطورة ظهور هذا الاتجاه الفكري بين المسلمين.. فما سمات هذا الاتجاه؟

الحرص على أشكال العبادة.

الحرص على قراءة القرآن.. وربما حفظه..

لكنهم لا يتدبرون القرآن ولا يفهمون مقاصده..

الرؤيا الأحادية للموضوع (من زاوية واحدة)

فقدان الأدب في الحوار وفي النقد.

وهذا ما يجعلهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية.. يخرجون من مقاصد الدين رغم تمسكهم بأشكاله.

هؤلاء الذين يقيسون الأمور بقوالب جامدة.. ولا قدرة لهم على الاعتراف بأهون الشرّين.. ولا مراعاة الملابسات والظروف والاجتهاد للوصول إلى أفضل العواقب..

---

(١) في الصحيحين.

هؤلاء الذين حوَّلوا التقوى إلى تشنج.. والدين إلى تعصب..

هؤلاء الذين فقدوا أخلاق الاختلاف.. بل لم يؤمنوا بالاختلاف كلياً..

هؤلاء الذين ضيقوا واسعاً.. وحولوا اليسر عسراً.. وكفروا كل من يخالفهم في الرأي والفهم.. الذين يتشبثون بالحرفيّة ويرفضون فقه الحالة.

هؤلاء الذين تمسكوا بالحروف والأشكال وغاب عنهم اللب والجوهر..

هؤلاء الذين فقدوا (المفاصل الفكرية) فعجزت عقولهم عن الحركة يتصورون أنهم يعيدون للإسلام مجده برفضهم كل مرونة وكل رؤية جديدة وكل اجتهاد آخر يغاير نظرتهم وقوالبهم..

هؤلاء هم مأساتنا.. أمام عالم يتغير وينمو بسرعة الصاروخ.

* * *

ما شأن تلك الأعرابية؟!

وذكروا أن الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى (أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة) قد سيقت مع السبي. فقالت للمسلمين: تعلمون والله إني لأخت صاحبكم من الرضاعة؟ فلم يصدقوها حتى أتوا بها رسول الله ﷺ.. فقالت: يا رسول الله إني أختك من الرضاعة. قال: «وما علامة ذلك»؟ قالت: عضة عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك. فعرف رسول الله ﷺ العلامة فبسط لها رداءه فأجلسها عليه وخيرها وقال: «إن أحببت فعندي محببة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلتُ؟» قالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي، فمتعها رسول الله ﷺ وردها إلى قومها[١]. فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غلاماً وجارية.

---

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٣٦٣ - ٣٦٤.

نرى في الخبر رسول الله ﷺ يتحقق من ادعاء الشيماء.. صحيح أن رسول الله ﷺ كان هيناً ليناً في معاملته للناس.. وقد يتجاوز عمن يكذب وينافق أمامه.. لضرورات علاجية فردية واجتماعية.. لكنه لم يكن من النوع الذي يُصدّق كل دعوى.

فلما تحقق من هوية أخته خفض لها جناحه حتى يخلع رداءه لتجلس عليه.. مثل هذا السلوك في بيئة عربية فيها جلافة البدو.. يعتبر أمراً مبهراً وخاصة أنه يصدر من نبي ظهر على قومه.. مع امرأة بدوية..!!

ويواصل إكرامه فيخيرها بين أن تبقى عنده معززة مكرمة.. وبين أن ينعم عليها ويردها إلى قومها.

* * *

درهم في كل يوم..

وخرج رسول الله ﷺ من الجعرانة ليلاً حين أمسى معتمراً فدخل مكة ليلاً يقضي عمرته. ثم خرج من تحت ليلته فأصبح بالجعرانة كبائت. حتى إذا زالت الشمس خرج من الجعرانة في بطن سرف حتى جاء مع طريق المدينة[(١)].. راجعاً إلى المدينة واستخلف عتاب بن أسَيد على مكة وخلف معه معاذ بن جبل يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن. وجعل لعتاب رزقاً كل يوم درهماً. فقام فخطب الناس فقال:

أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم فقد رزقني رسول الله ﷺ درهماً كل يوم فليست لي حاجة إلى أحد[(٢)]. ووصل ﷺ المدينة في أواخر ذي القعدة. وكانت عمرته في ذي القعدة.

---

(١) البداية والنهاية، ٣٦٦/٤.

(٢) المصدر السابق، ٣٦٨/٤. وقد ذكر فيه أنه ﷺ حج مرة واحدة واعتمر أربع مرات.

بعض الباحثين أنكر أن رسول الله ﷺ اعتمر من الجعرانة في ذلك الوقت. ويعلل ابن كثير ذلك بأنه ﷺ اعتمر ليلاً وعاد فبات بالجعرانة.. وهذا ما جعل عدداً من أصحابه لا ينتبهون إلى عمرته.. وكأن رسول الله ﷺ أرادها عبادة خاصة به فلم يعلنها ولم يطلب من أحد مرافقته.

ويترك في مكة أميراً ومعه معلم يعلم الناس دينهم.. كل بحسب اختصاصه، وفي ذلك تنظيم إداري وفرز للسلطات فلا تتشابك.

ويخطب الأمير خطاباً طريفاً.. يدعو فيه على كل جشع لا يشبع.. وكأنه يقول: من لم يقنع بالقليل فلا تشبع عينه أبد الدهر.. ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب. ماذا تريد أكثر من قوت يومك؟ وهل تضمن الحياة لغد..؟!

❀ ❀ ❀

نبئت أن رسول الله أوعدني..

ولما قدم رسول الله ﷺ من منصرفه عن الطائف كتب بجير بن زهير بن أبي سلمى إلى أخيه لأبويه كعب بن زهير يخبره أن رسول الله ﷺ قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه وأن من بقي من شعراء قريش: ابن الزبعرى[1] وهبيرة بن أبي وهب هربوا في كل وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض. وكان كعب قد قال: (لأخيه بجير عندما سبقه إلى رسول الله ليعرف حقيقة ما جاء به. فأسلم):

---

(١) وكان حسان بن ثابت قد رمى ابن الزبعرى وهو بنجران ببيت واحد ما زاد عليه:

لا تَعْدَمَنْ رجلاً أحلّك بغضُه ... نجرانَ في عيشٍ أحذَّ لئيمِ

(أي هذا الرجل الذي جعلك بغضه تفر إلى نجران وعيشها اللئيم تقدر على كسب رضاه وحمايته). فلما بلغ ذلك ابن الزبعري خرج إلى النبي ﷺ فأسلم ومدحه بشعر. البداية والنهاية، ٣٠٨/٤.

ألا بلغا عني بجيراً رسالة ... فويحك فيما قلتَ ويحك هل لكا

فبين لنا إن كنت لست بفاعل ... على أي شيء غير ذلك دلكا

على خُلُق لم ألفَ يوماً أباً له ... عليه وما تلقى عليه أباً لكا

سقاك بها المأمون كأساً روية ... فأنهلك المأمون منها وعلّكا

وبعث بها إلى بجير. فلما أتت بجيراً كره أن يكتمها رسول الله ﷺ فأنشده إياها. فقال ﷺ لما سمع (سقاك بها المأمون): «صدق وإنه لكذوب أنا المأمون». ولما سمع (على خلق لم ألفَ أماً ولا أباً عليه) قال: «أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه». ثم كتب بجير إلى كعب يقول:

من مبلغ كعباً فهل لك في التي ... تلوم عليها باطلاً وهي أحزم

إلى الله لا العزى ولا اللات وحده ... فتنجو إذا كان النجاء وتسلم

لدى يومَ لا ينجو وليس بمفلت ... من الناس إلا طاهر القلب مسلم

فلما بلغه الكتاب ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه وأرجف به من كان في حاضره من عدوه وقالوا: هو مقتول. فلما لم يجد من شيء بداً قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ، وذكر فيها خوفه وإرجاف الناس الوشاة به من عدوه، ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة... فغدا به إلى رسول الله ﷺ في صلاة الصبح فصلى مع رسول الله ﷺ ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ فقال: هذا هو ﷺ فقم إليه فاستأمنه. فذكر لي أنه قام إلى رسول الله ﷺ فجلس إليه ووضع يده في يده، وكان ﷺ لا يعرفه. فقال: يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن جئتك به؟ فقال ﷺ: «نعم»، فقال: إذاً أنا يا رسول الله كعب بن زهير.. فوثب عليه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه؟ فقال ﷺ: «دعه

عنك فإنه جاء تائباً نازعاً»، فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار فقال قصيدته (يمدح النبي ثم المهاجرين)[١]، ومنها هذه الأبيات:

وقال كل صديق كنت آمله ... لا ألهينك إني عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكم ... فكل ما قدر الرحمن مفعول
نبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول
إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا

وقد ورد في بعض الروايات أن رسول الله ﷺ أعطاه بردته حين أنشده القصيدة.. يقول ابن كثير: وهذا من الأمور المشهورة جداً، ولكن لم أر ذلك في شيء من هذه الكتب المشهورة بإسناد أرتضيه، فالله أعلم[٢].

ويقال: إن رسول الله ﷺ قال له حين أنشده (بانت سعاد): «لولا ذكرت الأنصار بخير فإنهم لذلك أهل»[٣] فقال قصيدة فيهم.

لا بد أن نتذكر قبل كل شيء مكانة الشعر في ذلك العصر فهو وسيلة التأثير والإعلام، فالهجاء في الشعر حرب أشد وقعاً من السيوف. ولهذا كان من يهجو بشعره النبي ﷺ والإسلام يعتبر محارباً من أول طراز.

والأمر الثاني الذي يثير العجب هو أن هذا الشاعر افتتح قصيدته بثلاثين بيتاً في الغزل بـ (سعاد) ينشدها أمام رسول الله وفي مسجده. وذلك وفقاً لعرف درج عليه الشعراء في ذاك الزمان من أن يفتتحوا شعرهم بالغزل أو البكاء على

---

(١) ومطلعها:
بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم عندها لم يفد مكبول
(٢) البداية والنهاية، ٤/٣٦٨ - ٣٧٣.
(٣) المصدر السابق، ٤/٣٧٤.

الأطلال. ورسول الله ﷺ لا ينكر عليه.. سوى أن يسأله (في إحدى الروايات): من سعاد؟ فيقول: هي زوجتي.. فيقول ﷺ: لم تبن[١]، (وكأنه يطمئنه إلى أنها لن تفارقه).

وباقي القصة شبيه بكثير مما كان يجري من سعي المسلمين لإنقاذ ذويهم وأصدقائهم من الكفر.. واستقبال النبي ﷺ للجميع بالعفو والترحيب والإكرام.

وثورة الأنصاري تدل على أن ذنب كعب كان كبيراً.. ولكن عفو النبي ﷺ أكبر.. ثم إنه يطلب بتلطف من كعب أن يمدح الأنصار ليزيل كل شحناء من القلوب.. لا تنس يا كعب أنهم أهل لكل خير وإنما يغضبون لنصرة الله ورسوله.

وليس غريباً أن يخلع النبي ﷺ بردته لكعب.. فإن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة.

* * *

طفل بعد كل هذه السنين..؟!

في ذي الحجة من هذه السنة (الثامنة) ولد إبراهيم بن رسول الله ﷺ من مارية القبطية. وكانت قابلتها فيه سلمى مولاة رسول الله، فخرجت إلى أبي رافع (زوجها) فأخبرته، فذهب فبشر به رسول الله ﷺ، فأعطاه مملوكاً. ودفعه رسول الله ﷺ إلى أم بردة بنت المنذر[١] (من بني النجار) لترضعه.

ولنا أن نتخيل مدى فرحة النبي ﷺ بهذا المولود الذي جاءه بعد أن مات كل أولاده إلا فاطمة رضي الله عنها.. وقد حرم الولد من كل نسائه (إلا خديجة).

(١) البداية والنهاية، ٤/ ٣٧٤.

ولا شك بأن أمهات المؤمنين قد اشتدت بهن الغيرة من مارية التي وهبها الله ما لم يهبهن.. فأسعدت رسول الله ﷺ بهذا الولد بعد طول حنين.. ولقد رأيناه صلوات الله عليه يستخفه الفرح بولادة أحفاده الحسن والحسين فيحملهما ويداعبهما في البيت والمسجد وفي كل مكان.. فكيف به وهو يرزق بالولد على الكبر..؟! إن فرحته أعظم من أن يتمالكها وهو ما يؤجج نار الغيرة في أمهات المؤمنين وخاصة عائشة رضي الله عنها..

لكن رسول الله ﷺ سرعان ما فجع بهذا الطفل.. وقبل أن يكمل عامه الثاني في السنة العاشرة.. لحكمة عالية يعلمها الله. فلقد أراد الله ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٠] تخفيفاً على أمته من الفتن.. وحسماً لموضوع ختم النبوة فلا تُورَّث. فالحمد لله على كل حال.

* * *

هل انتهت الأصنام؟

وهدمت في هذه السنة أصنام عديدة: فقد ذكرنا هدم خالد لبيت العزّى بنخلة. وهدم سواع الذي كانت تعبده هذيل برهاط، هدمه عمرو بن العاص ولم يجد في خزانته شيئاً. وهدم مناة بالمشلل وكان الأوس والخزرج يعظمونه هدمه سعد بن زيد الأشهلي. وهدمت (الكعبة اليمانية) التي كانت تعبدها خثعم. وكانوا يقولون عن التي بمكة: الكعبة الشامية. وهي التي قال عنها رسول الله ﷺ لجرير[1]: «ألا تريحني من ذي الخلصة؟» فقلت: بلى. فانطلقت في خمسين ومئة فارس من أحمس، وكانوا أصحاب خيل وكنت لا أثبت على الخيل فذكرت ذلك للنبي ﷺ فضرب يده في صدري حتى رأيت أثر يده في صدري وقال: «اللهم ثبّته واجعله هادياً مهدياً» فما وقعت عن

---

(١) هو جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

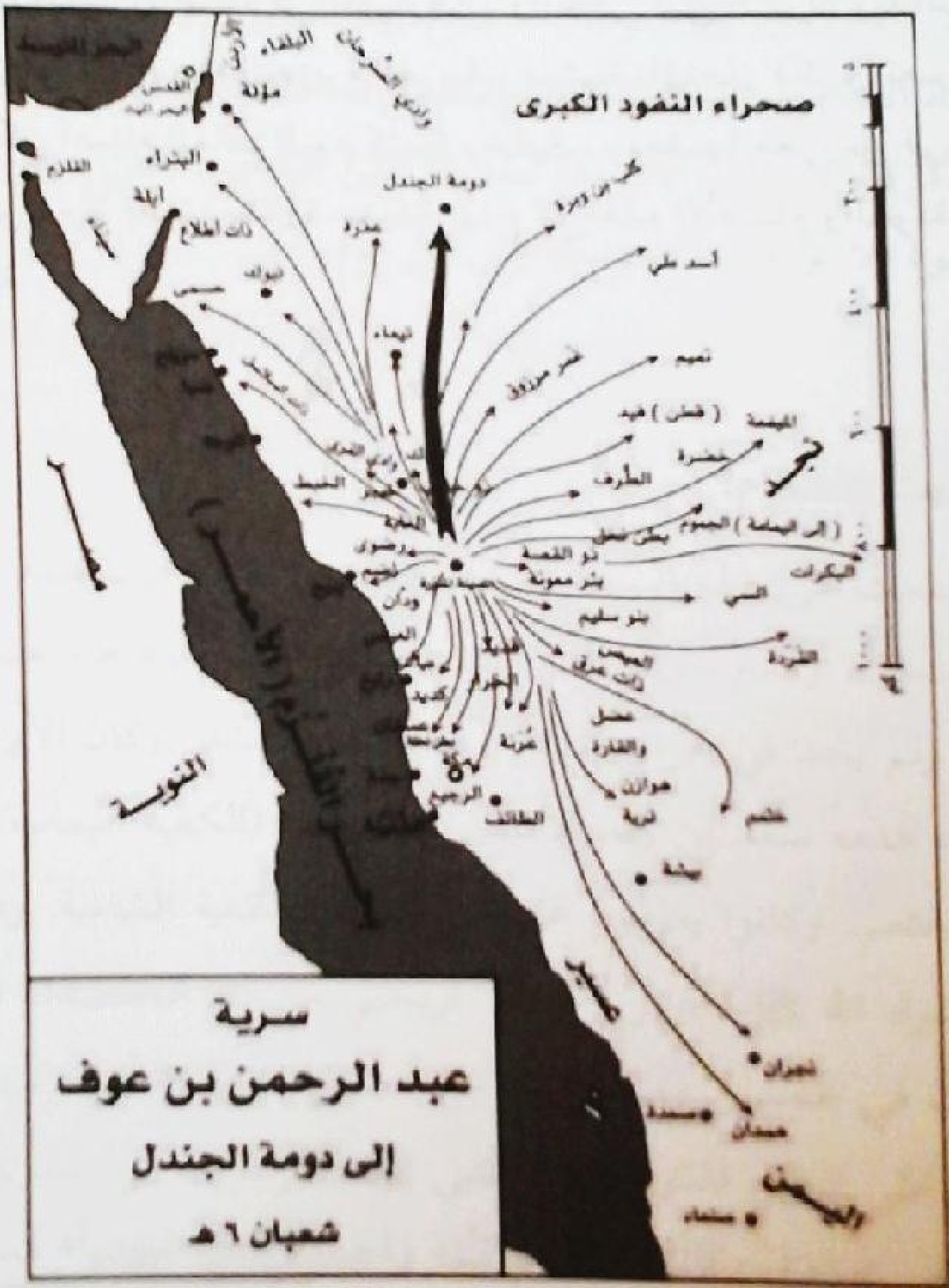
فرس بعد. وكان ذو الخلصة بيتاً باليمن لخثعم وبجيلة فيه نصب تعبد يقال له: الكعبة اليمانية. فأتاها فحرقها في النار... وكان بها رجل يستقسم بالأزلام فقيل له: إن رسول رسول الله ﷺ ها هنا فإن قدر عليك ضرب عنقك. فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير فقال: لتكسرنّها وتشهد أن لا إله إلا الله أو لأضربن عنقك. فكسرها وشهد. ثم بعث جرير رجلاً من أحمس إلى النبي ﷺ يبشره بذلك.. فبارك رسول الله ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات[(١)].

وهكذا تلاحقت الأصنام في انهيارها.. وانجلى ليل الشرك وبدأت أشعة الإسلام تنتشر في كل أرجاء الجزيرة العربية.. مبشرة بازدهار فكري تعم خيراته العالم كله. لكن أصنام العالم اليوم كثيرة وخفية.. وبعضها مغروس في أعماق القلب والنفس.. ولا بد من بشارة جديدة بهدم كل هذه الأصنام والعودة إلى الله بقلوب خالصة.

* * *

(١) البخاري.

٧- نـــور الإســـلام
يتاخم الحدود



خريطة غزوة دومة الجندل

لماذا الخروج إلى تبوك؟

قبل الانطلاق إلى غزوة تبوك لا بد من تلمس الأحداث التي ساقت إليها. في كتابه (دراسة في السيرة) يستعرض الدكتور عماد الدين خليل تدهور العلاقات بين بيزنطة والمسلمين على أنها إحساس بخطر تنامي قوة ذلك المجتمع الوليد، وليس دفاعاً عن النصرانية. يقول:

(وبمرور الوقت واتساع نفوذ الإسلام شمالاً ووصول أنباء انتصاراته على الوثنية واليهودية إلى قبائل الشمال بدأ المعسكر البيزنطي يفتح عينيه على الخطر المحدق بوجوده من جهة الجنوب. وأغلب الظن أن الإمبراطور البيزنطي وكبار قادته تصوروا الأمر - في بدايته - مجرد اندفاع قبلي كبير صوب الشمال أو محاولة إمارة عربية ناشئة توسيع رقعتها الجغرافية كما كانت تفعل إمارة (كندة) أو (تدمر) على سبيل المثال. ورأوا أن بإمكان حلفائهم العرب أنفسهم أن يكفوا الدولة البيزنطية عناء وقف هذا الامتداد، وصدّ هذه الإمارة الطموحة عن الامتداد إلى الشمال... وأغلب الظن أن هذا الاعتقاد هو الذي دفع القبائل القاطنة في دُومَةِ الجندل في أقصى الشمال والتي يتزعمها أكيدر بن عبد الملك الكندي الذي يدين بالنصرانية ويخضع لهرقل إلى أن تتجمع وتتهيأ في زحف سريع لضرب المسلمين في المدينة (في ربيع الأول من السنة الخامسة للهجرة) إلا أن الرسول ﷺ أخذ زمام المبادرة، وتحرك بسرعة صوب الشمال على رأس ألف من أتباعه.. ومن أجل أن يباغت القوم في ديارهم أخذ يسير بأصحابه ليلاً ويكمن نهاراً.. فجعلت القبائل العربية القاطنة هناك تهرب من بين يديه... وقفل الرسول عائداً دون أن يلقى من العدو كيداً. وهكذا يمكن اعتبار غزوة (دومة الجندل) هذه أول حلقة في سلسلة الصراع الحربي بين عالمي الإسلام والنصرانية... ولم يمضِ سوى عام وبعض عام حتى أرسل ﷺ عبد الرحمن بن عوف (شعبان السنة السادسة) لقتال قبيلة كلب النصرانية في المنطقة نفسها وقال له: «اغز باسم الله وفي سبيل الله، فقاتل من كفر بالله، لا تغل ولا تغدر

ولا تقتل وليداً»، وطلب منه أن يتزوج ابنة ملكهم إن استجابوا له تعزيزاً للعلاقات بين الطرفين... فأسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي أميرهم وأسلم معه ناس كثيرون من قومه. بينما وافق الآخرون على الاستمرار في الجزية مع البقاء على دينهم. ونفذ عبد الرحمن أمر الرسول وتزوج تماضر ابنة الأصبغ وقدم بها المدينة... وأدركت القبائل الضاربة هناك أن حجم القوة الإسلامية وقدرتها على التحرك أكبر مما كانت تظن... وربما بلغ ذلك القيادة البيزنطية نفسها فكفت عن تكرار المحاولة... مما أتاح للمسلمين تحقيق انتصاراتهم على الوثنية.. وتصفية المواقع اليهودية في الشمال.. وقيام رسولهم ﷺ (بمكاتبة ملوك وأمراء العالم بما فيهم الإمبراطور البيزنطي وأتباعه الغساسنة) ونعرف (مما سبق أن سقناه من أخبار هذه الرسائل) أن الإمبراطور أظهر الحفاوة والاهتمام بمبعوث النبي ﷺ وآثر التأني والتريث أمام دعوته. بينما غضب المنذر بن الحارث الغساني أمير دمشق.. وهمَّ بأن يسيّر الجيوش لملاقاة المسلمين، وكتب إلى قيصر يطلعه على ذلك فأمره بأن يتريث.

(وكانت حادثة مقتل الحارث بن عمير الأزدي مبعوث الرسول ﷺ إلى ملك بصرى على يد شرحبيل بن عمرو الغساني في مؤتة هي التي استفزت الرسول ﷺ لتأديب عرب الشمال الموالين للبيزنطيين)[(١)]. وكانت غزوة مؤتة التي أرسل فيها الإمبراطور البيزنطي مئة ألف من الروم للقضاء على المسلمين..

(ولم يمض شهر واحد على معركة مؤتة حتى بلغ الرسول أن جمعاً من قضاعة القاطنين في الشمال والموالين للروم قد تجمعوا يريدون القيام بهجوم على أطراف الدولة الإسلامية. فأرسل عمرو بن العاص على رأس ثلاث مئة من أبطال المهاجرين والأنصار)[(٢)]، ثم أمده بأبي عبيدة بن الجراح.. وكانت غزوة ذات السلاسل، التي مكنت للنفوذ الإسلامي في أقصى الشمال. (وبعد عودة

---

(١) المصدر السابق، ص٢٩٤.

(٢) المصدر السابق، ص٣٠٠.

الرسول ﷺ إلى المدينة.. وبعد انتصاره في حنين، بلغته أنباء خطيرة عن تحركات يعتزم الروم وحلفاؤهم العرب من لخم وجذام وغسان وعاملة القيام بها ضد الدولة الإسلامية قبل أن يشتد ساعدها.. وتشكل خطراً حاسماً على الوجود البيزنطي في بلاد الشام. وقد قامت هذه القبائل فعلاً بإرسال طلائعها إلى البلقاء. كان الوقت صيفاً والصحراء تحترق ناراً والبلاد تعاني جدباً.. والطريق طويل والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم.. لكن السكوت على التحرك البيزنطي معناه الانحدار.. وفي معظم الغزوات كان الرسول ﷺ لا يحدد هدفه العسكري زيادة في الكتمان.. أما في غزوة تبوك فقد بينه للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدد)[١] هذا الاستعراض التاريخي ضروري لإنزال تبوك في مكانها المناسب. ولإدراك طبيعة الصراع في ذلك العصر مع بيزنطة التي كانت مصممة - رغم هرمها وتفسخها - على القضاء على المجتمع الوليد الذي ينذر باكتساحها.

* * *

أصحاب الدرك الأسفل

وأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم ودعا من حوله من أحياء الأعراب للخروج معه[٢]. وذلك في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص..وذات يوم - وهو يتجهز - قال للجد بن قيس أحد بني سلمة: «يا جد هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله أوَتأذن لي ولا تفتنّي فوالله لقد عرف قومي أنه ما رجل بأشد عجباً بالنساء مني وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر الا أصبر. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال:

(١) المصدر نفسه، ص٣٠١.
(٢) وذلك في رجب من سنة تسع.

«أذنت لك» فنزلت فيه الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ٤٩].

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض لا تنفروا في الحر؛ زهادة في الجهاد وشكاً في الحق وإرجافاً بالرسول ﷺ فأنزل الله فيهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ٨١].

وهكذا وجد رسول الله ﷺ أنه لا بد من مواجهة التحدي البيزنطي رغم قساوة الظروف، فكانت غزوة تبوك هي (غزوة العسرة)، وفيها تمحيص كبير لمجتمع الرسول ﷺ كشف عن معادن الناس وصنّفهم في درجات ومستويات.. ففي أسفل السلم قعد المنافقون الذين انتحلوا الأعذار واستأذنوا في التخلف.. ومنهم عينات ذكرت في هذه الصفحة. وفي أعلى السلم: الذين جاهدوا بأنفسهم وأموالهم إذ جهزوا الجيش بالعدة والعتاد.. وبين هذين المستويين درجات مختلفة سنحاول تأملها.

* * *

أصحاب القمة..

وخطب النبي ﷺ فحث على جيش العسرة (أي على تجهيزه)، فقال عثمان بن عفان: عليَّ مئة بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم نزل مرقاة من المنبر ثم حث، فقال عثمان: عليَّ مئة أخرى بأحلاسها وأقتابها. فحرك رسول الله ﷺ يده كالمتعجب وقال: «ما على عثمان ما عمل بعد هذا»[1]. وفي رواية أخرى أن عثمان أنفق في جيش العسرة ألف دينار فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض»[1].

(١) البداية والنهاية، ٥/ ٤.

وجاء أبو بكر بماله كله: أربعة آلاف درهم، فقال له ﷺ: هل أبقيت شيئاً؟ فقال: الله ورسوله أعلم. وجاء عمر بنصف ماله[١].

وحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا أجرهم عند الله.

هؤلاء كانوا منارات في البذل وقد اجتازوا الامتحان برؤوس عالية.. ونالوا النصيب الأوفى من الأجر عند الله والثناء من رسوله.

* * *

أصحاب الدرجة الثانية

وهم الذين خرجوا ملبّين استنفار رسول الله ﷺ كل حسب إمكانياته، ويلحق بهم من لم يكن معه ما يتجهز به فجهزه غيره فخرج للجهاد.

نسمع مثلاً هذا الخبر: لقي ابن يامين بن عمير بن كعب النضري، لقي أبا ليلى عبد الرحمن بن كعب وعبد الله بن مغفّل وهما يبكيان فقال: ما يبكيكما؟ قالا: جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه. وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه. فأعطاهما ناضحاً له (الجمل الذي يستقى عليه الماء) فارتحلا (وضعا عليه الرحل)، وزوّدهما شيئاً من تمر. فخرجا مع رسول الله ﷺ[٢].

وهذا أبو موسى الأشعري يحدثنا: أتيت رسول الله ﷺ في رهط من الأشعريين ليحملنا فقال: «والله ما أحملكم وما عندي ما أحملكم عليه». ثم جيء رسول الله ﷺ بنهب إبل فأمر لنا بست ذود غر الذرا فأخذناها ثم قلنا: أغفلنا رسول الله ﷺ يمينه والله لا يبارك لنا، فرجعنا له فقال: «ما أنا

(١) دراسة في السيرة، ص٣٠٦.
(٢) تهذيب سيرة ابن هشام، ص٢٨٧.

حملتكم ولكن الله حملكم» ثم قال: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها»[١].

ففي الخبر الأول نجد الرجلين يبكيان لعدم قدرتهما على الخروج للجهاد ونيل الشهادة فما أروع هذا الموقف.. وحين تتاح لهما فرصة التجهز بالحد الأدنى من الإمكانيات-جمل واحد يتناوبان عليه وكيس من تمر- يسارعان بالخروج.

والذي قدم لهما المساعدة: ابن يامين يهودي الأصل.. أفأسلم أم ما زال يعيش بين المسلمين حرّاً في دينه؟! لا ندري. لكنه متعاطف مع المسلمين ويجود عليهما بما كان يملك: جمل كان يستقي عليه الماء وبعض التمر.. مستويات رائعة.

وفي الخبر الثاني نجد رسول الله ﷺ مهموماً بحاجات المسلمين وكيف يجهز الجيش.. فحين يسأله أبو موسى أن يحملهم يحلف غاضباً ألا يفعل.. وحين تأتيه بعض الغنائم من الإبل يذكرهم ويعطيهم.. ثم يذكرون يمين النبي ﷺ ويخافون من الحنث فيراجعون النبي ﷺ فيقول: لست أنا الذي حملتكم ولكن الله ساق لنا هذا الرزق. ثم يعطيهم درساً في مقاصد الشريعة: اليمين يسقط أمام ظهور خيار أفضل.. فلا تتشبث بالحروف وتترك المعنى والجوهر.. كفِّر عن يمينك وائت الخير.

* * *

البكّاؤون..

وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم - وذكروا أسماءهم - أتوا رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يحملهم على الدواب ليخرجوا معه إلى الجهاد وكانوا أهل حاجة.

---

(١) البخاري ومسلم.

فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون[١]. فهؤلاء أثنى الله على موقفهم وعذرهم ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ٩٢]. وفي مثل هؤلاء قال ﷺ: «إن بالمدينة رجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض»[٢]. فهم معكم بقلوبهم وعقولهم وأمانيهم.. لقد ملكوا الإرادة وأعوزتهم القدرة فلم يقدروا على تحقيق أهدافهم.. لكن الله عذرهم ولا يكلفهم إلا وسعهم. وكل أمر يحتاج لتحقيقه إلى إرادة وقدرة.

ولقد كشفت هذه الغزوة عن ثلاثة أنماط في المجتمع المسلم:

١ - ناس ملكوا الإرادة والقدرة فخرجوا إلى الجهاد وفازوا برضى الله ورسوله.

٢ - وناس ملكوا الإرادة ولم تكن لهم قدرة فلم يخرجوا فأثنى عليهم الله وعذرهم.

٣ - وناس ملكوا القدرة لكنهم ما خرجوا لفقدان الإرادة عندهم كالمنافقين الذين فضحهم الله عندما كانوا يحاولون الاعتذار من النبي ﷺ عن الخروج فقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ٤٦]. وهناك صنف رابع ملك القدرة لكن ضعف إرادته جعله يتخلف.. وسنتحدث عنهم فيما بعد.. كيف عوقبوا ثم أعيدوا إلى الصف الصادق..

● ● ●

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص٢٨٧.
(٢) رواه مسلم، وفي رواية البخاري: «حبسهم العذر».

صدقة فريدة..!!

خرج علبة بن زيد[(١)] من الليل فصلى من ليلته ما شاء الله ثم بكى وقال: اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها في مال أو جسد أو عرض. ثم أصبح مع الناس. فقال رسول الله ﷺ: «أين المتصدق هذه الليلة»؟ فلم يقم أحد. ثم قال: «أين المتصدق فليقم» فقام إليه فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «أبشر فوالذي نفسي بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة»[(٢)]. كيف أعلّق على هذا الخبر؟!

رجل فهم دينه وأحبَّ ربّه إلى درجة الوجد وعشق الفناء في سبيله..

رجل يرفض فكرة العجز وفقدان القدرة.. يرفض أن يقول: لا أستطيع فعل شيء.

رجل يدرك قدراته ويعرف نفسه وحدود ما تملك فهو غني عند الله ويملك الكثير.. فكم صبر على إساءات.. وكم تجاوز عن أخطاء ارتكبت بحقه ولم يرد عليها بالمثل.

رجل لا يملك مالاً.. لكنه يملك حسنات كثيرة عند الله.. فلم لا ينفق منها..؟! ويناجي ربّه باكياً في الليل.. يا ربّ أريد أن أجاهد.. أريد أن أنفق.. وإني أهب كل من أخطأ بحقي عفوي.. صدقة لوجهك فتقبل مني[(٣)]..

ويأبى الله إلا أن يكشف لنا سر هذه النجوى.. لنرى إلى أي مرتقى يسمو هذا الإنسان حين يحب ربّه ويفهم عليه مقاصده.. الآن أفهم أكثر قول الله تعالى لملائكته عن هذا الإنسان: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) وهو أحد البكائين.

(٢) البداية والنهاية، ٥/٥.

(٣) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾. وهي ثروة يملكها كل إنسان.. فهل من مدّكر؟!

أبشر يا علبة.. فهذا رسول الله ﷺ يعبر لك عن إعجابه ويبشرك بقبول هذه الصدقة الفريدة.

❀ ❀ ❀

مَنْ أُمِرَ بالتخلف

وخرج رسول الله ﷺ لهذه الغزوة في رجب من السنة التاسعة للهجرة وخرج معه أكثر من ثلاثين ألفاً من الناس عسكر بهم على ثنية الوداع. وخرج عبد الله بن أبي فضرب عسكره أسفل منه.. لكنه سرعان ما تخلف عن النبي في طائفة من المنافقين وأهل الريب (كما فعل في يوم أُحد)، وخلّف رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة الأنصاري وقد استخلفه على المدينة. كما خلّف علي بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلّفه إلا استثقالاً له وتخففاً منه. فأخذ علي سلاحه ثم خرج حتى لحق برسول الله ﷺ، وهو نازل بالجرف، فأخبره بما قالوا فقال ﷺ: «كذبوا ولكني خلفتك لما تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟!»، فرجع علي ومضى رسول الله ﷺ في سفره[1].

أتعجب من حال المنافقين فهم قاعدون متخلفون.. لكنهم يُجرّحون من بقي في المدينة بأمر النبي ﷺ لأداء مهمة.. فلا يسلم من أذاهم الخارج ولا القاعد..

وعلي يتألم مما يقال.. كيف وهو ابن عم النبي ﷺ وصهره وقد بات في فراشه يوم الهجرة يفتديه بروحه..!! أمثله يقال عنه ذلك؟!

---

(١) البداية والنهاية، ٥/٧.

فيمسح النبي ﷺ ألمه ويداوي جرحه.. برفعه إلى منزلة عليا.. فيذكره بمنزلة هارون من موسى.. لكن حذار من التباس الأمر فإنه لا نبي بعد رسول الله ﷺ.. وكل عظيم مهما علا فإنه تحت مقام النبوة.

* * *

إن يك فيه خير سيلحق بكم

وتأخر أبو خيثمة عن الخروج مع رسول الله ﷺ أياماً.. فقد كان له بستان يجذ ثماره (فيما يبدو). فرجع مرة إلى أهله في يوم حار. فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت فيه ماء وهيأت له فيه طعاماً، فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال: رسول الله ﷺ في الضح والريح والحر وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم؟! ما هذا بالنَّصَف.. والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيِّئا زاداً، ففعلتا، ثم قدم ناضحه فارتحله ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك - وكان أدرك خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق يطلب رسول الله ﷺ فترافقا، حتى إذا دنَوَا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير: إن لي ذنباً فلا عليك أن تَخَلَّف عني حتى آتي رسول الله ﷺ ففعل، حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة» فقالوا: يا رسول الله هو والله أبو خيثمة. فلما بلغ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ فقال له: «أولى لك يا أبا خيثمة»[(١)]. ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر فقال خيراً ودعا له بخير[(٢)].

---

(١) أي دنوت من الهلكة.

(٢) البداية والنهاية، ٥/٧.

وفي الطريق كان يتأخر ناس ويتخلف آخرون. يقول الأصحاب: يا رسول الله تخلف فلان.. فيقول: «دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه» حتى قيل: يا رسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره فقال ﷺ: «دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم..» فتلوَّم[١] أبو ذر بعيره فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فجعله على ظهره ثم خرج يتبع رسول الله ﷺ ماشياً.. ونزل رسول الله ﷺ بعض منازله ونظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله إن هذا الرجل ماشٍ على الطريق فقال ﷺ: «كن أبا ذر»، فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله هو والله أبو ذر، فقال ﷺ: «يرحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده»... ويتحدث عبد الله بن مسعود بعد ذلك: لما نفى عثمان أبا ذر إلى الرَّبَذَة وأصابه بها قدَره لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه، فأوصاهما: أن غسلاني وكفّناني ثم ضعاني على قارعة الطريق فأول ركب يمر بكم فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه. فلما مات فعلا ذلك به ثم وضعاه على قارعة الطريق. وأقبل عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق عُمَّاراً (أي معتمرون) فلم يرعهم إلا الجنازة على ظهر الطريق، قد كادت الإبل تطؤها، وقام إليهم الغلام فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه. فاستهلَّ ابن مسعود يبكي ويقول: صدق رسول الله ﷺ: تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك. ثم نزل هو وأصحابه فواروه[٢].

هذه نماذج من تربية رسول الله ﷺ.. أبو خيثمة الذي يكره لنفسه ألا يشارك النبي ﷺ وأصحابه الجهاد والمعاناة. وأبو ذر الذي يعانده جمله فيتركه ويسرع ماشياً للحاق برسول الله ﷺ. وتعليق النبي ﷺ على كل

---

(١) أي انتظره.

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام، ص٢٩١.

واحد متناسب مع حاله.. لقد كدت تهلك يا أبا خيثمة بتراخيك.. وأما أنت يا أبا ذر فإنك مستعد لنصرة الحق ولو مشيت وحدك وعشت وحدك ومتَّ وحدك..

* * *

مؤمنون قادرون ومتخلفون؟!!

ومن منا لم يسمع قصة الثلاثة المخلّفين: كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية؟! ومع ذلك فإنني أحب أن أقف عندها. لأنها تمثل مرحلة معينة لا يمكن تصنيفها مع النفاق.. وإنما هي تقصير واسترخاء نعاني منه كثيراً في حياتنا المعاصرة.. لكن رسول الله ﷺ تمكن من علاج حالتهم ودفعهم إلى الأعلى، وهو أمر نحتاج إلى تعلمه أكثر من أي شيء آخر.. كيف نرفع الإنسان إلى أعلى؟! أسوق الخبر بشيء من الاختصار لنتمكن من تأمله.

قال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في تبوك حين طابت الثمار والظلال، وتجهز ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجدّ.. وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت.. فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت بهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء. فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضرني همّي، فطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه (أي في الكذب) فأجمعت صدقه.. وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك

جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له. وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى. فجئته فلما سلمت عليه تبسَّم تبسُّمَ المغضب، ثم قال: تعال، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت: بلى والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن ساخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكنَّ الله أن يسخطك عليَّ، ولئن حدّثتك حديث صدق تجد عليَّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال ﷺ: «أما هذا فصدق فقم حتى يقضي الله فيك». فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما كنا علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون؟ فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى كدت أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم. رجلان قالا مثلما قلت وهما مرارة بن الربيع وهلال بن أمية. فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي.

ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان. وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد. وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ. وإذا التفت نحوه أعرض عني. حتى إذا طال

علي ذلك من جفوة المسلمين مشيت حتى تسوَّرت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلَّمت عليه فوالله ما ردَّ عليَّ السلام.. ففاضت عيناي وتوليت حتى تسوَّرت الجدار.

فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام - ممن قدم بالطعام يبيعه في المدينة - يقول: من يدلني على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاءني فدفع إلي كتاباً من ملك غسان - وكنت كاتباً - فقرأته فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نُواسِكَ. فقلت حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء. فتيممت بها التنور فسجَّرتها، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إنه ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. فقلت: أطلقها؟ قال: لا، بل اعتزلها.. وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك. فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك حتى يقضي الله في هذا الأمر. فقالت امرأة هلال لرسول الله ﷺ: إن هلالاً شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا ولكن لا يقربنَّك.. قالت: والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك.. فقلت: لا أستأذن.. وأنا رجل شاب.. فكمل خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا. ثم صليت صلاة الفجر، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت. سمعت صوت صارخ ينادي بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر. فذهب الناس يبشروننا.. وركض رجل إليَّ فرساً.. وكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيَّ فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ. واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فتلقاني الناس فوجاً

فوجاً يهنوني التوبة.. حتى دخلت المسجد[١]، فلما سلَّمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك». قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا بل من عند الله». وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنَّ وجهه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله. فقال ﷺ: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك، فقلت: أمسك سهمي بخيبر. وقلت: يا رسول الله إن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت. فوالله ما علمت أحداً من المسلمين أبلاه الله تعالى في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، ما تعمدت كذبة.. إلى يومي هذا وإني لأرجو أن يحفظني الله فيمابقي. ونزلت الآيات: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [التوبة: ٩/١١٧]. قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا فقال عنهم الله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٩/٩٥]. وليس الذي ذكر ممّا خُلِّفنا تخلفنا عن الغزو حين قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ٩/١١٨] وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمّن حلف له واعتذر إليه فقبل منه[٢].

نقف أمام هذا الخبر لنتعلم منه دروساً كثيرة:

---

(١) متفق عليه.

(٢) ويذكر أن طلحة بن عبيد الله قام إليه يهرول حتى صافحه. ولم يقم من المهاجرين أحد غيره. فلم ينسها كعب له.

١ - كعب كان يؤجل ويقول في نفسه: أنا قادر متى شئت على التجهز بسرعة.. حتى فاته الخروج.. وتلك عاقبة التأجيل.. لا تؤجل عمل اليوم إلى غد.. لأن التأجيل يُراكم الأمور ويجعلها صعبة التحقيق وأحياناً مستحيلة. وأعظم إنجاز هو القيام بالواجبات اليومية والمداومة عليها، وعدم تأجيلها.

٢ - لم يكن هناك ما يُلزم المسلمين بالخروج إلى الجهاد إلا إيمانهم بالله ورغبتهم بأجره، فلم تكن هناك قوائم بأسماء القادرين ولا فِرَق تدور لجمع المطلوبين للجيش، ومع ذلك فقد خلت المدينة تقريباً من الرجال حتى صار كعب لا يرى في طرقها إلا المنافقين وأصحاب الأعذار من عجز أو مرض. فالإيمان هو أكبر وازع.

٣ - كان للنبي ﷺ سياسة خاصة مع المنافقين أن يقبل منهم علانيتهم ويترك سرائرهم لله سبحانه فهو الخبير المحاسب. وهو درس للمسلمين بألا يأخذوا الناس بالظنون..وإنما يُعامَل الناس على ظواهرهم. وإلا دخلنا في متاهة..

٤ - وأكثر من ذلك فقد قبل اعتذارهم واستغفر لهم الله.. وذلك من رحمته بالناس، فهو يريد لهم عافية القلوب والأرواح ويتمنى لهم الهداية.

٥ - أما مع كعب المؤمن الصادق فإنه يعاتبه مظهراً له بعض الغضب، ولا يعجل عليه حتى يسمع إن كان له عذر. فيعترف كعب بذنبه، وهو على يقين أنه لن ينجوَ بالكذب.

٦ - قول النبي ﷺ: «أما هذا فقد صدق» يكشف عن معرفة النبي ﷺ بكذب المنافقين. ثم يصدر النبي قراره بأن يترك أمر توبة هؤلاء الثلاثة المتخلّفين إلى الله.

٧ - أهل كعب وعشيرته يحاولون الضغط عليه كي يكذب على رسول الله ﷺ وينتحل أي عذر.. حتى كاد أن يسمع منهم.. وعلى الإنسان أن يحذر نصائح الأهل ومعظم الناس؛ لأنهم يؤثرون النجاة العاجلة وقليلاً ما يذكرون ما هو خير وأبقى.

٨ – ثم كانت العقوبة من النبي ﷺ سابقة تاريخية لم يحدث مثلها قبل ذلك.. لقد أمر النبي ﷺ بألا يكلم أحد هؤلاء الثلاثة..!!

– فهي عقوبة من جنس العمل.. مادمتم حذفتم أنفسكم من الجهاد معنا وأداء الواجب بيننا فنحن نحذفكم من التعامل والتواصل الاجتماعي.. لقد اخترتم ألا تشاركونا همّنا.. فعيشوا العزلة التي اخترتموها.

– وهي عقوبة نفسية لا تطال الجسد والمال.. وإنما تؤلم النفس وتجلو عنها وهم الفردية والأنانية، حتى تستيقن أن لا غنى لها عن إخوانها في الدين.. وأن عليها أن تلتحم معهم وتشاركهم همهم وجهادهم.

٩ – واستجابة المسلمين لأمر النبي ﷺ عجيبة في دقتها.. كعب يمشي في الأسواق ويشهد الصلوات في المسجد ولا يكلمه أحد.. ويأتي ابن عمه وأحب الناس إليه فيسأله ويستحلفه: (يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته (ثلاث مرات) فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت..)(١).. حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت – كما وصفتهم الآية – وحتى إن بعض الباحثين سمى هذا الحكم (الزنزانة المتنقلة).

١٠ – نتأمل قول كعب حين كان يصلي قرب النبي ﷺ في المسجد: (فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني) فكأنه يقول له: (أحبك ولو عاقبتك.. وقلبي عليك أريد طهارتك وتوبتك) وهو أمر هام جداً في التربية ألا يخلو إيقاع العقوبة من الإشعار بالحب.. وحذار من إشعار الكره والانتقام، فإنه يخرب النفس الإنسانية ويستثير عنادها ومكابرتها.. هل تستطيع أن تُشعر المخطئ أثناء عقوبته بأنك تحبه وتريد له الخير والارتقاء..؟ إن هذا ما يعيد التائه إلى جادة الصواب.. عاقب – إن اضطررت للعقوبة – وقلبك مليء بالحب والرغبة في التصحيح والتقويم.. وإياك من الانتقام..

(١) رواه البخاري.

١١ - ويتابع الله امتحان كعب وتمحيصه.. فتأتي رسالة ملك غسان يدعوه للإقامة عنده معززاً مكرماً بدلاً مما هو عليه من هوان.. لكن كعباً ينجح في الامتحان ويرمي بالكتاب إلى النار. فهو مدرك لحقوقه وواجباته، مقر بذنبه ومؤمن بضرورة تقبل العقاب راغب في عفو الله متشبث برسوله وانتمائه إلى أحبابه المؤمنين.

١٢ - ونجد صدق المحبة في نساء هؤلاء الثلاثة.. فهنّ ملتزمات بأمر النبي ﷺ لكنهن راحمات لأزواجهن يستأذنّ في خدمتهم.. أما كعب فيأبى عليه ضميره أن يتمتع بهذه الرخصة من النبي مادام أنه شاب وقادر على خدمة نفسه.

١٣ - وتأتي لحظة الفرج بعد أن وصلت المعاناة إلى القمة. ونجد فرحة المسلمين بتوبة الله على أخيهم لا تقل عن فرحته.. فأحدهم يركض بفرسه ليبشره.. والثاني يقف على تل وينادي بالبشرى بأعلى صوته.. وكعب يخلع ثوبيه ويهديهما لمن بشره.. والناس في الطريق كلهم يسلّمون ويهنّئون.. يا له من جسد واحد متماسك..!!

١٤ - ورسول الله ﷺ يبرق وجهه من السرور..!! فها هي العافية تعود إلى ثلاثة من أصحابه بعد أن زلت أقدامهم وكادوا ينحدرون إلى النفاق.. «أبشر بخير يوم مرّ عليك..». إن الفوز بمغفرة الله ورضوانه لا يعادله شيء في حياة الإنسان.. غفر الله لنا.

١٥ - وها هو كعب يريد أن يتوج توبته ويشكر ربه بأن يتصدق بماله كله.. لكن رسول الله ﷺ يأمره بأن يمسك بعض ماله ليعيش عليه.. فالإسلام دين واقعي لا يقبل المثاليات التي تتجاهل حاجات الواقع. وهو منهج ميسّر معتدل.

١٦ - النجاة في الصدق.. هكذا يلخص لنا كعب تجربته تلك.. ويعدّ صدقه أكبر نعمة أنعمها الله عليه بعد الإسلام.. الصدق نجاة وراحة للضمير وتحرير للذات من عذاب الازدواجية.

وهكذا استعرضت في الصفحات السابقة نماذج من هذه الأصناف السبعة التي أبرزتها غزوة تبوك. وهي في الحقيقة تشغل أربع درجات في السلم الصاعد إلى الله: فالذين تاب الله عليهم (الثلاثة) وقد ارتقوا خطوة وصعدوا درجة. بينما الذين لحقوا بالجيش قد ارتقوا أكثر.. وتأتي الدرجة الثالثة لتضم أصنافاً يتساوى فيها من خرج للجهاد مع من لم يخرج. بينما يتربع أصحاب القمة في رأس السلم، فقد وضعوا معظم إمكاناتهم تحت تصرف الجيش المجاهد. فإذا عدنا إلى التصنيف بحسب القدرة والإرادة رأينا: الذين جمعوا بين القدرة والإرادة قد خرجوا للجهاد ونالوا رضى الله.

بينما: الذين ملكوا الإرادة ولم تكن لديهم قدرة لم يخرجوا وعذرهم الله.

وأما: الذين ملكوا القدرة وكانت إرادتهم ضعيفة فإنهم لم يخرجوا وتعرضوا إلى اللوم والعقاب حتى تابوا وتاب الله عليهم.

وأما الذين انعدمت عندهم الإرادة مع امتلاكهم للقدرة فإنهم لم يخرجوا، وهم منافقون كاذبون في اعتذارهم ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾. أردت أن أقف هذه الوقفة لأننا كثيراً ما نقف ونتساءل بحيرة: لماذا لا تتحقق الآمال والأهداف في عالمنا الإسلامي؟! وما الذي ينقص حركتنا..؟ ولنعد إلى كتاب المفكر جودت سعيد (العمل قدرة وإرادة) كي يساعدنا على تشخيص العلّة.. وعسى أن نتمكن من العلاج.

أصحاب القمة

أصحاب الدرجة الثانية

البكّاؤون

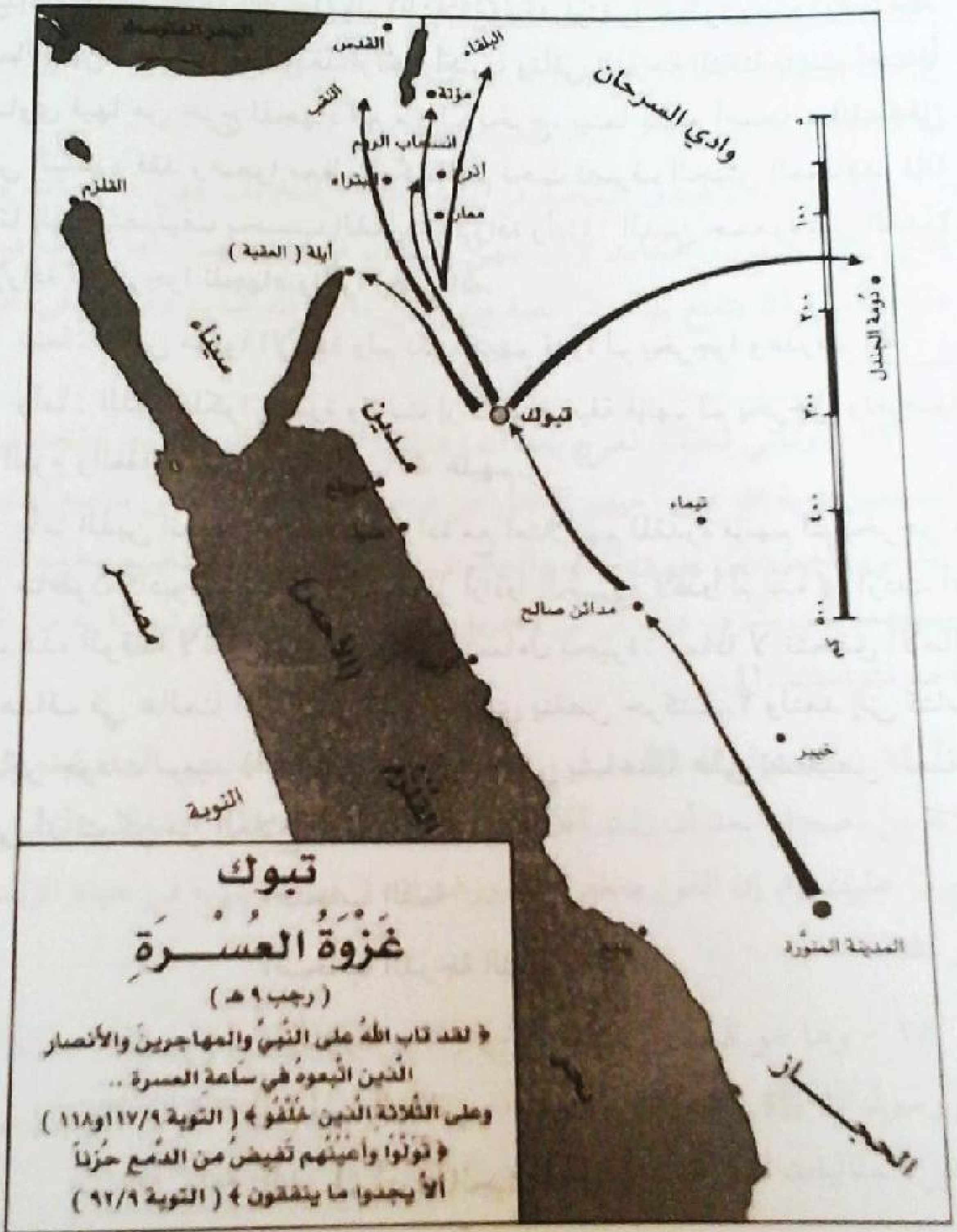
من أمر بالتخلف

تأخر ثم أدرك الجيش

الثلاثة الذين خلّفوا

أصحاب الدَّرك الأسفل

السُّلَّمُ التصاعدي لفئات المجتمع المدني وقت تبوك



خريطة غزوة تبوك

الذين اتبعوه ساعة العسرة

كانت هذه الغزوة مليئة بالمشقة والعقبات كما تصورها لنا الأخبار.. الرجلان أو الثلاثة يتعاقبون على بعير واحد.. وأصابهم في يوم عطش حتى جعلوا ينحرون إبلهم لينفضوا أكراشها ويشربوا ماءها.. عسرة في الماء وعسرة في النفقة وعسرة في الظهر.. يقول عمر بن الخطاب: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع.. حتى إن كان أحدنا يذهب فيلتمس الرحل فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه ثم يجعل ما بقي على كبده. فقال أبو بكر الصّديق: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع الله لنا، فقال ﷺ: «أوَتحب ذلك؟» قال: نعم. قال: فرفع يديه نحو السماء فلم يرجعهما حتى قالت (تهيأت) السماء فأطلت ثم سكبت فملؤوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[1]. فقالوا لرجل معهم منافق: ويحك هل بعد هذا من شيء؟ فقال: سحابة مارة. وذكر أن ناقة رسول الله ﷺ ضلت فذهبوا في طلبها، فقال رسول الله ﷺ لعمارة بن حزم الأنصاري - وكان عنده -: «إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي ويخبركم خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله وقد دلّني الله عليها، هي في الوادي قد حبستها شجرة بزمامها» فانطلقوا فجاؤوا بها. فرجع عمارة إلى رحله فحدثهم (بما قال رسول الله ﷺ) فقال رجل...: إنما قال ذلك زيد بن اللصيت. وكان في رحل عمارة قبل أن يأتي فأقبل عمارة على زيد يجأ في عنقه ويقول: إن في رحلي لداهية وأنا لا أدري!! اخرج عني يا عدو الله فلا تصحبني[1].

---

(١) البداية والنهاية، ٥/٩.

كل هذه الشدة والمشقة كان رسول الله ﷺ يواجهها بالصبر والأناة.. يأخذ الأمور ببساطة وكأنه في كل حركة يقول لأصحابه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٣]. فهو صابر على الحر والعطش.. حتى يأتي أبو بكر ويرجوه أن يدعو الله (إن الله قد عودك في الدعاء خيراً) فيقول له ببساطة: (أوَتحب ذلك؟) فكأنه ﷺ ماضٍ في صبره.. متقبل للمشقة.. فلما أحس بأن أصحابه قد بلغ بهم الجهد حتى إن أبا بكر يطلب منه الدعاء.. دعا لهم ومن أجلهم.. فأكرمه الله واستجاب له.. ولو شاء لدعا منذ البداية لكنه عبد خاضع لإرادة ربِّه.. مدرك لأهمية البلاء في تربية النفوس وتزكيتها.

وحين يقول المنافق: كيف يزعم أنه نبي وهو لا يدري أين ناقته..؟! يقول ببساطة: «والله لا أعلم إلا ما علمني الله».. أنا بشر من خلق الله أؤدي رسالة كلفني بها الله، ولا أعلم الغيب، ولا أدخل في الادعاء والدجل.. بل جئت لأحرركم من الجبت والطاغوت.. من كل من يدعي علم الغيب.. من كل الدجالين والمشعوذين الذين يحيطون أنفسهم بهالات مقدسة.. ويزعمون أنهم فوق البشر.. أنا بشر تضل ناقتي وعلي أن أجتهد في البحث عنها.. أتعب معكم وأعطش معكم.. وأرفض كل الامتيازات لأكون لكم قدوة تعيش بينكم وتحس بمشاعركم وتدرك معاناتكم.. كل ذلك لأثبت لكم أن الإنسان ضمن بشريته يمكن أن يرتقي ليصبح في أعلى عليين.. إذا اهتدى بنور القرآن ومشى على نهجه.

وصدقت أم المؤمنين عائشة حين وصفته ﷺ: «كان خُلُقه القرآن».

ومن الغريب تغلغل المنافقين بين المؤمنين حتى ضمن جيش العسرة هذا؟! مما يدل على حسن معشر المسلمين من جهة. وعلى شدة حرص المنافقين على مصالحهم العاجلة.. وعلى أن يكونوا في صميم الكيان الإسلامي لينفثوا سمومهم.

● ● ●

مرحباً بما هو خير وابقى

وفي الطريق أصاب الناس مجاعة فقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فننحر نواضحنا فأكلنا وادَّهَنّا؟ فقال ﷺ: «افعلوا»، فجاء عمر فقال: يا رسول الله إن فعلت قلَّ الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم وادع الله لهم فيها بالبركة لعل الله أن يجعل فيها البركة، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فدعا بنطع فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يجيء بكف ذرة ويجيء الآخر بكف من التمر ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير فدعا رسول الله ﷺ بالبركة، ثم قال لهم: «خذوا في أوعيتكم» فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوها وأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة فقال ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بها عبد غير شاك فيحجب عن الجنة»[1].

أي عظمة في شخصية محمد ﷺ تجعله يتقبل ببساطة المعارضة من أصحابه مع أنه نبي مرسل..!! إنه يسمع منهم نقدهم واقتراحاتهم ويترك رأيه لما يرى أنه أصوب وفيه خير أكثر..!!

هذه التربية الرائعة من النبي ﷺ جعلت أصحابه يتمتعون بفكر نيِّر متحرك يراقب الأسباب والعواقب ويقترح حلولاً أفضل.. لقد كانوا أبعد ما يكونون عن التحجُّر.. وكانوا يدركون أن وراء الأوامر مقاصد جليلة.. تعطي لها الأولوية؛ لأنها الأصل الراسخ للدين.. وأما الأحكام فتتغير بالشكل الذي يحقق هذه المقاصد.. وعمر هنا يقدم اقتراحاً أفضل لأن فيه مصالح أكبر للمجاهدين.

كان الحبيب المصطفى يدفع أصحابه نحو الإبداع بمنحهم حرية الفكر واحترام آرائهم، صلوات الله وسلامه عليه كم كان فذاً في صناعته للإنسان..!!

● ● ●

(١) رواه مسلم.

لا تدخلوا.. إلا أن تكونوا باكين

وفي الطريق مرَّ الجيش بمساكن ثمود بالحجر فقال لهم رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم»[١]. وفي رواية أن الجيش نزل عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا ونصبوا القدور باللحم، فأمرهم رسول الله ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، فقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم»[٢].

هنا نرى رسول الله ﷺ خائفاً على قومه يعيش أحداث التاريخ كأنه في وسطها.. يحتاط لقومه ويريد منهم أن يعتبروا.. ويذكر قول الله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٥]. فيأمر بالابتعاد عن المكان.. ويخشى أن يكون الماء حاملاً لبعض أسرار الهلاك فيأمر أصحابه بإهراق الماء وإطعام العجين للإبل[٣].

لا تدخلوا عليهم إلا أن تكونوا باكين.. معتبرين مما أصابهم. وهذا ما يوضح قصد النبي ﷺ. فهو يريد لأصحابه أن يدخلوا خاشعين لله خائفين من عذابه.. وليس القصد هو النهي عن دراسة آثار الغابرين.. فهو أمر وجّه إليه القرآن ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم: ٣٠/ ٤٢]. وأمر به أيضاً لأنه أحد مصادر المعرفة في كيف بدأ الخلق.. وخصائص الخلق وكيف تطور وارتقى إلى الأفضل ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١].

◼ ◼ ◼

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الإمام أحمد.

(٣) وربما كان هذا لأنه استهجن أن يجلسوا للطعام في مكان نزل فيه العذاب وكأن شيئاً لم يكن.

مداعبة وإيناس وتدريب

ومرَّ النبي ﷺ في وادي القرى، فإذا امرأة في حديقة لها فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «اخرصوا»[١] (أي قدِّروا كم يخرج منها من ثمار) فخرص القوم.. وخرص رسول الله ﷺ عشرة أوسق، وقال ﷺ للمرأة: «أحصي ما يخرج منها حتى أرجع إليك إن شاء الله» فخرج حتى قدم تبوك..

ثم أقبل وأقبلنا معه (في طريق العودة) حتى جئنا وادي القرى.. قال للمرأة: «كم جاءت حديقتك؟» قالت: عشرة أوسق خرص رسول الله ﷺ.

هذه لقطة طريفة حصلت أثناء هذا السفر الشاق لم أرد أن أتجاوزها.. مع أنها لا علاقة لها بالغزوة. رسول الله يمر مع أصحابه بامرأة في وادي القرى تجمع ثمار حديقتها.. فيعمل مع أصحابه مسابقة: من يحزر كم يخرج منها من ثمر؟ اخرصوا (أي خمنوا) فقدروا أرقاماً.. وقدر النبي ﷺ أنها عشرة أوسق (جمع وسق وهو مكيال للثمار معروف في ذاك الزمان).. وقال للمرأة اجمعي ثمرك وأحصيه ريثما نعود إليك لنرى تقدير من أصح؟! وفي العودة يمرُّ عليها ويسألها ويكون رقمه هو الصحيح..!!

هذا إيناس منه لأصحابه وتسلية لهم أثناء رحلتهم الشاقة وتدريب على الإحصاء ودقة الملاحظة.. وإدخال عنصر التشويق والإثارة: من يفوز بالتقدير الصحيح..؟! صحيح أن الرحلة كانت مليئة بالمشقة والعسر.. ولكن صحبة رسول الله ﷺ كانت مليئة بالمتعة والفائدة والحب والرعاية الأبوية.. وما هذه اللقطة إلا كنقطة في بحر..

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

قائد مبارك

فلما قدم تبوك قال ﷺ لأصحابه: «إنها ستهب عليكم الليلة ريح شديدة فلا يقومن فيها رجل، فمن كان له بعير فليوثق عقاله» قال أبو حميد: فعقلناها فلما كان من الليل هبت علينا ريح شديدة فقام فيها رجل فألقته في جبل طيئ[١]. وفي رواية زيادة عن ابن إسحاق: أن طيئاً أهدته إلى رسول الله ﷺ حين رجع إلى المدينة..

وجاء تبوك وفيها عين ماء تبض بشيء من ماء[٢].. فغرفوا من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء ثم غسل رسول الله فيه وجهه ويديه ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس. ثم قال رسول الله ﷺ: «يا معاذ يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جناناً»[٣]. ولقد تحققت نبوءة رسول الله ﷺ وأصبحت مليئة بالمزارع.

هذه أوامر نبوية فيها مصالح العباد.. فالريح تلقي بالرجال من شدتها. وعين الماء لا تمسوها حتى لا تذهب بركتها.. ولا يجوز لأفراد أن يستأثروا بشيء من الماء أو الرزق، إلا أن يجتمعوا عليه ويتقاسموه تحت إشراف القائد.. فكيف إذا كان القائد نبياً يعطي تعليمات حكيمة؟! ونرى بركة وجود النبي ﷺ تعم على كل الجيش صلوات الله وسلامه عليه. وقد ذكر خبر مماثل لهذا، أنه حصل أثناء العودة من تبوك. ولا مشكلة في توقيت حدوثه.

● ● ●

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) وكان ﷺ قد قال لهم: «إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحي ضحى النهار فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي» فسبق إليها رجلان وأخذا من مائها.. فلامهما النبي ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم.

الحب والقيادة

ثم قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إني متعجل فمن أحب منكم أن يتعجل فليفعل»، فخرج رسول الله ﷺ، وخرجنا معه، حتى إذا أوفى على المدينة قال: «هذه طابة» فلما رأى أحداً قال: «هذا أحد يحبنا ونحبه، ألا أخبركم بخير دور الأنصار؟ قلنا: بلى يا رسول الله. فعدد.. ثم قال: «ثم في كل دور الأنصار خير»[١].

تأمل هذا التنوع في أسلوب الخطاب من النبي أثناء هذا السفر. من مداعبة ومباسطة إلى الأوامر الجازمة.. إلى التخيير.. إلى الحوار والمحادثة..

صلوات الله عليه وسلامه.. لقد كان يعرف كيف يكون محبوباً في عشرته.. مؤنساً في حواراته.. وكيف يكون قائداً مطاعاً..

وانظر إلى هذا القلب الذي ملئ حباً.. كيف يفيض من حبه على الأماكن والمعالم التي شهدت أحداثاً في حياة هذه الأمة..

ها هو يطل على معالم المدينة فينطلق لسانه بالحب (هذه طابة).. مليئة بكل طيب.. (علماً بأنه ﷺ قد غيّر اسمها الذي كان يثرب لأن فيه معنى اللوم والمؤاخذة) ويرى جبل أحد فيتفاعل مع منظره الشامخ ويعبر عن حب متبادل معه..

ثم يتحاور مع أصحابه عن الأنصار ومَنِ الأفضل فيهم.. فيعدد أسماء بعض العائلات.. ثم يقول كل بيوت الأنصار خير..

وبهذا يؤنس الجميع ويزكيهم ويرضيهم.. ولا يتكلم إلا حقاً.. لأنه يبصر مواضع الخير والجمال في نفوس الناس من حوله، فيحبها ويثني عليها، ويتغاضى عن الضعف والخطأ.. ومن منح الحب حصل عليه.. بل وأسلمت القلوب له قيادها.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

نتائج غزوة تبوك

عسكر رسول الله ﷺ في تبوك قرابة عشرين يوماً ولم يتصد لقتال أحد. (ويبدو أن الروم وحلفاءهم سمعوا أنباء هذا الجيش الكبير وقدرته على اجتياز المصاعب وإصراره على لقاء الأعداء فآثروا الانسحاب إلى الداخل عبر أراضي الأردن وفلسطين صوب حمص حيث استقر هرقل، مستهدفين - في الوقت نفسه - جر القوات الإسلامية إلى الداخل والانقضاض عليها هناك. إلا أن الرسول ﷺ لم يتح لهم تحقيق هدفهم هذا وعسكر في تبوك جاعلاً إياها آخر نقطة في توغله شمالاً)[1].

ثم أخذ يتصل بزعماء القبائل النصرانية المنتشرة في المنطقة ويتلقى سفراءهم ويعقد معهم معاهدات الصلح. ويقطع بذلك ولاءهم للدولة البيزنطية ويحولهم إلى حلفاء للدولة الإسلامية. من هؤلاء:

١ - يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة:

وقد أتى إلى رسول الله ﷺ في تبوك فصالحه وأعطاه الجزية[2]. وكتب له رسول الله ﷺ عهداً: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه. وأنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يردونه من بر وبحر»[3].

ضمن لهم الرسول ﷺ الأمان والحماية بشرط ألا يحدثوا حدثاً يستوجب العقاب. وأعطى النبي ﷺ أهل أيلة برده مع كتابه أماناً لهم فاشتراه بعد ذلك أبو العباس بـ ٣٠٠ دينار.

---

(١) دراسة في السيرة، ص٣٠٣.

(٢) وفي رواية أنه أهدى لرسول الله ﷺ بغلة بيضاء. وكساه رسول الله ﷺ برداً.

(٣) البداية والنهاية، ٥/١٦.

٢ - أهل جرباء وأذرح:

وقد أتوا النبي ﷺ أيضاً وأعطوه الجزية، فكتب لهم عهداً: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لأهل جرباء وأذرح، أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مئة دينار في كل رجب ومئة أوقية طيبة وأن الله عليهم كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين ومن لجأ إليهم من المسلمين»(١).

في هذا الكتاب تحديد وبيان لمقدار الجزية عليهم وتأكيد عليهم بالتزام النصح للمسلمين.

٣ - بعثة خالد بن الوليد:

دعا النبي ﷺ خالد بن الوليد فبعثه إلى دُومة الجندل حيث الأكيدر بن عبد الملك. وهو رجل من بني كنانة كان ملكاً عليها وكان نصرانياً. وقال ﷺ لخالد: «إنك ستجده يصيد البقر» فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين وفي ليلة مقمرة صائفة وهو على سطح له ومعه امرأته، وباتت البقر تحك بقرونها باب القصر، فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله، قالت: فمن يترك هذا؟ قال: لا أحد. فنزل فأمر بفرسه فأسرج له وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له يقال له حسان وخرجوا معه بمطاردنهم، فلما خرجوا تلقتهم خيل النبي ﷺ فأخذته وقتلوا أخاه، وكان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب فاستلبه خالد فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه عليه. يقول أنس بن مالك: رأيت قباء أكيدر حين قدم به على رسول الله ﷺ، فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه، فقال ﷺ: «أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل

---

(١) البداية والنهاية، ٥/ ١٧.

سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا». فلما قدم خالد بأكيدر على رسول الله ﷺ حقن له دمه فصالحه على الجزية ثم خلى سبيله[١].

أما لماذا أرسل النبي ﷺ إلى أكيدر بالذات من يحاربه.. فإن الجواب موجود في السنة الخامسة عندما كان أكيدر يجمع القبائل للهجوم على المدينة، فخرج إليه رسول الله ﷺ بألف من أصحابه وكانت غزوة دومة الجندل.. فلقد كان من الضروري كسر شوكة هذا الرجل لتأمين حدود الدولة المسلمة. ولقد عادت السرية بالخير على الطرفين. ولم يقتل فيها سوى أخي أكيدر. ومنَّ النبي ﷺ على أكيدر بالعفو وصالحه على دفع الجزية. وبهذا انقطع الطريق على بيزنطة ولم يعد لها حلفاء في شمالي الجزيرة العربية يساعدونها في الهجوم على المسلمين.. بل أصبحوا حاجزاً للدولة المسلمة.

ونجد في هذه الغزوة أن البقرات تساهم في أداء دور فيها ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٧٤/٣١] حتى قال شاعر طيئ يومها:

تبارك سائق البقرات إني رأيت الله يهدي كل هادِ

وإن كان بالإمكان تفسير الظاهرة على أن البقرات نفرت من الخيل فلاذت بالقصر.

ومع ذلك فإن الأمور تجري كلها بما يوحي بأن المسلم حين يؤدي واجبه فإن كل شيء يخدمه ويتسخر له.. لأن الله وضع في طبيعة المخلوقات الاتجاه للخير.

ونتأمل إعجاب أصحاب النبي بكساء أكيدر وهم يلمسونه مبهورين من جماله ونعومته.. وهم الأعراب الذين لا عهد لهم بنعومة الحضارة وترفها.. فيقول لهم

---

(١) البداية والنهاية، ٥/١٧.

رسول الله ﷺ مذكراً بالجنة ونعيمها: إن مناديل سعد في الجنة - والتي تستعمل للامتهان - أروع من هذا..!! وما كان ﷺ يترك فرصة للتذكير والتشويق إلى الجنة ترغيباً في أداء الواجب.

❀ ❀ ❀

الشهادة: رسوخ بالعلم

كان الانتصار كامناً في انسحاب الروم وإقلاعهم عن تحدي المسلمين ومواجهتهم وفي ذلك كسر لهيبة دولة الروم الشرقية في بيزنطة وعاصمتها القسطنطينية وهدّ لجدار الخوف العربي من الروم. وإن بقي بعض أمراء العرب في الأردن وفلسطين يتحرشون بدعاة الإسلام إرضاء لسادتهم الروم.. لكن شعاع النور قد بدأ يغزو بلاد الشام.. وها هو فروة بن عمرو الجذامي - عامل قيصر على عمان من أرض البلقاء - يعلن إسلامه. رغم أنه لم يتلق كتاباً من الرسول ﷺ. وكتب إلى النبي ﷺ بإسلامه كتاباً حمَّله رسولاً من قومه يدعى مسعود بن سعد. فقرأ النبي ﷺ الكتاب ورد عليه بكتاب من عنده، وأجاز المبعوث بمبلغ من الدراهم رداً على الهدية التي تلقاها من الأمير العربي. ولما بلغ إمبراطور الروم إسلام عامله دعاه وقال له: ارجع عن دينك بملكك (أي من أجل الاحتفاظ بملكك). فأجاب فروة: لا أفارق دين محمد، وإنك لتعلم أن عيسى قد بشّر به، ولكنك تضنُّ بملكك. فحبسه الإمبراطور ثم أخرجه وصلبه[١].

تأمل في الخبر البون الشاسع بين نموذجين من البشر: قيصر وفروة بن عمرو، قيصر يعرف الحق لكنه متشبث بملكه.. ويعجب من فروة كيف يزهد بالسلطان!! بينما فروة عندما يتبين له الحق يزهد في كل ما عداه.. ويؤثر الحق

(١) الطبقات الكبرى: ابن سعد، ١/٢/٣١.

على كل عرض من أعراض الدنيا.. وتكون النتيجة أن يدفع روحه ويرضى بالصلب حرصاً على الحق والوصول إلى رضا الله رضي الله عنه.. بينما يبوء قيصر بغضب الله.. إن المعرفة إن لم تصل إلى حدّ الرسوخ في سويداء النفس.. لم تنقذ صاحبها من الضلال.

❀ ❀ ❀

يا ليتني كنت مكانه..!!

يقول عبد الله بن مسعود: قمت من جوف الليل وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وإذا عبد الله ذو البجادين قد مات وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله في حفرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، وإذا هو يقول: «أدنيا أخاكما» فدلياه إليه، فلما هيأه لشقه قال: «اللهم إني قد أمسيت راضياً عنه فارضَ عنه».. يقول ابن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة[1].. قال ابن هشام: إنما سمِّي ذو البجادين لأنه كان يريد الإسلام فمنعه قومه وضيقوا عليه حتى خرج من بينهم وليس عليه إلا بجاد - وهو الكساء الغليظ - فشقه باثنين فائتزر بواحدة وارتدى بالأخرى، ثم أتى رسول الله ﷺ فسمي ذو البجادين.

هذا رجل فارق قومه وتحدى العقبات حتى التحق برسول الله ﷺ مجاهداً.. تدركه منيته.. فيقوم رسول الله ﷺ وصاحباه على تجهيزه وحفر قبر له.. فتأمل رسول الله ﷺ في جوف الليل وقد نزل إلى الحفرة يتلقى جثمان الرجل بيديه الشريفتين ويضجعه على شقه.. ثم يدعو الله له: «اللهم إني راضٍ عنه فارضَ عنه»..!! فأي شيء أعظم من هذا؟!

يرحمك الله يا بن مسعود.. كلنا نتمنى أن نقول كما قلت: يا ليتني صاحب الحفرة..!!

(١) البداية والنهاية، ٥/١٨.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما أعظم رعايتك لأصحابك.. كلهم يكفونك هذا العمل لكنَّك تتولى القيام به بنفسك.. إكراماً وتعليماً.. فهل تجدون مثل هذا المعلم؟!

❀ ❀ ❀

عتاب ودود..

ويتحدث أبو رهم الغفاري (كلثوم بن الحصين) - وكان من أصحاب الشجرة - فيقول: غزوت مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك فسرت ذات ليلة معه ونحن بالأخضر وألقى الله عليّ النعاس وطفقت أستيقظ وقد دنت راحلتي من راحلة النبي ﷺ فيفزعني دنوها منه مخافة أن أصيب رجله في الغرز فطفقت أحوز راحلتي عنه حتى غلبت عيني في بعض الطريق فزاحمت راحلتي راحلته ورجله في الغرز، فلم أستيقظ إلا بقوله: «حَسِّ» (كلمة معناها أتألم) فقلت: يا رسول الله استغفر لي، قال: «سِر» فجعل رسول الله ﷺ يسألني عمن تخلف عنه من بني غفار فأخبره به. فقال وهو يسألني: «ما فعل النفر الحمر الطوال الثطاط (جمع ثط وهو الذي لا لحية له) الذين لا شعر في وجوههم؟» فحدثته بتخلفهم، قال: «فما فعل النفر السود الجعاد القصار»؟ قلت: والله ما أعرف هؤلاء منا، قال: «بلى الذين لهم نعم بشبكة شدخ» (اسم موضع فيه ماء) فتذكرتهم في بني غفار فلم أذكرهم حتى ذكرت أنهم رهط من أسلم كانوا حلفاء فينا، فقلت: يا رسول الله أولئك رهط من أسلم حلفاء فينا. فقال ﷺ: «ما منع أحد أولئك حين تخلف أن يحمل على بعير من إبله امرأً نشيطاً في سبيل الله؟ إن أعزّ أهلي علي أن يتخلف عني المهاجرون والأنصار وغفار وأسلم»[1].

قصدت أن أسجل هذه الأخبار التي قد تبدو غير مهمة.. لأنها تصور حياة النبي ﷺ بين أصحابه.. حبهم له.. ورفقه بهم وتجاوزه عن سهوهم ولو سبب له

---

(١) المصدر السابق، ٥/١٨ و١٩.

ألماً.. ثم سؤاله عمن تخلف طائفة طائفة.. في محادثة لطيفة مليئة بعتاب ودود.. لو أنهم إذ تخلفوا منحوا رواحلهم لغيرهم.. أنتم أهلي.. وما أشد أن يتخلف عني أهلي..!!

* * *

مؤامرة..

ورغم كل هذا الرفق والحب.. فقد وجد فيهم من يأتمر عليه ﷺ..؟!

عاد رسول الله ﷺ من تبوك متجهاً إلى المدينة.. وفي الطريق همَّ جماعة من المنافقين بالفتك به ﷺ وأن يطرحوه من رأس عقبة في الطريق. فأخبر خبرهم فأمر الناس بالمسير من الوادي وصعد هو العقبة وسلكها معه أولئك النفر وقد تلثموا. وأمر رسول الله ﷺ عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أن يمشيا معه، عمار آخذ بزمام الناقة وحذيفة يسوقها. فبينما هم يسيرون إذ سمعوا بالقوم قد غشوهم، فغضب رسول الله ﷺ وأبصر حذيفة غضبه فرجع إليهم ومعه محجن فاستقبل وجوه رواحلهم بمحجنه (وهو كالصولجان) فلما رأوا حذيفة ظنوا أن قد أظهر على ما أضمروه من الأمر العظيم فأسرعوا حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله ﷺ فأمرهما فأسرعا حتى قطعوا العقبة ووقفوا ينتظرون الناس. ثم قال رسول الله ﷺ لحذيفة: «هل عرفت هؤلاء القوم؟» قال: ما عرفت إلا رواحلهم في ظلمة الليل حين غشيتهم، ثم قال: «علمتما ما كان من شأن هؤلاء الركب؟» قالا: لا، فأخبرهما بما كانوا تمالؤوا عليه وسماهم لهما واستكتمهما ذلك. فقالا: يا رسول الله أفلا تأمر بقتلهم؟ فقال: «أكره أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه». وفي رواية: أن النبي ﷺ إنما أعلم بأسمائهم حذيفة بن اليمان وحده. وروى أن أمير المؤمنين عمر بن

الخطاب قال لحذيفة (لما علم أن النبي ﷺ أخبره بأسمائهم): أقسمت عليك بالله؛ أنا منهم؟ قال: لا ولا أبرئ بعدك أحداً[١].

عجباً لهؤلاء!! أفبعد كل هذه الانتصارات التي حفَّت بالنبي.. وبعد كل ما رأوا من خُلُق باهر وإكرام لكل من صحبه وأحاط به.. يفكرون بقتله ﷺ ويظنون أنهم سينجحون.؟! ما هذه القلوب التي قدت من صخر؟! وما هذه العقول التي فقدت القدرة على الرؤية والاعتبار..؟!

وانظر إليهم كيف يفرون من رجل واحد (حذيفة حين رجع إليهم بمحجنه) وهم - كما تقول الروايات - أربعة عشر أو اثنا عشر رجلاً..؟! فما أشد جبن الباطل..!! ورسول الله ﷺ يعرفهم ويعرف ما يريدون فيسكت عنهم ابتداء عسى أن يرجعوا عما تآمروا عليه.. فلما حاولوا و ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ [التوبة: ٩/ ٧٤] كما ذكر عنهم القرآن.. لم يزد على أن رؤي الغضب في وجهه.. وعرَّف صاحبيه بما أرادوا..

يا رسول الله ألا تأمر بقتلهم وقد باشروا تنفيذ مؤامرتهم..؟

يا رسول الله لم لا تقطع دابر هؤلاء المنافقين الذين يتربصون الفرص للكيد..؟!

لكن الأمر ليس بهذه البساطة ولا بد من دراسة العواقب جيداً.. لاختيار أهون الشرَّين.. فالصبر على كيدهم أهون من أن يقال محمد ﷺ يقتل أصحابه..

لقد كان رسول الله ﷺ يعالج أعداءه.. وقلما لجأ إلى قتل أحد إلا بعد أن تفشل كل محاولات العلاج.. كل ذلك ليعرف الناس حب النبي ﷺ للإنسان وحرصه على حياته. ولم يُعْطَ أعداء النبي ﷺ فرصة واحدة لإطلاق دعاية ضد النبي بأنه يحب سفك الدماء.

---

(١) البداية والنهاية، ٥/ ١٩.

وانظر إلى صاحب السّر حذيفة وقد استأمنه النبي ﷺ على أسماء هؤلاء المنافقين.. يناشده عمر رضي الله عنه: هل أنا منهم؟ فما أعظم خوفك أيها الفاروق؟!

وحذيفة يطمئنه.. ولكن (لا أبرئ بعدك أحداً) فهو سر رسول الله ﷺ.. ومن الأفضل أن يبقى مكتوماً كي لا يأمن أحد على نفسه.. وليبق الأصحاب في حالة حذر وخوف ومحاسبة للنفس ومراجعة للأعمال.

* * *

كيد النفاق مستمر..

وقام طائفة من المنافقين ببناء صورة مسجد قريباً من مسجد قباء وأرادوا أن يصلي لهم رسول الله ﷺ فيه (ليدشنه ويضفي الشرعية عليه) فعصم الله رسوله ﷺ من الصلاة فيه وذلك أنه كان على جناح سفر إلى تبوك، فلما رجع منها فنزل بذي أوان (مكان بينه وبين المدينة ساعة) نزل عليه الوحي في شأن هذا المسجد ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٩/١٠٧]. أما قوله ضراراً فلأنهم أرادوا مضاهاة مسجد قباء، وكفراً بالله لا للإيمان به، وتفريقاً للجماعة عن مسجد قباء، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وهو أبو عامر الراهب (الفاسق) الذي أبى الإسلام وذهب إلى مكة فاستنفرهم إلى معركة أحد (كما سبق ذكره) ثم ذهب إلى ملك الروم قيصر ليستنصره على رسول الله ﷺ وكان أبو عامر قد تنصّر.. وكان يكتب إلى إخوانه الذين نافقوا يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً. فكانت رسله تفد إليهم كل حين. فبنوا هذا المسجد في الصورة الظاهرة وباطنه دار حرب ومقر لمن يفد من عند أبي عامر الراهب، ومجمع لمن هو على طريقتهم من المنافقين ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ ..﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي الذين بنوه يدّعون ذلك .﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. ونهى رسول الله ﷺ أن يقوم فيه لئلا يقرر أمره.. بل أمره بالقيام في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم (وهو قباء) فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ومعن بن عدي - أو أخاه عاصم بن عدي - فأمرهما أن يذهبا إلى هذا المسجد الظالم أهله فيحرقاه بالنار[١]. وهكذا أحرق المسجد وتفرق عنه أهله.

هذه الحادثة تمثل إحدى صور حركات المنافقين الذين يلبسون مسوح التقوى لإخفاء مكرهم.. ولقد بلغت بهم الجرأة حداً جعلتهم يستخدمون رمز العبادة (الذي هو المسجد) مظلة لوقاية تآمرهم.. وفي الحادثة عبر كثيرة. منها:

١ - لا تخدعنك الأشكال والمظاهر. وابحث عن روح الشريعة في كل أمر.

٢ - قد يسلك الشيطان دروب الخير ليصل بعد ذلك إلى أهدافه الخبيثة الدنيئة.

٣ - سمي هذا المسجد (مسجد الضرار) لأنه مبني على الضرر. إذ لا حاجة لمسجد في هذا المكان الذي يكفي فيه مسجد قباء.. ولو كانوا يريدون الخير بالمسلمين لبذلوا جهودهم وأموالهم في مجالات أخرى تظهر فيها حاجات المسلمين كأن يزودوا المجاهدين الخارجين إلى تبوك بالسلاح والطعام وما يُركب عليه.

٤ - ولذا يمكن أن نقول إن تركيز الاهتمام على جانب واحد من جوانب الدين بحيث تبذل له زيادة عن المطلوب.. بينما الجوانب الأخرى مهملة ومغيبة يؤدي إلى ضرر وإضرار. إن هذا من شأنه أن يرسم للدين صورة (كاريكاتورية) تجسم فيها أعضاء على حساب أخرى. هذا إذا افترضنا النوايا الحسنة كما نجد في عالمنا المعاصر من يذهب كل عام إلى الحج بينما يعجز كثير من الشباب عن

(١) البداية والنهاية، ٥/٢١ - ٢٢.

توفير المال اللازم للإحصان. وتعاني الأمة من نقص فيما يصرف على مجالات التربية والتعليم.. بينما يبالغ في الإنفاق على زخرفة المساجد.

٥ - مقصد كبير من مقاصد الشريعة دفع الضرر (لا ضرر ولا ضرار) وتحقيق ما ينفع الناس وهو ميزان هام توزن به الأعمال في عالمنا لكشف الصالح المأجور منها.

٦ - ومرة أخرى نلاحظ أن النبي ﷺ لم يأمر بقتل هؤلاء المتآمرين واقتصر الأمر على حرق مركز تجمعهم وإحباط سعيهم. وهو حرص دقيق من النبي ﷺ على اجتناب سفك الدماء وترسيخ حرمة الإنسان في نفوس أصحابه وتعويدهم على البعد عن سفك الدماء.

* * *

اجتهد فأصاب..

وفي طريق العودة من تبوك حدث مرة أن حانت صلاة الفجر فذهب رسول الله ﷺ يتوضأ ومعه المغيرة بن شعبة فأبطأ على الناس. فأقيمت الصلاة فتقدم عبد الرحمن بن عوف فأمَّ الناس. وأدركهم رسول الله ﷺ في الركعة الثانية فاقتدى بعبد الرحمن. فلما سلم الناس أعظموا ما وقع فقال لهم رسول الله ﷺ: «أحسنتم وأصبتم»[1].

وأشرف النبي ﷺ على المدينة فقال: «هذه طابة، وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه». وخرج النساء والصبيان يتلقون مقدم النبي ﷺ من تبوك بالترحيب والغناء. يقول السائب بن يزيد: أذكر أني خرجت مع الصبيان نتلقى رسول الله ﷺ إلى ثنية الوداع مقدمه من غزوة تبوك[1].

---

(١) رواه البخاري.

رسول الله ﷺ يتأخر في الوضوء.. والمسلمون يخافون فوات الوقت.. فيقدمون عبد الرحمن ليصلي بهم.. ويدركهم النبي ﷺ فيأتمُّ به.. فلما انصرفوا من الصلاة ورأوا رسول الله ﷺ كبر عليهم أنهم لم ينتظروه وأنه وقف مؤتماً بينهم.. لكنه ﷺ أثنى عليهم.. فالصلاة أولى بالحرص.. ورسول الله ﷺ إنما بعث إليهم ليحرصوا على دينهم وصلاتهم..

صلوات الله عليك أيها الحبيب المصطفى ما أعظم تواضعك وما أرقى تجردك عن ذاتك وحرصك على تعليم أمتك أن يفكروا ويجتهدوا.. ويكون ارتباطهم بالله وعبادته أكبر من تعلقهم برسول الله ﷺ، ولقد أتقنوا ذلك رغم حبهم الشديد لك حتى إن قدومك إلى المدينة كان عيداً للصغار والكبار.

ويذكر ابن كثير في نهاية هذه الغزوة ناساً آخرين - من المؤمنين العصاة - كانوا قد تخلفوا عن رسول الله وعددهم عشرة ومنهم أبو لبابة.. فربط سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد حتى يتوب الله عليهم، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/١٠٢]. فلما نزلت الآيات أرسل إليهم رسول الله ﷺ فأطلقهم وعذرهم. فجاؤوا بأموالهم وقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا. فقال ﷺ: «ما أمرت أن آخذ أموالكم» فأنزل الله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ٩/١٠٣]. ونلاحظ قوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ وليس كل أموالهم. وهي ميزة الإسلام الدين الواقعي البعيد عن الإعنات.

ويختم ابن كثير حديثه عن الغزوة بقوله:

[كان المتخلفون عن غزوة تبوك أربعة أقسام:

مأمورون مأجورون كعلي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة وابن أم مكتوم.

ومعذورون وهم: الضعفاء والمرضى والمقلّون وهم البكّاؤون.

وعصاة مذنبون وهم الثلاثة وأبو لبابة وأصحابه المذكورون.

وآخرون ملومون مذمومون وهم المنافقون][1].

وقد سبق لي أن صنَّفت مواقف الجميع بحسب توفر القدرة والإرادة.. ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية الذي قال: (إذا توفرت الإرادة الجازمة مع القدرة التامة حصل المراد).

* * *

(١) البداية والنهاية، ٥/ ٢٧.

٨- عام الوفود

ثقيف تسبق في عام الوفود

كانت السنة التاسعة هي عام الوفود.. وإنما كانت العرب تربّص بإسلامها أمر هذا الحي من قريش. فقد كانوا أهل البيت والحرم وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم.. فلما فتحت مكة ودانت له قريش عرفت العرب أن لا طاقة لها بحرب محمد ﷺ[1]، وجعلت القبائل ترسل وفودها إليه.

فلما عاد رسول الله ﷺ من تبوك في رمضان قدم عليه وفد من ثقيف.. وذلك أن مالك بن عوف النضري حين أسلم جعله النبي ﷺ أميراً على من أسلم من قومه.. فكان يغزو بلاد ثقيف ويضيق عليهم حتى ألجأهم إلى الدخول في الإسلام. ويذكر أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم (بعد حصارهم) اتبع أثره عروة بن مسعود (ولم يكن قد شهد حنيناً ولا حصار الطائف فقد كان هو وغيلان بن سلمة بِجُرَش[2] يتعلمان صنعة الدبابات - وهي آلة من آلات الحرب يدخل فيها الرجال فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها - والمجانيق - آلات يرمى بها الحجارة الثقيلة ونحوها - والضُبور - مثل رؤوس الأسفاط يتقى بها في الحرب)[3] حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة

---

(١) البداية والنهاية، ٥/ ٤٠.

(٢) جُرش من مخاليف اليمن.

(٣) تهذيب سيرة ابن هشام، ص٢٧٠.

فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام فقال له رسول الله ﷺ - كما يتحدث قومه -: «إنهم قاتلوك»، وعرف رسول الله أن فيهم نخوة الامتناع للذي كان منهم فقال عروة: يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم، وكان فيهم كذلك محبباً مطاعاً، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم، فلما أشرف على علية له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه رموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم فقتله،... فقيل لعروة (وهو يموت): ما ترى في دِيَتك؟ قال: كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إلي، فليس فيَّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم فدفنوه معهم، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال فيه: «إن مثله في قومه كمثل صاحب يس في قومه»[1]. ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً، ثم إنهم ائتمروا بينهم ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب مَنْ حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا... ثم أجمعوا على أن يرسلوا رجلاً منهم، فأرسلوا عبد ياليل بن عمرو بن عمير ومعه اثنان من الأحلاف وثلاثة من بني مالك، وقيل: كانوا بضعة عشر رجلاً رئيسهم كنانة بن عبد ياليل.. فلما دنوا من المدينة ونزلوا قناة، ألفوا المغيرة بن شعبة يرعى في نوبته ركاب أصحاب رسول الله ﷺ، فلما رآهم ذهب يشتد ليبشر رسول الله ﷺ بقدومهم، فلقيه أبو بكر الصِّديق فأخبره عن ركب ثقيف أن قدموا يريدون البيعة.. فقال أبو بكر للمغيرة: أقسمت عليك لا تسبقني إلى رسول الله حتى أكون أنا أحدثه، ففعل المغيرة.. ثم خرج المغيرة إلى أصحابه فروح الظَّهر معهم وعلمهم كيف يحيون رسول الله ﷺ، فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية، ولما قدموا على رسول الله ضربت عليهم قبة في المسجد وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله. فكان إذا جاءهم بطعام من عنده لم يأكلوا منه حتى يأكل خالد قبلهم. وهو الذي كتب لهم كتابهم. وكان مما اشترطوا على رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية ثلاث سنين، فما برحوا يسألونه سنة سنة

(١) البداية والنهاية، ٢٩/٥، راجع الآية ٢٠ وما بعدها من سورة يس.

ويأبى عليهم حتى سألوه شهراً واحداً بعد مقدمهم ليتألفوا سفهاءهم فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى إلا أن يبعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة ليهدماها، وسألوه مع ذلك ألا يصلوا وألا يكسروا أصنامهم بأيديهم. فقال: «أما كسر أصنامكم بأيديكم فسنعفيكم من ذلك، وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه» فقالوا: سنؤتيكها وإن كانت دناءة[1]. وفي رواية أن رسول الله ﷺ أنزلهم المسجد ليكون أرق لقلوبهم فاشترطوا على رسول الله ﷺ: ألا يحشروا ولا يعشروا ولا يُجبوا ولا يستعمل عليهم غيرهم. (أي لا يُجمعون للجهاد ولا تؤخذ منهم الزكاة أو الصدقات) فأعطاهم النبي ﷺ ذلك وقال: «ولا خير في دين لا ركوع فيه» وقال عثمان بن أبي العاص (وكان أصغرهم): يا رسول الله علمني القرآن واجعلني إمام قومي[1].

ويقول جابر: اشترطت ثقيف على رسول الله ﷺ أن لا صدقة عليها ولا جهاد. وأنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعد ذلك: «ستصدقون ويجاهدون إذا أسلموا»[1]. وفي رواية أن وفد ثقيف كانوا إذا أتوا رسول الله خلفوا عثمان بن أبي العاص في رحالهم فإذا رجعوا وسط النهار جاء هو إلى رسول الله فسأله عن العلم فاستقرأه القرآن، فإن وجده نائماً ذهب إلى أبي بكر الصديق، فلم يزل دأبه حتى فقه في الإسلام وأحبه رسول الله ﷺ حباً شديداً. يقول عثمان: قلت: يا رسول الله اجعلني إمام قومي. قال: «أنت إمامهم فاقتد بأضعفهم واتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً»[1]. وقال له ﷺ: «من أمّ قوماً فليخفف بهم فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة. فإذا صلى وحده فليصل كيف شاء»[2].

فلما توجهوا إلى بلادهم راجعين بعث معهم ﷺ أبا سفيان والمغيرة في هدم الطاغية.

ونقف لنتأمل سياسة الرسول ﷺ مع الأفراد والأقوام:

(١) البداية والنهاية، ٥/ ٣٠.
(٢) رواه مسلم.

١ - سبق أن أشرت في فقرة (العدل الحرفي أم فقه الحالة؟) إلى براعة النبي ﷺ في علاج عداوة مالك بن عوف (زعيم هوازن) إذ أرسل من يخبره بأنه إن أسلم ردَّ إليه أهله وماله وأعطاه مئة من الإبل.. ثم ثبته النبي ﷺ أميراً على قومه. فما زال يزعزع أمن ثقيف حتى ألجأها إلى رسول الله ﷺ.

٢ - ونتأمل خبر عروة بن مسعود والنقلة الهائلة التي حققها.. فلقد كان في اليمن يتعلم صناعة أفضل آلات الحرب في ذاك الزمان ليحصّن قومه ثقيفاً.. عندما حاصر النبي ﷺ الطائف. فما الذي جعله يسرع في لحاق النبي ﷺ حتى أدركه قبل أن يدخل المدينة..؟ ويسلم ويطلب أن يعود إلى قومه داعياً؟! في الأمر سر لم تذكره لنا الروايات.. ولعل أخبار النبي ﷺ وحسن تعامله مع هوازن من إطلاق أسراهم.. ومنّه على الزعماء بالعطايا وتأليفه للقلوب.. كل ذلك قد أثر في نفسه وأشعره بحلاوة الإسلام وأخلاقه.. فأسرع إليه يبتغي إدراك نصيبه قبل أن يفوت الأوان.

ويمضي مصمماً على دعوة قومه إلى الخير والنور رغم تحذير النبي ﷺ له.. فلقد كان يحبهم ويحرص عليهم.. ويعلم أنهم يحبونه أكثر من أولادهم.. فكيف يقتلونه؟!

لكن الأحداث تكشف عن فارق جسيم بين الحُبَّين..

فالحب الذي لا يدعمه الإيمان بالله.. أناني ينحاز للذات ويقتل من يخالفها.. وحب المؤمن كله إشعاع وعطاء.. وجود بالنفس.. دون أن تشوبه شائبة انتقام.. وكما قال أحدهم: (أريد حياته ويريد موتي).. فلما رموه بالسهام سألوه عن ديته.. فقال وهو يجود بأنفاسه الأخيرة: هي كرامة لي بالشهادة فلا تعاقبوا من قتلني..!! والنقلة شاسعة جداً بين ثارات الجاهلية وهذا الحب والتسامح..!! فكيف كان يحدث هذا الانقلاب في النفوس..؟!

ويشبه ذلك ما حدث لسحرة فرعون حين انقلبوا من دجالين مرتزقة إلى قديسين يموتون في سبيل إيمانهم بالحق..

ما سر هذا الإيمان الذي يقلب النفوس من الأسفل إلى الأعلى..؟!

تعليلي الوحيد حتى الآن أن في النفس الإنسانية نفحة مقدسة من روح الله قد تخبو شعلتها لشدة الظلمات من حولها.. لكنها حين تصادف الحق الذي تبحث عنه وتجد صداه في أعماقها.. تتأجج وتتدفق على من حولها..

إنها تشبه لحظة (أرخميدس).. (وجدتها).. حتى يظنها الناس ضرباً من الجنون.

وشهد له رسول الله ﷺ أنه قام بالدور نفسه الذي قام به مؤمن (يس) حين دعا قومه للإيمان بالرسل وأعلن كلمته على الملأ: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٣٦/ ٢٥-٢٧]. قتلوه وما زال يتحسر عليهم لحرمانهم من المعرفة بالله.. ولله در إقبال إذ يقول:

إنما المسلم بالحب قهر   مسلم لا حب فيه قد كفر

٣ - ونجد ثقيفاً - كشأن كثير من العرب - ترغب في الإسلام لشعورها بأنه لا طاقة لها بحربه.. فهي لم تقتنع بمبادئه بعد وإنما تمشي وراء مصالحها.. ورسول الله ﷺ يدرك تماماً دوافعهم والمستوى النفسي الذي هم فيه.. فيتقبلهم كما هم ويرضى منهم بخطوات مبدئية بسيطة لكنها أساسية: هدم طاغيتهم.. والالتزام بالصلاة. هذان الأمران لا مجال للمساومة فيهما ولا لتأخيرهما.

٤ - كان المغيرة من ثقيف فأسرع يشتد ليبشر النبي ﷺ بقدوم قومه.. لكنه يرضى بأن يترك هذه المأثرة لأبي بكر ﷺ حين يستحلفه أن يفعل.. وهو موقف مليء بالحب لرسول الله ﷺ والرغبة في إسعاده.. والحب بين الأصحاب لدرجة الإيثار.

٥ - ويحاول المغيرة أن يعلم قومه ويهيئهم لمقابلة النبي لكن جاهليتهم كانت أقوى.. ولعل مشاعر العداء ما زالت مسيطرة عليهم حتى إنهم يحتاطون فلا يأكلون ممّا يأتيهم من طعام حتى يأكل خالد (وهو الوسيط المسلم) قبلهم منه..!!

ورسول الله ﷺ مجتهد في علاج قلوبهم فيختار لهم النزول في المسجد ليرقق قلوبهم بسماع الأذان وشهود صلاة الجماعة وتلاوة القرآن.

٦ - ونتأمل التفاوض بين النبي ﷺ وبين وفد ثقيف لنتعلم منه الأمور التي يمكن التساهل بها.. وما لا يمكن التساهل به.. وهو أصعب شيء في امتحان الحياة.. أن تعرف كيف تضع التساهل في مكانه المناسب.

لا تساهل في التوحيد.. ولا بد من قبول السواء والتبرؤ من كل طغيان. ولا بد من الصلاة.. ولا يكون دين من غير صلاة للرب.

وكل ما عدا ذلك يمكن غض النظر عنه.. لن تكسروا أصنامكم بأيديكم.. لن نستفزكم للقتال والجهاد.. لن نأخذ الصدقات من أموالكم..

وانظر إلى قولهم عن الصلاة وقد يئسوا من أن يعفيهم النبي ﷺ منها: (سنؤتيكها وإن كانت دناءة)!! مساكين لم يجربوا عظمة الصلاة وحلاوتها.. رأوا الجباه توضع على الأرض فظنوها دناءة.. ولم يدركوا بعد أن هذه الجباه الساجدة لله كانت وحدها هي الحرة العزيزة التي استعصت على الخضوع للطغاة. مساكين.. لم يدركوا بعد ولم يتذوقوا حلاوة الصلة والقرب من الله في السجود.

٧ - ورسول الله ﷺ مدرك لكل هذه المراحل ويطمئن أصحابه إلى أن العلاج سيسري في النفوس كما يسري الدواء في العروق «سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا» فلا تهولنكم شروطهم.. ولا تقفوا عند كلامهم.. وارفقوا بهم..

﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾.. هل نسيتم كيف كنتم.. وكيف صرتم؟!

٨ - وفي قلب هذه الجاهلية العمياء.. يتفتح برعم يرعاه رسول الله ﷺ ويرويه بالقرآن.. إنه أصغر الوفد عثمان بن أبي العاص.. يتركونه عند متاعهم إذا ذهبوا للتفاوض مع النبي ﷺ فإذا رجعوا أسرعَ هو إلى رسول الله ﷺ يطلب العلم ويتأدب في الطلب فلا ينبه النبي ﷺ إن وجده نائماً وإنما يقصد أبا بكر.. ويرجع طالب العلم هذا بأعظم الكسب فقد تفقه في الدين ونال حب النبي ﷺ وعيِّن إماماً لقومه في صلاتهم.

٩ - ونجد وصية النبي ﷺ إلى الإمام بأن يخفف في الصلاة بالناس وليضع نفسه في مكان الضعيف والكبير وذي الحاجة.. حتى لا يفتنهم عن دينهم ولا يحرجهم. فإذا خلا بنفسه فليطول كما يشاء..

وهو درس آخر في وضع الأمور في مكانها المناسب.. وفي تعليم المؤمن أن يبتعد عما يوقعه في الرياء.. لا تلزم الناس إلا بما يقدرون عليه وألزم نفسك بما تشاء.. الزم حدود الاعتدال في عمل العلانية.. واجتهد كما تشاء في أعمال السر حتى تتجنب الرياء.

١٠ - خبر عثمان بن أبي العاص هذا يوحي لنا بأهمية الجيل الشاب الجديد في عملية التغيير.. بينما الكبار محبوسون في قوالب ثقافتهم القديمة.. نجد الشباب يتخطون العقبات بجرأة ويتفاعلون مع التغيير ويتشربونه بسرعة.. إن الجهود حين تكرَّس للصغار تؤتي ثمارها بشكل أفضل.. وهو أمر يعاكس ما درجنا عليه في لقاءاتنا وأعمالنا اليومية.. إذ يبقى الصغار على الهامش في الحوارات والأحاديث والتخطيط.. ولا يهمنا من أمرهم إلا حشو بطونهم.. فكيف نحلم بمستقبل زاهر إذا لم نعتنِ بعقول ونفوس أجيال المستقبل..؟!

• • •

نوع من العلاج النفسي

ويروي عثمان بن أبي العاص أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده فقال ﷺ له: «ضع يدك على الذي يألم من جسدك وقل بسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»(١). وفي بعض الروايات: ففعلت ذلك فأذهب الله ما كان بي فلم أزل آمر به أهلي وغيرهم.

إنه تدريب على العلاج الإيماني النفسي في زمن كان الطب فيه ضعيفاً.. ولا نزال نسمع الجديد عن أثر الإيمان في الصحة النفسية والجسمية.. وكثير من الأمراض تظهر بسبب القلق النفسي أو الجزع إثر مصاب أو صدمة.. ولا نزال نسمع أيضاً عن ظهور آثار سيئة لكثير من العقاقير التي كانت تستعمل علاجاً.. والجميع متفقون على أولوية إعادة السكينة النفسية للمريض.

وهنا رسول الله ﷺ يعلم الرجل اللجوء إلى الله والفزع إلى كنفه وجواره.. فكيف لا يشعر بالأمن والسكينة من لجأ إلى رب السموات والأرض..؟! فإذا ارتاحت النفس ارتاح الدماغ وصدرت الأوامر للأعصاب ببث الأمن والسكينة في كل جزء وطرف من هذا الإنسان.. فإذا وضع يده على موضع الألم.. كانت الأوامر أسرع..

وهذا لا يعني أنني أنكر الجانب الغيبي في الموضوع.. فإن الله سبحانه وتعالى أكرم من أن يرد دعاء المخلصين إذا أطاعوه في بذل الأسباب المستطاعة وفي صدق التوجه إليه.. وعلى هذا أفهم الأمر بقراءة المعوذات وفاتحة الكتاب وآية الكرسي.. وكثير من الأدعية المأثورة. لأن الدعاء فيه تحديد للهدف قبل كل شيء ثم إن المؤمن يبذل الأسباب الممكنة ويتوجه إلى ربه.. فهو مطمئن إلى ربه راضٍ بقدره..

* * *

(١) رواه مالك وأحمد ومسلم.

المغيرة يزعزع ثقافة الشرك

عاد وفد ثقيف ومعهم أبو سفيان والمغيرة ليهدما الطاغية. فلما قدموا الطائف أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان فأبى وقال: ادخل أنت على قومك وأقام أبو سفيان بماله بذي الهرم، فلما دخل المغيرة علاها يضربها بالمعول وقام قومه بني معتب دونه خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة بن مسعود. وخرج نساء ثقيف حسَّراً يبكين عليها. ويقول أبو سفيان والمغيرة يضربها: واهاً لك آهاً لك[1]. (كلمة تقال بمعنى التأسف). وفي رواية أنهم عمدوا إلى اللات وقد استكفت ثقيف رجالها ونساءها والصبيان حتى خرج العواتق من الحجال ولا يرى عامة ثقيف أنها مهدومة ويظنون أنها ممتنعة. فقام المغيرة فأخذ الكرزين - يعني المعول - وقال لأصحابه: والله لأضحكنكم من ثقيف، فضرب بالكرزين ثم سقط يركض برجله، فارتج أهل الطائف بصيحة واحدة وفرحوا وقالوا: أبعد الله المغيرة قتلته الربة، وقالوا لأولئك: من شاء منكم فليقترب، فقام المغيرة فقال: والله يا معشر ثقيف إنما هي لكاع حجارة ومدر، فاقبلوا عافية الله واعبدوه، ثم إنه ضرب الباب فكسره. ثم علا سورها وعلا الرجال معه فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سوّوها بالأرض، وجعل سادنها يقول: ليغضبنَّ الأساس فليخسفنَّ بهم، فلما سمع المغيرة قال لخالد: دعني أحفر أساسها فحفروه حتى أخرجوا ترابها وجمعوا ماءها وبناءها. وبهتت عند ذلك ثقيف[2]. فلما أخذ مالها (المال الموجود في بيت الطاغية) وحليها أرسل إلى أبي سفيان فقال: إن رسول الله ﷺ أمرنا أن نقضي عن عروة بن مسعود وأخيه الأسود (والد قارب) دينهما من مال الطاغية. وكان الأسود قد مات مشركاً ولكن أمر رسول الله ﷺ بذلك تألفاً وإكراماً لولده قارب بن الأسود[3] (وكان قد جاء

---

(١) البداية والنهاية، ٥/ ٣٤.
(٢) المصدر السابق، ٥/ ٣٤.
(٣) المصدر السابق، ٥/ ٣٣.

مع ابن عمه أبي مليح بن عروة إلى النبي وأسلما قبل أن يأتي وفد ثقيف إليه). لأن دَين أبيه أصبح عليه.

نتأمل في الخبر أدب المغيرة إذ أراد تقديم أبي سفيان في الدخول على ثقيف.. لكن أبا سفيان يرفض ذلك.. فلعله كان يخشى مصير عروة بن مسعود.. وهو ليس من ثقيف وإن كان بينهم مصاهرة. فآثر أن يبقى في أرض له يراقب الأمور من بعيد..

أما المغيرة فإنه يتصدى للمهمة التي كلفه بها رسول الله ﷺ بهمة واقتدار.. ويقف قومه (بنو معتب) لحمايته من عدوان ثقيف.

ونتأمل صعوبة التحرر من الصنم.. وصعوبة التغيير الثقافي.. ثقيف لا تستطيع أن تصدق أن مقدساتها وأفكارها كانت باطلة.. وأن الكهنة والسدنة كانوا يستغلونها بالدجل والأوهام..!! ليس سهلاً أن يسقط الوهم الذي عشت عليه طيلة عمرك.. وحتى أبو سفيان يتأسف عليها.. (واهاً لها..)!!

هل كان يتأسف عليها أم يسخر منها؟! الله أعلم.

والمغيرة يمعن في فضح دخائلهم.. ويلجأ إلى حيلة تجعلهم يخجلون من ضلالهم.. لقد اضطرهم إلى إخراج تصوراتهم وأفكارهم لإعادة فحصها كي يتبين بطلانها.. (ويهتت عند ذلك ثقيف) فلقد تلقت صدمة فكرية أكبر مما تتوقع. ولا بد من السكوت والتأمل لإعادة النظر وإعادة ترتيب الأفكار بعد أن بعثرها زلزال المغيرة..

والسادن متشبث بالدجل إلى آخر لحظة.. ولعله هو أيضاً مُغرَّر به لحساب آخرين..

بينما رسول الله ﷺ كبير وعظيم في رحمته وإكرامه لابن عروة وابن الأسود.. يعينهما على سداد ديون والديهما.. ولو كان الأسود مشركاً.. ولكن إكراماً لابنه.

* * *

رحمة بلا حدود..

وفي أواخر شوال من ذاك العام مرض عبد الله بن أبي - رأس النفاق - وجعل رسول الله ﷺ يعوده في مرضه. ثم مات فجاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ وسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام ﷺ يصلي عليه فقام عمر بن الخطاب فأخذ بثوبه وقال: يا رسول الله تصلي عليه وقد قال في يوم كذا كذا؟ وقال في يوم كذا كذا وكذا!! فقال: «دعني يا عمر فإني بين خيرتين، ولو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت» ثم صلى عليه. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٩/ ٨٤]. قال عمر: فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم[١].

وقول النبي ﷺ: «فإني بين خيرتين» يشير إلى قول الله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٩/ ٨٠].

تأمل في الخبر مقدار رحمة النبي ﷺ بعدوه.. وقد فعل الأفاعيل ونشر الأقاويل في حرب الله ورسوله..!! وعمر يذكره بذلك.. ورسول الله ﷺ لم ينس كل ذلك.. لكنه صلوات الله عليه أعظم نفساً من أن يحقد أو يُعامِلَ بالمثل.. وإنه ليرحم الناس جميعاً من أن يصيبهم عذاب الله.

ثم إنه ﷺ يكرم ابن المنافق ويرحمه.. ذاك المؤمن البار بوالده والذي أبدى استعداده مرة لقتل والده إرضاء لله ورسوله. فلتقر عينك يا عبد الله فإنك لن تطلب أمراً من رسول الله ﷺ يقدر عليه إلا أعطاكه.

ونحن لا نعجب من جراة عمر ﷺ لأننا عرفنا أنه نتاج التربية النبوية التي كانت تنمي الفكر والمحاكمة في المؤمنين.. ولا تقبل بأن يكونوا مجرد أتباع لا يسمح لهم بالمناقشة والاعتراض.. بل شخصيات مستقلة تفكر وتحاور بأدب.

---

(١) رواه البخاري.

لكنني أعجب من جرأة رسول الله ﷺ حين يقول في إحدى الروايات: «إن ربي خيرني فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ وسأزيد على السبعين»(١). لعل الله يغفر.

إنني أعجب من رحمة النبي ﷺ العظيمة.. ومن إصراره على فعل كل ما يقدر عليه لإنقاذ الناس وتجنيبهم العذاب. وصدق الله تعالى في وصفه حين قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/١٢٨].

لكن علم الله أعظم من علمنا ومن علم الأنبياء.. وحاشا لله سبحانه أن يكون أقل رحمة من محمد ﷺ.. فلقد عَلِمَ الله سبحانه من يستحق الرحمة والتوبة ممن لا يجوز له أن يَريح رائحتها. ونحن نقر لله تعالى بالعلم المطلق والصفات المثلى.. لكنَّ علم الله لا يطّلع عليه أحد.. والأنبياء لا يعرفون إلا ما عرَّفهم به الله.. ونحن مطالبون بالتأسي برسول الله ﷺ والاقتباس من رحمته.. والأخذ بمنهجه ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/٢١].

فلئن كان رسول الله ﷺ نفسه لا يقبل أن يجزم بمصير هذا المنافق عند الله.. فكيف يجوز لنا أن نجزم فعلاً بأن فلاناً كافر من أهل النار؟!

والأولى بنا أن نرحم الجميع ونستغفر للجميع.. ولا نبخل بتقديم الخير لأي إنسان. فإنك لا تدري كيف تكون الخاتمة.. و ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٦٠/٧].

* * *

(١) في الصحيحين.

تطهير البيت من الشرك والعري

وجاء موسم الحج من العام التاسع فأرسل النبي ﷺ أبا بكر أميراً على الحج، وأهل الشرك على منازلهم من حجهم لم يُصَدوا بعد عن البيت، ومنهم من له عهد مؤقت إلى أمد. فنزلت بعد خروجه الآيات الأولى من سورة التوبة ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٩/١-٤].

فأرسل النبي ﷺ علياً رضي الله عنه بعد أبي بكر رضي الله عنه ليكون معه ويتولى علي بنفسه إبلاغ البراءة إلى المشركين نيابة عنه ﷺ، لكونه ابن عمه من عصبته[(١)]. وسئل علي رضي الله عنه: بأي شيء بعثت؟ يوم بَعَثَه رسول الله ﷺ مع أبي بكر في الحجة، قال: بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج المشركون بعد عامهم هذا[(٢)].

يقول أبو هريرة: ويوم الحج الأكبر يوم النحر وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس: العمرة الحج الأصغر[(٣)].

لماذا تنزل البراءة من عهود المشركين وينذرون بإنهاء الأمان بعد انقضاء مهلة حددتها الآيات بأربعة أشهر..؟!

---

(١) البداية والنهاية، ٥/٣٦ - ٣٧.

(٢) رواه أحمد والترمذي.

(٣) رواه البخاري.

سؤال كبير وجوابه أكبر.. لأنه يحتاج إلى استعراض أحداث السيرة منذ مبعث النبي ﷺ إلى نزول تلك الآيات.. كيف قابل المشركون دعوة النبي ﷺ وكيف كانوا يردون على رحمته وحبه.. وكيف كان التزامهم بالعهود التي أبرمت معه ﷺ. لقد أثبت المشركون خلال عشرين عاماً أنهم - كما قال الله فيهم - إن سنحت لهم فرصة للغدر لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمّة. فكيف يتركون ليعيثوا في الجزيرة فساداً؟! بل إن الآيات أعطتهم من الإنصاف أكثر مما يستحقون:

١ - فقد استثنى من هذا الإنذار الذين لم ينقضوا عهودهم وأمر المؤمنين بالوفاء لهم.

٢ - لم ينقض عهودهم إلا بعد تبليغ عام تم إعلانه في موسم الحج الذي يجمع أفراداً من كل القبائل الموجودة في الجزيرة العربية.

٣ - أعطاهم مهلة كافية للعودة إلى بلادهم والتفكير في تدبير أمورهم أربعة أشهر.

٤ - رغبهم بالتوبة والانضمام إلى مجتمع الخير.. وكرر إنذاره ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ فأين تذهبون وكل البلاد أرضه وفي قبضته..؟! لا ملجأ منه إلا إليه.

ولم يكتف ﷺ بقراءة الآيات في الموسم بل أعلن ما أضافه النبي ﷺ من بنود: الأول تحذير من المصير في الآخرة. واثنان لإنهاء أعمال الشرك حول البيت العتيق: لا يحج مشرك ولا يطوف عريان[1]. والرابع تأكيد على عهود الملتزمين بعقودهم مع النبي ﷺ بأن عهودهم سارية المفعول إلى المدة المكتوبة.

---

(١) كانت قريش قبل الإسلام قد روجت بين الناس أن الحاج لا يجوز له أن يطوف بالملابس التي ارتكب الآثام فيها وبذلك يضطر الناس إلى شراء ثياب منها ليحجوا فيها، فمن لم يجد مالاً طاف عرياناً..!!

وزيادة في تأكيد صدق هذا البلاغ فقد حرص النبي ﷺ على أن يقوم به أحد أهل بيته. أضيف: بعض الباحثين قال: إن يوم الحج الأكبر هو يوم عرفة، وقد تمَّ التبليغ فيه.. ولا أجد مشكلة في قبول أي من الروايتين.

❁ ❁ ❁

بعض الأحداث في هذا العام

في رجب منه مات النجاشي صاحب الحبشة ونعاه رسول الله ﷺ إلى الناس.

وفي شعبان منه توفيت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ (وزوج عثمان الثانية) فغسلتها أسماء بنت عميس وصفية بنت عبد المطلب. وقيل غسلها نسوة من الأنصار فيهن أم عطية.

وفي هذه السنة كانت غزوة تبوك - في رجب كما تقدم - وهي آخر غزوة يغزوها النبي ﷺ. وفيها جاءته وفود كثير من القبائل مذعنة.. وقد عرفوا أنه لا طاقة لهم بعداوة رسول الله ﷺ.. فجاؤوا إليه أفواجاً من كل وجه كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١١٠/١-٣]. وكانت بعض القبائل قد وفدت على النبي ﷺ قبل الفتح، وأولئك قد شهد لهم الله سبحانه بفضيلة السبق ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ [الحديد: ٥٧/١٠]. من هؤلاء مثلاً: من مضر أربع مئة من مزينة وذلك في رجب سنة خمس فجعل لهم رسول الله ﷺ الهجرة في دارهم وقال: «أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم» فرجعوا إلى بلادهم[(١)]. وخرجوا مع النبي ﷺ بعد ذلك لفتح مكة.

(١) البداية والنهاية، ٥/ ٤١.

فلماذا أعطى النبي ﷺ هؤلاء استثناء من الهجرة وثبتهم في ديارهم؟ لا بد أن ظروفهم في ديارهم كانت جيدة ولم يتعرضوا للفتنة في الدين. وعندها يصبح بقاؤهم في ديارهم أفضل، لأنهم يمثلون مصدر إشعاع لقومهم.

❀ ❀ ❀

مباراة أدبية..

وفي العام التاسع جاء وفد بني تميم وفيهم أشرافهم مثل الأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم.. ومعهم عيينة بن حصن الفزاري، وقد كان الأقرع وعيينة قد شهدا مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحنيناً والطائف.. فلما دخل وفد بني تميم المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته: أن اخرج إلينا يا محمد. فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم. فخرج إليهم. فقالوا: يا محمد جئناك نفاخرك فائذن لشاعرنا وخطيبنا. قال: «قد أذنت لخطيبكم فليقل» فقام عطارد بن حاجب فقال:

الحمد لله الذي له علينا الفضل والمنّ، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكاً ووهب لنا أموالاً عظاماً نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عدداً وأيسره عدة، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكِنّا نحيا (أي نستحي) من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نُعْرف بذلك، أقول هذه لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا.

ثم جلس فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشماس: «قم فأجب الرجل في خطبته»، فقام فقال: الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيَّهُ علمُهُ، ولم يك شيء قط إلا من فضله. ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولاً أكرمه نسباً[1]، وأصدقه حديثاً،

(١) أي أكرم الخلق.

وأفضله حسباً، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين. ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس حسباً، وأحسن الناس وجوهاً. وخير الناس فعالاً، ثم كان أول الخلق إجابة واستجاب لله حين دعاه رسول الله نحن، فنحن أنصار الله، ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله..

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات. والسلام عليكم(١).

فقام الزبرقان بن بدر فقال شعراً منه:

نحن الكرام فلا حيٌّ يعادلنا ... منا الملوك وفينا تُنصب البيع(٢)

فننحر الكُومَ عَبْطاً في أرومَتِنا(٣) ... للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا

إنا أبينا ولا يأبى لنا أحد ... إنا كذلك عند الفخر نرتفع

وكان حسان غائباً فاستدعاه رسول الله ﷺ. يقول حسان: فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقام شاعر القوم فقال ما قال عرضت في قوله (أي قلت على وزن شعره). فلما فرغ الزبرقان قال ﷺ: «قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال» فقام حسان فقال شعراً منه:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تُتَّبع

يرضى بهم كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وكل الخير يصطنع

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

لا يرقع الناس ما أوهت أكفهمُ ... عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص٣٠٠ و٣٠١.

(٢) البيع مواضع الصلوات.

(٣) الكوم: النوق العظيمة السنام. عبطاً: أي من غير علة. الأرومة: الأصل. أي الكرم فينا أصيل.

أعفة ذكرت في الوحي عفتهم لا يطبعون ولا يرديهم طَبَعُ
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم وإن أصيبوا فلا خُورٌ ولا هُلُعُ
فإنهم أفضل الأحياء كلهمُ إن جد بالناس جد القول أو شمعوا[١]

فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله، قال الأقرع بن حابس: وأبي إن هذا لَمُؤتى له.. لَخطيبهُ أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا. فلما فرغ القوم أسلموا وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم. وكان عمرو بن الأهتم قد خلفه القوم في رحالهم وكان أصغرهم سناً فقال قيس بن عاصم - وكان يبغضه -: يا رسول الله منا رجل في رحالنا وهو غلام حدث (وأزرى به) فأعطاه رسول الله ﷺ مثل ما أعطى القوم. فلما علم عمرو هجا قيساً بشعر[٢].

سقت الخبر بشيء من التوسع لما رأيت فيه من إمتاع وطرافة.

فهذا وفد تميم يدخل المسجد منفوخاً مستهيناً بالمسلمين.. وبجلافة الأعراب ينادون رسول الله ﷺ من وراء حجراته.. ويتبجحون: جئنا نفاخرك..

فيستقبلهم رسول الله ﷺ بحلمه وسعة صدره ويأذن لخطيبهم أن يتكلم ويفتخر بقومه إلى درجة أن يقول فيها متحدياً رسول الله ﷺ ومن معه من المهاجرين والأنصار (من مثلنا في الناس؟) وبعد كل هذا التطاول يقول: نحن نحيا (نستحي) فلا نكثر الكلام في فضائلنا؟!

ويجاريهم رسول الله ﷺ فيما يرغبون صابراً على سوء أدبهم.. ويختار الرجل المناسب للرد على خطيبهم.. فقد كان ثابت بن قيس قوي الصوت فصيح البيان.. وهكذا يتفوق على خطيب تميم.. ويقوم شاعر تميم الزبرقان

(١) الذوائب: السادة، الطبع: الدنس، شمعوا: هزلوا.
(٢) البداية والنهاية باختصار، ٥/٤٢ - ٤٤.

ليكمل هذه المبارزة الأدبية. فيرسل النبي ﷺ من يستدعي حسان بن ثابت.. ويدهشنا حسان لأنه كان يصوغ الرد أثناء سماعه الزبرقان وعلى الوزن نفسه والقافية نفسها. فما يكاد الزبرقان ينتهي ويدعو النبي ﷺ حسان للجواب حتى يلقي قصيدته التي تطغى على سابقتها وتتميز بالفخر بالخلق الإسلامي: التقوى والعفة وعدم الفخر وعدم الجزع عند الإصابة..

وتنجلي المباراة عن تفوق المسلمين في الخطابة والشعر، ويعبر الأقرع بن حابس - وكان من المؤلفة قلوبهم - عن إعجابه بتفوق المسلمين ويدخل الوفد بالإسلام.. وهو ما يشير بوضوح إلى أثر ومكانة الشعر والأدب والبلاغة في حياة العرب في ذلك الوقت. ورسول الله ﷺ يقدر هذا الأمر ويشجع أصحابه على المهارة فيه.. ولديه في هذا المجال فرسان لا يشق لهم غبار. ورسول الله ﷺ يعرف مواهب أصحابه ويختار الرجل المناسب في المكان المناسب.

ونرى في الخبر عظمة حلم النبي ﷺ وصبره على هؤلاء الذين نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ٤-٥]. وحلمه عليهم وهم يفاخرون ويتطاولون.

ثم يعطيهم الجوائز بالتساوي.. حتى الذي لم يأته وبقي في رحالهم يرسل إليه نصيبه غير منقوص ولا يبالي بكلام قيس بن عاصم عنه.. وذاك هو العدل..

بل إنه ﷺ في أخبار أخرى يمدح بعض صفاتهم. يقول أبو هريرة ﷺ: لا أزال أحب بني تميم بعد ثلاث سمعتهن من رسول الله ﷺ يقولها فيهم: «هم أشد أمتي على الدجال»، وكانت فيهم سبية عند عائشة فقال: «أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل». وجاءت صدقاتهم فقال: «هذه صدقات قومي»[(١)].

---

(١) رواه مسلم والبخاري.

لقد تعلم رسول الله ﷺ من الآية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ [الأحقاف: ٤٦/١٦]. فلم تكن الأخطاء تصرفه عن رؤية الميزات والمحاسن بينما نتصيد نحن الزلات والعيوب.. ويسقط الرجل من عيننا إن كشفنا له سقطة أو زلّة.. ولا بد من الخروج مما قال عنه مالك بن نبي: (طاهر مقدس أو شيطان دنس).

* * *

دعوة علمية وعملية

يخاطبهم على قدر عقولهم وأحوالهم..

وقدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ فقال: «مرحباً بالقوم غير خزايا ولا الندامى» فقالوا: يا رسول الله إن بيننا وبينك المشركين من مضر وإنا لا نصل إليك إلا في الشهر الحرام فحدثنا بجمل من الأمر إن عملنا به دخلنا الجنة وندعو من وراءنا. قال ﷺ: «آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: الإيمان بالله، هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغانم الخمس. وأنهاكم عن أربع: ما ينتبذ في الدُّبّاء والنقير والحنتم والمزفت»[(١)]. أي ما ينقع من تمر أو زبيب أو حبوب في الدُّباء: وهي ثمرة اليقطين (القرع) وفي الحنتم: وهي الجرار الخضر. والمزفت: المطلي بالقار. وهو المقيّر (كما ورد في رواية أخرى). وفي رواية مسلم: قالوا: يا نبيّ الله ما علمك بالنقير؟ قال: «بلى جِذعٌ تنقرونه فتقذفون فيه من القطيعاء (صغار التمر)... ثم تصبّون فيه من الماء حتى إذا سكن غليانه شربتموه حتى إن أحدكم أو إن أحدهم ليضرب ابن عمه بالسيف! قال وفي القوم رجل أصابته جراحة كذلك. قال: وكنت أخبئها حياء من رسول الله ﷺ. فقلت: ففيم نشرب

(١) رواه البخاري.

يا رسول الله؟ قال: «أسقية الأدم (الجلد المدبوغ) التي يلاث على أفواهها (أي يلف الخيط على أفواهها وتربط). قالوا: يا رسول الله إن أرضنا كثيرة الجرذان، ولا تبقى بها أسقية لأدم!! فقال ﷺ: «وإن أكلتها الجرذان، وإن أكلتها الجرذان، وإن أكلتها الجرذان». وقال نبي الله ﷺ لأشج عبد القيس: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله، الحلم والأناة»[١] وذلك أن قومه لما رأوا رسول الله ﷺ وثبوا من رواحلهم فأتوا رسول الله ﷺ فقبلوا يده. أما الأشج فنزل فعقل راحلته وأخرج عيبته ففتحها فأخرج منها ثوبين أبيضين من ثيابه فلبسهما، ثم أتى رواحلهم فعقلها فأتى رسول الله ﷺ فقال: «يا أشج إن فيك خصلتين يحبهما الله عز وجل ورسوله: الحلم والأناة» فقال: يا رسول الله: أنا تخلقتهما أو جبلني الله عليهما؟ فقال: «بل الله جبلك عليهما» قال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله عز وجل ورسوله[٢].

وفي رواية أن الجارود بن عمرو بن حنش أخو عبد القيس - وكان نصرانياً - جاء مع وفدهم.. وأن رسول الله ﷺ عرض عليه الإسلام ورغبه فيه فقال: يا محمد إني قد كنت على دين، وإني تارك ديني لدينك، أفتضمن لي ديني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم أنا ضامن لك أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه». فأسلم وأسلم أصحابه، ثم سأل رسول الله ﷺ الحُملان، فقال: «والله ما عندي ما أحملكم عليه» قال: يا رسول الله فإن بيننا وبين بلادنا ضوالَّ من ضوالِّ الناس (أي إبل ضالة) أفنتبلغ عليها إلى بلادنا؟ قال: «لا، إياك وإياها فإنما تلك حَرَقُ النار (أي تؤدي إلى النار). فخرج راهباً إلى قومه. وكان حسن الإسلام صلباً على دينه حتى هلك. وأدرك الردة في قومه فقام فتكلم فشهد شهادة الحق، ودعا إلى الإسلام، فقال: أيها الناس إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأكفّر من لم يشهد[٣].

---

(١) الحديث ١٥ من مختصر صحيح مسلم للمنذري.
(٢) رواه الإمام أحمد.
(٣) تهذيب سيرة ابن هشام، ص٣٠٧.

وتقول أم سلمة: إن رسول الله ﷺ أخّر الركعتين بعد الظهر بسبب وفد عبد القيس حتى صلاهما بعد العصر في بيتها[١].

ابتداء نقول: إن هناك خلافاً في توقيت قدوم هذا الوفد؛ فمنهم من يقول قدموا على النبي ﷺ قبل فتح مكة[٢] وهم أهل المشرق وكأنهم من (البحرين).

ونجد رسول الله ﷺ يرحب بهم بكلمات طيبة فيها دعاء وبشرى (غير خزايا ولا الندامى)، كل ذلك قبل أن يتكلموا ويتبين ما يريدون.. ترحيب بالضيف له أثره النفسي.

ونجد رسول الله ﷺ يختصر في تعليمهم على أربعة أوامر وأربعة نواهٍ تيسيراً عليهم في التعليم وفي التطبيق.. وتعليماً لكل الدعاة أن يهتموا بالتيسير والتبسيط وأن يعطوا الأولوية للأساسيات في تغيير أحوال البشر.

أما الأوامر الأربعة فهي عامة لكل الناس لأنها أساسيات الإيمان. وإن كنا نلاحظ أنه لم يذكر حج البيت وذكر عوضاً عنه إعطاء الخمس من المغانم لبيت مال المسلمين. فلعل النبي ﷺ اهتم بتوضيح ذلك حتى لا يفاجؤوا به.. بينما كان عرب الجزيرة كلهم يؤمنون بالحج إلى البيت الحرام ويعظمونه فلا حاجة لذكره.

وأما النواهي الأربعة فهي مرتبطة بعاداتهم في تخمير الشراب بأوعية خاصة تساعد على تخميره.. وهو أمر يدل على معرفة النبي ﷺ بالمشاكل الخاصة لكل قوم.. عاداتهم وأساليبهم المعيشية فيعطيهم ما يناسبهم من التعليمات والنواهي.. وهو ما نسميه في عصرنا (علم الاجتماع) الخاص بكل أمة.. وهي إشارة واضحة

---

(١) رواه البخاري.

(٢) وذلك لأنهم قالوا: إن بيننا وبينك المشركين ولا نصل إلا في الشهر الحرام. ولأدلة أخرى.

إلى أهمية معرفة أحوال الأمم من الداعي.. كيف يعرف أمراضهم والأمور التي ينبغي التصدي لها لتغييرها.. بحيث يعدل الإسلام ما يتيسر في ذلك الوقت وذلك المكان.. ولو أكلتها الجرذان.. فذاك أفضل من أن تسكروا فتفقدوا كل شيء.

ولا ينسى رسول الله ﷺ أن يزكي أشج عبد القيس وقد علم أنه لم يتسرع مثل رفاقه بل قام بالأسباب فربط الإبل - وإلا شردت - ثم اعتنى بمظهره ليقابل النبي بأجمل منظر.. وأما رفاقه فقد أسرعوا إليه شعثاً غبراً.. إنها ملاحظة هامة من رسول الله ﷺ لتعليم الناس ولفت نظرهم للسعي إلى التكامل والتخلق بـ (الحلم والأناة) وكم خرّب الطيش والتسرع من أعمال تعب على إنجازها أصحابها..

وفي الحوار بين الأشج والنبي ﷺ نلمس التساؤل عن الأخلاق: أهي بالوراثة (خَلْقية) أم أنها كسبية (تحصل بالمجاهدة). وهو أمر يتجادل فيه علماء النفس والتربية.. لكن الحوار يوحي بأنها - أي الأخلاق وخاصة الحلم والتأني - يمكن أن تأتي بالوراثة ويمكن أن تكون ببذل الجهد. أما في حالة الأشج فقد كانت خَلْقية جَبَلَه الله عليها.. فهو يحمد الله على ذلك.. وله أجر الشكر والاعتراف بفضل الله..

أما من حرم منهما وجاهد نفسه حتى يتخلق بهما فأجره أعظم لأنه يمارس التغيير النفسي والخلقي على نفسه.. وهو ما أشار إليه الرسول ﷺ في حديث آخر «الحلم بالتحلم والعلم بالتعلم».

ولا شك بأن أثر البيئة كبير على الإنسان.. لأنه منذ أن يولد يتشرب الأخلاق والعادات ممن حوله ويستنشقها استنشاقاً.. فما أجمل أن يُعان الإنسان على نفسه بأسرة تتمثل الأخلاق الطيبة في حياتها.

ونتأمل في الجارود وحرصه على أن يصل إلى الحق.. ويبدو أنه يتأثر بشخص النبي ﷺ ويثق به فيسأله: أتضمن لي أني على الحق؟ ويطمئنه النبي ﷺ، ثم حرصه على الاستفتاء والنبي ﷺ يعلمه الورع.. ويبقى الرجل متمسكاً بدينه.. ويقف كالصخرة الراسخة في وجه الردة في قومه.

ثم إن النبي ﷺ يؤخر صلاة النافلة عن وقتها حرصاً على الحفاوة بالوفد القادم إليه.. يرحب بهم ويسمع لهم ويحاورهم في مشاكلهم ويعلمهم دينهم.. إنها العبادة الاجتماعية.. وهي أهم في حياة الداعي من العبادة الفردية. وهو أمر قد فرَّط فيه المسلمون.. إذ ركزوا معظم العناية على العبادات الفردية فتردت أحوال المجتمع وتأخرت.. ولا بد من إعادة الاهتمام والتركيز على هذا الجانب.

* * *

هل ثُمامة مع الوفود؟

بعث النبي ﷺ خيلاً قِبَلَ نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له: ثمامة بن أثال فربطوه بسارية من سواري المسجد. فخرج إليه النبي ﷺ فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» قال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم (أي كان قد قتل من المسلمين) وإن تُنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت. فتركه حتى كان الغد ثم قال له: «ما عندك يا ثمامة»؟ فقال: عندي ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر. فتركه حتى بعد الغد فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي ما قلت لك. فقال ﷺ: «أطلقوا ثمامة». فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد. فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، يا محمد والله ما كان على وجه الأرض أبغض إلي من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، والله ما كان دين أبغض إلي من دينك فأصبح دينك أحب الدين إلي، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك

فأصبح بلدك أحب البلاد إلي، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: أصبوت؟ قال: لا ولكن أسلمت مع محمد ﷺ، ولا والله لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ[(١)].

ذكر البخاري هذه القصة في الوفود. علماً بأن ثمامة لم يَفِد بنفسه وإنما أسر وقدم به في الوثاق.. ثم إن القصة توحي بأن زمن حدوثها كان قبل الفتح؛ لأن أهل مكة عيروه بإسلامه وهددهم بقطع التجارة معهم.. وهذا رأي ابن كثير. لكنني ذكرت القصة لما فيها من دلالات.

١ - فهذا أسير كان محارباً من قوم محاربين للنبي ﷺ لكن يبدو أنه زعيم في قومه له مال وجاه.. فيأمر النبي ﷺ بحجزه في المسجد.. وهو أمر غريب!! لم يوضع في سجن انفرادي بعيداً عن النور والرعاية.. بل وضع في أكرم بيت من بيوت المدينة.. في بيت الله.. وفي ذلك إكرام وإعطاء فرصة للاحتكاك بالمسلمين، وهم كما وصفهم ربهم ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨/٧٦]، وإعطاؤه فرصة لشهود صلاة المسلمين وسماع القرآن.

لقد كان رسول الله ﷺ يضع (الآخر - المخالف) في أحسن الظروف الممكنة لفتح قلبه أمام الهداية.

٢ - ويمر النبي ﷺ ويسأله: ما عندك؟ ما رأيك؟ ماذا أفعل بك؟ ويأتي الجواب وفيه إقرار بأنه مستحق للقتل.. لكنه لبيب ويعرض الخيارات الأخرى.. أن ينعم عليه بالإطلاق دون مقابل.. أو يأخذ فدية وهو مستعد لدفع كل ما يطلب منه.

---

(١) رواه البخاري.

ويحس الأسير اللبيب بأن محمداً ﷺ لا يريد قتله.. ولو أراد قتله لقتله من أول يوم.. ولهذا حين يسأله ﷺ في اليوم الثاني: ما عندك؟ يذكر الإنعام فقط.. لأنه رأى في وجه النبي ﷺ السماحة والإحسان.

٣ - ويتركه رسول الله ﷺ ثلاثة أيام في المسجد.. الأسير اللبيب يرى، ويسمع، ويتأمل في عبادة المسلمين وفي تجمعهم متحابين متراحمين.. ويتدبر ما يسمع من كلام الله.. ويرى صبر النبي وسماحته معه.. وكرم الأصحاب في إطعامه والعناية به.. يقلب الأمر في قلبه وعقله.. ويعيد النظر في عداوته للنبي وللمسلمين.. ثلاثة أيام حددها النبي ﷺ كي يتم علاج هذا الزعيم اللبيب.. وقد أحيط بكل أساليب العلاج النفسي والفكري المتاحة في ذلك العصر.

٤ - وعندها يقول النبي ﷺ: «أطلقوا ثمامة» فينكسر آخر حاجز في نفس الرجل.. وينطلق وقد تحرر عقله من الأغلال وانعتق قلبه من الأحقاد..

لقد كان رسول الله ﷺ يستخدم ما يقدر عليه من سنن الله في علاج النفوس وتغييرها.. هذا ما ينبغي أن ننتبه إليه.. بدلاً من رؤية الأمر على أنه كرامات خاصة بشخص النبي ﷺ.. مما يفقدنا القدرة على الاقتداء به والتعلم منه.

٥ - ونجد النفس الإنسانية تتألق بعد أن اغتسلت وتطهرت من الأدران فإذا بها تنطلق في دروب الخير وقد ملأ عليها الحب كيانها. ويأمره النبي ﷺ بإنجاز العمرة التي كان ينوي القيام بها قبل إسلامه.. فالإسلام يدعم الخير ويتممه..

وفي مكة يقف كالطود مباهياً بإسلامه وولائه لرسول الله ﷺ.. وبدلاً من أن يزعجه المشركون بتهديداتهم.. يرهبهم بإنذارهم بحرب اقتصادية ضدهم.. ما لم يصالحوا النبي ويهادنوه..!!

حقاً لقد أثمرت الأيام الثلاثة أحلى الثمار.. وأصبح ثمامة خلقاً آخر.

* * *

يمهل الكذاب علّه يتوب..

ووفد على النبي ﷺ وفد بني حنيفة ومعهم مسيلمة بن حبيب، فنزل في دار بنت الحارث - وكان تحته بنت الحارث بن كيرز - فأتاه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس - خطيب رسول الله ﷺ - وفي يد رسول الله ﷺ قضيب، فوقف عليه فكلمه، فقال له مسيلمة: إن شئتَ خليتُ بينك وبين الأمر، ثم جعلته لنا بعدك. فقال ﷺ: «لو سألتني هذا القضيب ما أعطيتكه وإني لأراك الذي رأيت فيه ما رأيت، وهذا ثابت بن قيس وسيجيبك عني» فانصرف رسول الله ﷺ. وسئل ابن عباس عن رؤيا رسول الله ﷺ الذي ذكر فقال: ذكر لي أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا نائم رأيت أنه وضع في يدي سواران من ذهب فقطعتهما وكرهتهما فأذن لي فنفختهما فطارا فأولتهما كذابين يخرجان»[١].

فقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة - راوي الحديث - أحدهما العنسي الذي قتله فيروز باليمن والآخر مسيلمة الكذاب[١]. وقتل في زمن أبي بكر. وكان قد تسمى بالرحمن حتى قيل عنه رحمن اليمامة.. ويبدو أنه كان له علم بالسحر وأبواب من الخفة.. وصار يقول كلاماً مسجعاً يدعي أنه وحي.

ونفهم من روايات أخرى أن الوفد قد أسلم وأجازهم النبي ﷺ (أي أعطاهم جوائز) فلما عادوا إلى قومهم ادعى مسيلمة الكذاب أنه أشرك في الأمر مع محمد ﷺ وافتتن به كثيرون من قومه فارتدوا عن الإسلام.

وانظر في دلالة (السوارين من ذهب) وكيف كرههما رسول الله ﷺ لأنهما رمز للزيف والخداع.. وكان تأويل ذلك خروج كذابين يتلاعبان بالناس..!!

---

(١) رواه البخاري.

ويلفت نظرنا أن النبي ﷺ لم يأمر بقتله مباشرة.. بل أعطاه فرصة لعله يتوب..

❀ ❀ ❀

وفد نجران: حوار مع نصارى

وجاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه. فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعنّاه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا رجلاً أميناً، فقال ﷺ: «لأبعثنّ معكم رجلاً أميناً حق أمين» فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح، هذا أمين هذه الأمة»[1]. وذكر ابن كثير في تفسيره لآية المباهلة: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٦١] أن سبب نزولها - وما قبلها من أول سورة آل عمران - في وفد نجران:

قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكباً فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم وأمرهم يؤول إلى ثلاثة منهم: العاقب وكان أميرهم وصاحب الرأي والمشورة، والسيد وكان عالمهم، وأبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم وكان من العرب لكنه تنصّر، فعظمته الروم وملوكها.. وكان يعرف أمر رسول الله ﷺ وصفته.. من الكتب المتقدمة.. لكنه استمر في النصرانية لما يرى من تعظيمه فيها.. فدخلوا عليه ﷺ مسجده حين صلى العصر عليهم الحبرات والجبب والأردية، وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ.. فقال ﷺ: «دعوهم» فصلوا إلى المشرق. فكلم

(١) رواه البخاري.

الثلاثة رسول الله ﷺ فقالوا عن عيسى أنه الله وابن الله وثالث ثلاثة (تعالى الله عن قولهم).. ويحتجون على ذلك بأنه كان يحيي الموتى.. وأنه لم يكن له أب يُعلم.. ويقول الله تعالى: فعلنا وأمرنا وخلقنا.. ولو كان واحداً ما قال إلا فعلت وأمرت..

قال رسول الله ﷺ للحبرين: «أسلما»، قالا: قد أسلمنا. قال: «إنكما لم تسلما فأسلما»، قالا: بلى قد أسلمنا قبلك. قال: «كذبتما يمنعكما من الإسلام ادعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير» قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت رسول الله ﷺ فلم يُجبهما. فأنزل الله في ذلك صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها... فلما دعاهم إلى ذلك قالوا: يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد.. ثم انصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب، وكان صاحب رأيهم، فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟ قال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم.. فإن أبيتم إلا إلف دينكم.. فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فأتوا النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك ونتركك على دينك ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا، فإنكم عندنا رضا. فقال ﷺ: «ائتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين» فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ما أحببت الإمارة قط حبي إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها، فرحت إلى الظهر مهجراً، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر، سلّم ثم نظر عن يمينه وعن شماله فجعلت أتطاول له ليراني، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه فقال: «اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه».

قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة ﷺ[١]. قال الزهري: كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله ﷺ. وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح: [التوبة ٩/ ٢٩][٢].

أضفت إلى رواية البخاري ما ذكره ابن كثير لأن الأولى مختصرة وغير وافية. وهناك روايات أخرى يُفهم منها أن رسول الله ﷺ هو الذي بدأ بإرسال كتاب إلى نجران يدعوهم فيه إلى الإسلام فوفدوا عليه وتحاوروا معه.. ثم كتب لهم عهداً على أن يدفعوا الجزية. ولم يكن هذا أول حوار مع النصارى.. فقد تحاور المهاجرون إلى الحبشة مع النجاشي.. وتحاور وفد منهم قدم على رسول الله ﷺ في مكة - قبل الهجرة - وسلموا للحق[٣].

لكن الحوار هنا فيه شيء من التفصيل أردت أن أتأمله:

١ - دعونا ندخل إلى المشهد ونحاول أن نعيش الأحداث.. المشهد مليء بالجلال والجمال، فالمكان هو المسجد والزمان بعد صلاة العصر مباشرة.. والقوم يدخلون بجلال وعليهم المسوح والأردية.. وحانت صلاتهم فقاموا لأدائها.

٢ - ونفاجأ بقول رسول الله ﷺ لأصحابه: «دعوهم».. ويبدو أنهم عندما توجهوا إلى المشرق وتهيؤوا للصلاة.. بدرت من الصحابة بادرة اعتراض.. كيف نتركهم يصلون صلاتهم - وقد يكون فيها بعض الشرك بالله - في مسجد أقيم للتوحيد ولدين الإسلام؟! ويرى النبي ﷺ العيون وقد بدأت تستنكر.. فيقول: دعوهم..!! هل هناك احترام لـ(الآخر) أعظم من هذا؟!

لهف نفسي على المسلمين كيف فقدوا كل ذلك؟! حتى فيما بينهم وهم أتباع دين واحد..!!

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير: محمد نسيب الرفاعي، ١/ ٢٧٧.

(٢) المصدر السابق، ١/ ٢٧٩.

(٣) راجع صفحة ٧٧ من هذا الكتاب.

٣ - وتكلم الثلاثة: أمير الوفد والحَبْران. فعرضوا على النبي ﷺ ما يؤمنون به على عجره وبجره.. والنبي يستمع إليهم.. فلما فرغوا توجه النبي ﷺ للحبرين - لما عندهما من علم - وقال: «أسلما». فيجادلانه.. ويدعيان سبقه إلى الإسلام..!!

٤ - فيبين النبي ﷺ أخطاءهم التي حجبتهم عن الإسلام ويلخصها في ثلاثة أمور أساسية - دون أن يستعرض جميع جوانب الاختلاف تيسيراً عليهم - الأمران الأولان لتحقيق توحيد الله في العبادة.. والثالث (أكل الخنزير) يحدده النبي ﷺ من بين أمور كثيرة تتعلق بالحلال والحرام.. وهو أمر يستحق الدراسة.

٥ - وينزل الوحي بالآيات والحجج. ويتحداهم بإجراء الملاعنة وهي كما تصفها الآيات: أن يأتي كل طرف ومعه النساء والأطفال من أهل بيته.. ثم يقفا في صعيد واحد ويطلبا أن تنزل لعنة الله على الكاذبين. وهو أسلوب كان الناس يلجؤون إليه لمعرفة الحق من الباطل في بعض المواقف الفاصلة. وهو معروف خاصة عند أهل الكتاب، وهنا نتنبه إلى ضرورة مخاطبة الناس على قدر عقولهم ومعرفة أساليبهم واستخدام حججهم في البيان والمعرفة.

٦ - ولهذا يرفض الحبران الملاعنة بعد التشاور مع وفدهم وصاحب أمرهم، فلقد كانوا يعرفون جميعاً عاقبة الملاعنة مع الأنبياء. وعرفوا أن محمداً ﷺ نبي. فإذا كانت اللعنة في الماضي تنزل كخارقة على من يكذب الأنبياء ويتحداهم فإن اللعنة - وهي الطرد من رحمة الله - ستأتي وتصيب كعواقب دنيوية سننية كل من يعاكس أنبياء الله وسننه، ولو بعد حين.

٧ - وهكذا اختاروا موادعة النبي ﷺ والدخول في عهد معه.. وما يدهشنا أكثر طلبهم أن يرسل معهم رجلاً أميناً من أصحابه ليتحاكموا إليه في خلافاتهم.. (فإنكم عندنا رضا)..!! إنهم يثقون بالنبي وأصحابه أكثر مما يثقون بأبناء

قومهم..؟! هذا هو الاكتساح النفسي والأخلاقي الذي امتاز به النبي ﷺ وصحبه.. وما كانوا ليصلوا إليه لولا ارتقاؤهم إلى قمة فريدة في الأخلاق والالتزام من طرف واحد ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦/٤٨].

٨ - وتأملوا حركات عمر التي يقوم بها ليلفت نظر النبي ﷺ عسى أن يفوز بوصف (الأمين) ولكن ذهب به أبو عبيدة..

* * *

لست بالخب وليس الخب يخدعني

وقدم على رسول الله ﷺ وفد بني عامر، فيهم عامر بن الطفيل وأربد بن مقيس بن جزء وجبار (أو حيان) بن سلمى.. وكان الثلاثة رؤساء القوم وشياطينهم.. وقدم عامر على رسول الله ﷺ وهو يريد الغدر به. وقد قال له قومه: يا أبا عامر إن الناس قد أسلموا فأسلم. قال: والله لقد كنت آليت ألا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي فأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش؟ ثم قال لأربد: إن قدمنا على الرجل فإني سأشغل عنك وجهه فإذا فعلت ذلك فاعْلُه بالسيف، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال عامر: يا محمد خالِّني (أي اتخذني خليلاً - أو خالِني: دعني أخلو بك)، قال ﷺ: «لا والله حتى تؤمن بالله وحده»، قال: يا محمد خالني.. وجعل يكلمه وينتظر من أربد ما كان أمره به وأربد لا يحير شيئاً.. فلما أبى عليه رسول الله ﷺ قال: أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً، فلما ولى قال ﷺ: «اللهم اكفني عامر بن الطفيل» فلما خرجوا من عند رسول الله ﷺ قال عامر لأربد: أين ما كنت أمرتك به؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل أخوف على نفسي منك، وايم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً. قال: لا أبا لك لا تعجل علي والله ما هممت بالذي

أمرتني به إلا دخلتَ بيني وبين الرجل حتى ما أرى غيرك أفاضربك بالسيف؟! وخرجوا راجعين.. حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله، عز وجل، على عامر بن الطفيل الطاعون في عنقه فقتله الله في بيت امرأة من بني سلول، فجعل يقول: يا بني عامر أغدة كغدة البكر (الصغير من الإبل) في بيت امرأة من بني سلول (قوم يصفهم العرب بالدناءة)(١). وفي رواية أنه قال لرسول الله ﷺ عندما دعاه للإسلام: أسلم على أن لي الوبر (أي أهل البدو) ولك المدر. قال ﷺ: «لا».. فلما ولى (متوعداً) قال ﷺ: «اللهم اكفني عامراً واهْدِ قومه». وراوي الحديث موئلة بن كثيف الضبابي العامري (من بني عامر بن صعصعة قوم عامر بن الطفيل) أتى رسول الله ﷺ وهو ابن عشرين سنة فأسلم وعاش في الإسلام مئة سنة، وكان يدعى ذا اللسانين من فصاحته(٢) فلعله وفد مع قومه.

وعامر بن الطفيل هو الذي غدر بأصحاب النبي في قصة بئر معونة التي لم ينجُ فيها إلا عمرو بن أمية.

وأما أربد بن مقيس فسأله قومه: ما وراءك يا أربد؟ قال: لا شيء.. لوددت أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله. فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل له يبيعه فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما(٣).

هذا نموذج من شياطين العرب وكيف كانوا يكيدون للنبي ﷺ. فلنتأمل:

١ - الغريب في الأمر أن الرجل له تاريخه في الغدر (في بئر معونة) ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ يستقبله ويعرض عليه نور الإسلام..؟!

صلوات الله عليه وسلامه.. إنه مطمئن إلى ربه الذي قال له: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٥/٦٧]. وعسى أن يتوب الرجل ويهتدي.

(١) البداية والنهاية، ٥/ ٥٧.
(٢) البداية والنهاية، ٢/ ٥٧ - ٥٨.
(٣) المصدر السابق نفسه، ٥/ ٥٧ - ٥٨.

٢ - لكن النبي ﷺ يتعامل معه بحذر إذ يرى فيه الغدر فلا يُمكّنه من أربه.

٣ - لم يتعامل النبي ﷺ مع عامر كما تعامل مع (المؤلفة قلوبهم).. كان عامر يريد الملك والجاه ويناور ليغدر بالنبي ﷺ وينفرد بالنفوذ في سائر الجزيرة.. وقد فهم النبي ﷺ ما يدور بخلده فأبى عليه حتى أن يحدثه خالياً..

٤ - أرى رسول الله ﷺ في هذا الموقف رائعاً في شجاعته.. رائعاً في حذره ويقظته فهو لا يعطي ظهره لأربد - مع اعترافي بحماية الله له - رائعاً في حرصه على ألا يحرم الرجل من فرص التوبة.. رائعاً في صلابته مع هذا الشيطان.. رائعاً في دعائه - بعد أن ولى الرجل متوعداً: والله لأملأنها عليك..- فلم يزد على أن قال: «اللهم اكفني عامراً واهْدِ قومه»، وكان بإمكانه بإشارة من أصبعه أن يقبض عليه ويقتله.

- لقد كان ﷺ حريصاً على ألا يشاع عنه أنه يسيء إلى من وفد إليه.. وكان حريصاً على بذل كل ما يملك من جهد وصبر لهداية البشر مهما كانت جرائرهم.. صلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله ما أعظم رحمتك.. وما أحلى كياستك..

٥ - أين هذا الشيطان من راوي الحديث موئلة الذي حث الخطا مع قومه نحو الإسلام وقد استجاب الله دعوة رسوله ﷺ.. فهدى قوم عامر.. وكفاه عامراً.. بل إن المصير كان أشد من دعوة النبي ﷺ عليه.. فلقد استكبر الرجل وأنف من أن يكون تابعاً لمحمد ﷺ.. فأذلّه الله بميتة (غدة كغدة البعير.. وفي بيت امرأة من بني سلول). بينما موئلة ينعم بالإسلام مئة سنة ويروي الأحاديث ويشتهر بالفصاحة..!!

فهل كان مجيء عامر بن الطفيل وأصحابه في عام الوفود؟

لم يتفق الباحثون على ذلك.. ولعل وفد قومه حين أسلموا كان في عام الوفود بعد هلاكه هو. والله أعلم.

والمهم في هذا الخبر - كما هو الشأن في أخبار كثيرة من السيرة على منواله - هو أن رسول الله ﷺ كان أبعد الناس عن المكر والغدر.. بل كان كل من يقابله يثق به ويرتاح إليه - إلا من غضب الله عليه - ومع ذلك لم يكن غافلاً سهل المأخذ غرّاً.. لقد جمع رسول الله ﷺ بين الحكمة والذكاء والحب وسلامة الطوية حتى مع أعدائه.. فهل نقدر على أن نتعلم منه ونتأسى بنهجه..؟!

* * *

افلح إن صدق..

وقال ابن عباس: بعث بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله ﷺ فقدم إليه وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ثم دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه، وكان ضمام رجلاً جلداً أشعر ذا غديرتين، فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ في أصحابه فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال ﷺ: «أنا ابن عبد المطلب»، فقال: يا محمد. قال: نعم. قال: يابن عبد المطلب إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدنَّ في نفسك. قال: «لا أجد في نفسي فسل عما بدا لك»، فقال: أنشدتك إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله بعثك إلينا رسولاً..؟ قال: «اللهم نعم». قال: فأنشدتك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئاً وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون؟ قال: اللهم نعم. قال: فأنشدتك الله... آلله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس؟ قال: «نعم». ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة: الزكاة، والصيام، والحج، وشرائع الإسلام كلها ينشده عند كل فريضة منها كما ينشده في التي قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله

وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص، ثم انصرف إلى بعيره راجعاً. فقال رسول الله ﷺ: «إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة». فأتى بعيره فأطلق عقاله ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم أن قال: بئست اللات والعزى. فقالوا: مه يا ضمام اتق البرص، اتق الجذام، اتق الجنون. فقال: ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه. وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله. وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه. قال: فوالله ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً. يقول ابن عباس: فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة. يقول ابن كثير: وفي هذا السياق ما يدل على أنه رجع إلى قومه قبل الفتح، لأن العزى خربها خالد بن الوليد أيام الفتح[(١)].

وفي رواية عن أنس بن مالك قال: كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل يسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟ قال: «صدق». قال: فمن خلق السموات؟ قال: «الله». قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله». قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: «الله». قال: فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال، آلله أرسلك[(٢)]؟ (إلى آخر الحديث).

هذه صورة من أساليب البدو (إنسان الفطرة) في معرفة الحق.

فهذا الرجل يأتي وافداً عن قومه بعد أن جاءهم رسول رسول الله ﷺ يبلغهم الدعوة. وأسلوب فحصه للنبي ﷺ وما جاء به من أسلوب بسيط فطري

---

(١) البداية والنهاية، ٥/ ٦١.
(٢) مخرج في الصحيحين.

يعتمد على الثقة بابن عبد المطلب الذي عرف بالسيادة والشرف والفضائل في قومه.. ومحمد ﷺ ولا شك قد ذاع صيته في القبائل على أنه الصادق الأمين. فالرجل يسأله ويستحلفه: آلله أرسلك؟ آلله أمرك؟ وهو يصدّق ببساطة وسلامة فطرة.. ولا يحتاج الأمر عنده إلى أكثر من كلمة «نعم» من محمد ﷺ ابن عبد المطلب.

ونقف عند قول أنس: كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ.. وذلك أن الله سبحانه قال لهم: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ٥/١٠١].. فقد كانت أسئلتهم أحياناً في غير مكانها وقد يلحفون في الأسئلة على النبي ﷺ في أمور من الغيب.. ولا ننس أن العلم لا ينال بالأسئلة.. وإنما بالملاحظة واستعمال وسائل المعرفة في تأمل الواقع والأسباب وعواقبها..

لكن الصحابة ﷺ تورعوا عن الأسئلة حتى إنهم كانوا يفرحون بمجيء الغرباء وأسئلتهم وحواراتهم مع النبي ﷺ.. علّها تروي ظمأهم..

نعود إلى رجل الفطرة ضمام.. وهو يقول للنبي ﷺ في نهاية تساؤلاته.. سأؤدي الفرائض وأجتنب النواهي ثم لا أزيد ولا أنقص..!! ورسول الله ﷺ يقول: «إن صدق دخل الجنة».. فهل هذا هو كل الإسلام..؟!

لا شك بأن رسول الله ﷺ يعطي صورة ميسّرة للإسلام يقدر عليها كل إنسان عادي.. ألا يشرك بالله ويلتزم الفرائض. ولا بد أن التزام الفرائض بأدائها حق الأداء ستعلمه أخلاق المعاملة الإسلامية. فهو يتعلم التواضع والحرص على الجماعة من الصلاة. والتكافل مع المحتاجين من الزكاة، والإحساس بمشاعر المحرومين من الصيام.. والتجرد من الدنيا والحرص على النظام في الحج.. صحيح أن (الدين المعاملة) ولكن القيام بالعبادات على الوجه الذي أمر به الله يحقق حسن المعاملة.. ولا ننس قبل ذلك موضوع توحيد الله واجتناب الشرك وهو أمر يطال سائر جوانب الحياة.. وحتى نوايا القلب.

وفي الحقيقة إن أركان الإسلام بمقدار ما هي بسيطة وميسرة.. فإنها عظيمة الأثر في حياة الفرد والجماعة.. وهذا الرجل البسيط استطاع أن يهدي قومه بفترة وجيزة.. ببساطته وبساطتهم.. وبحلاوة آثار أركان الإسلام.

❀ ❀ ❀

ابنة حاتم الطائي

وقدم على رسول الله ﷺ وفد طيئ وفيهم زيد الخيل وهو سيدهم.. وعرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام فأسلموا فحسن إسلامهم. وأكرم النبي ﷺ زيداً وسماه زيد الخير ومنحه عطايا. وكان علي قد أرسل إلى النبي ﷺ من اليمن بذهبية في تربتها فقسمها رسول الله ﷺ بين أربعة: زيد الخيل، وعلقمة بن علاثة والأقرع بن حابس وعيينة بن بدر[١]. وخرج زيد من عند رسول الله راجعاً إلى قومه فمات في الطريق من حمى المدينة[٢].

وأما عدي بن حاتم فلنستمع إليه وهو يحكي خبره:

ما رجل من العرب كان أشد كراهة لرسول الله ﷺ حين سمع به مني، أما أنا فكنت امرأ شريفاً وكنت نصرانياً، وكنت أسير في قومي بالمرباع، وكنت في نفسي على دين وكنت ملكاً في قومي لما كان يصنع بي. فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته، فقلت لغلام كان لي عربي وكان راعياً لإبلي: أعدد لي من إبلي أجمالاً ذللاً سماناً فاحتبسها قريباً مني، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فآذني، ففعل.. أتاني ذات غداة فقال: يا عدي ما كنت صانعاً إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن، فإني قد رأيت رايات فسألت عنها فقالوا: هذه جيوش محمد.. فاحتملت بأهلي وولدي ثم قلت الحق بأهل

---

(١) ثبت في الصحيح.
(٢) البداية والنهاية، ٥/ ٦٣.

ديني من النصارى بالشام.. وخلفت بنتاً لحاتم في الحاضر، فلما قدمت الشام أقمت بها. وتخالفني خيل رسول الله ﷺ فتصيب ابنة حاتم فيمن أصابت، فقدم بها على رسول الله في سبايا من طيئ، وقد بلغ رسول الله ﷺ هربي إلى الشام. فجعلت ابنة حاتم في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا تحبس بها، فمر بها رسول الله ﷺ فقامت إليه، وكانت امرأة جزلة، فقالت: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد فامنن عليّ منّ الله عليك. قال: ومن وافدك؟ قالت: عدي بن حاتم، قال: الفار من الله ورسوله؟ ثم مضى وتركني حتى إذا كان الغد مرَّ بي فقلت له مثل ذلك وقال لي مثل ما قال بالأمس. حتى إذا كان بعد الغد مرَّ بي وقد يئست، فأشار إلي رجل خلفه أن قومي فكلميه، فقمت إليه فقلت: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد فامنن عليّ منّ الله عليك، فقال ﷺ: قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثم آذنيني، فسألت عن الرجل الذي أشار إلي أن كلميه فقيل لي: علي بن أبي طالب.. فجئت فقلت: يا رسول الله قد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ. قالت: فكساني وحملني (أي أعطاني ما أركب عليه) وأعطاني نفقة. فخرجت معهم حتى قدمت الشام. قال عدي: فوالله إني لقاعد في أهلي فنظرت إلى ظعينة تصوّب إلى قومنا، فقلت: ابنة حاتم؟فإذا هي هي، فلما وقفت علي استحلت (وفي رواية انسحلت أي احتدت في اللوم) تقول: القاطع الظالم احتملت بأهلك وولدك وتركت بقية والدك عورتك؟ قلت: أي أخية، لا تقولي إلا خيراً، فوالله ما لي من عذر لقد صنعتُ ما ذكرتِ. ثم نزلت فأقامت عندي، فقلت لها وكانت امرأة حازمة: ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فلن تزل في عز اليمن وأنت أنت. قلت: والله إن هذا الرأي[1]..

---

(١) البداية والنهاية، ٥/٦٣ - ٦٤

هذه إحدى النساء اللواتي يُذكرن بقوة الشخصية وسداد الرأي وفصاحة اللسان. فلنتأمل الخبر:

١ - نجد عدياً مشحوناً بالكراهية ولا ندري لماذا؟ أتعصباً لدينه أم خوفاً على مكانته في قومه وما يجبى إليه منهم (المرباع: ربع المغانم)؟ لكن الإنسان عدو ما يجهل.. وتخطيطه للفرار سراً يدل على ضعف ولا مبالاة بما يحدث لقومه.

٢ - وتقع ابنة حاتم في أسر المسلمين فأي مصاب أوجع مما حدث لها.. لقد تركها أخوها ونجا بنفسه وعياله.. فإذا بها تصبح أسيرة وهي ابنة أشهر شريف عربي كان يضرب فيه المثل بالكرم.. فأي هوان.. ومع ذلك فإنها تتماسك وتقف مخاطبة رسول الله ﷺ بأدب بليغ ولسان فصيح.. حتى إنها تنقل معاناتها بثلاث جمل قصيرة لا تملأ سطراً: هلك الوالد وغاب الوافد.. فلقد رحل من كان يفترض فيه أن يفد إليك ليدفع فدائي ويحررني.. فلا رجاء لي إلا في منّك وكرمك..

ويبدو النبي ﷺ غاضباً من فرار عدي.. أيفر إلى الروم ويترك قومه؟ولو أنه جاء إليه للقي منه البر والإكرام.. ولهذا لا يستجيب مباشرة لطلب ابنة حاتم.. وقد يكون متعمداً التأخير - كما فعل مع ثمامة - كي تسمع الأسيرات القرآن والصلوات في المسجد.. ونرى أن المسجد يقوم بدور عظيم في ذاك الزمان.. فإليه تأتي الوفود وبه تبحث الأمور الجسام وفيه يبيت الأسرى وفيه العلم والعبادة.. فهو المركز الحقيقي للإشعاع في المجتمع.

٣ - وها هو ربيب النبي ﷺ علي يحيي الأمل في نفس الأسيرة ويشير لها أن تكلم النبي ﷺ في أمرها للمرة الثالثة.. فلله درك يا علي.. تسعى لتحريرها ولا تفكر في امتلاكها..؟

٤ - وبحنان الأب الراعي ينعم النبي عليها ويرعاها: لا تعجلي بالخروج حتى تجدي الثقة من قومك فإني أخشى عليك.. فلما تهم بالرحيل يكسوها ويعطيها ما تركب عليه ونفقة تكفيها.. صلوات الله وسلامه عليك أيها الحبيب.. أيها الأب الحاني وخاصة على المرأة..

وإذا رحمتَ فأنت أمٌّ وأبٌ   هذان في الدُّنيا هما الرحماءُ

٥ - وتصل الأخت إلى أخيها فتعطيه حقه من التأنيب وفيه من الخير ما يجعله مقراً بذنبه معذب الضمير. وهو يعرف فيها الحكمة وسداد الرأي فيسألها..

٦ - وتعطي رأياً حكيماً وإن أوحى بأنها لم تسلم بعد.. والسياق كله يوحي بذلك.. وإنما نادته (يا رسول الله) لأنه اللقب الذي رأت الناس ينادونه به وهي تكرمه وتستعطفه.. وهو ما يظهر عظمة إكرام النبي ﷺ لها رغم عدم إسلامها.. لقد كان ﷺ إنساناً قبل كل شيء.. ومن أعظم طراز.. - الحق به يا عدي فإن كان نبياً ربحت وإن كان ملكاً فلن تخسر شيئاً بل يبقى لك عزك.

* * *

قدوم عدي على النبي ﷺ

قال عدي: فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة فدخلت عليه وهو في مسجده فسلمت عليه. فقال: من الرجل؟ فقلت: عدي بن حاتم، فقام رسول الله ﷺ وانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها. قلت في نفسي: والله ما هذا بملك. ثم مضى بي ﷺ حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً فقذفها إلي فقال: «اجلس على هذه»، قلت: بل أنت

فاجلس عليها. قال: «بل أنت». فجلست وجلس رسول الله ﷺ بالأرض. قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك ثم قال: «إيه يا عدي بن حاتم ألم تك ركوسياً؟» (دين بين النصارى والصابئين) قلت: بلى. قال: «أوَلم تكن تسير في قومك بالمرباع؟» قلت: بلى. قال: «فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك». قلت: أجل والله. وعرفت أنه نبي مرسل يعرف ما يُجهل. ثم قال: «لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم». فأسلمت. فكان يقول (عدي): مضت اثنتان وبقيت الثالثة، والله لتكونَنَّ. وقد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت.. ورأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت، وايم الله لتكونَنَّ الثالثة ليفيض المال[1].. (وقد حصل هذا في زمن عمر بن عبد العزيز).

وفي رواية أخرى قال عدي: بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكى إليه الفاقة، وأتاه آخر فشكى إليه قطع السبيل. قال ﷺ: يا عدي بن حاتم هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها. قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله عز وجل. قلت في نفسي: فأين ذعار طيئ الذين سعروا البلاد (أي أفقدوا الناس الأمن). ولئن طالت بك حياة لتفتحنَّ كنوز كسرى بن هرمز. قلت: كسرى بن هرمز؟ (وكأنه أمريكا بالنسبة لنا) قال: كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج بملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد

(١) البداية والنهاية، ٥/ ٦٤ - ٦٥.

أحداً يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن شماله فلا يرى إلا جهنم فـ «اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا شق تمرة فبكلمة طيبة»(١).

ونمضي مع عدي في رحلته إلى الإيمان..

١ - لما عرف النبي ﷺ أن ضيفه عدياً قام من المسجد وأخذه إلى بيته..

هل أراد بذلك أن يشعره بإكرام خاص..؟

هل أراد أن يرى عدياً بيته الزاهد ليعرف أنه ليس ملكاً ولا طالب دنيا؟

هل أراد أن يكون نقده لعدي نجوى وليس على الملأ حتى لا يجرحه..؟

كل هذا ممكن.. ورسول الله ﷺ كان ماهراً في معرفة النفوس وكيف تُؤتى..

٢ - ويقف النبي ﷺ مع المرأة الكبيرة الضعيفة لينظر في حاجتها.. كدأبه صلوات الله عليه في القيام بحاجات الناس.. فكيف وهي امرأة كبيرة وضعيفة..؟وينتبه عدي.. وليس هذا من صفات الملوك ولا من سلوكهم..

٣ - ويدخل البيت دهشاً فما فيه ما يرد العين أو يستهويها.. اللهم إلا وسادة من أدم يؤثره النبي ﷺ بها على نفسه.. ويجلس هو على الأرض..

ماذا حلّ بك يا عدي وأنت ترى هذا التواضع والزهد مع الحرص على إكرام الضيف؟أين الملوك من هذا الرجل العظيم..؟!

٤ - وجاء وقت الحوار وتبادلُ أطراف الحديث مع الضيف.. فإذا بالنبي يستدرجه بأسئلة بسيطة حتى يعترف بأن سلوكه يتناقض مع دينه.. ويحك يا عدي إنك أمام رجل لا يُخدع.. يعرف الملل والأديان.. ويعرف أخطاء الملوك والزعماء.. لا بد أنه نبي.. فما يعرف هذه الأمور الدقيقة إلا نبي..!!

(١) رواه البخاري.

٥ - ومع ذلك فإن عدياً لا يبادر إلى الإسلام.. ويبقى واجماً حائراً.. ويعرف النبي ﷺ ما يجول في فكره من مثبطات.. إن الصورة الدنيوية لم تكن مغرية له.. فيذكر له النبي ﷺ ثلاث نبوءات ستحدث في عالم الإسلام والمسلمين، إن صدك فقر المسلمين فسيفيض المال.. وإن صدك كثرة الأعداء وفقد الأمن فسترحل المرأة وحدها آمنة في أطراف العالم الإسلامي..

أتعرف الحيرة يا عدي؟ سمعت عن روعتها ولم أرها..

ستصبح هانئة في ظل نور الإسلام وتستمتع بالأمن..!!

وعدي تجيش نفسه بالاستغراب.. كيف وقطاع الطرق من طيئ يملؤون الدنيا ذعراً..؟! وكنوز كسرى بن هرمز.. أتعرفه يا عدي؟! كسرى بن هرمز؟ وهل لمثلي أن يعرفه ذاك الذي تقاسم مع قيصر الروم زمام الدنيا.. فحكما البلاد ودوخا العباد..!! عجباً لك يا عدي.. ماذا تسمع اليوم من أعاجيب؟!

٦ - ويرى عدي تحقيق النبوءتين.. ويكون مع الجيش الذي يفتح بلاد كسرى.. ويؤكد لكل من يسمعه بأن الثالثة ستكون، وقد كانت.

٧ - ويختم النبي ﷺ حواره مع عدي بموعظة.. يذكره فيها بوقفته بين يدي الله للحساب ولا أحد يتوسط بينهما.. والنار عن يمينه ويساره.. فاتقوا النار ولو بصدقة صغيرة.. مهما كانت.. وهل من أحد لا يملك كلمة طيبة..؟! فكيف يعجز عن الجود بها؟!

قبل أن نترك الحادث لابد من الانتباه إلى معرفة النبي ﷺ بالجواب المناسب لكل شخص.. فلقد حدث مرة أن عمر ﷺ دخل على النبي ﷺ فتأثر من رؤيته مضطجعاً على حصير غليظ أثر في جنبه.. فتساءل: أنت رسول الله هكذا وكسرى وقيصر يتنعمان؟! وهو التساؤل نفسه الذي جال في قلب عدي.. لكن عدياً يشك بصدق رسالته. وجواب النبي ﷺ لعمر كان

مختلفاً.. قال له بعتب غاضب: يا عمر لهم الدنيا ولنا الآخرة.. عدي كان بحاجة إلى ما ينفي شكوكه.. ويؤكد له مستقبل الإسلام.. أما عمر فهو متألم من أجل النبي.. يتمنى أن (ينعمه). لكنه على يقين من ربه ودينه. ولهذا كان رسول الله ﷺ ينوع الإجابة عن السؤال الواحد بحسب نفسية السائل وأحواله.. وهو أمر على غاية الأهمية.. لو نقدر على تعلمه..!!

* * *

الطفيل وقدوم دوس

وجاء الطفيل بن عمرو الدوسي إلى رسول الله ﷺ فقال: إن دوساً قد هلكت وعصت وأبت فادع الله عليهم. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اهْدِ دوساً وائت بهم»[1].

ويقول أبو هريرة: لما قدمت على النبي ﷺ قلت في الطريق:

يا ليلةً من طولها وعنائها على أنها من دارة الكفر نَجَّتِ

وأبق لي غلام في الطريق (هرب)، فلما قدمت على النبي ﷺ وبايعته فبينا أنا عنده إذ طلع الغلام. فقال له النبي ﷺ: يا أبا هريرة هذا غلامك.. فقلت: هو حر لوجه الله عز وجل.. فأعتقته[1].

وقد كان قدوم الطفيل على النبي ﷺ أول مرة قبل الهجرة. ثم كانت الثانية قبل الفتح. لأن دوساً قدموا ومعهم أبو هريرة. وكان قدوم أبي هريرة ورسول الله ﷺ محاصر خيبر.. وقد أعطاهم ﷺ شيئاً من الغنيمة.

هكذا كان دعاء رسول الله ﷺ على الأقوام: «اللهم اهدهم وائت بهم». وصدق الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٧].

(١) انفرد به البخاري.

وانظر في فرحة أبي هريرة بنجاته من الكفر وأرضه.. فكل عناء هين أمام هذا الكسب.. وها هو يعتق غلامه لوجه الله تعبيراً عن فرحه وشكره لله تعالى على نعمة الإيمان والهجرة إلى الله ورسوله.

ونحن أولى بحمد الله تعالى فقد ربحنا في تاريخنا طالب علم ممتازاً فرَّغ نفسه للتعلم من رسول الله ﷺ وروى لنا الكثير من الأحاديث ﷺ.

* * *

أثر البيئة في النفوس

وجاءت وفود أهل اليمن.. فقال عنهم رسول الله ﷺ:

«أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً، الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم»[1].

وبعض الباحثين قرن مجيء الأشعريين مع أهل اليمن. لكن الأشعريين سبق قدومهم فقد وافقوا جعفر بن أبي طالب أثناء عودته من الحبشة ورافقوه إلى النبي ﷺ.

ونلاحظ أثناء الحديث عن وفود القبائل أن رسول الله ﷺ كان يثني على كل قبيلة بالميزة التي تمتاز بها.. وكثيراً ما يتجاوز عن الأخطاء ليبرز الحسنات. والثناء هنا عاطر وكريم.. قلوب مرهفة طيبة.. تتجاوب مع كل خير.. بل إن الصفات الجيدة كأنها انبعثت من اليمن.. فالإيمان يمان والحكمة يمانية.. لقد جمع رسول الله ﷺ لهم الإيمان والحكمة أي الإخلاص والصواب فأي شيء أعظم من فلاح الدنيا والآخرة..؟! (لأنهما شرطا النجاح في الدنيا والآخرة).

أما لماذا؟ فهو أمر يحتاج إلى دراسة. أهذا نابع من تراث حضاري قديم لليمن؟ أم لموقعها الجغرافي الذي يجعلها حاضرة شاهدة على الأمم إذ إنها

---

(١) رواه مسلم.

الممر التجاري إلى الهند التي تتطلع كل الأمم - قديماً وحديثاً - إلى كنوزها وخيراتها..؟!

ولا شك بأن للبيئة تأثيراً على الشخصية والفكر والأخلاق. فأهل الإبل - وهم البدو غالباً - فيهم الفخر والخيلاء (ولم يقل: فيهم صلف واستكبار لأنه يختار التعبير الألطف ليتألف ولا ينفر). وأما رعاة الغنم ففيهم السكينة والوقار لكثرة احتكاكهم بالطبيعة الجميلة وتأملهم فيها.. كما أن الغنم فيها وداعة.

هذه أمور تحتاج إلى متخصصين للبحث فيها.. وكلمات النبي من جوامع الكلم تحتاج إلى شروح.

* * *

وعد سنني

وكان رسول الله ﷺ يتحسس أحوال أصحابه وحاجاتهم ويتمنى أن يوسع عليهم ويعينهم.. وقد سبق أن تناولنا بعض رعايته لجابر الذي استشهد أبوه وترك له سبع أخوات وديوناً.. ويبدو أنه ﷺ رأى جابراً يوماً وهو مهموم فأراد أن يسري عنه ويحيي الأمل في قلبه فقال له: «لو قد جاء مال البحرين لقد أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا».. فلم يقدم مال البحرين حتى قبض رسول الله ﷺ، فلما قدم على أبي بكر، أمر منادياً فنادى: من كان له عند النبي ﷺ دين أو عِدة فليأتني. قال جابر: فجئت أبا بكر فأخبرته أن رسول الله ﷺ قال: «لو قد جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا ثلاثاً» فأعرض عني. فلقيته بعد ذلك فسألته فلم يعطني.. (ثلاث مرات) فقلت له: قد أتيتك فلم تعطني.. فإما أن تعطيني وإما أن تبخل عني! قال: قلت تبخل عني؟! وأي داء أدوأ من البخل (قالها ثلاثاً)، ما منعتك من مرة إلا وأنا أريد أن أعطيك[1]. وفي رواية أخرى: أنه

(١) رواه البخاري ومسلم.

أمره فحثى بيديه من دراهم فعدها فإذا هي خمس مئة فأضعفها له مرتين[١]. أي أعطاه ألفاً وخمس مئة درهم.

نجد في الخبر أن رسول الله ﷺ ينظر إلى المستقبل بسنن الله.. فلقد دانت الجزيرة العربية للمدينة ولحكم الإسلام.. وها هي الأموال تأتي من أطرافها - زكاة أو جزية - لتفرج عن أصحابه ضيقهم المادي.

وأبو بكر يتأخر في إعطاء جابر ريثما يستعرض الحاجات وينسق بينها.. وحين يسمع كلمة (بخل) يرتاع ويسارع في إعطائه.

❋ ❋ ❋

ما زلنا نتعلم العلاج النفسي..

وقدم فروة بن مسيك المرادي مفارقاً لملوك كندة ومباعداً لهم إلى رسول الله ﷺ. وقد كان بين قومه مراد وبين همدان وقعة قبيل الإسلام أصابت همدان من قومه حتى أثخنوهم، وكان ذلك في يوم يقال له الردم. فلما انتهى فروة إلى رسول الله ﷺ قال له: يا فروة هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم؟ فقال: يا رسول الله من ذا الذي يصيب قومه ما أصاب قومي يوم الردم لا يسوءه ذلك؟! فقال ﷺ: «أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيراً» واستعمله على مراد وزبيد ومذحج كلها وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة. فكان معه في بلاده حتى توفي ﷺ[٢].

محمد ﷺ شاهد لعصره ولما حدث قبيل الإسلام.. فهو يتحاور مع وفد كل قبيلة عن تاريخها ومعاناتها.. حتى إن أصحاب الوفود كانوا يشعرون وكان النبي ﷺ كان معهم ويحس بآلامهم. وفروة هذا كان شاعراً وقد قال شعراً في

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

مصاب قومه يوم الردم فكم يواسيه ويؤنسه أن يكلمه النبي ﷺ عن معاناة قومه..؟

بل إنه ﷺ يحث فروة على التعبير عن حزنه.. وأن يخرج ما في قلبه من ألم.. والإنسان محتاج إلى تفريغ أحزانه وإلا أتلفت أعصابه وسممت أعضاؤه.. وأجمل ما في الأمر أن يجد الإنسان من يسأله عن آلامه ويستمع إليه.. ورسول الله ﷺ في هذا الخبر القصير جمع بين إجراءات ثلاثة في علاج النفس:

١ - سأل الآخر عن آلامه..

٢ - استمع إليه وهو يفرغ الشحنة التي في قلبه.

٣ - واساه بأن طمأنه أن هذه المعاناة قد رفعت من منزلة قومه وأجرهم في الإسلام. وذلك أنهم كانوا هم المعتدى عليهم.. فأصيبوا فصبروا.. ثم طلبوا الخلاص في الإسلام.

ويبدو أن مراد - قبيلة فروة - كانت خاضعة لكندة ففارقتها.. فأكرمهم النبي وأمّر فروة.

* * *

قدوم بطل شاعر

وقدم على رسول الله ﷺ عمرو بن معديكرب في أناس من زبيد - وهم جيران مراد - وقد كان عمرو قال لقيس بن مكشوح المرادي حين انتهى إليهم أمر رسول الله ﷺ: يا قيس إنك سيد قومك وقد ذكر لنا أن رجلاً من قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز يقال: إنه نبي، فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه، فإن كان نبياً فإنه لن يخفى علينا، إذا لقيناه اتبعناه، وإن كان غير ذلك علمنا علمه. فأبى عليه قيس ذلك وسفه رأيه، فركب عمرو بن معديكرب (ويبدو

أنه يقال له يكرب وكرب) حتى قدم على رسول الله ﷺ فأسلم وصدقه وآمن به. فلما بلغ ذلك قيس أوعد عمراً وقال: خالفني وترك أمري ورأيي..! فقال عمرو في ذلك شعراً.

فأقام عمرو في قومه من بني زبيد وعليهم فروة بن مسيك فلما توفي رسول الله ﷺ ارتد عمرو فيمن ارتد وهجا فروة.. ثم رجع إلى الإسلام وحسن إسلامه وشهد فتوحات كثيرة في أيام الصديق والفاروق رضي الله عنهما وكان من الشجعان والأبطال المشهورين والشعراء المجيدين[١].

* * *

سرعة في الطاعة

وقدم على رسول الله ﷺ وفد الأشعث بن قيس في وفد كندة في ثمانين راكباً فدخلوا على رسول الله ﷺ مسجده قد رجَّلوا جممهم (شعورهم) وتكحلوا عليهم جبب الحبرة قد كففوها بالحرير. فلما دخلوا على رسول الله ﷺ قال لهم: ألم تسلموا؟! قالوا: بلى. قال: فما بال هذا الحرير في أعناقكم؟! فشقوه منها فألقوه. ثم قال له الأشعث بن قيس: يا رسول الله نحن بنو آكل المرار وأنت ابن آكل المرار. فتبسم رسول الله ﷺ وقال: ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث. وكانا تاجرين إذا شاعا في العرب فسئلا ممن أنتما؟ قالا: نحن بنو آكل المرار - يعني ينسبان إلى كندة ليعزّا في تلك البلاد لأن كندة كانوا ملوكاً - فاعتقدت كندة أن قريشاً منهم لقول عباس وربيعة نحن بنو آكل المرار وهو الحارث بن عمرو بن معاوية.. ثم قال ﷺ: «لا نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفي من أبينا» فقال لهم الأشعث بن قيس: والله يا معشر كندة لا أسمع رجلاً يقولها إلا ضربته ثمانين[٢] (وهو حد القذف لأنه ينسب القوم

---

(١) البداية والنهاية، ٥/٧١ - ٧٢.

(٢) المصدر السابق، ٥/٧٢ - ٧٣.

إلى غير أبيهم). وفي رواية أخرى قال الأشعث: فوالله لا أسمع أحداً نفى قريشاً من النضر بن كنانة إلا جلدته الحد[١].

ويسأل النبي ﷺ الأشعث: هل لك من ولد؟ قلت: غلام ولد لي في مخرجي إليك.. ولوددت أن مكانه سبع القوم. قال ﷺ: «لا تقولن ذلك فإن فيهم قرة عين وأجراً إذا قبضوا، ثم ولئن قلت ذاك إنهم لمجْبَنَة محزَنة، إنهم لمجْبَنَة محزَنة»[٢].

خبر طريف فيه إشارات عدة نتأملها:

١ - وفد كندة يتجملون للقاء النبي ﷺ.. ثم يسارعون للتخلي عن الحرير عندما يعرفون حرمته على الرجال.. وبكل بساطة يشقون الحرير من ثيابهم مباشرة؟! فيا له من إيمان؟!

٢ - ويظنون أن بينهم وبين النبي ﷺ نسباً.. فيضحك النبي ﷺ ويوضح أصل الالتباس، وفي ذلك تعريض بغلطة عمه العباس.. والتجار يلجؤون إلى أساليب عجيبة أحياناً..

٣ - والأشعث يشتد في زجر قومه في الحديث بعد ذلك عن نسب قريش.. يهدد بحد القذف؟!

٤ - ثم مؤانسة النبي ﷺ لضيفه - زعيم الوفد - والحديث عن الأولاد المساوئ والمحاسن.. وهل كان يشير إلى فجيعته بأولاده (وأجراً إذا قبضوا) ويواسي نفسه ﷺ؟!

٥ - قوله ﷺ عن الأولاد: «إنهم مَجْبَنَة محزَنة» فيه تحذير ومواساة للآباء.. فإن الآباء يبتعدون بأنفسهم وأبنائهم عن مواطن البذل والخطر.. لأنهم يحملون همّ العيال ومن سيقوم عليهم.. وبهذا يصبح الرجل جباناً من أجل أولاده. وأما المحزنة فالآباء في ألم دائم لما يصيب أولادهم.. ولما يحرمون منه من خير ومتاع..

---

(١) البداية والنهاية، ٥/ ٧٢-٧٣.

(٢) تفرد به أحمد.

صلوات الله عليك وسلامه يا رسول الله.. إنك تتحدث بعواطف الأب الإنسان.. وإنك مع ضيفك قريب حميم تفضي له ويفضي لك.

* * *

وفد الأزد وأهل جُرَش

وقدم صرد بن عبد الله الأزدي على رسول الله ﷺ في وفد من الأزد فأسلم وحسن إسلامه، وأمَّره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، وأمَره أن يجاهد بمن أسلم من يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن.. فحاصر جُرَش شهراً.. ثم رجع عنهم إلى جبل شكر.. فخرجوا في طلبه فعطف عليهم وقاتلهم.. وكان أهل جُرَش بعثوا منهم رجلين إلى رسول الله ﷺ، فسأله ﷺ: بأي بلاد الله شكر؟ فقال الرجلان: ببلادنا. فقال ﷺ: إن بدن الله لتنحر عنده الآن.. فلم يفهم الرجلان. فقال لهما أبو بكر - أو عثمان - إنه ينعى إليكما قومكما.. فسألاه أن يدعو الله فيرفع عنهم.. فسألاه. فقال ﷺ: «اللهم ارفع عنهم»..

ثم جاء وفد جرش بمن بقي منهم فأسلموا وحسن إسلامهم وحمى لهم حول قريتهم[(١)].

* * *

بايعت على النصح لكل مسلم

وقدم على رسول الله ﷺ كتاب ملوك حمير ورسلهم بإسلامهم مَقْدَمُه من تبوك. وقد كتب فيه زرعة ذو يزن مالك بن مرة الرهاوي بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله. فكتب إليهم رسول الله ﷺ كتاباً يعلّمهم فيه دينهم وما عليهم من فرائض ومقدار الزكاة من كل نوع من أموالهم.. وأن من بقي على دينه من أهل الكتاب عندهم فعليه الجزية.

---

(١) البداية والنهاية، ٥/ ٧٤ - ٧٥.

ويتحدث جرير بن عبد الله البجلي عن قدومه على رسول الله ﷺ وإسلامه فيقول: لما دنوت من المدينة أنخت راحلتي ثم حللت عيبتي ثم لبست حلتي ثم دخلت فإذا رسول الله ﷺ يخطب فرماني الناس بالحدق، فقلت لجليسي: يا عبد الله هل ذكرني رسول الله ﷺ؟ قال: نعم ذكرك بأحسن الذكر بينما هو يخطب. قال: «يدخل عليكم من هذا الباب رجل على وجهه مسحة ملك» فحمدت الله، عز وجل، على ما أبلاني(١).

وعن جرير قال: ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت ولا رآني إلا ابتسم في وجهي(٢). وعنه قال: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم(٣). وقد ذكرنا أن رسول الله ﷺ بعثه لهدم ذي الخلصة فشكا إليه أنه لا يثبت على الخيل. فدعا له: «اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً». فلم يسقط بعد ذلك.

ويقول: إنما أسلمت بعدما أنزلت المائدة وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح بعدما أسلمت، وكان أصحاب عبد الله بن مسعود يعجبهم حديث جرير في مسح الخف؛ لأن إسلام جرير إنما كان بعد نزول المائدة. وقال له ﷺ في حجة الوداع: «استنصت الناس يا جرير» يقول ابن كثير: إنما قال له ذلك لأنه كان صبياً وكان ذا شكل عظيم، كانت نعله طولها ذراع وكان من أحسن الناس وجهاً ومن أغض الناس طرفاً. وهو الذي سأل رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة فقال: «أطرق بصرك»(٤).

جرير هذا جميل الطلعة مهاب الهيئة، يعتني بمظهره فلا يدخل على النبي ﷺ حتى يلبس ما يليق.. فيصفه النبي ﷺ بأن عليه مسحة ملك.. وفي ذلك إبراز للفضل وتوجيه للمؤمنين بالعناية بمظهرهم.

---

(١) البداية والنهاية، ٥/ ٧٧ - ٧٩.
(٢) البداية والنهاية، ٥/ ٧٧ - ٧٩.
(٣) البداية والنهاية، ٥/ ٧٧ - ٧٩.
(٤) البداية والنهاية، ٥/ ٧٧ - ٧٩.

ونرى في هذا الخبر كيف كان رسول الله ﷺ يحب الجمال والأناقة، ويعبر عن ذلك حتى في أسلوب لقائه.. فهو يبتسم له ويرحب بلقائه فلا يحجبه.

ولا بد أن نلاحظ أن رسول الله ﷺ كان يعمم اهتمامه وتبسمه على كثيرين، وكثير من أصحابه كان يظن نفسه هو الأثير في قلب محمد ﷺ من حسن معاملته واهتمامه.. وكان صلوات الله عليه صادقاً في حبه واهتمامه بكل منهم لأنه كان قادراً على رؤية ميزة كل واحد منهم.. فأبو بكر هو الصّديق.. وذاك الفاروق.. والثالث أمين الأمة.. والرابع سيف الله المسلول.. وأبو ذر أصدق الناس لهجة.. إلخ يلتقط الجوهرة ويبرزها للأعين..

ونجد بيعة جرير ذات نكهة خاصة فلقد بايع على ثلاثة بنود إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم. وهكذا تبدو النّصيحة هنا ثلث الدين. هل انتقى رسول الله ﷺ هذا البند لجرير لما حباه الله من جلال الهيئة والمنظر مما يجعله محبوباً ومطاعاً بين الناس.. وبهذا يستخلص من ميزته أكبر قدر ممكن من الخير..؟ يمكن أن يكون هذا. ومعروف عن رسول الله ﷺ أنه كان يوزع المهام بحسب المواهب والطاقات عند أصحابه.

لكن إبراز النصيحة على أنها عنصر أساسي في الإسلام شيء كبير وهام، فالنصيحة هي التصحيح والمجتمع بحاجة إلى جهاز تدقيق وتصحيح دائم العمل وإلا أكلته الأخطاء.. فمن يبايع على تقديم النصيحة على أجمل طبق..؟!

وجرير يقرر حكماً فقهياً (المسح على الخفين) بقي بعد انتهاء آيات الأحكام.

* * *

ودارت الأيام..

وقدم وائل بن حجر بن ربيعة الحضرمي أحد ملوك اليمن على رسول الله ﷺ فأسلم ورحب به رسول الله ﷺ، وقرب مجلسه، وبسط له

رداءه، واستعمله على الأقيال من حضرموت.. وأقطعه أرضاً وأرسل معه معاوية بن أبي سفيان. فخرج معه راجلاً فشكى إليه حر الرمضاء فقال: انتعل ظل الناقة، فقال: وما يغني عني ذلك لو جعلتني ردفاً! فقال له وائل: اسكت فلست من أرداف الملوك. ثم عاش وائل بن حجر حتى وفد على معاوية وهو أمير المؤمنين فعرفه معاوية فرحب به وقربه وأدناه وأذكره الحديث، وعرض عليه جائزة سنية فأبى أن يأخذها، وقال: أعطها من هو أحوج إليها مني[١].

وفي رواية أخرى: فقال معاوية: أعطني نعلك! فقلت: انتعل ظل الناقة. فلما استخلف معاوية أتيته فأقعدني معه على السرير فذكرني الحديث.. فقال: وددت أني كنت حملته بين يدي[٢].

فما أعجب دورة الأيام وتقلبات الزمان؟! معاوية الذي كان يمشي حافياً راجلاً يصبح أمير المؤمنين..!! ويجيبه وائل عندما يشتكي إليه من حر الرمضاء بصلف: لست من أرداف الملوك؟! فهل كان الموقف تحدياً لمعاوية جعله يتمسك بالملك ويستخدم كل ما أوتي من تدبير للوصول إليه؟! ربما كان ذلك إضافة إلى أنه كان ابناً لأبي سفيان الذي كان زعيماً لقريش.. وورث عنه حب الزعامة.. ومعاوية يذكر وائلاً بهذا الموقف وهو يظهر له التكريم.. لكن وائلاً ما خفي عليه أنه يوبخه ويذله.. بدليل رفضه لجائزة معاوية.. ولعلي أسيء الظن بالطرفين.. فالله أعلم بالنوايا ونسأله أن يغفر لنا ولهم.

* * *

وجه رجل لا يغدر..

ووفد عليه زياد بن الحارث الصّدائي فبايعه على الإسلام وأسلم قومه.

ووفد عليه الحارث بن حسان البكري.

---

(١) البداية والنهاية، ٥/٧٩.

(٢) رواه الإمام مالك.

ووفد عليه عبد الرحمن بن عقيل وقومه.

وهذا طارق بن عبد الله المحاربي يحدثنا بقصته يقول:

إني لقائم بسوق ذي المجاز إذ أقبل رجل عليه جبة وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، ورجل يتبعه يرميه بالحجارة وهو يقول: يا أيها الناس إنه كذاب. فقلت: من هذا؟! فقالوا: هذا غلام من بني هاشم يزعم أنه رسول الله، قلت: من هذا الذي يفعل به هذا؟ قالوا: عمه عبد العزى (أبو لهب). فلما أسلم الناس وهاجروا خرجنا من الرُّبذة نريد المدينة نمتار من تمرها، فلما دنونا من حيطانها (أي بساتينها) ونخلها قلت: لو نزلنا فلبسنا ثياباً غير هذه، إذا رجل في طمرين (أي ثوبين قديمين) فسلم علينا وقال: من أين أقبل القوم؟ قلنا: من الرُّبذة. قال: وأين تريدون؟ قلنا: نريد هذه المدينة. قال: ما حاجتكم منها؟ قلنا: نمتار من تمرها، قال: ومعنا ظعينة لنا ومعنا جمل أحمر مخطوم، فقال: أتبيعوني جملكم هذا؟ قلنا: نعم بكذا وكذا صاعاً من تمر، قال: فما استوضعنا (أي لم يطلب تخفيض الثمن) مما قلنا شيئاً، وأخذ بخطام الجمل وانطلق، فلما توارى عنا بحيطان المدينة ونخلها قلنا: ما صنعنا والله ما بعنا جملنا ممن يُعرف ولا أخذنا له ثمناً، تقول الظعينة التي معنا: لا تلاوموا فلقد رأيت وجه رجل لا يغدر، ما رأيت شيئاً أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه. (وفي رواية أنا ضامنة لثمن جملكم)، إذ أقبل الرجل فقال: أنا رسول الله إليكم، هذا تمركم فكلوا واشبعوا واكتالوا واستوفوا، فأكلنا حتى شبعنا واكتلنا فاستوفينا. ثم دخلنا المدينة فدخلنا المسجد فإذا هو قائم على المنبر يخطب الناس فأدركنا من خطبته وهو يقول: «تصدقوا فإن الصدقة خير لكم، اليد العليا خير من اليد السفلى، أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك أدناك» إذ أقبل رجل من بني يربوع، أو قال: رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله لنا في هؤلاء دماء في الجاهلية، فقال ﷺ: «إن أباً لا يجني على ولد (ثلاث مرات)»[1].

---

(١) البداية والنهاية، ٥/ ٨٥ - ٨٦.

طارق هذا كأنه يريد أن يقول لنا: رأيت مشهداً في مكة استغربته.. رجل من بني هاشم يزعم أنه رسول الله.. وأهله يكذبونه.. فكيف تصدق العرب كلامه..؟! لكن الأمر لم يجر على ما توقعه العرب.. وها هو ابن عبد المطلب يغدو الرسول المصدَّق في المدينة وما حولها.. وصاحب الأمر والكلمة فيها. فمن كان يصدق؟!

ونتأمل في الخبر فراسة المرأة (رأيت وجه رجل لا يغدر).. ففي الوقت الذي رأى فيه الرجال هذا الشاري رجلاً مجهولاً في ملابس لا تدل على جاه بل هي ملابس فقر.. رأت فيه المرأة وجه صدق ليس من شيمته الغدر.. فهل المرأة أقدر على قراءة الأفكار من سيماء الوجه..؟! هذا علم قائم بنفسه: علم الدلالات ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ [الفتح: ٤٨/٢٩] إن الأفكار والأخلاق تحفر خرائطها في الوجوه.

ونتأمل سلوك النبي ﷺ وهو يرى ركباً مقبلاً على المدينة فيسعى إليهم ليعرف خبرهم:

أ- حرصاً منه على حماية المدينة ممن يريد بها شراً.

٢- واهتماماً منه بأمور الناس والسعي في قضاء حوائجهم.. وتبليغهم دعوة الله.

ولا يبدأ بدعوتهم.. حتى يحيط بأخبارهم من أين جاؤوا وما حاجتهم؟؟ ثم يقضي حاجتهم فيشتري ويبيع لهم ولا يساومهم فيما طلبوا من ثمن.. بل يأتيهم بما يأكلون منه حتى يشبعوا ويكتالون حتى يستوفوا.. وعندها يمكن أن يصدقوا أنه رسول الله ﷺ ويسمعوا لدعوته..

وهو درس في الدعوة للدعاة.. فيا أيها الداعي عليك أن تعرف الناس وتعرف مشاكلهم، وتسعى في قضاء حوائجهم بصدق وأمانة.. وعندها يفهمون إلى أي شيء تدعو.

وفي المسجد سمعوا النبي ﷺ يخطب في الناس ويأمر الناس بالعطاء. وأن يتخلقوا بروح العطاء.. فالمعطي هو الأعلى وصاحب اليد العليا.. وأن يكون العطاء للأقرب فالأقرب والإسلام في ذلك ينسجم مع الفطرة.

ويأتي رجل من المدينة بنغمة نشاز تكاد تفسد جمال ذاك التناغم الإنساني المتسامي.. إنه يذكر ثارات الجاهلية مع ذاك الوفد الضيف الجالس في المسجد لينهل من نور الإسلام..؟!

صلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله كم تعبت في تطهير النفوس من رواسب الجاهلية؟! وكم دأبت على تهذيب هؤلاء الأعراب وتخليصهم من حمية الثأر والاستهانة بالدم الإنساني.. ومع ذلك فقد أحسن الرجل بسؤاله فإن الأمر بحاجة إلى مزيد من البيان.. ولا تظنوا أن رواسب الجاهلية قد زالت.. ولا بد من حفر مستمر لاقتلاع كل الجذور.

«إن أباً لا يجني على ولد» هذا في مسألة الجرائم والقصاص والثارات.. فلا يؤخذ أحد بجريرة والده. أما في التربية - مثلاً - فكم جنى الآباء على أولادهم.. وكم أساؤوا في توجيههم وقصروا في حسن رعايتهم.

* * *

وفود كثيرة اخرى

وقدم على رسول الله ﷺ تميم الداري بعد رحلة تاه فيها في البحر.

وجاء وفد بني أسد في عشرة رجال منهم: ضرار بن الأزور، وطليحة بن خويلد الذي ادعى النبوة بعد ذلك، ثم أسلم وحسن إسلامه. فقال له رئيسهم: يا رسول الله أتيناك نتدرع الليل البهيم في سنة شهباء ولم تبعث إلينا بعثاً. فنزل فيهم: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٧].

وجاء وفد بني عبس (وبعض الباحثين يقول: إنهم وفدوا قبل الفتح).

وجاء وفد بني فزارة في بضعة عشر رجلاً فيهم خارجة بن حصن (أخو عيينة) على ركاب عجاف واشتكوا إلى رسول الله ﷺ من الجدب. فاستسقى لهم.. فسقوا[١]..

وكذلك وفد بني مرة كانوا مجدبين فدعا لهم.

وجاء وفد بني ثعلبة فأمر لهم بضيافة.. ثم أجازهم (وزع عليهم جوائز).

وجاء وفد بني كلاب في ثلاثة عشر رجلاً وفيهم لبيد بن ربيعة الشاعر. فذكروا للنبي أن الضحاك بن سفيان الكلابي سار فيهم بكتاب الله وسنة رسوله ودعاهم إلى الله فاستجابوا له وأخذ صدقاتهم من أغنيائهم فصرفها على فقرائهم.

وجاءت وفود: بني رؤاس من كلاب، وبني عقيل بن كعب، وبني قشير بن كعب، وبني البكاء، وكنانة، وباهلة، وبني سليم (وقد شهدوا معه الفتح والطائف وحنيناً) وبني هلال بن عامر، وبني بكر بن وائل، وبني تغلب وفيهم مسلمون ونصارى[١].

وجاءت وفادات من أهل اليمن. أخص بالذكر منها واحداً.

* * *

فقه الارتقاء بالحياة..

كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء

يقول سويد بن الحارث الأزدي: وفدت سابع سبعة من قومي على رسول الله ﷺ فلما دخلنا عليه وكلمناه فأعجبه ما رأى من سَمْتِنا وزِيِّنا فقال:

---

(١) البداية والنهاية، ٥/ ٨٧ - ٩٣.

ما أنتم؟ قلنا: مؤمنون. فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «إن لكل قول حقيقة فما حقيقة قولكم وإيمانكم»؟! قلنا خمس عشرة خصلة: خمس منها أمرتنا رسلك أن نؤمن بها، وخمس أمرتنا أن نعمل بها، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية فنحن عليها إلا أن تكره منها شيئاً. فقال ﷺ: «ما الخمسة التي أمرتكم بها رسلي أن تؤمنوا بها؟» قلنا: أمرتنا أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت. قال: «وما الخمسة التي أمرتكم أن تعملوا بها؟» قلنا: أمرتنا أن نقول: لا إله إلا الله، ونقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونصوم رمضان، ونحج البيت من استطاع إليه سبيلاً. فقال: وما الخمس..؟! قالوا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضى بمر القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء. فقال ﷺ: «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء» ثم قال: «وأنا أزيدكم خمساً فيتم لكم عشرون خصلة إن كنتم كما تقولون، فلا تجمعوا ما لا تأكلون. ولا تبنوا ما لا تسكنون. ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غداً تزولون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون». فانصرف القوم من عند رسول الله ﷺ وحفظوا وصيته وعملوا بها[1].

كلمة الفقه هنا لافتة للنظر.. واستعملت في موضع لا يخطر في بالنا.. فنحن قد قَرَنّا كلمة (الفقه) بمعرفة أحكام الطهارة والنجاسة والبيع والشراء.. والقوم هنا يشرحون إيمانهم على أنه يشمل جوانب ثلاثة:

١ - جانب يتضمن عناصر الإيمان الخمسة.

٢ - وجانب يتضمن أركان الإسلام وعباداته.

٣ - وجانب نفسي أخلاقي قد روضوا أنفسهم عليه منذ الجاهلية.. وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

---

(١) البداية والنهاية، ٥/ ٩٤.

هذا الجانب النفسي الأخلاقي يجعلهم دائماً في صلة مع الله ما بين شكر وصبر.. وأما الرضى بمر القضاء.. فهو الرضى بما لا اختيار لهم فيه ولا قدرة لهم على تغييره.. وهذه الصفات الثلاث تعطي للإنسان سمتاً خاصاً يوحي بالسكينة والسعادة..

والصدق في مواطن اللقاء.. هو الشجاعة في مواجهة العدو سواء كانت المجابهة معه مادية أم معنوية أو فكرية. وهي صفة تضفي على الشخصية قوة وجلالاً.

وأما ترك الشماتة بالأعداء فهو ارتقاء بالنفس إلى منازل الصفاء والعظمة يورث القلب السليم المشع بالحب والخير للجميع.. ولا يصل إلى ذلك إلا من جاهد نفسه حق الجهاد.

هذه الصفات تركت معالمها واضحة في وجوههم وهيئاتهم.. وأعطتهم سمتاً خاصاً محبباً أعجب النبي ﷺ به، مما دفعه إلى سؤالهم عن أنفسهم. فلما أجابوا ازداد إعجابه بهم ووصفهم بالحكمة والعلم والفقه..

إنه فهم دقائق النفس الإنسانية وأساليب ارتقائها.. إنه فقه الارتقاء بالحياة. وأراد النبي ﷺ أن يزيدهم ارتقاء فأهداهم خمس صفات أخرى:

لا تجمعوا ما لا تأكلون	إعطاؤهم مناعة ضد الجشع والتكالب على الدنيا. وتنبيه لهم أن يصونوا طاقاتهم من الهدر فيما لا بقاء له.
ولا تبنوا ما لا تسكنون	
ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه تزولون	

واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون	إيثار الله ورضاه على أي شيء آخر
وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون	لأنه يمنحك من الكسب ما هو خير وأبقى

وإنها لعمري لصورة إنسانية رائعة المعالم وسط غابة الحياة التي يصطرع فيها ناس مسخوا امتيازهم الإنساني.

* * *

٩- عام البعوث

منذ أكثر من أربعين صفحة وأنا أستعرض الوفود التي قدمت على النبي ﷺ للإسلام أو الصلح بعد أن أيقن العرب بتمكن النبي ﷺ وأمته في الأرض. وها نحن ندخل العام العاشر للهجرة.. ولئن كان العام التاسع هو عام الوفود فإن العاشر هو عام البعوث التي أرسلها النبي ﷺ إلى سائر أطراف الجزيرة للدعوة إلى الله. وفي كلتا الحالتين نتعلم دروساً في الدعوة وفي التعامل الناجح مع الناس لتغييرهم وتصحيح أفكارهم وسلوكهم.

وقد بعث رسول الله ﷺ في هذا العام خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً.. فاستجابوا وأسلموا وكتب خالد بن الوليد بذلك إلى رسول الله، فأمره أن يأتي ومعه وفدهم. فأمّر عليهم قيس بن الحصين، وبعث لهم بعمرو بن حزم ليفقههم في الدين، وكتب له كتاباً عهد له فيه بتعليم الناس، وأخذ صدقاتهم. وبيّن فيه فرائض الإسلام ومواقيت الصلاة ومقدار الزكاة. ومقدار الجزية فمن أداها فله ذمة الله ورسوله[1].

• • •

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص٣٢٠ (مختصراً).

بعث الأمراء إلى أهل اليمن

وبعث رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن كل واحد منهما على مخلاف - واليمن مخلافان - وقال لهما: «يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا» وفي رواية: «وتطاوعا ولا تختلفا»[١].

وفي رواية أن أبا موسى الأشعري سأل رسول الله ﷺ - حين أرسله إلى اليمن - عن أشربة تصنع بها. فقال: ما هي؟ البتع (نبيذ العسل) والمزر (من الشعير) فقال ﷺ: «كل مسكر حرام»[٢].

وفي رواية عن ابن عباس أنه ﷺ قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[٣].

وفي رواية عن معاذ أنه لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن خرج يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته فلما فرغ قال: يا معاذ إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري. فبكى معاذ خشعاً لفراق رسول الله ﷺ. ثم التفت بوجهه نحو المدينة فقال: «إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا»[٤] وعن معاذ قال: يا رسول الله أوصني. فقال ﷺ: «اتق الله حيثما كنت» قال: زدني. قال: «أتبع السيئة الحسنة

---

(١) البخاري.

(٢) البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه الإمام أحمد.

تمحها». قال: زدني قال: «خالق الناس بخلق حسن»(١). وفي رواية قال له: «إياك والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين»(١). وقال ﷺ لمعاذ: «كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟» قال: أقضي بما في كتاب الله. قال: «فإن لم يكن في كتاب الله؟» قال: فسنَّة رسول الله ﷺ. قال: «فإن لم يكن في سنة رسول الله؟» قال: أجتهد رأيي ولا آلو. فضرب رسول الله ﷺ صدري ثم قال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسولِ الله لما يُرضي رسول الله»(١).

نتأمل وصايا النبي ﷺ للأمراء الذين يبعثهم:

١ - يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا.. فيا لها من وصية.. وكم نفر المسلمون الناس من الإسلام بتعقيدهم وتعسيرهم.. حتى شاع بين الناس قولهم (مشينا على الأرض خطأ).. إن إبعاد الإنسان عن المشقة والعسر مقصد من مقاصد الشريعة ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٥]. ولكن ناساً من أدعياء العلم - في عصر انحطاط المسلمين - قد عسروا دين الله في مجالات كثيرة.. فلقد شرع الله لنا التيمم تيسيراً على الأمة.. لكنهم عطلوا التيمم من كثرة ما وصفوا لـ (الصعيد الطيب) من شروط.

وشددوا على المرأة حتى نفرت وأعرضت عن الدين.. وحولوا الأحكام الميسرة إلى آصار وأغلال صدت الناس عن رؤية الحق واتباعه.

٢ - تطاوعا ولا تختلفا.. والنهي هنا عن الاختلاف المؤدي إلى التفرق.. لا عن تنوع الآراء والاجتهادات. ليفهم كل واحد بحسب ما اجتهد واقتنع.. لكن كونوا قلباً واحداً ويداً واحدةً للحق.. وليحترم كل منكم رأي الآخر.

---

(١) رواه الإمام أحمد.

٣ - كل مسكر حرام.. مهما اختلفت الأصناف والأسماء.. فالمهم مراقبة العواقب والأضرار. وهو ميزان وقاعدة تصلح إلى يوم الدين.. وهو ما جعل علماءنا يقولون الحرام هو الضار لأكبر عدد من الناس والحلال هو النافع لأكبر عدد من الناس عاجلاً وآجلاً.. أي ما هو خير وأبقى.

٤ - ثم ننظر كيف يعلم معاذاً التدرج في دعوة الناس إلى الدين تيسيراً عليهم، فيبدأ من الأهم: التوحيد.. فإن هم آمنوا بالله وحده فعلمهم الصلاة وهكذا يتدرج الداعي في أخذ الناس بالأحكام حتى يعتادوا عليها شيئاً فشيئاً ولا يلقيها عليهم دفعة واحدة فتثقل عليهم. وفي ذلك تعليم للداعي كيف يمسك بيد الناس فيرتقي بهم درجة درجة.. ومعرفة ذلك هي الحكمة التي أمر بها الداعي وإلا كان كالمنبت: لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

٥ - إياك وكرائم أموالهم.. لا تأخذ أجود أموالهم للصدقات - إلا أن يقدموها عن طيب نفس - ولا تأخذ أردأها أيضاً.. تعليماً للناس خلق الاعتدال.

وهذا التحذير يندرج تحت «ولا تنفروا».. فلا تفرض عليه التخلي عما يحب مما يملك.. لكن الإسلام يرتقي بالإنسان بعد ذلك في طريق صاعد من أداء الزكاة إلى صدقة التطوع ثم إلى الإيثار حيث يصبح رضى الله أحب إليه مما سواه ..﴿لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٢] و ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٩]. لكن باختياره.

٦ - واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب. الله الله في مسألة الظلم.. فإن الظلم ظلمات في الدنيا والآخرة. وإنما نزلت الأديان لرفع الظلم عن الناس. وهو أمر دقيق يحتاج إلى يقظة عند الداعي والقاضي والمربي والحاكم..

وكل راعٍ مسؤول.. فلعلك استمعت إلى طرف واحد ولم تسمع لبقية الأطراف.. ولعلك تسرعت في الحكم قبل أن تسمع رأي أحد. ولعلك انحزت لا شعورياً إلى من تحب.. ولعلك تعصبت لقومك.. وحبك الشيء يعمي ويصم.. فمن ينجو من الظلم؟! أقول: استعن بالله ولا تعجز؟

٧ - وانظر إلى تواضع النبي ﷺ يتبع معاذاً ماشياً يوصيه ويودعه.. هذا درس عملي فصيح لكل داعٍ أو معلم.. أين هذا مما يفعله المعلمون مع تلاميذهم..؟!

٨ - ويودعه: إنك عسى ألا تلقاني.. لكن المتقين لن يبتعدوا عني ولن يفارقوني.. وهم أولى الناس بي.. فاتق الله أينما كنت وبقدر ما تستطيع.

٩ - ويستزيد معاذ من وصايا النبي ﷺ فيوصيه بالإحسان فإنه يمحو السيئات عند الله وعند الناس.. ويوصيه بالخلق الحسن في معاملته مع الناس فهو الذي يملك القلوب.

١٠ - وأخيراً كيف تحكم على الأمور؟ بكتاب الله.. ثم بسنته ﷺ.. فإن لم أجد أجتهد وأبذل جهدي في الفهم والوصول إلى الحق ضمن مقاصد الشريعة. فأجازه النبي ﷺ ورضي عنه.

* * *

تخطيط وإدارة

وعن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام، فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد. فأقمنا ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه، ثم إن رسول الله ﷺ بعث علي بن أبي طالب وأمره أن يُقفل (يُعيد) خالداً إلا رجلاً كان ممن مع خالد فأحب أن يعقب مع علي فليعقب معه. قال البراء: فكنت فيمن عقب مع علي. فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا ثم تقدم فصلى بنا علي ثم صفنا صفاً واحداً ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعاً فكتب علي إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خرَّ ساجداً ثم رفع رأسه فقال: «السلام على همدان السلام على همدان»[١].

نلاحظ تعدد الوفود والبعوث في أهل اليمن.. ويبدو أن فيها قبائل عديدة مستقلة بعضها عن بعض سبقت وفوده وتأخر آخرون.

وهنا يستعصي أهل اليمن - قبيلة معينة هي همدان - على الإسلام وخالد يدعوهم إليه ستة أشهر.. ولم يقاتلهم.. ولعل النبي ﷺ أوصاه بذلك إذ لم يكن يقاتل إلا من قاتل أو نكث بالعهود وغدر.

ونجد النبي ﷺ عند ذلك يغير المبعوث داعياً فلعل خالداً يصلح مقاتلاً أكثر من كونه داعياً، بينما علي راسخ القدم في الدعوة والاصطباغ بها. ويترك الخيار للناس في البقاء مع علي أو العودة مع خالد.. مما يجعلهم ملتزمين أكثر بما اختاروا. وهو لون من براعة التخطيط والإدارة عند النبي ﷺ.

ويقترب علي بمن معه من القوم.. فخرجوا إليه بنية القتال فيما يبدو.. وهنا يلجأ علي إلى إجراءات ثلاثة لكسب الموقف:

---

(١) رواه البيهقي. ورواه البخاري مختصراً.

أ- يتقدم علي فيصلي بالمسلمين أمام القوم.. وهو مشهد مؤثر في النفس الإنسانية التي تتعطش للصلة بالله. والصلاة في الإسلام عينة ممتازة لعرض مبادئ الإسلام وقيمه.. فهي تعرض المساواة.. والنظام والتناسق والانضباط والخشوع لله وحده.. ولا شك بأن الصلاة كانت بهيئة (صلاة الخوف) وفيها ينقسم المصلون إلى قسمين، قسم يصلي وقسم يحرس.. وهذا يظهر ما عند المسلمين من يقظة وحسن تدبير.

٢- بعد الصلاة صف علي المسلمين في صف واحد مواجه للقوم.. وهو أمر يظهر كثرتهم وتلاحمهم.. مما يفت في عضد من يفكر في قتالهم.

٣- ثم تقدم علي فقرأ على القوم كتاب رسول الله ﷺ.. ونحن يمكن أن نخمن ماذا كتب لهم، فهو يعرض عليهم الإسلام كي يربحوا الدنيا والآخرة.. فإن أسلموا فلا عدوان عليهم ولهم مثل ما للمسلمين من مكانة أو مغانم أو ثواب وأجر عند الله.. إنه يعرض عليهم حلاً يربح فيه الجميع ولا يخسر أحد.. فكيف يرفضون وقد رأوا ما رأوا..؟!

وتنجح جهود علي رضي الله عنه وتسلم همدان كلها..

ويخر رسول الله ﷺ ساجداً لله عندما يبلغه الخبر.. فلقد كانت هذه أكبر غنيمة ساقها علي رضي الله عنه للنبي ﷺ.. لقد أنقذ قبيلة بأسرها من الضلال والنار..!! ودون أن يريق قطرة دم واحدة..! فالسلام على قوم اختاروا السلام والإسلام.

* * *

صورة بغيضة

وبعث علي بن أبي طالب إلى النبي ﷺ من اليمن بذهيبة في أديم مقروظ (أي مدبوغ) لم تحصّل من ترابها. فقسمها بين أربعة: عيينة بن بدر والأقرع بن

حابس وزيد الخيل والرابع إما علقمة بن علاثة وإما عامر بن الطفيل. فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء! فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ألا تأمنوني؟ وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً»، فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناشز الجبهة كث اللحية محلوق الرأس مشمر الإزار. فقال: يا رسول الله اتق الله..! فقال: «ويلك أوَلست أحق الناس أن يتقي الله»؟! ثم ولى الرجل، قال خالد بن الوليد: يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ قال: لا لعله أن يكون يصلي. قال خالد: وكم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه. فقال ﷺ: إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم. ثم نظر إليه وهو مقف، فقال: «إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[١].

نتساءل ابتداء: هذه الذهيبة (صخرة ذهبية لم تُنَقَّ) جاءت مع أموال الزكاة؟ أم هي من خمس المغانم. أم جاءت هدية للنبي ﷺ؟

ليس لدينا في الخبر ما يشفي الغليل.. لكنني أظن أنها من خمس المغانم الذي يتولى توزيعه رسول الله ﷺ بمعرفته.

أما كونه خص هؤلاء الأربعة بهذه العطية فلا بد أن لذلك سبباً..

فلقد سبق أن وعد عيينة والأقرع إن هما تنازلا عن نصيبهما في غنائم هوازن أن يعوضهما أضعافاً (بالإضافة إلى زعيمين آخرين) من أول غنيمة تأتيه. وأما زيد الخيل (من طيئ) وعلقمة بن علاثة (من كلاب) فقد كانا من السادة في قومهما المشهود لهما بالكرم والسخاء.. وقد وفدا عليه ﷺ وربما جاءت الذهيبة إليه وهما عنده فأراد أن يتألف قلوبهما.

---

(١) أخرجه البخاري.

وقد شك الراوي بين علقمة وعامر بن الطفيل.. والأغلب أنه علقمة. فقد مرَّ معنا أن عامر بن الطفيل كان قد تآمر مع صاحبه أربد بن مقيس على قتل النبي ﷺ فأحبط الله سعيهما وأهلكهما أثناء عودتهما من عنده ﷺ.

ويعترض أحدهم فيقول النبي ﷺ: «ألا تأمنوني»..؟! أنسيتم أن الله قد ائتمنني على كلامه ووحيه..؟! ورسول الله ﷺ لا يخص نفسه ولا أقرباءه بشيء من هذه العطايا.. بل هي مصلحة الدعوة وتثبيت أركان الأمة.. وفي ذلك علاج لبعض النفوس التي لها سلطان في قومها. فأعطاها حتى رضيت وأحبت وتركت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً.. وهذا أرحم بهم وبالمسلمين من خوض المعارك وسفك الدماء..

ومرة أخرى تطل علينا صورة بغيضة لرجل ضيق الأفق محروم من الفقه تنعكس دمامة نفسه على وجهه وهيئته العامة.. أتأمل وصفه فأحس بأني قد رأيت صوراً على شاكلته.. مليئة بخطوط حادة تتقاطع بقسوة ليس فيها انحناء لين.. تصور لنا التقوى بشكل حرفي فج ممجوج.. بكثاثة اللحية وتشمير الإزار.. رجل يظن أنه يمكن أن يعلم رسول الله ﷺ التقوى..!! هلك المتنطعون.. الذين يقولون ما لا يفقهون.. (سيوفهم أطول من قاماتهم)..

ونجد خالد بن الوليد وقد أخذ دور عمر (ألا أضرب عنقه؟) أما عمر فقد قطع هذه المرحلة وانتهى منها.. وسيمشي خالد حتى يقطع هذه المرحلة.

ويستمر التعليم النبوي: إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس.. وإن أمر القلوب بيد الله.. فلا تقولوا كفر أو نافق.. ولكن قولوا أخطأ وجهل..

صلوات الله وسلامه عليك أيها الحبيب.. فلقد صدق حدسك وخرج من نسل هذا الرجل نسخ كثيرة يقرؤون القرآن وربما يحفظونه.. لكنه لا يتعدى أمواجاً صوتية تهتز بها الحناجر.. قد مرقوا من الدين؛ لأنهم أخذوا حروفه وتركوا لبّه ومقاصده.. فهي صور وأشكال بغيضة خاوية.. صدت الناس عن

الإسلام؛ لأنها شوهت صورته وقدمت نموذجاً مرعباً منفراً كله خطوط حادة قاسية لا تعرف الرحمة واللين.. تعالج الأمور بلا حكمة ولا فقه ولا مراعاة للواقع وحاجاته.. وإنما بقوالب جامدة حرفية. رأيتهم يحكمون على الناس بالكفر.. ويعلنون الجهاد - بزعمهم - ضد المسلمين.. ورأيتهم يمنعون المرأة من زيارة والديها إن لم يسمح لها زوجها.. ورأيتهم يحرمونها من حقها الشرعي في مخالعة زوجها.. ويحرّمون عليها قيادة السيارة.. ويفرضون عليها ما يشبه (الحبس الانفرادي) أثناء عدتها إن مات عنها زوجها.. ورأيتهم يحكمون بالردة على من قدم رأياً مخالفاً لهم.. ويطلقون منه زوجته ويهدرون دمه.. ورأيتهم يهربون من بلادهم إلى بلاد الأجانب ويعيشون فيها لاجئين سياسيين يتمتعون بالحماية وكفالة الرزق.. ومع ذلك فالأجانب كفار - في زعمهم - ملعونون لا حرمة لهم..!!

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ﷺ كم بعدنا عنك..!!

أكتب عنك وأنا أعيش في عالم مشوه مشوش.. لا أظن أنني نجوت تماماً من أمراضه وسقطاته.. أراك من بعيد سامقاً متألقاً فيسعدني سموك ونورك.. وأتألم لبعد الشقة عنك.. كيف لنا أن نقطع هذه المفاوز..؟! لكنك في العقل والقلب.. وأملي بربي كبير أن يجمعني بك على حوضك..

* * *

إنْ فعلتَ تَبيَّنَ لك..

ويقول علي ﷺ: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقلت: يا رسول الله تبعثني إلى قوم أسن مني وأنا حدث لا أبصر القضاء؟ فوضع يده على صدري وقال: «اللهم ثبت لسانه واهدِ قلبه، يا علي إذا جلس إليك الخصمان

فلا تقضِ بينهما حتى تسمع من الآخر ما سمعت من الأول فإنك إذا فعلت ذلك تبيّن لك» فما اختلف عليَّ قضاءٌ بعدُ، أو ما أشكل علي قضاء بعد[1].

واشتهر علي رضي الله عنه بعدها بقدرته في القضاء بين الناس.. حتى قال عمر: (قضية ولا أبا حسن لها) عن المشاكل المستعصية في القضاء.

ونتأمل في الخبر: إحساس علي بالمسؤولية وخوفه من الإخفاق واعترافه بضآلة خبرته أمام من هم أكبر منه في السّن.. وهذا الشعور ضروري جداً لمن يتصدى للمهمات الجسام.. لأنه يستنفر الطاقات والقدرات في النفس.. ثم إنه لا يستهين بآراء من حوله من الخبراء وكبار السن فيحاول أن يستفيد منهم.

ثم إن رسول الله ﷺ دعا له بهداية القلب حتى يبصر الحق وتثبيت اللسان حتى لا يتكلم إلا بالحق.. ودعاء النبي ﷺ مستجاب إضافة إلى أنه منحه الطمأنينة..

ولا يكتفي النبي ﷺ بالدعاء بل يرشده إلى الطريقة التي تجعله يفهم أبعاد كل قضية.. لا تحكم حتى تسمع للطرفين.. فإن كانوا أطرافاً فاسمع لهم جميعاً قبل أن تصدر أي حكم.. وعندها يتبين لك.. فيا لها من وصية جعلته مشهوراً بحسن القضاء بين الناس.

وفي الوصية خير كبير لنا - إن كنا من طلاب الحق - فكم من الأمور قد اختلف عليها الناس.. فلا تجزم بأمر حتى تسمع كل الآراء وتمحص في أدلتها.. وعندها يتبين لك.

* * *

(١) رواه الإمام أحمد.

التصدي للجهل والخرافة أهم من المصاب

وفي العاشر من ربيع الأول من السنة العاشرة توفي ابن النبي إبراهيم ولم يتجاوز عمره ثمانية عشر شهراً.. وما زال رضيعاً..

دخل رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه. فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان. فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «يا بن عوف إنها رحمة».. وفي رواية أن أبا بكر وعمر قالا: أنت أحق من علم لله حقه! فقال ﷺ: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرَّب، لولا أنه وعد صادق، وموعود جامع، وأن الآخر منا يتبع الأول لوجدنا عليك يا إبراهيم وجداً أشد مما وجدنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»[1].

وكسفت الشمس يوم موته، فقال الناس: كسفت لموت إبراهيم. فخطب رسول الله ﷺ في الناس فقال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته»[2].

وأنت يا رسول الله تبكي وتحزن؟ ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٣]. وكيف لا يحزن لموت ولده وقد فجع بأولاده كلهم إلا فاطمة..؟! لقد كان محمد ﷺ إنساناً مرهفاً في عواطفه يتألم للأغراب.. فكيف وهو يرى ولده يحتضر..؟! «تدمع العين ويحزن القلب» وهذه هي الرحمة.. لكن «لا نقول ما يسخط الرب»..

لقد ضرب رسول الله ﷺ للناس مثلاً أعلى في الصبر على البلاء، وما من أحد ابتلي كبلائه.. ثم إنه وهو في قلب فجيعته.. يسمع الناس تقول كسفت

(١) البداية والنهاية، ٥/ ٣١٠.
(٢) المرجع السابق، ٥/ ٣١١.

الشمس لموت إبراهيم.. ينسى ألمه ويسارع إلى التصحيح.. أيها الناس.. ارفعوا طغيان الخرافة عن عقولكم وتحرروا من تقديس البشر.. فآيات الله لا تنصاع للبشر ولا تخرج عن قانونها من أجل أحد فما أروع الرشد المتمثل في موقفك المتواضع أيها الحبيب..؟!

* * *

١٠- حجة الوداع

ولم يحج رسول الله ﷺ بعد الهجرة إلا في السنة العاشرة بينما اعتمر قبل ذلك ثلاث مرات.. والرابعة مع حجة الوداع.

وقد أذّن النبي ﷺ في الناس بالحج في ذي القعدة من تلك السنة فاجتمع في المدينة بشر كثير، فخرج بهم رسول الله ﷺ لخمس بقين من ذي القعدة. عن ابن عباس قال: انطلق النبي ﷺ من المدينة بعدما ترجّل (رجّل شعره) وادّهن (بالعطر) ولبس إزاره ورداءه ولم ينه عن شيء من الأردية ولا الأزر إلا المزعفرة التي تردع الجلد (أي تلونه). فأصبح بذي الحليفة، ركب راحلته حتى استوى على البيداء وذلك لخمس بقين من ذي القعدة. فقدم المدينة لخمس خلون من ذي الحجة[١].

وعن أنس بن مالك: صلى رسول الله ﷺ ونحن معه الظهر بالمدينة أربعاً والعصر بذي الحليفة ركعتين ثم بات بها حتى أصبح ثم ركب حتى استوت به راحلته على البيداء حمد الله عز وجل وسبح ثم أهل بحج وعمرة[٢].

وقد خرجت معه نساؤه كلهن وكنّ تسعاً. تقول عائشة رضي الله عنها: طيبت رسول الله ﷺ بيديّ هاتين لحرمه حين أحرم ولحله قبل أن يطوف

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

بالبيت[١]. (أي لا يحرم إلا بعد أن يتطيب. وعندما يتحلل يتطيب قبل كل شيء). ويقول ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ بوادي العقيق (أي ذي الحليفة) يقول: «أتاني الليلة آتٍ من ربي فقال: صلِّ في هذا الوادي المبارك وقل عمرة في حجة»[٢] أي إنه قرن الحج بالعمرة.

وأهلَّ النبي ﷺ هو وأصحابه وقلَّد بُدْنَهُ (النوق التي ساقها هدياً). فطاف بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة، ولم يحل من أجل بدنهُ لأنه قلَّدها.

وقد ذكرت أحاديث كثيرة أن رسول الله ﷺ أذن لأصحابه بالتمتع بعد أداء العمرة إلى أن يهلّوا بالحج ويحرموا له في يوم التروية (الثامن من ذي الحجة) وذلك لمن لم يَسُقْ منهم هدياً.. أما من ساق الهدي فلا يتحلل حتى ينحر يوم النحر. ولن أدخل هنا في بيان أنواع الحج وبأي نوع حج ﷺ؛ لأنها من مباحث الفقه. وأمضي وراء غايتي أحاول أن أتحسس كيف كان ﷺ قرآناً يمشي على الأرض.. وكيف كانت صلته بالله وبالناس.. وكيف كان يجسد روح الدين..

كان يتطيب قبل أن يدخل في العبادة ويتطيب عند الفراغ منها.. ويتطيب قبل الطواف على نسائه.. ويتطيب لدخول المسجد.. ولمقابلة الناس..

كان حريصاً على الجمال - دون إسفاف أو تبذير - عند صلته بالله وبالناس.. يرجل شعره ويدّهن ويتطيب.. فالله جميل ويحب الجمال.. ويحب لعبده الجمال في كل شيء.. في المظهر والسلوك.. في القول والفعل.. وقبل كل شيء جمال القلب.. طهارته وصفاؤه من كل عكر.. حتى يصبح (قلباً سليماً) يرضي نظر الله.

(١) رواه مسلم.
(٢) تفرد به البخاري.

فإذا أهلَّ لإحرامه قال: «لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك»[1].. هذا الحداء العذب الذي تعلمه المسلمون من رسول الله ﷺ لتلهج به ألسنتهم وهم يقطعون المسافات الشاسعة في أروع رحلة تزكو بها النفوس وتسعد الأرواح.. يلبون دعوة الله لهم ليعظموا بيته الحرام متجردين من زخارف الدنيا.. ومن قوقعة الذات.. ليصبحوا ذرة في خضم أبيض يتحرك بأمر الله.. ونحو رضاه.. لبيك اللهم لبيك..

* * *

يسر ومساواة..

ويحدثنا جابر عن حجة رسول الله ﷺ فيقول:

مكث ﷺ في المدينة تسع سنين لم يحج ثم أذن في الناس.. فنزل المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ.. وخرجنا معه حتى إذا أتى ذا الحليفة نفست أسماء بنت عميس بمحمد بن أبي بكر فأرسلت إلى رسول الله ﷺ كيف أصنع؟ قال: اغتسلي ثم استثفري بثوب ثم أهلّي. حتى إذا استوت به ناقته على البيداء أهلَّ بالتوحيد (لبيك اللهم..) ولبى الناس ويزيدون (ذا المعارج) ونحوه من الكلام والنبي ﷺ يسمع لهم فلم يقل لهم شيئاً. فنظرت مدَّ بصري بين يدي رسول الله ﷺ من راكب وماشٍ ومن خلفه كذلك وعن يمينه مثل ذلك وعن شماله مثل ذلك.. فخرجنا لا ننوي إلا الحج حتى إذا أتينا الكعبة فاستلم نبي الله ﷺ الحجر الأسود ثم رمل ثلاثة ومشى أربعة حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين ثم قرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ٢/١٢٥]. فقرأ فيهما (الركعتين) بالتوحيد وقل يا أيها الكافرون. ثم استلم الحجر وخرج إلى الصفا ثم قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ﴾ [البقرة:

---

(١) رواه مسلم.

٢/١٥٨]. ثم قال: نبدأ بما بدأ الله به، فرقي على الصفا حتى إذا نظر إلى البيت كبر. ثم قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده وصدق وعده وهزم الأحزاب وحده، ثم دعا.. ثم نزل حتى إذا انصبت قدماه في الوادي رمل حتى إذا صعد مشى، حتى إذا أتى المروة فرقي عليها حتى نظر إلى البيت فقال عليها كما قال على الصفا، فلما كان السابع عند المروة قال: يا أيها الناس إني لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي ولجعلتها عمرة فمن لم يكن معه هدي فليحل وليجعلها عمرة. فحلَّ الناس كلهم، فقال سراقة بن مالك وهو في أسفل الوادي: يا رسول الله ألعامنا هذا أم للأبد فشبك رسول الله ﷺ أصابعه فقال: للأبد (ثلاثاً) ثم قال: دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة. وقَدِم علي من اليمن بهدي.. فإذا فاطمة قد حلَّت ولبست ثياباً صبيغاً واكتحلت فأنكر ذلك عليها (يبدو أنه علي) فقالت: أمرني به أبي.. فذهبت محرشاً أستفتي رسول الله ﷺ في الذي ذكرت.. قال ﷺ: صدقت أنا أمرتها به. وقال ﷺ لعلي: بم أهللت؟ قال: قلت اللهم إني أهل بما أهل به رسولك ومعي الهدي. قال: فلا تحل.. فنحر رسول الله ﷺ بيده ثلاثاً وستين ثم أعطى علياً فنحر (تتمة المئة). ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر فأكلا من لحمها وشربا من مرقها. ثم قال ﷺ: قد نحرت هاهنا ومنى كلها منحر. ووقف بعرفة (قبل النحر طبعاً) فقال: وقفت هاهنا وعرفة كلها موقف. ووقف بالمزدلفة وقال: وقفت هاهنا والمزدلفة كلها موقف[(١)].

هذا الخبر فيه كثير من أحكام الحج التي تناولها الفقهاء بالتفصيل وإنما أنظر في:

١ - اليسر الذي يتجلى في التشريع وفي عمل رسول الله ﷺ.. فالنفساء تحج ولا حرج. والتلبية يمكن أن تكون بصيغ أخرى ما دام الكلام صحيحاً. ويأمر

---

(١) رواه الإمام أحمد.

أصحابه أن يجعلوها عمرة ويتحللوا تيسيراً عليهم حتى لا يطول إحرامهم.. إضافة إلى منافع أخرى.. ثم يبين: منى كلها منحر وعرفة كلها موقف.. فلا يشترط أن تقفوا حيث وقف النبي ﷺ.

٢ - إلغاء الامتيازات التي فرضتها قريش لنفسها على الناس: فالحاج يحج بردائه وإزاره ولا يشتري من قريش. والنبي ﷺ يقف مع الناس ويفيض مع الناس ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩/٢] بينما كانت قريش تميز نفسها بموقف خاص من دون الناس.

* * *

خطبة حجة الوداع

ولما كان يوم التروية ركب رسول الله ﷺ إلى منى فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة له من شعر فضربت له بنمرة فسار ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء، فرحلت له فأتى بطن الوادي فخطب الناس[١].

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ خطب في يوم عرفة ثم خطب في يوم النحر. والخطبتان متقاربتان في المواضيع وفي العبارات. وقد دمجهما ابن هشام في سيرته في خطبة واحدة.. أعرضها فيما يلي:

«أيها الناس: اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم

---

(١) البداية والنهاية، ١٤٨/٥.

كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا. وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بَلَّغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

وإن كل رباً موضوع (أي ساقط)، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون. قضى الله أنه لا ربا. وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله.

وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل) فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: إن النسيء زيادة في الكفر يُضَل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم: ثلاثة متوالية ورَجَب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهنَّ عليكم حقاً: لكم عليهن ألّا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن ألّا يأتين بفاحشة مبيِّنة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهنَّ في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح (غير شديد) فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان (جمع عانية وهي الأسيرة) لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمات الله.

فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: أمراً بيناً، كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس: اسمعوا قولي واعقلوه، تَعْلَمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم، وإن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تَظْلِمُنَّ أنفسكم. اللهم هل بلَّغت؟» فذكر لي أن الناس قالوا: اللهم نعم. قال ﷺ: «اللهم اشهد»[١]. وفي رواية أنه بدأ يوم النحر فقال: أتدرون أي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: أليس هذا يوم النحر؟ قلنا: بلى. قال: أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: أليس ذو الحجة؟ قلنا: بلى. قال: أي بلد هذا؟.. أليس بالبلد الحرام؟.. فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام[٢].. كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم. ألا هل بلَّغت؟ قالوا: نعم. قال: «اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب فربَّ مُبلَّغ أوعى من سامع. فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» (رواه البخاري ومسلم).

تأمل هذا الخطاب البليغ الموجز الذي أراد رسول الله ﷺ أن يصل إلى أكبر عدد من الناس وهو يحس أن رسالته قد قاربت الانتهاء.. فهو يودع أمته ويوجز وصيته في خطوط عريضة تفصل بين الإسلام والجاهلية. صلوات الله وسلامه عليك أيها الحبيب ما أعظم حرصك على الناس وهدايتهم.. تنتهز فرصة اجتماعهم يوم الحج الأكبر.. وتقول لصاحبك جرير: استنصت لي الناس.. ثم تخاطبهم ملهوفاً.. اسمعوا عني فلعلي لا ألقاكم بعد يومي هذا.. ماذا حل بكم أيها الأصحاب وأنتم تسمعون هذا..؟!

هل كنتم تتصورون أن يقبض حبيبكم وأنتم تستقبلون أفراح الانتصار..؟! كلنا آذان مصغية لك أيها الحبيب.. تكلم ولا تتوقف عن الكلام.. فإنا نحب أن نستزيد

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص٣٢٥.

(٢) رواه البخاري. وفي رواية أضاف (وأعراضكم).

من رحيق الحكمة قبل الوداع.. قل كل ما تريد.. لكن لا تشر إلى الوداع فإنا لا نطيق وداعك أيها الحبيب..

أحسُّ بهذه اللوعة وأنا أكتب هذه الكلمات.. فلقد قاربت السيرة على النهاية وكنت أتقلب في نعيم الصحبة مع رسول الله ﷺ.. أعيش معه بفكري وقلبي وخيالي.. منتشية بعبير إنسان لا يدانيه أي إنسان.. فكيف أقبل بالوداع؟! ومع ذلك فإن وداعي أخف من وداعهم.. لأنني عشت معه بأفكاري.. وسأبقى معه بأفكاري وعواطفي.. أما هم فواحزناه لهم كيف يطيقون فراقه..!!

وينطلق النبي ﷺ في وصاياه.. أيها الناس.. أيها الناس.. وكأنه يرى الناس جميعاً تستمع إليه.. أجل يا رسول الله.. ها نحن نعيش في زمن يقدر فيه معظم الناس أن يسمعوا صوتك.. ولن يطول بهم الزمان حتى يدركوا قيمة وصاياك ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٦١/٨].

١ - وأول وصية يريد النبي ﷺ ترسيخها في النفوس هي حرمة الدماء والأموال.. ويستعمل لهذا الغرض أسلوباً يثير فيه كل الانتباه واليقظة في نفوس سامعيه.. فيسألهم: أي يوم هذا؟ ثم أي شهر هذا؟ ثم أي بلد هذا؟ وهكذا الدماء والأموال والأعراض.. حرام في حرام في حرام..

لهف نفسي عليكم أيها الناس.. كيف أعرضتم عن هدي محمد ﷺ ففقدتم كل حرمة، وها هي الدماء تسيل وتسيل.. والأموال تنهب وتنهب.. وبأيدي أناس يرفعون شعارات الحرية والتقدم.. ويدّعون تحرير الإنسانية من الإرهاب..

أيها الناس اسمعوا ميثاق السلام الذي يأخذه رسول السلام على أمته.. وعلى كل الناس.. فمتى يتوقف سيل الدماء..؟ ومتى يأمن الإنسان على حياته وماله وعرضه؟

ولكي يتحقق سلام الأنفس والأموال يلغي النبي ﷺ ثارات الجاهلية وربا الجاهلية.. ويبدأ في الإلغاء من أسرته وأقربائه. فالنبي ﷺ وأسرته أول من يلتزم بأوامر الله.. على عكس ما يفرض الزعماء لأنفسهم وأسرهم من امتيازات.

وهكذا يسقط النبي ﷺ ثأر قتيل بني عبد المطلب.. ويلغي كل ما لعمه العباس من ربا على الناس. فكيف لا يستجيب المسلمون لنبي بدأ بنفسه وأسرته؟!

ويحرك النبي ﷺ في هذا المجال مؤثراً آخر يجيش النفوس.. اعلموا أنكم ستلقون ربكم ويسألكم.. فكيف يكون جوابكم في هذا اليوم العصيب؟! فأدوا الأمانة قبل فوات الأوان.

وفي خطبة يوم النحر يؤكد على أمر حرمة الدماء «لا ترجعوا بعد كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض». فالتقاتل بين المسلمين كفر وضلال.. أما آن للمسلمين أن يدركوا؟!

٢- وتأتي الوصية الثانية لتحذر المسلمين من الاستكانة للنصر والاطمئنان إلى انتهاء الشرك والأوثان.. يحذرهم من الحالة التي وصفها توينبي (حين يسترخي المجدف فوق مجاذيفه بعد أن وصل إلى الشاطئ).. هذا الأمن هو بداية السقوط والانحدار. وإن الشيطان قد يئس من الشرك الصريح.. لكنه رضي بالأخطاء الصغيرة لأنها تصبح كبيرة..

٣ - والثالثة تحذر المسلمين من التلاعب بالحلال والحرام.. فلقد وصل الأمر عند عرب الجاهلية إلى التلاعب بالزمان وبالأشهر الحرم، فكانوا يؤجلونها إلى عام آخر إذا كانت لديهم ثارات ليستحلوا الحرمات. وسمي ذلك (نسيئاً) وهو في الأصل التأجيل والتأخير.. وكل تأخير لإقامة الحق وتلاعب في الحلال والحرام داخل في ذلك.. وخاصة إذا كان متعلقاً بحقن الدماء.

٤ - وتأتي الرابعة في النساء.. حقوقهن وواجباتهن.. فهن مسؤولات عن صيانة شرف البيت وطهارته.. فإن قارفن شيئاً فلكم أن تهجروا وتضربوا بشرط (غير مبرح). وفي ذلك العصر لم يكن لديهم علم بعلاج النفوس المنحرفة، وكانت تلك هي الوسائل المجدية.. وينبغي أن نفرق دائماً بين الأهداف

والوسائل، فالهدف ثابت وهو إصلاح المرأة المنحرفة وصيانة الأسرة من التمزق.. أما الوسائل فإنها متطورة بتطور العلوم والأزمنة.. كما تطورت وسائل النقل.. فإذا كشف العلم وسيلة أفضل لتقويم النفوس فهل يرفضها عاقل؟!

ويؤكد رسول الله ﷺ وصيته بالنساء في عالم (ذكوري) مازال يحابي الأقوى.. استوصوا بهن خيراً فإنهن ضعيفات كالأسيرات عندكم لا يملكن لأنفسهن شيئاً.. صلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله لو اطلعت عليهن الآن.. لأوصيتهن بالرجال خيراً.. فإنهن يلعبن بهم.. رغم مظاهر الضعف الخداعة..

ومع ذلك فإن المرأة مسكينة لأنها مخدوعة عن نفسها وتجهل قدراتها المبدعة ودورها العظيم في بناء الإنسان ودعم الرجل.. وتلك آفة لا بد من علاجها. وتبقى وصية رسول الله ﷺ عظيمة المضمون لأنها تذكر الأقوياء بالمسؤولية عن الضعفاء أمام الله.. فهي صمام الأمان الذي يوجه القوة إلى البناء والرعاية بدلاً من العلو والاستكبار.

٥ - والخامسة فيها بيان لطريق العصمة من الضلال.. كتاب الله وسنة نبيه.. لو تمسكتم بهما لن تضلوا.. «فاعقلوا أيها الناس قولي فقد بلغت».

ولكن أين من (يعقل)..؟! اربطوا قولي بما ترون من العواقب وعندها تدركون طريق الخلاص من الضلال.. ويا له من شعار (كتاب الله وسنة نبيه) يرفعه أحياناً الجاهلون بكتاب الله ومقاصده وسنة نبيه ومنهجه في الحياة وفي دعوة الناس.

وكل أمة تعيش في الضلال والعذاب والتخلف.. فإنها لم ترح رائحة الكتاب والسنة فالقاعدة صحيحة وعكسها صحيح. من كان على الكتاب والسنة لا يضل.. ومن ضل فإنه ليس على الكتاب والسنة فلا بد من إعادة النظر في مدى فهمنا

لهما. والعلاقة جدلية بين الفكر والواقع.. فالأفكار تنزل إلى الواقع من خلال الأعمال.. ونتائج الواقع (العواقب) تكشف النقص والخطأ.. وهكذا يعود الواقع ليصحح الفكر..

٦ - والسادسة تمكين لروابط الأخوة بين المسلمين.. ويكرر: اسمعوا قولي واعقلوه.. تَعَلَّموا هذه الأخوة بين المسلمين.. فهي أمر يحتاج إلى تعلُّم.. ولا يحل لك من المسلم إلا ما طابت به نفسه.. فإن لم تراعوا ذلك ظلمتم أنفسكم.. أما في الآخرة فظلم النفس واضح.. وأما في الدنيا فقد ظلم نفسه بحرمانها من حلاوة الأخوة في الله.. وظلم نفسه بتعريضها لغضب أخيه المسلم. وظلم نفسه بتعميم الظلم في الأمة فيوشك أن يعود ويقع عليه. فالأمة كيان واحد إذا اشتكى عضو تألم الكل.

٧ - فليبلغ الشاهد الغائب فربَّ مُبلَّغ أوعى من سامع.. وفي ذلك بيان لأهمية التبليغ في نشر العلم ورفع مستوى الوعي.. وبشارة من النبي ﷺ بظهور من يعي أكثر ويدرك مدارج أعلى في فقه وصايا الرسول ﷺ وهديه. وبذلك ينال السامع أجراً في تبليغه لأنه أثمر ذلك الوعي.

ويختم النبي ﷺ بهذا السؤال المؤثر: هل بلَّغت؟ اللهم فاشهد.. رسول الله ﷺ يخشى التقصير في التبليغ.. ويشهد الله على الناس.. فاعقلوا أيها الناس..

- تلك هي الوصايا التي أراد النبي ﷺ تعميمها على الناس في خطبة جامعة رأى فيها النبي ﷺ آخر فرصة للحديث مع أكبر عدد من المسلمين.. وفيها وصايا مودع يخشى على أمته من متاهات الجهل والتنازع والاقتتال. وقد رأينا الأولوية فيها تعطى للتحذير من الاقتتال وسفك الدماء.. وهو أمر تطمح البشرية للوصول إليه بعد أن تجرعت ويلات السلاح الذري.. وكأن التقدم التكنولوجي جاء ليضم صوته إلى صوت النبي ﷺ فاتقوا الله أيها الناس..!

* * *

سكينة في الإفاضة

ويصف جابر وقوف النبي ﷺ في عرفة ثم إفاضته: (فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً قليلاً، حين غاب القرص أردف أسامة خلفه ودفع ﷺ وقد شنق لناقته القصواء الزمام (أي شد) حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: أيها الناس السكينة السكينة! كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد حتى أتى المزدلفة)[(١)].

إنه ﷺ يعلم الناس ألا يتزاحموا وأن تكون الإفاضة حافلة بالسكينة كما يليق بعبادة يؤديها الإنسان لربه وهو خاشع.. يترفق بإخوانه.. ولا يعني ذلك البطء والعرقلة للمرور.. بل كان ﷺ إذا التحم عليه الناس أعنق وإذا وجد فرجة نص[(٢)]. (أعنق: شد إليه عنق الناقة حتى تتمهل. ونصَّ أي رفع يده عن الزمام) وهو درس في الرفق والنظام أثناء العبادة.

❋ ❋ ❋

عيد عالمي..

وجاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: وأي آية هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٥/٣]. فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم جمعة[(٣)].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه الإمام أحمد.
(٣) رواه البخاري ومسلم.

ولعل رسول الله ﷺ أحس بعد نزولها باقتراب النهاية وأنه قد لا يلقى الناس في حجة أخرى فقد اكتمل الدين وتمت النعمة.

لكن اكتمال الدين وإتمام النعمة لا يعني توقف الاجتهاد وجمود الأحكام. بل إنه اكتمل بإرساء قواعده.. وترسيخ مقاصد الشريعة.. وهذا ما اهتم رسول الله ﷺ ببيانه في خطبة حجة الوداع.. إذ لم يتناول فيها حكماً فقهياً.. بل كلها حديث في المقاصد الشرعية.. والأسس العالمية لتنظيم حياة البشر بحيث يربح الجميع ولا يخسر أحد. وهذا هو العيد العالمي الذي يجدر بالبشرية أن تنتبه إليه.

ومن الجدير بالنظر أن اليهودي قد انتبه إلى أهمية الآية وعبر عن إدراكه لعظمتها بحواره مع عمر بن الخطاب.. ولم يسكت سكوت الخبثاء الذين يحرصون على تغطية كل خير. وقد روي أن عمر حين نزلت ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٥/ ٣] بكى فقيل: ما يبكيك؟! فقال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان[(١)]. وهذا وعي مبكر بسنن سقوط الأمم. كما أنه شعر بقرب نهاية النبي ﷺ. فتأمل التباين الشاسع بين البشارة والإنذار في الآية الواحدة..؟! بحسب الزاوية التي ينظر منها للآية.

* * *

افعل ولا حرج..

وأذن رسول الله ﷺ للنساء والضعفاء بالتعجيل في الدفع من مزدلفة قبل حطمة الناس.. وأن يرموا الجمرة قبل طلوع الشمس.. تيسيراً وتخفيفاً عليهم. وجاءه رجل يسأله وقد نسي أن يرمي الجمار فقال ﷺ: «ارمِ ولا حرج». وأتاه آخر فقال: يا رسول الله نسيت الطواف؟ فقال ﷺ: «طف ولا حرج». ثم أتاه آخر

---

(١) البداية والنهاية، ٥/ ٢١٥.

حلق قبل أن يذبح؟ قال ﷺ: «اذبح ولا حرج». فما سألوه يومئذ عن شيء إلا قال: لا حرج.. لا حرج[١].

وفي رواية: فما سئل ﷺ في ذلك اليوم عن شيء قدم أو أخر إلا قال: «افعل ولا حرج»[٢].

واستأذن العباس رسول الله ﷺ أن يبيت بمكة ليالي منى من أجل سقايته فأذن له[٣]، وذلك لأنه مسؤول عن تدبير السقاية للحجاج وهي حاجة حيوية لهم.

ثم إنه ﷺ أذن لعائشة ﵂ أن تذهب مع أخيها عبد الرحمن ليُعمرها من التنعيم - لأنها كانت أثناء الحج في حالة حيض وظنت أنها خسرت العمرة - وانتظرها ﷺ حتى عادت.. فطاف طواف الوداع.. ثم ارتحل فخرج من أسفل مكة - وكان قد دخلها من أعلاها - (وكان يحب أن يعود من طريق غير الذي سلكه عند قدومه). واستصحب معه من ماء زمزم شيئاً[٤].

يقول ابن عمر: إن رسول الله ﷺ كان إذا قفل من الغزو أو من الحج أو من العمرة يبدأ فيكبر ثلاث مرات ثم يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون. صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده[٥].

هذه الأخبار وضعت أمامنا خطوطاً بسيطة يجمعها ناظم واحد هو التيسير ورفع الحرج عن الضعفاء وأصحاب المهن الحيوية التي إن غاب عنها صاحبها تضرر المسلمون. ورفع الحرج عمن أخطأ أو نسي أو لم يكن يعرف الحكم.

---

(١) البداية والنهاية، ٥/ ١٩٧.

(٢) في الصحيحين.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) البداية والنهاية، ٥/ ٢٠٧.

(٥) رواه البخاري ومسلم.

وها هي السيدة عائشة متحسرة كيف يعود الناس بحج وعمرة بينما هي لم تعتمر..؟! وينتظرها النبي ﷺ حتى تؤدي عمرة. مطيباً خاطرها.

ثم نلمس حرص النبي ﷺ على أن يعود بطريق غير الذي جاء فيه.. حتى عند الخروج للعيدين كان يفضل ذلك.. هل هذا ليستكثر من آثار خطواته في الخير فتشهد له الأرض..؟ أم ليعمم الخير في أكبر مساحة يقدر على السير فيها ويعرف أحوال الناس ويبلغهم دعوة الله حيث كانوا..؟! «سيروا في الأرض فانظروا..» كل ذلك مقصود.

أما ذكره لله.. فلقد كان ذاكراً على كل حال.. إذا خرج من بيته ذكر الله وإن دخل ذكر الله.. وإن ركب مسافراً دعا بدعاء وإن ركب عائداً.. دعا بآخر..

وأذكار النبي ﷺ تتميز ببساطتها وصفائها وقصرها وجمال وقعها.. تأمل دعاء العودة آيبون.. تائبون.. عابدون.. ساجدون.. لربنا حامدون..

مع تمجيد الله قبل ذلك بالوحدانية وبعد ذلك بصدق وعده ونصرة أوليائه.. وأكثر أذكاره أثناء حجه كانت تدور حول (لا إله إلا الله وحده).. بل كان يعتصم بها في أكثر أحواله.. وقد قال عنها: أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي.. لأنها كلمة عظيمة فيها خلاص الإنسان من طغيانه وطغيان الآخرين..لو كان يدري.. فالله وحده الإله الحاكم والكل عباد متساوون في الأصل متفاوتون في العمل.

وأما تزوده من ماء زمزم.. فقد يحمل على أنه تزود المسافر في الصحراء بالماء.. إضافة إلى أنها عين مباركة ومن السنة الدعاء عند الشرب منها.

* * *

تركت فيكم الثَّقلين..

فلما تفرغ رسول الله ﷺ من بيان المناسك ورجع إلى المدينة.. مرَّ في الطريق على مكان يقال له غدير خم - وهو قريب من الجحفة - فخطب فيه خطبة عظيمة في يوم الأحد الثامن عشر من ذي الحجة تحت شجرة هناك ذكر فيها فضل علي وأمانته وعدله وقربه إليه. ليزيح ما كان في نفوس بعض الناس عليه بعد بعث النبي له إلى اليمن. وذلك أن علياً ﷺ كان قد تعجل إلى رسول الله (في حجة الوداع) واستخلف على جنده الذين معه رجلاً من أصحابه فعمد ذلك الرجل فكسا كل رجل من القوم حلّة من البزّ الذي كان مع علي، فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم فإذا عليهم الحلل. قال: ويلك ما هذا؟ قال: كسوت القوم ليتجملوا به إذا قدموا في الناس. قال: ويلك انزع قبل أن ينتهي به إلى رسول الله ﷺ. (لأنه وزع قبل القسمة)، فانتزع الحلل من الناس فردّها في البزّ. وأظهر الجيش شكواه لما صنع بهم[١]. فلما نزل ﷺ غدير خم أمر بدوحات فقممن (لعل القصد نظف تحتهن أو غُطّين) ثم قال: «كأني قد دعيت فأجبت، إني قد تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض» ثم قال: «الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن» ثم أخذ بيد علي فقال: «من كنت مولاه فهذا وليه اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه»[٢].

وقد سبق لبريدة أن تحدث فقال: غزوت مع علي اليمن فرأيت منه جفوة، فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت علياً فتنقَّصْتُه، فرأيت رسول الله ﷺ يتغير، فقال: يا بريدة ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»[٣].

---

(١) البداية والنهاية، ٥/٢٠٨ - ٢٠٩.

(٢) تفرد به النسائي وقال عنه الذهبي صحيح.

(٣) رواه الإمام أحمد.

أجد في الحديث تصحيحاً للنفوس مما خالطها نحو علي من إساءة فهم.. وفيه توضيح للشدة التي عرف بها في أخذ الأمور.. ففي رواية قال لهم: «لا تشكوا علياً فإنه أخشن في ذات الله من أن يشكى»[1] وقد مرَّ معنا أنه أنكر على زوجته الزهراء أن رآها قد تحللت من إحرامها فبينت له.. لكنه مع ذلك ذهب يشكوها إلى النبي ﷺ..!!

وهي طبيعة فيه تختلف عن طبيعة رسول الله ﷺ الذي كان أحرص الناس على أمر الله لكن في ليونة محببة ورفق يكتسح القلوب حتى تصبح طوع بنانه.

ونجد رسول الله ﷺ في الخطبة يوصي وصية مودِّع ويقرن بين أمرين يسميهما الثقلين يوصي بالحرص على كتاب الله والحرص على أهل البيت (العترة).. فوا أسفاه كم في تاريخنا من مآسٍ يدمى لها القلب.. بحق هذين الثقلين..

وفي الحقيقة ما أظن أن مسلماً يفهم دينه حق الفهم إلا ويحب أهل البيت ويستنكر المجازر التي حصلت ضدهم في تاريخنا الإسلامي..

لكن هذه المآسي ارتبطت بالصراع السياسي على السلطة. ورحم الله الإمام علياً ﷺ حين بايع للخلفاء الثلاثة من قبله.. ولم يتصد للحكم إلا حين اختاره المسلمون بعد عثمان ﷺ. ورحم الله الحسن ﷺ حين تنازل لمعاوية عن الخلافة حرصاً على دماء المسلمين من الهدر. ولا شك بأن مواقف أهل البيت كانت أرقى من مواقف خصومهم.. ولكن أين كان الناس؟! لقد كان الخراب يستشري في النفوس وقد آثرت المغانم على القيم.. وإني أرى أن التصحيح لا يتم من القمة إلى القاعدة.. بل إن المشكلة في القواعد ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾. وهل تمكن عمر بن عبد العزيز من التصحيح بتعديل القمة؟!

---

(١) رواه الإمام أحمد.

ولو أن أهل البيت - عبر تاريخنا - قصروا جهودهم على تصحيح القواعد.. لكان هذا أجدى وأنفع للمسلمين ولوفر علينا مآسي تاريخية كثيرة.. ونحن نرى في عصرنا كيف تمكنت القواعد في إيران - والتي هي جماهير الناس - من القيام بعصيان مدني سلمي ومسيرات شعبية قهرت جيش الشاه الذي كان أقوى جيش في الشرق الأوسط.. دون أن ترفع سلاحاً في وجهه.. واضطرت الشاه إلى الاستسلام والهروب من البلاد.

وما زال التصحيح في إيران يتناول القواعد.. ونحن ندعو لهم أن تكلل جهودهم بالنجاح حتى تكتمل صورة المجتمع المسلم المتحضر في الظهور فتحقق آمال المسلمين وتعلم الدنيا أن ثورة محمد ﷺ الفكرية السلمية يمكن أن تعود مرة أخرى.. لتثمر أحلى العواقب.. خلافاً لما أثمرته الثورات العنيفة التي توجهت إلى تصحيح القمة بحد السلاح.. فكانت الثورة التي أكلت أبناءها فيما بعد.

إن حب أهل البيت أمر بديهي وطبيعي عند المسلمين ولا يحتاج إلى المبالغة في الحديث عنه وإقامة الحجج والبراهين على ضرورته.. ففي ذلك هدر للجهد والوقت.. كمن يشحذ ذهنه ليسوق لي البراهين على أن الشمس ساطعة ومفيدة للحياة..!! فلنتحدث في مشاكلنا وكيف نحصّل العلم لوضع الخطط لحلّها واستنفار النفوس والهمم كي تعمل وتنفذ..

* * *

الباب الثامن

وفاة النبي (ﷺ)

١- بعث أسامة (إنه لخليق بالإمارة).

٢- إشارات منذرة.

٣- الخطبة الأخيرة.

٤- وداع يوم الإثنين.

٥- من كان يعبد محمداً فإنه قد مات.

٦- لقطات أخيرة.

٧- ما السر؟

١ - بعث أسامة
(إنه لخليق بالإمارة)

ودخلت السنة الحادية عشرة للهجرة.. وفي شهر صفر منها أمر رسول الله ﷺ بتجهيز جيش كبير فيه كبار المهاجرين والأنصار بقيادة الشاب أسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء (الأردن) والداروم من أرض فلسطين. يقول عبد الله بن عمر: بعث رسول الله ﷺ بعثاً وأمّر عليهم أسامة بن زيد فطعن الناس في إمارته، فقام النبي ﷺ فقال: إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده[١]. وكان فيمن انتدب للخروج معه عمر بن الخطاب - وكان هذا آخر بعث يرسله النبي ﷺ.. وكأنه أحس أن أمر الجزيرة العربية قد استتب وإنما الخوف عليها من طمع الروم في الشمال فأراد أن يرهبهم.

وننظر في أهل المدينة وهم قلب الإسلام النابض ومع ذلك فمنهم من ينتقد تعيين النبي ﷺ لأسامة قائداً للجيش..؟! وتأمَّلُ هذا الأمر يهوّن على الدعاة ما يلقون من الناس من نقد وتطاول.. فالناس هكذا لا يكاد يرضيهم شيء..!!

أما لماذا طعنوا في إمارة أسامة.. فهو أحدثهم سناً والكبار غالباً ما يستخفون بالشباب ويتهمونهم بقلة الخبرة. ثم إنه ابن زيد الذي كان عبداً فكيف يكون أميراً

---

(١) رواه البخاري.

على السادة والأشراف؟! إنها رواسب الجاهلية تتحرك في الأعماق. لكن رسول الله ﷺ يواجه المعارضة هنا بحزم.. فأنتم مؤمنون وقد آن لكم أن تطهروا أعماقكم من بقايا العصبية والافتخار الأجوف.. فالرجل جدير بالقيادة وفيه مؤهلات النجاح فيها.. وهو وأبوه من أحب الناس إلى قلب النبي ﷺ لما يرى فيهما من إخلاص وحرص على ما يرضي الله.. فما كان النبي ﷺ ليحب إنساناً لعرض دنيوي.. وكثيراً ما يتوه الناس في تحديد مؤهلات الإمارة أو القيادة. فبعضهم يرجح الحسب والنسب وبعضهم يرجح المال.. وقد اعترض بنو إسرائيل من قبل على تعيين طالوت ملكاً فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢/٢٤٧]. اصطفاه لإخلاصه وعنده مؤهلات فكرية وجسمانية.

وهكذا كان اختيار النبي ﷺ لأسامة مغايراً لمقاييس القوم. وفيه: (تقدير من الرسول ﷺ للكفاءات الشابة، ورفضاً لسلم الطبقات الاجتماعية الذي لا يسمح لمن كان آباؤهم عبيداً يباعون ويشترون أن يتولوا قيادة السادة. ورداً عملياً على محنة المسلمين في مؤتة حيث كان زيد والد القائد الشاب قد شاط في رماح القوم)[١].

وانطلق جيش أسامة نحو الشمال وعسكر في (الجرف) على بعد فرسخ من المدينة ريثما يلحق به بقية الراغبين في الاشتراك في هذا البعث. وهناك وصلتهم الأنباء بمرض رسول الله ﷺ، فتوقف أسامة عن المسير حتى يطمئنوا على حال النبي ﷺ. ثم لم يلبث أن عاد بجنده إلى المدينة ليعود النبي ﷺ. ودخل أسامة على رسول الله ﷺ وقد عجز عن الكلام، فجعل ﷺ يرفع يديه إلى السماء ويضعهما على أسامة.. فعرف أسامة أنه يدعو له[٢].

(١) دراسة في السيرة، ص٣١٥.
(٢) تهذيب السيرة، ص٣٨٦ - ٣٨٨.

فلما لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى وتولى أبو بكر الصديق الخلافة واهتزت الجزيرة بالردة. وكما تقول عائشة: (اشرأبت اليهودية والنصرانية ونجم النفاق وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية)[١] أصرَّ أبو بكر على أن يمضي جيش أسامة إلى هدفه وقال: (ما كنت لأردَّ جيشاً جرده رسول الله ﷺ) مع إصراره على قتال المرتدين. وكان في ذلك ردع لأعداء الإسلام وتمكين لعزائم المسلمين.

❋ ❋ ❋

(١) المصدر نفسه، ص٤٠٤.

٢ - إشارات منذرة

وتتوالى الإشارات المنذرة باقتراب أجل النبي ﷺ..

تقول عائشة رضي الله عنها: اجتمع نساء رسول الله ﷺ عنده لم يغادر منهن امرأة، فجاءت فاطمة تمشي لا تخطئ مشيتها مشية أبيها. فقال ﷺ: مرحباً بابنتي، فأقعدها عن يمينه أو شماله، ثم سارّها بشيء فبكت، ثم سارّها فضحكت، فقلت لها: خصك رسول الله ﷺ بالسرار وأنت تبكين؟ فلما أن قامت، قلت: أخبريني ما سارّك؟! فقالت: ما كنت لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ. فلما توفي قلت لها: أسألك لما لي عليك من الحق لما أخبرتني! قالت: أما الآن فنعم، سارّني في الأول قال لي: إن جبريل كان يعارضني في القرآن كل سنة مرة وقد عارضني في هذا العام مرتين ولا أرى ذلك إلا لاقتراب أجلي فاتقي الله واصبري فنعم السلف أنا لك، فبكيت. ثم سارّني فقال: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة؟ فضحكت[١].

ويقول أبو هريرة: كان ﷺ يعتكف في كل شهر رمضان عشرة أيام فلما كان من العام الذي توفي فيه اعتكف عشرين يوماً.. وعرض عليه القرآن مرتين[٢].

---

(١) ثبت في الصحيحين.

(٢) رواه البخاري.

فرسول الله ﷺ يستعد بمزيد من العبادة. وجبريل يراجع معه القرآن مرتين حتى يُحفظ. ورسول الله ﷺ يُسرُّ إلى فاطمة بقرب الرحيل ويواسيها وهو يخشى عليها الفجيعة.. فلم يبق من أولاده سواها، ولقد تحملت من الأحزان الكثير.. فاتقي الله واصبري يا فاطمة ولا تنسي أنك بنت نبي ونعم السلف أنا لك.. فكوني نعم الخلَف.. لك الله يا فاطمة..! ولم تتمالك فاطمة نفسها من البكاء.. فكيف تصبر على فراق أبيها وحبيبها ورسولها..؟! لكنه يبشرها بأنها سيدة نساء الأمة.. وفي رواية: بأنها أول أهله لحاقاً به.

وتأمل أسلوب عائشة رضي الله عنها في الخبر.. فهي تصف قدوم فاطمة وكيف تمشي مشية أبيها.. وصف فيه كثير من الحب لفاطمة وإن خالطه بعض الغيرة.. فهي ترقب النبي ﷺ كيف يرحب بابنته ويجلسها إلى جانبه ثم يميل إليها ليسر لها كلاماً.. كيف تصبر عائشة رضي الله عنها على هذا؟! ومن المؤكد أنها كانت تتمنى أن تسمع هذه المناجاة بأي ثمن.. بدليل إلحاحها في سؤال فاطمة. وبدليل قولها لفاطمة بشيء من اللوم: (خصك رسول الله ﷺ بالسرار وتبكين؟)، وتلاحق عائشة رضي الله عنها فاطمة رضي الله عنها: أخبريني.. ماذا قال لك..

لكن فاطمة ترد بالأدب الذي كان لها غذاء في بيت أبيها المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ..

ويبقى السؤال مؤرقاً لعائشة رضي الله عنها.. كيف يكتم عنها حبيبها سراً ويفضي به إلى ابنته..؟! ولولا حياؤها وأدبها للاحقت رسول الله ﷺ بسؤالها.. فلما توفي رسول الله ﷺ عادت تلاحق فاطمة وكأنها تستحلفها أن تخبرها.. (أسألك لما لي عليك من الحق) وما كانت فاطمة لتجهل حق عائشة أم المؤمنين في برها.. ولو كانت هي سيدة نساء المؤمنين.. فأخبرتها.. والجميل في السيدة عائشة أن تتولى هي رواية هذا الخبر الذي تصور فيه لهفتها على

معرفة ما أسر به ﷺ لفاطمة.. ثم هذه الأمانة في التصوير والنقل.. والاعتراف بالفضل للزهراء على أنها سيدة نساء المؤمنين.. لقد كانت رضي الله عنها إنسانة مرهفة شديدة الحب لرسول الله ﷺ شديدة الغيرة عليه.. لم تتعود أن تكظم مشاعرها وعواطفها.. خاصة عندما انتقلت إلى كنف النبي ﷺ الذي أحبها وأكرمها ولم يحرمها يوماً من التعبير عن مشاعرها.. حتى ولو كانت غيرة جامحة.. وهذا ما جعلها تعود فتسدد نفسها بعد تفريغ الغليان في قلبها..

* * *

اخترت لقاء ربي..

عن أبي مويهبة - مولى رسول الله ﷺ - قال: أمر رسول الله ﷺ أن يصلي على أهل البقيع فصلى عليهم ثلاث مرات فلما كانت الثالثة قال: يا أبا مويهبة أسرج لي دابتي، فركب ومشيت حتى انتهى إليهم فنزل عن دابته وأمسكت الدابة، فقال: ليهنكم ما أنتم فيه مما فيه الناس أتت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضاً الآخرة أشد من الأولى فليهنكم ما أنتم فيه مما فيه الناس. ثم رجع فقال: يا أبا مويهبة إني أعطيت (أو خيِّرت) بين مفاتيح ما يفتح على أمتي من بعدي والجنة.. أو لقاء ربي.. فقلت: بأبي أنت وأمي فاخترنا. قال:... فاخترت لقاء ربي. فما لبث بعد ذلك إلا سبعاً أو ثمانياً حتى قبض ﷺ[(١)].

أتأمل في أمر الله لرسوله أن يصلي على أهل البقيع..

هل هو وداع للأموات أيضاً..؟ وربنا الرحمن الرحيم يوجه نبيه أن ينال الأموات منه استغفاراً ودعاء قبل أن تنتهي أيامه. تباركت يا رب ما أعظم رحمتك! وأتأمل في كلام النبي ﷺ عند المقابر: ليهنكم ما أنتم فيه.. في مقعد

(١) رواه الإمام أحمد.

صدق عند مليك مقتدر.. بينما تنحدر الفتن على الناس كقطع الليل المظلم.. لا تنجلي فتنة حتى يأتي ما هو أشد منها.. رسول الله ﷺ يتكلم وسجف الغيب تنجلي أمام ناظريه.. الابتلاء سنة الحياة الدنيا.. هو مُرٌّ وشديد.. لكنه يحرك النيام ويحافظ على انتباه اليقظى.. من سقط فيه ضاع.. ومن نجا فقد تعلم وارتقى ونال الأجر من ربه. ولهذا: إذا أحب الله عبداً ابتلاه.. حتى لا يسترخي وتتبدد طاقاته.

ورسول الله ﷺ مشفق على أمته من الفتن.. ويهنئ الأموات على نهاية امتحانهم.

وخُيِّر الرسول ﷺ بين أمرين طيبين إكراماً له.. لكن هيهات للنبي ﷺ أن يؤثر شيئاً على لقاء ربه الذي قضى عمره يناجيه ويتقرب إليه.. حتى وعده: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٩٣/ ٥].

* * *

بداية النهاية..

تقول عائشة رضي الله عنها: رجع رسول الله ﷺ من البقيع فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي وأنا أقول وارأساه، فقال: بل أنا والله يا عائشة وارأساه. قالت ثم قال: وما ضرك لو مت قبلي فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك؟ قلت: والله لكأني بك لو فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك.. فتبسم رسول الله ﷺ ونام به وجعه، وهو يدور على نسائه حتى استعزَّ به (أي اشتد به) في بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهن أن يُمرَّض في بيتي فأذنَّ له. فخرج رسول الله ﷺ بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن عباس ورجل آخر، عاصباً رأسه تخط قدماه حتى دخل بيتي. فقال ابن عباس لراوي الحديث: أتدري من الرجل الآخر؟ هو علي بن أبي طالب[١].

(١) البداية والنهاية، ٥/ ٢٢٤.

صلوات الله وسلامه عليك أيها الحبيب من قلب الألم تحاول الانفكاك.. تريد أن تروّح عن حبيبتك عائشة.. تباسطها وتمازحها وأنت مصدَّع.. لا تخافي يا عائشة.. إن مت قبلي فهو خير لك.. أقوم على دفنك وأدعو لك..

وتذهب عائشة بالنكتة إلى أقصى مداها.. تريد أن أموت لتتزوج في بيتي..!! ويضحك رسول الله ﷺ من قلب الألم.. ثم يفترش وجعه وينام عليه صابراً. ويمضي في دورته على نسائه كل يوم عند واحدة - وهنّ تسع - فيشتد عليه الوجع ويضنيه التنقل.. فيرسل إليهن ويستأذن منهن في البقاء عند عائشة.. ما أعظم عدلك أيها الحبيب المصطفى.. وما أحلى أدبك مع نسائك..!!

وما بال أم المؤمنين عائشة تنسى أن الرجل الآخر الذي كان النبي يستند إليه هو علي؟! إنها لا تحب أن تذكر اسمه فهي عاتبة عليه منذ قصة الإفك.

* * *

محاولات في العلاج

وكانت عائشة تحدث: أن رسول الله ﷺ لما دخل بيتي واشتد به وجعه، قال: هريقوا عليَّ من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن، لعلي أعهد إلى الناس فأجلسناه في مخضب[1] لحفصة زوج النبي ﷺ ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن. ثم خرج إلى الناس فصلى لهم وخطبهم[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لددنا رسول الله ﷺ في مرضه (اللدود هو الدواء الذي يصب في أحد جانبي فم المريض ويسقاه. أو يدخل بأصبع أو غيرها ويحنك به) فجعل يشير إلينا أن لا تلدوني، فقلنا: كراهية المريض للدواء.

(١) المخضب: الوعاء الكبير تغسل به الثياب.
(٢) رواه البخاري ومسلم.

فلما أفاق قال: ألم أنهكم أن: لا تلدُّوني؟ قلنا: كراهية المريض للدواء. فقال: لا يبقى أحد في البيت إلا لُدَّ وأنا أنظر، إلا العباس فإنه لم يشهدكم[1].

في الخبر الأول: نجد رسول الله ﷺ يعالج الحمى التي أصابته بأن يصب عليه الماء الذي لم يمسه أحد بعد (قرب لم تفتح) للتأكد من نظافته. وذلك كي يقوى على الخروج إلى الناس ليخطب فيهم ويوصيهم.

وفي الخبر الثاني: نجد محاولة فاشلة من أهل النبي ﷺ لمداواته بدواء.. ورسول الله ﷺ يعلم أنه لن ينفعه.. فلم العناء دون طائل؟! ولهذا أشار لهم أن لا يلدوه.. لكنهم مضوا فيما عزموا عليه.. فعاقبهم بأن يُلَدوا جميعاً منه.. ويبدو أن الدواء سبب له إغماءً فلما أفاق قال ذلك لهم.. وكل ذلك يوحي بمقدار الوجع الذي كان يعاني منه ﷺ حتى فرض عليهن ذلك.

* * *

(١) رواه البخاري.

٣- الخطبة الأخيرة

وتذكر أحاديث متعددة أن رسول الله ﷺ بعد أن أراقوا عليه من سبع قرب.. خرج عاصباً رأسه بعصابة دسماء ملتحفاً بملحفة على منكبيه فجلس على المنبر فكان أول ما ذكر بعد حمد الله والثناء عليه أصحاب أحد فاستغفر لهم ودعا لهم. ثم قال:

«يا معشر المهاجرين إنكم أصبحتم تزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد.. وإنهم عيبتي التي أويت إليها، فأكرموا كريمهم وتجاوزوا عن مسيئهم. أيها الناس إن عبداً من عباد الله قد خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله». ففهمها أبو بكر رضي الله عنه من بين الناس فبكى وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا وأموالنا. فقال رسول الله ﷺ:

«على رسلك يا أبا بكر! انظروا إلى هذه الأبواب الشارعة في المسجد فسدوها إلا ما كان من بيت أبي بكر، فإني لا أعلم أحداً عندي أفضل في الصحبة منه». وأضاف في رواية: «ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن خلة الإسلام أفضل». وفي رواية: «وإن ربي اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً. وإن قوماً ممن كان قبلكم يتخذون قبور أنبيائهم وصلحائهم مساجد فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»[1]. وكانت

(١) البداية والنهاية، ٥/ ٢٢٩ - ٢٣٠.

هذه الخطبة يوم الخميس قبل أن يقبض عليه الصلاة والسلام بخمسة أيام.
يقول ابن عباس: فكان آخر مجلس جلس فيه رسول الله ﷺ حتى قبض. يعني آخر خطبة خطبها عليه السلام.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما أشد لهفتك على أمتك.. تطوي جناحك على ألمك وتعصب رأسك وتخرج إليهم.. توصيهم.. تمهد لهم كي يتقبلوا خبر موتك تذكرهم بمكانة أبي بكر.. تودعهم.. فلا يتصورون أنه الوداع.. إلا أبا بكر..

ولنمض مع الخطبة القصيرة بنداً بنداً:

١ - الوفاء لأصحاب أحد تلك الوقعة التي امتحن فيها المسلمون وزلزلوا.. والشهداء الذين ثبتوا حول رسول الله ﷺ يفدونه بأرواحهم.. يذكرهم ويستغفر ويدعو لهم.

٢ - الوصية بالأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ وحملوا الدعوة على أكتافهم وآثروا على أنفسهم.. وسيؤثرون على أنفسهم فلا يتطلعون إلى إمارة أو حكم.. هؤلاء الذين رضوا برسول الله ﷺ نصيباً.. يقول عنهم الحبيب ﷺ: «عيبتي التي أويت إليها، فأكرموا المحسن منهم وتجاوزوا عن المسيء».

٣ - ويحاول النبي ﷺ أن يمهد لأصحابه خبر موته.. إن ما عند الله هو خير وأبقى فلا تحزنوا على موت مؤمن.. ولم ينتبه للموضوع إلا أبو بكر.. فلقد علمته صحبته الطويلة للرسول ﷺ أن يفهم عنه بشكل لمّاح.. ويبكي أبو بكر ويعبر عن حبه الصادق..

٤ - ويواسيه رسول الله ﷺ ويبين فضله للناس ويأمر بسد الأبواب المفتوحة على المسجد إلا باب أبي بكر.. وكأنها إشارة إلى خلافته، فباب بيته ينبغي أن يبقى مفتوحاً على المسجد تسهيلاً لخروجه إلى الصلاة في

المسلمين.. والحكم بين الناس. ويعبر عن حبه الشديد له إلى درجة أن يكون خليلاً له.. لكنه خليل الله وحبيبه.

٥ - وينهى عن اتخاذ القبور مساجد.. ولو كانت قبور أنبياء وصالحين. خوفاً من الوقوع في التقديس والتوسل بصاحب القبر.. وحرصاً على نقاء التوحيد الذي قضى رسول الله ﷺ ربع قرن بجهود متواصلة لنشره في الجزيرة العربية.

واعتبروا من أخطاء من كان قبلكم.. ولكن كثيراً من المسلمين صاروا حريصين على الدفن في المساجد.. حتى تكاد لا تجد مسجداً خالياً من قبر..!! ومن المؤلم أن تجد المساجد قد أصبحت كالمقابر.. وفقدت إشعاعها الحيوي على الأحياء.. إنني أرى في هذا النهي تألقاً حضارياً غفلنا عنه.. لقد أدخلنا الموت إلى المساجد.. وخلطنا عالم الأحياء بالأموات.. فأصبحنا أمواتاً غير أحياء. إن المسجد للأحياء وينبغي أن يحرر من قبضة الموت دوره العظيم بين الناس فلقد كان مركزاً للعبادة ومركز إشعاع علمي.. وملاذاً للمؤمنين في كل مشاكلهم.. تعقد فيه الزيجات وتُحل الخصومات وتعقد الألوية والرايات. فما دخل الأموات بهذا المكان الذي يمثل نبع الحضارة والحياة..؟!

❁ ❁ ❁

إشارات أخرى إلى أبي بكر

وأتت امرأة إلى رسول الله ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك - كأنها تقول الموت - قال: «إن لم تجديني فائتي أبا بكر»[1]. وعن عائشة قالت: لما دخل رسول الله ﷺ بيتي قال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس». قلت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ

---

(١) في الصحيحين.

القرآن لا يملك دمعه فلو أمرت غير أبي بكر. قالت: والله ما بي إلا كراهية أن يتشاءم الناس بأول من يقوم في مقام رسول الله ﷺ، قالت: فراجعته مرتين أو ثلاثاً فقال: «ليصلِّ بالناس أبو بكر فإنكنَّ صواحب يوسف»[١] وفي رواية: فوجد النبي ﷺ في نفسه خفة فخرج يهادى بين رجلين كأني أنظر إلى رجليه تخطان من الوجع، فأراد أبو بكر أن يتأخر فأومأ إليه النبي ﷺ أن مكانك، ثم أتي به حتى جلس إلى جنبه. فكان النبي ﷺ يصلي وأبو بكر يصلي بصلاته والناس يصلون بصلاة أبي بكر[٢].

فقوله للمرأة: إن لم تجديني فائتي أبا بكر.. قالوا: إنه قالها في مرض وفاته.

وحديث عائشة صريح في الإشارة إلى أن أبا بكر أولى الناس بالإمامة. وفي رواية أخرى أن أبا بكر كان غائباً فقال عبد الله بن زمعة لعمر: قم يا عمر فصلِّ بالناس، فلما كبر عمر سمع رسول الله ﷺ صوته فقال: فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون (وكررها) فبعث إلى أبي بكر[٣].

لكن عائشة لا تريد أن يقف أبوها بدلاً عن رسول الله ﷺ حتى لا يتشاءم الناس منه، فتراجع النبي ﷺ مرات، وتذكر عذراً آخر غير ما في نفسها.. إلى أن يغضب النبي ﷺ فيقول: أنتن صواحب يوسف.. تظهرن شيئاً وتخفين شيئاً آخر..

ومن المؤسف أن المرأة تقع في هذا الخطأ كثيراً.. تبطن مشاعرها ببطانة أخرى.. لماذا؟ أحياناً يكون السبب إحساسها بالضعف وأن البيئة لا تسمح لها بالتصريح بمشاعرها الحقيقية.. وهو عيب في البيئة وفي المرأة المستضعفة التي لم

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) البداية والنهاية، ٥/ ٢٣٢.

تصل بعد إلى مرحلة التوازن أو الصحة النفسية.. بحيث تعرف ما تريد وتصرِّح بما تريد. وأحياناً تلجأ إلى ذلك لأنها تدرك أن مشاعرها خطأ.. لو صرَّحت بها لكانت موضع إدانة أو مساءلة.. وفي تلك اللحظة كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تدرك في أعماقها أن تحيزها لأبيها يتصارع مع الموقف الصائب الذي أمر به النبي ﷺ.. ولهذا صرَّحت حين روت الحديث بعد ذلك بدوافعها.. وبرد النبي ﷺ عليها..

وفي الحقيقة إن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تدهشني في أمانتها العلمية وموضوعيتها فهي تروي الحديث ولو كان فيه لوم لها.. وتتحدث عما فعلت وما ساورها من شعور.. لقد كانت إنسانة من لحم ودم.. صريحة مع نفسها ومع الآخرين.. وتتقبل نفسها على أنها من البشر الذين يخطئون ويصيبون. وهذا هو التوازن النفسي أو (الصحة النفسية).

* * *

ذكاء لمّاح..

وعن عروة بن الزبير - ابن أخت عائشة رضي الله عنها - أن عائشة أخبرته أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده، فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه طفقت أنفث عليه بالمعوذات التي كان ينفث وأمسح بيد النبي ﷺ.

وعن عائشة رضي الله عنها: فمات ﷺ في اليوم الذي كان يدور علي فيه في بيتي وقبضه الله وإن رأسه لبين سحري[1] ونحري وخالط ريقه ريقي. ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه سواك يستنُّ به فنظر إليه رسول الله ﷺ فقلت له:

(١) الرئة وما يتصل بها إلى الحلقوم.

أعطني هذا السواك يا عبد الرحمن، فأعطانيه فقضمته ثم مضغته فأعطيته رسول الله ﷺ فاستنّ به وهو مسند إلى صدري[١].

- هنا نجد أم المؤمنين عائشة الذكية المحبة.. تفهم على النبي ﷺ من النظرة وتتفحص كل شيء لتلتقط ما يمكن أن يخفف عن رسول الله ﷺ وجعه.. وما يمكن أن يرضي نفسه.. فليس غريباً أن تنال من قلب النبي ﷺ أطيب مكان وهي صاحبة الذكاء اللماح والشباب الفعال.. واللسان الحر الفصيح.. والذاكرة المتوقدة والأمانة في التحديث والنقل ولو على النفس. وقد سبق أن ذكرنا أن عمرو بن العاص سأل النبي ﷺ: من أحب الناس إليك؟ فقال: عائشة. قال: فمن الرجال؟ قال: أبوها.

كل هذا وهي لم تتجاوز الثامنة عشرة عند وفاته ﷺ.

حقاً إنها بنت أبي بكر.. وزوج النبي ﷺ وحبيبته.. وأم المؤمنين.

* * *

حسبنا كتاب الله..

ويقول ابن عباس: يوم الخميس وما يوم الخميس؟! اشتد برسول الله ﷺ وجعه فقال: ائتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً. فتنازعوا - ولا ينبغي عند نبي تنازع - فقالوا: ما شأنه يهجر (أي يهذي من المرض) استفهموه.. فقال: دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه[٢]. ويظهر من السياق أن الصحابة ما خطر في بالهم التنازع على الحكم وإنما ظنوا أنه يعني الضلال في الدين. وفي رواية: فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع

(١) تفرد به البخاري.
(٢) رواه البخاري.

وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله.. فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله ﷺ: قوموا.

قال ابن عباس: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم.. وفي الرواية الأولى: فأوصاهم بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد (أي أعطوهم) بنحو ما كنت أجيزهم. وسكت عن الثالثة أو قال فنسيتها.

- ما زال رسول الله ﷺ خائفاً على أمته.. وإلى آخر لحظة يتمنى أن يفعل شيئاً يحول بينهم وبين الضلال.. وبعض الباحثين يقول: أراد أن يكتب بالخلافة لأبي بكر.. وبعضهم يقول: بل كان يريد أن يكتب لعلي بن أبي طالب.

- واسمح لي يا حبر الأمة يا بن عباس أن أخالفك الرأي.. فإن الله سبحانه وتعالى لم يمض هذا الأمر لأنه لم يكن ضرورياً لهذه الأمة التي بين يديها كتاب الله غضاً طرياً.. إن القرآن قد وضع لهم القواعد وعقولهم ما زالت يقظة وضمائرهم ما زالت مرهفة.. وهم قادرون على الاسترشاد بالقرآن والاهتداء بهديه.

اطمئن يا رسول الله إنهم يعيشون حالة الرشد التي ربَّيتهم عليها.. اسمعهم وهم يقولون: (حسبنا كتاب الله).. وإن ارتفع لغطهم فإن المصاب جليل يكاد يفقدهم صوابهم.

* * *

والله لا أسألها رسول الله ﷺ

وخرج علي بن أبي طالب من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه فقال الناس: يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله

بارئاً. فأخذ بيده العباس بن عبد المطلب فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر؟ إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا. فقال علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ[1].

هذا حوار جدير بالتأمل والتحليل. وكأنه حدث قبل يومين من وفاة النبي ﷺ، العباس عم النبي الذي تأخر إسلامه إلى السنة الثامنة يفكر في الحكم لمن يكون بعده ﷺ؟! وربما لأنه كبير العائلة اعتاد أن يفكر في مصالحها.. ولعل الأمر يراوده بأن تحتفظ هذه العائلة بالسلطة والجاه فهم آل النبي ﷺ.. وهو ينظر إلى الحكم على أنه امتياز يستحقه آل النبي ﷺ وخاصة علياً ﷺ، الذي كرم الله وجهه فلم يسجد لصنم، والذي نام في فراش النبي ﷺ يوم الهجرة.. والذي تزوج الزهراء.. وأنجب السبطين.. والذي.. والذي..

ولا ينتبه إلى أن الحكم تعب ونصب ومسؤولية وهمّ وابتلاء للحاكم المؤمن.. وكما قال عمر (عندما قيل له استخلف ابنك): يكفي آل الخطاب واحد يقف أمام الله ليسأل عن الناس..!! ها هو العباس ينتحي بعلي جانباً ليقول: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا..؟!! غفر الله لك يا عباس ورضي عنك.. أهذا هو مقدار علمك بأصحاب النبي.. المهاجرين الذين هجروا المال والأهل والوطن في سبيل الله.. والأنصار الذين آووا ونصروا وافتدوا رسول الله ﷺ بأرواحهم وآثروا على أنفسهم..؟! أهذا هو علمك بالعشرة المبشرين بالجنة..؟! وبالخلفاء الراشدين..؟!

هذه العبارات خرجت من التراث الجاهلي المتراكم في الأعماق. ولو قيلت

---

(١) رواه البخاري.

بعد أربعين عاماً من ذاك التاريخ لكان لها مبرراتها.

أما ما بعد العبارة الأولى من كلام العباس فهو أخف وطأة.. وإن كان يوحي بأنه يشعر بأن النبي ﷺ يجب أن يوصي بهم حتى لا يُظلموا..

وأما علي رضي الله عنه فيشعر بعدم الفائدة من هذا السؤال.. وكأنه يتوقع رفض النبي ﷺ لأن يجعل الأمر فيهم.. ألم يقل لأهله: مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس.. ولقد سبق لعلي أن طلب من النبي ﷺ شيئاً يوم فتح مكة فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية.. لكن رسول الله ﷺ رفض أن يختص أهله بشيء من التمييز ورد مفاتيح الكعبة لعثمان (من بني شيبة لأن الحجابة كانت لهم في الجاهلية) فما الفائدة من سؤال النبي ﷺ شيئاً أنت في شك من أن تناله منه.. ولو كان النبي ﷺ يريده ويرى فيه خيراً لبادر إليه ولجعله في جملة وصاياه..

وعلي ينظر إلى البعيد ويقول لو سألناها رسول الله ﷺ ولم يعطنا لأصبحت حجة ضد وصولنا إلى الحكم.. وسيقول الناس: رسول الله ﷺ لم يجعل لهم ذلك.. فلنترك الأمر إلى أوانه.. فإن اختارنا الناس كان بها.. وإلا فليس الأمر بمأسوف عليه..

تحليلي هذا هو مقدار فهمي لمواقف الرجلين والله أعلم بالدوافع.. فلئن أخطأت الفهم فلا غرابة.. ومن منا منزه عن الخطأ.. فاللهم اغفر لنا وسددنا وزدنا علماً وحباً بك وبرسولك ﷺ وبأصحابه رضوان الله عليهم.

❁ ❁ ❁

٤- وداع يوم الإثنين

وكانت آخر صلاة صلاها مع الجماعة هي ظهر يوم الخميس مع أبي بكر والمسلمين.. ثم مكث ثلاثاً لا يخرج إليهم. يقول أنس بن مالك: كان أبو بكر يصلي لهم في وجع النبي ﷺ الذي توفي فيه حتى إذا كان يوم الإثنين وهم صفوف في الصلاة فكشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، تبسم يضحك فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ ونكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة فأشار إلينا ﷺ أن أتموا صلاتكم وأرخى الستر وتوفي من يومه[١].

كيف أعلق على هذا المشهد المليء بالحب المتبادل..؟!

ها هو الحبيب المصطفى يتحامل على نفسه ليلقي نظرة الوداع على المؤمنين وهم في أروع لقطة.. صفوف متلاحمة تقف في خشوع خلف صاحبه في الغار.. الصدّيق الذي شاركه رحلة البناء لهذا البنيان المرصوص.. ويستنير وجه النبي ﷺ ويتألق ببسمة السعادة والرضى.. فماذا حلّ بالمؤمنين..؟ كادت قلوبهم تطير من البهجة والفرح.. ثلاثة أيام يا رسول الله مضت كأنها دهر ثقيل.. لم نر وجهك الحبيب فيها.. ولم نسمع صوتك الهادي.. افتقدنا لطفك بنا.. وسؤالك عنا وسماعك لهمومنا.. وها أنت تطلُّ علينا وقد ردّك الله

(١) رواه البخاري.

إلينا.. لقد كادوا يفتتنون عن صلاتهم.. وهمَّ أبو بكر بالعودة إلى الصفوف تاركاً الإمامة للنبي.. لكن هيهات.. إنه الوداع.. ولم يبق لقاء إلا على الحوض.. اللهم اجمعنا به ﷺ.

* * *

إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه..

وتقول عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم»[١].

ويقول عبد الله بن مسعود: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك فمسسته فقلت: يا رسول الله إنك لتوعك وعكاً شديداً!! قال: أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم. قلت: إن لك أجرين؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حطَّ الله عنه خطاياه كما تحطُّ الشجرة ورقها»[٢]. وتقول عائشة رضي الله عنها: ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على رسول الله ﷺ[٣] وفي رواية: (فلا أكره شدة الموت لأحد بعد النبي ﷺ)[٣].

وقد سبق أن قال ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة شدد عليه في البلاء»[٣].

صلوات الله عليك وسلامه أيها الحبيب هل كان السمّ يؤلمك طيلة هذه السنوات إلى أن حان الأجل..؟! وكل منا يحمل أسباب الموت في جسده إلى أن

(١) رواه البخاري.
(٢) البخاري ومسلم.
(٣) رواه البخاري.

يحين قدر الله المحتوم، وكلنا يتألم لوجع رسول الله وهو يقرأ هذه الأخبار.. فلم كل هذا؟!

١ - إن في ذلك مضاعفة للأجر له ﷺ. ولكي يعلم الكل أن المنازل العليا لا تنال إلا بدفع الثمن.

٢ - إن في ذلك مواساة لكل مبتلى.. فمرحباً بالألم إن كان يلحقني بركب الأنبياء..!!

٣ - إن البلاء من رحمة الله ومحبته للعبد لأنه يحافظ على يقظته ويحرك إبداعه.. وأما المعافاة فإنها تخمد الطاقات وتجعل الإنسان يستكين للدعة.. فلماذا يفكر وكل شيء على ما يرام؟! حتى المؤرخون تحدثوا عن ضرورة وجود معاناة عند الأمة كي تتحرك وتجتهد في إيجاد حلول.. وعندها تبني حضارة. وتوينبي يسميه (التحدي المناسب) بحيث لا يكون ضعيفاً ولا يكون ساحقاً.

والمرحوم مالك بن نبي يذكر في كتابه (تأملات) أن العقبات مؤشر صحي في حياة الأمة لأنها تبشر بحدوث نهضة جديدة.. وكما قيل إن الحاجة أم الاختراع.. وكذلك إن الألم محرك للإبداع واسألوا الأدباء والشعراء عن ذلك.

* * *

آخر الوصايا..

عن أنس بن مالك قال: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت: الصلاة وما ملكت أيمانكم. حتى جعل رسول الله ﷺ يغرغر بها صدره وما يكاد يفيض بها لسانه[١].

---

(١) رواه الإمام أحمد.

وعن عائشة وابن عباس: قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له (أي ثوب) على وجهه فإذا اغتم كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[١].

هذه هي آخر وصاياه وهناك روايات أخرى تضيف الزكاة وحسن الظن بالله. الصلاة.. الصلاة.. فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه..

وما ملكت أيمانكم.. ولئن انتهى الرّق فإن الخدم والضعفاء موجودون في كل عصر. ومرة أخرى: لا تميتوا علينا ديننا بالموت في المساجد.. إن هذه المساجد للأحياء.. تجدد حياتهم وتملأ نفوسهم حيوية وتصميماً على البناء الخيّر.

* * *

في الرفيق الأعلى..

وفي حديث عائشة الذي قالت فيه: توفي ﷺ في يومي وفي بيتي وبين سحري ونحري وإن الله جمع بين ريقي وريقه عند الموت.. (وذلك أنها لينت له السواك فاستاك به) قالت: وبين يديه ركوة أو علبة فيها ماء فجعل يدخل يده في الماء فيمسح بها وجهه ثم يقول: «لا إله إلا الله إن للموت لسكرات». ثم نصب إصبعه اليسرى وجعل يقول: في الرفيق الأعلى.. في الرفيق الأعلى.. حتى قبض ومالت يده في الماء[٢] وكانت هذه آخر كلمات قالها ﷺ.

وماذا يعني الرفيق الأعلى؟

هل هو مثل المرتفق: أي المجلس أو المتكأ..؟ ومثلها (مِرْفق).. أو بمعنى الصاحب والصديق (وتستعمل للواحد وللجمع).

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري.

فهو يسأل الصحبة الأرقى والمجلس الأعلى.. هكذا يبدو والله أعلم.. وفي روايات أن عائشة رضي الله عنها أحست أنه يخيَّر.. فقالت: إذن والله لا يختارنا[1]. كيف يختارنا ومقامه في أعلى عليين.. لقد بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة.. جاهد وتعب.. وتحمل وصبر.. وأحب وأعطى كل ما كان يقدر عليه.. للأصحاب وللأعداء..

ولقد آن للحبيب أن يستريح عند الرفيق الأعلى.

* * *

(١) البداية والنهاية، ٥/٢٤١..

٥- من كان يعبد محمداً فإنه قد مات

تقول عائشة ﵂: وأقبل أبو بكر على فرس من مسكنه بالسُّنح (موضع كان لأبي بكر فيه مال وأهل) حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيمم رسول الله ﷺ وهو مسجى (مغطى) ببردة حبرة (نوع من ثياب اليمن) فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله، ثم بكى ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله والله لا يجمع الله عليك موتتين أبداً، أما الموتة التي كتبت عليك فقدْ مِتَّها..

يقول ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر فأبى عمر أن يجلس. فقال: اجلس يا عمر.. فأبى عمر أن يجلس. فتشهد أبو بكر فأقبل الناس إليه. فقال: أما بعد فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٤]. قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم فما سمع بشر من الناس إلا يتلوها.

يقول عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرفت أنه الحق فعُقِرْتُ[١] حتى ما تقلني رجلاي وحتى هويت إلى الأرض وعرفت حين سمعته تلاها أن رسول الله ﷺ قد مات[٢].

وكان عمر - قبل مجيء أبي بكر - محتداً يتوعد كل من يقول أن رسول الله ﷺ قد مات.

كان الناس قد استبشروا قبل ذلك بتحسن صحة رسول الله ﷺ، فخرج أبو بكر إلى أهله بالسنح (يبدو أنه مكان شرق المدينة).. لكن رسول الله ﷺ ما لبث أن مات وسرى الخبر إلى المسجد.. وضجت به المدينة.. فتزلزلت القلوب وانعقدت الألسنة وتجمدت العقول ما تدري أتصدق أم تكذّب.. وهذا عمر الفاروق والمصاب يكاد يفقده صوابه.. كيف يصدق أن رسوله وحبيبه قد مات..؟! وما طعم الحياة من بعده..؟! إن هذا لن يكون أبداً.. وسأقطع لسان من يتجرأ على ذلك..

أما أبو بكر فقد أسرع يتحقق من الأمر بنفسه ولم يلتفت إلى كل ما حوله من لغط وضجيج.. فلما كشف الغطاء عن وجهه ﷺ أدرك الحقيقة.. وانبياه.. طبت حياً وميتاً أيها الحبيب.. وما أشد الفجيعة بك.. والآن جاء دورك يا أبا بكر.. إن المدينة ترتج من وقع المصاب وتأبى أن تصدق أنها تركت لتتابع الطريق بعد أن أنهى رسول الله ﷺ دوره. هيا يا أبا بكر فما يقدر أحد على رأب الصدع سواك.. ألم يجعلك رسول الله ﷺ إمام المسلمين في صلاتهم..؟! ويخرج أبو بكر فينادي على عمر.. رويدك أيها الفاروق.. دعني فإني لا أقدر على التماسك.. ولن أسكت.. وهنا وقف أبو بكر في المسجد..

---

(١) دهشت وتحيرت.

(٢) البداية والنهاية، ٥/ ٢٤٢.

وفي رواية على المنبر.. ورفع صوته بالتشهد.. التفت الناس إليه.. هذا صاحب رسول الله في الغار.. وإمامنا في الصلاة.. وأحب الناس إلى رسول الله ﷺ هلموا فلنستمع إليه فهو المسدَّد بعد رسول الله.. وهكذا انفضوا عن عمر وأقبلوا إليه.. وهنا ألقاها إليهم بعبارة فاصلة وجيزة.. من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات.. لله درك يا أبا بكر فما ينبغي للمحبة أن تصل إلى العبادة إلا مع الله.. ولقد أحببنا رسولنا كثيراً.. لكننا نحب الله أكثر لأنه ربنا ورب محمد. ويتلو الآية عليهم.. فيدهشون.. كيف غابت عنا الآية حتى كأنها لم تنزل في قرآننا؟! وما أحوجنا ونحن في غفلتنا سادرون.. إلى من يذكرنا بالآية التي تناسب الظرف الذي نحن فيه.. نحن في أمس الحاجة إلى فقه أبي بكر وتوازن أبي بكر..

ماذا حلَّ بك يا عمر.. أيها الفاروق لا تجزع.. فإن محمداً ﷺ لم يرحل وهو باق في قلبك وعقلك وخيالك.. لن تمضيَ سنوات حتى تقوم حارساً على أمته حريصاً على تمكين نهجه.. ناشراً في الآفاق هديه.. وبعد ذلك ليهنك الشهادة.. وليهنك اللقاء مع الحبيب في الرفيق الأعلى..

أما نحن فماذا نقول..؟!

* * *

الزهراء تبكي أباها

عن أنس قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة: واكراب أبتاه!! فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم» فلما مات قالت: يا أبتاه.. أجاب ربّاً دعاه.. يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه.. يا أبتاه إلى جبريل ننعاه.. فلما دفن قالت فاطمة: يا أنس أطابت أنفسكم أن دفنتم رسول الله ﷺ في التراب ورجعتم[1]..؟!

---

(١) رواه البخاري.

أشرٌ أريد بنا أم خير؟!

وعن أنس قال: ذهب رسول الله ﷺ إلى أم أيمن زائراً وذهبت معه فقربت إليه شراباً، فإما كان صائماً وإما كان لا يريده فردَّه. فأقبلت على رسول الله ﷺ تضاحكه. فقال أبو بكر بعد وفاة النبي ﷺ لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها، فلما انتهينا إليها بكت. فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله.. قالت: والله ما أبكي (على ذلك) ولكن أبكي أن الوحي انقطع من السماء فهيجتهما على البكاء(١) فجعلا يبكيان.

ها هي أم أيمن تنتبه إلى قضية انقطاع الوحي بوفاة رسول الله ﷺ.. وبذلك يدخل المسلمون مرحلة جديدة عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم فيها.. فلقد كان الوحي يأخذ بأيديهم ويدلهم على الحلول.. لكنه قد توقف الآن..

أم أيمن حزينة تتحسر على انتهاء هذه المرحلة التي كانت فيها حياتهم تتصل بالسماء بشكل مباشر.. لكن الله أراد لهذا الإنسان خيراً حين ختم النبوة والوحي بالقرآن.. إنه يقول للإنسان: لقد بلغت رشدك ويمكنك أن تمشي دون يد تمسك بك وتقودك.. إنك ستهتدي بوحي جديد يكشفه عقلك الراشد.. إنه وحي آيات الآفاق والأنفس.. ولئن توقفت آيات الكتاب عن النزول فإن آيات الآفاق والأنفس مستمرة في الظهور والانكشاف.. ولكن للذين يعقلون..

وتأمل قول أبي بكر لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها..؟!

ولا تربطهما بها قرابة إلا أخوة الإيمان..! إن أبا بكر ﷺ يدرك أن من واجبه أن يزور أختاً مؤمنة ويواسيها.. هكذا فهم الصديق دينه وهكذا تعلم من هدي نبيِّه. فمن أين جاء التشدد في حجب المرأة وفصلها عن عالم الرجال..؟! وفي عصرنا حتى الآن يتجادلون - في بلدان عربية كثيرة - هل يحق للمرأة التصويت في الانتخابات..؟!

---

(١) رواه مسلم.. وقد اختصرت كلامها ضمن (...).

وكانت وفاة النبي ﷺ في يوم الإثنين ضحىً أو في آخر النهار.. في الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة.. ودفن في ليلة الأربعاء.. وكان قد غسل بقميصه في يوم الإثنين وكفن ولبث يوماً كاملاً والمسلمون يدخلون عليه جماعة تلو جماعة يصلون عليه.. رجالاً ونساءً وولداناً.. ثم دفن في غرفة عائشة رضي الله عنها.. وفي المكان الذي قبض فيه. وكان عمره ثلاثاً وستين سنة هجرية على أشهر الأقوال.

* * *

٦- لقطات أخيرة

يباشر إلغاء الرِّق..

وتقول عائشة ﵂: ما ترك رسول الله ديناراً ولا درهماً ولا أمة ولا عبداً ولا شاة ولا بعيراً[١].

وتقول أيضاً ﵂ إن رسول الله اشترى طعاماً من يهودي إلى أجل ورهنه درعاً من حديد[٢]. وتوفي النبي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين[٣]. وفي رواية: بثلاثين صاعاً من شعير.

وعن ابن عباس أن عمر دخل على النبي ﷺ وهو على حصير قد أثّر في جنبه فقال: يا نبي الله لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا؟ فقال: «ما لي وللدنيا، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها»[٤]. وكانت له حصة في أراضي بني النضير وخيبر وفَدَك. تقول عائشة ﵂ إن أزواج النبي ﷺ حين توفي رسول الله ﷺ أردن أن يبعثن عثمان إلى أبي بكر ليسأله ميراثهن فقالت عائشة: أليس قد قال رسول الله ﷺ: «لا نورث ما تركناه صدقة»[٥]؟!

---

(١) البداية والنهاية، ٥/ ٢٨٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٥/ ٢٨٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٥/ ٢٨٣.

(٤) رواه الإمام أحمد.

(٥) البخاري ومسلم.

وعن أبي بكر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا نورث ما تركنا صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال»[١] أي مما يخرج من الأراضي التي كانت حصة للنبي ﷺ؛ وذلك بأن يحدد الخليفة من يتولى الإشراف على الأراضي وإخراج مؤونة أهل بيت النبي ﷺ والتصدق بالباقي.. والله أعلم. وقد تولى أبو بكر الإشراف عليها في حياته.. ويفهم من هذه الأخبار أنه ﷺ أراد لنفسه وأهل بيته التجرد من متاع الدنيا والاستعلاء عليها.. ولقد أعتق كل ما وقعت يمينه عليه من إماء وعبيد.. حتى يقال: إنه أعتق ثلاثاً وستين رقبة.. تدشيناً لتحرير العبيد وإنهاء للرِّق.

* * *

غيض من فيض..

من مواليه: سفينة. وكان مولى لأم سلمة فأعتقته واشترطت عليه أن يخدم رسول الله ﷺ حتى يموت.. فقبل ذلك وقال: لو لم تشترطي عليَّ ما فارقته. وسفينة لقب أطلقه عليه رسول الله ﷺ حتى غلب عليه. يقول: كنا مع رسول الله فمررنا بواد - أو نهر - فكنت أعبِّر الناس. فقال لي رسول الله ﷺ: «ما كنت منذ اليوم إلا سفينة»[٢].

ومنهم سلمان الفارسي.. وقصته مشهورة في البحث عن الحقيقة قبل لقائه بالنبي ﷺ إلى أن صار لرجل من يهود المدينة. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أسلم سلمان، وأمره ﷺ فكاتب سيده اليهودي، وأعانه رسول الله ﷺ على أداء ما عليه فنسب إليه وقال: «سلمان منا أهل البيت».. وكان أهل العلم لا يشكّون أنه عاش مئتين وخمسين[٣].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) البداية والنهاية، ٥/ ٣١٥ - ٣١٦.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٥/ ٣١٥ - ٣٣١٦.

ومنهم ضميرة الحميري.. وقد مرَّ رسول الله ﷺ على أم ضميرة وهي تبكي فقال لها: «ما يبكيك؟ أجائعة أنت، أعارية أنت؟» قالت: يا رسول الله فُرِّق بيني وبين ابني.. فقال رسول الله ﷺ: «لا يفرق بين الوالدة وولدها» ثم أرسل إلى الذي عنده ضميرة فدعاه فابتاعه منه ببكر.. وكتب كتاباً لأبيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. كتاب من محمد رسول الله لأبي ضميرة وأهل بيته، إنهم كانوا أهل بيت من العرب. وكانوا ممن أفاء الله على رسوله فأعتقهم. ثم خير أبا ضميرة إن أحب أن يلحق بقومه فقد أذن له وإن أحب أن يمكث مع رسول الله ﷺ فيكونوا من أهل بيته، فاختار الله ورسوله ودخل في الإسلام فلا يعرض لهم أحد إلا بخير. ومن لقيهم من المسلمين فليستوصِ بهم خيراً» وكتب أبي بن كعب[1].

هذه الأخبار تصور لنا مقدار هيمنة نظام الرّق في ذلك العصر.. وكيف تصدى رسول الله ﷺ بنفسه لزحزحة هذا النظام.. سواء بحسن المعاملة أو بالتحرير بقدر ما يستطيع.

* * *

اعِنّي على نفسك..

أما الذين خدموا رسول الله ﷺ فكثيرون تطوعاً من أنفسهم حرصاً على الأجر من الله وحباً بمرافقة رسول الله والتعلم منه.. منهم أنس بن مالك الذي جاءت به أمه أم سليم إلى النبي ﷺ وقالت: (هذا ولدي أنس يخدمك).. ومنهم بلال بن رباح مؤذن الرسول ﷺ.. ومنهم عبد الله بن مسعود.. وهذا خبر يرويه أحدهم وهو ربيعة بن كعب الأسلمي.. يقول: كنت أخدم رسول الله ﷺ نهاري أجمع حتى يصلي عشاء الآخرة فأجلس ببابه إذا دخل

(١) المصدر السابق، ٥/٣١٧ - ٣٢٢.

بيته أقول لعلها أن تحدث لرسول الله حاجة، فما أزال أسمع رسول الله ﷺ يقول: «سبحان الله وبحمده» حتى أملَّ فأرجع، أو تغلبني عيناي فأرقد. فقال لي يوماً - لما يرى من حقي (لعلّها [حبّي]) له وخدمتي إياه -: «يا ربيعة بن كعب سلني أعطك» فقلت: أنظر في أمري يا رسول الله ثم أعلمك ذلك. ففكرت في نفسي فعرفت أن الدنيا منقطعة وزائلة وأن لي فيها رزقاً سيكفيني ويأتيني، فقلت: أسأل رسول الله لآخرتي؛ فإنه من الله بالمنزل الذي هو به. فجئته فقال: «ما فعلت يا ربيعة؟» فقلت: نعم يا رسول الله أسألك أن تشفع لي إلى ربك فيعتقني من النار. قال: «من أمرك بهذا يا ربيعة؟» فقلت: لا والذي بعثك بالحق ما أمرني به أحد.. فصمت رسول الله طويلاً ثم قال لي: «إني فاعل فأعني على نفسك بكثرة السجود»[1].

فهذا رجل قد فرغ معظم وقته لخدمة رسول الله ﷺ.. يخدمه في النهار فإذا أمسى جلس على بابه لعله يحتاج شيئاً.. فلا يزال يسمع التسبيح والحمد من النبي ﷺ.. وأراد النبي ﷺ أن يكافئ ربيعة.. فيطلب ربيعة الشفاعة في الآخرة.. ويصمت النبي ﷺ قليلاً.. ماذا يقول له؟! لقد وعده أن يعطيه سؤله.. لكنه طلب أمراً عظيماً لا يقدر النبي ﷺ على البت فيه..!! ويأتي الرّد النبوي الرائع: «إني فاعل فأعني على نفسك»..

فالرسول ﷺ عند وعده.. على أن تبذل ما تقدر عليه. فتعال نتعاون على قهر نفسك الأمارة بالفزع إلى الله والتذلل بين يديه..

ومنهم المقداد بن الأسود الذي يحدثنا خبره، قال: قدمت المدينة أنا وصاحبان فتعرضنا للناس فلم يضفنا أحد، فأتينا إلى النبي ﷺ فذكرنا له فذهب بنا إلى منزله وعنده أربعة أعنز، فقال: «احلبهن يا مقداد، وجزئهن أربعة أجزاء، وأعط كل إنسان جزءاً» فكنت أفعل ذلك، فرفعت للنبي ﷺ ذات ليلة، فاحتبس

---

(١) رواه الإمام أحمد.

واضطجعت على فراشي فقالت لي نفسي: إن النبي ﷺ قد أتى أهل بيت من الأنصار، فلو قمت فشربت هذه الشربة، فلم تزل بي حتى قمت فشربت جزأه، فلما دخل في بطني وتقارَّ أخذني ما قدم وما حدث، فقلت: يجيء الآن النبي ﷺ جائعاً ظمآن فلا يرى في القدح شيئاً، فسجيت ثوباً على وجهي. وجاء النبي ﷺ فسلم تسليمة تسمع اليقظان ولا توقظ النائم، فكشف عنه فلم ير شيئاً، فرفع رأسه إلى السماء فقال: «اللهم اسق من سقاني وأطعم من أطعمني» فاغتنمت دعوته وقمت فأخذت الشفرة فدنوت إلى الأعنز فجعلت أجسهن أيتهن أسمن لأذبحها، فوقعت يدي على ضرع إحداهن فإذا هي حافل، ونظرت إلى الأخرى فإذا هي حافل، فنظرت فإذا هنَّ كلهن حفل، فحلبت في الإناء فأتيته به فقلت: اشرب. فقال: «ما الخبر يا مقداد؟» فقلت: اشرب ثم الخبر، فقال: «بعض سوءاتك يا مقداد» فشرب ثم قال: «اشرب» فقلت: اشرب يا نبي الله، فشرب حتى تضلَّع ثم أخذته فشربته. فلما عرفت أن رسول الله ﷺ قد روي فأصابتني دعوته، ضحكت حتى ألقيت إلى الأرض.. فقلت: يا رسول الله كان من أمري كذا، صنعت كذا. فقال النبي ﷺ: «هذه بركة منزلة من السماء، أفلا أخبرتني حتى أسقي صاحبيك؟» فقلت: إذا شربت البركة أنا وأنت فلا أبالي من أخطأت(١)..!!

خبر طريف يحكيه المقداد عن نفسه.. نلاحظ فيه بعضاً من أخلاق رسول الله ﷺ..

فرسول الله يستضيف المقداد وأصحابه ويتقاسم معهم لبن الأعنز بالعدل. لكن المقداد يشعر بعدم الاكتفاء، وتحدثه نفسه بشرب نصيب النبي ﷺ، وتدخل الحيل النفسية على الخط.. فلا بد أن الأنصار قد أطعموا النبي ﷺ وسقوه وإلا فلم يطيل السهر عندهم.. وهكذا تغلبه نفسه فيشرب حصة النبي ﷺ. ويبدأ

(١) رواه الإمام أحمد.

الضمير بالتأنيب.. فيغطي وجهه متظاهراً بالنوم.. وكأنه يخبئ ذنبه.. وانظر إلى أدب النبي الجم.. يدخل فلا يترك السلام ولا يوقظ النيام، وإنما يسلِّم سلاماً يسمع اليقظان ولا يوقظ النائم. وحين لا يجد شرابه وهو جائع وظمآن.. لا يغضب ولا يصخب بل يناجي ربَّه داعياً أن يهيئ له من يسقيه وأن يسقي من يسقيه.. والمقداد مكور تحت الغطاء يكاد يذوب.. لكن دعاء النبي ﷺ ينشط همته وذكاءه.. فيسعى إلى الأعنز.. ويفاجأ بها حافلة بالدَّرّ.. إنها رحمة الله تسعفه.. وبركة دعاء النبي ﷺ.. ويدهش النبي ﷺ وفي رواية يقول: «أما شربتم شرابكم الليلة يا مقداد»؟ لكن المقداد يتملص ويوجل حتى يشرب النبي ﷺ ويسكت عنه الجوع والعطش. ويدرك النبي ﷺ أن وراء المقداد شيئاً.. «بعض سوءاتك يا مقداد».. أدرك أنك فعلت شيئاً..!! ويضحك المقداد حتى ينقلب على الأرض..

وانظر إلى النبي ﷺ بعد أن عرف القصة.. لا يلوم ولا يعلّق.. لكنه يعاتب المقداد.. لقد كان هذا اللبن رحمة وبركة من الله فلم لم تخبرني القصة من قبل.. لكنا أيقظنا صاحبيك وأشركناهما معنا في الشرب.. لكن المقداد يتابع على سجيته.. إذا شربت أنا وأنت البركة فلا أبالي..

صلوات الله وسلامه عليك أيها الحبيب.. قلبك يتسع للجميع في الجد والهزل ولا ترضى بأن تتفرد بالخير من دون أحد من أصحابك.

* * *

تعلّم كتاب يهود

وأما كتّاب الوحي فيعددهم ابن كثير في تاريخه. ومنهم الخلفاء الراشدون الأربعة وأرقم بن أبي الأرقم وثابت بن قيس وأبي بن كعب الذي قال له رسول الله ﷺ: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن» قال أبي: وسمّاني لك

يا رسول الله؟ قال: «نعم» فذرفت عيناه(١).. كيف لا يبكي وربه يذكره ويعطيه شهادة تزكية ويندبه لخدمة القرآن؟

ومنهم زيد بن ثابت بن الضحاك - من بني النجار - وكان ابن إحدى عشرة سنة عندما قدم رسول الله إلى المدينة. وكان حافظاً لبيباً.. جاؤوا به إلى رسول الله وقالوا: يا رسول الله هذا غلام من بني النجار معه مما أنزل عليك بضع عشرة سورة فأعجب ذلك رسول الله وقال: «يا زيد تعلم لي كتاب يهود فإني والله ما آمن يهود على كتابي». قال زيد: فتعلمت لهم كتابهم ما مرت خمس عشرة ليلة حتى حذقته وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه، وأجيب عنه إذا كتب(٢).

ويبدو من السياق أن النبي ﷺ أمره أن يتعلم لغة اليهود كتابة وقراءة وكان ﷺ لا يثق باليهود - من شدة غدرهم - حتى يكلفهم بقراءة الرسائل الواردة بلغتهم.. أو يكلفهم بكتابة - أو ترجمة - ما يريد إرساله إلى اليهود.. وهذا الأمر النبوي ينبغي إحياؤه بحيث يصبح تعلم اللغات الأخرى واجباً دينياً وخاصة في عالمنا الذي توصل إلى أساليب راقية في الاتصالات الدولية..

وزيد هذا يظهر عبقرية في التعلم والحفظ.. حتى إنه يتقن لغتهم في أسبوعين.. ويصبح ممن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ من القراء. وقد روي حديث عن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدها في دين الله عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأقضاهم علي بن أبي طالب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأعلمهم بالفرائض زيد بن ثابت، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة»(٣).

---

(١) ورد في الصحيحين.
(٢) رواه الإمام أحمد.
(٣) رواه الإمام أحمد.

وفي هذا الحديث نجد رسول الله ﷺ وهو يعرف ميزة كل واحد من أصحابه - وخاصة القريبين منه - وهذا ما يجعله قادراً على تحقيق أهدافه إذ يعرف كيف يضع الرجل المناسب في المكان المناسب. ثم إنه حين يذكر ميزة كل واحد يرفع معنوياتهم ويشعرهم بتقديره لهم جميعاً.. ويبصرهم بمواهبهم وقدراتهم كي يبدعوا ويحققوا الأفضل.

ثم إن أبا بكر أمر زيداً هذا أن يتتبع القرآن فيجمعه ففعل في خلافته.

❁ ❁ ❁

محمد ﷺ مع زوجاته

وتحدثنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن الرسول ﷺ قال لها يوم العيد والحبشة يلعبون في المسجد بالدرق (التروس) والحراب: تشتهين تنظرين؟ قلت: نعم. فأقامني وراءه خدي على خده.. وهو يقول: دونكم يابني أرفدة[1].. (يشجعهم).

ويذكر أنس أنه كان لرسول الله ﷺ جار فارسي طيب المرق، فصنع للنبي طعاماً ثم جاء يدعوه فقال ﷺ: «وهذه؟» لعائشة. فقال الفارسي: لا. فقال ﷺ: «لا». ثم عاد يدعوه، فقال مثل ذلك. ثم عاد يدعوه فقال مثل ذلك فقال: نعم في الثالثة. فقاما يتدافعان حتى أتيا منزله[2].

وتقول عائشة رضي الله عنها كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن. فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس، فَغِرْتُ فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل، فسقت النبي ﷺ منه شربة.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم.

فقلت: أما والله لنحتالنَّ له، فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك فإذا دنا منك فقولي: أكلت مغافير؟ فإنه سيقول لك: لا، فقولي له: ما هذه الريح التي أجد؟ فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل، فقولي: جرست (أكلت) نحله العرفط (شجر صمغه المغافير له رائحة كريهة). وسأقول ذلك، وقولي له أنت يا صفية ذلك.. (وأطعن عائشة ففعلن ما قالت لهن)، فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله ألا أسقيك منه؟ قال: «لا حاجة لي فيه».

تقول سودة: والله لقد حرمناه. قلت لها: اسكتي[1].

وفي حديث آخر أن التي سقته العسل كانت زينب بنت جحش وأن عائشة وحفصة هما اللتان تواطأتا على ذلك[2]. والله أعلم.

وعن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرَّمها، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ [التحريم: ٦٦/١][3].

وعن ابن عباس قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى عنهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التحريم: ٦٦/٤] حتى حج عمر وحججت معه.. فلما كان ببعض الطريق عدل.. ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله فيهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ فقال عمر: واعجباً لك يا بن عباس (قال الزهري كره والله ما سأله ولم يكتمه) قال: هما عائشة وحفصة. قال: ثم أخذ يسوق الحديث قال:

كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم.. فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه النسائي.

تراجعني فأنكرت.. فقالت: ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل. فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم. قلت: وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم. قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر! أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت؟! لا تراجعي رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئاً وسليني من مالي ما بدا لك ولا يغرَّنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله ﷺ منك (يريد عائشة). وكان لي جار من الأنصار، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ؛ ينزل يوماً وأنزل يوماً فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك. وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي يوماً ثم أتى عشاء فضرب بابي ثم ناداني فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم. فقلت: وما ذاك؟ أجاءت غسان؟ قال: لا بل أعظم من ذلك؛ طلق رسول الله ﷺ نساءه. فقلت: قد خابت حفصة وخسرت قد كنت أظن هذا كائناً. حتى إذا صليت الصبح شددت عليَّ ثيابي، ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي. فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ؟ فقالت: لا أدري هو ذا معتزل في هذه المشربة. فأتيت غلاماً له أسود فقلت: استأذن لعمر، فدخل الغلام ثم خرج إلي فقال: ذكرتك له فصمت. فانطلقت حتى أتيت المنبر فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم، فجلست عنده قليلاً ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر.. (فعل مثل المرة الأولى ثلاث مرات) فإذا الغلام يدعوني فقال: ادخل قد أذن لك، فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رمال حصير وقد أثر في جنبه، فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إلي وقال: «لا» فقلت: الله أكبر، ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم. فغضبت على امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني فقالت: ما تنكر أن أراجعك.. (وأكمل

الخبر للنبي) فتبسم رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله قد دخلت على حفصة فقلت: لا يغرنك (وتابع الخبر) فتبسم أخرى. فقلت: أستأنس يا رسول الله؟ قال: نعم. فجلست فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا أهب مقامه. فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله. فاستوى جالساً وقال: «أفي شك أنت يا بن الخطاب. أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، فقلت: استغفر لي يا رسول الله. وكان أقسم ألّا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل[(١)].

لعله يشير إلى ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ٦٦/١].

ونساء النبي كنَّ من البشر فطلبن النفقة. وتألم رسول الله ﷺ من ذلك حتى احتجب عن أصحابه، فأقبل أبو بكر ﷺ يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر ﷺ فاستأذن فلم يؤذن له. ثم أذن لأبي بكر وعمر ﷺ فدخلا والنبي جالس وحوله نساؤه وهو ﷺ ساكت، فقال عمر ﷺ: لأكلمنَّ رسول الله ﷺ لعله يضحك. فقال عمر ﷺ: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها! فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال: «هنَّ حولي يسألنني النفقة» فقام أبو بكر ﷺ إلى عائشة ليضربها وقام عمر ﷺ إلى حفصة كلاهما يقولان: تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده؟! فنهاهما الرسول ﷺ فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده. قال وأنزل الله عز وجل الخيار فبدأ ﷺ بعائشة فقال: «إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك» قالت: وماهو؟ قال: فتلا عليها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ قالت عائشة رضي الله عنها: أفيك أستأمر أبويَّ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله. وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترتُ. فقال ﷺ: «إن الله تعالى لم يبعثني معنفاً ولكن بعثني معلماً ميسراً. لا تسألني امرأة منهن عما اخترتِ إلا أخبرتها»[(١)] واختارت نساؤه كلهن الله ورسوله.

- هذه الأخبار تجعل حياة النبي ﷺ الشخصية مكشوفة أمام الجميع.. متابعةً في التعليم.

- ونجد فيها حرصه على إسعاد زوجاته وإيناسه لهن ولطفه معهن وصبره عليهن؛ حتى إنه يأبى دعوة جاره الفارسي.. ويُصر على أن تشاركه زوجته في حضور الطعام.

- وكان ﷺ إنساناً له عواطفه ورغباته فهو يحب العسل.. ويحب جاريته مارية.. لكن حرصه على أناقته وطيب رائحته يجعله يحرم أن يأكل العسل عند زينب (أو حفصة) مرة أخرى. ويرى غيرة نسائه من مارية تحتد وتشتد.. فيحرمها على نفسه..

- وحرص النبي ﷺ على إسعاد زوجاته يجعله أحياناً يحرم نفسه من بعض الحلال.

- وهن يجادلنه أحياناً ويغضبن منه.. وهو يصبر عليهن.. إلى درجة عجيبة.. حين أقرأ الأخبار السابقة أتساءل: هل في الناس من يداري زوجته إلى هذا الحد؟!

- ويغضب منهن مرة - ربما عندما ألححن في طلب النفقة أو عندما أفشت واحدة منهن سراً له ونبأت به - فيقسم ألا يدخل عليهن شهراً.. صلوات الله وسلامه عليك أيها الحبيب.. فلقد صبرت عليهن كثيراً.. ولا بد من إشعارهن بضرورة عدم التمادي.

---

(١) أخرجه مسلم.

- ثم إنك أيها الحبيب قد اخترت لنفسك حياة الزهد: فأنت تؤثر المسلمين على نفسك.. وتؤثر الجهاد والصبر طلباً لما عند الله.. وعليهن أن يفكرن ويخترن.. فإما الحياة الدنيا.. وإما الله ورسوله..

- ورسول الله ﷺ مشفق من عائشة أن يغلبها صغر سنها فلا تقدر عواقب الأمور، وهو يحبها ويكره فراقها.. فيبدأ بتخييرها ويقول: لا تستعجلي حتى تسألي أبويك..

- صلوات الله وسلامه عليك أيها الحبيب.. أفيك أستأمر أبوي؟

وهل في الدنيا امرأة تؤمن بالله حق الإيمان.. يتاح لها أن تحظى بمعاملة على هذا المستوى الرفيع من الحب والحلاوة.. وممن؟ من رسول الله.. وتكون زوجته في الدنيا والآخرة.. وأمّاً للمؤمنين.. هل يمكن أن تترك هذا كله وتختار الدنيا...؟!

* * *

٧- ما السر؟

أعود بعد كل ما سبق لأتساءل: ما العامل الأساسي في نجاح دعوة محمد ﷺ حتى إنه أنشأ مجتمعاً ربانياً قفز من هامش البداوة إلى قلب الحضارة في زمن قياسي وخلال خمسين عاماً تقريباً..؟! لاشك بأن لقوة القرآن وصحة مبادئه الأثر الأكبر.. لكن كثيرين قد رفعوا شعار العودة للقرآن ولم ينجحوا..!!

لكن محمداً ﷺ لم يكن القرآن بالنسبة إليه شعاراً يرفع وكلمات تتردد.. بل كان (خلقه القرآن).. وهنا بيت القصيد. فلقد كان للقمة الأخلاقية التي يتحلى بها النبي ﷺ أكبر الأثر في نجاح دعوته واقتداره على التغيير.. ولقد مرت بنا أمثلة كثيرة عن مواقفه الناضحة بالأخلاق.. وقد أوجز ذلك عبد الله بن عمرو حين قال: إن رسول الله موصوف في التوراة بما هو موصوف في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه حتى يقيم به المِلَّة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله ويفتح أعيناً عمياً وآذاناً صمّاً وقلوباً غلفاً[(١)].

- ويقول أنس: «كان رسول الله ﷺ إذا صافح أو صافحه الرجل لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع يده، وإن استقبله بوجهه لا يصرفه عنه حتى يكون الرجل ينصرف عنه، ولا يرى مقدماً ركبته بين يدي جليس له»[(٢)].

---

(١) البداية والنهاية، ٣٦/٦.

(٢) البداية والنهاية، ٣٩/٦.

- وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً، إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر».

- وسئلت عائشة ﵂: كيف كان رسول الله ﷺ في أهله؟ فقالت: كان ألين الناس، وأكرم الناس، وكان ضحاكاً بساماً. وقالت أيضاً: كان ﷺ بشراً من البشر يفلي ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه[1].

- ويقول أنس: كان للنبي حادٍ يحدو بنسائه يقال له أنجشة. فحدا فأعنقت الإبل (أي أسرعت) فقال رسول الله ﷺ: ويحك يا أنجشة ارفق بالقوارير[2].

هذا غيض من فيض من لطفه وأدبه وخلقه.. فكيف لا يملك قلوب الناس؟.. إنه التخلق بأخلاق القرآن هو سر النجاح.. لأن القرآن يعلمنا سنن التغيير:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١٣/ ١١].

- ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩].

- ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٤-٣٥].

- ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٤].

والقرآن قد وضع خطة للدعوة والدعاة التزمها رسول الله ﷺ وقد بدأت من:

- ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ [العلق: ٩٦/ ٣-٤].. ثم:

---

(١) البداية والنهاية، ٦/ ٤٤.

(٢) المصدر السابق، ٦/ ٤٧.

- ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق: ٩٦/ ١٩].. ثم:
- ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥].. ثم:
- ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ٤/ ٧٧] .. ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٦].. ثم:
- ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٧]...

وجاءت عواقب هذا الالتزام بالسنن باهرة وعظيمة البركة.. وكل من مشى على هذا النهج موعود من الله بالفلاح والنجاح. ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ بالشر أو الخير.

* * *

الخاتمة

وبعد.. فقد انتهيت.. ولكني ما بدأت.. فالحديث عن الحبيب المصطفى لا ينتهي.. وأشعر أنني ما كتبت فيه ما هو أهل له.. ولا ما يرضيني.. ذكرت ذلك لأستاذي جودت سعيد فقال: ولن ترضي عما تكتبين في يوم من الأيام.. ولن تكتبي كل الحقيقة.. ولابد أن يأتي من بعدك من يكتب المزيد والأفضل والأشمل.. وفي الأعمال الإنسانية لا توجد (أعمال كاملة)..

ارتحت لهذا الكلام.. وانشرح صدري لتقديم ما كتبت إلى الطباعة والنشر على أنه خطوة على طريق فهم منهج النبي ﷺ وسنته في التغيير والبناء، فنحن في أمس الحاجة إلى الاهتداء بهديه ﷺ.

وكنت قد بدأت الكتابة في هذا البحث بتاريخ ٤/١٩٩٩م وها أنا أنهيه في ٦/ ٢٠٠٠م. علماً بأنني لم أتفرغ له كلياً خلال هذه المدّة..

فلله الحمد والمنة على ما أمدني به من دأب وما سددني به من الصواب وأستغفره سبحانه وتعالى عما وقعت به من خطأ وتقصير.. وكلي أمل بأن يغلب الصواب على الخطأ والنفع على الضرر.. واثقة بسنّة الله تعالى ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٣/ ١٧].

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢/٢٨٦].

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ٢/١٢٧].

دمشق ٢٧- حزيران ٢٠٠٠م

ربيع الأول ١٤٢١هـ

حنان اللحام

الفهارس العامة

- فهرس الآيات
- فهرس الأحاديث
- الفهرس العام

فهرس الآيات

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾	[البقرة: ٢/ ٢٠٨]	١٩٢
﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾	[البقرة: ٢/ ٢٤٧]	٧٢٨
﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾	[البقرة: ٢/ ٢٥٧]	٧٧٠
﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾	[البقرة: ٢/ ٢٦٩]	٤٨٤
﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾	[البقرة: ٢/ ٢٨٦]	٧٧٢
﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾	[آل عمران: ٣/ ١٩]	٤٤٩، ٤٥٠
﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾	[آل عمران: ٣/ ٢٩]	٦٩٧
﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾	[آل عمران: ٣/ ٦١]	٦٥٨
﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾	[آل عمران: ٣/ ٦٤]	٤٧٨
﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾	[آل عمران: ٣/ ٦٧]	٥٢٩
﴿۞ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾	[آل عمران: ٣/ ٩٣]	٤١٨

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧)﴾	[النساء: ٤/٧٧]	٥٢، ٧٧٠
﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣)﴾	[النساء: ٤/٨٣]	٢٥٠، ٢٥٢
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)﴾	[النساء: ٤/٩٤]	٤٣٦
﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧)﴾	[النساء: ٤/٩٧]	١٦٨
﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣)﴾	[النساء: ٤/١٢٣]	١٥٦
﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)﴾	[النساء: ٤/١٣٥]	٤٤
﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾	[النساء: ٤/١٤٠]	٢٨٥
﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)﴾	[المائدة: ٥/٣]	٧١٧

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾	[الأعراف: ٧/ ١٢٩]	٥٦، ٢٨٥
﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾	[الأعراف: ٧/ ١٣٩]	٥٥٠
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾	[الأنفال: ٨/ ١]	٢٢٠
﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾	[الأنفال: ٨/ ٩-١٠]	٢١٠
﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾	[الأنفال: ٨/ ٣٠]	١٣٣، ٢٨٨
﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾	[الأنفال: ٨/ ٤١]	٥٧٤
﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾	[الأنفال: ٨/ ٦٠]	٢٧٠، ٣٧٥
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾	[الأنفال: ٨/ ٦٥]	٥٥٨
﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾	[الأنفال: ٨/ ٦٧]	٢١٦
﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾	[الأنفال: ٨/ ٦٨]	٢١٦
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾	[الأنفال: ٨/ ٧٠]	٢١٩

﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم (٢٢)﴾	[النور: ٢٤/٢٢]	٣٦٩
﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (٥٥)﴾	[النور: ٢٤/٥٥]	٤٩
﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم (٦٢)﴾	[النور: ٢٤/٦٢]	٣٧٠
﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (٦٣)﴾	[الفرقان: ٢٥/٦٣]	١٤٩
﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين (٣) إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين (٤) وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين (٥) فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون (٦) أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم (٧) إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (٨)﴾	[الشعراء: ٢٦/٣-٨]	٤٧
﴿قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين (١٨)﴾	[الشعراء: ٢٦/١٨]	١٩٨
﴿وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين (١٩)﴾	[الشعراء: ٢٦/١٩]	١٩٨
﴿قال فعلتها إذا وأنا من الضالين (٢٠)﴾	[الشعراء: ٢٦/٢٠]	١٩٨
﴿وأنذر عشيرتك الأقربين (٢١٤)﴾	[الشعراء: ٢٦/٢١٤]	٣٨
﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين (٢٦)﴾	[القصص: ٢٨/٢٦]	١٤٩
﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون (٥٢) وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين (٥٣) أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون (٥٤) وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين (٥٥)﴾	[القصص: ٢٨/٥٢-٥٥]	٧٧

﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝﴾	[فصلت: ٤١/٣٥]	٧٦٩
﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾	[الزخرف: ٤٣/٣١]	٢٦
﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝﴾	[الجاثية: ٤٥/١٣]	٢٦٩
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾	[الأحقاف: ٤٦/١٦]	٦٥٠
﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝﴾	[محمد: ٤٧/٤]	٣٣٦، ٤٣٩
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾	[محمد: ٤٧/٧]	٥٦٠
﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝﴾	[الفتح: ٤٨/١٨]	٣٩٢، ٣٩٩، ٤٠٣
﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝﴾	[الفتح: ٤٨/٢٦]	٢٨٥
﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾	[الفتح: ٤٨/٢٧]	٤٤٢، ٤٤٤
﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝﴾	[الفتح: ٤٨/٢٩]	٦٨٧
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝﴾	[الحجرات: ٤٩/٤-٥]	٦٤٩
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝﴾	[الحجرات: ٤٩/٦]	٢٨٤

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير (١٣)﴾	[الحجرات: ٤٩/١٣]	٦٢، ٥٣٠
﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين (١٧)﴾	[الحجرات: ٤٩/١٧]	٦٨٨
﴿فذكر فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون (٢٩)﴾	[الطور: ٥٢/٢٩]	٩٢
﴿والنجم إذا هوى (١) ما ضل صاحبكم وما غوى (٢)﴾	[النجم: ٥٣/١-٢]	٧٨
﴿ثم دنا فتدلى (٨)﴾	[النجم: ٥٣/٨]	٩٤
﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى (٣٨)﴾	[النجم: ٥٣/٣٨]	٢٨٤
﴿هذا نذير من النذر الأولى (٥٦) أزفت الآزفة (٥٧) ليس لها من دون الله كاشفة (٥٨) أفمن هذا الحديث تعجبون (٥٩) وتضحكون ولا تبكون (٦٠) وأنتم سامدون (٦١) فاسجدوا لله واعبدوا (٦٢)﴾	[النجم: ٥٣/٥٦-٦٢]	٧٩
﴿اقتربت الساعة وانشق القمر (١) وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر (٢) وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر (٣)﴾	[القمر: ٥٤/١-٣]	٩٨
﴿وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير (١٠)﴾	[الحديد: ٥٧/١٠]	٦٤٥
﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون (١٦)﴾	[الحديد: ٥٧/١٦]	٣٧
﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير (١١)﴾	[المجادلة: ٥٨/١١]	٢٧١
﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم (١٢)﴾	[المجادلة: ٥٨/١٢]	٣٥١
﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار (٢)﴾	[الحشر: ٥٩/٢]	٢٨٩

فهرس الأحاديث

فهرس عام

أبي بن خلف

الاجتهاد

الأجل

أحد

الأخلاق

الأخنس بن شريق

الأذان

أربد بن نعيس

الأزد

أسامة بن زيد

الإسراء

الأسرى

أسعد بن زرارة

أسماء بنت أبي بكر

أسماء بنت عميس

أسيد بن حضير

مستخلص

يتناول هذا الكتاب معالم ومواقف من هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، وكيف اختار الله النبي محمداً صلى الله عليه وسلم وأعده فكرياً ونفسياً وأخلاقياً واجتماعياً.

ويتحدث عن نزول الوحي وبدء التكليف بالدعوة وخطتها في مكة، وعالميتها، وظهورها، والمقاطعة القرشيّة للمؤمنين، وهجرة بعضهم، ومواساة الله للنبي صلى الله عليه وسلّم في عام الحزن بالإسراء والمعراج، أول رحلة فضائية للإنسان، والهجرة إلى المدينة وتأسيس المجتمع المؤمن فيها.

ويسجل الإذن بالقتال وبدء السرايا والغزوات مع التأمل في بدايتها وفي غزوات بدر وأحد والخندق ونقض اليهود لعهودهم، وحكم سعد بن معاذ في بني قريظة.

ويتناول أحداثاً في الحبشة، وزواجاً بأمر الله، وأخبار بني المصطلق، والغارة على المدينة، ومنع قريش النبي صلى الله عليه وسلّم من أداء العمرة، والتوصل إلى صلح الحديبية، ثم الخروج إلى خيبر وإنهاء الكيان السياسي لليهود في الجزيرة، وأداء النبي صلى الله عليه وسلم عمرة القضاء، وإسلام عمرو بن العاص، ويبحث في غزوة مؤتة، وإرسال النبي صلى الله عليه وسلم الكتب إلى ملوك الدول ورؤسائها.

ويعرض لفتح مكة وحصار الطائف وغزوة تبوك، وعام الوفود وعام البعوث، وإمارة أسامة بن زيد الشاب على جيش فيه كبار الصحابة، وحجة الوداع وخطبته فيها، وآخر وصاياه، وموقف الناس وأبي بكر الصديق من موته، مع لقطات أخيرة في مباشرته إلغاء الرق، وأمره بتعلم كتاب يهود، وبيان السر في نجاح الدعوة الإسلامية في دروس راقية تزخر بالحياة.

Abstract

This book handles features and attitudes of the Prophetic biography guidance in the field of social change and how Allah, the Great and the Almighty, chose and prepared Prophet Muhammad (pbuh) him intellectually, psychologically, morally and socially.

It talks about the descent of revelation, the start of the commission of the Call, its scheme in Mecca, its internationality and appearance, the Qurayshite boycott of the Believers, the immigration of a group of them, Allah's consolation of the Prophet in the Year of Sorrow through the Night Journey and the Ascent to the highest heavens in the first human space voyage, the Immigration to Medina and establishing the believing society there.

It registers the permission of fighting, the beginning of forays and expeditions with meditation on their start and on the expeditions of Badr, Uhud and al-Khandaq in particular, and the Jews' breach of the contract of the scroll and Sa'd Ibn Mu'adh's judgement on Bani Qurayzah.

It also deals with the events that took place in Abyssinia, a marriage that Allah enjoined, the news of Bani al-Mustaliq, the raid against Medina, Quraysh's prevention of the Prophet (pbuh) from performing the 'Umrah [minor pilgrimage], attaining Hudaybiyah Reconciliation, setting off to Khaybar and putting an end to the political Jewish entity in Arabia, the Prophet's performance of Qada' 'Umrah and the Islamization of 'Amr Ibn al-'As, and it discusses Mu'tah Expedition and the Prophet's dispatching messages to the kings and chiefs of other countries.

Besides, it deals with Mecca Conquest, Ta'if Siege, Tabuk Expedition, the year of coming delegations and that of the sent delegations, Usamah Ibn Zayd's leadership of an army in which the most prominent Companions participated, the Farewell Pilgrimage and the Prophet's sermon therein, his last counsels, people's attitudes, especially Abu Bakr's, towards the Prophet's death along with final snapshots of the Prophet's start to abolish slavery, his orders as regards learning the Jews' Book and elucidating the secret of the success of the Islamic Call in lessons that are supreme and lively.

GUIDANCE OF THE PROPHETIC BIOGRAPHY TO SOCIAL CHANGE

Hadī al-Sīrah al-Nabawīyah fī al-Taghyīr al-Ijtimaʻī

Ḥanān al-Laḥḥām

- "إنه الرجل الوحيد في التاريخ الذي حقق أعظم نجاح على المستويين: الديني والدنيوي".

مايكل هارت في كتابه (المئة الأوائل في التاريخ)

- لقد ألهمت السيرة النبوية ملايين البشر على مر العصور، في مجال تطوير الذات الإنسانية: مادياً وروحياً، وعلى الصعيدين: الشخصي والجماعي.

- وعلى الرغم من كثرة الأبحاث التي قدمت بكل اللغات، على مدى أربعة عشر قرناً، عن شخصية الرسول ﷺ، وعبقريته: نبياً مرسلاً، وحاكماً سياسياً، وقائداً عسكرياً، وباني حضارة عالمية ما تزال تتنامى.. فإن سيرته لم تكتمل كتابتها بعد، ولا تزال ملهمة للأجيال التي كان يرنو ببصره إليها من فوق جبل الرحمة في حجة الوداع؛ يخاطبها - مخترقاً حجب الزمان والمكان - :

- ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فلعل من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه.

- ولسوف يجد القارئ في هذا الكتاب: ومضات اجتماعية وتنموية في السيرة النبوية، تلمحها مربية عانت مشكلات الحضارة الراهنة، وتقدمها لأجيال جديدة تتطلع - على هديها - إلى بناء عصر جديد!!

ISBN 978-9933-10-501-3
9 789933 105013

دار الفكر المعاصر

دار الفكر